الشيعة في العالَم
الجغرافيا البشريّة وظهيرها التاريخي

الـــكـــتــــاب: **الشيعة في العالَم الجغرافيا البشريّة وظهيرها التاريخي**

المــــؤلــــف: الشيخ د. جعفر المهاجـر

الــــنـــــاشر: مركز بهاء الدين العاملي للابحاث والدراسات ـ بعلبك

البريـد الألكتروني: **Dr.jaafarmohajer@gmail.com**

بعلبك هاتف (٠٠٩٦١٨٣٧٧٧٥٦)

الـطـــبـــعـــة: الأولى ٢٠١٩م ـ ١٤٤٠ هـ

تـصـمـيـم وإخـــراج وطـــبــــاعــــة: DB UK 00961 3 336218 info@dboukart.com

الشيعة في العالَم

الجغرافيا البشريّة وظهيرها التاريخي

جعفر المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد

ربِّ انفعني بما علّمتني واجعله لي

ولا تجعله عليّ



الفهرس

المقـدمة

(١)

ماذا نعني بـ «الجغرافيا البشريّة»؟

تُعنى الجغرافيا البشرية إجمالاً بدراسة توزيع المجتمعات البشرية في بقاعٍ بعينها. والأسباب السياسيّة أو المعاشيّة أو المعنويّة / الثقافيّة التي أدّت وقادت إلى الصورة السُكّانيّة القائمة بالفعل فيها. وبمدى التأثير المتبادل بينها وبين بيئاتها الطبيعية، والصُّوَر والبُنى الاجتماعية وأنماط الانتاج، الناجمة عن تفاعل الإنسان مع بيئته المحليّة. مثل توزيع السكان، ومُعدّلات التّكاثُر، وأنماط العمران... الخ. كما تشمل دراسة ضُروب النشاط البشري والمُؤثّرات فيه وتأثيره، والتركيب السياسي بوصفه ظاهرةً جغرافيةً تمثّل رُقعاً من سطح البسيطة. بالإضافة إلى دراسة أشكال التفاعل الدّاخلي / الثقافي لمجموعةٍ بشريّة تستوطنُ بقعةً بعينها مَنظوراً إليه باعتبارٍ أو غيرِه: ديني، سياسي، اجتماعي، بوصف كلٍّ من هذه مؤثّراً على البشر الذين يقطنون بقعةً بعينها.

بالنسبة لبحثنا سنولي الاهتمام للمُتغيّر السُّكّاني للشيعة الإماميّة حيثما حلّوا في مختلف الاقطار والبلدان، ولمضمونه الثقافي وما تركه من مؤثّرات في هذا الحقل أو ذاك، في بقعةٍ أو في عدّة بقاع. وهذه، خصوصاً حيث تسلسلَ المُتغيّر بتأثير عاملٍ قويٍّ أوّل، كانت بمثابة البادئ، عنه نشأت سلسةٌ من المُتغيّرات المُتعاقبة نشطت في غير بقعة. وصولاً إلى الصورة السُّكانيّة لهم الآن.

(٢)

أمّا «الشيعة الإماميّة» فهم أُولئك الذين يجمع بينهم الاعتقادُ بأنّ فترة خاتمة الرسالات، بمعنى المصدر للنّصّ المُلزِم للمؤمنين على مَن هم حصراً مصدر التّشريع والأمر، بعد التنزيل وسُنّة النبي ﷺ طبعاً، هم سلسلةٌ من اثني عشر إماماً، أوّلهم علي بن أبي طالب عليه السلام (١٠ ـ ٤٠ هـ/ ٦٣١ ـ ٦٦٠ م)، وخاتمهم القائم محمد بن الحسن عجل الله فرجه (٢٦٠هـ/ ٨٧٣ م).

هذا التعريف يمنعُ دخولَ مَن انفصلوا عن السلسلة في أيّ حقبةٍ، باتجاه سلسلةٍ غيرها (الزّيديين، الإسماعيليين...الخ). ولكنّه لايمنعُ مَن عاصروا مرحلةً من مراحلها مؤمنين بإمام عصرهم من الاثنى عشر، وإنْ هم لم يُدركوا نهاية فترة الحضور العلني للأئمة سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، حيث اكتسبوا اسم (الاثنى

عشريين). مع أنّه لا سببَ لأن يوصفوا بأنهم (اثنى عشريّون) حقّاً، لأنهم لم يدركوا بعضَهم لاختلاف الزمان. ولا مُشاحّةَ في الاصطلاح.

بُغيتنا في الصفحات التالية أن نُزوِّدَ القارئَ بالصُّورة السُكّانيّة للشيعة الإماميّة، حيثما حلّوا في مختلف الأقطار والبلدان، بالنحو الذي يكفي أو يسمح باعتبارهم ظاهرةً سُكّانيّة، تملك عنصري الكَمّ والثّبات. بعد أن نُزوّده بما يؤدّي إليه البحث حيث أمكن بالخلفيّة / الظّهير التاريخيّ الكامن وراء الصورة السُكّانيّة كما هي قائمة بالفعل.

ذلك أنّ كلَّ صورةٍ سُكّانيّةٍ قائمةٍ بالفعل اليوم هي ثمرةُ مسارٍ حصل في الماضي (تاريخي). هذا المسار هو الذي يُحدّد أو يُساهم في تحديد معالم هُويّتها كما هي اليوم. المثالُ الأوضح والأكبر على ذلك هم الظاهرة الدينيّة الشيعيّة الإماميّة في الشام، حيث تساكن نمطان من التّشيُّع: التّشيُّع الفقهي ـ الكلامي، إلى جانب الذين أُسمّيهم بـ (التشيّع الشّامي)، الذين يُعرفون اليوم في (سوريا) و(الأناضول) بـ (العلويين)، وفي (تركيا) و (ألبانيا) و (البوسنة) و (بلغاريا) بـ (البكتاشيين). هؤلاء جميعاً شيعةٌ إماميّةٌ في الأساس ولا ريب، وما يزالون بمعنىً من المعاني. ولكنّ أهل (التشيُّع الشامي) انفصلوا، أو بالأحرى لم يُساهموا أو يتصلوا، بالحِراك الفكريّ الفائق الأهميّة الذي انطلق في مدينة (قُمّ)، ثم تطوّر في (بغداد) فـ (الحلّة) فـ (جبل عامل). بحيث أنتج الكلامَ والفقهَ الإماميين كما هما اليوم.

ذلك ما بيّنّاه بالتفصيل في كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسُه.

هؤلاء سنُشير إليهم بوصفهم شيعةً إماميّةً في مطاوي البحث بالمقدار الكافي الذي يحفظ حقّهم ويُناسبُ خطّة الكتاب.

(٣)

سنتخذ من التكوينات السياسيّة القائمة بالفعل، عناوين ودليلاً لنا نُتابعه في البحث. على الرغم من أنّنا نعرف أنّ بعض التقسيمات لا تُعبّر عن حالةٍ تاريخيّةٍ صادقة. وأنّ من المُتغيّرات وأسبابها ما قد حصل في بُقعةٍ مُختلفة أوسع بكثير. و (الهند) هي المثال الأكبر على ذلك، بعد أن باتت الآن مجموعةً من الدُّول. خضعت في تاريخها لمؤثّرٍ أساسيٍّ مُشتَرَك، بعضه ممّا يدخلُ في نطاق البحث. ومع ذلك فإنّنا رأينا أنّ من الأفضل والأقرب للفهم، مُراعاةً لوضع كلٍّ منها الحالي، أن نقرأ كلَّ حالةٍ من خلال الوضع السياسي المعمول به اليوم. مع أنّ هذه الخطّة ستكون سبب إرباك أحياناً. أخُصُّ بالذكر حيث يبدأ التغيير في العامل الجغرافي في ماهو اليوم مُكوّن سياسي، ولكنّ أثره بان في آخَر. والمثالُ على ذلك (جبل عامل) من (الجمهوريّة اللبنانيّة) اليوم، الذي نمت أكثرُ مادتُه السُّكّانيّة في (فلسطين) و (الأُردنّ)، ولكنّ حضوره تمّ فيما هو اليوم (الجمهوريّة اللبنانيّة) السياسي. ولذلك فإنّنا سنكون مُضطرّين إلى نظمه حيث بدأ.



(٤)

ثمّة مُشكلةٌ أساسيّةٌ ستعترضُ خطّةَ الكتاب إلى حَدّ الإرباك، لابدّ من الإشارة إليها في هذه المقدّمة.

المُشكلة هي الإحصاءات السُّكّانيّة التي هي العمود الفِقْري لبحثنا. إنّ هذه الإحصاءات، كما نقرأُها في مختلف المصادر، كثيراً ما تكون خاضعةً لاعتباراتٍ مُتحيّزة، مع أو ضدّ، تُحرّكها ذهنيّةُ التّكاثُر لدى صاحب الإحصاء، وبالمُقابل تقليلُ الآخَر خُضوعاً لاعتباراتٍ سياسيّةٍ ضيّقةٍ.

المثالُ النّافرُ على هذه المُشكلة، إلى حدّ استجهال واستغباء القارئ، الإحصاءاتُ المَزعومة (رسميّة) التي تُصدرها ما يُسمّى (مملكة البحرين) بمناسبةٍ وبدون مُناسبة، ابتغاء القول أن الشيعة في رقعتها هم أقلّيّةٌ بالقياس إلى غيرهم من المسلمين، أو أنّهم على الأقلّ ليسوا الأكثريّة كما هم بالفعل (!)، ابتغاء حرمانهم من حقّهم الطبيعي في أن يتمثّلوا في الصيغة السياسيّة والإداريّة القائمة بالحجم المناسب لعديدهم. وهو كلامٌ لا يُقنع أحداً. ومع ذلك يجري تكراره دون كلل.

ما من حلٍّ سحريّ يصلحُ لمعالجة هذا النّمط من المُشكلات. وسنعملُ على معالجةِ كلَّ مشكلةٍ منها على حِدَه. آخذين في الاعتبار مواصفاتها الخاصّة، وما قد يتوفّرُ لدينا من مصادر مختلفة للمعلومات.

الشكرُ لله سبحانه على ما وفّق إليه وأعان في هذا العمل الذي دخلته مُتهيّباً، على الأقلّ لأنه غير مسبوق، فضلاً عن نُدرة المصادر لمادته وانحيازها غالباً. ومع ذلك فقد رأيتُ في العمل عليه من الألطاف بحيث أنهيته في غضون سنتين تقريباً. ولولا المساعدة الثمينة واليوميّة، التي لقيتها من أحبّاء لي، طوال فترة العمل في الكتاب، لكان إنجازه من المستحيلات.

ثم الشكر للعشرات من الأصدقاء والمعارف من مختلف الأقطار، الذين زوّدوني بالمعلومات المباشرة أثناء التقائي بهم، في المؤتمرات أو في مُضطربات الحياة، أو أكثر ماكان بالمراسلة وبالخطاب بالهاتف أو بالبريد الألكتروني. فكانت غالباً من أهمّ وأوثق مادة الكتاب.

والحمد لله

الفصل الأوّل

النّواةُ البشرية الأُولى للتشيّع

«تمكّن الشيعةُ أوّلاً في العراق»

(فلهوزن: تاريخ الإمامية /٨٣)

(١) الحجاز وموقعه من البحث

مع أنّنا نعرفُ أن الكثيرين من أهل مهبط الرسالة (الحجاز)، قد وقفوا بعد وفاة النبي ﷺ عند تنويهاته الكثيرة، وخصوصاً آخرها وذروتها بيعة يوم الغدير، القاضية بأنّ الإمامةَ من بعده هي حصْراً للإمام علي عليه السلام، ـ مع ذلك فإنّ ثباتَهم بقي حالاتٍ فرديّةً، لم تؤدِّ إلى ظاهرةٍ سُكّانيّةٍ عريضةٍ، بحيث يمكن البناء عليها والبَدءُ منها في تتبُّع انتشار التّشيُّع جغرافيّاً كما سيحصلُ بالفعل. حتى مع الأخذ بعين الاعتبار القبائلَ التي أعلنت اعتراضها عملانيّاً على نتائج يوم السقيفة، بمنع الزكاة عن السُلطة الجديدة. ليس لأنّها ارتدّت عن الإسلام، كما شنّعتها السُلطةُ ورأسُها قريش، بل لأن أكثرها على الأقلّ بنَتْ موقفَها الاعتراضي على السُلطة الجديدة أنّ هذه هي غير الشرعيّة الآهلة للقبضِ عليها، بحسب ما هيّأ له ودبّره رسول الله ﷺ وبايعوه عليه يوم الغدير. الأمرُ الذي يُفسّرُ لنا العنف والقسوة البالغة الذي قُمعتْ فيه تحت عنوان الرّدّة، بحيث عجزت عن الاستمرار. فعجزت بالنتيجة عن استيلاد الظاهرةِ السُكّانيّة المناسبة.

سيكون علينا أن ننتظر بضع عقودٍ من السنين من وفاة رسول الله ﷺ كيما نرى مدينة (الكوفة)، بوصفها أوّلَ تجمّعٍ مدينيّ شيعيّ في (دار الإسلام)، والمُنطلَق الرئيس لانتشار التشيّع منه شرقاً وغرباً، بحيث اكتسبت صفة ما عبّرنا عنه في العنون أعلاه بـ «النّواة الأُولى»، التي قد تستولدُ الدّوحةَ ثم الغابةَ. على أنّ هذه الصفة للمدينة لا تعني حَصْرَ كلّ المُنطلَقِ بها. وسيأتي لهذا الكلام مزيدُ بيان في مطاوي البحث إن شاء الله.

(٢) تمصيرُ الكوفة

المُتداوَلُ بين أهل التاريخ، أن (الكوفة) مُصّرت كيما تكون مِنصّة قفز للمُقاتلين، شرقاً باتجاه المنطقة الفارسيّة، وغرباً باتجاه الرُّقعة الرّوميّة في (الشام). هذا كلامٌ صحيحٌ ولاريبً. لكنّه يتجاهل غرضاً مدنيّاً ـ سياسيّاً للسُلطة من تمصيرها، هو أنّه منذ السنة التاسعة المُسمّاة عام الوُفود، بات (الحجاز) مصبّاً لهجراتٍ كثيفةٍ أكثرها قادمٌ من الجنوب. الأمرُ الذي هدّد بقوّة وفي الصّميم السيطرة السُكّانيّة (والسياسيّة ضمناً) لقريش. فلجأ عُمر إلى استيعاب المهاجرين في منطقةٍ نائيةٍ، تحت عنوان وإغراءات الفُتوح. كمَن يُشغل طفلاً بحلوى يتلهّى بها عن الإزعاج. وفي هذا السّياق أمرَ بتمصير (البصرة)، التي تُطِلُّ من موقعها على (إيران). ثم (الكوفة) المُطلَّة على (الشام) الرُّوميّ، ابتغاء إبعاد الوافدين عن المركز السياسي للدولة حيث السيطرة القُرشيّة التّامّة. ولكنّه لم يلتفت إلى أنّه، بسياسته المُحاصَرَة في القبيلة ومصالحها الآنيّة، سيضعُ كلّ ما عدا (الحجاز) وما والاه تحت تأثير مجموعات بشريّةٍ مُتفوّقةٍ عريقةٍ في الحضارة، وأكثرَ خبرةً مدينيّة بما لايُقاس من قومه. وبذلك أسّس من حيث لايقصد ولا يرغب لإزاحة (الحجاز) وأهليه عن مواطن التأثير السياسي، كما سيحصلُ بالفعل بعد قليل.

(٣) التركيبة السُكانيّة للكوفة

أغلب العناصر التي نزلت الكوفة أتت من (اليمن) وخصوصاً من (حضرموت) (همْدان، طيّ، بجيلة، الأزد، مَذحج، خثعم... الخ). ثم نزلها أربعةُ آلافٍ من الفُرس، هم بقيّة الجيش الفارسي الذي نجا من الهزيمة السّاحقة التي حاقت بهم، بعد أن تخلّى عنهم قادتهم، وانهزم مَن بقي منهم حيّاً باتجاه الهضبة الإيرانيّة[١]. بالإضافة إلى أخلاطٍ من أبناء القُرى المُجاورة، أغلبهم من السريان / النبط ورثة الحضارات العراقيّة المُتعاقبة، سامريّة وبابليّة وكلدانية. التي منحت البشريّة معارفها الأُولى في الزراعة والفلك والتقاويم والرياضيّات والهندسة والطب.

هذه التركيبة البشريّة البالغة التُنوّع، بما تحمله من تجربةٍ حضاريّة خصبة، انصبّت في المدينة الجديدة. الأمرُ الذي كان له من التأثيرات الجمّة ما يستحقُّ ان يكون موضوعَ بحثٍ مُستقلّ. ولنكتفِ هنا بذكر أنّ في (الكوفة) وُضع الخطُّ العربيّ الأوّل، الذي سيُعرف، وما يزال، بالخطّ الكوفي. وعنه تطوّرت كلُّ الخطوط الأُخرى الكثيرة. وفيها حصلت أوّلُ بوادر الثورةِ السياسيّة على النّمط القَبَلي للحكم الذي سار عليه الخليفةُ الأُموي عثمان، الأمرُ الذي ما كان يمكن أن يحصل في ظلّ الذهنيّة القبَليّة المُسيطرة على شبه جزيرة العرب إجمالاً. أي لولا أن التراث الحضاري اليمني ـ العراقيّ، بمضمونه النبطي العريق، امتشق تراثه في وجه القبيلة وثقافتها.

---

(١) البلاذري: فُتوح البلدان / ٢٧٩.

(٤) الشعوب اليمانيّة وموقعها من مشروع الإمام علي عليه السلام

لهذا الاعتبار أيضاً، فيما يبدو لنا، اختار الإمامُ علي عليه السلام (الكوفة) لتكونَ موطنَ وحاضنةَ ومنطلق مشروعه السياسي، دون (الحجاز) الذي لم ولن يتحرّر من السيطرة السُكّانيّة ـ السياسيّة لقريش. وهي التي لم تنفكّ في الحاضر، ولن تنفكّ في المستقبل عن النّظر إلى الإسلام بوصفه فقط العامل السياسي الذي أزاحها عن موقعها المُسيطر.

في هذا السّياق من التأمُّلات نُلاحظ أن الشعوب (نؤكّد: ليست القبائل) التي وقفت مع الإمام ضدّ ثُلاثيّ الناكثين ـ القاسطين ـ المارقين. وهم همْدان وطيّ ومَذحج، جميعها يمانيّة. وحدها ربيعة، وفي رأسِها طبعاً بطن عبد القيس التي ترجع بأُصولها المكانيّة إلى شرق شبه الجزيرة العربيّة على الخليج الفارسي، ليست يمانيّة. ومع ذلك فإنّها، في موقعها التاريخي المُتوسّط بين رقعتي الحضارتين الفارسيّة واليمانيّة، ما من شكٍّ في أنّها قد تلقّت منهما من المؤثّرات ما أبعدها عن الروح والعقليّة القَبَليّة العربيّة الحصريّة. ولذلك فإنّها لم تجِدْ أدنى صعوبة في أن تندمج اندماجاً كاملاً في المشروع السياسيّ المُتقدّم للإمام.

ثم لا يفوتنّنا أن نُلاحظَ، أنّه بعد أن وصل مشروعُ الإمام السياسيّ إلى طريقٍ مَسدودٍ في (الكوفة)، حمّلَه رجلاً يمانيّاً، هو صاحبُه وصفيُّه مالك الأشترالمَذحجي، ليكون المُؤتمَنَ على تنفيذه في (مصر)، بالنظر إلى أنّها أيضاً أرض حضارةٍ عريقة. وذلك اختيارٌ منه نرى أنّه أخذ فيه بعين الاعتبار، بالإضافة إلى الصّفات الأخلاقيّة والشخصيّة للأشتر، وإخلاصَه المُطلق لشخص الإمام، واستيعابه لمشروعه، ـ أخذ فيه بعين الاعتبار خلفيّته الحضاريّة اليمانيّة، الأكثر استعداداً وقابليّةً لاستيعاب مُعطيات مشروع الإمام، الذي أودعه وصيّته الشهيرة إليه. فضلاً عن التراث الحضاري الكامن في (مصر).

في هذا النّطاق من العمل الاندماجي المُتجاوز للقبيلة وذهنيّتها، بدأت (الكوفةُ) تنضج، بحيث باتت غير بعيد مدينةً ذات رسالة، هي الإسلامُ المُحمّدي الأصيل، الذي يُمثّله الإمام علي عليه السلام. حتى مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلالات العميقة التي خضعت لها يوم (كربلا) الرهيب.

ومع أنّ معاوية قد عمل بدهاء ما بعده دهاء على إعادة تفتيت مُجتمع (الكوفة) إلى ما هو أدهى من القبيلة وذهنيّتها، ممّا يخرجُ بسطُ الكلام عليه عن غرضنا الآن، وبيّنّاه في كتابنا كربلا إليكم الحقيقة، فإن ما رسخَ في المدينة أثناء المدّة القصيرة التي أمضاها الإمامُ فيها، قد أهّلها لتكون النّواة الأُولى، التي ستُنبتُ أوّلَ مركزَين شيعيين خارج الأرض العربيّة التاريخيّة. سيكون لهما، في المستقبل غير البعيد، من الحضور الباهر ماهو مُستمرٌّ فاعلٌ حتى اليوم.

وليكُنْ هذا السّرْد البالغ الإيجاز مدخلَنا للبدء بقراءة الانتشار الشيعي الإمامي في العالم، الإشكاليّة الأساسيّة لهذا الكتاب.

الفصل الثاني

همْدان الشعب المؤسّس

لهمْدان أخلاقٌ ودينٌ يزينُها

(الإمام علي عليه السلام من قصيدة له)

(١) الشعبُ المهاجر

«همْدان» عَلَمٌ سبأيٌّ على شعبٍ من شعوب (اليمن) (نُصِرٌ على كلمة «شعب» مُقابل كلمة «قبيلة»). المقطع الثاني من اسمها «ان» أداة التعريف في اللغة السّبأيّة، مثله مثل خولان، لحيان، كهلان، غمدان... الخ. «كانت ديارهم في اليمن من شرقيّه. ولمّا جاء الإسلام تفرّقَ مَن تفرّق منهم، وبقي مَن بقي في اليمن»[(١)]. ويُفهم من هذا، أنّ جزءاً يُعتّدُّ به من همْدان هاجر من مرابعه الأصليّة باتجاه (الحجاز). ومن هناك جرى ضمّهم إلى البُعوث المُتجهة شرقاً بذريعة المُشاركة في الفُتوح.

كانت (الكوفةُ) مركزَ التّجمُّع الرئيس لهمْدان خارج شرق (اليمن). وذلك بعد أن شاركوا، وإن متأخرين، في الاعمال العسكريّة ضد الفرس في (العراق)، فنزلوا مدينة الخيام الحديثة التّمصير، شأنَ غيرهم من المُقاتلين، بعد أن حقّقت الأعمال العسكريّة الغايةَ المنشودةَ منها.

ثم أنهم لأمرٍما آثروا سُكنى (الكوفة) على (البصرة)[(٢)]. فـ «لم يكُن في البصرة أحدٌ من بني همْدان»[(٣)].

---

(١) ابن خلدون: العِبرَ، ط. بيروت ١٩٦١: / ٥٢٠. لكنّ انتشارهم في اليمن كان أوسع بكثيرمن شرقيّه حضرموت. انظر: هشام جعيط: الكوفة نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة، ط. بيروت ١٩٩٣ / ٢٠٥.

(٢) السمعاني: الانساب، مادة (همْدان).

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ط. بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م / ٢٠٣.

وأيضاً «لم يكُن بصفين منهم (أي من بني همْدان) أحدٌ مع معاوية وأهل الشام»[1]. وربما كانت هذه الحقيقة من جملة الأسباب التي دعت الإمام علي عليه السلام إلى اتخاذ (الكوفة) قاعدةً لحكمه بعد يوم الجمل، بالإضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل من هُويّة المدينة المُتنوّعة، التي تضربُ جذورُها إلى خلفيّات حضاريّة عريقة، أقدر بحكم ذاكرتها الجمعيّة على تقديرومُساندة المشروع السياسي للإمام. خلافاً لـ (الحجاز) الذي ظلّ أسيرَ وضعه القَبَليّ المُغلَق على عقل ونزعات القبائل وتركيبها الهرمي وما يزال.

(٢) الهمْدانيّون في الكوفة

ماذا عن الهمْدانيين في موطنهم الجديد؟

التّساؤلُ يتعلّق بحجم وجودهم هناك. فكم كان؟

ما من إحصاءاتٍ دقيقةٍ يمكن الاستناد إليها في الجواب. لكنّنا نعرفُ إجمالاً أنّ عدد الذين نزلوها من المسلمين كان بين خمسة عشر وعشرين ألفاً، قسمهم عمرُ بن سعد على سبع خِطط، وأن همْدان فازت بسُبعِها[2]. فإذا نحن افترضنا العدالة في توزيع رُقعة الأرض على النّازلين، وهو فرضٌ مقبولٌ ما دام ينسجمُ مع طبيعة الأُمور، ولا دليلَ على عكسه، فإنّنا نصِلُ إلى أن عدد الهمْدانيين الذين نزلوا (الكوفة) مع أو بُعيد تمصيرها كان في حدود أربعة آلاف رجل.

لكنّ اليعقوبي، وهو ذلك البُلدانيّ والمؤرّخ الذي لا يجوز تجاهل قوله في هذا الشأن، يقول في معرض كلامه على توزيع النّاس عند تمصير المدينة: «وتفرّقت همْدانُ بالكوفة»[3]. والجمعُ بين الخبرَين غير عسير. فهذا يتحدّث عن توزيع القبائل العفوي ـ العشوائي عندما شرع الناسُ ينزلونها.

أمّا ذاك، فإنّه يهتمّ بالتشكيلات التي تلت، وتولّت توجيهها والتخطيط لها السُلطةُ المركزيّةُ في «المدينة». بالنسبة إلى ما نُعالجه الآن، فإنّ نصّ اليعقوبي لا يقلُّ دلالةً على الحجم الكبير الذي لهمْدان بين نُزّال (الكوفة). ذلك أنّها، وهي التي وصلت متأخّرةً فيما يبدو، لم تجِدْ مكاناً يتّسعُ لها، فتفرّقت في مواضع متعدّدة.

هذه النتيجة التي وصلنا إليها من طريقيَن مختلفيَن، يُعزّزها نصٌّ يرِدُ عَرَضاً لدى ابن مُزاحم، يصِفُ فيه بني أسد بأنهم «حيُّ الكوفة بعد همْدان»[4]. ومن المعلوم أن أسد من أكبر عشائر (الكوفة). وما تزالُ حتى اليوم أكبرَ عشيرةٍ فيها وفي ريفها الخصيب.

فهذا يدلُّ على المكانة المرموقَة التي احتلّتها همْدان في المدينة الجديدة بما لها من عديدٍ كبير.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، نشرة الجامعة اللبنانيّة ١٩٦٦: ٣/ ٢٨٤.
(٢) فتوح البلدان/ ٣٥٠. وانظر: ماسينيون: خطط الكوفة، الترجمة العربيّة، ط. صيدا ١٩٤٦/ ١٥.
(٣) البلدان، ط. النجف ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٧م/ ٧٠.
(٤) وقعةُ صفّين، ط. مصر ١٣٨٢/ ٣١١.

(٣) وشيجةُ ما بين الإمام وهمْدان

ثمة عنصرٌ آخر فيما يتصلُ بهمْدان، معنويٌّ هذه المرّة وفي الغاية من الأهميّة، ساهم في ارتفاع شأن همْدان في الكوفة، ينبغي إضافته إلى الاعتبار الكمّي، بل هو مُتقدّمٌ عليه، لعلاقته بما سيأتي، وخصوصاً لعلاقة هذا السّرد التاريخي بإشكاليّة الكتاب الأساسيّة.

نعني بذلك الوشيجةَ الخاصّة المتينة التي شدّت عُرى العلاقة بينها وبين الإمام علي عليه السلام.

ذلك أنّه في شهر رمضان السنة ١٠ هـ / ٦٣١م وجّه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الإمامَ إلى (اليمن)، لدعوة أهلها إلى الدّخول فيما دخلت فيه القبائلُ، بعد أن ذاع أمرُ الإسلام في شبه الجزيرة قاطبة. فلمّا انتهى الإمامُ ومَن معه إلى أوّل (اليمن)، بلغ أهلها الخبر، فجمعوا له (أي اجتمعوا ليخاطبهم بخطابٍ واحد). بينما لم يكترثوا بخالد بن الوليد، الذي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وجّهه بالمُهمّة نفسها. فأقام بينهم ستة أشهر لا يجيبونه فقرأ الإمامُ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فأسلمت همْدانُ كلّها في يومٍ واحد. ثم تتابع أهلُ اليمن على الإسلام.

وتقولُ خاتمة الخبر، أنّه كتب بذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فلمّا قرأ رسولُ الله الكتابَ خرّ ساجداً، ثم جلس فقال: «السّلامُ على همْدان. السّلامُ على همْدان»[1]. ومن بعد بقي الإمام في (اليمن) مدّةَ ثلاثة أشهر تقريباً. ليعود من ثَمّ إلى (الحجاز) في موسم الحجّ. وليحجّ مع النبي حجة الوداع. وفي طريق العودة إلى «المدينة»، أمر النبيّ بالبيعة له يوم الغدير. وبعد بضع أيام بدأت عوارض المرض تظهر عليه، وأمر ببعث أُسامة إلى (الشام). ليلتحقَ بالرفيق الأعلى في أواخر صفر أو أوائل ربيع الأوّل من السنة التالية.

الخبر يقولُ الكثيرَ صراحةً، ولكنّه يُضيفُ ضمناً إضافةً هامةً إلى الوقائع المَشهودة، لَمن يُحسِنُ التّمعُّن.

(٤) قراءةٌ تاريخيّةٌ للخبر

فلنُلاحظ أنّ هذه هي المرّة الوحيدة التي أرسل فيها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمامَ بمُهمّةٍ من هذا القبيل.

ثم أنّ الهمْدانين ما أن بلغهم أن القادمَ من قِبَل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الإمامُ علي عليه السلام، حتى تخلّوا عن التّحفُّظ أو الموقف غير المُكترث الذي اتخذوه تجاه خالد، مع أنّ المُرسِل هو النبي في الحالتين. فسارعوا إلى الجَمْع له، ومن ثَمّ أجابوه بأحسن القبول.

المُلاحظتان تنطويان على موقفٍ إيجابي مؤسِّسٍ سابقاً من شخص الإمام. لانعلم ما هي خلفيّتَه. ولكنّنا ما نشكُّ في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعرفه أو أنّه قد هيّأه، وعلى كل حال فإنّه أخذه في الاعتبار.

---

(١) تاريخ الطبري، ط. دار المعارف بمصر، لا ت.: ٣/ ١٣١ ـ ٣٢. والخبر برواية شاهد عِيان هو الصحابي البَرَاء بن عازب.

ثم علينا أن نُلاحظَ أيضاً، أنّ توجيه الإمام إلى (اليمن) خصوصاً، عن غير سابقةٍ من مثلِها، يأتي في سياق بَدء مجموعةٍ من التدبيرات، اتخذها النبي ﷺ بالتوالي، تحضيراً لِما بعد وفاته. الأمرُ الذي يطرحُ على المُتأمّل سؤالاً:

هل كان توجيهه، بما أحاط به من مُلابسات، جزءاً من تلك التحضيرات، وهو الذي كان يعرفُ جيّداً موقف شيوخ قُريش من شخص الإمام. ولذلك أمر بإبعادهم إلى (الشام). ولذلك أيضاً اهتمّ وربما سعى وهيّأ لتوجيه الإمام إلى (اليمن) لتكون همْدان قاعدةً له كما سيحصل بالفعل، وكلُّ ذلك ممّا كتمته أسرارُ التاريخ؟

مهما يكُن جوابنا عن هذه التساؤلات المُقلِقة، وسواءٌ رأى الرّاؤن فيها مُجرّد مُتوالياتٍ حَدَثيّة، أو رأى غيرهم تدبيراً مقصوداً بشريّ أو غير بشريّ، ـ فإنّ الذي لا ريب فيه، أن تلك الأشهر التي أمضاها الإمام بين بني همدان كانت حَدَثاً ساطعاً ما تزال تداعياتُه عاملةً حتى اليوم. بالنظر إلى دور همْدان في حياطة والدّفاع عن مشروع إمامها. ثم بالنّظر إلى دورها في نشْر التشيُّع في ربوع (الشام) كما سنعرف، ثم تداعياته العالقة حتى اليوم، ممّا سنقفُ عليه في مطاوي الصفحات الآتية إن شاء الله.

أصابت همْدانُ فترتَها الذهبيّة مع ارتفاع شأن (الكوفة). حيث آل أمرُ المدينة إلى أن تصبح عاصمة الدولة الإسلاميّة النّاهضة ومركز الخليفة والمؤسّسات والمراكز العاملة معه. بعد أن كانت مُجرّد تجمُّعٍ للمقاتلين، أملَتْ استحداثه ظاهراً ضروراتٌ تعبويّةٌ، لم يعُد لها الآن كبير اعتبار.

في تلك الفترة القصيرة، العامرة بجسائم الأحداث، صارت همدان صاحبة الدّور المُنيف، الذي لا يُدانيه دورُ أيّ قبيلة أُخرى في ما يُسمّى معسكر العراق، مُقابل معسكر الشام بقيادة معاوية.

في السّلم كان منها خواصُّ أصحاب الإمام عليه السلام ورجال إدارته وشرطته. وفي الحرب، خصوصاً في وقعة صفّين، وما أدراك ما صفّين!، كانوا عِمادَ قوّته المُقاتلة. التي عندما انفرط عقد نظامها إثر داهية التحكيم، فخرج منها المُحكّمة، ومال قسمٌ ضمناً إلى معاوية، ظلّتْ همْدانُ على إخلاصها وثباتها، لم تحِدْ، ولم تهُنْ، ولم تبدّل.

في تلك الأيام اكتسبت همْدان، بكامل الجدارة والاستحقاق، الصورةَ التي دخلت فيها التاريخ، بوصفها مُوالية لخطّ الإمام. لكن هذه الصورة هي التي ستكون سببَ هجرتِها الثانية، من (الكوفة) إلى (الشام) هذه المرّة، وبهذه الصفة ستدخلُ الكتابَ من أوسع الأبواب.

الفصل الثالث

الهجرةُ الهمْدانيّةُ إلى الشام

طينةُ الشيعة من الكوفة

الإمامُ الباقر عليه السلام

(١) انهيار المشروع السياسي الإسلامي

كانت خديعة التّحكيم بدايةَ انهيار المشروع السياسي، الذي حمل لواءه الإمامُ علي عليه السلام. ثم أنّ الانهيار وصل إلى ذروته باغتيال الإمام الحسن عليه السلام بوصفه آخرَ مُمثّلٍ للمشروع عمل عليه بنيويّاً. ثم تتابعت عوامل الانهيار، كجدار فقد أساسه فتداعى حجراً إثر حجر.

ينقلُ الطبري عمّن روى عنه: «أدركتُ الناسَ وهم يقولون، إنّ أوّلَ ذُلٍّ دخل الكوفة موتُ الحسن بن علي، وقتلُ حُجر بن عَديّ، ودعوةُ زياد»[1]. ولنفهم «الذُّل» في العبارة بمعنى اليأس والإحباط، بوصفهما حصيلةً تراكميّة من توالي تلك الأحداث الثلاثة. والعبارةُ، على اختصارها، تُقدّم تقريراً وافياً بانطباعات الناس في (الكوفة) المهزومة عن هذه المحطّات السياسيّة الثلاث. وتُعبّر بوضوح لا لَبسَ فيه عن فهمهم وتقويمهم لمسار الأُمور.

إن صحّ ذلك، وهو صحيحٌ دون ريب، فما من شكٍّ في أنّ همْدان كانت لديها أسبابٌ كثيرة لكي ترى نفسَها الموضوعَ الأوّلَ لأعمال معاوية الانتقاميّة، الرّامية إلى تبديل وجه المدينة التي قاومته وتصدّت لمراميه. وذلك بحُكم السُّمعة التي كسبتها همْدان عند معاوية في ذلك النِّطاق بجدارة وبمواقفها المَشهودة.

---

(١) الطبري: ٤ / ٢٠٨.

(٢) همْدان في عين العاصفة

لسنا ندري ما الذي حدث بالتّحديد لهمْدان في (الكوفة) بعد الهزيمة الكاسحة. لكنّنا نتفهّم جيّداً، أن بيئة المدينة المَهزومة لم تعُد المكانَ المُلائمَ لهـا. وعلى كلّ حال، فإنّ جذورها لم تكُن قد ضربت عميقاً في التُّربة الكوفيّة الهشّة. وهي التي لم تنزلها قادمةً من (اليمن) إلا منذ ما يقلّ عن ثلاثة عقود.

لكن فلنُلاحظُ أنّها لم تعُد تُذكَرُ في المواقف، دون أن يقول أحدٌ أين ذهبت. وكأنّها ضاعت بأكملها.

لم نرَ الهمدانيين في يوم (كربلا) الرهيب سنة ٦١هـ، إلا أفراداً في فريق ابن سعد، وأقلّ منهم شهداء بين يدي الإمام الحسين عليه السلام. وذلك أمرٌ لاحظه الطبري ضمناً، وهو يُحصي القبائلَ التي شاركت في المذبحة، والحصادَ الذي خرجت به كلّ قبيلةٍ منها. حيث قال: «ولمّا قُتل الحسين عليه السلام، جيء برؤوس مَن قُتل معه من أهل بيته وشيعته وأنصاره إلى عُبيد الله بن زياد. فجاءت كندةُ بثلاثة عشر رأساً. وجاءت هوازنُ بعشرين رأساً. وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً. وجاء بنو أسد بستة رؤوس. وجاءت مَذحج بسبعة رؤوس. وجاء سائرُ الجيش بسبعة رؤوس»[١].

المغزى هنا بالنسبة لنا الآن أنّه لم يذكر همْدان في هذا الحصاد. الأمرُ الذي يُفهم منه أنّها لم تأتِ بمثل ما أتى به غيرُها، لأنّها لم تكُن هناك بعديدٍ يُذكَر. كذلك الأمرُ في حركة التّوّابين، ثم في حركة المُختار التي رفعت شعار الاقتصاص ممّن شرك بدماء شهداء (كربلا). ثم ثورة ابن الأشعث الهائلة الشّاملة التي جمعت الغاضبين على المظالم الفظيعة التي ارتكبها الحجّاج الثقفي في (العراق)، وخاضت معارك هائلة، انتهت بمذبحة يوم الجماجم.

فهذه أحداثٌ أربعة في الغاية من حيث الخطر، تتابعت أثناء ثلاثٍ وعشرين سنةٍ عدّاً (٦١ ـ ٨٣ هـ / ٦٨٠ ـ ٧٠٤م)، كلُّها كانت (الكوفة) ميدانَها. كما أنّها تنوّعت في المادّة والشّعار. وساهمت فيها كافّةُ التشكيلات القبَليّة باستثناء همْدان. الأمرُ الذي يدلُّ على أنّها لم تعُدْ هناك، أو أنّه لم يبقَ منها عديدٌ كافٍ يؤهّلها لدورٍ يُذكَر.

نختم هذه السلسلة من المُلاحظات بذكر حقيقةٍ سُكّانيّة تُضيءُ على الدّلالة التي خرجنا بها وتُعزّزُ نتيجتها ومغزاها. خلاصتها أنّ بني أسد يملأون اليومَ الفِجاجَ، على مدى أميالٍ كثيرةٍ من (الكوفة). لكن لا وُجود إطلاقاً لَمن ينتسبُ إلى همْدان في النطاق نفسه. مع أنّ بني أسد كانوا يأتون بالدرجة الثانية من حيث العدد بعد همْدان أيّامَ علي عليه السلام فيها، كما سلف منّا القول قبل قليل. بل لاوجود لاسم همْدان في كافة التنويعات النّسبيّة في (العراق) أمسِ واليوم على كثرتها. مايسمحُ لنا بأن نستنتج أنّها، بعد أن نزلت (الكوفة) سنة ١٧ هـ أو ما قاربها، ذلك النزول العريض، عادتْ فهجرتها بعيداً إلى غير رجعة. وأنّ هجرتها كانت شبه شاملة.

(١) الطبري: ٥ / ٣٥٨. بتصرُّف.




(٣) أين راحت همْدان؟

السؤالُ الذي بات يُلِحُّ علينا الآن، بعد أن وصل بنا البحثُ إلى هذه النتيجة، هو أين راحت همْدان؟ ونقولُ في الجواب بسرعة: إنّها اتجهت إلى أنحاء (الشام)، حيث سيكون لها دورٌ تاريخيٌّ يؤثَر في نشْر التشيُّع.

نقولُ ذلك على سبيل إراحةِ القارئ من وِقْع السؤال، دون أن يُغرينا ذلك بالدخول في تفصيل الكلام. ليس لأنّنا لا نعرفه، بل احتراماً منّا لِما تبانينا عليه مع القارئ في المقدمة، فقضى بأن نتناول وجوه تشكُّل الجغرافيا البشريّة للشيعة الإماميّة تحت عناوين التكوينات السياسيّة القائمة بالفعل. وليس حسب مواقعها التاريخيّة، وما انتهت إليه من متغيرات.

وعلى كل حال، فقد فصّلنا الكلام على هجرة همْدان إلى أنحاء (الشام) تفصيلاً، وما تركته من أثرٍ مبارك في نشر التشيّع في أرجائه، في كتابنا التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية.

ثم أنه فيما يتعلّقُ بـ (الشام) ونشْر التشيّع في أنحائه، ثمة غير عاملٍ سُكّانيّ بالإضافة إلى الهجرة الهمْدانيّة، لا بد من الوقوف عليه، قبل الدخول في تأثيرات تلك العوامل، وضروب تفاعلها مع البيئة الشاميّة، وما هيّأت له.

وعليه فما على القارئ إلا أن يتوقّع تفصيل الكلام على هجرة همدان إلى بلاد (الشام)، وما كان لها من أثرٍ بارزٍ على جغرافية التشيّع البشريّة فيه، تحت عنواني (لبنان) و (سوريّا). ثم بعدُ هجرة غيرها من (الكوفة) إلى (إيران). وعبْرها على عالَم التشيّع كلّه.

هجراتٌ أُخرى مؤسِّسة

(١) الهجرة الأشعريّة إلى جنوب الشام وغرب إيران

«أهلُ البيت النُّجباء»

الإمام الصادق عليه السلام يذكر الأشعريين

(١) توطئة

الأشعريّون فخذٌ كهلانيٌّ من شعوب قحطان، انتشروا من «بلاد الأشعريين»، حسب تعبير البلدانيين القدماء، في (اليمن) قبل الفتوحات الإسلامية وبعدها. ولكنهم في انتشارهم، خلافاً للهمْدانيين، لم تكُن لهم هُويّةٌ ثابتة كالهمدانيين، بل خضعوا للمؤثّرات المحلّيّة.

فالذين نزلوا منهم (نجران) قبل الإسلام باتوا إسماعيليين، كما لايزالون حتى اليوم. والذين نزلوا أنحاء (الشام) قبل الإسلام أيضاً غدوا من فريق السُلطة الأُمويّة، بل من أعمدتها الأساسيّة[1]. أمّا الذين هاجروا من بلادهم بعد الإسلام فقد نزلوا (الكوفة)، بعد أن استقرّوا مدةً قصيرةً في (المدينة).

والظاهر أن عديدَ مَن نزلوا (الكوفةَ) منهم لم يكُن بالكبير ذي الأثر. بشهادة أنّنا لا نجِدُ لهم ذكراً في الأحداث الكُبري التي تتابعت فيها منذ أن اتخذها الإمام علي عليه السلام

حاضرةً له: الجمل، صفّين، النهروان، كربلا.

---

(١) من التعبيرات الفاقعة عن موقع أشعريي الشام لدى الأُمويين، أنه بعد وقعة الحَرّة الرّهيبة خاطب يزيد الغاضبين المُستنكرين لِما ارتُكب فيها من فظائع بقوله:

أدعُ إلهك في السماء فإنّني أدعو عليك رجالَ عكّ وأشعرا

(الحميري: الروض المعطار / ١٦٤).

أضف إلى ذلك أنّنا لم نجِد من رؤساء القبائل الكثيرين فيها المنعوتين بـ (الأشراف)، ممّن اصطنعهم معاوية في سبيل تفتيت النسيج الاجتماعي لـ (الكوفة) مَن يُمثّلهم أو يحمل اسمهم.

وفي هذا وذاك دليلٌ قاطعٌ على ضعف حضور الأشعريين العددي وبالتالي انعدام نشاطهم السياسي فيها.

والحقيقةُ أنّنا لم نبدأ بملاحظة وجودهم فيها إلا إلى جانب المُختار. عندما أشعلَ (العراق) تحت أقدام السُلطة الحاكمة. برفعه شعار الاقتصاص ممّن شرك بدماء شهداء (كربلا). فكان كبيرالأشعريين المدعو حميد من أُمراء عسكره. كما كان السّائب بن مالك الأشعري والي شُرطته.

(٢) هجراتهم في الاقطار

ثم أنّهم عندما أعلن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ثورته الهائلة على والي الأُمويين في (العراق) الحجاج بن يوسف الثقفي، واصطفّ أهلُ (العراق) كلّهم وراءَه، ليس لشخصِه الذي لم يكُن عندهم بذاك نظراً لتاريخه المُلتبس، بل لأنّهم رأوا في ثورته الأملَ الوحيدَ للخلاص من السّفّاك الأثيم الذي أغرق (العراق) بدمائهم، ـ كان الأشعريّون من الذين نهضوا معه.

ثم أنّهم عندما حصلت الهزيمةُ النهائيّة للثورة سنة ٨٣ هـ/ ٧٠٢م، في معركة (دير الجماجم)، هاجروا هجرةً جماعيّةً من (الكوفة) ناجين بأنفسهم من انتقام الحجّاج ممّن ثاروا عليه، بحيث اختفوا تماماً ونهائيّاً منها، كما اختفى الهمْدانيّون منها قبلهم بزُهاء عقديَن من السنين. فاتجه فصيلٌ صغيرٌ منهم شرقاً باتجاه غرب (إيران)، حيث أسّسوا مدينة (قُمّ) ذات التاريخ المُنيف في نهوض التّشيُّع. بينما اتجه فصيلٌ آخر أكبرغرباً باتجاه جنوب (الشام)، ليستقرّوا في مدينة (طبريّة) الأُردنية. التي ما لبثت أن غدت بفضلهم عاصمة التّشيُّع في (الشام) كلّه، قبل أن تنهض (طرابلس) نهضتها ذات الوجوه، فتأخذ منها اللواء وترفعه عالياً.



المُهمّ بالنسبة إلينا الآن، أنهم في كلتا الهجرتين أسّسوا لبدء انتشار التّشيُّع حيث حلّوا[1].

هنا أيضاً نقـولُ للقارئ، ليس عليه إلا أن يتوقّع تفصيل الكلام على تأثير هجرة الأشعريين إلى كلٍ من (إيران) و (الشام)، بما يتناسبُ مع موضوع الكتاب، تحت العنوان الجغرافي ـ السياسي المناسب الذي استقرّت فيه. وفقاً لِما بيّنّاه في مقدمة الكتاب.

(٣) هجرات قبائل شتّى

بقي أن نُشير باختصار إلى قبيلتيَن، لا علاقةَ سُكّانيّةً لهما بـ (الكوفة)، بوصفها المصدر الجغرافي البشري

(١) لتفصيل هذا المُجمَل وأسنادِه راجع كتابنا رجال الأشعريين من المُحدّثين وأصحاب الأئمة وكتابنا التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا / ١٩٣ وما بعدها. وعلى كلّ حال فسنُفصّله بالمقدار المناسب لخطّة الكتاب فيما سيأتي.

الأساسي للتّشيُّع. ولذلك فإنّنا لن نُسهبَ بالتمهيد للكلام عليهما بالنحو الذي تناولنا به هجرتَي همْدان والأشعريين. لكنّهما ذاتَي دورٍ كبير في انتشار التشيّع في مختلف البقاع والاقطار، هما:

ـ ربيعة. وهي أحدُ الشّعبيَن الكبيرَين اللذين ينقسمُ إليهما العربُ العدنانيّة. وهي قبيلةٌ واسعة الانتشار. كانت قبل الإسلام تنزلُ وسط وشمال وشرق (شبه الجزيرة العربيّة). كما نزلت فروعٌ منها في (الجزيرة الفراتيّة)، بينما نزلت فروعٌ أُخرى في شمال (الشام).

نذكرها بوصفها صاحبة الدّور الكبير في مُناصرة الإمام علي عليه السلام. ثم استمرّت من بعده أينما حلّت على نهجه.

منها عبد القيس التي سكنت إقليم البحرين التاريخي، يعني شرق (شبه الجزيرة العربيّة): (الاحساء والقطيف). وكانت قبيلةً مُتحضّرة تعمل في الزراعة عند ظهور الإسلام. وهي صاحبة الدّور المُنيف في تاريخ التّشيُّع.

ومن عبد القيس العوينيّون، الذين حكموا (القطيف)، بعد أن أطاحوا بالقرامطة. وإمارتهم أوّلُ إمارةٍ شيعيّة إماميّةٍ حكمت (البحرين) التاريخي.

ومنها بعيداً عن الجزيرة العربيّة تغلب، القبيلة التي سكنت (الجزيرة الفراتيّة) بين (العراق) و(الشام)، حيث تنصّرت قبل الإسلام كغيرها من القبائل العربيّة في منطقة نفوذ الروم، ولكنّها أنجبت مع الوقت الإمارة الحمدانيّة الشيعيّة المعروفة في شمال (الشام)، من قاعدتها في (حلب).

ومن فروع تغلب النّمر بن قاسط في (الجزيرة الفراتيّة) نفسها. التي سنعرف أنها تحوّلت إلى التشيّع، بعد أن كانت نصرانيّة.

- **طيء**. أُمُّ القبائل العربيّة غير منازَع. مساكنها الأصليّة شمال (شبه الجزيرة العربيّة)، في بلاد الجبلين (أجأ) و(سُلمى). ومنها تفرّقت في البلدان والأقطار قبل الإسلام وبعده.

نذكرها بأنّها ناصرت الإمام علياً عليه السلام، وكان رئيسُها في أيامه عديّ بن حاتم الطائي من خاصّة الإمام وأصفيائه.

الذين هاجروا من طيء إلى الشام قبل الإسلام التحق بهم بعد الإسلام أعدادٌ كبيرةٌ من أنسبائهم. مُستغلّين الفراغَ السُّكّاني الذي حصل بعد الفتح، بسبب التحاق القبائل العربيّة المُتنصّرة بالروم، الذين انهزموا جماعيّاً باتجاه (الأناضول). والمعروف أن الطائيين ورثوا أرضَ غسان في (الشام). وهذا يُفسّر انتشارهم الواسع فيه حتى اليوم.

من أبرز ما يُمكن أن تُذكَرَ به طيء، أنّها لم تلوّث سيرتَها في التاريخ بالسّير في ركاب السُلطة الأُمويّة في (العراق) و(الشام). وأنها خصوصاً لم تُشارك في الاحداث العنيفة التي ضجّت فيهما. فكأنّها كانت تنتشر بصمت. إلى أن جاء الأوان الذي اسّست فيه إمارتيَن اثنتيَن في (الشام): إمارة (طرابلس الشام) العظيمة،

بقيادة الأُمراء العلماء بني عمّار الطائيين. وبموازاتها إمارة بني جرّاح الطّائيين أيضاً، في (الرّملة). وكلتا الإمارتيَن شيعيّةٌ إماميّة.

فجماعُ ما ذكرناه في هذا الفصل هم ماسمّيناه النواة البشريّة الأساسيّة للتشيع وللشيعة في العالَم، منها ومنهم انتشر. وليس علينا فيما سيأتي، من مختلف فصول الكتاب، إلا أن نُراقب ونُسجّل حركة ونشاط عناصر هذه النواة في المكان والزمان، حاملةً معها خصوصيّتها حيثما حلّت، لتنشرها أُفقيّاً بين الناس، ولتنشرها عموديّاً بالتّسامي بثقافتها الخاصّة عن طريق البحث والتأمُّل.

في هذا السياق من العمل نشأت مراكزُ كثيرة، توالت عمليّة التّسامي بالثقافة الخاصّة. منها (الكوفة) و (الحلّة) و (النجف) في (العراق). و (حلب) و (طرابلس) و (جبل عامل) في (الشام). و (قمّ) و (الرّيّ) في (إيران). بالإضافة إلى عشرات المراكز الأقل حجماً وشأناً في مختلف البلدان والاقطار.

ها هنا لَمن يُحسن التأمّل سرٌّ كبيرٌ من أسرار التشيُّع، الذي لايكفّ عن التأمُّل والبحث، بحيث لا يستقرُّ على حال إلا ويعمل على تجاوزه، سواءٌ على مستوى الفكر الخاص، أم على مستوى العلاقة بالآخَر المُختلف. حيث تنشأ علاقةٌ طرديّةٌ بين نمطي الانتشار: الانتشار العمودي يُغذّي الانتشار الأُفقي، الأمر الذي يمنح العمودي فرصةً جديدة للتسامي. وسنقرأ هذا النمط من العلاقة الطّرديّة في تاريخ (العراق) و (إيران).



هذا، في حين أن مذاهب إسلاميّة صرفت جُهدها الفكري إلى دعم وتشريع السُلطة الحاكمة بالفعل، مهما يكُن نمطُها. فلمّا استوفت السُلطةُ من المذاهب بُغيتها في هذا النطاق جزتها على ما بذلت في سبيلها جزاءَ سِنمّار. بأن انتزعت منها بقرارٍ منفرد حريّتها الأساسيّة في البحث والتأمُّل، بأن أعلنت من جانبها انتهاء فترة البحث والاجتهاد. وذلك هو السّرّ الأكبر في تخلُّف العالَم الإسلامي اليوم، وعجزه عن النّهوض.

خلاصة ومغزى الفصول الثلاثة

تلك هي، فيما أدّى بنا إليه البحث حتى الآن، النّواةُ الأساسيّة التي انتشر وانداح منها التّشيُّع الإمامي فيما انتشر من أنحاء العالم الإسلامي. وكلّها من باب الحركات السُّكّانيّة كما سنبيّن.

في القلب من النواة همْدانُ والأشعريّون. ثم ربيعة (ومنها البطن المُسمّى عبد القيس) وطيء.

أي بالنتيجة أن التّشيّع الإمامي قد انتشر وامتدّ شرقاً وغرباً على يد شعبين يمانيّيَن، وقبيلتَين كبيرتين، انتشاراً سلميّاً بإرادة وفعل واختيار أهله، مُتحرّكاً ومَدفوعاً بما يُكنُّ في بُنيته الفكريّة / الثقافيّة من طاقةٍ ذاتيّة. وليس بإرادةٍ وفعلٍ سُلطويٍّ، أي لِما فيه مصلحة وخطّة ومشروع سُلطةٍ حاكمةٍ، كما حصل لسواه من المذاهب الإسلاميّة كافّة. وهي التي انتشر منها ما انتشر، وانحسر ماانحسر، فإنّما بقرارٍ وإرادةٍ ودَفْعٍ سُلطويّ، بل بالقوّة والعنف والقهر أحياناً.

بل إن من مغازي هذه العُجالة التي بسطناها في الصفحات السّابقة، ابتغاء التوطئة والتمهيد لما هو آت، وسنُفصّلها فيما سيأتي إن شاء الله تفصيلا، أنّ انتشاره قد تمَّ غالباً بإرادةٍ شعبيّةٍ ضد سُلطويّة، أي بما يتعارض في



الصّميم مع مصلحة ومشروع السُّلطة الفعليّة الحاكمة. والمثالُ الأكبرُ على ذلك الهجرتان الهمدانيّة والأشعريّة، اللتان يعود إليهما أكبرُ الفضل في أعظم إنجازات التّشيُّع كمّيّاً ونوعيّاً. مع أنّهما قد حصلتا بفعل جماعاتٍ مذعورة، هربت من بطش الحكم الأُموي وأدواته في (العراق). وذلك من أعجب الأُمور، يدلُّنا على الطاقة الهائلة التي تختزنها الهُويّةُ الشيعيّةُ بداخلها، بحيث تُحوّلُ ما بدا آنيّاً كارثةً، مادةً وسبباً وإطاراً لإنجازٍ تاريخيّ. وكم لذلك في تاريخ التّشيُّع من أمثال.

ثم أن علينا أن نقول، دفْعاً لسوء فهم ماأوليناه من أهميّةٍ لتينك الهجرتين، إن الأهميّة التي منحناها لهما إلى حدّ اعتبارهما «النّواة»، بما تعنيه الكلمة من قُدرةٍ كامنةٍ داخلَ الحَدَث على الانبعاث بما هو أكبرُ بكثير، مثلما تتخلّقُ الدوحةُ الباسقة من نواة صغيرة، ـ لا تعني أنه لم يكن هناك من الحركات السُّكّانيّة سواهما، ممّا هو أقلُّ حجماً وأثراً، ممّا فات المؤرخين أن يُلاحظوه ويسجّلوه. ونجده أكثر ما يكون في المصادر الجغرافيّة / البلدانيّة.

نعني بذلك الحركات السُّكّانيّة الصغيرة والكثيرة، التي انفتحت بإسقاط الحدود بين الأقطار، بعد أن باتت كلُّها دار إسلام. فحملت الناس شرقاً باتجاه (إيران)، وغرباً باتجاه (الشام). وطبعاً حمل أُولئك المهاجرون معهم هُويّتهم وميولهم وولاءهم، ليزرعوها ثم لتنمو في مواطن استيطانهم الجديدة. وبذلك انضافوا وعزّزوا ما سبقهم أو لحق بهم من مؤثّراتٍ أساسيّة. وسنقفُ على ما تيسّر منها في مطاوي بحثنا الآتية إن شاء الله.

منذ الآن سيتحوّلُ البحثُ إلى قراءة ضروب التفاعل بين الناس وبين بيئة مواطنهم الجديدة، بما تُسرّه الأرضُ وأهلُها. وذلك تحت عناوين المُكوّنات السياسيّة القائمة بالفعل، على ماقضينا في مقدّمة الكتاب. ابتغاء تركيب جغرافيا بشريّة للتّشيُّع الإمامي وهي تنشأُ وتتحوّل في المكان والزمان.





الكتاب الأول

قارة آسيا

الفصل الأول

الشّـام

هو المنطقة الخصيبة ما بين الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والبادية شرقاً وغرباً، وبين جبال (زاغـروس) ومدينة (عسقلان) الفلسطينيّة، (أشدود المُحتلّة الآن، شمالاً وجنوباً.

الباب الأول: لبنان

(١) جغرافيا وتاريخ

نعني به الكيان السياسي الذي أُنشئ أواسط القرن الميلادي الماضي باسم (الجمهوريّة اللبنانيّة). وضمّ أهلَه من الشيعة في جنوبه، أي في (جبل عامل) التاريخي، وفي (سهل البقاع)، أخصُّ شرقه ووسطه، بالإضافة إلى مَن بقي منهم في جبل لبنان الشمالي. ومنازل مُتفرّقة في جبل لبنان الجنوبي.

وإنّما نبدأ به بحثنا لتقدُّم انتشار التشيُّع إليه زمانياً على غيره.

والحقيقةُ التي لم يلتفت إليها كلُّ الذين أرّخوا لـ (لبنان)، أنّه بالفتح الإسلامي غدا بقعةً شبه خاليةٍ من السُّكان. لأنّ أهله، خصوصاً في ساحله الذي كان يومذاك الأكثر عمراناً، أخلوا مدنه الكبرى (طرابلس، جبيل، بيروت، صيدا، صور)، فضلاً عن القرى الكثيرة المُتناثرة على طول الساحل، وفرّوا عن طريق البحر باتجاه بلاد الرُّوم القريبة. وكذلك الأمرُ بالنسبة للقرى الخصيبة القائمة على الهضاب السّاحليّة. أمّا المنطقة الداخليّة منه، نخصُّ (سهل البقاع) الواسع، فإنّ أكبر مُدُنه (بعلبك) كانت معمورةً بخليطٍ من السُكان، فيهم اليهود والنصارى الروم والمُسمّون بالفُرس (ليس نسبةً لبلاد فارس بل إلى الخليج الفارسي). وبجوارها

قُرىً صغيرة بجوار الحصون والمواقع، التي كان الروم قد شادوها، ابتغاء خفارة الطريق المؤدّية إلى (دمشق): (اللبوة)، (قصرنبا)، (الكرك). فضلاً عن بضع قُرى على طريق (دمشق الشام): (بوارج)، (قبّ الياس)، (برّ الياس).

هكذا بات (لبنان) صبيحة الفتح الإسلامي بقعةً متوسّطةً بشروطٍ عُمرانيّةٍ ممتازة، لكنّها تُعاني من حالة انهيارِ سُكّاني تركها شبه يباب. فكان من المُتوقّع في ظلّ سقوط الحدود التي كانت قائمةً قبل الفتح بينه وبين الاقطار المُجاورة، أن يصبح مصبّاً لهجراتٍ واسعة، قادمةٍ من جواره القريب والبعيد. يصعبُ رصْدُها كلَّها لأنّها حصلت غالباً بنحوٍ صغيرٍ لا يُلفتُ المؤرّخ. وإنّما يراه البُلداني بعد أن تنمو وتتراكم فتغدو ظاهرةً سُكّانيّة.

(٢) الهجرة الهمدانيّة إلى الشام

في هذا السّياق من الحِراك السُّكّاني العالِق، نقعُ على هجرتيَن شيعيّتيَن بارزتيَن بحجمهما باتجاه ما سيغدو في مستقبل الأيام (لبنان) السياسي، بل وفي بقاعٍ أُخرى من (الشام). سيكون لهما أكبرَ الأثر في انتشار التّشيُّع فيه. هما الهجرةُ الهمدانيّةُ الكبرى إلى غير بقعةٍ من (الشام)، ومنه طبعاً (لبنان). وسنقفُ الآن على هجرة همدان، ثم على هجرة ربيعة في الفقرة التالية، إلى (لبنان). تاركين هجرتهما إلى غيره من بلاد (الشام) إلى موقعِها المُناسب.

بالنسبة لهمْدان وهجرتها إلى (لبنان)، ثمة نصّان لبُلدانيّيَن يصلحان مفتاحاً للبحث والتّتبُّع:

ـ أوّلهما: نجده لدى ابن فضل الله العُمري، وهو بُلدانيٌّ مهتمٌّ بالجغرافية البشريّة في (مصر) و(الشام)، يقول: «وبالجبل المعروف بالظّنيين من الشام فرقةٌ من همْدان»[1].

ـ ثانيهما: نجده لدى المؤرّخ والبلداني الثّبت ابن واضح اليعقوبي، حيث يقول: «وبعلبك وأهلُها قومٌ من الفُرس. وفي أطرافها قومٌ من اليمن[2]»

أمّا «الجبل المعروف بالظّنيين» في نص العُمري، فهو المنطقةُ المعروفةُ اليومَ باسمٍ مُحرَّف هو (الضِّنّيّة) في شمال (لبنان)، وبالتحديد في الهضاب المُشرفة على مدينة (طرابلس). أولئك الهمْدانيون الذين نزلوه قادمين من (الكوفة) ولا ريب، كما بيّنّا في الفصل السابق، هم أصلُ أغلب الشيعة الذي سينمون عدديّاً، وسيعمرون كلّ ما هو اليوم شمال (لبنان). وسيكونون المادّة البشريّة التي عمرت مدينة (طرابلس)، بعد أن هبطت إليها من مرابعها القريبة في (جبل الظّنيين) أو (الضِّنّيّة).

(١) العُمري: مسالكُ الابصار في ممالك الامصار، ط. بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م (الفصل المُخصّص لقبائل العرب) / ١٥٥. واقتبس القلقشندي النصّ عنه في صُبح الاعشى: ١/ ٣٢٨ ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب / ٤٣٩.
(٢) اليعقوبي: البلدان، ط. بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م / ٨٨.



تطوّرت الأحوال بـ (طرابلس)، إلى أن صارت أوّل مركزٍ علميٍّ شيعيّ في المنطقة الشاميّة، بل في الحقيقة أهمّ مركزٍ علميّ على الإطلاق في ذلك الأوان في العالَم الإسلامي كلّه مشرقه ومغربه، بفضل أُمرائها العلماء المُستنيرين من بني عمّار الطائيين.

ثم أنها ستُحقّق إنجازاً تاريخيّاً بإقامة أوّل اتصال للشيعة في (الشام) بالحركة الفكريّة العالقة في (بغداد) بقيادة الشيخ المفيد. وذلك بفضل الفقيه الطرابلسي الجليل أبو الفتح الكراجكي. الذي كان أوّل عالم شيعي شامي شدّ الرحال إلى (بغداد) في طلب العلم. وإليه يعود فضلُ وصل ما كان مُنقطعاً بين التشيّع الشامي الخابي، والتشيّع المُتوهّج فكريّاً في (إيران) و (العراق). وبذلك أسّس لمسارٍ جديدٍ لشطرٍ من التّشيُّع السائد في المنطقة الشاميّة[1].

لكنّ (طرابلس) ما لبثت أن رزحت تحت الاحتلال الاستيطاني الصليبي القادم من (أُوروبة). فتحوّل سكّانُها إلى سُكنى (جبل لبنان) الشمالي، فكانوا عُمّاره وسادته مدة تقربُ من قرنين من الزمان،إلى أن أجلاهم عنه المماليك، بتحريضٍ من ابن تيمية الحرّاني. فهبط القسمُ الأكبر منهم إلى (سهل البقاع)، فعمروا وسطه حيث ما يزالون. وقسمٌ آخر سكن السفوحَ الشرقيّة للجبل، المُطلّة على (سهل البقاع). حيث نشأت عشرات القُرى الجديدة، التي تعود أُصولُ سكّانها إلى الذين هُجّروا من (جبل لبنان). في حين تحوّل شطرٌ منهم إلى سُكنى منطقة الهضاب المُجاورة لمدينة (صيدا)، حيث أنشأوا هم أيضاً سلسلةً من القرى الجديدة.

ومع ذلك فقد عاد بعض شيعة (جبل لبنان) إلى مساكنهم الأُولى في الجبل، أو أن بقيّةً منهم تنامت سُكانيّاً، بحيث عادت إلى السيطرة عدديّاً وسياسيّاً على مُجمل (جبل لبنان) الشمالي. وفي هذا الإطار التاريخي برزت أُسرة آل حماده الشيعيّة، التي انفردت بحكم الجبل حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي[2]. إلى أن أُجليت عنها بالقوّة بتحالفٍ سياسي عسكري عثمانيّ ـ فرنسي، لتستقرَّ في مدينة (الهرمل) شمال (سهل البقاع)، حيث ما تزال أيضاً.

ومع ذلك فإن بقيّةً مُتناميةً من الشيعة ماتزال حتى اليوم في منطقتي (كسروان) و (جُبيل) من الجبل. إلى جانب عدّة قُرى شيعيّة أيضاً في أعالي الجبل الشماليّة، ما تزال بجوار مدينة (زغرتا) شرقي (طرابلس).

فهذه صورةٌ حيّةٌ للجغرافيا البشريّة للشيعة وتحوّلاتها، ابتداءً من القسم الشمالي من (جبل لبنان)، بتحوّلاتها في الزمان والمكان. ثم ابتداءً من الهجرة الهمْدانيّة الكبرى من (الكوفة) إلى أعالي الجبل الشماليّة، ثم إعمارهم مدينة (طرابلس)، وبعده إعمارهم (جبل لبنان) الشمالي. وانتهاءً بمَن نزل منهم (سهل البقاع) الخصيب وسطه وسفوحَه الغربيّة، والهضابَ المُجاورةَ لمدينة (صيدا). مع بقيّةٍ منهم ما تزال في الجبل حتى اليوم.

---

(١) للتفصيل كتابنا محمد بن علي بن عثمان الكراجكي، عصره، سيرته، مؤلفاته.

(٢) انظر: ستيفان وينتر: الشيعة في لبنان تحت الحكم العثماني، الترجمة العربيّة، باعتناء مركز بهاء الدين العاملي للأبحاث والدراسات في بعلبك. وكتابَي سعدون حماده: تاريخ الشيعة في لبنان و تهجير الشيعة من جبل لبنان. وله أيضاً: الثورة الشيعيّة في لبنان ١٦٨٥ـ١٧١٠.



وأمّا «القومُ من اليمن» في «أطراف بعلبك»، فنصُّ اليعقوبي بشأنهم لا يُعطي الباحثَ لأوّل وهلة المَعنيّ بما نُعنى به الآن ما ينفعه. وذلك بسبب إجمالِه الشّديد. فماذا يعني بـ «أطراف بعلبك»، ثم مَن هم أُولئك «القوم من اليمن»؟

أمّا «أطرافُ بعلبك» فالأمرُ بشأنها سهلٌ نسبيّاً. ذلك أن الطّرفَ من الشيء هو ما يكون مُتصلاً به دون أن يكون منه. أي أنّ عبارة «أطراف بعلبك» تعني ما هو ليس من جسم المدينة، بل من ضواحيها أو جوارِها. وهذا الفهم للعبارة له معنى التنصيص الضّمني على أنّ أُولئك «القوم من اليمن» لم ينزلوا المدينة، بل بقعةً متصلةً بها. وفي هذا التّحديد دليلٌ على أنّ صاحبَ النّصّ الأصلي، الذي أخذه عنه اليعقوبي بعد قرنين تقريباً، يملك معلوماتٍ دقيقة مُحدّدَة عن موضوع كلامه.

وأمّا «قومٌ من اليمن» فله معنىً عامٌّ غير مُحدّد بالنسبة إلينا، بوصفنا مؤرخين ساعين إلى تركيب تاريخ المنطقة من نُتفٍ صغيرة من المعلومات السكانيّة. لِما نعرفه من أنّ هذا القطرالقصيّ ظلّ يقذف بأبنائه نحو (الشام) قروناً قبل الإسلام وبعده. وعليه فمن حقّ القارئ العارف أن يسأل: ماهو الدليل على أنّ للخبر علاقةٌ ببحثنا. أي على فرضيّة أن أُولئك اليمانيين هم أسلاف الشيعة، الذين نعرفُ أيضاً أنّهم عمروا وما يزالون الشطر الشّرقي من (سهل البقاع) الذي حاضرته مدينة (بعلبك)؟ أليس من المُحتمَل أن يكونوا ممّن هاجروا إليه قبل الإسلام؟

نقولُ في الجواب: طبعاً نحن قد أخذنا في تأملاتنا هذا الاحتمال. وبالنتيجة وصلنا إلى أنّه يتعارضُ مع قاعدةٍ من قواعد التفكير في الشؤون التاريخيّة، أعني بذلك قاعدةُ الاستمرار في التاريخ والتاريخي. ذلك أن تفكيرنا الآن يدور على مُحاولة تفسير أمرٍ ثابتٍ مؤكَّد. هو أنّنا لسنا نعرفُ البقاعَ البعلبكي في الإسلام إلا شيعيّاً. باستثناء حاضرته (بعلبك) التي كانت مدينةً حنبليّة. أي أن تفكيرنا يدور الآن على ما عبّر عنه نصُّ اليعقوبي بـ «أطراف بعلبك»، أي جوارها كما قُلنا قبل قليل. ومُقتضى قاعدة الاستمرار أن نصِلَ ذهنيّاً بين الثابتيَن: اليمن في أطراف بعلبك، وأصالة التشيّع في شرق (سهل البقاع)، إلا أن يقومَ دليلٌ على العكس.

ثم أنّ هاهنا نُجدةٌ غير مُتوقّعة، تأتينا بها الطوبوغرافيا حيث ضنّ التأريخ. هي أن باب المدينة الجنوبي، المُطلّ على مُتنزّهها العريق، المُسمّى في كتب التاريخ والبلدان بـ (الميدان الأخضر)، ويُعرف على ألسنة أهل المدينة اليوم بـ (رأس العين)، كان يحمل اسم (باب همْدان)[1]. أي الباب المُفضي إلى حيث مساكن همْدان. مثلما أن (باب دمشق) هو الذي كان يخرج منه السالكون الطريق إلى (دمشق)، وكذلك (باب حمص) و (باب نحلة) قريةٌ شرق بعلبك، و (باب سطحا) المُفضي إلى مقبرة المدينة... الخ.

(١) يردُ ذكره كثيراً في المصادر، مثلاً: مختصر تاريخ ابن عساكر، ط. بيروت ١٩٨٨م: ٤ / ١٦١: «في الميدان الاخضر خارج باب همْدان ببعلبك». وفي ذيل مرآة الزمان لليونيني، ط. حيدر آباد ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م «باب همْدان»: ٢/ ٤١٢ و٣/ ٨٣ و٩٠ و٤ / ١٦٧.

إذن، هناك في الهضاب العالية شرقيّ المدينة كانت منازل المهاجرين الهمّدانيين. حيث ما تزال خرائب قرىً قديمة وآثار استصلاح الأرض تملأُ السفوح والهِضاب، وصولاً إلى قريتي (الجُبّة) و (عسال الورد) الداخلة ضمن الرّقعة السوريّة اليوم.

وإذن فمنازل همْدان في الهضاب شرق (بعلبك) واحدةٌ ممّا عنى به اليعقوبي «أطراف بعلبك». هناك تنامت جاليةٌ شيعيّة كبيرة. ومن تلك الهضاب خرجت حركةٌ سُكّانيّةٌ اجتازت السفوح الغربيّة لسلسلة الجبال المواجهة لجبل لبنان، لتُنشئ مجموعة من القرى في السفوح الشماليّة، أكثرُها درس فيها بعد. ومن هناك هبطت أُسرةُ الأُمراء من آل حرفوش إلى بلدة (سرعين) الجديدة، من ضمن حركةٍ سَكّانيّةٍ عالقة باتجاه السهل، ليُصبحوا أُمراء المنطقة من بعدُ لعدّة قرون. ولنُضف إلى تلك الـ «أطراف» بلدة (إيعات) إلى الشمال الغربي من بعلبك، وبلدة (تمنين) في أواسط السهل جنوب غرب (بعلبك)، اللتين ما يزال أهلهما حتى اليوم يفتخرون بانتسابهم إلى همْدان.

في سبيل تتبُّع التحوّلات الجغرافيو- بشريّة للمنطقة، وخصوصاً قلبُها وحاضرتُها (بعلبك)، نقول:

أثناء القرون التالية تكاثر أُولئك المهاجرون الهمْدانيّون بقوّة، بحيث فُقد التوازن بين قدرة الأرض على الانتاج في تلك الهضاب الصخريّة بحيث تُنتج ما يكفي لإطعام سكانها، وبين عديد سكانها المُتكاثرين. فطفقوا يهبطون باتجاه السهل الفسيح الخصيب المُمتدّ أمام أعينهم، ليصبحوا عُمّار القسم المُجاور منه لمدينة (بعلبك). وفي ظلّ هذا المُتغيّر السُّكّاني بدأوا يتحوّلون شيئاً فشيئاً إلى سُكنى المدينة. في الوقت الذي بدأ فيه أهلُها الأصليّون الحنابلة، بالإضافة إليهم أهلُ القرية المُجاورة لها (يونين) الحنبليّة أيضاً، يهجرونها باتجاه (دمشق). بعد أن أنشأ فيها الحنابلة، القادمون من (القدس) الأسيرة، ضاحيةً جديدةً خاصةً بهم، سمّوها (الصالحيّة)، كما ما تزالُ تُعرَفُ حتى اليوم.

أمّا (يونين) الحنبليّة، التي وهبت المذهبَ مجموعةً من النُّخبة الممتازة من عُرفاء ومُصنّفين ومُحدّثين حنابلة، منها موسى بن محمد اليونيني مؤلف كتاب ذيل مرآة الزمان الثمين، الذي أفادنا ويُفيدنا كثيراً في تاريخ المنطقة، ـ فقد باتت نِسيّاً مَنسيّاً، لايعرفُ سرَّها الضائع إلا المُختصّون من أهل البحث والنظر. بعد أن كانت لعدّة قرون من المراكز الحنبليّة النادرة في المنطقة الشاميّة.

هكذا انتهى أمرُ تلك التطوّرات السُكّانيّة بـ (سهلِ البقاع) البعلبكي، إلى أن يغدو بأكمله تقريباً ذا أكثريّةٍ غالبةٍ شيعيّة، كما لا يزال.

في هذا النّطاق من المُتغيِّر السُّكّاني الجذري ظهرت إمارةُ بني حرفوش الشيعة. وهي أوّلُ وآخرُ إمارةٍ شيعيّةٍ في شرق (لبنان)، كما بسطت سلطانها أحياناً على بعضٍ ما والاه وصولاً إلى مدينة (حمص). ولقد بسطت أُسرة آل الحرفوش سُلطتها على شرق (لبنان) إلى ما قبل قرنٍ ونصف من الزمان تقريباً. وهي أُسرةٌ نعرفُ أنّها ترجع بأُصولِها البعيدة إلى بلدة (الجُبّة) شرق (بعلبك) التي عرفناها من قبل بوصفها أحدَ منازل همْدان في «أطراف بعلبك».

(٣) هجرةُ ربيعة إلى لبنان

بالإضافة إلى الهجرة الهمْدانيّة الكُبرى، التي يجب أن نعتبرها الأساس في الامتلاء السُكاني التاريخي المُبكِّر لـ (لبنان) بعد الفتح الإسلامي، ومن ثَمّ لانتشار التّشيُّع فيه، ـ فقد رصدنا وجوداً موازياً لمُهاجرين من غيرِ همْدان، وذلك في منطقةٍ مُجاورةٍ لـ مدينة (طرابلس) شمال (لبنان).

نُشيرُ بذلك إلى مدينة (عِرْقَة) بجوار (طرابلس)، التي يقول المؤرّخُ والبلداني الثّبت ابن واضح اليعقوبي، في نصٍّ أخذه عن سلفٍ له ولا ريب، وإنْ نكُن لانعرفه، أنّها «كُورة»، أي ما يُشبه مركزالقضاء في العُرْف الإداري اليوم، وأنّها «مدينةٌ قديمة» (هي اليوم موقعٌ أثريٌّ دارس)، ثم أنّه يختمُ كلامَه عليها بأن قال: «وبها قومٌ من ربيعة»[١]. وهذا هو أهمّ ما في نصه إلينا.

هذه العبارة البالغة الإيجاز، المُؤلّفة من بضع كلمات، سجّل فيها اليعقوبيُّ دون أن يقصُد، بل ربما دون أن يعرفَ قيمتَها الكبيرة، لأنّه فيما يقوله جغرافيٌّ، عمله محصورٌ في رصدِ ووصفِ ما هو قائمٌ على الأرض، ممّا قد يراه أو وصل إلى علمه من معلومات. وليس مؤرّخاً من مُهمّاته أن يضعُ المعلومةَ في إطارِها الحَدَثي، ـ سجّلَ فيها معلومةً في الغاية من الأهميّة، على إحدى البدايات لتشكُّل لبنان سُكّانيّاً، وبالنسبة إلينا على انتشار التّشيّع فيه. لِما عرفناه في الفصل الأوّل عن دور ربيعة المُنيف في مُساندة المشروع السياسي للإمام علي عليه السلام. وبذلك تكون خاضعةً للسبب نفسه الذي دفع همْدان إلى هجران (الكوفة)، والانتشار حيث تجِدُ مأمناً، ومنه بناءً على اليعقوبي ما هو اليوم (لبنان). وها إنه يقولُ لنا أنّها نزلت أيضاً مدينة (عِرْقَة) الساحليّة شمال (لبنان). فبات من حقِّها أن تنضمّ إلى موضوع كتابِنا. بل وأن تسمحَ لنا بالقول،على سبيل التّخمين المقبول، أنّ هجرتها ليست مُوازيةً لهجرة رصيفتِها همْدان مكانيّاً فقط، بل موازيةً زمانيّاً أيضاً، لوحدة السبب فيما نحسب بين الهجرتيَن.

وبل أيضاً أنّها ربما اندمجت في المُركّب السُّكّاني الذي نفخ الرُّوح في مدينة (طرابلس) المُجاورة وبنى نهضتَها.

هكذا نكون في هذا السّرد، المَبنيّ على تتبُّع صنوف الحركات السُّكّانيّة فيما آل أمره إلى أن غدا اليوم ما هو (لبنان) السياسي عدا (جبل عامل)، بوصفها (أي الحركات) المُنتِج لوضعٍ جغرافيٍّ بشريٍّ مُختلفٍ عمّا سبقه، يؤدّي بتراكمه إلى صورةٍ سُكّانيّة جديدةٍ للمنطقة. مع مُلاحظة أن تلك الحركات كانت تتمُّ غالباً جدّاً بالبطش والقهر. ومع ذلك فإنّ الضحايا كانوا دائماً يجدون الوسيلة لتحويل ماهو أشبه بالكارثة إلى بابٍ ووسيلةٍ إلى حياةٍ جديدة، وطورٍ جديد، وتطلُّعاتٍ جديدة. وفي هذا درسٌ للطُّغاة، الذين قد يكون في وُسعهم أن يفرضوا البدايات. ولكنّ النهايات تكونُ دائماً صنعةَ الناس العاديين، الصّانعين الحقيقيين لحركة التاريخ.

والآن، بعد أن ملكنا صورةً على حدّ الكفاية للتوزيع الجغرافي للشيعة الإماميّة في لبنان وخلفيّتها التاريخيّة، نسأل:

ماذا عن الإحصاءات؟ ومن المعلوم أنّها عنصرٌ أساسيٌّ جدّاً فيما نحن بصدده.

---

(١) البلدان / ٨٨.



في الجواب نقول:

إنّ الحكم الطائفي الذي فرضه الاستعمار الغربي على (لبنان) بعد سقوط الامبراطوريّة العثمانيّة، ارتكز على الزّعم بأنّ إحدى الطوائف غير المُسلمة هي الأكثر عدداً، استناداً إلى إحصاءٍ موضع ريبٍ بصدقه، وبنى على ذلك أنّها الأحقّ بالانفراد بحُكمه، وهكذا كان. فلما بان بعدُ أنّ ذلك الزّعم قد بات واضح البُطلان، بحيث أن ترديده بات مُثيراً للاستهجان. صدفت السُلطات عن إجراء إحصاء، مع ما في ذلك من مُخالفةٍ صريحةٍ للقانون الأساسي.

لكنّ فشل مشروع ما سُمّي في آنه بـ (لبنان الكبير) لأسبابٍ بُنيويّة، قاد إلى توسعة رُقعته إلى (الجمهوريّة اللبنانيّة)، وذلك بأن ضُمّ إليه المنطقة الجنوبيّة ومنها (جبل عامل) التاريخي، بالإضافة إلى (سهل البقاع) الواسع الخصيب، وكلاهما معمورٌ بأكثريّةٍ شيعيّة. وبذلك ضُمت إلى (الجمهوريّة اللبنانيّة) الجديدة أكبرُ كثافةٍ سُكّانية شيعيّة إماميّة في (الشام) كلّه. الأمر الذي منحهم دون قصد أن يأولَ أمرهم مع الوقت إلى أن يغدو ثقلاً ديموغرافيّاً سياسيّاً في دولةٍ حديثة.

ومع أنّ الشيعة قاوموا المشروع منذ البداية، أي منذ (لبنان الكبير)، فإنّه أتاح لهم في النهاية امتيازاً لم يكُن في حُسبان أحد. فبعد أن كانت نسبتهم إلى مجموع السُكان ١٧٪، فيما زعموا، في دولة (لبنان الكبير) سنة ١٩٢٠ م، على ما قالته الإحصاءات يومذاك، باتوا اليوم ٣٣٪ على ما هو شبه مُسلّم به من الجميع. وطبعاً أدّى التراكم الكمّي إلى حضورٍ سياسيّ نوعي، يعرفه كلُّ مَن لديه اطلاعٌ على الصورة السياسيّة العاملة في لبنان اليوم.

نذكر أخيراً في سياق جغرافيا التشيّع الإمامي في (لبنان) طيفاً من أطيافه، هم المُسمّون اليوم بالعلويين. وهم يعدّون اليوم زهاء السبعين ألفاً. ينتشرون في شماله، في قضاء (عكّار). في قرى (المسعوديّة) و (السُّماقيّة) و (حكر الظاهري) و (الحوشة) و (تل حميرة) و (تل عباس) و (الحيصية) و (القليعات) و (الريحانيّة) و (الدغلة) و (البربارة) و (عين الزيت) و (حنيدر) و (قرحة). ولهم في مدينة (طرابلس)، وهي مركز محافظة المنطقة، محلّةٌ كبيرةٌ خاصّةٌ بهم اسمها الدّائر اليوم على الألسنة (جبل محسن)، وهو مُحرّفٌ عن اسمها الأصلي (بعل محسن). سكانه نازحون من قراهم المذكورة.

والحقيقةُ أن وجودهم في هذه البقعة من شمال (لبنان) هو امتدادٌ للجغرافيا البشريّة العلويّة، المُمتدّة من لواء (الاسكندرون)، الذي سمّاه الأتراك (هاتاي) بعد أن ضمّوه إلى رقعة جمهوريّتهم الجديدة، وصولاً إلى غرب (سوريّا)، فشمال (لبنان). وقد كانوا منذ تأسيس (لبنان الكبير) فـ (الجمهوريّة اللبنانيّة) جماعةً مسلوبة الحقوق الممنوحة للطوائف في (لبنان). إلى أن جرى الاعتراف بها ضمن اتفاق الطائف سنة ١٩٩٢ م بوصفها طائفةً مستقلّة. ومُذ ذاك غدت مُمثّلةً في المجلس اللبناني بنائبَين.

الباب الثاني: سوريّا

(١) جغرافيا وتاريخ

نعني بها ما هو اليوم (الجمهوريّة العربيّة السوريّة) بحدودها السياسيّة المعروفة. وخطّتنا هي أن نقرأ من تاريخها ما له علاقةٌ بإشكاليّة بحثنا، أي بوصف ما سنقرأه من تاريخها مقدّمةً لتركيب الجغرافيا البشريّة للشيعة الإماميّة فيها.

والحقيقةُ التي سنبدأُ منها ملاحظاتنا التاريخيّة شبيهةٌ بما بدأنا به كلامنا على (لبنان) فيما فات. وهي أنّ سكّان (سوريّا) من العرب المُتنصّرين قد التحقوا بالرُّوم المهزومين باتجاه (الأناضول)، ربما بتشجيعٍ من سادتهم الرُّوم. لأنّ هؤلاء حَسِبوا أنّ أُولئك العرب المسلمين البُداة القادمين من الصحراء، لن يلبثوا أن يعودوا إلى صحرائهم، بعد أن يملأوا أيديهم من الأسلاب والمنهوبات. ولم يدُرْ في خلدهم يوماً أنّهم سيكونون قادرين على البقاء والثبات، بما يقتضيه من إدارةِ وحكمِ هذه المنطقة العريقة بتركيبتِها البشريّة المُعقّدة.

هكذا خلتْ مدينتاها الرئيستان (دمشق) ونطاقها العامر و(حمص) من سكانها. ولم يبقَ في كلّ (سوريّا) إلا سكانُها الأصليّون (أي أنّهم من غير الرُّوم والعرب) الذين كانوا عُمّار القُرى من المُزارعين والرُّعاة، الفاقدين لأيّ ثقلٍ سياسيّ أو عسكري. ولذلك فإنّهم لم يكونوا موضعَ اكتراثٍ من أحد، لا من الرُّوم المهزومين فاستلحقوهم، ولا من العرب الفاتحين فطاردوهم وألحقوهم بالرُّوم المُنهزمين باتجاه قلب رقعة الدولة الروميّة. فبقوا في أرضهم ومرابعهم وكأنّ شيئاً لم يكُن. وحتى اليوم فإنك تجِدُ في (سوريّا) بلداناً بأكملها ما تزالُ تتكلّم الآراميّة أو السريانيّة أو الأشوريّة، هم بقايا تلك الشعوب التي سادت في (سوريّا) و(العراق) قبل الإسلام بقرونٍ كثيرة.

سيكون علينا منذ الآن أن نولي عنايتَنا لبيان مصدر وجود الشيعة المُبكّر في هاتين المدينتيَن، خلافاً لكلّ التّهيّؤات الكامنة فيهما. وذلك باعتبارهما الحاضرتيَن الرئيستيَن للحكم الأُموي، وأيضاً موضعَ عمله على المستوى العقلي ـ الوُجداني لتشكيل الإنسان المُناسب لمشروعه السياسي، والمصدرَ البشري لقوته العسكريّة.

وطبعاً فإن التفسير الوحيد، سواءٌ لوجود الشيعة أم لوجود غيرهم من المسلمين في بقاع (الشام)، هو حصْراً في الحركة السُّكّانيّة، وبالدرجة الأُولى في الهجرةِ اليمانيّة إليه، ومنها طبعاً الهجرة الهمْدانيّة الكبرى، التي سنرى أنّها غطّت رُبوع (الشام). وهي من الأسرار التي تجاهلها تاريخُنا البليد، لا لسبب إلا لأنّه منح كلّ اهتمامه وعنايتِه للسُّلطة وشؤونها. مع أنّها (أعني الهجرة) تنفردُ بأنّها تضيءُ مواضعَ أساسيّة في تاريخ المنطقة.

والحقيقةُ أنّ الذين التقوا في بطاح (صفّين) هم في غالبيّتهم يمانيّون من الجانبيَن: همْدان في جانب الإمام علي عليه السلام، وحِميَر وعكّ في جانب معاوية.





(٢) الهجرة الهمْدانيّة إلى حمص

أقدمُ وجودٍ ثابتٍ كبيرٍ لهمْدانيين مهاجرين من (الكوفة) إلى (حمص) في وسط (سوريّا)، رصدناه في كتابٍ من كُتُب الحديث وأهله، حكى فيه دون مُناسبةٍ مفهومة (ويا لحُسْن حظّنا) قصّةَ الزّيارة الأُولى لعبد الملك بن مروان للمدينة بعد أن استتبّ له المُلك، فأمر بضرْب عنق إسحاق بن الأشعث، وهو كوفيّ الأصل، الأمر الذي أغضب أهلها. فلمّا بلغه ذلك أمرَ فنودي: الصلاةُ جامعة. وصعد المنبر فقال:

- «ما حديثٌ بلغني عنكم ياأهلَ الكُويفة؟»

فقام أحدُ أهلها فقال:

«يا أميرَ المؤمنين، لسنا بأهل الكُويفة، ولكنّنا أهل الكوفة الذين قاتلنا معك مصعب بن الزُّبير. وأنت يومئذٍ تقول: والله يا أهلَ حمص لأُواسينّكم ولو بما ترك مروان. وعليك يومئذٍ قباؤك الأصفر».

وأخرج إليه رجلٌ من (مجلس ميثم) ساعداً له نحيفة، فقال: «يا أميرَ المؤمنين، اعزُل عنّا سفيهَكَ يحيى بن الحكم، وإلا بعثنا إليك بأكثره شعراً».

فلمّا قضى عبد الملك خُطبتَه، التفت إلى عمّه يحيى بن الحكم فقال له: «ارتحل عن جوار القوم، فقد سمعتَ ما قال الفايشي!»[1].

في سبيل تحليل هذا النّصّ الغنيّ، فلنُلاحظ أنّ عبد الملك خاطب الناس خطاباً عامّاً دون تمييز بـ «يا أهلَ الكويفة»، تصغيراً لشأنهم، وتعييراً لهم، فيما يبدو، بأنّهم من المدينة ذات الصّيت العريض في مُناصبة بيته العداء. وفي الجواب قيل له: «بل نحن أهلُ الكوفة». وفيه جوابٌ بليغٌ يشي بالاعتزاز بنسبتهم ، مقابل تنديد الخليفة بها.

ذلك التّراشُق العلني بتلك النُّعوت في (حمص) ومن قاطنيها، يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنّ الطرفين يتصادقان على أنّ المُخاطَبين كانوا حديثي العهد بالإقامة فيها، وأنّهم أصلاً من أهل (الكوفة).

ثم أنّ في تعميم خطاب عبد الملك: «يا أهلَ الكويفة» لدليلٌ صريحٌ على أن نسبة القادمين من (الكوفة) في (حمص) لم تكُن بالقليلة، بل كانت أغلبيّة، بحيث يصحُّ التعميمُ منه، ويصحُّ الجوابُ ممّن أجابه من أهل (حمص).

أمّا الدليلُ على أنّ أُولئك الكوفيين النّازلين (حمص) كانوا همْدانيين، فإنّنا نقرأُه فيما ختم به عبد الملك كلامَه، حيث قال لعمّه: «... فقد سمعتَ ما قال الفايشي». وفايش بطنٌ من حاشد، وحاشد بطنٌ من همْدان[2].

المغزى الأساسي هنا أنّ الخليفة الجديد خضع في كلامه وفي عمله أيضاً لذلك التهديد الخشن العلني. فسارع إلى عزْل عمّه من الولاية على المدينة، بل وأمره بمُغادرة المدينة فوراً. وذلك أمر ما كان ليحصل، بالنحو

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ط. دمشق، لات.: ١ / ٢٣٥ـ٣٦.
(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب،ط.بيروت١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م/ ٣٩٣و٤٧٥.

الذي حصل فيه، لو لم يكُن الهمْدانيّون يومذاك قوّةً سياسيّةً عدديّة لا يمكن تجاهل رأيها في إدارة المدينة. فضلاً عن أنها هي التي دعمت الخليفة الجديد ضدّ خصومه الزُّبيريين بما أدّى إلى فوزه بالخلافة.

ونقول في ختام هذا التحليل، إنّ الواقعة موضع البحث حصلت بعد السنة ٧١هـ / ٦٩٠ م، بشهادة الإشارة الصريحة إلى المعركة الفاصلة التي وقعت بين عبد الملك ومصعب بن الزُّبير بذلك التاريخ، وفيها أبلى أهلُ (حمص)، ومنهم همْدانيّوها، البلاءَ الأكبر. وانتهت بمقتل ابن الزُّبير، ودخول عبد الملك (العراق)[١].

فمن هذه المُقارنة نُخمّنُ أن هجرة الهمْدانيين إلى (حمص) حصلت في الوقت نفسه الذي حصلت فيه هجرتهم إلى (لبنان). أي أنّ تلك الهجرة كانت إجمالاً أشبه بالنُّزوح الشامل للقبيلة الكبيرة. وعجيبٌ حقاً، عجيبٌ جدّاً، أن لسنا نجِدُ في كلّ المكتبة التاريخيّة الضخمة أدنى إشارةٍ إليها. ممّا يدلُّ على بلادة الحسّ التاريخي لدى الذين سجّلوها. ويدعونا إلى البحث عن حقائق تاريخنا في غير كُتُب التاريخ، بل في كُتُب البلدان والأدب والحديث.

في هذا الإطار يجب أن نضعَ النصّ الذي نقرأه في أكثر كُتُب البلدان أهميّةً، راوياً قصّةَ مدينة (حمص)، عاريةً من خلفيّتها وفذلكّتها التاريخيّة التي أثبتناها أعلاه، بالعبارة التالية: «إنّ أشدَّ الناس على علي رضي الله عنه بصفين مع معاوية كان أهلُ حمص. فلمّا انقضت تلك الحروب، ومضى ذلك الزمان، صاروا من غُلاة الشيعة»[٢].

الحقيقةُ التي لا يصعُب على الباحث اكتشافُها والتسليم بدلالتها، أنّ هذا النّصّ يحكي القصّةَ التي نبحثُ عنها. وما هي في الحقيقة إلا طرفٌ فقط من القصّة المجهولة لانبعاث التّشيُّع في بلاد (الشام)، خلافاً لكلّ التّهيّؤات الكامنة فيه، التي صرفت السُلطة جُهداً هائلاً في سبيل تثبيتها. ولم يكُن ينقصُنا إلا أن نضمّ إليه ما أتانا به المُحدّثُ الرجاليّ أبو زرعة الدمشقي، كيما نقرأها، مثلما قرأناها بالفعل، كاملةً غير منقوصَة.

إنّه يحكي أوّلاً شِدّةَ أهلها على الإمام في (صفين). الأمرُ الذي نفهمه بنحوٍ أفضل إذ نعرفُ أنّ أكثرَ مُقاتلي (حمص) مع معاوية كانوا من حِمْيَر[٣].

ثم أنه يحكي الحالةَ الانقلابيّةَ، التي تمخّضت عن أنّ أهلَها (لاحظ التّعميم) انتهى أمرُهم إلى أن صاروا من «غُلاة الشيعة» على ما قال. ونحن نفهمُ من لحن كلام ياقوت «فلمّا انقضت تلك الحروب، ومضى ذلك الزمان» أن ذلك الانقلاب الجذري في الولاء قد حدث بشكلٍ يُشبهُ الفجأة. الأمرُ الذي لا تُفسّره إلا الهجرةُ الهمدانيّةُ الكثيفةُ إلى (حمص)، تفسيراً واضحاً لا لَبْسَ فيه ولا مَعدى عنه إلى غيره، والتحاق حِميَر بهم في تشيّعهم، وهم الذين كانوا «أشدَّ الناس على عليّ».

(١) ابن الأثير: الكامل / حوادث السنة ٧١.
(٢) معجم البلدان، مادة «حمص».
(٣) وقعة صفين / ٢٣٢ ـ ٣٤.

هذا، وإنّ اليعقوبي، المُتوفّى بُعيد السنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٥ م، يذكر همْدان في عِداد القبائل القاطنة (حمص)[١]. دون أن يُحدّد نسبتهم العدديّة إلى بقيّة سكّانها من القبائل الأُخرى التي يذكرها أيضاً. ومع ذلك فإنّ الفائدة الإضافيّةَ في نصّه، أنّه يحكي لنا جانباً من الاستمرارَ التاريخي لوجود همْدان فيها، بعد ما يقرُب من قرنين من الزمان على هجرتِها إليها.

بعد أنّ أصّلنا وجود الشيعة في (حمص) في فترةٍ مُبكّرة من تاريخها في الإسلام، سيكونُ علينا أن نتتبّعَ الآثارَ الفكريّة بالدرجة الأُولى لوجودهم فيها. لأنّ هذه تحملُ التعبيرَ الأمثلَ والأقوى عن درجة حضور أي جماعة في رقعةٍ بعينها. خصوصاً في ظلّ غياب الآثار السياسيّة والاجتماعيّة لشيعتِها، لأسبابٍ باتت معروفةً للقارئ.

ولقد وقعنا في كتاب كفاية الأثر في النّصّ على الأئمة الاثنى عشر على أسماء جملةٍ من أعلام (حمص) الشيعة، هم:

المُحدّث أحمد بن محمد الهمْداني الحاشدي الحمصي، سمع في (دمشق)، وتوفي في (مصر) سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م[٢].

ويترجم ابنُ حجر العسقلاني للحسن بن إبراهيم بن محمد بن جعفر الحمصي ترجمةً موجزةً، وصفه فيها بأنّه «كان فقيهاً إماميّاً مُناظراً. مات سنة ٥٤٠. وقد عمّر طويلا».

- محمد بن علي الحمصي[٣]. نُرجّحُ أنّه من رجال القرن الثاني هـ/ الثامن م، أو أوائل الثالث هـ/ التاسع م على أبعد تقدير. بدليل أنّ بينه وبين النبي ﷺ أربع وسائط فقط (استناداً إلى أنه يُقدّر معدّل الفرق بين كلّ جيليَن بخمسٍ وعشرين سنة). وهو أقدمُ مَن عثرنا على اسمه من الأعلام الشيعة المنسوبين إلى حمص.
- محمد بن عرفة الطائي. مُحدّث نُرجّحُ أنّه من أعلام القرن ٣ هـ[٤].
- أحمد بن يوسف الحمصي. وهو شيخٌ لعُتبة بن عبد الله الحمصي الذي سنذكره أدناه[٥].
- عُتبة بن عبد الله الحمصي. هو شيخٌ لأبي الحسن علي بن الحسن بن منده. وهذا شيخٌ لعلي بن محمد الخزّاز صاحب كفاية الأثر. التقى هذا به وأخذ عنه في (مكة) أثناء موسم الحجّ سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م[٦].

---

(١) البلدان/ ٨١.
(٢) ابن حجر: لسان الميزان، مُصوّرة عن طبعة حيدر آباد الدّكن سنة ١٣٢٩ هـ.: ٨/ ١٩٢. أخذ ابنُ حجر الترجمة عن ابن أبي طي الحلبي (ت:٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م) في كتابه المفقود تاريخ/ رجال الشيعة/ الإماميّة. وهو من المصادر الأساسيّة لكتابه فيما يخصّ رجال الشيعة. والمُترجَم له شيخٌ لوالد ابن أبي طي. ما يدلُّ على الموقع المُتقدّم الذي كان حتى القرن ٦هـ/ ١٢م على الأقلّ لفقهاء الشيعة في حمص.
(٣) علي بن محمد الخزّاز: كفاية الأثر/ ٧٧.
(٤) أيضاً/ ١٦٣.
(٥) أيضاً/ ١٦٢.
(٦) ايضاً/ ١٦٥.

- سليمان بن عمر الرّاسبي. شيخٌ لعُتبة بن عبد الله. يوصفُ في سند الحديث بـ «الكاتب بحمص»[١]. وقد يُفهم من ذلك أنّه كان يعمل في أحد الدواوين الرسميّة في المدينة.

ومن المفيد جدّاً أن نقول للقارئ أن معرفتنا بأسماء هؤلاء المُحدّثين الحمصيين الشيعة الخمسة كان ثمرةً لصُدفةٍ سعيدة، هي لقاء ابن منده بالخزّاز في (مكة) وسماعه منه. ولولا ذلك لضاعت حتى أسماءُ أولئك الفقهاء الحمصيين الشيعة.

وبالمزيد من البحث يمكن أن نحصل على أسماءٍ إضافيّة.

أمّا في المُتأخّرين عنهم فقد عثرنا على ثلاثة:

- المُبارك بن يحيى الغسّاني الحمصي. «كان فاضلاً أديباً وله معرفةٌ تامّةٌ بالانساب. وهو أحدُ مشايخ الشيعة. توفي في ربيع الآخر بجبل لبنان. وكان قد هرب من حمص من التّتر فأدركه أجلُه»[٢].
- محمد بن يحيى الغسّاني الحمصي، أخو سابقه. وُصف هو بـ «الشاعر النّاثر». ووُصف أبوه بأنّه «كان وزيراً من أجلاد الشيعة»[٣]. وهو وصفٌ غير مفهوم لدينا اليوم، بعد أن ضاع تاريخ حمص الشيعيّة.
- أحمد بن علي بن مُعقِل الغسّاني الحمصي. آخرُ فقيهٍ شيعيّ حمصيّ نعرفه. وأحدُ أعظم فقهاء الشيعة في زمانه. ترك بلده وأقام (ببعلبك). وكان لوجوده فيه بركةٌ عظيمة[٤].
- لكنّ ما يجعلُ المُتأمّل يقفُ مُتسائلاً، أنّ المصادر الشيعيّة لاتذكر شيئاً عن أعلام حمص الشيعيّة. فالحرّ العاملي مصنّف أمل الآمل لا يأتي في كتابه على ذكر حمصيٍّ واحد. وهو الذي ملأ الجزء الثاني من كتابه بأعلام جارتيها (حلب) و (طرابلس). ما يدلُّ على أنّه لم يكُن يعرف منهم أحدا. وما ذلك فيما نحسَبُ إلا لأنّها لم يكُن لها من الشأن السياسي والثقافي مثلَ ما كان لجارتيها.

في ختام هذا السّرد الذي جُدْنا فيه من الموجود، فرصدنا الوجودَ الشيعي في (حمص)، ابتداءً من الهجرة الهمْدانيّة إليها، ثم تطوُّر ذلك الوجود فيها ثقافيّاً فقط، بالتعريف بمَن قد عرفناهم من أعلامها، وانتهاءً بالقرن٧ الهجري/ ١٣ ميلادي، نقول:

أتت نهايةُ مدينة (حمص) الشيعيّة، مثلما التّشيُّع في وسط وشمال (الشام) كلّه تقريباً، على يد العناصر العسكريّة التركيّة السلجوقيّة القادمة من أطراف دارالإسلام. التي قمعت التّشيُّع وأهلَه، فأوقفت بذلك التّطوُّر الطبيعي الإيجابي للمنطقة كلّها.

هكذا بدأ الوجودُ الشيعي ينحدرُ في (حمص). وطفق شيعتُها يهجرونها إلى جوارِها القاحل. وفي هذا

(١) محمد بن موسى اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ط. حيدر آباد ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م: ١ / ٣٨٥.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ط. فيسبادن في عدّة سنوات: ٤ / ٣٨٣. وذكره اليونيني في ذيل مرآة الزمان: ٣ / ٤٦٣.
(٣) اليونيني: ١ / ٣٦٣.
(٤) اقرأ تفصيلَ هذا الإجمال في الترجمة المُسهَبَة التي علّقناها له في كتابنا ستة فقهاءٍ أبطال، ط. بيروت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م / ١٣ ـ ٤٣.



السّياق نشأت قُرىً كثيرة في نطاق المدينة يعمرها الشيعة، الذين عاشوا فيها قروناً من بعدُ، في ظلّ الفقر المُدقع والبؤس. ومع ذلك، ثم مع انقطاعهم التّام عن كلّ مصادر المعرفة، فإنّهم حافظوا وحفظوا هُويّتَهم جيلاً بعد جيل، لم يُغيّروا ولم يُبدّلوا. ولقد كان جدُّنا الشيخ حبيب رضوان الله عليه يحملُ لهم تقديراً عالياً. ويزورهم في قُراهم البائسة، ليقضي بينهم الأيام، يشدُّ من عزيمتهم، وينفخُ فيهم روحَ الصّبرعلى ما هم فيه.

وبعد قيام الدولة السوريّة، وارتفاع النّير العثماني عنهم، بدأوا يعودون إلى المدينة التي هجروها قبل قرون. واليوم تقوم في ضواحيها أحياءٌ شيعيّةٌ مُتنامية، سكانها قادمون من تلك القرى البائسة، تزيّنها جوامعهم وحُسينيّاتهم والمؤسّسات من تعليميّةٍ وغيرها كانوا محرومين منها في قُراهم. الأمر الذي يُبشّر بمستقبلٍ طيّبٍ لأُولئك الذي عانوا طويلاً في ماضيهم. على الرُّغم ممّا حاق بهم جرّاء الفتنة الشّاملة التي نزلت أخيراً بوطنهم.

(٣) الهجرة الهمْدانيّة إلى نواحي دمشق

وهي من حقائق التاريخ المجهولة تماماً، لأنّ مؤرخينا الأشاوس يستكبرون عن أخبار العباد. ولكنّ الحقائق البارزة تفرضُ حضورَها بقوّتها الذّاتيّة.

فمن ذلك قُرىً ثلاثةً في (الغوطة) المُطيفة بـ (دمشق) تحملُ أسماء يمانيّة، هي (صنعا) و(حُجيرا) و(عين ثرما). تدلُّ بمجموعِها على أن (الغوطة) كانت مَصَبّاً لأحد فروع الهجرة الهمْدانيّة الكبرى، التي حملت التّشيُّع إلى أكثر مواطن انتشاره في (الشام). وسنتناول كلّاً من تلك القرى بالفذلكة التاريخيّة المناسبة.

أمّا (صنعا) فقد كانت «قريةً على باب دمشق دون المِزّة على نهر (الخلخال) خربت وبقيت مزارعُها»[(١)]. وكانت في عصر ياقوت (ت:٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) مزارع وبساتين.وقد عدا اتساعُ البنيان على مكانِها. ونظنُّ استناداً إلى العلامات الطوبوغرافيّة التي ذكرها ياقوت، أنّها كانت حيث (ساحة الأُمويين) اليوم أو بجوارها.

وأمّا (عين ثرما) فهي من بلدان (الغوطة) الشرقيّة. ما تزالُ تُعرف بالاسم نفسه. ولا ذكر لأصل اسمها. ولكن أسماء المنسوبين إليها، كما سنوردها بعد قليل، له دلالته التي سنقِفُ عليها.

وأمّا (حُجيرا) فهي بلدةٌ في الغوطة الشرقيّة ماتزال. واسمها على الألسنة اليوم (حِجِّيرَة). وأصل اسمها «موضعٌ باليمن سُمّي بحجور بن أسلم الهمْداني»[(٢)].

فمن هذه الأسماء نعرفُ أن الذين سمّوها كانوا بذلك يُعبّرون عن الحنين إلى أوطانهم الأصليّة، كما هو ديدن النازحين.

حسناً... إن تكُن هذه النتيجة تقول أن الذين مصّروا تلك القُرى يمانيّون، فما الذي يدلُّ على أنّهم همْدانيّون؟

الجواب: الدليل هو في أسماء المنسوبين إليها.

(١) معجم البلدان: ٣/ ٤٢٩. و الانساب للسُّمعاني، ط. بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م: ٨/ ٩٢.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٢٢٥.

فمنهم الصنعانيّون:

- يزيد بن مرشد الهمْداني «من أهل صنعاء الشام.روى عن عبد الرحمن بن عوف»[1].
- راشد بن داود البَرسمي الصنعاني«صنعاء دمشق». وبَرسم من بطون همْدان[2].
- الفقيه محمد بن أحمد الهمْداني الصنعاني[3].
- عبد الله بن بركة الهمْداني الصنعاني[4].
- حنش بن عبد الله الهمْداني الصنعاني. هو شخصيّةٌ غامضة، خاض مغامراتٍ جمّة: كان مع علي بـ (الكوفة). ثم ممّن ثار مع ابن الزُّبير (في الشام على ما نظن، أي أنّه وقف مع الضحّاك بن قيس الذي استولى على دمشق لحساب ابن الزُّبير)[5].
- يزيد بن يوسف الهمْداني الصنعاني[6].

ومنهم العين ثرمانيّون:

- عبد الله بن قيس الهمْداني، «من أهل عين ثرما»[7].
- صدقة بن محمد ابن معيوف الهمْداني العين ثرمي.
- عبد الواحد بن محمد ابن معيوف الهمْداني، قاضي عين ثرما[8].
- أحمد بن إبراهيم ابن معيوف الهمْداني، «من أهل عين ثرما»[9].
- حميد بن معيوف الهمْداني. المجاهد والغازي في البحر ضدّ الرُّوم وصولاً إلى جزيرة (صقلّيّة). كان معه في إحدى الوقائع إبراهيم بن أدهم وقُتل هناك[10].
- محمد بن حميد ابن معيوف. ابن المذكور أعلاه[11].
- معيوف بن يحيى. من زعماء همْدان في (عين ثرما). أتى ابن عساكر على ذكره أثناء الحديث عن فتنةٍ بين القيسيّة واليمانيّة في دمشق سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م[12].

---

(١) نفسه: ٣/ ٤٣٠ و الانساب: ٨/ ٩٢.
(٢) معجم: ٣/ ٤٧٠.
(٣) نفسه: ٣/ ٤٢٦.
(٤) ابن ماكولا: الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكُنى والالقاب، ط. حيدر آباد، لات.: ١/ ٢٣٣.
(٥) معجم:٣/ ٤٣٠ والانساب:١/ ٩٣ و٦/ ٨٩ و الاكمال:١/ ٥٥١
(٦) معجم: ١/ ٥٢٥.
(٧) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق: ٧/ ٣٨١.
(٨) ذُكرهما في معجم البلدان: ٤/ ١٧٧.
(٩) معجم البلدان:٤/ ١٧٧.
(١٠) أبو نعيم الإصفهاني: حِلية الاولياء،ط.بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م:٨/ ٩.
(١١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٧/ ٤٥٣. يذكره أيضاً ياقوت، ناسباً إياه إلى بيت سوا. وهي من بلدان الغوطة (معجم: ١/ ٥٢١)
(١٢) تهذيب تاريخ دمشق: ٧/ ١٩٤.

ومنهم مَن هم من (حُجيرا):

- الحارث بن سعيد الحجوري[1].
- معيوف بن يحيى الحجوري. من أبطال وقادة الجهاد ضدّ الروم. خرج في صائفة سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م فأسر وسبى[2].

ويُذكَرُ أيضاً همْدانيّان دون نسبة إلى بلدٍ بعينه من الغوطة، هما محمد ويزيد ابنا معيوف الهمْدانيّان[٣]. وأيضاً يحيى بن عبد الرحمن الهمْداني الدّقّاني، نسبةً إلى (الدّقّانيّة) وهي من بلدان (الغوطة)[٤].

فائدة هذا السّرد للرجال الهمدانيين الذين نزلوا (غوطة دمشق) وذكْر شيء من أحوالهم، أنّ الهجرة الهمْدانيّة إلى (غوطة دمشق) كانت واسعة بحيث تفرّق المهاجرون في ثلاثة قُرى على الأقلّ. ثم أنّهم سرعان ما أنتجوا مجموعةً كبيرةً من النُّخبة. فكان منهم الفقيه والمُحدّث والغازي.

لكنّ السّرد نفسه يطرحُ سؤالاً. فهل أنّ هؤلاء الهمدانيون، إذ نزلوا أنحاء (الغوطة)، كانوا قادمين من (الكوفة)، كأقرانهم الذين نزلوا (حمص) و(جبل الظنيين)، أم قادمين من غيرها؟

في الجواب نقول: ما من سببٍ عندنا للقول بأن شأنهم يختلفُ عن شأن أنسبائهم الذين نزلوا شمال وشرق (لبنان) ومدينة (حمص). ففي (الكوفة) دون غيرها توفّرت المادّة البشريّة والاسباب لهجرةٍ همْدانيّةٍ من ذلك الحجم الكبير الذي يكاد أن يُغطّي (الشام) كلّه. ثم أنّنا قد عرفنا أن أحد زعماء الهمْدانيين في الغوطة كان من أصحاب الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في (الكوفة)، ولا نظنُّ أنّه قدمها وحده، ولا نظنّ أن الحالة كانت شاذّةً فريدة.

هذا، ولقد وقعنا لدى البلداني ـ المؤرّخ الثّبت اليعقوبي على نصٍّ قال فيه: «الغوطة (.....) وبها قومٌ من ربيعة »[٥]. فإذا نحن افترضنا الدِّقّة في عبارة الرجل كما يقتضي الأصل، بل وكما يستحقّ دائمًا بالفعل، وفهمنا من كلامه أنّ كلمة «قوم» تعني جماعةً كبيرةً كما تقتضي الكلمة، فهذا يدلُّ على أن هجرةً من ربيعة موازيةً للأُخرى الهمدانيّة نزلت (الغوطة) أيضاً. مثلما نزلت بلدةَ (عِرْقَة) في شمال (لبنان)، بجوار الهمدانيين في جبل الظّنيين، على ماعرفنا قبلُ في الباب المُخصّص لـ (لبنان). ولكنّنا لم نقع في ما تحت يدنا من كُتُب التراجم والطبقات والرجال على أيّ مَن هو من بني ربيعة مَنسوباً إلى بلدٍ من بلدان (الغوطة). في حين أنّنا ملأنا أيدينا من أعلام همدان فيها.

أعتقد أن ما قمّشناه حتى الآن من مختلف المصادر، على ما هو ذي صِلةٍ بالهجرة الهمْدانيّة إلى أنحاء (دمشق)، يصلُحُ لأن يُبيّنَ لنا العناصر الأساسيّة التاريخيّة للوجود الشيعي في تلك المنطقة. مع الأخذ بعين الاعتبار احتمال أن يكون قد انضاف إليها هجراتٌ صغيرة يذوب أهلها سريعاً في الوسط الجديد دون أن

(١) نفسه: ٧/ ١٩٢.
(٢) الطبري: تاريخ، ط. مصر، دار المعارف، لات.: ٨/ ٤٣.
(٣) تهذيب: ٧/ ١٨٠.
(٤) معجم: ٢/ ٤٥٨.
(٥) البلدان/ ٨٧.

يتركوا أثراً. ولكنّنا نتوقّعُ أن هذا الوجود لن يبقى ساكناً جامداً، بل لابدّ له من أن يتفاعل ويتطوّر ويُنتج، إلا أن ينالَ منه حدَثٌ عنيف يُحبطهم. وقد رأينا كيف أنّ الحميريين في (حمص) قد تحوّلوا إلى التّشيُّع، على أثر وبتأثير نُزول الهمْدانيين المدينة. ولكنّ دخولَ التُّرك في الصورة السياسيّة للمنطقة أحبطهم، وجعل منهم لعدّة قرون مجموعةً خامدةً لا أثر لها ولا فعل.

وعليه نسأل: ما كان تأثير الهمْدانيين في منازلهم الجديدة؟

ومع أنّ السؤال يدورُ على تاريخٍ بائدٍ تقريباً، وليس مُستمرّاً كشأن تاريخ أنسبائهم في (لبنان)، ـ مع ذلك فإنّنا لن نُعدَمَ وسيلةً تساعدنا على تركيب تصوّرٍ وإن إجماليّ لِما آل إليه وضعُ أُولئك المهاجرين. وذلك في نصٍّ تركه لنا ابنُ جُبير الأندلسي في كتابه الشهير الرّحلة.

زار ابن جُبير (دمشق) ولبث فيها بين الخميس ٢٤ ربيع الأول ٥٨٠هـ / ٥ تموز، يوليو ١١٨٤ م، والخميس ٥ جُمادى الآخرة / ٣ تشرين الأول، أُكتوبر، أي ما مجموعه تسعون يوماً. ما أتاح له أن يُسجّل عنها أوفى ما كتبه عن مدينةٍ أُخرى من المُدُن الكثيرة التي زارها.

قال: «وللشيعة في هذه البلاد أُمورٌ عجيبة. وهم أكثرُ من السّنيين بها. وقد عمروا البلاد بمذاهبهم. وهم فِرَقٌ شتّى.منهم الرّافضة، وهم السّبّابون. ومنهم الإماميّة والزّيديّة (....) ومنهم الإسماعيليّة والنُّصيريّة والغُرابيّة»[1].

ومع أنّ النّصّ مليءٌ بالاوهام، التي يكتشفها بسهولة مَن له أدنى معرفة بالشيعة وفِرقهم، كما أنّه متأثّرٌ بقوّة بالافكار الجاهزة لدى صاحبه، ـ مع ذلك فإنّنا لانُهوّنُ إطلاقاً من شأن الانطباع العام الذي سجّله بقوله: «وهم (الشيعة) أكثرُ من السُّنّيين بها». أي في الشام عامة، وليس في (دمشق) خاصّة. ليس فقط لأنه استقاه أو لاحظه بنفسه أثناء إقامته الطويلة في المنطقة، بل أيضاً لأنه يُخالف ويتعارض مع هواه الشّخصي، الذي أفصح عنه بكامل الوضوح والجلاء.

ولكن ماعلاقةُ هذه النتيجة بالسؤال الذي طرحناه قبل قليل؟

الجواب: علاقة هذا بذاك هي تماماً كعلاقة الدّوحة الباسقة الآن، بالبذرة الوحيدة التي طُرحتْ أو طرحَتْ نفسها في المكان عينه قبل سنين. أي أنّ وجود المهاجرين الهمْدانيين في أنحاء (دمشق) هو الذي تداعى أثناء القرون بحيث استولد الحالةَ التي وصفها ابنُ جُبير فيما يخصّ المدينة، بل فيما يخصُّ (الشام) كلّه كما قضينا قبل قليل. خصوصاً وأنّنا نعرفُ يقيناً، أن ليس في تاريخها عاملٌ آخَر يمكن أن يؤدّي إلى النتيجةِ نفسِها أو ما يُشبهها. تماماً كما استولد أنسباؤهم في جبال الظّنّيين مدينةَ (طرابلس) الشيعيّة النّاهضة. وكما استولدوا في أطراف (بعلبك) مدينة (بعلبكَّ) الشيعيّة. وكما استولدوا في مدينة (حمص) مدينة (حمصَ) الشيعيّة. وجماعُ هذه هو الذي استولد الحالة التي وصفها ابنُ جبير بقوله أنّ «الشيعة في تلك البلاد»، أي في كلّ بلاد الشام، أكثر من «السُّنيين».

(١) ابن جُبير: الرحلة، ط. بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م / ٢٥٢.

هو ذا أمامَ أعيُننا سرُّ التشيّع الإمامي: إنّه يزدهرُ وينمو في ظل الغبطة والعلاقات الإنسانيّة الحُرّة. لأنّه في النهاية مشروعٌ إنسانيٌّ، برسم كلّ مَن يتوقُ إلى بناء حياته على قاعدةٍ من السّعي نحو الحياة الحرّة الكريمة، في ظلّ وبالاستفادة من الفُرَص المُتاحَة. وبنحوٍ خاصٍّ بعيداً عن الدّوافع الغريزيّة للقبض على السُلطة وحمايتها بالبطش والغلَبَة. لذلك فإنّه ما أن استولت العناصر التركيّة فيما بعد وبالتوالي على السُلطة، ومعها على كلّ فرصةٍ للمرء للسعي الحُرّ، حتى طفق التشيُّع يتراجع وينجلي.

بالنسبة لـ (دمشق) والبلدان التي مصّرها الشيعة في غوطتها، فقد بدأوا يهجرونها مُتفرّقين إلى قلب المدينة، أو إلى قرىً أُخرى، حيث يتظاهرون مُكرهين بأنّهم من المذهب المقبول من السُلطة. ومع الوقت وتوالي الأجيال تحوّل التظاهر إلى سيرة حياة.

في هذا السياق، فيما نُرجّحُ، نشأ الحيُّ الخاصُّ بالشيعة في (دمشق) حتى اليوم، الذي يحملُ اسماً ذا مغزىً غير خفيّ، هو حي (الخراب) الشيعيّ التاريخي. الذي استُبدل اسمه منذ بعض الوقت بـ (حي الأمين)، تبرُّكاً باسم أوّل عالم شيعيٍّ كبير نزله وأحسن رعايةَ أهلِه، السيد محسن الأمين رضون الله عليه.

نُلاحظ أن نشوء الحي وعمرانه بالشيعة قد حصل في التاريخ نفسه الذي درست فيه قرية (صنعا) المُجاورة، وتحوُّل مكانها إلى مزارع. الأمر الذي قد يوحي بأن الذين هجروا (صنعا) هم أنفسهم الذين أنشأوا حي (الخراب). وهجرهم (صنعا) إنّما حصل بسبب قربها من السور الغربي لقلعة المدينة. أي حيث تحصل التحركات العسكريّة / القتاليّة، وتؤدّي إلى تهديد وإرباك الحياة المدنيّة. فما كان منهم إلا أن سارعوا إلى الانتقال إلى داخل المدينة، إلى حيٍّ كان من قبل خراباً. لكنه احتفظ باسمه حتى بعد أن عمروه.

نذكر بالمناسبة أنّه قبل بضع عقود نشأ على سفوح جبل (قاسيون) المُطلّ على (دمشق) حي شيعيٌّ ثانٍ أكبرُ بكثير من (حي الأمين)، حمل اسم (حي زين العابدين). أكثر سكانه من القادمين من القرى المُجاورة لـ (بعلبك). هو نفسه حي (الصالحيّة) الذي كان الحنابلة قد أنشأوه بعد أن هجروا (القدس)، كما ذكرنا آنفاً. لكنّ أولئك المهاجرين الجُدُد كاثروهم فيه، بحيث بات مؤسسوه اليوم قلّةً نادرةً فيه.

واليوم يبلغُ عدد الشيعة الإماميّة في مدينة (دمشق) وضواحيها زهاء الأربعمائة ألف نسـمة تخميناً. أمّا في وسـط وشمال (سوريا) فإنّنا نُخمّنُ أنّهم في حدود المائة ألف، أو يزيدون قليلا.

(٤) الساحل السوري ونصيبه من الهجرة الهمْدانيّة

لن نستوفي الحديثَ عن الهجرة الهمْدانيّة إلى أنحاء (الشام)، دون أن نُعرّجَ على مدينتَي (جَبَلَة) و(اللاذقيّة)، لِما لهما من خصوصيّةٍ سنعرفها. على الرغم من تهيُّبنا هذا التعريج، لأنّه يُدخلُنا مجاهلَ واحدةٍ من أكثر المساحات غموضاً في تاريخ التشيّع الإمامي في بلاد (الشام). أعني فرعه العرفاني، المعروف منذ أمدٍ قريبٍ بالعلويين.

لذلك نقول أن ليس من بُغيتنا الآن وُلوج الموضوع، بما يحفل به من وجهات نظرٍ مختلفة، إلا بالمقدار الذي تقتضيه خطّةُ الكتاب.

اليعقوبي، وقد عرفناه جيّدا من أبرز جغرافيي ومؤرخي القرن الثالث هـ / التاسع م، يقول: «مدينة جَبَلَة وأهلها همدان»، وأنّ «في اللاذقية قومٌ من همدان»[1]. (لاحظ هنا دقّة عبارة اليعقوبي، حيث ميّز بين نسبة الهمْدانيين في البلدَين).

لكنّه لايقولُ شيئاً على الجبل المُجاور المعروف تاريخيّاً بـ (جبل بُهراء) نسبةً إلى (بُهراء) القبيلة وعلى سكانه، وهو نفسه الذي بات اسمه منذ أمدٍ قريب (جبل العلويين).

ولعلّ اليعقوبي، الذي لا يسعُنا إنكارُ فضله العميم على بحثنا إجمالاً، لم يُتَحْ له التعريجُ على الجبل، كما جرت عليه عادته في البلدان التي يكتبُ عنه. كيما يُحدّثنا، وإنْ على طريقته الموجَزَة، بشيءٍ عن تركيبته السُكّانيّة.

وإنّنا لنحسُّ من كلام اليعقوبي أمراً، يدعونا إلى ترجيح أن التّبدُّل الذي طرأ على اسم الجبل، كان فرعاً وتابعاً لتبدُّل سكانه من قبيلة بُهراء سكانه الأصليّون إلى غيرهم.

ذلك أنّه حين مضى يُحصي القبائلَ العربيّة النازلة «جُند حمص»، رأيناه يذكر بُهراء في (حماة) و(البارة) و(فامية). أي بعيداً بدرجاتٍ مُتفاوتة عن الجبل الذي كان منسوباً إليها (جبل بُهراء). ولم نره يذكر (بُهراء) في أقرب مدينتين من الجبل نفسه. أعني (جَبَلَة) و(اللاذقيّة).

استناداً إلى هذه الملاحظة يمكن للمتأمّل أن يستنتجَ بسهولة، أنّهم انساحوا من وطنهم التاريخي (جبل بُهراء)، بعد أن دخلوا في الإسلام مُبكّرين. في حين أنّنا رأيناه يقولُ، أنّ عامّةَ أهل (جبلة) (وهي من جبل بُهراء) همْدانيّون، وأنّ الهمدانيين موجودون بنسبةٍ ما في (اللاذقيّة). الأمر الذي نفهمُ منه أنّ أُولئك الهمْدانيين نزلوا المنطقة بعد أن هجرها أهلوها من بني بُهراء.

لذلك فإنّنا نُرجّحُ أنّ همْدانيي (اللاذقيّة) و(جَبَلة) قد نزلوهما قادمين من المنطقة الجبليّة الأقرب، أعني جبل بُهراء. وذلك لاستحالة أن يكونوا قد نزلوهما مُباشرةً قادمين من (الكوفة)، شأن همدانيي (حمص) وأطراف (بعلبك) و(غوطة دمشق). ذلك لأن (اللاذقيّة)، وهي المدينة الأقرب من سواحل الرُّوم، ظلّت لفترةٍ طويلة، امتدّت طوال القرنين الأول والثاني للهجرة / السابع والثامن للميلاد على الأقلّ، وربما أكثر، هدفاً سهلاً لأعمال الرُّوم العسكريّة البحريّة، التي دأبت على تنظيم هجمات سريعة على البلدان الإسلاميّة الساحليّة فتقتلُ وتنهبُ وتُحرق، في ظلّ عجز المسلمين عن مُجاراتهم بسبب ضعف قوّتهم البحريّة. بل إنّها بقيت لمدّةٍ طويلةٍ خاليةً تماماً من السُكان بعد أن أحرقها الرُّوم. بحيث سُمّيت (اللاذقيّة المُحترقة).

ثم أن القاعدة في المنطقة عموماً، أنّ الحركة السُكّانيّة تتجه من الجبال نحو المُنخفضات الساحليّة أو السهول الداخليّة. إلا تحت تأثير الحرب واختلال الأمن، فينعكس اتجاه حركة السُّكان.



(١) البلدان / ٨١.



لذلك فإنّنا نُخمّنُ أن فرقةً من بني همْدان قد نزلت (جبل بُهراء)، بعد أن هجره سُكانُه التاريخيّون إلى منطقة السهول الخصيبة: (حماة) و(البارة) و(فامية)، خضوعاً لمنطق الحركات السُكّانيّة الذي بيّنّاه قبل قليل. في الوقت نفسه الذي نزلت فرقةٌ أُخرى (جبلَ الظَّنّيين) القريب. ومنه هبطت الأُولى منهما إلى (جَبَلَة) و(اللاذقيّة). في حين هبط إخوانهم في (جبل الظّنيين) القريب إلى (طرابلس).

استناداً إلى قاعدة الاستمرار في التاريخ والبحث التاريخي، فإنّ الهمْدانيين الذين نزلوا (جبل بُهراء)، ثم هبطوا منه بعد قرنين / ثلاثة إلى (جَبَلَة) و(اللاذقيّة)، فيما نُخمّن، هم من أسلاف مَن يُعرفون اليوم باسم العلويين[1]. وما هم في الحقيقة إلا شيعةٌ إماميّةٌ. وما الأمرُ الذي أضفناه بالنتيجةِ التي أوصلنا إليها هذا التنقيب البلداني ـ التاريخي، إلا أنّنا أصّلناه على المستوى السُكّاني. والمعروف أن عدد الشيعة العلويين في (سوريا) هو مليونان ونصف المليون تقريباً. على أن هذا الرقم لا يستند إلى إحصاءٍ دقيقٍ مقصود.

(٥) الشيعة في شمال سوريا وفي الجزيرة

أمّا شمال سوريا فهو معروف. ومن أبرز حواضره اليوم (إدلب) و(حلب). المعمورتان بالشيعة جزئيّاً.

وأمّا (الجزيرة) فهي إقليمٌ يمتد عبر شمال شرق (سوريا) وشمال غرب (العراق) وجنوب شرق (تركيا). تقتسمها اليوم الدول الثلاثة. وحدّاها تاريخيّاً من الجانبين مجريا نهري دجلة والفرات، أي ما يُسمّى (وادي الفرات) الأعلى، وهي مابينهما، ومن هنا اكتسبت اسم (الجزيرة) على سبيل التّجوُّز، بمناسبة أنّها مُحاطةٌ بالماء من جهاتها.

وممّا يجدر بنا ذكره في طليعة كلامنا تحت العنوان أعلاه، أنّ هذه المنطقة الشاسعة الخصيبة كانت مصبّاً لهجرات عربيّة قبل الإسلام، تعزّزت بقوّة بعد الإسلام. الأمر الذي جعل منها موطناً لتجاذباتٍ جمّة قبَليّةً وسياسيةً ومذهبيّة. ومن المفهوم أنّ سبب الإقبال عليها هو خصوبة أرضها وغزارة المياه فيها. لكنّنا يُمكننا أن نُضيف إلى ذلك سبباً خفيّاً، يفسّر بالخصوص وفرةَ الشيعة تاريخيّاً بين سكانها، هو الرغبة في الابتعاد عن المراكز المدينيّة وأريافها، حيث تكون السّطوة للدولة وأجهزتها. وهذا سببٌ من أهمّ أسباب انتشار التشيّع بعيداً نحو الأطراف. ومنها، مثلاً، المنطقة الفارسيّة، حيث نجد نماذج كثيرة.

ومن الشّواهد الباقية على ذلك وفرة السّادة الأشراف في (الجزيرة) خصوصاً. ومنهم عشيرة البقّارة التي ترتفع بنسبها إلى الإمام الباقر عليه السلام. وتمتدّ منازلها من جنوب (الحسكة) إلى (دير الزّور) و(إدلب). والبيوتات الحسينيّة الكثيرة، المعروفون بصحّة أنسابهم، ولديهم وثائق قديمة، وكلّهم حسينيّون. ولكنّهم اندمجوا لأسبابٍ اجتماعيّة في قبائل عدّة أو طُرُق صوفيّة. نذكر منهم الأُسرة الرفاعيّة، وآل أبو عبد العبادي،

---

(١) نقول ذلك بما يعني أننا لا نوافق على زعم محمد أمين غالب الطويل أن الغساسنة هم أسلاف العلويين. انظر كتابه تاريخ العلويين،ط.بيروت١٩٦٦/ ٥٣ـ٥٤و٢٥٣. لأن هؤلاء ككلّ مُتنصّري العرب في المنطقة ارتحلوا في أثر سادتهم الروم دون رجعة.

والنقشبنديّة، والقادريّة، والمراسمة، وآل البعّاج الموجودون أيضاً في (العراق)، وغيرهم كثيرون.

وفي الآونة الأخيرة بدأ هؤلاء يستيقظون على حقيقة هويتهم، فشرعوا يتظاهرون بالشعائر الشيعيّة. الأمر الذي أثار حفيظة غير جهة دينيّة وسياسيّة مُخالفة، فشرعوا يتكلمون وسط ضجيجٍ كبيرٍ عن عمليّة (تشييع) منظّمة، تقودها وتُغذّيها جهاتٌ خارجيّة.

من الإشارات القويّة الدّالّة على تهيّؤاتٍ شيعيّةٍ مُبكّرة في أنحاء (الجزيرة) وشمال ووسط (سوريا)، ما نقرأه في المشاهد الكثيرة التي بناها الناس حيث نزل موكب سبايا يوم (كربلا)، القادم من (العراق) باتجاه (دمشق)، وما يزال الكثيرُ منها قائماً حتى الآن. وهي مشاهد كثيرة، أولها في (الموصل)، ومشاهدُ متعدّدة في (نصيبين)، وكلاهما من بلدان (الجزيرة). وثالثةٌ في (مسكنة)، أوّلُ بلدٍ من بلدان (الشام) لَمن يأتيه من جهة (الجزيرة)، ورابعةٌ في (حلب) تُعرف بـ (مشاهد جبل جوشن)، و(مشهدُ الرأس) في (حماه)، ومشهدٌ في (حمص) ، وآخَرٌ في (بعلبك). ومن شبه المؤكّد أن هذه المشاهد هي مابقي من مشاهد غيرها اندثرت ونُسيت. وقد بسطنا الكلام عليها في كتابنا موكب الأحزان.

وجه الدّلالة التي هي موضع اهتمامنا الآن، أن هذه المشاهد السبعة الباقية قد بنى آساسَها الناسُ بمبادرةٍ منهم. بعد أن تبيّنت لهم الخديعة التي نشرتها السُلطة، بالقول أنّ هؤلاء الذين وصفتهم بأنهم «خارجون على أمير المؤمنين» ما هم في الحقيقة إلا من آل النبيّ ﷺ[1]. فطفقوا يضعون ما يدلُّ على المواضع التي نزلوها تعبيراً عن حزنهم وتقديرهم للضحايا، وربما أيضاً تكفيراً ضمنيّاً أيضاً عن مظاهر الفرح والزّينات التي ارتكبوها بحقّهم بأمرٍ من رجال السُلطة. ومع الوقت تابع الخلفُ حفظ تلك الأنصاب وتعزيزها وإشادتها، وغدت مشاهد مقصودة من الزائرين كما لا تزال.

هذا يدلُّ على عظمة مكانة أهل البيت عليهم السلام في نفوسهم، وعلى إدانتهم جنايةَ السُلطة بحقّهم، وعلى تحقيرهم مخداعتها إياهم، استمرّ كلُّ ذلك من السّلف إلى الخلف. ولم يكُن معنى ومضمون التشيّع آنذاك يتّسع لأكثر من ذلك.

وعلى كلّ حال فنحن لم نرَ فيما ذكرناه من سلوك أهل تلك البلدان في بداية الأمر إلا صِرْف تهيّؤات، تلقّاها الخلفُ بعد الخلف وعزّزها ماديّاً ووُجدانيّاً، بحيث غدت مشاهد مشيدة. أي أن بداية هذه الظاهرة كانت قاعدة مُبكّرة، صالحة ومناسبة للتعاطي الإيجابي مع هجرات تلقاها غربُ الشام ووسطُه، بيّنّاها فيما فات، و سنتابعها فيما بقي من أنحائه.

ثم أنّ الموقع الجغرافي لـ (الجزيرة) ولشمال (سوريا)، الأقرب إلى (العراق)، منحه أن يكون الممرّ الخلفي لحركةٍ سُكّانيّة نشيطة باتجاه منطقةٍ شاسعة تشملُ (الشام) كلّه، استقرّ بعضها فيهما. وغالباً إن لم يكُن دائماً، حملت معها تهيؤات شيعيّةً. التقت مع خلفيّةٍ سبقتها. وقد رأينا قبل قليل أُنموذجاً منها في كثرة الأُسرات الهاشمية في شمال (سوريا) وفي (الجزيرة) إجمالاً. ونُضيفُ الآن أن هجرة ربيعة من (العراق) إلى المنطقة

(١) انظر كتابنا موكب الاحزان، حيث يجدُ القارئ تفصيل الكلام على ما أوجزناه هنا.

نفسها، حاملةً معها تشيّعها ولا ريب، كان ذا أثرٍ على أسلافهم هجرةً إلى (الجزيرة) خصوصاً من القبيلة نفسها قبل الإسلام، الذين كانوا من الكثرة بحيث فرضوا اسمهم على قسم جيّدٍ من الجزيرة حمل اسم (ديار ربيعة)، إلى جانب (ديار مُضر) و(ديار بكر). الأمر الذي يُفسّر لنا انقلاب بني ربيعة السريع والسّهل من النصرانيّة مباشرةً إلى التشيّع.

الأمر نفسه يجب أن نُلاحظه على قبيلة تغلب النصرانيّة أيضاً، التي لم تكن بمثل عديد ربيعة في (الجزيرة). ولكنّها نجحت نجاحاً باهراً في فرض وجودها كما سنعرف.

وقد أعلنت بطون تغلب في (الجزيرة) ميلها إلى الإمام عليّ عليه السلام وعدائها لمعاوية قبل صفين. ذلك أنه ما أن صار الإمامُ إلى (الجزيرة) في طريقه إلى (صفين) حتى لقيه «بطون تغلب والنمر بن قاسط فسار معه منهم خلقٌ عظيم»[1]. هنا علينا أن نفهم أنّ هذا الموقف من تغلب كان بمثابة إعلانٍ لإسلامها، أي أنها كربيعة انقلبت مباشرةً من النصرانيّة إلى التشيُّع. وإن بقي قسمٌ منها على النصرانيّة، منها الأخطل الذي كان شاعرالبلاط الأُموي.

تغلب أعطتنا الإمارة الحمْدانيّة في (الموصل) (٣١٧ـ٣٧٩ هـ/ ٩٢٩ـ٩٨٩م) ثم في (حلب) (٣٣٣ـ٣٩٩هـ/ ٩٤٤ـ٩٨٩م).

القبيلة الكبيرة الواسعة الانتشار بنو كلاب يبدو أنها كانت شيعيّةً بأكملها، وإن نكن لانعرف من أين استقت تشيّعها. هذه القبيلة أعطتنا إمارتين شيعيّتين في (الجزيرة) وشمال (سوريا)، هما بنو عُقيل (٣٧٥ـ٤٩٦هـ/ ٩٨٥ـ ١١٠٢م) في (الموصل) و(سنجار) و(بلد) و(حلب) و(عانة) و(الحديثة) و(تكريت)، وصولاً إلى (هيت)و(عكبُرا) من قرى (بغداد). وبنو مرداس بـ (حلب) (٤١٥ـ٤٦٨هـ / ١٠٢٤ـ ١٠٧٥ م).

وحدهم بنو كلب، القبيلة الصغيرة نسبيّاً، حالفوا الأُمويين وبقوا على النصرانيّة. وكان معاوية يعتبرهم النصير الاساسي له من الشاميين، كما كان يخصّهم بعطاءاتٍ وافرة. وتزوّج منهم ميسون الكلبيّة أم ابنه الوحيد يزيد، التي بقيت على النصرانيّة، حتى بعد زواجها من (خليفة المسلمين)[2].

في هذا النطاق من انتشار التشيّع في (الجزيرة) وشمال (سوريا)، ظهرت (حلب) مدينةً ذات حياةٍ عقليّةٍ شيعيّةٍ مُتميّزة، في منطقةٍ شاسعةٍ تفتقرُ بشدّةٍ إلى هذا النمط من الحضور المعنوي.

ومن المؤسف حقّاً أننا على كثرة ما كتبه السّلف على تاريخ المدينة وأعلامها في فترة توهجها، فإنّنا لانجدُ بين أيدينا اليوم بحثاً تركيبيّاً جاداً يُثنّي باحثه على جهود السّلف بحق المدينة.

(١) تاريخ اليعقوبي، ط. بيروت دار صادر، لات.:٢/ ١٨٧.

(٢) نذكر بالمناسبة أنّه لادليل إطلاقاً على أن يزيد، الذي ربّته أمه النصرانيّة، كان مسلمًا. ذلك أنّه لم يُذكر إطلاقاً أنه دخل الحجاز ورأى المسجد الحرام وكعبته. مع أنّه كان معروفاً بحبّه للتجوّل، ما يدلّ على أنهما لم يكونا يعنيان شيئاً لديه. كما أنه لم يُرَ في جمعةٍ ولا جماعةٍ ولا مسجدٍ قبل الخلافة. نعم بدأ يحضر بعض المراسم الدينيّة بعد الخلافة لضرورات المنصب. على أنه لم يُذكر إطلاقاً أنه صلّى بالناس، مع أنه من ضرورات منصبه.

لقد كُتبت كتاباتٌ مُتعجّلة على الطريق الذي سلكه التشيّع في طريقه إلى (حلب)[1]. ولكن مُشكلة هذه الأُكتوبات أنّها تبحث دائماً عن أبطال. كمن يبحث عن شجرةٍ في الغابة، دون أن يرى الغابةَ نفسها. ومن ذلك أن الشيخ سليمان ظاهر، في مقالته المذكورة في الهامش أدناه، يولي أمرَ تشيّع (حلب) إلى بني زُهرة. وهي أُسرةٌ من الأشراف الحلبيين ليست بذات كبير شأن. وعلى كلّ حال، فإنّ (حلب) كلّها ليست بالشأن الذي تستحقُّ معه أن تُذكر إلى جنب رصيفتها وجارتها (طرابلس) العظيمة. كما أن بني زُهرة على استمرار حضورهم مدّةً طويلة في (حلب)، قبل أن يهجروها إلى (الفوعة) في (إدلب)، لم يكونوا بذاك، ولم يتركوا أثراً مكتوباً باقيّاً يُذكر.

بل إنّنا نظنّ أنّ قسطاً كبيراً من شُهرتهم الحيّة حتى اليوم يرجع الفضلُ فيه إلى طول انفراد الأُسرة بالحضور، بما لها من صفة، في المدينة وفي المنطقة. ثم إلى الإجازة المُفصّلة الرنّانة التي منحهم إياها العلاّمة الحسن بن يوسف الحلي (ت: ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥م)، المعروفة بالإجازة الكبيرة لبني زُهرة. وهي من بدائع وغرائب الإجازات.

والحقيقةُ أنّ تشيّع (حلب) ليس ظاهرةً منفصلة عن التشيّع الذي كان محيطاً بها من كافة جوانبها. وقد وصفنا منه ما يقتضيه موضوع الكتاب.

نعم ثمة إضافةٌ لـ (حلب) وتشيّعها بالذات هي الفترة الباهرة لسيف الدولة الحمْداني (٣٣٣ـ ٣٥٦هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٦٦م)، سُداها جهاد الروم بوصفه إحياءً لتقاليد مجيدة باتت مهجورةً في زمانه، ولُحمتها أن جعل من بلاطه مقصداً للعلماء والأُدباء والشعراء، كما أنشأ دار كُتُبٍ فيها[2]. وكما هو متوقّع، فقد كان ذلك إحياءً لروح المدينة وعمارةً جديدةً لشخصيّتها، دخلت بها التاريخ من أوسع الابواب.

كما يُقال أنه نقل إليها شيعةً كثيرين من (حرّان) و (قنّسرين)[3]. الأمر الذي يدلُّ ضمناً على وجود خلفيّة سُكّانيّة شيعيّة واسعة حول (حلب)، كلّ ماعمله سيف الدولة حسب الرواية، هو تحريكها ضمن منطقة نفوذه لأغراضٍ محلّيّة.

المُهمّ أن الأُنموذج الجهادي ـ الفكري المُتقدّم نسبيّاً، وغير المسبوق في كلّ المنطقة، الذي قدّمته (حلب) زمان سيف الدولة، كان جاذباً فعّالاً لغير الشيعة من أبناء المنطقة باتجاه التشيُّع. بحيث انتشر انتشاراً واسعاً. بل بات صِبغة شمال (سوريا) بأكملها. الأمر الذي يمكن أن نقرأه في عشرات الأدبيّات التي أنتجها أُدباؤهم وشعراؤهم. وهو كثيرٌ جدّاً.

أظنّ أنني بما قد سردتُه على انتشار التشيّع، انتشاراً غالباً، في شمال (سوريا) و (الجزيرة) إجمالاً، أكون قد زوّدتُ القارئ بصورةٍ وافيةٍ بالمطلوب على انتشار الشيعة والتشيُّع في تلك المنطقة، ستفاجئه على الأرجح ، وإن

(١) انظر مثلاً مقالة الشيخ سليمان ظاهر في مجلة العرفان سنة ١٩٢٢، المجلد السابع / ١٣٩ ـ ١٤١. ومحمد حماده: تاريخ الشيعة في لبنان وسوريا والجزيرة في القرون الوسطى ، نشر دار بهاء الدين العاملي للنشر / ١٨٥.

(٢) معجم البلدان: ٦/ ٤٠٤ وراغب الطباخ: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط.حلب ١٩٢٣: ١/ ٢٧٩ ـ ٨٠. وحرّان بلدٌ كان غير بعيدٍ عن حلب.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم / ٢٢٥.



يكُن من الممكن جدّاً أن نُضيف إليها وأن نُعزّزها، دون كبير صعوبة، بإيراد الكثيرَ من معالم وأشكال الحضور الشيعي فيها.

ولكنّ ذلك يطرحُ السؤال الذي بات سيّالاً في فصول الكتاب:

إلى مَ انتهت ظاهرة التشيّع الكبيرة في شمال (سوريا) وفي (الجزيرة) وكيف وأين؟ ولماذا لا نجدُ لها الأثرَ المُتوقّعَ مذهبيّاً وعديداً، كما رأينا في لبنان مثلاً؟

في الجواب نقول:

إن دخول العناصر التركيّة من السلجوقيين إلى العثمانيين، في الصورة السياسيّة للمنطقة الشاميّة وغيرها، وبسط سلطتهم عليها، أدخل إلى عالَمِ الإسلام إجمالاً عنصراً غريباً تماماً عن الثقافة العامّة السّائدة، ومن عناصر هذه الثقافة مسألة وجود مذاهب متعدّدة، تتعايش تحت شعار الإسلام. وخصوصاً في منطقتيَن ذاتي عمقٍ حضاريّ هما (وادي الرافدين) و(سوريا).

العناصر التركيّة لم تكُن لديها أدنى خبرة بالمسألة المذهبيّة. الإسلام عندها الذي عرفته هو المذهب الحنفي حصراً. ولذلك فإن موقفها من المذاهب الأُخرى كان يتسم بدرجاتٍ متفاوتةٍ من الرفض والعدائيّة. من حرمان أتباع المذاهب السُّنّيّة غير الأحناف من المناصب الدينيّة، انتهاءً إلى إخراج أتباع كلّ المذاهب غير الأربعة السُّنّيّة من الإسلام.

في هذا الجو الخانق بدأ سراجُ (حلب) يخبو، بعد أن كانت تُضيء ما حولها إلى مسافةٍ بعيدة. ومن إمارات الوضع المُزري الذي وجدت نفسها فيه، بعد أن فقدت حرّيتها، أنّ آخر كبار مُصنّفيها من الشيعة محيي الدين بن حميدة الشهير بابن أبي طي الحلبي (ت: ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) صنّف ما يزيد على الخمسة وعشرين كتاباً في مختلف الموضوعات، ظلّ بعضها موضع اهتمام المثقفين من بعده، وكثيرون من المؤرخين وكُتّاب السيرة اقتبسوا ونقلوا عن كتابه الهامّ (رجال الشيعة / الإماميّة). ومع ذلك فإنّنا لسنا نجدُ للكتاب اليوم ولا لأي كتابٍ آخر ممّا صنفه صاحبه نسخةً. الأمر الذي يدلُّ دلالةً صريحةً على الجوّ العدائي لكلّ ما يتصلُ بالشيعة والتشيُّع الذي باتت فيه (حلب) بعد أن أصبحت تحت حكم الاتراك.

ومن إماراته أيضاً أنّ بني زُهرة، الذين كانوا طليعة مثقفي الشيعة في (حلب)، بدأوا يهجرونها تباعاً إلى قريةٍ صغيرةٍ في (إدلب) اسمها (الفوعة). وربما تحوّل بعضهم إلى بلدة (نُبُّل) المجاورة لـ (حلب).

واليوم لم يبقَ من أثرٍ للشيعة في شمال (سوريّا) إلا هاتين البلدتين، بالإضافة إلى بلدة (الزّهراء) الحديثة التّمصير نسبيّاً بجوار (الفوعة). ويبلغ عدد سكان البلدات الثلاث زهاء السبعين ألفاً. بالإضافة إلى قرىً كثيرة حول مدينة (حمص) في وسط (سوريا).

بالنسبة لـ (الجزيرة) وشيعتها، خصوصاً في قسمها الذي بات اليوم من الدولة التركيّة، والآخر الذي من دولتي (سوريا) و (لبنان)، وهم الذين يُعرفون اليوم باسم (العلويين)، ـ فإنّ هؤلاء بعد أن فقدوا السّند الرئيسي للتبليغ والتعليم والإرشاد، الذي كان مُتمثّلاً بـ (حلب) وعلمائها، انحدروا انحداراً سريعاً باتجاه ثقافة

السّرّ، بما تنطوي عليه من كتمان وباطنيّة، بما يعنيانه وينطويان عليه من هروب من المواجهة الفكريّة. وهو ردُّ فعل طبيعي في مثل الظرف الذي بات فيه هؤلاء الشيعة تحت السيطرة التركيّة العدائيّة. بالإضافة إلى الافتقار إلى النّاظم الفكري الذي كانت تُمثّله (حلب) كما عرفنا. ووضعهم اليوم في (سوريا) معروف، لاضرورة للخوض فيه بأكثر ممّا هو معلوم.

الباب الثالث: جنوب الشام

تمهيد

نعني بـ «جنوب الشام» (الأُردُنّ) و (فلسطين). ومن (الأُردنّ) (جبل عامل) وحاضرته مدينة (صور) الساحليّة.

بهذا التصنيف البلداني نكون قد اخترقنا الاعتبار السياسي، الذي ألحق (جبل عامل) و (صور) في أواسط القرن الماضي بـ (الجمهوريّة اللبنانيّة) النّاشئة. وإنما اخترقناه لأسبابٍ منهجيّةٍ سيلحظها القارئ الحصيف، وليس تعبيراً عن أو خضوعاً لموقفٍ سياسي. كما أننا تجاهلنا واقع الاحتلال اليهودي. مع أنّنا قُلنا في المقدمة أنّنا سنبني الكتاب على التكوينات السياسيّة القائمة بالفعل. وما ألجأنا إلى هذا الخروج إلا أن (جبل عامل) قد نشأ سُكّانيّاً في جنوب (الشام). وكان منه عند البلدانيين القدماء قاطبة، إلى أن ألحقته السياسةُ بالجمهوريّة اللبنانيّة الجديدة ولمصلحتها، كما ألمحنا آنفاً. ثم أننا، طبعاً، لسنا نعترف بالاحتلال اليهودي، ولا نبني عليه.

والحقيقةُ أنّ الاحتلال اليهوديّ لأكثر (فلسطين) قد قطّع أوصال (سوريّة) الجنوبيّة. ومنع التّواصُل اليومي الطبيعي الذي كان قائماً بين حواضرها في الماضي القريب والبعيد. والحقيقةُ أيضاً أنّ كافة علاقات عمل أهل (جبل عامل) قبل الاحتلال كانت مع جنوبه، وبالتحديد مع (عكّا) و (حيفا) و (صفد)، وليست مع شماله، مدينة (بيروت)، كما هي اليوم.

ثم أنّ من المعلوم أن المسلمين بعد أن بسطوا سلطانهم على (الشام)، اعتمدوا قسمته إلى أربعة أجناد لاعتباراتٍ عسكريّةٍ تعبويّة: (جُند حمص)، (جُند الأُردنّ)، (جُند دمشق)، و (جُند فلسطين). وكانت مدينة (طبريّة) عاصمة (جُند الأُردنّ). وتمتدُّ حدوده من (أذرعات)، المُسمّاة اليوم (درعا)، إلى ساحل البحر عند (عكّا). أي أنّ (جبل عامل) كان يدخل ضمن نطاق مدينة (طبريّة)، الذي بات الآن موزّعاً على ثلاثة دول.

بعد هذا التمهيد المنهجي علينا أن نقِفَ على علاقة مانعرفه من تاريخ (الأردنّ) بموضوع الكتاب. خصوصاً وأنّنا نعرف أنّه، باستثناء (جبل عامل)، بات اليوم خالياً تماماً من الشيعة. الأمر الذي قاد إلى حالة قطْعٍ تاريخيّ. وهو الظرفُ النموذجي الذي يضيعُ فيه تاريخُ الأُمم.



(١) من أين نبدأ؟

النّصُّ المُباشر والفريد على التاريخ المُبكّر للشيعة في (الأُردنّ) نجده في كلماتٍ معدوداتٍ لدى المؤرخ الرّحّالة محمد بن أحمد البنّاء المقدسي (حي: ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حيث يقول: «وأهلُ طبريّة ونصف نابلس وقَدَس وأكثرُ عمّان شيعة»[١].

المقدسي يقول بصريح العبارة أنّ (وادي الأُردنّ) كان في زمانه، أي في القرن ٤ هـ / ١٠م معموراً بأكثريّةٍ شيعيّة غالبة. يسوق كلامه هذا، وهو ابنُ المنطقة والخبيرُ المُتمكّن بأحوالها، سَوقَ المُسلّمات المشهورة. بحيث لا يتكلّفُ لذكرها إلا أقلَّ الكلمات.

بالنسبة إلينا فإنّ ما جعله بغنىً عن التفصيل، هو نفسه ما يجعلنا اليوم بأقصى الحيرة. حيرةً عبّر عنها المُستعرب الشهير آدم متز بقوله، بعد أن اقتبس عبارة المقدسي، بقوله: «ولا أدري كيف تمّ ذلك»[٢]. ونحن أيضاً لاندري، ولكنّنا سنحاولُ على الأقلّ أن ندري. اعتقاداً منّا بأنّه ما من حقيقةٍ من حجم السؤال الذي يطرحه نصُّ المقدسي تختفي كلّيّا دون أن تترك أثراً ما مهما يكُن ضئيلاً. ولكنّه على كلّ حال يبقى أفضل من الجهالة.

من الواضح للقارئ اللبيب، أن البحث عن الجواب ينبغي أن يتفحّصَ عن عاملٍ خارجي وراء ظهور التشيُّع في (الأُردنّ). كامنٌ حصْراً في حركةِ سُكّانيّةٍ.

والبحثُ هنا سيقودنا أيضاً إلى همْدان، التي يبدو أنّها صاحبةُ السّهم الأوفر في نشر التشيّع في أنحاء المنطقة الشّاميّة.

(٣) همْدان في الأُردنّ

ذلك أنّه في السنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م، إبّان ذروة حركة الفتوح في (الشام)، قدم أوائل مستنفري (اليمن) إلى (الحجاز). فوجّههم أبو بكر إلى (الشام)، لإسناد القوّة الإسلامية هناك. وكان أوائلهم همْدانيين يرأسهم حُمرة بن مالك الهمْداني. الذي سيعيّنه معاويةُ بعدُ أميراً على مَن سيُعرفون بعد قليل باسم «همدانيي الأُردنّ»[٣]. هذا دليلٌ واضحٌ على وجودٍ همْدانيّ مُعتّدٍّ به في المُستنفرين، وبالتالي في جُند الأُردنّ في تاريخٍ مُبكّر. ومع ذلك فإنّنا لا نجدُ أحداً منهم مع معاوية في (صفين). وقد سجّل المسعودي هذه المُلاحظة حيث قال: «ولم يكُن بصفين منهم (من بني همْدان) أحدٌ مع معاوية وأهل الشام»[٤].

---

(١) أحسن التقاسيم، ط. ليدن ١٩٠٦ / ١٧٩.
(٢) الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، ط. بيروت ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧م/ ١٢١.
(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر: ٤ / ٤٤٦.
(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. بيروت، نشرة الجامعة اللبنانيّة: ٣ / ٢٨٤.

هوذا من همدان موقفٌ لاينقصه الوضوح ولاالشجاعة. ينطق بأن همْدان الأُردنّ اعتزلت القتال لأسبابٍ تتعلّق بضميرها وبوضعها السياسي. فلم تُقاتل مع معاوية لِما لها من وشيجةٍ حميمةٍ مع الإمام الذي أسلمت وتفقّهت على يده. كما أنّها لم تُقاتل مع علي عليه السلام لأنها في كنف معاوية وتحت جناحه. على أنّ رئيسها حُمرة بن مالك شهد الوقعة مع معاوية، لأنه كان مضطراً إلى التعبير عن ولائه الشخصي لوليّ نعمته وإنْ وحده. لكن لم يُذكَر أنّه قاتل بالفعل.

والظاهر أنّ هذه النقطة، أعني إبراز همْدان في معسكره، كانت تُصادف هوىً خاصّاً عند معاوية. الذي كان من مكره أن حرص دائماً على تقديم همْدانييه في مقابل همْدانيي (العراق). فكان حُمرة نفسه أحد شهوده في عقد التحكيم مع الحسن [1].

ثم كان هو وسُبيع بن يزيد الهمداني من شهوده في عقد الصلح مع الحسن [2] عليه السلام. وكأنه بهذه وتلك كان يتلذّذ بمُمارسة فعل اقتران بالقبيلة التي أنكته وأوجعته كما لم يفعل غيرها من القبائل. وإنّني أدعو القارئ اللبيب إلى التّمعُّن في هذه الوقائع، حيث قد يكتشف كيف دُفع همدانيّوا (العراق) دفعاً إلى الالتحاق بإخوانهم الذين سبقوهم إلى (الأُردنّ)، كي يكونوا تحت جناح معاوية. وبذلك يُعطّل تأثيرهم السياسي. ولكنّه بهذا التدبير الماكر نشر الشيعة والتشيّع في أنحاء (الشام)، طبعاً دون أن يقصد. وذلك من أعظم العِبَر.



(٤) همْدانيّوا الأُردنّ وهمْدانيّوا الكوفة

ثم أنّه ما من ريبٍ في أنّ التحاق همدانيي (الكوفة) بهمدانيي (الأُردنّ) فيما بعد قد كان له أكبر الأثر على هؤلاء. وأنّ شأن همْدان (الأُردنّ) قد ارتفع من بعد ازدياد عددها بسبب الهجرة الواسعة لإخوانهم من (الكوفة).

وجدنا الإشارة إلى ذلك في نصٍّ يرِدُ عرضاً لدى ابن ماكولا، حيث قال: «سعد بن حُمرة الهمْداني، استعمله يزيدُ بن معاوية حين وجّه إلى ابن الزُّبير» [3]. وهو نصٌّ نادرٌ وهامٌّ جدّاً لأكثر من وجه.

الواقعةُ التي يُشيرُ إليها هي الحملة التي وجّهها يزيد إلى (مكة) سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م لقتال عبد الله بن الزُّبير وعليها الحُصين بن نمير. أمّا سعد فهو ابن حُمرة بن مالك الذي كان معاوية قد جعله مُقدّماً على قومه في (الأُردنّ). وهاهو يزيد بن معاوية يجعلُ أبنه سعد عاملاً على (جُند الأُردنّ) فيما يبدو لنا من قوله «استعمله». أي أنه ليس مجرّد أميرٍ قَبَليّ، أشبه بضابط ارتباط كما نقول اليوم، ليس له أمرٌ ولا سُلطة. هذه نقلةٌ ذات مغزى. خصوصاً وأنّها حصلت في سياق ترتيب الوضْع الداخلي للدولة، لمواجهة تهديدٍ وجودي. ستكون له تداعياته الخطيرة بعد قليل، بحيث وصلت بالبيت الأُموي إلى حافة السقوط النهائي.

---

(١) تهذيب: ٤ / ٤٤٠.

(٢) وقعة صفين / ٥٠٧.

(٣) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكنى والالقاب، ط. حيدر آباد، لات.: ٢ / ٥٠٣.



والظاهر أن يزيداً لم يكُن ليختار سعداً، دون سواه، لذلك المنصب الرّفيع، لو لم يكُن له في منطقة سُلطته قوة تمثيليّة فائقة لا تُدانيها قوّةً وسطوةً قوّةٌ أُخرى من نوعها. وأنّ ممّا لاريب فيه أنّ اختيار يزيد سعداً للولاية على (جُند الأُردنّ) يدخل فيه مَن وما يُمثّله الوالي من موقع اجتماعي وسياسي. أعنى بالدرجة الأُولى عديد القبيلة التي ينتمي إليها وقوّتها. ومن الصّعب جدّاً أن نتصوّر أنّ يزيد يستعمل على (الأُردنّ) رجلاً لاسند له من قبيلته، أو يوجد مَن هو أقوى منه تمثيلاً في المنطقة.

(٥) همْدان قوةً رئيسةً في الأُردنّ

من هنا، فإنّ في وُسعنا أن نستنتج، أنه بعد عامين تقريباً من عام الجماعة ٤١ هـ / ٦٦١ م، كانت همْدان (الأُردنّ) قد باتت القوةَ الرئيسيّة من حيث الثقل السُكّاني والسطوة بالقياس إلى القبائل الأُخرى في (الأُردنّ) إجمالاً. بل إنّ المُدقّق في الاحداث طوال ما بقيت الدولة الأُمويّة، ومَن أدلى بدلوه في تلك الأحداث من رجال مختلف القبائل، خصوصاً الفترة الانقلابيّة من العهد السفياني إلى العهد المرواني سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤ م، ثم ثورة يزيد الثالث بن الوليد على الوليد الثاني بن يزيد سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٣م، ـ ليُلاحظ أن همْدان قد باتت القبيلة الوحيدة التي تحملُ النسبةَ إلى (الأُردنّ) إلى جنب اسمها. وإنّنا نستعيدُ في هذا السياق ذكرَ التابعيّ المُغامر حنش بن عبد الله الهمْداني، الذي نعرف عنه أنّه «كان مع علي بن أبي طالب بالكوفة. وقدم مصر بعد قتل عليّ. وغزا المغرب مع رُويفع بن ثابت. وغزا الأندلس مع موسى بن نُصير. وكان ممّن ثار مع ابن الزُّبير»[١]. يعني ثار في (دمشق) مع الضحّاك بن قيس، والي الزبيريين عليها.

وقصة الحركة الأخيرة من هذا الهمْداني الكوفي ثم الشامي، ذي السيرة الحافلة بالمغامرات العنيفة، لهي قصّةٌ عجائبيّة يندر مثالُها. نراها تكتمُ أكثر ممّا تُفصح. ونحن نراها الآن، وإنْ على سبيل الحدس، حدسَ العارف طبعاً، تتصلُ بموقف همْدان من النزاع الأُموي الزُّبيري الوجودي. أي أنّها ذات صلةٍ بحركةٍ همْدانيّةٍ عملت على تسوية الحساب العدائي القديم لهمدان مع الأُمويين منذ معاوية، مستفيدةً من ثورة ابن الزُّبير. لكن جرت التّعمية عليها في كُتُب التاريخ السُلطوي، لأن لامصلحة لأحدٍ من أهل السُلطة في بيانها. ولم يندّ عنها سوى هذا التفصيل الصغير من بضع كلمات، وصلتنا عن طريق بلدانيّ ورجاليّيَن اثنين، ولم يكُن لأهل التاريخ في ذكرها نصيب.

وعلى كلّ حال، فإنّ من الممكن جدّاً قول الكثير على تاريخ همْدان في (الأُردنّ). لكنّنا نقتصرُ على ما قلناه، لأنّ غايتنا من الخوض في تاريخها إنّما كان تفسير وجود الشيعة في تلك الحواضر الأربعة، على ما قاله المقدسي. ونظن أنّنا بما سُقناه قد قدّمنا تفسيراً واضحاً موثّقاً بما فيه الكفاية. ولم يبقَ إلا أن نصِلَ ما بين هذه الأحوال وبين مآلِها، وُصولاً إلى علاقتها بوضعِ جغرافيو ـ بشري. أي بخطّة الكتاب. ولكن بعد ان نستنفد كلّ ما لدينا من مُعطياتٍ تاريخيّة، تنضمُّ وتُعزّزالصورةَ التي تشكّلت في أذهاننا حتى الآن.

(١) الاكمال: ١ / ٩٣. وانظر معجم البلدان:٣/ ٤٣٠ والسمعاني: الانساب، ط. بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م: ٦/ ٨٩ و ٨/ ٩٣.

(٦) الأشعريّون في طبريّة

والحقيقةُ أنّ الاستيطان الهمْداني في (الأُردنّ) لم يكُن الوحيد الذي حمل تهيُّؤاتٍ شيعيّة. وإن يكُن الأكثر عديداً والابعد أثراً. بل كان إلى جنبه أو بعده بقليل اثنان على الأقلّ.

الأوّل منهما نجده خبيئاً في نصٍّ للمؤرّخ البلداني الفذّ اليعقوبي، حيث قال: «إنّ أهل مدينة طبريّة قومٌ من الأشعريين، هم الغالبون على أهلها»[١].

ولقد عرفنا (طبريّة) من قبلُ عاصمةً لـ (جُند الأُردنّ). ونُضيفُ الآن أنّها كانت أيضاً عاصمة التشيُّع في جنوب (الشام) كلّه. ولكنّ تاريخها ضاع في الظّرف الذي سنقِفُ عليه بعد قليل. ولم يبقَ منه إلا نُتفٌ يسيرة سجّلها عالمُ الشيعة في الشام في أوانه محمد بن علي الكراجكي الطرابلسي (ت: ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م)، الذي أقام في (طبريّة) مدةً غير قصيرة لدى أميرها «صارم الدولة وعضبها ذو الفخرين». صنّف له أثناءها ثلاثة كُتُب: الزّاهر/ الزّاهد، ومناسك النسوان، والمنسك العضبي[٢]. ما يدلُّ على أن أميرها كان شيعيّاً، كما كان على درجةٍ مقبولةٍ من التّفقُّه في الدين.

وأمّا أهلُها الأشعريّون فهم بطنٌ من مَذحِج.

الأمر الذي لاشكّ فيه، أنّ مَذحِج اليمانيّة لم تكُن من مُستوطني (الشام) قبل الإسلام. إذن فهم ممّن نزلها في إطار الحركة السُكّانيّة والانتشار العربي في (الشام) بعد الإسلام. وقد لاحظ البحّاثة العراقي صالح العلي، وهو يُعقّبُ على نصّ اليعقوبي نفسه، أنّ المصادر لم تذكر تاريخ استيطان الأشعريين (طبريّة)[٣]. وكأنّه لا يعرف أنّ تأريخنا البائس يستنكفُ عن شؤون العباد، لأن عينه العوراء موجّهةٌ إلى أهل السُلطة وشؤونهم.

نذكر أيضاً في هذا السياق من الحضور الشيعي في (طبريّة) أن السيّد المرتضى (ت:٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) أبرز علماء الشيعة في (بغداد) في زمانه، صنّف رسالةً سمّاها جوابات المسائل الطبريّة، أجاب فيها على أحد عشر سؤالاً وجهها إليه أحدُ اهلها. تسعةٌ منها تدور على إشكاليّاتٍ كلاميّة، واثنتان على فتاوى فقهيّة. ما يدلُّ أيضاً على مستوى المُشاركة الرفيع لبعض أهلها الشيعة في الجدل الفكري العالق في ذلك الأوان.

والذي نعرفه أن مَذحِج (العراق) كانت في (الكوفة)، وأنها هادنت السُلطة الحاكمة أيّام معاوية وابنه يزيد، أو أنّها على الأقلّ لم تنهض ضدّها. ولكنّهم ثاروا على الحجّاج والي عبد الملك بن مروان على (العراق) مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. وأنّهم بعد هزيمتهم الساحقة في المعركة الأخيرة، المُسمّاة معركة (دير الجماجم) سنة ٨٣ هـ / ٧٠٢ م، جلوا أو بعضهم عن (الكوفة)، ناجين بأنفسهم من انتقام الحجّاج، ونزلوا منطقة (قـمّ)، فمصّروا المدينة واستوطنوها. ومُذ ذاك بدأت المدينةُ مساراً تاريخيّاً، انتهى إلى أن صارت اسماً بارزاً في الحركة الفكريّة الشيعيّة[٤]، كما لا تزال حتى اليوم، وستبقى إن شاء الله.

(١) البلدان / ٨٤.
(٢) كتابنا: الكراجُكي عصره سيرته عالَمه الفكري ومصنفاته، ط. قم ١٣٩٢ هـ. ش. / ٦٣.
(٣) امتداد العرب في صدر الإسلام، ط. بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م / ٧٧.
(٤) كتابنا: رجال الأشعريين من المُحدّثين وأصحاب الأئمة، ط. قم ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.



والذي نظنّه وتدلُّ عليه الدلائل أن فصيلاً آخر من أشعريي (الكوفة) هاجر منها للسبب نفسه، ولكنه لأمرٍ ما اتجه غرباً باتجاه (الشام). ذلك أمرٌ لا نجِدُ نصّاً عليه، نعم!، ولكنّ ذلك لا يفاجئنا، لِما نعرفه من مزاج مؤرخينا السُلطوي. لكنّها فرضيّةٌ لا بدّ من الأخذ بها. سواءٌ تمّت في ذلك الإطار الحدَثي، أي ثورة ابن الاشعث، أم في سواه. ضرورة أنّه حين يكون جميعُ أهل مدينة (طبريّة) في الرُّبع الأخير من القرن الرابع للهجرة / التاسع للميلاد من الأشعريّين ، فلا بدّ من أن يكون نزولهم إيّاها قبل مايقرب من قرنين من الزمان قد كان بأعدادٍ كبيرة، بحيث بلغوا العديد الذي نفهمه من نصّ المقدسي «قومٌ من الأشعريين»، ضمن المعدّلات الطبيعيّة للنمو السُكاني في ذلك الزمان.

ثم أنّه ما من شكٍّ أبداً في أنّ أشعريي (طبريّة) في الرُّبع الأخير من القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد حسب اليعقوبي، هم أنفسهم شيعتُها في الرُبع الأخير من القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، أي بعد قرنٍ من الزمان، حسب المقدسي. وهذا تطبيقٌ جيّدٌ ومفيد لقاعدة الاستمرار في التاريخ والبحث التاريخي، يعرفه ويُحسن الإفادة منه المؤرخون المُتمرّسون.

هكذا يأتي الجمعُ بين نصّي اليعقوبي والمقدسي ذا فائدةٍ مزدوجة. أي أنّه لا يقِفُ عند حدود تفسير وجود الشيعة في (طبريّة)، بل يُعزّز أيضاً فرضيّة أنّ أولئك الأشعريين الطبريين هم حصْراً من مُهاجرة (الكوفة). أي أنّهم حملوا تشيّعهم من حاضنته الأُولى الوحيدة في ذلك الأوان. وإلا كيف نُفسّر وجود مدينةٍ شيعيّةٍ كبيرةٍ في قلب جنوب (الشام)، الذي نعرفُ ويعرفُ القارئ أنّه بُني وُجدانيّاً ليكون عقيماً عن كلّ ما يتصلُ بالتشيّع وأهله. إلا أن نفترض أن يكونوا قد نبتوا بكامل مُواصفاتهم من أرضها نباتا.

(٧) مؤشّرٌ إلى هجراتٍ من الكوفة إلى الأُردنّ

ثم أن البلاذري (ت:٢٧٨هـ / ٨٩١ م) يوردُ نصّاً نراه يصلحُ بمضمونه أن يكون مؤشّراً إلى ما قد خفي علينا من حركات سُكانيّة صغيرة. تجعل الصورة السُكّانيّة التي خرجنا بها من دراسة نصّ المقدسي أدنى من الفهم وأقرب إلى التّصوُّر.

يقول:

«وحدّثني بعضُ أهل العلم..... أنّه كانت لسفيان بن حرب، أيام تجارته إلى الشام في الجاهليّة، ضيعةٌ بالبلقاء (حيث مدينة عمّان اليوم) تُدعى بـ قُبَش. فصارت لمعاوية ووُلـده. ثم قُبضت في أوّل الدولة (العباسية)، وصارت لبعض وُلد أمير المؤمنين المهدي. ثم صارت لقوم من الزّيّاتين، يُعرفون ببني نعيم، من أهل الكوفة»[1].

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ط. بيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م / ١٧٦.

والحقيقةُ أنّنا، بعد البحث والتنقيب، لم نقع في كُتُب البلدان والانساب على ما يزيد النصَّ وضوحاً في شأن (قُبَش)، أو في شأن نُزّالها الكوفيين من بني نعيم. وعلى كلّ حال، فمن المؤكّد أن الضيعة كانت من الصغر بحيث لم تُلفت نظر البلدانيّين، وأن هؤلاء الزّيّاتين كانوا من عُرُض الناس، الذين يتتبّعون اسبابَ أمنَهم ولقمةَ عيشهم.

ولكنّ حِرفتهم (زيّاتين) تدلّ على أنّهم كانوا في زمان البلاذري (ت: ٢٧٨هـ/ ٨٩١ م) مُتبلّدين منذ زمنٍ غير قصير في تلك الضيعة الصغيرة ز بحيث أُتيح لهم الزمان الكافي لأن يكتسبوا حِرفتهم في اعتصار الزيت من الزيتون الذي تُنتجه الضيعة (قُبش)، ومن ثَمّ بيعه. وهي حِرفةٌ غير دارجة في موطنهم الأصلي (الكوفة) حيث لا زيت ولا زيتون. ولا شكّ في أن اندماجهم في نمط الانتاج المحلّي يقتضي وقتاً كافياً بعد هجرتهم من (الكوفة).

فمن هنا نُخمّن أن هجرتهم منها قد حصلت في وقتٍ ما من القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد. أي على أثر تملّكها من الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ / ٧٧٤ ـ ٧٨٥ م).

وعلى كلّ حال، فما من أهميّةٍ تُذكر لهذه الحركة السُكانية الصغيرة في حدّ ذاتها. فماذا يمكن أن يكون أثرُ جماعةٍ صغيرة، تُهاجر من (الكوفة) إلى (البلقاء)، لتجني لقمة عيشها من استثمار ضيعةٍ صغيرة، ـ في تغيير الصورة السُكّانيّة لمنطقةٍ واسعة؟!.

إنّما تكمنُ أهميّتها في أنّها مؤشّرٌ إلى قيام حركة هجرة من مختلف الاحجام والقبائل، كانت تخرج من (الكوفة) إلى (الأُردنّ) في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، وربما استمرّت بعده أيضاً. ولكنّها لصغرها وهوان شأنها لم تكن محل اهتمام البلدانيين ومَن لفّ لفّهم.

والعارف بالأوقات الصعبة التي مرّت على (الكوفة) في ذلك الأوان وبعده، لن يكون من الصعب عليه أن يتفهّم حوافز هذه الهجرات. ذلك أن هذه المدينة العنيدة، بوصفها قاعدةً شيعيّةً صلبةً، ظلّت هدفاً لأعمال السُلطة الانتقاميّة والقمعيّة ومازإليها، خصوصاً في ظلّ الانتفاضات المتتالية للعلويين، وبالأخصّ الحسنيين منهم. فلا عجب إذن في أن تنشأ حركة هجرة واسعة من المدينة، نعرف أنّها انتهت إلى انهيارها سُكّانيّاً.

(٨) والآن... السؤال

يبقى أن نقـول:

ها نحن قد نجحنا في تفسير وجود الشيعة في ذلك التاريخ المُبكّر في أكبر حواضر (الأُردنّ) وأكثرها أهمّيّةً، أعني (طبريّة)، بفضل نصّ اليعقوبي.

ولعكس السبب، أي لغياب النّصّ، فقد فشلنا في تقديم تفسيرٍ بالدرجة نفسها من الوضوح لوجودهم في الحواضر الثلاث الأُخريات في جنوب الشام: (قَدَس) و (نابلس) و (عمّان).

ذلك أن اليعقوبي، على غرامه القويّ بأسرار البلدان، لا يقول ما يُفيد على التركيبة السُكّانيّة لـ (قَدَس) و (نابلس). فهو لا يقول في الأُولى منهما إلا أنّها «من أجلّ كُوره»[1]، يعني كُورَ (الأُردنّ). وفي الثانية: «أنّ بها أخلاطٌ من العجم والعرب والسّامرة»[2]، دون أن يُبينّ ممّن أُولئك العرب. ثم أنّه لا يأتي على ذكر عمّان إطلاقاً.

لكن ها هنا إضافةٌ تتعلّق بهذه الإشكاليّة. فالظاهر أنّ وقوع (عمّان) عند مُلتقى الطُّرُق القادمة من (الحجاز) و (العراق) كان له شأن في تركيبة أهلها المذهبيّة. ومنها قول المقدسي أن أكثر سكّانها شيعة.

وعلى هذا فيمكن القول أنّ موقع عمّان هو سببٌ أساسيٌّ من أسباب عمرانها. وفي الوقت نفسه سبب وجود الشيعة فيها. بأن نأخذ بعين الاعتبار موقعها على شبكة الطُرُق القادمة من (العراق) بحيث حملت مؤثّراتٍ شيعيّةٍ إلى (الأُردنّ). وما (عمّان) في هذا بالامر البِدْع. وما هي أوّلُ مدينةٍ تكون تركيبتُها السُكّانيّة / الثقافيّة رهناً لموقعها. ولطالما حملت الطُرُقُ الافكار والمذاهب لتزرعها في مواطن بعيدة عن منبتها الأصلي.

وعليه فإنّه ليس من العسير على القارئ اللبيب أن يُتابع البناء على هذا الأساس. فيتصوّر في غياب المعلومات انتشار الشيعة والتّشيُّع في ربوع (فلسطين) و (الأُردنّ) بحركاتٍ سُكانيّةٍ خرجت من (الكوفة)، لم يلاحظها المؤرخون أو هم بالاحرى تجاهلوها ذكراً، لا لسبب إلا لأنّها من غير شأن السُلطة، مُستهدياً في تصوّره هذا بسلسلة من الحقائق الثابتة:

ـ الأُولى: استحالة أن تُنبتَ أرضُ الشام نابتةً شيعيّة. لأنّها بُنيت منذ أوّل دخولها في دار الإسلام بناءً ثقافيّاً ووُجدانيّاً بما يتلاءم مع السُلطة الحاكمة بالفعل، وتخطيطها لاستعادة السُلطة التي خسرتها بالإسلام. وما تسليط معاوية عليها إلى درجة التّمليك أو ما يُشبهه إلا بوصفه مُمّثّلَ الارستقراطيّة القُرشيّة المنكوبة بالإسلام، الموكول إليه استعادة خسائرها مع الفائدة المُركّبَة، كما حصل بالفعل.

ـ الثانية: ما حكاه المقدسي على الحواضر الأربعة في (فلسطين) و (الأُردنّ)، أنها كانت في زمانه شيعيّةً كلّيّاً أو جزئيّاً. ثم ما أضفناه وزدناه عليه من تفسير وجود الشيعة في بعضها، استناداً إلى المؤرخ البلداني الخبير ابن واضح اليعقوبي، الذي بيّن لنا الأُصولَ السُكّانيّة للشيعة فيها. وبذلك قدّم لنا حلًّا صالحاً للتعميم، قد يعوّض غياب النصّ، على غير البلدان الأربعة التي ذكرها المقدسي.

ـ الثالثة: أنّ (الكوفة) ظلّت طيلة القرنين الأوّل والثاني الهجريين أهمّ وأكبر مركز للشيعة في دار الإسلام. وبذلك انحصر بها مصدرُ انتشار التشيُّع إلى غيرها من البلدان، ضرورة أنّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه. خصوصاً في ظلّ اضطراب أمرها بسبب مشاكلها المُستمرّة مع السُلطة، الذي كان من الحوافز الأساسيّة للهجرة. الأمر الذي يجب أخذه بعين الاعتبار بوصفه حافزاً قويّاً لهجرة أهلها منها شرقاً وغرباً.

إنّ القارئ اللبيب، إذ يجمع بين هذه الحقائق الثلاثة، لن يجد كبيرَ صعوبةٍ في ردّ مصدر الشيعة في المنطقة الشاميّة إجمالاً، أثناء القرنين الأوّليَن، إلى (الكوفة) حصْراً. من هنا قلنا، إنّ أهميّة نصّ البلاذري على مُهاجرين

(١) البلدان / ٨٤.
(٢) نفسه / ٨٥.

من (الكوفة) إلى (البلقاء) هي في كونه مؤشّراً ودليلاً على حركاتٍ سُكّانيّة صغيرة ناشطة تنطلق من (الكوفة) باتجاه أنحاء (الشام)، لم يُسجّل أحدُ المؤرخين منها إلا هذه. أي أنّه (أعني النصّ) أكبر وأوسع دلالةً بكثير من مضمونه المباشر.

والآن....

إنّ السؤال الكبير الذي تطرحه هذه المعلومات على القارئ العارف هو أين ذهب أولئك الشيعة ؟ بل بالأحرى أين ضاعوا ؟ ذلك أنهم انمحوا من التاريخ، دون أن يُخلّفوا أثراً في مواطنهم.

وحتى اليوم فإنّك لا تجدُ أحداً من الشيعة في كلّ (الأُردنّ)، إلا في أقصى شماله، أي في (جبل عامل). فكأنّنا في هذا المَسار نقرأُ قصّةً عجائبيّةً، ينبتُ أبطالُها من الأرض نباتاً، ليلعبوا أدوارهم على المسرح العريض بكامل الجدارة والأهليّة. ثم إذا بهم يغيبون عن الأرض التي أنبتتهم، وينسدلُ الستار، وترتسم علامةُ الختام، ليغدون ذكرى نبحث عن أشلائها في بطون الكُتُب.

والحقيقةُ أنّه ما من شيءٍ في حركة التاريخ يحدث بهذا النحو. ما من شيءٍ يضيع تماماً، وما من شيءٍ يفنى نهائيّاً. لكنّ الناس إذ يكونون في مَهَبِّ الأحداث العنيفة قد تحملهم رياحُها بعيداً، فينقطعون عن وعائهم في المكان، أي عن الحاضنة المكانيّة لتاريخهم. وهذه هي الظروف الأنموذجيّة لحصول قَطْعٍ تام بين شعبٍ وتاريخه. التاريخُ الحقيقي يضيع من الذّاكرة الجمْعيّة، التي ستخضعُ منذ الآن لآليّاتٍ جديدة. حيث يلجأُ الجمهورُ غالباً إلى الأُسطورة، تعويضاً عن التاريخ الضائع أو المَنكور.

وما أكثر الأساطير في التواريخ المؤسِّسَة للشعوب.

وليكُن هذا مدخلنا إلى طورٍ جديدٍ من أطوار الجغرافيا البشريّة للشيعة في جنوب (الشام). ميدانه رقعةٌ منه دخلت التاريخ العريض من أوسع أبوابه تحت عنوان (جبل عامل). سيكون علينا أن نخصُّها بالكلام لِما لهذا الجبل من حضورٍ باهرٍ في تاريخ التشيُّع.



الباب الرابع: جبل عامل

(١) في النشأة الأُولى

كانت بداية القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد نهايةَ الفترة السعيدة لبلاد (الشام). أثناءها انتشر التشيُّع في أقطاره، بحيث بات الشيعةُ الأغلبيّةَ الكاثرة في أكثرها، دون أن تخلو منهم أيُّ بقعةٍ من بقاعه حيث لا يكونون الأكثريّة.

وأثناءها أيضاً أنجزوا سابقاتٍ فذّة في التنمية والسياسة والتربية والمؤسّسات العلميّة، خصوصاً في مدينتي

(طرابلس) و(طبريّة)، كانت تلك السّابقات آهلةً لأن تكون بداية نهضةٍ شاملةٍ للمنطقة كلّها. أهميتها أنّها تأتي بعد أن استنفد الإسلامُ طاقةَ اندفاعته الأُولى، بل وبدأت حضارته تنحدر بسرعة، بعد أن استهلكت كلَّ ما كانت قد استفادته من انجازات وإبداعات الحضارات السابقة، لكنها عجزت عن التجديد بسبب السيطرة المُطلقة لأهل الحكم على الحِراك الفكري.

النهاية أتت بالبلاء الصليبي النازل، القادم من (أُوروبة)، فنزل بأقطارها فجأةً ومن حيث لا تحتسب، فدمّرها تدميرا. وغيّر حالها إلى أسوأ حال.

من أبرز النتائج المباشرة السيئة للحملات الصليبيّة المُتوالية، ذات الأهميّة الفائقة بالنسبة لبحثنا، البعثرة السُكّانيّة الهائلة التي نالت أهل الساحل الممتد من (اللاذقيّة) حتى (حيفا). وكلّه من (طرابلس) حتى (صور)، أي كامل ما هو اليوم الساحل اللبناني، كان معموراً بالشيعة.

ثم أنّه ما أن وصلت الأنباءُ الفظيعةُ عن المذبحة المهولة التي أنزلها الصليبيون بأهل (القدس) إلى أنحاء (فلسطين) و(الأُردنّ)، حتى هجّ أهلُها هجيجاً إلى أقرب ملجأٍ يُنجيهم من مثل المصير الفظيع لإخوانهم. وطبعاً كان من هؤلاء الفارّين عشرات الآلاف من سُكان تلك البلدان الأربعة الشيعيّة، حسب ما اقتبسناه عن المقدسي وفسّرناه عن اليعقوبي. وخصوصاً أهل (طبريّة) التي عرفناها حاضرة (الأُردنّ)، بما حولها من عشرات القرى والمزارع الخصبة التي تطيف ببحيرتها العذبة.

هؤلاء جميعاً أو أكثرهم لجأوا إلى أقرب الجبال إليهم يحتمون بها. وما هو إلا (جبل عامل).

وهكذا امتلأ الجبلُ بالسُكّان، بعد أن كان شبه يباب.

(٢) أُسطورة أبي ذر

ولا عبرة بما يتداوله أهلُ (جبل عامل) بفخر منذ أربعة قرون تقريباً، أنّ الجبل كان عامراً بالمسلمين منذ القرن الأوّل للهجرة، وأنّ الصحابي الجليل أبا ذرّ الغفاري رضوان الله عليه قد نزله، وأنّه هو الذي نشر ولاء أهل البيت عليهم السلام بين أهليه. فما هذا الكلام إلا أُسطورةٌ، ممّا يلجأُ إلى تدبيجه الناسُ المفتقرون إلى شرف امتلاك تاريخهم الخاصّ. فيصطنعون لأنفسهم وِصلةً تكون غالباً إلى مَن يَشرُفُون بالانتساب إليهم بنحوٍ أو بغيره من أنحاء الانتساب.

ذلك أنّ من الثابت المؤكّد، استناداً إلى المصادر البلدانيّة وغيرها، أنّ (جبل عامل) قبل الصليبيين، أي قبل القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، كان شبه خالٍ من السكان، بعد أن هجره أهلوه الأصليّون من قبيلة عاملة اليمانيّة المُتنصّرة سائرين على أثر سادتهم الروم، شأن غيرهم من العرب المُتنصّرين في عموم (الشام). بحيث أن البلداني الخبير وابن المنطقة أبو بكر بن البنّاء المقدسي، الذي عاش في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، ذكر ما يُفيد أن (جبل عامل) في زمانه لم يكُن فيه سوى قريتين صغيرتين على أطراف الجبل

هما (كفركيلا) و (مجدل سِلِم)[1]، وهما ما تزالان معروفتين بالاسم نفسه حتى اليوم، بالإضافة إلى بعض المزارع الصغيرة المُتناثرة. في حين أن الرحّالة ابن جُبير، الذي اجتازالجبل بعد المقدسي بقرنين تقريباً، ذكر أن طريقه وهو يجتاز الجبل «كان كلّه على ضياعٍ مُتصلة وعمائر مُنتظمة»[2].

فهذا دليلٌ ساطعٌ لا يُدحض ولا يُنكَر على أن (جبل عامل) قد نشأ عمرانيّاً واكتسى بالسُكّان بين التاريخَين. أي أنّ القول بأنّه كان عامراً بالمسلمين قبل الصليبيين، وأنّ نسبة شرف تشيّع أهله إلى أعمال الصحابي الجليل أبي ذرّ بينهم، هو صِرْف أُسطورة جميلة، ابتدعها مَن ابتدعها لأهله، بعد أن انقطعوا عن تاريخهم فضاع وضاعوا معه. وليس هذا ومثله بالأمر البدع ولا النادر في أدبيّات الناس الذين يمرّون بمثل تجربة أسلافنا.

على أنّ ذلك لاينفي بالضرورة أنّ هذا الصحابي الجليل قد اجتاز الجبل أو استقرّ فيه زمناً، وهو يتحرّك بين (بيت المقدس) و (بيروت)، على ما تقوله بعض الروايات والنقولات الشفويّة. لكنّ القفز من ذلك إلى الزّعم بأنه ترك فيه ذلك الأثر الكبير الباقي أمرٌ آخر.

(٣) جبل عامل ينهض

رزح (جبل عامل) تحت الاحتلال الصليبي مدّة قرنين إلا قليلاً. ومع ذلك فإنّه عندما انجلى الاحتلال كان ما يزال مُحتفظاً بهويته المعنويّة، وعلى رأسها التشيّع. على الرغم من انقطاعه أثناء الاحتلال عن كلّ أسباب المعرفة. وعلى الرغم أكثر من أنّ أجيالاً منه بعد أجيال قد وُلدت وعاشت وماتت تحت الحكم المباشر للمحتل الأجنبي. وذلك من أعظم أشكال الثّبات.



لكنّ رقعةً صغيرةً من أعالي الجبل ظلّت طاهرةً من الاحتلال، لم تُدنّسها أقدام المحتلّين، إلا في محاولةٍ وحيدةٍ باؤا فيها بالخسران المُبين[3]. مركزتلك الرقعة بلدة (جزّين) في الأعالي الشماليّة لـ (جبل عامل)، حيث يلتقي بـ (جبل لبنان)، هي التي أنجبت أوّلَ عاملي شدّ الرحال إلى (الحلّة) ، التي كانت يومذاك أهمّ مركزٍ علميّ للشيعة، في طلب العلم. ذلك هو إسماعيل بن الحسين العودي الجزيني (ت: ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م). صاحب الفضل الأوّل في افتتاح الصلة بين الجبل وبين مدينة (الحلّة)، التي كانت يومذاك المركز العلميّ الأول للشيعة في (العراق)، المُتقدّم فكريّاً بما لا يُقاس عن المستوى الذي كان عليه التشيّع وأهله في (الشام). سائراً (يعني العودي) في بادرته هذه على أثر الرّائد العظيم الكراجكي في (طرابلس) قبله بقرنٍ تقريباً. (سبقت الإشارة إليه وإليها في الفصل الثاني). ومُمهّداً الطريق لبطل النهضة العاملية القادم، الشهيد الأول محمد بن مكي الجزّيني (ق: ٦٨٧هـ / ١٣٨٤م)، الذي سيقود شعبه باتجاه ثورةٍ حقيقيّةٍ بكل المعاني، أدّت إلى جعل (جبل عامل) أكثر بقاع دار الإسلام حيويّةً فكريّةً لمدّة قرنين بعده من الزمان. كان من ثمراتها اليانعة، أنّ نهضته

(١) احسن التقاسيم / ٨١ و٩٦ بالتوالي.

(٢) الرحلة، ط. بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م/ ٢٧٥.

(٣) للتفصيل كتابنا التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية، ط. بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م/ ٢٢٤ ـ ٢٥. وانظر أيضاً كتابنا الشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزّيني. نشرة دار بهاء الدين العاملي للنشر.

الرّائعة انطوت على تجربةٍ حضاريّةٍ رائدة، ستُثبتُ الأيامُ القادمة كم هي ناجعة مثمرة. سيكون علينا أن نبيّنها بعد قليل.

ومن البيّن الجليّ أنّ حصول النهضة في تلك الرقعة الوحيدة بالذات التي بقيت حُرّةً من (جبل عامل)، لدليلٌ ساطعٌ على العلاقة الصميمة بين النهضة والحريّة.

(٤) انهيار النهضة

في نهاية هذه الفترة السعيدة انهارت النهضة العامليّة تحت وطأة السياسة العثمانيّة العدائيّة نحو الشيعة. لكن بعد أن كانت قد أنتجت على الصعيد العملاني نمط علاقةٍ جديدٍ بين المجتمع والفقيه، منح الفقيهَ بالفعل وبالمعمول به منصباً قياديّاً، بالإضافة إلى وظيفته الأصليّة بوصفه مصدر الفتوى. وهي الصيغة التي حملها معهم علماء (جبل عامل) المهاجرون إلى أرض المستقبل (إيران) التي كانت بأمسّ الحاجة إليهم[١]. وما تزال هذه الصيغة حتى اليوم سِمة التشيّع الإمامي وشعاره.

فترةُ الاحتلال العثماني، التي تلت انهيار النهضة، واستمرّت حتى العقد الثاني من القرن العشرين للميلاد، كانت قاسيةً جدّاً على أهل (جبل عامل)، عانوا أثناءها من جورٍ رهيب، بحيث أنهم سدروا تحت غاشية الفقر والقهر والهوان لا يجدون منه مهرباً. خصوصاً أثناء ولاية والي العثمانيين السّفّاك أحمد الجزّار، الذي أنزل بأهله من التنكيل والتشريد ، وببلدهم وتراثهم من التدمير ما لا يُوصف. كان من أثر ذلك أنّ الجبل وصل إلى حافة الانهيار السُكّاني، بسبب ارتفاع نسبة الوفيات، مقابل انخفاض نسبة مَن يبقون أحياء من المواليد. وأن ضاع قسمٌ جليل من تراثه الذي بناه أفاضلُ علمائه أثناء القرنين الزّاهرين.

كلُّ ذلك بالإضافة إلى النظام العسكري الجائر الذي فُرض على أهله أواسط القرن ١٣هـ/ ١٩م، وقضى بسَوْق شبابهم دون تمييز إلى الخدمة العسكريّة بعيداً عن وطنهم، ليذهبوا دون عودة.

في سياق هذا الوضع المُتردّي خسر الشيعةُ في (جبل عامل) رقعةً عزيزةً على قلوبهم، هي (جزّين) وجوارها، بما تعنيه للذّاكرة الجَمعيّة بوصفها وطن انطلاق النهضة، وأنجبت عشرات العلماء الذين بفضلهم انتشر مفعول النهضة في أرجاء الجبل. ومنه انداح شرقاً مجتازاً (العراق) و(إيران) وصولاً إلى (الهند). وذلك بأن أُكره أهلها على الجلاء عنها، نتيجة الضغوط الدائمة عليها عسكريّاً وسُكّانيّاً. بسبب موقعها على خطّ التّماسّ اللبناني ـ العاملي (نسبةً إلى جبل لبنان وجبل عامل) لتحلّ محلّهم جماعاتٌ قادمةٌ من الجبل المُقابل. وفي الوقت نفسه طفقت جماعاتٌ قادمة من الجبل نفسه تستولي على الأراضي، مدعومةً بأُمراء الأُسرتين المَعنيّة والشهابيّة، ومن خلفهم سُلطة الاحتلال العثماني، التي لم توفّر يوماً وسيلةً للتنكيل بالشيعة. وبتلك الوسيلة نشأت أيضاً في أقصى جنوب الجبل المُحاذي للأرض الفلسطينيّة المُحتلّة مجموعةٌ من القرى القادم أهلُها من الشمال.

---

(١) انظر كتابنا الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي، أسبابها التاريخيّة ونتائجها الثقافيّة والسياسيّة. ط. بيروت، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع.

هكذا وُلدت حالةٌ ديموغرافيّةٌ جديدةٌ في (جبل عامل). فبعد أن كان، منذ أن تشكّل سُكّانيّاً في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، من أكثريّةٍ شيعيّةٍ صافية تقريباً، بات اليوم ذا أقليّة غير شيعيّة في (صور) و(النبطيّة). بالإضافة إلى قرى كثيرة على حدوده الشماليّة والجنوبية سُكانها من الروم الكاثوليك والبروتستانت والموارنة. وما من غروٍ في ذلك ولا من ضيقٍ به، فهذا شأن البلدان والاقطار في الدنيا، قد تتغيّر وتتحوّل سُكّانيّاً حرباً أو سلماً، بالراحة والرضى أو بالعنف. ونحن إنّما أوردنا ما أوردناه عنه، ففي سياق الالتزام بأمانة البحث، التي تقضي ببيان الخلفيّة التاريخيّة للحالة الجغرافيو ـ بشريّة لهذه البقعة العزيزة. أي أنّ كل ما قلناه وما نقوله إنّما هو وصفيٌّ بحت، يُمليه علينا الواقع القائم وخلفيّته التاريخيّة، وما أخذناه عن المصادر أو وجدناه في الكُتُب.

الحالة العمرانيّة ـ المعاشيّة لـ (جبل عامل) اليوم ممتازة بالقياس إلى ماسبق، بفضل عشرات الآلاف من أبنائه، الذين هاجروا من بلدهم لضيق أحوال المعاش فيه، بسبب الإهمال المُزمن، وأحياناً المقصود، للدولة وأجهزتها. بالإضافة إلى الافتقار إلى الأمن. فانتشروا في (أفريقيا) والأميركيتين وبلدان الجزيرة العربيّة وغيرها يكدّون ويعملون، ليصبّوا نتيجة عملهم في وطنهم. ثم، بل بالدرجة الأُولى، بفضل فَرْض استتباب الأمن فيه في العقدين الأخيرين بهمّة المقاومين من أبنائه، بعد أن كان عُرضةً للاجتياحات الإسرائيليّة بين الفينة والأُخرى، في ظل عدم اكتراث الدولة، وانكفاء قواتها المُسلّحة وكأنّ الأمر لا يخصّها ويعنيها.

الباب الخامس: الرّملة

(١) توطئة

مدينةٌ فلسطينيّةٌ في الأرض المحتلّة من اليهود اليوم. يقول أهلُ التاريخ أن سليمان بن عبد الملك بن مروان، الخليفةُ فيما بعد، هو الذي مصّرها، يوم كان والياً على (فلسطين). وماندري ماذا كان السبب الذي دعا سليمان إلى الإنفاق بسخاءٍ عليها، فزيّنها بمسجدٍ كبير، ما تزال آثاره الباهرة قائمةً حتى اليوم. ولكنّنا نتفهّم جيّداً أهميّة موقع المدينة الجديدة على الطريق المَسلوك بين (مصر) و(فلسطين). وهذا بسيطٌ وواضح.

(٢) بنو جرّاح الطائيون

لكنّ الذي لا يقوله أحد هو كيف استطاعت أُسرة جرّاح الطائيّة أن تبسطَ سلطانها على المدينة، وتتخذها عاصمةً لإمارتها على قسمٍ كبيرٍ من جنوب (سوريّة) مدة قرنٍ ونصف تقريباً (٣٥٨ ـ٥٠٠هـ / ٩٦٨ ـ١١٠٦م). ما من مؤرّخ روى لنا ما هي الآليّة أو الطريق التي سلكها بنو جرّاح للوصول إلى السُلطة، ما يدلُّ



ضمناً على أن ذلك قد تمّ فيما هو أدنى من مُستوى ملاحظة المُراقب. أي بالتدرُّج البطيء، الذي لا تظهر آثاره إلا بعد أن ينضج ويغدو حالةً مَشهودةً، سياسيّةً أو اجتماعيّةً أو فكريّة.

ولكن أيّاً تكن الآليّة أو الطريق الذي سلكته أسرة جرّاح، فإنّ ممّا لا ريب فيه أن كلّ شيء بدأ من الثقل السُكّاني الطاغي الذي كان لقبيلة طيّ في الشام عموماً، وفي جنوبه خصوصاً.

نحن نعرف أن طيّ تفرّقت في البلدان من مساكنها الأصليّة شمال الجزيرة العربيّة، في بلاد الجبليَن أجأ وسلمى. وأنّ مَن كان منها في (العراق) قد ناصر الإمام عليّاً عليه السلام، وكان رئيسُها في أيامه عديّ بن حاتم الطائي صفيّاً للإمام ومن خاصته. ولكنّها بعدُ استقرّت أعدادٌ كثيفةٌ منها في مناطق الشام، من ضمن الحركة السُكانيّة الكُبرى التي ترتّبت على الفتح. فإن المُلاحَظ على سيرتها في مواطنها الجديدة في (الشام) أنها لم يُذكَر أنّها قد لوّثتها في التاريخ بالسّير في ركاب السُلطة الأُمويّة. ولم تظهر في الأحداث العنيفة بالمنطقة. والظاهر أنّ السبب في ذلك يرجع إلى صفةٍ في ثقافة القبيلة، تبتعد بسلوكها عن العنف. ثم في طبيعتها بوصفها قبيلةً نصف بدويّة، بالإضافة إلى أنّها لم تحظَ بقياداتٍ لامعة.

إلى أن جاء الأوان الذي تحضّرت فيه بعضُ فصائلها، وظهرت فيها كفاءاتٌ قياديّة، فأسّست إمارتيَن اثنتين في (الشام) في زمنين مُتقاربيَن: إمارةُ بني عمّار في (طرابلس) (٤٥٠ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١٠٦ م) وإمارة بن جرّاح في (الرملة) (٣٥٨ ـ٥٠٠هـ/ ٩٦٨ ـ ١١٠٦م)، وربما كانت هناك أيضاً إمارةٌ طائيّةٌ صغيرةٌ أو أكثر في (الشام)، ضاع ذكرها فيما ضاع بسبب القطع التاريخي للإحتلال الصليبي، وهو الذي نعرف أنّه مسح من الذّاكرة تاريخاً بأكمله لبعض مناطق (الشام) الجنوبي.

ممّا لا ريب فيه أن مدينة (طرابلس) كانت ذات أغلبيّةٍ شيعيّة. وأن أُسرة بني عمّار الطّائيّة كانت شيعيّةً إماميّة. بل إن أوائل أُمرائها في (طرابلس) كانوا علماء فقهاء. وكان أوّل أُمرائهم قاضياً للمدينة. ثم أنّه غدا أوّلَ أُمرائها من أُسرته وباني استقلالها. وله صنّف الكراجكي كتابه البستان في الفقه[1].

(٣) الشيعة في الرملة

السؤال الذي يترتّبُ عليه نظْم (الرملة) وأهلها الطائيين في الكتاب هو ماذا كان مذهبهم؟ هل كانوا هم أيضاً شيعة؟

الحقيقة أنّه مهما يكُن مذهبهم، فإنّ طيّ الرّملة نصف البدويّة لن تكون في مثل توهّج (طرابلس) الهمْدانيّة اليمانيّة العريقة في الحضارة. وأن تشيّعها أو غيره لن يكون نافذاً عاملاً مُنتجاً في أدائها الفكري والسياسي كما فعل في (طرابلس). ومع ذلك فإن أمراً كهذا لن تخفى كلُّ إماراته ، حتى مع حالة القطع التاريخي الكامل الذي عانت منه المنطقة إجمالاً. ولكن من المعلوم أن طيّ قاتلت مع عليّ عليه السلام في وقائعه، ولم نرَ أنّه سُجّل عليها موقفٌ معاكس أبداً في كلّ تاريخها.

(١) كتابنا: الكراجكي / ١٥٦ ٥٧.



ممّا بقي من إمارات تشيّع (الرّملة)، وسجّلته كُتُب السيرة والتراجم، أن الشيخ الكراجكي الطرابلسي، أوّل فقيهٍ شيعيٍّ في غرب وجنوب (الشام)، ما أن عاد من (بغداد)، بعد أن اكتفى من الدراسة على الشيخ المُفيد، حتى اتجه إلى (الرملة) ليُقيم فيها مدة ست أو سبع سنوات (٤١٠ ـ ٤١٦ هـ/ ١٠١٩ ـ ١٠٢٥ م. وكان لوجوده فيه من قوّة الانطباع لدى مُتتبّعي عناصر سيرته أن ذُكر بلقب «نزيل الرملة»[١]. بل قيل أنه كان خازن دار العلم فيها[٢].

ونحن نعرفُ من سيرة هذا الفقيه ذي الرّوح الوثابة، أنه أثناء السنوات الأربعين الأخيرة من عمره كان يوزّع وجوده على البلدان المعمورة كلّيّاً أو جزئيّاً بالشيعة في المنطقة، محاولاً بذلك جُهده أن يسدّ الفراغ التبليغي الناشئ من غياب الفقهاء. فأقام مُدداً متفاوتة في (طبريّة) و (صيدا) و (صور) و (دمشق)[٣]. وكان من دأبه وديدنه أنّه حيثما حلّ صنّف لأهل البلد أو لكبيره كتاباً، يُعالجُ فيه أمراً من الأُمور التي تدخل دائرة اهتمامه بوصفه مُبلّغاً. ومن ذلك أنّه كتب لأهل (صيدا) رسالةً في انتفاع المؤمنين بها في أيدي السلاطين[٤]. وصنف للأمير صارم الدولة ذو الفخرين بـ (طبريّة) منسكاً سمّاه المنسك العضبي[٥]. وصنّف للأمير فوز بن نزال الكُتامي بـ (طرابلس) المُقنع للحاجّ والزائر[٦]. وهكذا كثير، ممّا للقارئ أن يتتبّعه في كتابنا عنه.

المغزى في هذا السّبر، الذي قد يبدو مُفصّلاً أكثر ممّا يلزم، أن اهتمام الكراجكي كان موجّهاً إلى البلدان المعمورة بالشيعة، ومن هنا نعرف أن سبب اختيار (الرّملة) لتكون منزلاً له تلك المدّة الطويلة، فإنّما لأنّها معمورةٌ بهم. يؤيّد ذلك مزيد تأييد، أنه عندما دخلها وجد فيها مُحدّثاً وكلاميّاً شيعيّاً معروفاً كان مُقيماً فيها،هو القاضي أسد بن إبراهيم بن كُليب السّلَمي الحرّاني الذي يُوصَف بأنه «كان من أشدّ الشيعة وكان مُتكلّماً»[٧]، فجلس إليه وسمع من حديثه[٨].

لكنّ ما يحسم أمر هُويّة (الرملة) المذهبيّة، أنّها كانت وطنَ المحاولة الشيعيّة الوحيدة لإعلان خلافةٍ علويّةٍ في (الشام)[٩]. وليها الوزير الشيعي الإماميّ الداهية للفاطميين الحسين بن علي المغربي (ت: ٤١٨هـ/ ٩٢٧م)، وهو سبط المُحدّث والفقيه العراقيّ المعروف محمد بن إبراهيم النعماني، الأكثر شهرةً بابن أبي زينب، صاحب كتاب الغيبة. وذلك طبعاً بالتنسيق مع الأُسرة الجرّاحيّة الطّائيّة الحاكمة في (الرّملة). وفي هذا السبيل استحضر

(١) بحار الانوار،ط. بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م:١٠٨/ ٧٦.
(٢) عبد الله أفندي: رياض العلماء وحياض الفضلاء، ط. قم ١٤٠١:٤/ ١٦ـ ١٧.
(٣) تفصيل ذلك وسنده في كتابنا: الكراجكي.../ ٦٣ ـ ٦٤.
(٤) نفسه/ ١٥٣.
(٥) أيضاً ٢١٠.
(٦) أيضاً/ ٢٠٨.
(٧)انظر رجال النجاشي، ط. بيروت ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م:١/ ١٨٥ الخوئي: معجم رجال الحديث، ط. بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م:٣/ ٨٠، والذهبي: ميزان الاعتدال، ط. بيروت ١٣٨٢هـ ـ/ ١٩٦٣م:١/ ٢٠٦.
(٨) أيضاً/ ٩٣. والسّلَمي نسبةً إلى السّلميّة التي صارت وإلى اليوم من مراكز الاسماعيليين الآغا خانيين. والحرّاني نسبةً إلى حرّان، بلدٌ كانت إلى جنب حلب، درست. وهي غير حرّان حوران.
(٩) يُذكر أيضاً بالمناسبة مُغامرة ابن الرضا المحسّن بن جعفر الحسيني، حيث رفع الرّاية العلويّة في دمشق محُاولًا تأسيس دولة علويّة يكون هو على رأسها، انتهت بقتله وحمْل رأسه إلى بغداد. (انظر: محمد كُرد علي: خطط الشام ط.دمشق ١٩٢٨: ١/ ٢١٣).

المغربيُّ سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م إلى (الرملة) الشريف الحسن بن جعفر الحسني من (مكّة). حيث بويع بالخلافة وسط حالةٍ عامّةٍ من الحبور والاستبشار في المدينة. ومُنح لقباً رنّاناً ذا نكهةٍ العباسيّة (الرّاشد). لكنّ المشروع فشل، وعاد الشريف إلى (مكة) دون أن يناله سوء[1].

المغزى الذي نتطلّبه في هذا السّرد، ليس إطلاع القارئ على الواقعة بنفسها، بل أنّ أمراً كهذا بما صاحبه من مُلابسات، في رأسها أن يختارها الوزير الدّاهية لتكون حاضنة مشروعه الطّموح، ثم أن يتقبّلها أهلُ المدينة بالرّضى وأكثر، ـ أمرٌ كهذا لايمكن أن يحصل، بالنحو الذي حصل فيه، في بيئةٍ غير شيعيّة كُلّيّاً أو غالباً. أي أنها دليل على غلبة الشيعة، على الأقلّ، على سكان (الرملة).

وممّا يُعزّز المغزى نفسه أنّ المُحدّث النسائي، بعد أن ضُرب في (دمشق) بحيث أشفى على الموت، لأنه روى محاسن أهل البيت عليهم السلام، وقال في معاوية ما يُكره، لجأ في محنته إلى (الرملة)، لعلمه أنّه سيجدُ الرعاية لدى أهلها.

هذه النتيجة إجمالاً تسوقنا إلى السؤال الذي يواجهنا غالباً في هذا البحث هو أين ذهب شيعةُ الرملة؟ خصوصاً أنّنا لا نجد لهم أثراً فيها ولا في منطقتها.

أظن أن القارئ اللبيب الذي رافقنا في هذا البحث حتى الآن قادرٌ على أن يُخمّن الجواب. وما هو إلا أنّهم ضاعوا في الطوفان الصليبي ومُضاعفاته. خصوصاً وأن بلدهم وكل منطقته كانت في قلب الصّراع، واكتوت بناره قتلاً وتدميراً وتهجيراً.

والحقيقة أنّ أكبر خاسرٍ من أهل (الشام) بالحرب التي شنّتها (أُوروبة) على المنطقة تحت شعار الصليب، وما استولدته من تغييراتٍ سُكّانيّة، هم شيعته. بحيث يجب اعتبار دخول الصليبيين في الصورة السياسيّة لـ (الشام) إجمالاً لحظةً فاصلةً في تاريخ الشيعة والتشيُّع فيه، ترتّبَ عليها تغييرات جمّة في حضورهم ومواطن انتشارهم ليست في صالحهم. ما لا تزال آثاره فاعلةً حتى اليوم، يراها المؤرخ إذ يُقارن خريطة المنطقة بعد الصليبيين، بما كانت عليه قبلهم.

الباب السادس: العراق

(١) توطئة

أي ما هو اليوم (جمهوريّة العراق)، باستثناء ما هو أساساً من رقعة (الجزيرة). وقد عرضنا لها في الفصل السابق.

---

(١) انظر أخبار هذا المشروع العجيب في الكامل لابن الأثير / حوادث السنة ٤٠١ هـ، و الدول المُنقطعة لابن ظافر، طبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة، في سلسلة مجموعة نصوص عربية، المجلّد ١٢/ ٤٩ ـ ٥٠.

وكما سبق منّا القول، فإن طينة التشيّع، أي العناصر البشريّة الأساسيّة في تكوينه، كانت من (العراق). وبالتحديد من (الكوفة). وما من ريبٍ في أن اختيار الإمام علي عليه السلام إياها حاضرةً له قد ساهم مُساهمةً جُلّى في اكتساب (الكوفة) هذا الموقع الممتاز في التاريخ. وفي المُقابل اختيار الارستقراطيّة القرشيّة (دمشق) لتكون الحاضنة لمشروعها المُعاكس، العامل على استعادة الموقع الممتاز الذي خسرته بالإسلام. وفي هذه المُقارنة العجلى بابٌ للبحث رحيب لِمَن يحبُّ الغوصَ في المياه العميقة.

ومن المعلوم أن (الكوفة) خسرت معركتها الاستراتيجيّة / مع (دمشق) سياسيّاً وعسكريّاً. الأمر الذي كان السبب المُباشر الذي أتاح للمنتصرين الاستمرار في مُلاحقتها، اضطهاداً وتنكيلاً وإذلالاً بكلّ وسيلة، ابتغاء وأد وتعطيل طاقتها السياسيّة بالدرجة الأُولى. ومع ذلك ــ وياللغرابة ــ فإنّ ما نزل بالمدينة من سوء كان العامل الأساسي في نشر هويتها / رسالتها شرقاً وغرباً. الاضطهاد المستمرّ استدعى بعثرة مَن لم ينله حدُّ السف من أهلها، بحيث انتهى إلى انهيار المدينة سُكّانيّاً وعقمها فكريّاً. ولكن هوذا، في الوقت نفسه، ما أدّى إلى خروج سلسلةٍ من الهجرات الكبيرة والصغيرة منها، كانت وظيفيّاً بمثابة البذور التي تنشرها الشجرة لتُنبت مثلَها حيث يستقرُّ بها النّوى.

وقد رأينا فيما فات أمثلةً كبيرةً وصغيرةً على هذه الآليّة الخلاّقة. وسنرى المزيدَ منها في الآتي إن شاء الله.

لكن علينا أن نُلاحظ أن (العراق) لم يكن له حظٌّ من تلك (البذور) التي نشرتها (الكوفة) شرقاً وغرباً. ولم تنشأ فيه جوالي من سنخ (الكوفة)، كما حصل في غيره. ولذلك تفسيرٌ واضحٌ وبسيط. هو أنّ مَن يهجر بلده وبيته ناجياً بنفسه من أمرٍ شديد، يكون أكبر همّه أن ينأى بنفسه عن أن تطاله يد جلاّديه. ولذلك فإنّنا رأينا المهاجرين من (الكوفة) في الأماكن النائية البعيدة عن المراكز المدينيّة في (الشام) و(إيران)، حيث تكون يد السُلطة وأجهزتها ضعيفة هناك. والأهم أنّ المسؤولين المحلّيين فيها ليس لديهم همٌّ أمنيٌّ حادٌّ، يدعوهم إلى أن يكونوا دائماً بكامل اليقظة، كما هو حال حاضرتَي (العراق) في ذلك الأوان (الكوفة) و(البصرة). بحيث تكونا دوماً تحت سمْع السُلطة وبصرها. وفيما خلا ذلك فما كان في (العراق) إلا قُرى ومزارع، عامّةُ أهلها من الأنباط السريان.

(٢) الانتشار السُكّاني الشيعي في العراق

هكذا بقي التشيّع في العراق محصوراً في القرنين الأول والثاني للهجرة في (الكوفة)، وجزئيّاً في (البصرة).

على أنّ هذا لاينفي وجود انتشارٍ شيعيٍّ سُكانيّ هادئ، موازٍ لتصاعد الحركة العمرانيّة في (العراق)، مع انتقال مركز الثقل السياسي إليه بالدولة العبّاسيّة. رصدنا ذلك أوّل مارصدناه في ريف (بغداد) خصوصاً قبل تمصير المدينة، ذلك أن الإمام الصادق عليه السلام (١١٤ ــ ١٤٨هـ/ ٧٣٢ ــ٧٦٥م) اتخذ وكيلاً له هناك، هو



عبد الرحمن بن الحجّاج[1]، هو أوّل وكيلٍ للأئمة في المنطقة. ثم تتابع الأئمة بعده على اتخاذ وكلاء في بغداد وسوادها[2]. وفي ذلك دليلٌ على وجود قاعدةٍ شيعيّةٍ كبيرة.

ومن المعلوم الثابت أن الأئمة منذ الصادق عليه السلام كانوا إنّما يتخذون وكلاء لهم في الاقطار والبلدان لرعاية شؤون شيعتهم، من ضمن التنظيم الجديد والفعّال الذي بسطنا الكلام عليه في كتابنا المذكور في الهامش الأول أعلاه، فإنما حيث يكون هناك كثافةٌ سُكانيّةٌ عالية تستدعي مَن يعتني بشؤونها من موقعه بينهم. ومن هنا اتخذنا من تعيينهم أربعة وكلاء لهم بالتوالي في (بغداد) وسوادها / ريفها حصْراً، دليلاً على أن الكثافة الشيعيّة السُكانيّة في (العراق) كانت في تلك المنطقة حصراً. وما ندري لماذا لم نرَهم أبداً يعيّنون وكلاء لهم في (الكوفة) أثناء ما يناهز قرناً ونصف قرن من الزمان، أي منذ إمامة الصادق عليه السلام (١١٤هـ/ ٧٣٢م) حتى وفاة الإمام العسكري عليه السلام (٢٦٠هـ/ ٨٧٣ م).

أما صدوفهم عن تعيين وكلاء لهم في (البصرة)، فالظاهر أنّه بسبب ضآلة حجم الوجود الشيعي فيها. في حين أنّنا رأيناهم يهتمّون اهتماماً بالغاً بمنطقة (الأهواز) المُجاورة لعكس السبب.

ومن أبرز أصحاب الأئمة من أهل الأهواز وفيها الحسن بن سعيد الأهوازي (ح:٢٠٢هـ/ ٨١٧م)، وهو من أصحاب الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام، ثم أخوه الحسين. ثم علي بن مهزيار الأهوازي (ح:٢٢٩هـ / ٨٤٠م). وهو من خواص أصحاب الجواد[3] عليه السلام.

وفي رسالة الإمام علي الهادي عليه السلام المُسهبة إلى أهلها[4] دليلٌ على العناية الخاصّة التي أولاها الإمام لأهل هذه المنطقة. الأمر الذي ينطوي على دلالةٍ مزدوجة. فهي أوّلاً تدلُّ على أن عديد شيعتهم فيها كان عاليّاً. ثم أنّها تدلّ أيضاً على الأهميّة الخاصّة والفائقة التي كان الإمام يُعلّقها على موقعها الاستراتيجي بين الهضبة الفارسيّة ووادي الرّافدين.

والحقيقةُ التي يُدركها جيّداً مَن له أدنى معرفة بطوبوغرافيّة (العراق) التاريخيّة، أنّ التشيّع ظلّ لأمدٍ طويلٍ محصوراً فيه في جُزُرٍ معزولة: فيما بقي من (الكوفة)، بعد أن نزل بها الخراب المُتمادي. وفي (النجف) المُجاورة التي كانت قريةً صغيرةً من بيوتٍ طينيّةٍ بائسةٍ، ينزلها مُجاورون لضريح الإمام علي عليه السلام. ومثلها، أو أفضل منها قليلاً فيما يبدو، (كربلا). أمّا ماعُرف فيما بعد باسم الجانب الغربي من (بغداد)، أو بـ (الكاظميّة) أخيراً، فقد كان مقبرةً واسعةً تحمل اسماً تاريخيّاً (مقابر قريش)، يتوسطها ضريحا الإمامين موسى الكاظم عليه السلام وحفيده محمد الجواد عليه السلام.

---

(١) انظر كتابنا التاريخ السّرّي للإمامة، ط.بيروت ٢٠١٥م، معتمداً اسم الوكيل في فهرست أعلام الكتاب. لأن اسمه يرِدُ في الكتاب غير مرّة.

(٢) انظر في فهرست الكتاب نفسه أسماء الحسن بن راشد، والحسين بن عبد ربه، وعلي بن جعفر الهمينياني.

(٣) انظر الترجمة لكلٍّ من هؤلاء الثلاثة في كتابنا أعلام الشيعة.

(٤) نصّ الرسالة وتعليقنا عليها في التاريخ السّرّي للإمامة / ١٩٤ وما بعدها.

وحدها (بغداد)، من بين كلّ بلدان (العراق)، نما العديدُ الشيعيُّ فيها نمواً كبيراً وسريعاً، بتأثير جاذبيّة المدينة المُزدهرة. وفي نهاية فترة الحضور العلني للأئمة بلغ نفوذ الشيعة في العاصمة مستوىً عالياً، يستند ولا ريب إلى قاعدة شعبيّة كبيرة. ومنذ القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد صار لهم قسمٌ من (بغداد) خاصٌّ بهم هو محلّة (الكرخ). ومن أسف أنّنا لانملك صورةً عن حجم الشيعة المُتنامي في المدينة إلا من حجم المعارك التي دأبت محلّتا (بغداد)، (الرّصافة) السُّنّيّة و (الكرخ) الشيعيّة، على خوضها ضد بعضهما البعض.

والظاهر أن الأوضاع التنمويّة والسُّكّانيّة في تلك البلدان المقدّسة الثلاثة (الكاظميّة) و (كربلا) و (النجف) قد بدأت بالتحسُّن مع وبفضل قيام الدولة الصفوية في (إيران)، أي منذ أوائل القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، والعناية غير المسبوقة التي أولتها لضرائح الأئمة فيها، وضمناً أو بالتّبَع للمُقيمين بجوارها. فضلاً عن حركة الزّائرين الدائمة، وما يترتّب عليها من أنشطة ذات مَردودٍ مالي تعتمد على تقديم الخدمات للزائرين، أو بيعهم بعض الناتج المحلّي. الأمور التي أدّت إلى انتشارها طوبوغرافيّاً ونموّها سُكّانيّاً / عدديّاً. خصوصاً مدينة (كربلا)، التي حصلت فيها ابتداءً من القرن الحادي عشر/ السابع عشر طفرةٌ سُكّانيّةٌ بالهجرة الواسعة إليها من أنحاء (إيران)، بحيث باتت أثناء القرون الثلاثة التالية مدينةً نصف إيرانيّة. إلى أن عمد طاغية (بغداد) في زماننا إلى تهجير كلّ الذين هم من أُصولٍ إيرانية، وإنْ بعيدة، خارج الحدود، أو دفعهم إلى الهرب ناجين بأنفسهم من المُلاحقة والتهديد العنيف.

(٣) الحلّة، نشأة مدينة

لا نستثني من هذا السّرد سوى مدينة (الحلّة). وهي حالةٌ مُتميّزة بكلّ المعاني بالقياس إلى كلّ هاتيك المُدُن: سُكّانيّاً وسياسيّاً وفكريّاً. والذي يهمّنا الآن بالدرجة الأُولى هو الجانب السُكّاني. لكنّ فصل هذا الجانب عن الجانبين الآخرَين هو تحليلي صِرْف، لأنّ كافة الجوانب الثلاثة بالنسبة لأُنموذج (الحلّة) وجوهٌ لحقيقةٍ واحدة.

والحلّة سادس مدينةٍ استُحدثت في (العراق) بعد الإسلام. سبقتها (الكوفة) و (البصرة) أوّلَ ما كان، ثم واسط التي أنشأها الحجاج، تلتها بغداد المنصور، ثم سامرّا المتوكل.

لكنّ ما يميز (الحلّة) عن كلّ ما سبقها من مُدُنٍ مُستحدَثَةٍ في (العراق)، أنّ قرار إنشائها أواخر القرن الخامس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، كان مُستنداً إلى إرادةٍ وعملٍ شعبيّين، بينما كلّ ما سبقها قد استُحدث بقرارٍ من أعلى سلطةٍ مركزيّة (الكوفة والبصرة وبغداد وسامرّا) أو محلّيّة (واسط).

أُنشئت (الحلّة) في وسطٍ بائس، عماده الأصليّ من البشر سُكّان قرىً ومزارع كثيرة، مُتناثرة في بقعةٍ واسعةٍ وسط الآجام والمستنقعات. هم من بقايا وأخلاف الأُمم السّابقة التي عمرت (العراق) في ماضيه العريق، من كلدان وأشوريين وسومريين، هم أنفسهم أُولئك الذين يُذكرون في أدبيّاتنا باسم النبط أو الانباط / السّريان. ورثة حضارة وادي الرافدين العظيمة، التي وهبت البشريّة معارفها الأُولى في الفلك والتقاويم والطبّ والرياضيّات والزراعة والهندسة. هؤلاء شكّلوا المادّة البشريّة الأصليّة للمدينة الجديدة.

هؤلاء انضاف إليهم جاليةٌ كورديّةٌ كبيرة وقويّة من قبيلة (جاوان)، التي كانت تنزل في منطقةٍ على نهر دجلة شرقي (بغداد). ثم قبيلة بني أسد، التي كانت تنزل منطقة شاسعة تمتدّ من (الكوفة) إلى منطقة المستنقعات الواسعة (الأهوار، البطائح).

على رأسهم بطنٌ من القبيلة عُرفوا باسم جدٍّ بعيد لهم اسمه مَزْيَد. ومن هنا عُرفت الأُسرة بالمَزيديّة.

هذا التشكُّل / التّحالف الثلاثي العناصر هو الذي شكّل (الحلّة): النبط السّريان بما لديهم من خلفيّة حضاريّة، ظلّ أثرها بادياً عليهم فاعلاً في سلوكهم، بعد أن أسلموا وتعرّبوا. والكُرد عماد الذراع العسكري الحامي للتشكيل الجديد. بنو مزيد الأسديون رأس التشكُّل الذين نزلوا المنطقة قادمين من نواحي (الأهواز) معهم أحلافهم الكُرد الجاوانيّون.

هؤلاء جميعاً هم الذين أنجزوا إنشاء مدينة جديدة سمّوها (الحلّة)، يعني: المكان الذي حلّوا فيه، دون إضافة الكلمة إلى قومٍ بعينهم (حِلّةُ بني...)، كما جرت عليه السّوابق. ربما إشعاراً بالطابع الجماعي المتنوّع لبُناتها وعُمّارها.

والحقيقة أن المدينة الجديدة كانت أشبه ببوتقةٍ هائلة، انصهرت فيها العناصر الثلاثة انصهاراً كاملاً، بحيث جعلت منهم نسيجاً واحداً سُداه ولُحمته التشيّع الإمامي. ساهمت، كأنما على قدم المُساواة، في بناء شخصيّة المدينة القادمة، بحيث غدت بعد بضع عقودٍ من السنين من تأسيسها، الوارثةَ لأمجاد أعلام (بغداد) الكبار من مؤسّسي الفقه الإماميّ. وبحيث تربّعت على قمّة النشاط الفكري للشيعة الإماميّة لمدّةٍ تزيد على قرنين من الزمان. وما تزال حتى اليوم رقماً بارزاً بما أنتجته من باقياتٍ صالحاتٍ في الفكر الإمامي. لقد وضعت (الحلّةُ) الفقه الإمامي حيث ما يزال.

والحقيقة الأكثر إثارةً للدهشة، أن من النبط / السّريان مَن أخذ المُبادرة الأُولى في وضع المدينة على الطريق الذي أدّى إلى نهضتها الفكريّة العظيمة. ثم تبعهم العرب الأسديّون والأكراد.

وهكذا تجد في أعلام (الحلّة) إبّان عظمتها الأُولى أفراداً وأُسرات من أصولٍ سريانيّة (إمارة هؤلاء أن يكون ختام أسمائهم: السّيّوري،السّوراوي أو ما شابهها)، وربما كان منهم أيضاً بنو طاووس. كما تجدُ فيهم مَن هم من أُصولٍ كورديّة، منهم بنو نما، والأمير ورّام بن محمد الجاواني، مصنّف الكتاب المعروف بـ مجموع ورّام في المواعظ والرقائق. والباقون عرب، أكثرهم وأعرفهم هُذيليّون، نسبةً إلى (هُذيل) القبيلة[1]، التي كانت قلب التشكيلة السُكّانيّة الشديدة التّنوُّع التي يعود إليها الفضل في بعث المدينة.

المُهمّ بالنسبة لبحثنا الآن، أي من وُجهة نظرٍ سُكّانيّة بحتة، أن هؤلاء جميعاً: الكورد الذين كانوا شافعيّةً في موطنهم الأصلي على نهر دجلة، والانباط / السّريان، السكان الأصليّون التاريخيّون لـ (العراق)، الذين كانوا قبل الإسلام مسيحيين نسطوريين ثم جذبهم الإسلام إلى نواته، متأثرين بالبيئة الشيعيّة الغالبة على كل نطاق (الكوفة). خلافاً لإخوانهم الذي كانوا، وما يزال أخلافهم، يعيشون في قرىً معزولةٍ في الشمال، فكان أن بقوا

(١) لتفصيل هذا الإيجاز وتوثيقه قارن الفصل الأول من الباب الثالث من كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه.

حتى اليوم على المسيحيّة، وإن بنمطٍ مختلفٍ عن النسطوريّة الصافية التي كانوا عليها في الماضي.

هؤلاء جميعاً صهرتهم المدينة الجديدة في بوتقتها الكبيرة، بحيث لم يعُد من الممكن، خصوصاً في ظل الحركة العلميّة العالقة وتأثيرها في صبغ الناس بصبغتها، أن نُميّز بينهم. ولولا التنقيب الحثيث وتصيُّد القرائن والتلميحات، لَمَا استطعنا أن نُميّز بين السرياني والكوردي والعربي.

هكذا كانت نشأة هذه المدينة إضافةً أساسيّةً في الكمّ والنوع إلى الصورة السُكّانية للشيعة الإماميّة في جنوب (العراق).

(٤) تأثير الحركة الوهّابيّة في الصورة السُكّانيّة للعراق

القارئ الحصيف الذي رافقنا في هذا التّجوال في أنحاء العراق، مُتتبّعين نموَّه السُكّاني، لَيُلاحظ أن التشيّع قد حصل فيه على أكبر المكاسب. وذلك بفضل أعمال الأئمة المُتوالين منذ الإمام الصادق عليه السلام (١١٤ ـ ١٤٨هـ/ ٧٣٢ـ٧٦٥م)، الذي كان لنشاطه الفكري التعليميّ الأصيل والمُنفتح قوّةً جاذبةً لم يتمتّع بها من قبل. ثم للعمل التنظيمي الذي أطلقه الإمام نفسه، وما عتّم أن بدأ يُعطي أُكُلَه منذ ابنه الإمام الكاظم عليه السلام (١٤٨ـ١٨٣هـ / ٧٦٥ـ٧٨٩م)، وتصاعدَ إلى درجةٍ مُتقدّمة جدّاً بفضل الجهود التنظيميّة الحثيثة للأئمة التالين الرضا فالجواد فالهادي عليهم السلام (١٨٣ ـ ٢٥٤هـ/ ٧٨٩ ـ ٨٦٨م)، ما بيّنّاه بالتفصيل الممكن في كتابنا التاريخ السّرّي للإمامة.

هذه كانت أيضاً جاذباً إضافيّاً ذا تأثيرٍ هائل على انتشار الشيعة في (العراق) وغيره. ثم لوجود المراقد المُطهّرة فيه وما نما حولها بسرعة من مراكز سُكّانيّة حاشدة، أدّت بوصفها مراكز لقاءاتٍ دوريّة للزائرين القادمين من مختلف الانحاء، دوراً اجتماعيّاً هامّاً جدّاً، لجهة نُضج الشخصيّة الشيعيّة الجَمْعيّة وُجدانيّاً نمواً مُتكافئاً، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر على تجاوز التأثيرات التنابذيّة في بلدٍ تلاقت فيه ثقافاتٌ كثيرة.

ومع ذلك نقول، إن المؤثّر الأوسع والأخير في هذا النطاق سيحصل ابتداءً من أوائل القرن الثالث عشر للهجرة/ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد. وسيكون (الفضل) فيه (ويالمكر الله) للحركة السعوديّة ـ الوهابيّة التي انفجرت في (نجد)، ثم امتدّت إلى (الحجاز)، مُخلّفةً وراءها حيثما حلّت سيولاً من الدماء.

عمل التحالف السعودي ـ الوهّابي على مشروع سُلطة عماده النظري أفكار محمد بن عبد الوهاب في التوحيد ومعناه، ومُعاقبة مخالفته في الفكر أو في العمل. وإلى ما وافقه من نصّ أحمد بن حنبل. وعماده العملي سطوة محمد بن سعود ومَن خضع له من قبيلته عَنْزَه في (نجد).

واستناداً إلى أنّ الإسلام عنده هو حصْراً مفهومه هو ومشروعه هو، وأنّ كلّ مَن خالفه حتى في أدقّ التفاصيل كافرٌ مشرك، فقد فرض على كلّ مَن هم في نطاق سلطته أن يؤدّوا إليه زكاة أنعامهم، وأن يكون عملهم موافقاً لِما يراه حتى في قصّ شعر الرأس وإحفاء الشاربيَن والعَفّ عن اللّحى وتقصير الثياب. وأن





يُقاتل معه كلَّ مَن هو على غير رأيه. دون أن يمنح أحداً حقّ الخلاف والاختلاف أو التّخلُّف، مهما تكُن درجته في العالمين.

وكما هو مُتوقّع فإن الذين في (نجد) من قبيلته ناصروه لعصبيّةٍ ولمكاسب تأتي من الغزو، الذي درج عليه ضدّ كل مَن خالفه.

بيد أنّ الذين كانت مواطنهم في أنحاء (المدينة)، أبوا الخضوع لابن سعود فناصبهم العداء، وخاض معهم حروباً دمويّة، اضطروا على أثرها إلى مباينة وطنهم. فلجأ قسمٌ قليلٌ نسبيّاً منهم إلى (العراق)، حيث نزلوا الجانب الغربي من الفرات بين (الزّبير) ونواحي (السّماوة). وقد ساعدهم في محنتهم، وشجّعهم على نزول تلك المنطقة أُمراء (المُنتفَق)، بقصد التقليل من سَوْرة الوهابيين. بينما اتجه أكثرهم إلى (سوريا)، ونزلوا قرب (حلب)، بين نهري الخابور والفرات[1]. وما يزال أعقابهم هناك.

هؤلاء لاعلاقة لهم بما ألمحنا إليه من تأثير الحركة الوهابيّة غير المقصود على التكاثر السُكّاني للشيعة في (العراق)، لأنهم بقوا على مذهبهم الشافعي الذي كانوا عليه في وطنهم الأوّل. وإنّما ذكرناهم لنجعل القارئ على خُبرٍ بكامل ملابسات القضيّة أو الهامة منها.

الذين لهم أكبر الأثر فيما نعالجه هم، فيما يبدو، أبناء قبيلةٍ أُخرى من القبائل الكبرى هي شُمَّر، التي كانت تُشارك عْنِزَة سُكنى (نجد).

مالت شُمّر في البداية إلى مهادنة ابن سعود، ولكنّها ما عتّمت أن ناجزته ضيقاً بسياسته وبطشه، وأيضاً بتحريضٍ من السُلطة يومذاك في (العراق) المعروفة باسم (دولة المماليك)، العاملة على جلب عشائرابن سعود إلى جانبها. فبدأت بقيادة أحد شيوخها،المُسمّى (مُطلَق)، هجرةً واسعةً إلى العراق سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م. فنزل بقومه نواحي (كربلا): في (نهر الحسينيّة) و(المُسيّب) و(الشّاميّة) و(الهنديّة) و(المشخاب). وتابعه من بعده بزمن حفيده محمد بن فارس بن مُطلق، الذي نزل بجموعه منطقة مدينة (الحلّة). وكان آخر مَن هاجر من بطون شُمَر أُولئك المُسمّون (سنجارة). هؤلاء يبدو أنهم نزلوا نواحي (النّاصريّة) جنوب (العراق) ثم انتشروا فيما والاها. بالإضافة إلى بني حرب الحجازيين أسلاف الجُبور الذين نزلوا مدينة (الشّاميّة). وهذه كلّها مناطق معمورةٌ بالشيعة. ومن هنا فإنّهم ما لبثوا أن اشتغلوا بالزراعة. ثم أنهم بتأثيرٍ قويٍّ من جاذبيّة الشعائر الشيعيّة،وخصوصاً بالمجالس الحسينيّة، وبالمواكب الحماسيّة الحاشدة التي تتجه إلى (كربلا) في ذكرى الأربعين، ويُشارك فيها مئات الأُلوف من مختلف القرى والبلدان، ـ ما لبثوا أن بدأوا يتحوّلون إلى التّشيّع. وإمارة ذلك أن الأجيال الجديدة منهم طفقوا يتسمّون بعبد الحسن وعباس وكاظم وجعفر وما إليها، بدلاً عن أسمائهم البدويّة[2]. حتى قليل أنّ أحد المؤرخين العراقيين سطر كتاباً إلى الباب العالي يُنذر فيه بالتّحولات الكبيرة في العراق إلى التشيّع[3].

---

(١) عباس العزّاوي: عشائر العراق،ط. بغداد ١٣٦٥هـ/ ١٩٣٧م:١/ ٢٩٦ و٣٠٠.

(٢) نفسه: ١ / ابتداءً من الصفحة ١٨٣ ومتفرّقات حتى الصفحة ٢٩٠.

(٣) ابن سند البصري: عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، نقلًا عن فؤاد ابراهيم: تاريخ التشيّع شرقي الجزيرة

هكذا تكون الحركة الوهابيّة، التي ورثت وأورثت حتى اليوم مُناجزة التشيّع، ووضعت نَصْبَ عينيها وما تزال محاربته في كلّ المواقع، قد انتهت سياستُها القصيرة النظر إلى عكس ماعملت عليه ورمت إليه. فوهبته دون قصد منها عشرات الألوف من المؤمنين دفعةً واحدة. وذلك مكسبٌ تاريخيٌّ ماكان للتشيّع في (العراق) أن يحصل على مثله من أيّ بابٍ آخر. انضاف إلى العوامل السابقة التي ذكرناها. والجميع ساق باتجاه انتشار وتصاعُد العديد السُكاني الشيعي في (العراق)، بعد أن كان قبل قرون أقلّيّةً تسكن جُزُراً معزولةً في (الكوفة) وحول مراقد الأئمة، كما عرفنا.

والظاهر أن غيظ الوهابيين من هذه النتيجة غير المَحسوبَة وغير المُتوقّعَة لديهم هو الذي دفعهم إلى تنفيس غيظهم بغزو (كربلا) واستباحتها، وتدمير مقامي الإمام الحسين والعباس عليهما السلام، وقتل مئات الزّائرين الذين صادف وجودهم في أحد المقامين. ثم محاولة إنزال مثلها بـ (النجف).

واليوم يبلغ عديد الشيعة الإماميّة في العراق ما نسبته بين ٦٠ ـ ٧٠٪ من سكان العراق، البالغ عددهم حوالى ٣٠ مليون نسمة، حسب تخمينات الأمم المتحدة لعام ٢٠١٠م. وهم يتركزون في الوسط ويمتدون الى أقصى الجنوب.

(٥) ملاحظةٌ ذات بُعدٍ مستقبلي

ثمة ملاحظةٌ أخيرة ذات بُعدٍ مُستقبليّ، نختم بها هذه الملامح من تاريخ الشيعة السُكّاني في (العراق)، وتأثيرها على الوضع السُكّاني الشيعي فيه. هي البعثرةُ السُكّانيّة الهائلة لشيعته، بسبب اضطهاد طاغية بغداد لهم. وما يُتوقّع أن تأول إليه أُمورهم.

ذلك أنه أثناء سنيّ حكم الطاغية جرى تهجير مئات أُلوف الشيعة باتجاه (إيران) و(سوريا). هؤلاء عادوا ويعود أكثرهم وما من مُشكلة سُكّانيّة في وضعهم.

لكنّ أعداداً كبيرةً جداً منهم استقرّت في أنحاء (أُوروبة) الغربيّة والشماليّة. هؤلاء أنجبوا أجيالاً جديدة، عاشت وتعلّمت وتربّت في مهاجرها، بحيث لم تعُدْ تعرف غيرها وطناً. بل أن بعضهم أنشأوا أحياءً كبيرةً خاصةً بهم في بعض المُدُن. وبل قيل أنّهم باتوا أكثريّةً غالبةً في بعض القرى. وشادوا حيثما حلّوا المساجد والحسينيّات، حيث يؤدّون عباداتهم وشعائرهم الدينيّة بإرشاد علمائهم الدينيين وخطبائهم. كما اندمجوا في قوّة عمل مهاجرهم ، التي تعاني من حالة إحباطٍ وشيخوخةٍ سُكّانيّة، بسبب انخفاض نسبة الولادات. هؤلاء ظاهرةٌ جديدة على (أُوروبا)، ولاأمل في عودتهم إلى (العراق). خصوصاً في ظلّ المُعاناة المستمرّة لوطنهم.

العربيّة، ط.بيروت ٢٠١٢م/ ١٢٩.

السؤال: ماذا عن هؤلاء في المستقبل الآتي؟

هل سيتكاثرون مُحافظين على هويّتهم، ويغدون وهويّتهم جزءاً مُعترَفاً به في المُركّب الفعلي لأوطانهم الجديدة، وبذلك يزرعون عاملاً ثقافيّاً جديداً في مهاجرهم؟

أم ستحتويهم وتتمثّلهم القوّةُ الحضاريّةُ الهائلةُ التي يعيشون في أكنافها وتحت تأثيرها، فتُلغي خصوصيّتهم وتدمجهم في صيغتها؟

نقول في الجواب: الله أعلم!

لكن فلنراقب بعض ما يجري على الصعيد السياسي والإعلامي في غير بلدٍ أُوروبي، ونتأمّل بما فيه من دلالاتٍ ومغازي. من بروزٍ مُفاجيءٍ لأحزاب يمينيّة مُتطرّفة، تطرح شعاراتٍ عنصريّة. ومن هجومٍ إعلاميّ شرسٍ على الإسلام ورموزه، تحت شعار حريّة التعبير. وما ذلك في الحقيقة إلا ردٌّ فعل لمذعورين من حضور تلك الجاليات، ومن إمارات تصميمها على الاحتفاظ بذاتيّتها. الأمر الذي بات اليوم غير صعب المنال، لسهولة الانتقال وذيوع وسائل التواصُل الشخصي.

الفصل الثاني

شبه الجزيرة العربيّة

(١) الشيعة في المملكة

وهي هذه المملكة المُسمّاة اليوم رسميّاً بـ (المملكة العربيّة السّعوديّة) التي أُنشئت رسميّاً سنة ١٩٣٢م بحدودها المعروفة لتضمّ كلّ المناطق الساحليّة الغربيّة من شبه الجزيرة وأجزاءً من السّاحليّة الشرقيّة، منها مدينتا (الأحساء) و (القطيف)، والوسطَ كلّه.

ومنطقة (الأحساء والقطيف)، بما والاهما من قرىً كثيرة، هي الوحيدة ذات الأكثريّة الشيعيّة الإماميّة الغالبة فيها. إلى جانب جماعاتٍ منهم في مناطق متفرّقة منها. منهم في (المدينة) مَن يُعرفون بـ (النّخاولة) لاشتغالهم بالتأبير (التلقيح اليدوي للنخل)، ويبلغ عددهم زُهاء العشرة آلاف. بالإضافة إلى أعدادٍ متفرّقة من الشيعة في (ينبُع) و (جِدّة) و (مكة) والمنطقة الوسطى[1].

ما من إحصاءٍ دقيقٍ موثوقٍ لإجماليّ عدد الشيعة في المملكة. لكنّ المُتداوَل على الألسنة أنهم ما بين ١٠ و١٥ ٪ من مجموع سُكّانها، البالغ حسب آخر إحصاءٍ رسمي أُجري فيها ١٦ مليوناً ونصف المليون. أي أن عدد الشيعة الإجمالي، إن صحّ الإحصاء والنسبة، هو في حدود الثلاثة ملايين. لكنّ الجهات الرّسميّة تعمل كل ما في وُسعها على خفض عددهم فيما يصدر عنها لأسبابٍ غير خفيّة.

سنقصرُ الحديث في الصفحات التالية على الوضعيَن السياسي والاجتماعي للشيعة في (الأحساء) و (القطيف)، اللتين باتتا بعد قيام الدولة السعوديّة مُحافظتيَن، تحت عنوان (المنطقة الشرقيّة). وذلك لسببيَن:

ـ **الأول**: لأن الغالبيّة العُظمى من الشيعة بالمملكة يقطنون فيهما.

ـ **الثاني**: لغياب المعلومات فيما يخصُّ مَن أشرنا إليهم في غيرهما.

---

(١) فؤاد إبراهيم: الشيعة في السعوديّة، ط. بيروت ٢٠٠٧ / ٦٥.

وعلى كلّ حال، فإنّ في وُسع القارئ أن يُعمّم التوصيف الذي سنورده على الأوضاع السياسيّة الاجتماعيّة للشيعة في منطقة (الأحساء والقطيف) على كلّ الشيعة في المملكة.

(٢) في السياسة السعوديّة تجاه شيعتها وخلفيّتها

سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م تمّ التّحالُف التاريخي بين الزعيم القبَلي على بطنٍ من بطون قبيلة عْنِزَة في (نجد)، محمد بن سعود، وبين محمد بن عبد الوهاب. ذلك التحالف هو الذي سيُفضي، بعد مسارٍ تاريخيّ طويل، إلى قيام دولة ملكيّةٍ جديدة على يد الملك عبد العزيز سنة ١٩٣٢م. الذي عقد تحالُفاً آخر مع الولايات المتحدة الأميركيّة، على قاعدة اكتشاف الثروة النفطيّة الهائلة الكامنة تحت أرض شبه الجزيرة، وخصوصاً منطقة (الأحساء والقطيف). التحالُف الأول حدّد إيديولوجيّة الدولة فيما عُرف بـ (الوهّابيّة). والتحالُف الثاني حدّد مسارها السياسي كما لا تزال، على قاعدة السيطرة الكاملة لـ (أميركا) على الثروة النفطية، في مُقابل حماية النّظام.

سنة ١٩١٣م استغلّ الملك عبد العزيز حالة الفراغ السياسي المحلّيّ المُنظّم لمنطقة (الأحساء والقطيف)، فأخضعها لسُلطته دون أدنى مُمانعة من أهليهما. مع علمهم بالموقف العدائي غير المكتوم للوهّابيّة من الشيعة والتشيُّع.

منذ تلك اللحظة التاريخيّة بدأ مسارٌ مُلتبس لشيعة المنطقة. أرضها التي تحتضن أكبر مخزونٍ نفطيّ في العالَم باتت الشريان الأساسي لاقتصاد المملكة. يُزوّد خزينة الدولة بما لا يقلّ عن ٩٠٪ من دخلها. ومع ذلك فإنّ اهلها يُعانون من تمييزٍ مُحبطٍ مُنظّمٍ. تأسّس في إيديولوجيّة المُمسكين برقبة السُلطة:

- يُمنع إطلاقاً توظيفهم في الوزارات والمؤسّسات العسكريّة وشبه العسكريّة. من جيش، وحرس وطني، وقُوى أمن، وطيران مدني. فضلاً عن وظائف ومراكز مدنيّة: سفير، وكيل وزارة، محافظ مدينة أو قرية، عميد كليّة في الجامعة. وليس لهم تمثيل في المجلس الاعلى للقضاء.

- يُحظر عليهم إشغال أي منصب عالٍ في الحكومة من وزير فما دون.
- المناهج التعليميّة المفروضة من الدولة تُهين عقائدهم وتُصرّح بكفرهم، حتى لأبنائهم في مدارسهم.
- يُحظر عليهم الإعلان بشعائرهم الدينيّة، ومن ذلك منعهم من بناء المساجد وطبع كُتُبهم. وحصر المحاكم الشرعيّة التي تعمل بفقههم بمحكمتيَن في محافظتَي (الأحساء) و(القطيف) بصلاحيّاتٍ محدودة.

هكذا فإن الشيعة في (السعوديّة) يُعانون من تمييزٍ سياسي ومعاشي وثقافي على قاعدةٍ مذهبيّة. ويُصنّفون في عِداد الطوائف المُبتدعة الضّالّة. ويُبنى على ذلك سلسلةٌ من الإجراءات، ابتداءً من عدم قبول شهادتهم في المحاكم، وانتهاءً باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، محرومين من كافة الحقوق السياسيّة. ولطالما أعلنوا

لأولياء الأُمور بمعاناتهم بعرائض علنيّة. ومن ذلك العريضة التي سطروها لولي العهد في أوانه، الملك فيما بعد، عبد الله بن عبد العزيز، حملت عنوان (شركاء في الوطن)، دون أن تلقى أُذُناً صاغية.

وعندما أُعلن، بأمرٍ ملكيّ، تأسيس ماسُمّي مجازاً (مجلس الشورى) سنة ١٩٩٢م، ابتغاء منح الدولة مسحةً شورويّة مهما تكُن سطحيّةً، قد تكون في حال جدّيّتها بداية تأهيل لحالة اندماجٍ وطني، أتى تمثيل الشيعة في منطقتهم، المُسمّاة في لسان الدولة بـ (المنطقة الشرقيّة)، ضئيلاً بعضوين اثنين فقط من أصل اثنى عشر عضواً. مع أنّه لامِراء في أنهم سُكّانيّاً الغالبية العظمى فيها، وأنّ فيهم من أصحاب الكفاءات علماً وخبرةً مَن يُمكن أن يُغني فكرة وعمل المجلس إن هو عمل بجدّ. خصوصاً أنّهم يُمثّلون شريحةً واسعة، لديها كلّ المصلحة في تعزيز توجّهاته المُعلَنَة. مايدلّ على تمكُّن النّزعة الطائفيّة في عقل المُمسكين بالسُلطة، إلى درجة أنهم لم يروا أنهم بذلك التدبير المُتحيّز، الذي يفتقر إلى الحدّ الأدنى من الكياسة السياسيّة، إنّما يُحرِّكون ويحفزون الشعور المُزمن بالاضطهاد وبالتمييز المُجحف لدى فريقٍ كبيرٍ من الشعب.

نُندّدُ في هذا السّياق بالسكوت المُريب للمؤسسات المُسمّاة دوليّة عن إدانة هذا الظلم العامّ المُتمادي. لا لسبب إلا لِما في استمرار النظام، مهما يكُن شرّيراً، من مصلحةٍ أكيدةٍ لأميركا وللدّائرين في فلكها في السيطرة على الثروة النفطيّة. بل إنّنا نراها تذهبُ كلّ مذهب، ومعها قوىً داخليّةً معروفةً، باتجاه كل مايأول إلى تحريض المفعول السيّء للتّمذهب، لأسبابٍ واضحة. وفيما جرى ويجري الدليل الصّريح على ذلك. ومن هنا نرى أنّ في استمرار النظام السعودي ومظالمه ما يتناسب مع مصلحة وخطّة العاملين على نهب ثروات بلادنا ولكل الأعداء.

ونقول في نهاية هذا السّرد، إنّنا نؤمن بأنّ الحصاد السياسي لهذه السياسة الجائرة لن يكون في صالح المُتورّطين فيها. وأنّ مَن يزرع الشّوك لن يحصد به عنباً. وأنّ العدل هو أساسُ المُلك. وأنّ المستقبل لن يكون بحال لَمَن لا يزال يُردّد أن الأرض مُسطّحة، وأن الشمس تدور حولها. والمُخالف كافر، يُستتاب وإلا يُقتل ولا يُدفنُ في مقابر المسلمين.

الفصل الثالث

دُول الخليج الفارسي

(١) الوضع السُكّاني

أي (الإمارات العربيّة المُتحدة) و (قطر) و (الكويت) و (عُمان) و (البحرين). وما هذه، عدا (عُمان)، إلا كيانات سياسيّة حادثة، جرى اصطناعها أواسط القرن الماضي حول نواةٍ أُسريّة ضئيلة، بالإضافة إلى مجموعاتٍ من المهاجرين إليها من مُختلف الأقطار، في سياق تخليق القاعدة السياسيّة المُلائمة لاستغلال النفط والغاز، بنحوٍ يتلاءم مع مقاصد ومصالح الجهات الأجنبيّة المُسيطرة. وهكذا غدا ماكان تجمّعاً سكانيّاً بائساً إمارةً، عليها أمير وأجهزة سُلطويّةٌ ولها عاصمة ونقد وعلَم... الخ. من مُكمّلات صفة الدولة.

فورة النفط والغاز، وما رافقها من ازدهارٍ مفاجئ، جذبت جوالي عُمّاليّة هائلة، أتت من البلدان العربيّة، أكثرها من (مصر) و (سوريا) و (لبنان)، ومن مختلف أنحاء شبه القارّة الهنديّة. الأمر الذي أنشأ وضعاً سُكانيّاً في الغاية من الشذوذ. هو أنّ المواطنين الأصليين باتوا فيها أقلّيّةً ضئيلة بالقياس إلى مجموع المواطنين الأُصلاء بدرجةٍ أو غيرها. لذلك فإن بعض تلك الإمارات (قطر، مثلاً) يعتبر عدد السُكّان الأُصلاء في الإمارة سرّاً قوميّاً لا يجوز البوح به. والمُلاحَظ إجمالاً غياب الإحصاءات الرّسميّة للسُكان، إلا ما كان من تقديراتٍ في الشبكة العنكبوتيّة.

وسنتناول بالبحث إجمالاً ما يخصّ الشيعة في (الإمارات العربيّة المُتحدة) و (قطر). ثم سنخصّ بالبحث كلًّا من (الكويت) و (عُمان) و (البحرين)، لخصوصيّةٍ في كلٍّ منها، هي أصالة التشيّع في (عُمان)، وعدد الشيعة البارز في كلٍّ من (الكويت) و (البحرين)، وخصوصاً في الثانية منهما.

(٢) في أحوال الشيعة هناك

إجمالاً فإن الشيعة في دُول الخليج يتمتّعون بقسط كافٍ من الحرّيّة في أعمالهم وشعائرهم. وأن الأنظمة

السياسيّة هناك بريئةٌ من التمييز المذهبي العلني الصّريح بين المواطنين، على نحو ما رأيناه في (السعوديّة) وسنراه في (البحرين). إلا ما قد يكون أحياناً من السُلطة الأمنيّة أو القضائيّة في (الكويت) أحياناً من إجراءاتٍ ظالمةٍ بحقّ بعض الشيعة، أو تنالُ بعض شعائرهم. نعرف أنّها بسبب ضغطٍ عالٍ من السعوديّة.

الباب الأول: دبيّ وقطر

وضعهما السكاني والشيعة

إمارة (دبيّ) الغنيّة بالغاز تأتي في الدرجة الأُولى من حيث عدد الشيعة المُقيمين في الإمارات العربيّة المُتحدة. وهم يُشكّلون فيها قوةً اقتصاديّة هامّة، تعتمد على نشاط الجالية الإيرانيّة الكبيرة النشيطة فيها. ويبلغ عدد سكانها الفعليين مليونين ونصف المليون تقريباً، ٩٠ ٪ منهم أجانب. وما من إحصاء لعدد الشيعة من حاملي جنسيتها.

أمّا في إمارة (قطَر)، فإنّ عدد السكان يُعتبَر رسميّاً سرّاً قومياً لا يجوز لأحدٍ البوح به، للسبب الذي أشرنا إليه قبل قليل. لذلك تتفاوت التقديرات عليه في الشبكة العالميّة تفاوتاً كبيراً. بين مليونين وسبعمائة ألف، ومليون وستمائة وسبعةٍ وأربعين ألفاً، حسب اختلاف تقديرات المصادر أو مزاجها.

والذي يُقال ويُتداول في هذا الشأن، أنّ عدد القطريين حاملي الجنسيّة القطريّة فيها لا يزيدون عن مائتين وخمسين ألفاً.وعلى كل حال، فإنه لا ذكر إطلاقاً لعدد الشيعة فيها. وما السبب في ذلك بحسب الظاهر، إلا أنّه ما منهم مَن يُذكر بين القطريين الحاملين للجنسيّة القطريّة. لأن هذه الإمارة تكوّنت سكانياً من عددٍ ضئيل من البدو الرُّحّل، الذين صادف وجودهم في الأرض التي آلت إلى إمارة، بفضل الثروة الهائلة الخبيئة تحت رمالها الظمأى. ولم تغدُ حاملة لقب (إمارة) إلا في السنة ١٩٧٠م.

الباب الثاني: البحرين

(١) وصفها ونبذةٌ من تاريخها

أرخبيلٌ من عددٍ من الجُزُر، بعضها غير مسكون، قبالة الساحل الشرقي لـ (شبه الجزيرة العربيّة). أكبرها جزيرة (أوال)، وفي هذه مدينة (المنامة)، العاصمة الحاليّة للملكة. ثم جزيرة (المُحرَّق)، وفيها مدينةٌ بالاسم نفسه، كانت عاصمة الإمارة حتى السنة ١٩٢٣ م.



أمّا سكانها فهم في الأساس عربٌ من قبيلة عبد القيس (العبديين، العبقسيين) الذين كانوا، وما يزال أخلافهم، منتشرين على طول الساحل الشرقي لشبه الجزيرة. وهم يرجعون بأُصولهم إلى ربيعة.

والذي يؤخذ من المصادر إجمالاً، أنّ أهل تلك الجُزُر، وفي رأسها الجزيرتان الكبيرتان، كانوا يعيشون حياةً هادئةً بسيطة، عمادها صيد الأسماك والغوص في طلب اللؤلؤ، بالإضافة إلى بعض الزّراعات من نخيلٍ وأعناب. وأنّ حُكّامهم كانوا منهم. وأنّه منذ أوائل القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد برُز من أهلها علماء معارف[1]. ما يُذكّرنا بنهضة (جبل عامل) في سطوعها وفقرها.

أوائل القرن السادس عشر الميلادي بسط البرتغاليّون سلطتهم على الجُزُر المسكونة كافّة، ليتخذوا منها مرافئ لسفُنُهم، يقفزون منها إلى هدفهم المنظور، وما هو إلا السّواحل في شبه القارّة الهنديّة. واستمرّوا في حكمهم لها مدة قرنٍ تقريباً. إلى أن طردتهم القوّت الإيرانيّة منها. ومذ ذاك حكمتها أُسرة مدكور بصفة وُلاة للقاجاريين.

سنة ١٧١٣ غزا عسكر آل خليفة الجزيرتين واستولوا عليها. وهي أُسرة ترجع إلى قبيلة عْنِزَة النجديّة كالسعوديين. ومايزال أخلافها يحكمونها.

أثناء القرن التاسع عشر للميلاد وقّع أحدُ آل خليفة سلسلةً من الاتفاقات مع (بريطانيا)، التي كانت آنذاك مهتمّةً بتعزيز هيمنتها في الخليج. بموجب تلك الاتفاقات المُتوالية غدت (البحرين) إمارةً (مستقلّةً) استقلالاً شكليّاً تحت حماية الامبراطوريّة البريطانيّة. التي تتحكّم بكافة علاقاتها الخارجيّة. تاركة لآل خليفة حكم البشر في الداخل.

سنة ١٩٠٠م منحت (بريطانيا) نفسها في (البحرين) صفةً رسميّة، بأن استحدثت منصباً سياسيّاً إداريّاً جديداً لها، بعنوان الوكيل السياسي (!) لـ (بريطانيا) لدى الدولة البحرينيّة.

ثم سنة ١٩٢٦م فرضت أحد مسؤوليها على أميرها الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة بصفة مستشار له. وهذا الانتقال من «وكيل سياسي» لـ (بريطانيا)، إلى «مستشار» للحاكم، يُشعر بأن في الأمر مايستوجب أن يكون المسؤول البريطاني إلى جنب الحاكم المحلّي دائماً، كيما يراقب كلّ صغيرةٍ وكبيرة، وما ذلك الأمر إلا لأن تباشير وجود النفط ظهرت في الجُزُر. والحقيقةُ أنّه مذ ذاك بات «المُستشار» الحاكم الفعلي للإمارة.

سنة ١٩٣٢م، أي في السنة نفسها التي تشكّلت فيها دولة آل سعود كما عرفنا قبل قليل، بدأ البريطانيّون استخراج النفط في (البحرين). والكلُّ يرمي إلى تشكيل القاعدة السياسيّة المحلّيّة المناسبة للقبض على الثروة النفطيّة، تحت ستارٍ مظهريّ من المعاهدات والاتفاقات. يُبطن صيغة الحماية الأجنبيّة للنظام في مقابل حصّةٍ وازنةٍ من عوائد النفط.

(١) عيسى الوداعي: الحركة العلميّة في البحرين ،ط. بيروت ٢٠١٥/ ٢٤ وما بعدها.

(٢) الشيعة في البحرين

مامن إحصاءٍ سُكّاني حديثٍ لعدد السكان في (البحرين)، يُبيّن نِسَبَ أتباع مختلف المذاهب فيها، حذراً من انكشاف صحّة قول شيعتها أنّهم هم أكثريّةٌ مطلقة. في حين تُردّد السُلطة ومَن يمالئها أنهم أقليّة بالنسبة إلى السُنّة.

البلدانيون القدماء يقطعون بأن الأكثريّة الغالبة جدّاً في (البحرين) كانت أصالةً للشيعة[١]. بينما تقول الكُتُب والصحف وأجهزة الإحصاء الحياديّة اليوم أنّهم أغلبيّة بين ٦٠ و٧٠٪ من مجموع السكان البالغ حوالي السبعمائة ألف. وحدها أبواق السُلطة ما تزال تُردّد أنّ الشيعة أقليّة بالنسبة للسُنة.

بالنسبة للباحث الحرّ، هذا كلّه تكاثرٌ لامعنى له ولاجدوى منه، لأنه يغضُّ الطّرف ويُحوّله عن الأسباب الحقيقيّة للأزمة السياسيّة العالقة، التي تتمثّل في أن السلطة الفعليّة هي مُطلقةٌ وراثيّة تحكم بالغلبة والقهر وإلغاء الجمهور، بحمايةٍ مباشرةٍ من قوّةٍ عسكريّة مُحتلّة ناهبة للثروة. فضلاً عن أنّها تسير في الناس بسياسةٍ تمييزيّة مبنيّةٍ على قاعدةٍ مذهبيّة، شأن عامّة الأنظمة القمعيّة في الماضي والحاضر، التي تعمل على كسْب تأييد شريحةٍ من الشعب بادعاء أنها تُمثّله في مقابل الآخَر المختلف في المذهب. في حين أنّها لاتمثّل في الحقيقة إلا مصلحتها في التشبُّث بالسُلطة، على حساب مصلحة الجميع دون تمييز.



في شهر مارس سنة ١٩٦٥م اندلعت أوّل انتفاضةٍ جماهيريّة ضد الحكم الخليفي، مُطالبةً بإلغاء القاعدة العسكريّة الأجنبيّة. ردّت عليها السُلطة بالقمع المباشر. وسقط العشرات من المتظاهرين بين قتيلٍ وجريح. كما طردت المئات من عمّال شركة النفط من وظائفهم.

كانت هذه الانتفاضة التاريخيّة، التي دخلت التاريخ تحت اسم (انتفاضة مارس) بمثابة قطعٍ بين البيت الخليفي وأوسع الجماهير، حكمَ سياسة الفريقين تجاه الآخر. السُلطةُ من جانبها عمدت إلى تحريض الغرائز المذهبيّة: حصر المناصب الرفيعة في الدولة بالسُنّة وحرمان الشيعة منها. بالإضافة إلى حرمان مناطقهم من التقدمات والخدمات المدنيّة الثابتة من كهرباء وماء وطرقات ومختلف البُنى التحتيّة. التحريض الإعلامي عليهم، بالزّعم أنّ كلّ حراك سياسي لهم، يطالب بالعدالة والمساواة وحق الشعب في المشاركة السياسيّة، إنّما هو تدخُّلٌ فارسي في الشؤون الداخليّة.

ملفّ الجنسيّة والتجنيس بنحوٍ خاصٍ أُنموذجٌ من عدم تورّع الدولة عن استخدام أيّ سلاحٍ تمنحه إياها السُلطة المطلقة التي طوع يدها في إحباط وقمع مُعارضي سياستها. وذلك ببدعة حجب الجنسيّة عنهم. مع أنّه حقٌّ دستوري لكل حامليها بالأصالة، يتساوى فيه المواطنون. وما لأحدٍ الحقّ في انتزاعه منهم مهما تكُن الاسباب.

(١) منهم ياقوت: معجم البلدان (مادة «البحرين»): «أهل البحرين كلّهم روافض. وليس عندهم مَن يخُالف هذا المذهب إلا أن يكون غريباً». ابن المُجاور الذي زار البحرين سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م: «بجزيرة أوال ٣٦٠ قرية إماميّة المذهب عدا واحدة ». (تاريخ المُستبصر، ط. ليدن / ٣٠١). وغيرها كثير.



وفي المقابل فإن الدولة منحت نفسها حقّ منح الجنسيّة لغير مواطنيها، مع حقهم بالاحتفاظ بجنسيّتهم الأصليّة. فطفقت تُجنّس جماعاتٍ غفيرة من الباكستانيين والهنود والعرب. آخذةً بالاعتبار أن يكونوا من مذهبها، ابتغاء مُكاثرة مواطنيها الشيعة بهم. مع منح الأفضليّة لذوي الخبرات العسكريّة والأمنيّة، للاستفادة من خبراتهم في قمع مواطنيها. وإغراء هؤلاء المحظوظين بتقدماتٍ سخيّة في الإسكان والخدمات الصحيّة والتعليميّة، من مستوى لا يحصل على مثله القسم الأكبر من مواطنيها.

كلّ ذلك فضلاً عن مجموعة من التدبيرات العجيبة، منها:

- عدم السّماح بتوزيع الصُحُف البحرينيّة خارج البحرين. كي لا يطّلع القرّاء في الخارج على ما قد تنشره بعض الصُحُف عن الفساد المالي والإداري والمناطق المُهملة... الخ.
- الضبط الشديد لأجهزتها وبرامجها الأعلاميّة كي لايأتي أحدٌ على ذكر صنوف الفشل والتخلُّف في سياسة الدولة.
- عدم السّماح للأجانب بدخول (البحرين) كي لايطّلعوا على حقيقة ما يجري فيه، أو أن يتصلوا بأحدٍ من مُعارضي سياساتها. إلا إذ يكونوا ممّن يؤمَن جانبهم بالنظر إلى جنسيّته أو مذهبه وسيرته.
- عدم السّماح لمواطنيها بالسفر إلى الخارج، إلا بعد أن تأخذ عليهم التعهّدات بعدم القيام بأي نشاط اعتراضي. وبعد إفهامهم بأنه سيكونون تحت المراقبة الدقيقة، وأنه إذا ثبت على أحدهم شيءٌ ممّا لا ترضاه فإنّه سيُمنع من دخول وطنه.

وكلّ ذلك في الحقيقة ما هو إلا من نتائج وتداعيات فشل الدولة في انتهاج سياسةٍ رشيدةٍ عادلةٍ تلتقي مع إرادة شعبها، هي في صالحها في النهاية لو كانت تعلم. لكنّ خضوع حكامها المُطلق للإرادة السعوديّة، التي لا ترى في البحرين إلا أنّه حديقةٌ خلفيّةٌ لها، ومن ورائها إرادة الاستعماريّين النّاهبين للثروة الوطنيّة، هو العامل الأساسي الذي يحول بينها وبين انتهاج السياسةٍ الرشيدةٍ المنشودة.

واليوم تقوم في (البحرين) منذ بضع سنين، بقيادة لفيفٍ من علمائها الدينيين، وبمُساهمةٍ شعبيّةٍ ثابتةٍ قويّةٍ، الثورةُ العربيّةُ الوحيدةُ الحيّة. أُطروحتها السياسيّة المُعلَنَة حتى الآن العدالة والمُساواة وحقُّ الشعب المُطلق في الممارسة السياسيّة. ويمتاز سلوكُها الثوري بالتّعقُّل والاتزان والحفاظ على السّلم الأهلي ما أمكن، وطول النّفَس وعدم منح خصومها السياسيين فرصة الإيغال في إراقة الدماء.

والحقيقةُ أن المتأمّل العارف ليأخذه أقصى العجب من إصرار أرباب الدولة البحرينيّة على سياستهم التمييزيّة القصيرة النظر ضدّ القطاع الأكبر من مواطنيها. وفي المُقابل تستورد مواطنين مزيّفين، تمنحهم جنسيّتها وامتيازات مُكلِفَة، مع أنّ هؤلاء لايحملون أدنى رابطة بالبحرين، ولن يمحضوه ولاءهم، ولن يعتبروا أنفسهم مواطنين بحرانيين. الأمر الذي يدلُّ على قِصَر نظرٍ سياسيٍّ مُرعب. وكان الأجدى والأولى أن تكسب مواطنيها الغالبين من الشيعة بالسير فيهم بالعدل والانصاف. وهم المعروفون في كلّ سيرتهم في

(البحرين) التاريخي (أي الساحل الشرقي لشبه الجزيرة والجُزُر المُقابلة له) بالتقدّم الحضاري والعمل المُنتج في البحر والبرّ، وبالاستكانة والمُوادعة والنُّزوع للسَّلم. الأمر الذي سهّل للسعوديين، المسكونين بروح الغزو، في الماضي القريب الاستيلاء على الساحل، وعلى أمثالهم من بني خليفة الاستيلاء على الجُزُر. كما سهّل للقرامطة في الماضي البعيد الاستيلاء على الاثنين. الأمر الذي دفع السكان الأصيلين لـ (البحرين) من عبد القيس يومذاك إلى التّخلّي عن نزعتهم المُسالمة، واللجوء إلى السلاح. فقضوا على القرامطة بعدما دوّخ هؤلاء المنطقة وصولاً إلى أبواب مصر، وأنشأوا الدولة العيّونيّة (نسبةً إلى آل عيّون من عبد القيس)، التي حكمت (البحرين) التاريخي زُهاء قرنين من الزمان.

إنّ في قصصهم لعبرة، فهل من مُعتبر!

الباب الثالث: الكويت

(١) لمحةٌ تاريخيّة

استوطن الشيعة (الكويت) منذ عقود طويلة، وهم من أصول عربية وإيرانية. العرب ينحدرون من (الجزيرة العربية)، وتحديدا من المنطقة الشرقية لـ (شبه الجزيرة)، ويطلق عليهم الحساوية نسبة إلى (الأحساء). وعرب (البحرين)، ويطلق عليهم البحارنة. إلى فئة قليلة جاءت من جنوب (العراق).

أما الشيعة من الأصول الإيرانية فإنهم قدموا من (إيران) منذ بداية القرن التاسع عشر.

كان الشيعة يتمركزون في منطقة الشرق و(بنيد القار). وبعد ظهور النفط انتقلوا إلى (القادسية) و(المنصورية) و(الدعية) و(السالمية) و(جولي) و(الجابرية). يرجع ظهورالشيعة في الساحة السياسية إلى عام ١٩٢١، أثناء تدشين أول تجمع سياسي في (الكويت)، سمي بالمجلس الاستشاري، استحوذ على عضويته التجار وأصحاب الرأي المهتمون بالعمل العام. واقتصر الانضمام إليه على الطائفة السنية من أصول عربية. ولم يضم المجلس في عضويته أي ممثّل عن الشيعة، حتى من أصحاب الأصول العربية، مثل البحارنة والحساوية. بسبب امتناعهم عن المشاركة في معركة (الجهراء) التي اندلعت عام ١٩٢٠ بين (الكويت) وحاكم (نجد) عبد العزيز آل سعود.

انتهت الحرب وتم حلُّ المجلس الاستشاري، وظهرت لأول مرة مجالس إدارية منتخبَة عام ١٩٣٤، تمثّلت في المجلس البلدي، ومجلس المعارف. واقتصرت عضوية المجالس الجديدة أيضا على الكويتيين السُنّة من أصل عربي. كما تمّ استبعاد الذين هم

من أُصول إيرانية، بمن فيهم السُنّة، من حق الترشح والانتخاب. استمرت هذه المجالس حتى عام



١٩٣٨. طوال هذه الفترة لم يستسلم الشيعة، بل أشعلوا الأجواء سعياً إلى الحصول على حقوقهم السياسية.

ومع ذلك، فإنّ القوى السياسية العاملة آنذاك في (الكويت) لم تُعطِ أدنى اهتمام للشيعة ومطالبهم. بل على العكس تبنّت (الكتلة الوطنية للإصلاح)، وأعضاؤها من ذوي الاتجاه القومي العربي، مواقف متشدّدة من الكويتيين الذين هم من أصل إيراني، مع أنهم كثيرون وذوو حضور قوي في الأنشطة الاقتصاديّة. ومن ذلك أنّهم استبعدوا الشيعة إجمالاً من حق الترشح للمجلس التشريعي الذي تأسس بعد عام ١٩٣٨. واكتفوا بإعطائهم حق التصويت للمرشحين السنة، الأمر الذي أثار غضب الشيعة. فتقدم عدد كبير منهم إلى المقيم السياسي الإنجليزي بـ (الكويت)، مطالبين بالحصول على الجنسية الإنجليزية، بسبب الإصرار على حرمانهم من حقوقهم السياسيّة إلى درجة الاضطهاد.

التصعيد الشيعي قابله المجلس التشريعي بتصعيد مماثل، وأصدر قانونا يقضي بطرد كل كويتي يحمل جنسية أجنبية خارج البلاد، مع حرمانه من كل حقوقه. وانتهى التصعيد المتبادل بين الطرفين بتحالف الشيعة مع السلطة القائمة على شؤون البلاد، بجانب الإنجليز الذين حرضوهم على الخروج في مظاهرات عارمة، للمطالبة بإسقاط المجلس التشريعي، لعدم تمثيله لكل الطوائف الكويتية. لتسقط بذلك أول محاولة لإصلاح الأوضاع السياسية في (الكويت) وكان للشيعة نصيب الأسد في ذلك.

ظهر أول تنظيم شيعي علني، ذو صفةٍ سياسيّةٍ، في (الكويت عام ١٩٦٣، بعد إعلان الاستقلال عن (بريطانيا)، حيث استفاد الشيعة من الديمقراطية، التي حمل لواءها الشيخ سالم الصباح. فسمح للقوى السياسية والاجتماعية بالتعبير عن رأيها في الأندية والروابط الشعبية، وعزّز توجهاته الليبرالية بعد جلاء الاحتلال البريطاني. وكفل قانون الانتخاب الجديد حق التصويت والترشُّح لكل الكويتيين بغض النظر عن الانتماء الطائفي.

وصلت رياح الموجة الثورية في (إيران) إلى شيعة (الكويت) فانقسموا إلى تيار محافظ تُعبّر عنه الطبقة الارستقراطية والتجار وأصحاب المصالح مع السلطة، وتيار شيعي ثوري، يضم في معظمه الطبقات الشعبيّة، الذي طمح إلى الإطاحة بآل الصباح، وإحلال نظام ديني محلّهم.

استطاع التيار الثوري الإطاحة بالتيار المحافظ من رئاسة جمعية الثقافة الاجتماعية، الواجهة السياسية والاجتماعية للشيعة، فاندلعت التظاهرات التي انطلقت من منزل عباس المهري، الممثل للإمام الخميني في (الكويت). وتوجهت إلى سفارة (إيران) ونزعت علم الشاه، ووضعت عليه لافتة مدون عليها «الله أكبر». وكان ذلك إيذانا بالصدام بين الدولة والشيعة، حيث هاجمت القوات الخاصة المظاهرة، واعتقلت عددا كبيرا من المشاركين فيها.

الضربات الأمنية تسببت في ثروةٍ عارمة لأحمد عباس المهري فدعا إلى اجتماعات حاشدة تنطلق من (مسجد شعبان)، مركز الشيعة التاريخي في شرق البلاد، ردا على التصعيد الأمني. ودعا المتظاهرون إلى المساواة في الوظائف العامة. وكان اللافت أن التيار الثوري تجنّب حمل شعارات دينية وطائفية، وتبنى في أغلب مطالبه

مطالب القوى الوطنية نفسها. ما ساهم في تحول أفكار التيار التقدمي تجاه الكويتيين الوافدين من (إيران)، والسعي لإيجاد صيّغ تفاهمات معهم على أساس الشراكة الوطنية.

بمرور الوقت، وتنامي جهود التقارب بين القوميين والشيعة، تحول (مسجد شعبان) أكبر مساجد الشيعة في (الكويت) إلى منبر سياسي. وشملت محاضرات المسجد جهودا للتقريب بين السنة والشيعة، فشعرت السلطة بقلق بالغ من تنامي نفوذ المسجد في مواجهتها، فدفعت بالعائلات الشيعية المقربة لها والمثقفين الشيعة، الذين يمثلون وجهة نظر الحكومة، لإيقاف حركة المسجد.

فشلت الحكومة في مساعيها السلمية، فاعتقلت أحمد عباس المهري، منظم حركة (مسجد شعبان)، بدعوى مخالفته لقانون التجمعات العامة. وأمام اعتقاله لم يجد

والده عباس المهري إلا التجمهر لكسر القيود المفروضة عليه، وذهب ليؤم المصلين في المسجد. الأمر الذي أودى إلى أن تفجرت الأزمة، وحاصرت قوات الأمن المسجد من كل جهاته، ومُنع المهري من الدخول واعتلاء المنبر.

أثار منع المهري غضب الإمام الخميني، فتوجه على الفور إلى راديو الجمهورية الإسلامية بـ (طهران)، ودعا الشعب الكويتي إلى الذهاب والصلاة خلف المهري، الأمر الذي ردت عليه السلطات الكويتية بسحب الجنسية من آل المهري بأكملهم، و يبلغ عددهم ١٨ فردا، فتمّ ترحيلهم إلى (إيران).

ظلت الأحداث مشتعلة، وتحيّن التيار الثوري الشيعي الكويتي الفُرص للرد على تصعيد الحكومة تجاهها، باتخاذ مواقف متشددة تجاه كل قراراتها. وجاءت الفرصة الكاملة للانتقام، عندما أيدت (الكويت) صدام حسين في حربه ضد (إيران)، وأمدته بمساعدات مالية وعسكرية وإعلامية، بلغت قيمها في ذلك الوقت ١٥ مليار دولار، ما أثار سخط الشيعة الكويتيين. وشهدت الساحة السياسية في (الكويت) منذ عام ١٩٨٠ موجات من أعمال العنف السياسي، تُوّجت بمحاولة اغتيال فاشلة لأمير (الكويت) الشيخ جابر الأحمد الصباح.

استمرت الاضطرابات السياسية بعد محاولة اغتيال الشيخ الصباح، بسبب توسع قوات الأمن في القبض علي كل المشتبه بهم بالحادث، وبخاصة كافة المنتمين للتنظيمات الشيعية المؤيدة للنظام الإيراني، وفي صدرها طلائع تغيير النظام للجمهورية الكويتية.

ظلت العلاقات المشتعلة على هذا المنوال، حتى تغيرت الأوضاع الإقليمية بتولي الشيخ هاشمى رفسنجاني رئاسة الجمهوريّة في (إيران)، في أعقاب وفاة الإمام الخميني، وهو الرجل المعروف بسعيه لتلطيف العلاقات مع الدول الخليجية.

بدأ رفسنجاني عمله بأن أمر بإغلاق المركز الكويتي للإعلام الإسلامي في (طهران)، كما منع صدور مجلة (النصر)، المنبع الأول لتصدير الروح الثورية الشيعية إلى كل الطوائف المؤيّدة لها في أرجاء العالم العربي.

وجاءت الحرب العراقية الكويتية، والدور الكبير الذي لعبه الشيعة في مقاومة القوات العراقية

الغازية، الأمر الذي ترك أطيب الأثر لدى كل المواطنين الكويتيين. ليُراجع المجتمع بأكمله موقفه تجاه الشيعة، بعد فترات حملت توترات. قادت إلى أن فتحت السلطة علاقاتٍ جديدةً مع كل القوى السياسية والاجتماعية.

(٢) الشيعة في البرلمان الكويتي

جرت أول انتخابات برلمانية بـ (الكويت) في شهر كانون الثاني / يناير عام ١٩٦٣. وشارك فيها الشيعة تصويتا وترشيحا، وكان يوما مشهودا، حيث استطاع خمسة من مرشحيهم النجاح في الانتخابات، كما شاركوا في الفصل الثاني من انتخابات ١٩٦٧، ووصل عدد ممثليهم إلى تسعة نواب، فيما كانت انتخابات ١٩٨١ بداية مختلفة لإسقاط الوجوه الشيعية الموالية للحكومة، وحّل محلها وجوه جديدة.

وبعد انتهاء الحرب العراقية الكويتية، وعودة الاستقرار والأمن، ظهرت التجمعات السياسية للعلن، وعلى رأسها الائتلاف الإسلامي الوطني، وابتعدت العناصر الراديكاليّة.

تكفل الدولة للشيعة حاليا الكثير من الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية. كما ينعمون بحرية العقيدة، فلديهم المحاكم الشرعيّة الخاصة بهم، بالإضافة إلى حرية نشر المطبوعات الخاصة بمذهبهم، وبناء المساجد والحسينيات، وتحويل أموال الخمس إلى المراجع الدينية في (قم) و(النجف).

وفي المجال السياسي، أفسحت المجال للشيعة لتولي أعلى المناصب السياسية والعسكرية، بناءً على الكفاءة وحدها دون اعتباراتٍ طائفية، كما أنهم ممثلون حاليا في كل المجالس النيابية والتشريعية، وأصبحوا سفراء ووزراء، لتصبح (الكويت) في صدارة الدول العربيّة التي استطاعت إغلاق ملف التمييز بين مواطنيها.

(٣) الشيعة في الكويت اليوم

أكبر وحدةٍ سُكّانيّةٍ شيعيّةٍ إماميّة في إمارات الخليج الفارسي هي التي في إمارة (الكويت). التي يبلغ عدد سكّانها الفعليين زُهاء أربعة ملايين ونصف المليون، حسب

آخر الإحصاءات. منهم مليون وثلاثمائة وخمسون ألفاً من حاملي الجنسيّة الكويتيّة، والباقون من الوافدين إليها من مختلف البلدان العربيّة، وخصوصاً من (مصر) و(سوريا) و(لبنان)، إلى جالياتٍ أسيويّة. ٣٠٪ من حاملي الجنسيّة الكويتيّة شيعة، أي أن عديدهم فيها يزيد قليلاً على أربعمائة ألف. وهم يتركّزون سُكّانيّاً في (الرُّميثيّة) و(الدّعيّة) و(بنيد القار) و(الدّسمة).

وهم يُشكّلون قوّةً سياسيّة واقتصاديّة وازنة في هذه الإمارة، التي تتمتّع بنظامٍ سياسيٍّ هو الأقرب من بين كلّ مثيلاته في إمارات (الخليج الفارسي) إلى الصفة المؤسّساتيّة. له برلمان اسمه (مجلس الأُمّة)، يُمثّل سكان

(الكويت) فيه حوالي الخمسون نائباً. وله دستوره الذي يكفل حريّة الأديان والممارسة الدينيّة لكافة المواطنين. وهم يتمتّعون بحريّة إقامة شعائرهم الدينيّة. ولهم مساجدهم وحُسينيّاتهم وعلماؤهم. إلا ما قد يحصل نادراً من مظالم تُرتكب بحق بعض رجالهم، ومُمانعةٍ من إحياء بعض شعائرهم، بضغطٍ خاصٍّ من السعوديّة ومُمثّلي سياساتها المحلّيين.

الباب الرابع: عُمان

(١) تعريف

رسميّا سلطنة (عُمان). موقعها في أقصى جنوب ـ شرق (شبه الجزيرة العربيّة). رقعتها عبارةٌ عن شريطٍ ساحلي طويل ضيّق يمتدُّ مسافة ٣١٦٥ كم، من (مضيق هرمز) حتى حدودها مع (اليمن) عند (مسندم). ويمتدُّ عرضاً بين (الربع الخالي)، و (خليج عُمان) و (بحر العرب). ويمتاز بتضاريسه الحادّة.

سكانها حسب آخر إحصاء أربعة ملايين وخمسمائة وتسعون ألفاً. لكنّها تضمّ أيضاً مانسبته ٤٨٪ إلى مواطنيها من الوافدين الإيرانيين والباكستانيين والبلوش والافارقة. ٩٠ أو ٩٥ ٪ من أهلها مسلمون. يغلب عليهم المذهب الإباضي، مع نسبٍ متفاوتة من السُنّة الذين يأتون في الدرجة الثانية من حيث العدد. ثم الشيعة الإماميّة، ونسبتهم، فيما يُقال، إلى مجموع السُكان بين ٤ و ٥ ٪. أي أنّهم قُرابة المائتين أو المائتين وخمسين ألفاً. لكنّ هذه الإحصاءات، باستثناء الإحصاء العامّ، غير مؤكّدَة.

والظاهر أن ما أُشير إليه من عديد الشيعة قُصد به تهوين أمرهم و حجمهم[1]. وسنقفُ في الآتي على أماكن انتشارهم في بلدانها، وما لهم فيها من موقعٍ اجتماعي ونشاطٍ اقتصادي، ما يوحي بأنّ عديدهم أكبر.

(٢) في التأريخ

والحقيقة أن تاريخ (عُمان) متأثّرٌ بشدّةٍ بموقعها القصيّ وبتركيبة أرضها ذات المسالك الصّعبة.

موقعها القصيّ أبعدها عن مُضطّربات العيش، حيث يكون إيقاع الحياة قويّاً سريعاً، فأبعدها عن اهتمام المؤرخين، الذين لايُغريهم شيءٌ بقدر ما تُغريهم جلائلُ الأحداث. وتركيبة أرضها العسيرة الحَزْنَة المسالك

(١) من ذلك ما قاله كتاب صدر عن وزارة الإعلام العُمانيّة بعنوان عُمان اليوم / ٨٢:«ويكثرُ الشيعةُ في عُمان بين أهالي المُدُن الساحليّة، وخصوصاً بين التُجّار. كما توجد فئةٌ تُسمّى (خوجه) أو (لوتي). وهي فئةٌ من الشيعة نشأت في مدينة حيدرآباد من السند. وهي موجودةٌ في مطرح منذ عدّة أجيال. ويعيش معظم أبناء هذه الطائفة في مدينةٍ مُسوّرةٍ منفصلة، ضمن مطرح. ولها مسجدها الخاصّ على الشاطئ». وسنعرفُ أن هذا يتجاهل الكثير من المعلومات عن الشيعة.





جعل منها مأوىً ومقصداً للفئات الهامشية، التي ترتاح إلى كلّ ما يجعل سطوة السُلطة عاجزةً عن النّيل منهم. وهذا يفسّر لنا تساكُن الإباضيّة (وهم من أُصول خارجيّة / مُحكِّمة، كما هو معروف) مع الشيعة على أرضها منذ قديم الزمان حتى اليوم، مع ما بينهما من أسباب الافتراق والاعتزال المعروفة. والحقيقة أنّ هذه الظاهرة فريدة بقدر ما نعلم.

والظاهر أنّ أعرق وجودٍ شيعيّ في أنحاء الخليج ما هو قائمٌ اليوم في سلطنة (عُمان). والدليل على ذلك ذكرُ أحد بُلدانيي القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد إياهم بمُوازاة شيعة (الحجاز) و(هجر)[1].

يبلغ عدد سكان (عُمان) ٤ ملايين ونصف المليون. عدد العُمانيين منهم مليونيَن ونصف المليون. والشيعة في عداد العُمانيين الأُصلاء. والتقدير أن نسبتهم إلى مجموع العُمانيين هو بحدود ١٠ ٪، أي أن عددهم يناهز ٢٥٠ ألفاً. لهم علماؤهم الدينيون ومساجدهم وحسينيّاتهم، حيث يؤدّون عباداتهم وشعائرهم بحريّة ودون قيود.

ثم أنّ الظاهر أيضاً أن أصل وجود الشيعة في هذه المنطقة القصيّة على الساحل العربي من (الخليج الفارسي) يرجع لأكثر من سببٍ تاريخيّ:

- **الأوّل**: أن الحكم الأموي كان يتخذ من بلدة (زارة) في أقصى (عُمان) منفىً يرمي إليه مَن يُريد إبعاده من أخصامه السياسيين[2]. وطبعاً كان أكثر هؤلاء من الشيعة. ومع الوقت نما عديد هؤلاء الشيعة وكثروا، واستقرّ أخلافهم في ما كان منفى أسلافهم.
- **الثاني**: أنّ أزد (عُمان)، وهم كانوا أهل القسم الشمالي منها، وأصلهم من (اليمن) وعُرفوا بميلهم إلى جانب علي عليه السلام كعامّة اليمانيين، ـ كانوا من الذين حجبوا صدقاتهم عن أبي بكر، احتجاجاً على ما تمخّض عنه يوم السقيفة، خلافاً لِما بايعوا عليه رسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم الغدير. ولكنّها لم يلبثوا أن رجعوا ومالوا إلى المُهادنة دون قتال، إتباعاً لخطّة علي عليه السلام الرّامية إلى الحفاظ على الحدّ الأدنى من مسيرة الإسلام بعد النبيّ[3].
- **الثالث**: أن من الهاشميين مَن اختارها وطناً، ربما إمعاناً منهم في التّخفّي، لبُعدها ووعورة مسالكها. وإنّني أذكر من أيام الفُتوّة صديق الأُسرة وصفيّ الجدّ الشيخ حبيب رضوان الله عليه، الشريف عبد الله الفضل الحسني يرحمه الله، وأحاديثه عن والده وأسلافه الذين كانوا أُمراء (ظفار)، من محافظات (عُمان) اليوم، قبل أن يُخرجوا منها في أيام أبيه. ليلجأوا إلى سُكنى (اللاذقية) من مُدُن الساحل السوري، حيث ما يزال أعقابهم حتى اليوم. ومن الرّاجح أن وجود هذه الأسرة هناك يرجع إلى أيام ثورات الحسنيين المُتوالية ابتداءً من القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد.

(١) المقدسي (٣٣٥ ـ ٣٩٠هـ/ ٩٤٦ـ٩٩٨م): «وبقيّة الحجاز وأهل الرأي بعُمان وهجر وصعدة شيعة» (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط. دمشق ١٩٨٠/ ١٠٥).

(٢) انظر مادة «زارة» في معجم البلدان.

(٣) محمد حسين المظفر: تاريخ الشيعة،ط. النجف لات. / ٦٦.



كما عرفنا ذلك أيضاً من الأعلام الشيعة الكبار الذين أنجبتهم (عُمان) في مرحلةٍ مُبكّرة من تاريخها.

من هؤلاء الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي، نسبةً إلى (فراهيد) من أحياء (عُمان). وهو أُستاذ سيبويه، وواضع علم العَروض. وُلد في (عُمان) وعاش في (البصرة). وهو من معارف أصحاب الإمام الباقر عليه السلام (٩٥_١١٤هـ / ٧١٣_ ٧٣٢م)[١].

ومنهم الفقيه الجليل ابنُ أبي عقيل العُماني الذي عاش في (بغداد). وهو من الرُّوّاد المؤسسين لعلم الفقه الإمامي[٢]. (لكنّ نظْمه في سلك العُمانيين مبنيٌّ على فرض أنه ليس منسوباً إلى (عمّان) في (الأُردنّ)، ونسبته إلى هذه هو ما رجّحناه في المصدر بالهامش أدناه).

ومنهم الرّبان وعالم البحار والملاحة الشهير أحمد بن ماجد السّعدي (ت: ٩٩٣هـ / ١٥١٧م). الذي نشأ في مدينة (جلغار) من (عُمان). وفي بحرها وجواره اكتسب خبراته الكثيرة الثمينة[٣]، التي أهّلته لقيادة سفينتي الملاّح والمُستكشف البرتغالي الشهيرفاسكو دي غاما من (ملندي) في (كينيا) إلى (كاليكوت) في (الهند). وهي إنجازٌ تاريخيّ بالنسبة للمستعمرين الأوروبيين، لأنّها أوّل رحلةٍ بحريّة لسُفُنٍ أُوربيّة بين (أفريقيا) و(الهند). ولكنّ شرف الاكتشاف نُسب إلى دي غاما دون ابن ماجد.

وقيل أيضاً أنّ صعصعة بن صوحان العبدي وأخاه زيداً، وكلاهما من عيون أصحاب الأئمة، عُمانيّان أيضاً. وذلك ما نستبعده، لأنهما ينتسبان إلى عبد القيس من بطون ربيعة. وكانت منازل عبد القيس في البحرين التاريخي، أي ماهو اليوم (الأحساء) و(القطيف). ومع ذلك فإن ذلك يبقى احتمالاً مقبولاً، لأنّ الحراك السُكاني بين هذه المناطق كان في الغاية من السهولة واليُسر. كما أنّه قد يكون مؤقّتاً، مرهوناً بالظروف الأمنيّة الطارئة لأصحابها.

ومن الغنيّ عن البيان، أن طائفةً تُنتج هذا العدد الذي عرفناه من معارف النُّخبة لابدّ من أنّها كانت تستند إلى قاعدةٍ سُكّانيّةٍ قويّة.

لكن من المصادر ما يُشير إلى أن شيعة (عُمان) نزحوا منها في فترةٍ مُبكّرة، على أثر نزاعٍ نشب بينهم وبين الإباضيّة[٤].

(٣) الشيعة في عُمان اليوم

الملاحظة الأساسيّة على الحالة الاجتماعيّة للشيعة في (عُمان) حتى اليوم أنّهم من قسمين رئيسيَن.

الأوّل منهما ينتشر في المناطق الريفيّة الداخليّة، وما فيها من مزارع وقُرى صغيرة. هؤلاء يبدو أنّهم من الذين

(١) الترجمة له في كتابنا أعلام الشيعة ومصادرها.
(٢) للتعريف بهذا الفقيه الرّائد ودوره التاريخي كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه / ٢٣٩ وما بعدها.
(٣) الترجمة له بما هو أكثر تفصيلًا، مع ذكر إختراعاته ومؤلفاته الكثيرة، في كتابنا أعلام الشيعة.
(٤) ذكر ذلك محمد مهدي بحر العلوم في كتابه الفوائد الرجاليّة ، ضمن الترجمة لابن أبي عقيل، على سبيل تعليل هجرته إلى العراق.



بقوا واستمرّوا من الشيعة الأُصلاء في (عُمان). ولم يتأثّروا بالنزاع الذي أشرنا إليه قبل قليل مع الإباضيّة. ومن المعلوم أنّ هذ النّمط من السكان الفقراء المُسالمين، البعيدين عن مواطن النّزاع التي تنشب غالباً في المُدُن، قد ينجون من آثار الحروب والنزاعات الداخليّة، لأنهم ليسوا من العنصر المؤثّر فيها.

على أننا نُلاحظ أيضاً أنّ ثمّة قرىً كثيرة مُتناثرة في المنطقة السّاحليّة سكانها من الشيعة.

الثاني تكتّلاتٌ نسبيّة ـ مكانيّة. ما قد يُفهمُ منه أنّهم جوالي لم يمرّ عليها في وطنها الجديد من الزمن مايكفي للإندماج التام في المجتمع العُماني. ربما بسبب الفارق المذهبي الحادّ، وما انطوت عليه الذّاكرة التاريخيّة، وما قد تحمله الثقافة الشعبيّة في مكنونها من موروث.

هؤلاء يكثرون بين أهالي المُدُن الساحليّة، وخصوصاً في العاصمة (مسقط) و(مطرح) و(مسندم) و(صحار) و(الباطنة) و(سور). وهم طوائف ثلاث، لكلٍّ منها اسمها الخاصّ الجاري على الألسنة:

- **اللواتيّة / الخوجة**. وهم من أُصولٍ هنديّة. أكثرهم نزلوا مدينة (مطرح) من عدّة أجيال. وهم يعملون في التجارة. ومنهم مَن يُديرُ أعمالاً وشركات تجاريّة كبيرة. وحتى أمدٍ غير بعيد كان معظمهم يعيشون في حيٍّ مُسوّر، ولهم مسجدهم الخاصّ.
- **العجم (وقد يُسمّون أو بعضهم بالبلوش)** وهم مُتحدّرون من أُصولٍ إيرانيّة. ويُقيمون في أكثر المُدُن العُمانيّة. ويمتازون كالخوجة بمهاراتهم التجاريّة.
- **البحارنة**. وأصلهم من (البحرين) و(الأحساء) و(القطيف) و(خوزستان) و(البصرة)[1]. ولهم وجودٌ كبيرٌ في مدينة (صلالة).

وفي أيّامنا انتشر التشيّع في محافظة (ظفار) بتأثير الجنود الإيرانيين الذين أُرسلوا إليها سنة ١٩٦٥م، ابتغاء المُساعدة في القضاء على الثورة الشيوعيّة التي انفجرت فيها، واستمر بقاؤهم هناك زهاء العشر سنوات. كان من نتيجتها أن عرف بعض أهلها بالعيان والمُشاهدة ما لم يكونوا يعرفونه من قبل عن الشيعة والتشيّع. فاستبصروا.

وليس ذلك ومثله بالأمر النادر.

لكنّني أتذكرُ منذ أيّام الفتوة أحاديثَ صادف أن سمعتُها من صديق الأُسرة المرحوم الشريف عبد الله الفضل الحسني أمير (ظفار) سابقاً، أي قبل سيطرة الأُسرة البوسعيديّة على كامل ما هو اليوم سلطنة (عُمان). حدّث بها جدّنا الشيخ حبيب قُدّس سرّه. ويؤخذ منها، بقدر ماوعته الذّاكرة، أنّ التشيّع كان مُنتشراً بكثافة في (ظفار) قبل ذلك التاريخ. وأنّ الشريف والناس فيها كانوا يؤدّون شعائرهم جهاراً وبكامل الحريّة. بل إن في مجرّد إمارته عليها دليلٌ على تمكّن التشيّع فيها. والعجيب أننا في كلّ ما يُقال ويُكتب على (ظفار) اليوم لانجِدُ أدنى ذكر لأُسرة الفضل الشريفة النسب وإمارتِها على (ظفار). ولكنّ هذه من طبيعة التاريخ السُلطوي.

---

(١) شرف الموسوي: «الشيعة في عُمان» مقالةٌ في مجلّة الموسم: ٢٣ ـ ٢٤ (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م/ ٤٤٩ ـ ٥٤٠.

ومع ذلك، فإنّه لا مانع من الجمْع بين الروايتيَن، بالقول أن الشيعة كانوا موجودين في (ظفار) قبل سنة ١٩٦٥م. وأنّهم ازدادوا عدداً بقدوم الجنود الإيرانيين إليها واتصال أهل (ظفار) بهم تلك المدة الطويلة. بل الحقيقة إنّ ذلك أقرب إلى التصديق.

خلاصة القول أن الشيعة الإماميّة اليوم هم من القوى الاجتماعيّة ذات الأثر في (عُمان) اليوم. وبارزون في ميدان الأعمال من تجاريّةٍ وصناعيّة. ومنهم مَن يشغلون مناصب رسميّة عالية. وهم يُحيون شعائرهم بحريّةٍ تامّة. وإن لم يُسجّل حتى اليوم أن أحدهم قد شغل منصب وزير في الحكومة مثلاً.

الفصل الرابع

إيران

(١) توطئة

مامن سببٍ عندنا لغير القول أن عُمر التشيّع في (إيران) هو من عُمر الإسلام فيه.

ذلك أن الهجرات العربيّة الهائلة التي انهالت على مختلف أنحائها بعد الفتح مباشرةً، وساهمت في تشكّله سُكّانياً وبالتالي لُغوياً بصورةٍ مختلفةٍ تماماً عمّا كانت عليه من قبل، قد حملت معها الميول والرؤى السياسيّة التي كانت ماثلةً في أوطان الفاتحين، ومن ضمنها طبعاً التشيّع، بالمعنى الذي كان يعنيه آنذاك، أي الذهاب إلى القول بأنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو صاحب الحقّ الحصري بخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، باعتباره سُلطةً شرعيّةً، وباعتباره بالتالي وبالضرورة مصدراً للحقّ.

ومع ذلك نقول، إنّ ظهور أثر هؤلاء الفاتحين في مهاجرهم كان بانتظار أن تنضج حالة الفرز السياسي والثقافي التي كانت عالقةً في أوطانهم. من خلال الأزمات السياسيّة أو ذات البُعد السياسي وما قد تتركه من أثر في الناس على مستوىً أو غيره. ومن خلال اتساع النقاش الفكروي، وما لابدّ أن يقود إليه من ظهور فوارق في الرأي، تنتهي إلى تشكيل أو تشكُّل مذهب.

الاتصال الأوّل المُباشر بين التشيّع، بما هو تشيُّع، باتجاه (إيران) حصل على طِبق القاعدة التي أصّلناها فيما سبق من الكتاب. وما هي إلا أن انتشار التشيّع في الاقطار، إنّما حصل ويحصل الآن بالحركة السُكّانيّة من (الكوفة) حصْراً. وسنرى أنّ انتشاره بما هو تشيّع، تمييزاً له عما افترضناه من انتشارٍ عشوائيٍّ سابقٍ اتجاهها تحت شعار الفتح، إنّما حصل على طِبق القاعدة، لم يخرج عليها قِيدَ أنملة، وذلك:

(٢) الكوفة تنتشر باتجاه إيران

أوائل العقد التاسع من القرن الأوّل الهجري انفجرت ثورة (العراق) الكبرى، ردّاً على المظالم الفظيعة للحجّاج الثقفي والي عبد الملك بن مروان. انتهت بعد عدّة معارك إلى هزيمة الثورة في المعركة الأخيرة. كان من آثارها، فيما يخصُّ إشكاليّة البحث، هجرةُ بطنٍ كوفيٍّ من مَذحِجٍ يحمل اسم الأشعريين. فصيلٌ منهم باتجاه جنوب (الشام)، وقفنا عليه فيما علّقناه من البحث في محلّه. وآخر أكثر أهميّةً لبحثنا بما لا يُقاس اتخذ سبيله إلى (إيران).

والحقيقة أنّ الهجرة الأشعريّة إلى (إيران) كانت لحظةً من لحظات الدهر. ترتّبت عليها سلسلةٌ متواصلة الحلقات من البادرات البديعة، ما تزال وما ترتّب عليها حيّاً عاملاً مُنتجاً حتى اليوم. فالمهاجرون الأشعريّون ألجأتهم الضرورة إلى نزول أرضٍ مُستنقعيّةٍ قاحلةٍ فاستصلحوها وجعلوا منها بقعةً على حدٍّ من الصّلاح لمعيشة البشر، وأنشأوا عليها قريةً سمّوها (قُمّ). وإمامُ ذلك الزمان، الصادق (عليه السلام)، التقط الفرصة التي تقدّمها لمشروعه الإحيائيّ جاليةٌ مُتجانسةٌ من شيعته، نزلت بقعةً طرفيّة بعيدة عن مرمى الأعيُن والأهواء، فمنح بعض أبنائها من العناية مثل مامنح الآلاف من تلاميذه. ما جعل منهم نواةً صالحةً لاستنبات أُعجوبةٍ في وطنهم الجديد، ماعتّمت أن غدت سريعاً الحاضرة العلميّة الأُولى للشيعة في الدنيا.

لن أدعَ طلاوةُ البحث تغريني بالمضيّ بالحديث على (قُمّ) ودورها العلميّ الخلاّق. بعد أن رويتُها بالتفصيل الكافي في كتابَيّ: رجال الأشعريين من المُحدّثين وأصحاب الأئمة، ونشأة الفقه الإماميّ ومدارسه. وسأمرُّ مباشرةً إلى تأثيرها المباشر بحضورها في البيئة والمحيط الذي نبتت فيه. مايدخلُ في الخلفيّة التاريخيّة للجغرافيا البشريّة للشيعة في (إيران).

بالمنظورالاجتماعي (الأنثروبولوجي) كانت (قُمّ)، بما اكتسبته سريعاً من منزلةٍ عالية، اختراقاً في الصميم للبيئة البشريّة الإيرانيّة البالغة الالتباس. ثم أتت الهجراتُ العربيّة الكثيفة إليها لتزيدها التباساً على التباس. وها إنّ (قُمّ)، من موقعها المُتوسّط في خارطة (إيران)، تفرضُ نفسها بوصفها حاملةَ مشروعٍ توحيديّ على قاعدة التّشيُّع. ثم لتنتشر بسرعة في محيطها، جنوباً باتجاه (كاشان)، وشمالاً باتجاه (الرّيّ)، وشرقاً باتجاه (خراسان) الكبري التي نُسمّيها اليوم (آسية الصُغرى). حيث نهضت هنا وهناك مراكزُ فرعيّة مختلفة الاحجام والاعمار. مثلما تنبتُ الفسيلةُ من جذور الدّوحة الأُمّ. ساهمت كلّها بنِسَبٍ متفاوتة في توليد هُويّةٍ جامعة لـ (إيران) المستقبل.

هنا نُذكّرُ بما قلناه في مطلع الفصل على الهجرات العربيّة إلى (إيران) وما لابدّ أنها قد حملته معها من مؤثّراتٍ شيعيّة مهما تكُن ساذجة، لنقول إنها فرضيّةٌ لا غنى عنها، وإن ضنّت عن ذكرها النصوص. وإلا كيف نفسّر التأثير الواسع والسريع لـ (قُمّ) والمراكز التي تفرّعت منها، في غياب المادّة البشريّة الصالحة لاستيعاب مُعطيات أعمالها.



ونقول للذين لا يفهمون السّرَّ المكتوم الذي يشدُّ أركان (إيران)، مع ما هي عليه بوصفها تجمُّعاً أقواميّاً بالغ التنوُّع ، ولايفهمون سرَّ الموقع الفاعل لـ (قُمّ) فيها حتى اليوم، بحيث تنهض (إيران) بنهوض (قُمّ)، وتخبو إذ يخبو وهجَ (قُمّ)، ـ نقول لهؤلاء، ليس عليكم إلا أن تقرأوا سرَّ كلِّ ذلك في أعماق التاريخ، حتى لو كان عندكم نسياً مَنسيّاً، نجهدُ نحن الباحثين الأحرار في إعادة تركيبه من جديد.

إنّ طاقة التاريخ الكبرى التي يلتقطها ويوظّفها المؤرخ الحصيف، هي في الحيويّة المُذهلة للحظةٍ مختارةٍ من لحظاته، وفي قدرتها العجيبة على الاستمرار. وما من ريبٍ عندنا في أن نهوض (قُمّ) من حيث لايحتسبُ أحد من هذه اللحظات.

ما يهمّنا الآن، أنّه بعد زُهاء ثلاثة قرون من الحضور المُحيي، انهارت (قُمّ) وكل المراكز التي نهضت على هامشها، خصوصاً فيما (وراء النهر) أي (خراسان / آسية الصغرى)، ثم في (الرّيّ) العريقة. وذلك بتأثير دخول العناصر التركيّة في الصورة السياسيّة للمنطقة. فأنزلت بها، كما هو شأنها دائماً، تدميراً هائلاً فيها أحالها قاعاً صفصفاً.

توّجَه التتر، وهم من الأقوام التُّرك أنفسهم، باجتياحهم التدميريّ الهائل لكلّ مشرق دار الإسلام، ومن ضمنه طبعاً (إيران).

على الأثر، وبسبب السيطرة القمعيّة الكاملة لتحالف العسكريين الأجانب المُحتلّين مع الإقطاعيين المحلّيين الشّرهين، انعزلت الفئات الشعبيّة، ومنها طبعاً الغالبيّة الشيعيّة، إلى قاع المجتمع. وساد الفقر والعوز. وغابت الهويّةُ الجامعة لحساب هويّةٍ مكانيّة (المدينة أو القرية)، ممّا لانزال نجِدُ آثاره حتى اليوم في أن اسم بلد الإيرانيّ، حيث وُلد أو عاش، هو غالباً جدّاً جزءٌ من هُويّته. كما انتشرت الفتن الدموية العنيفة تحت عناوين مذهبيّة، تُخفي وراءها دائماً الفوارق الأقواميّة.

في هذا السّياق غاب الفقيه المُنتمي إلى الغالبيّة السُكّانيّة الشيعيّة غياباً شبه تام. ثم أنّ التشيّع الذي تسنّم قمّة حضوره الفكري في (إيران) إبّان القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة/ الثامن والتاسع والعاشر للميلاد، بفضل (قُمّ) وفروعها المُنتشرة شرقاً وجنوباً وشمالاً، ذلك التّشيّع انحدر انحداراً سريعاً إلى العدميّة والعُقم والجهالة.

على هذا النحو استمرّ حالُ (إيران) مدة خمس قرون على الأقلّ. كانت أثناءها بلداً مُمزّق الأوصال، يضطرب أهله في حياةٍ بائسةٍ، زادتها الفتن المتوالية سوءاً على سوء. إلى أن جاءتها النّجدة من غربها، من حيث لا يُحتَسَب، بالنهضة الصفويّة

عمل الشاهان الصفويّان الأوّلان بعبقريّةٍ مُدهشة على معالجة أدواء (إيران) المُتراكمة. المؤسّسُ الشاه إسماعيل وحّدها سياسياً، من (تبريز) حتى (هراة). وابنه الشاه طهماسب، بمساعدةٍ ثمينةٍ من المهاجرين من علماء (جبل عامل)، أحيا التشيّع المأزوم في بلده وجدّده في الأنفُس. وبذلك وضع قيد العمل ما ثبت تاريخيّاً أنّه الجامع المتين الذي شدّ ويشدُّ عُرى بلده وما يزال.

والحقيقة أن ما ساس به طهماسبُ مقاصدَه، لم يكُن إلا استعادةً لدور (قُمّ) قبل قرون، لم يختلف عنه إلا في الأدوات.

في الأُولى منهما المُهاجرون الأشعريّون الكوفيّون. ظهيرهم قيادة الإمام الصادق عليه السلام ورؤيته الإعداديّة البعيدة المَرمى.

وفي الثانيّة منهما المُهاجرون العلماء العامليّون. ظهيرهم الفكر الفقهي، خصوصاً السياسي منه، للشهيد الأوّل.

على أنّه من الواضح للقارئ اللبيب أنّهما كلاهما ينهلان من نبعٍ واحد.

وما تزال إيران السياسيّة حيث وضعتها النهضةُ الصفويّة.

على أنّ هذا التركيب لتاريخ (إيران) أثناء خمسة قرون بين انهيار (قُمّ) والنهضة الصفويّة، لايعني أنّ طريقها بعد ما اعتبرناه نهضةً بالقياس إلى ماسبقه، كان لاحباً سهل المسالك.

الحقيقةُ أنه بات الآن على (إيران)، بعد أن تحرّرت سياسيّاً واستعادت وهجها فكريّا، أن تجتاز طريقَها الصّعب مرّةً أُخرى. لكنّه هذه المرّة باتجاه إعمال فكرها السياسيّ الخاصّ، المُعبّر العملاني عن هُويّتها العميقة. وما ذلك الفكر إلا الذي حمل أُصولَه المهاجرون العامليّون، أخذاً عن أُستاذهم وشيخهم وباني نهضتهم في وطنهم الشهيد الأوّل. بحيث أتى إضافةً غير مسبوقة على نمط ومضمون ومرامي التشيّع الذي نما وازدهر في (قُمّ)، ومنها انتشر في أنحاء (إيران).



هنا احتاجت (إيران) إلى ثلاثة قرون أُخرى إضافيّة، كيما تُنجز النظام السياسي الذي يُعمل الفكر السياسي المُعبّر عن هُويّتها العميقة. أثناءها ساهم التأمُّل والنضال العملاني في إنضاج مشروعٍ فكري ـ سياسي. عبّر عن ذاته بقيام الجمهوريّة الإسلاميّة.

بعد هذا البيان البالغ الإيجاز للظهير التاريخي لحال (إيران) اليوم، الذي لم نقِف فيه إلا على المحطات الأساسيّة، بعد ذلك يجب علينا، انسجاماً مع ما التزمنا به من خطّة البحث، أن نأتي إلى الاحصاءات المُناسبة، فنقول:

المعروف أن عدد سكان (إيران) اليوم تجاوز الثمانين مليوناً. ٩٥٪ منهم مسلمون. والباقون بين مسيحيين من مختلف الكنائس وزرادشتيين ويهود. ٩٧ ٪ من المسلمين شيعة إماميّة. والباقون بين سُنّة وبعض الاسماعيليين. أي أن عدد الشيعة الإماميّة فيها هو بحدود ٧٥ مليوناً، إن لم يكُن أكثر.

الفصل الخامس

تركيّا

(١) جغرافيا وتاريخ

دولةٌ كبيرةٌ، القسم الأكبر منها في (آسيا)، وآخر صغير في (أُوروبـا). يحدّها من الشرق (جورجيا) و(إيران) وجمهوريّة (آذربايجان)، ومن الجنوب (العراق) و(سوريا) و(البحر المتوسط)، ومن الغرب (بحر إيجه) و(بلغاريا) و(اليونان)، ومن الشمال (البحر الأسود). وكانت حتى السنة ١٩٢٢م مركز الإمبراطوريّة العثمانية الشّاسعة. بعدها صارت إلى «الجمهوريّة التركيّة». مساحتها اليوم ٤٥٢، ٧٧٩ كم٢. عدد سكانها زُهاء ٦٨ مليوناً. ٦٠ ـ ٧٠ ٪ منهم أتراك و٢٠ ـ ٣٠ ٪ أكراد. مع نسبةٍ غير معلومةٍ ولكنّها كبيرة من العرب، بالإضافة إلى أقليّاتٍ عرقيّةٍ أُخرى أغلبها من التركمان. على أنّ هذه النِّسَب تقديرات تفتقرُ إلى الدِّقة كما هو واضح من ترديد أرقامها. لأنّها لاتستندُ إلى إحصاءاتٍ مقصودة، بسبب غياب هذا النّمط من الاحصاءات العرقيّة لأسبابٍ سياسيّةٍ غير خفيّة. ومع ذلك فإنّها إجمالاً مقبولة.

ومن المعلوم للقارئ العارف بتاريخ المنطقة، أنّ هذا الخليط العرقي البالغ التنوُّع هو من الآثار الباقية للامبراطوريّة الغابرة في نشأتها وبقائها. وهي التي نهضت على آثار الدولة الرومانيّة الشرقيّة / البيزنطيّة. وساهمت في نشأتها العنيفة، بنسبةٍ أو بغيرها، جماعاتٌ انصبّت عليها من كلّ ما حولها. وخصوصاً من جنوبها، أي من المنطقة الشاميّة. ومن شرقها، أي من سهوب (آسية الوسطى). ولكلٍّ من أُولئك الذين انهالوا على (آسية الصغرى) قصّة. سنكتفي نحن بذكر ما يقتضي من قصّة القادمين من الجنوب، لعلاقته بدخول التشيّع إلى ماهو اليوم (تركيّا). الذي يُشكّل جناحاه اليوم ربع سكانها.

إنّ الانفجار السُكّاني الذي أحدثه الإسلام، بحيث أفلتت الجماعاتُ العرقيّة من عقالها، فتحرّرت من حدودها التاريخيّة التي رسمتها الأعراق من قبلُ، وطفقت تتجوّل بحريّة في رقعةٍ شاسعةٍ تمتدُّ من حدود (الصين) إلى (البحر الابيض المتوسط)، ـ هذا الانفجار أنشأ استراتيجيّاتٍ جديدةٍ، كان من أبرز ضحاياها الامبراطوريّة الرومانيّة الشرقيّة. التي خسرت في المعارك الأُولى مع الفاتحين المسلمين دُرّتَها الثمينة المنطقة

الشاميّة، فتراجعت إلى (آسية الصغرى). لكنّ شهوة الفتح عند الغُزاة لاحقتها بإصرار، بحيث باتت فيما قبل النهاية مُحاصرةً، تطوّقها من كافة حدودها الأسيويّة إماراتُ الغُزاة، تتنافس على السّبق إلى الفوز بالجائزة الكبرى العاصمة المُهيبة الفخيمة (القسطنطينيّة).

جمعت حركةُ الغُزاة خليطاً بشريّاً بالغ التّنوُّع. بعضه جماعاتٌ قادمةٌ من سهوب (آسية الوسطى)، تتكلّم لهجةً أو أُخرى من لهجات التركيّة، وثانيةٌ قادمةٌ من كيليكية وآذربايجان، يبدو أنّها كانت تضمّ إلى لهجتها التركيّة اللغة الفارسيّة. وثالثة قادمة من شمال (الشام)، تغلبُ عليها العربيّة. لكنّ الجميع عملوا على استغلال حالة الفراغ السياسي الناشئة من ضعف ما بقي من الدولة البيزنطيّة. فنشطوا واقتطع كلٌّ منهم لحسابه ما علق بيده من أرضها. وهكذا تأسّس في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد عددٌ من إمارات الغُزاء. وكان عثمان قائد أحد تلك الإمارات، هي التي ستُنهي الدولة الرومانيّة الشرقيّة، وستفتتح العهد الإمبرطوريّ العثمانيّ.

ظلّ نجم العثمانيين يتصاعد على قاعدة استقطاب واستيعاب حركة الغُزاة الناشطة، الذي ظلّ العامل الأوّل في تصاعد نجمهم، بحيث ظلّوا يتلقّون دائماً المزيد والمزيد منهم. وفي السنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م نجح السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح في فتح (القسطنطينيّة). وبذلك افتتح العهد الإمبراطوري للدولة العثمانيّة.



(٢) دخول التشيع إلى تركيّا

ممّا لا ريب فيه أن الجذور العميقة للتشيّع الإمامي في (تركيّا) تضربُ إلى القادمين من أرتال الغُزاة من (كيليكيا) و(آذربايجان) وشمال (الشام). حيث قامت في الماضي عدّة إماراتٌ شيعيّةٌ. منها إمارة آق قيونلو (الخروف الأسود) في (كيليكيا) و(آذربايجان)، وإماراتٌ كثيرةٌ معروفة (الحمدانيّون، العُقيليّون، المرداسيّون) في شمال (الشام). فضلاً عن حركاتٍ مزجت بين شكلٍ من أشكال التشيّع الإمامي واتجاهٍ صوفيّ عرفاني.

ومن المعلوم أنّ تشيّع هؤلاء، عدا حلب الحمدانيّة، هو من نمط ما نُسميه بـ (التشيّع الشامي). وهو ذلك النّمط من التشيُّع الذي لم يُنتج فكراً ذاتويّاً مُنتمياً، كلاميّاً فقهيّاً، كما هو شأن الجماعات ذات النّمط الثقافي الخاصّ بها. كما أنّه لم يلتحق بالحركة الفكريّة العالقة للتشيّع الإمامي في مراكزه التاريخيّة المُتوالية: قُمّ فبغداد فالحلّة فجبل عامل. بل اقتصر تعبيره الذّاتوي على الأدبيات، كما نقرأها في شعر وأدب أبي تمّام وأبي العلاء المعري والمُنتجَب العاني والمكزون السنجاري وابن منقذ الكناني، أو في أدب السيرة لدى ابن أبي شُعبة الحرّاني.... الخ، وهو كثير مايزال بانتظار مَن يدرسه ويكشف خبيئه.

أُولئك الشيعة الشّاميّون هم أسلاف مَن يُعرفون اليوم بالعلويين في (لبنان) و(سوريّا) و(الأناضول) و(تركيّا). كما يُسمّون في بعض هذه الأخيرة وفي (ألبانيا) و(البوسنة) و(الهرسك) بـ البكتاشيّين، نسبةً إلى محمد بن موسى النيسابوري، الشهير بلقب حاجي بكتاش (٦٠٦ ـ ٦٦٩ هـ/ ١٢٠٩ ـ ١٢٧٠ م). الذي قدم من وطنه ونزل ناحيةً من نواحي (الأناضول)، ماتزال تُعرف بلقبه (حاجي بكتاش).



ترك حاجي بكتاش تأثيراً بالغاً في الناس حيثما حلّ. امتدّ حتى وصل إلى أنحاء (تركيّا)، ومنها إلى غير بلدٍ من بلدان شبه جزيرة (البلقان). ولانتشاره في هذه قصةٌ سنذكرها بالقدر المُناسب في محلّها. كما وصل إلى (آذربايجان)، ومن أتباعه في هذه وفي (كيليكيا) الصفويّون الأوائل، الذين سيُنشئون الدولة الصفويّة، ذات التأثير التاريخي البالغ المُستمرّ في (إيران)، وعبرها في التشيُع إجمالاً.

(٣) الشيعة في تركيّا اليوم

تبلغ نسبة الشيعة الإماميّة بمختلف أطيافهم إلى مجموع سكان (تركيّا) بين ٢٠ و ٣٠ ٪، على اختلاف المصادر بهذا الشأن. وعلى كلّ حال فهي لا تستندُ إلى إحصاءٍ مقصود، وإنّما هي تقديرات مبنيّةٌ على ملاحظاتٍ ميدانيّة على حجم الحضور الاجتماعي. ومن المعلوم أنّ هذه الملاحظات ومثلها ليست تعطي أرقاماً دقيقةً. لكنّها، ما لم تكُن مُغرضةً، لا تبتعد كثيراً عن الحقيقة. ويتركّز الشيعة الاتراك في المُدُن التركيّة الكبرى، وفي وسط وغرب (الأناضول)، وفي الأرياف جنوب وشرق البلاد.

والذين هم تحت عنوان (شيعة إماميّة) هناك من ثلاثة أطياف. أكثرهم من البكتاشيين، الذين يُقدّر عددهم الإجمالي في (تركيا) بعشرين مليوناً. ستة ملايين منهم أكراد. إلى جنب زُهاء مليونين من العلويين الخصيبيّة، نسبةً إلى رأس طريقتهم على قولهم، الحسين بن حمدان الخصيبي (٢٦٠ ـ ٣٥٨ هـ/ ٨٧٣ ـ ٩٦٨ م) مصنّف كتاب الهداية الكبرى. الكتاب الأكثر تداولاً بينهم. وهؤلاء عربٌ يقطن أكثرهم بالقُرب من الحدود المُشتركة مع (سوريّا). ثم عددٌ غير معروف من الشيعة الإماميّة المُلتزمين بالشعائر الدينيّة من الصلاة والصوم والحجّ. سنأتي على ما وقعنا عليه من معلوماتٍ تفصيليّةٍ عنهم.

الأمرُ الجامعُ بين هذه الأطياف الثلاثة، المُتعايشة في (تركيّا)، هو الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر، ثاني عشرهم هو إمام زماننا. بالإضافة إلى عدم اعتراف الدولة بوضعهم الديني، وبالتالي حرمانهم ممّا يحظى به مذهبُ الدولة الحنفي من رعاية ومعونة مؤسّساته، والاعتراف بصلاحيّاتٍ لرؤوسائهم الدينيين. وما ذلك إلا إرثٌ عثمانيّ بغيض. لم يعرف أولياء الأُمور المُتوالين أن يتحرّروا منه. مع أنّ هذا التصنيف عند مَن يرفعون شعار العَلمانيّة، كما هو عند الإسلاميين، يُنافي أو يجب أن يُنافي فكرويّتهم.

ولكنّهم يفترقون في درجة الالتزام بالشعائر وعِمارة المساجد، التي تلتزم بها الأقليّة، في حين أنّ الأكثريّة البكتاشيّة والخصيبيّة يؤثرون عليها ما يسمّونه بيت الجمْع، حيث يـؤدّون شعائر لا تتجاوز ترديد ذكر الأئمة عليهم السلام ولعن مُخالفيهم. ثم أنّ منهم مَن يعتقد بتناسخ الأرواح. وما من ريبٍ عندنا في أنّ هذه الفروق ممّا تسلّل إلى صفوفهم بسبب ما نزل بهم من صنوف الاضطهاد، أثناء الليل العثماني الطويل، شأن غيرهم من الشيعة تحت الحكم نفسه. لكنّ أغيارهم وقَتْهُم مؤسّساتهم وفقهاؤهم ومثقفوهم من الانحراف. أمّا هم فقد وقعوا في مأزق ثقافة السّرّ المُهلِك، ولم يلبثوا أن تحوّلوا سريعاً إلى الباطنيّة، في غياب المرشد العارف المُؤتمن. بل إنّ الذين منحوا أنفسهم هذه الصفة عن غير استحقاق، وغالباً ماهُم، قد ساهموا في تشويه العقول، بحيث تحوّلت باتجاه

الغُلوّ، إلى جانب تسلُّل عقائد وأفكار وسلوكيّاتٍ غريبة، منها التناسخ. ولئن أنسَ فلا أنسى أنّني استمعتُ مرّةً إلى تسجيل صوتيّ لإحدى شعائرهم في بيت جمْعهم، فرأيتُ فيها ترديداً صريحاً للطّقس المسيحي البيزنطي.

على أن قيام الجمهوريّة الإسلاميّة في (إيران) قد نفخ روحاً جديدةً في طلائعهم، ومنهم مَن يتمتّعون بثقافةٍ عالية وموقعٍ اجتماعيّ، فطفقوا يتمعّنون في وضعهم، ويُقارنون بين ما هم عليه وما عليه إخوانٌ لهم في بلدانٍ أُخرى، فيطرحون ضرورة إصلاح ما هدمته تصاريف الزمان وصْل ما قطعته، بالعودة إلى أصولهم التي يعرفونها جيّداً. وبالفعل جاء في الأخبار قبل بضع سنوات أنّ آلاف الأفراد من العلويين في بلدة (شوروم) الجنوبيّة أعلنوا دفعةً واحدةً التزامهم بإقامة الشعائر، وبنوا لذلك مسجداً سمّوه (مسجد أهل البيت). كما بدأوا نشر مجلّةٍ محلّيّةٍ سمّوها (عاشوراء)، ثابرت على الظهور لفترة. لكنّ أرباب السلطة المحلّيّة عارضت صدورها لأن الهيئة التي تُصدرها ليست من الهيئات الدينيّة المُعتَرَف بها رسمياً.

ثم أنّ انتصار حزب الرّفاه، بزعامة نجم الدين أربكان، في الانتخابات البلديّة سنة ١٩٩٤ ثم الدستوريّة سنة ١٩٩٦، قد شجّع الشيعة الملتزمين خصوصاً على التجاهر بشعائرهم في مساجدهم وحسينيّاتهم. بعد أن كان حكم العسكر ينظر بعين الريبِ على الأقلّ إلى كلّ نشاطٍ دينيّ خارج الهيئات الدينيّة الرسميّة، التي لا يتمثّل فيها الشيعة إطلاقاً.

ومنذ بضع سنوات يحتفل الشيعة في (استانبول) بمراسم شهر المُحرّم احتفالاً حاشداً، شارك فيه لأوّل مرّة رئيس الوزراء يومذاك رجب طيّب أردوغـان. وللشيعة في منطقة (خلقالي) بالقطاع الأوروبي لمدينة (استانبول) مسجدٌ كبيرٌ اسمه (مسجد زينبيّة).

وفي السنة ١٩٨٩م لم يكن للشيعة في القسم الأسيوي من (استانبول) إلا مسجدٌ واحد، تقصده الجالية الإيرانيّة. أمّا الآن فقد قيل لي أن عدد مساجدهم فيها تزيد على الثلاثين مسجدا. وذلك عددٌ نراه مُبالغاً فيه، مع أن صاحبه من أهل المدينة. لكنّنا لا نشكُّ في أنّ عدد المساجد فيها قد زاد زيادةً جيّدةً عمّا كان عليه في تلك السنة. وفي مُدُن (أنقره) و(بورصه) و(إزمير) و(قارص) و(اغدير) اكثر من ٢٥٠ مسجداً أنشأه ويقصده الشيعة الإماميّة المُلتزمون بالشعائر.

أمّا عن ما بقي من توزيعهم السكاني في أنحاء (تركيّا)، ففي محافظة (قارص) شرقي البلاد بلدة (إيفدر) التي يبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف، ثلثاهم شيعةٌ إماميّة، هم بحسب أُصولهم من الأتراك الآذريين. وبلدة (تُزْلوجا) جميع سكانها البالغ عددهم خمسة عشر ألفاً شيعةٌ إماميّةٌ أيضاً. أمّا مركز المحافظة، مدينة (قارص) التي يبلغ عدد سكانها ثمانين ألفاً، فإنّ ثلثهم شيعة إماميّة مُلتزمون بالشعائر. وهم كثيرون في (أنقره) و(بورصه)، وهم منذ بضع سنوات شرعوا في بورصه ببناء مسجدٍ جديدٍ فيها.

وفي مدينة إزمير السّاحليّة كان عددهم فيها يزيد على عشرة آلاف، لهم فيها مسجدان. ومنذ بضع سنوات التقينا عالمها الديني الشيخ شرعن حفظه الله، وتبادلنا الحديث عن الشيعة والتشيّع في (تركيّا) وفي منطقة عمله خصوصاً، وسجّلنا ما عنده من معلوماتٍ، استفدنا منها فيما سردناه على وضع الشيعة في (تركيّا) إجمالاً. ونرجو أن يكون اليوم على ما نُحبّ ونرجو له.

الفصل السادس

آذربايجان

(١) إضاءةٌ جغرافيّةٌ تاريخيّة

تقع (آذربايجان) التاريخيّة في جنوب (القوقاز)، وتمتدّ على غرب (آسيا) وشرق (أوروبا). تعمرها قوميّة من القوميّات الستّ التي تتكلّم إحدى لهجات اللغة التركيّة، هي التركيّة الآذريّة.

يبلغ عدد سكان (آذربايجان) الإجمالي ستة وثلاثون مليوناً. ثلاثة أرباعهم اليوم في محافظة (آذربايجان)، إحدى محافظات الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، والرُّبع الباقي جمهوريّة مستقلّة، نشات بتأثير ظروفٍ تاريخيّةٍ خاصةٍ بها. وهذا هو السبب الذي دعانا إلى تخصيصها بعنوان.

ومن آثار التشيّع المُبكّرة في (آذربيجان) المرقد المنسوب إلى السيّد إبراهيم ابن الإمام محمّد الباقر عليه السلام، الذي تُوفّي سنة ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م ودُفن في مدينة (گنجة)، المُسمّاة اليوم (كروف آباد)، حيث المرقد مزارٌ مقصودٌ يؤمّه الشيعة من أرجاء (آذربيجان).

ولا صحّة لِما يُقال أن دخول التشيّع إليها كان في أوائل القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، على يد الشاه إسماعيل الأوّل الصفوي. بل إنه من المؤكّد أن التشيّع كان الغالبَ على أهلها حينما بسط الشاه سُلطته عليها. ومن قبله بكثير ظهرت إماراتٌ شيعيّة. أكثرها أهميّةً إمارة قره قيونلو التركمانيّة = (الخروف الأسود). التي ظهرت في المنطقة، وانتهت إمارةً شيعيّةً في (الدّكن)، كما ذكرنا في الفصل المخصّص لـ (الهند). وفي مدينة (سُلطانيّة) الآذريّة أعلن السلطان المغولي محمد خُدابنده بن أرغون بن أبقا بن هولاكو (٧٠٣ ــ ٧١٦ هـ / ١٣٠٣ ـ ١٣١٥ م) التّشيّع، وضرب السّكّة بأسماء الأئمة الاثنى عشر. وهو ولا ريب تدبيرٌ سياسيٌّ يُخاطب الأكثريّة الشعبيّة في منطقة حُكمه.

نعم! ما من ريبٍ عندنا في أنّ تشيّعها قبل النهضة الصفويّة لم يكُن إلا تشيعاً عاطفيّاً سطحيّاً، خاوياً من أي مضمون فكري، شأن التشيّع الشامي وامتداداته إجمالاً، وأنه إنّما اكتسب أو استعاد ذاتيّته أيّام الصفويين، على

أيدي العلماء الشيعة الذين تدفّقوا على (إيران)، مثلما حصل فيها كلّها.

والحقيقة أن كل بلاءات (آذربايجان) التاريخيّة هي من جارتها (روسيا).

ففي السنة ١٩٠٦ احتلّت روسيا القيصريّة القسم المُسامت لـ (بحر قزوين) من (آذربايجان)، طمعاً في ثروتها النفطيّة الكبيرة.

وفي العام ١٩١٨، على أثر انهيار الامبراطوريّة الروسيّة وانتصار الثورة البلشفيّة، أعلنت (آذربايجان) استقلالها باسم (جمهوريّة آذربايجان الديموقراطيّة). لكن الاستقلال لم يطُلْ أكثر من ثلاثةٍ وعشرين شهراً عداً.

ذلك أنه بتاريخ ٢٨ / ٩ / ١٩٢٠ غزاها الجيش الاحمر السوفياتي، واعلن القسم الذي احتلّه منها، وهو القسم نفسه الذي كان مُحتلاً من روسيا القيصريّة من قبل، أعلنه جمهوريّةً من جمهوريات الاتحاد السوفياتي باسم (جمهوريّة آذربايجان السوفياتيّة الاشتراكيّة). وقد استمرّ هذا الوضع الاستلابي حتى انهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٩١. وعلى الأثر أعلن المجلس الأعلى لـ (آذربايجان) الاستقلال، وألغى صفتَي (الاشتراكيّة السوفياتيّة) من اسمها.

(٢) الآثار المُتمادية للاحتلال السوفياتي



أثناء السنوات السبعين، التي كانت (آذربايجان) أثناءها تحت الاحتلال الروسي بقسميه، عمل المُحتلّون كلّ ما بوسعهم على نشر الإلحاد والثقافة المبنيّة عليه إجمالاً بين السُكّان، وعلى قمع الدين والتّديُّن بكلّ وسيلة يملكها. بالإضافة إلى تشجيع كافة ضروب التّحلُّل من الخلقيّات والالتزامات الإسلاميّة ونشر الفحشاء والخمور. أوّلاً لأن ذلك جزءٌ من إيديولوجيّة المُحتلّين. وثانياً لأن الذين قاوموا الاحتلال، وعلى رأسهم علماء دين آذريين، عملوا تحت شعار الواجب الديني القاضي بلزوم جهاد المُحتلّ.

نتيجة هذه السياسة انتشر احتساء الخمور، بتسهيلٍ وتشجيعٍ ضمنيّ من سلطات الاحتلال، وحُظر الحجاب على النساء، وأُغلقت المساجد باستثناء مسجدين في (باكو) العاصمة ، مسجدٌ للشيعة وآخر للسُّنّة. بالإضافة إلى خمسة عشر مسجداً فقط في كل أنحاء البلاد. في حين كانت تعدُّ ألفي مسجد قبل الاحتلال. هكذا حيل بين الناس وبين إقامة شعائرهم الدينية علناً. ولم يبقَ للمؤمنين إلا أداؤها خِفيةً في بيوتهم.

وفي المُقابل كانت الأفكار الإلحاديّة والمُناهضة للدين والتديُّن أثناء تلك المدّة الطويلة جزءاً من النظام التربوي الذي يُلقّن للناشئة في المدارس. وعليه تدور كافّة الأنشطة الثقافيّة والإعلاميّة. كما فُرضت كتابة اللغة المحلّيّة بالأحرف اللاتينيّة بديلاً عن العربيّة، وأن تكون اللغة الروسيّة إلزاميّة لكافة طلاّب المدارس والجامعات. كلُّ ذلك إمعاناً في فصلهم عن هويتهم الحضاريّة والثقافيّة لحساب حضارة وثقافة المُحتلّ. على ذلك تربّت أجيالٌ من الآذريين. الأمر الذي خلق وضعاً عسيراً ومُعقّداً جداً. يمكن تلخيصه بأن شعباً من ملايين البشر أُخضعوا في وطنهم كُرهاً منهم لغسيل دماغ شامل، لا لغرض إلا تيسير نهب ثروته الكبيرة من النفط.



(٣) نحو الحاضر والمستقبل

في النهاية ما أن انجلى الاحتلال، بانهيار الاتحاد السوفياتي كما قدّمنا. واستعاد الجزءُ المُحتلّ من (آذربايجان) حرّيته المفقودة، حتى أُعلنت من قِبَل الذين قبضوا على السُلطة، بقرارٍ وحيدٍ منهم ودون الرجوع إلى المواطنين، جمهوريّةً مستقلّة. مع أنّها كانت قبله جزءً من محافظة (آذربايجان) الإيرانيّة.

وعلى كلّ حال، فقد كان المُتوقّع من القيادة السياسيّة الوطنيّة الجديدة أن تضع في أوّل مقاصدها أن تُعيد بناء ذاتيّة شعبها، بعد ما خضع له من تشويهٍ واستلاب طوال مدّة الاحتلال. الأمر الذي يقتضي تطبيق خطّةٍ تربويّةٍ شاملة، تساهم فيها كلّ النخبة، وعلى رأسها طبعاً علماء الدين. تعملُ على استعادة شعبها هويّته المُستَلَبَة. تماماً كما فعلت النهضة الصفويّة في (إيران)، ومنها (آذربايجان) بالذات، قبل بضع قرون. وبذلك استعادت (إيران) التاريخيّة وحدتها وذاتيّتها، بعد ما عانته من سلسلة احتلالات انصبّت عليها من جوارها.

لكن الذي حصل أن القيادة الجديدة تركت كلّ شيء على ماكان عليه إبّان الاحتلال. ومن ذلك، أنّها حصرت رعاية وتوجيه كافة الأنشطة وإحياء الشعائر الدينيّة بموظفين عاديين يعملون بإشرافها التامّ، تحت اسم (الإدارة الدينيّة). محرومين من القدرة على اتخاذ المبادرة في نطاق الإرشاد والتبليغ. تماماً كما كان عليه الأمر تحت الاحتلال. وهذا يعني فيما يعنيه إلغاء وظيفة عالم الدين، وحرمانه من دوره التاريخي التبليغي والجهادي والسياسي المعروف، الذي تدين له المنطقة إجمالاً، بما فيه (آذربايجان)، بكل جميل. والحقيقةُ التي يعرفها كلُّ من له إلمامٌ بتاريخ المنطقة، أنّنا لم نرَ عالم الدين الشيعي يوماً في موقفٍ أو موقعٍ يتعارض مع حقّ ومصلحة أوسع الجماهير.

المُفارقة الكبرى بين الأداء السياسي للجمهوريّة الجديدة وبين ضمير ومزاج شعبها تكمن في العلاقة التي نهضت بينها وبين إسرائيل.

ذلك أنّه ما أن انجلى الاحتلال وأُعلنت الجمهوريّة حتى سارعت إسرائيل إلى الاعتراف بها. ثم افتتحت سفارةً لها في العاصمة (باكو). ومُذ ذاك زارها العديد من الوفود الإسرائيليّة. واجتمع نتنياهو بالرئيس آنذاك حيدر علييف. وتوالت الزيارات من سياسيين ورجال أعمال ومُستثمرين إسرائيليين. وفي المقابل توالت زيارات كبار السياسيين الآذريين إلى تل أبيب. وباتت إسرائيل من أكبر الشّركاء التجاريين لـ (آذربايجان)، والمُورّد الرئيس للسلاح والخبرات العسكريّة. كما أنها مُستوردٌ رئيسي للنفط الآذري. وطبعاً كان لـ (إيران) موقفٌ حدّي غاضب من هذه الاختراقات للصفّ الإسلاميّ الشيعي، الذي تمثّله تجاه إسرائيل.

في المدة الأخيرة بدأنا نشهد مؤشّرات تدلّ على أنّ (باكو) بدأت تُعيد النظر في سياستها هذه. الأمر الذي قابلته (إيران) بخطواتٍ عمليّة. ومن ذلك انطلاق العمل سنة ٢٠١٧ في أوّل قطار حديد بين البلدين. تلتها محادثات على مستوى الخبراء لإنشاء سكة حديد لتسيير قطار بين شمال (إيران) ومدينة (نخجوان) شرق (آذربايجان) ثم في ٢٨ / ٣ / ٢٠١٨ زار رئيس الجمهوريّة الإسلاميّة الشيخ روحاني العاصمة (باكو) تلبيةً لدعوة الرئيس الآذري إلهام علييف. حيث جرى توقيع مذكرات في نطاق الملتقى الاقتصادي المُشترَك بين

(إيران) و (جمهوريّة آذربايجان). فهذه خلاصةٌ عن الوضع السياسي في (آذربيجان الشرقيّة) وتطوّره أثناء قرنٍ تقريباً.

أمّا على الصعيد الشعبي العامّ، فقد كان الأمرُ على أثر انجلاء الاحتلال مختلفاً تماماً.

من ذلك أنّه ما أن انجلى الاحتلال حتى انطلق الناس إلى أداء شعائرهم الدينيّة علناً بعد أن طال حرمانهم منها، خصوصاً خارج المُدُن الكبرى وفي القرى والأرياف. وعادت مآذن العاصمة (باكو) تصدح بالأذان وآي الكتاب، الأمر الذي كان محظوراً من قبل. وأُبدلت الشعارات الشيوعيّة، التي كانت تنتشر في الأنحاء والشوارع والمؤسسات، خصوصاً في مراكز الحزب الشيوعي، بالشعارات الإسلاميّة. وبدأ العمل في أحياء الحوزات الدينيّة لإعداد الفقهاء والمُبلّغين. واتجه المئات من الرّاغبين بالدراسة الدينيّة إلى الانتساب إلى الحوزات العاملة في (إيران) و (سوريا). وانطلق العمل إلى ترميم الحسينيّات والمشاهد المنسوبة إلى آل البيت. وبتاريخ ٢٠ / ١٢ / ٢٠١٦ افتُتح المقام المنسوب إلى إبراهيم ابن الإمام الباقر عليه السلام في مدينة (كنجه)، باحتفالٍ جماهيريٍّ حاشد، بعد أن تمّت أعمال ترميمه وتزيينه.

الهند

(١) توطئة

نبدأ بها، مُتجاوزين (باكستان)، مع أنّها الأقرب جغرافيّاً إلى (إيران)، لأن عدد الشيعة فيها أوفر. ثم أن تاريخ (باكستان)، بما فيه تاريخ الشيعة فيها، هو في نشأته الأُولى فرعٌ من تاريخ (الهند). لأنّ (باكستان) دولةٌ مُستحدَثَةٌ سُلخت أرضاً وبشراً من شبه القارّة الهنديّة.

فمن المُستحسَن إطلاع القارئ عليه قبلُ، ليكون أكثر أُنساً بما سنأتي به على مَن هي بمنزلة فسيلتها، (باكستان).

لسنا نعرف مَن أدخل التشيّع (الهندَ) وكيف ومتى. لذلك نقول بشأنه وشأنها مثلما قلنا قبلُ في إشكاليّة دخوله (إيران)، أنّه لا سبب عندنا لغير القول أن عُمر التشيّع في (الهند) هو من عُمر الإسلام فيها. وأنّ العرب وغير العرب، حين فتحوا قسماً منها، وانساحوا في أرضها، واستقرّ بعضهم فيها، قد حملوا معهم مُيولاً شيعيّةً. ما لبثت أن نمت وتشعّبت. ثم كان للإماميّة من نُموّها وتشعُّبها نصيب.

ذلك لأننا سنراهم بعد قرون يؤسّسون في جنوبها ممالك شيعيّةً، تركت أثراً باقياً في العُمران والفكر والأدب والفنّ، وقصدها العلماء والشعراء وأهلُ الفنّ الشيعة من غير صقع. وأنتجوا فيها برعاية ملوكها فكراً وأدباً وفنّاً طبعوها بطابعهم الخاص. وذلك أمرٌ يقتضي أن يكون ثمّةَ قاعدةٌ بشريّةٌ واسعةٌ منهم، نمت في الماضي عدديّاً في صمتٍ أثناء القرون، في غفلةٍ عن المؤرخين، الذين لا تُلفتهم إلا الظّواهر اللامعة لذوي السّطوة. إلا أن يؤتى على ذكر تلك القاعدة عرَضاً في سياق ذكر ملوكها وسِيَر رجالها وما أنتجوه من فكرٍ وأدبٍ وفنّ، أو في سياق وصف البلدان... الخ.

(٢) في الظهير التاريخيّ لجغرافيتها البشريّة

سنبني الخلفيّة التاريخيّة للجغرافيا البشريّة للشيعة الإماميّة في (الهند) الحاليّة عبرَ التأريخ للممالك الشيعيّة

التي عبرت تاريخها، وما أنتجته من معالم حضاريّة، ومَن جذبته ورعته من نُخبةٍ ثقافيّة.

على أنّنا في هذا لا نعني المملكة بما هي مملكة وبما هي سُلطة، بل بما هي مؤشّرٌ إلى عُمقها البشري والثقافي. باعتبار أنّ المملكة في نشوئها واستمرارها مَدينةً لهما (أي للعُمقيَن البشري والثقافي) في نشوئها وازدهارها، في ذلك الخضمّ البشري الهائل والبالغ التّنوُّع لـ (الهند).

لكنّنا قبل الدخول في ذكر الممالك الشيعيّة التي نهضت في إقليم (الدّكَن) من (الهند) خصوصاً، يجب أن نُشير إلى أمرٍ لايقلّ أهميّةً بدلالته عن نهوض الممالك بذاتها. هو أنّ إقليم (الدّكن)، حتى قبل نهوض الممالك الشيعيّة فيه، كان مقصداً لعلماء شيعة، ولبعض الأشراف المُنتسبين إلى أهل البيت، ممّن نجِدُ ذكرهم، مثلاً، في كتاب علماء العرب في شبه القارّة الهنديّة ليونس إبراهيم السّامرائي[1]. وهم كثيرون جدّاً.

موضع الدّلالة في هذا، أنّ العالم والنُّخبوي، شيعيّاً كان أم غير شيعيّ، يتبع في حِراكه واستقراره المكاني القاعدة البشريّة المناسبة له، لأنّها المؤهّلة بحكم تكوينهما (العالِم والجمهور) الثقافي للإفادة من النُّخبوي والاستفادة من الجمهور.

هكذا فعندما نرى حجم الاتجاه إلى إقليم (الدّكَن) من النُّخبويين الشيعة، حتى قبل نهوض الممالك الشيعيّة فيه، بل إنّ منهم من عاش وعمل في ظلّ الدولة البهمنيّة (٧٤٨ ـ ٩٣٢ هـ/ ١٣٤٦ ـ ١٥٢٥م) غير الشيعيّة، وتسنّم مناصب رفيعة في عاصمتها مدينة (كَلبركَة)[2]، نكون على شبه اليقين من أنّ الشيعة كانوا في الإقليم إجمالاً جماعةً ذات ثقلٍ سياسيّ واجتماعيّ، لا يحسُنُ من حاكمٍ يُحسِنُ فن الحكم والسياسة تجاهله.

بعد الإدلاء بهذه الملاحظة، التي نراها ذات أهميّة، نصرفُ الكلام إلى الممالك الشيعيّة الثلاث في (الدّكَن). مُعتمدين دائرة المعارف الفرنسيّة، مادة «دكن»، مصدراً أساسيّاً لنا.

(٣) المملكة النظام شاهيّة

(٨٩٦-١٠٠٧هـ/١٤٦٤-١٥٩٨م)

وأوّل ملوكها، المُسمّى أحمد نظام شاه، من أصلٍ هندوسي. أسلم والده برهيو بن برهمنان وتسمّى نظام الدين حسن. وكان جنديّاً فارساً، ظلّ يترقّى في خدمة الملوك البهمنيين في أواخر دولتهم إلى أن غدا وزيراً لأحد ملوكها. ثم بعد انهيار الدولة البهمنيّة وتقاسُم رُقعة ملكها، استقلّ ابنه أحمد بالمُلك من بعده سنة ٨٩٦هـ، في العاصمة التي أتم إنشاءهاسنة ٩٠٠هـ/ ١٤٦٨م وسمّاها (أحمد آباد).

ولنُلاحظ هنا أنّ تحوّلُ الأبِ إلى الإسلام على التشيّع الإمامي يحملُ دلالة قويّة إضافيّةً على ما قلناه من ثقلٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ للشيعة في عموم (الدّكَن).

توالى من بعده على العرش عشر ملوك. آخرهم مرتضى الثاني بن بهادر. وفي أيامه فتح الامبراطور المغولي

(١) طُبع في العراق باعتناء وزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة دون ذكر مكان وتاريخ النشر.
(٢) نفسه/ ٣٠.

أكبر البلاد وأخضعها لحكمه. وبات مرتضى حاكماً ليس له من الحكم إلا الاسم. وكذلك ابنه حسين. إلى أن انقرض رجالُ الدولة تماماً سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م. حيث انفرد أباطرة المغول بحكمها.

(٤) الدولة العادل شاهيّة

(٨٩٥-١٠٩٧هـ/ ١٤٨٩-١٦٨٦م)

مؤسّسها وأوّل ملوكها يوسف عادل شاه (حي: ٨٥٤ ـ ٩١٦هـ/ ١٤٥٠ ـ ١٥١٠م). وهو شخصٌ غامض الأصل. يقال أنّه ابنٌ للسلطان العثماني مراد الثاني (ت:٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م). أنقذته أمه من الموت المحتوم خنقاً بأمرٍ من السلطان التالي، على ما تقضي به التقاليد العثمانيّة الوحشية، بأن يقتل كلُّ سلطانٍ جديد جميع إخوته كبيرهم وصغيرهم، كي يأمن خروج أحدهم عليه. وقيل بل هو ابن السلطان العثماني أيضاً محمد الفاتح (٨٤٧ ـ ٨٨٦هـ/ ١٤٤٣ ـ١٤٨١م) وذلك أمرٌ بعيد لا يتناسب مع سيرة الملك يوسف. كما قيل غير ذلك. وعلى كلّ حال فإنّ حظوظه قادته إلى (الدّكَن)، حيث دخل في خدمة الدولة البهمنيّة وغدا أحد قوّاد عسكرها. ثم عندما ضعفت شوكتها أقتطع لنفسه قطعةً من رقعة دولتها، أعلن نفسه ملكاً عليها، متخذاً من مدينة (بيجابور) عاصمةً له. وفي هذا الاضطراب دليلٌ على أنّ (الهند) كانت في ذلك الأوان أرض الفُرَص برسم المغامرات والمُغامرين.

تُنسب إلى الملك يوسف هذا أنّه أوّل مَن أمر بإعلان الأذان في عاصمته بالشهادة لعليّ عليه السلام بالولاية، والخطبة بأسماء الأئمة الاثنى عشر. فاعتنق كثيرٌ من الناس مذهب الإماميّة، فيما قيل. وقامت أطيبُ العلاقات بينه وبين الشاه إسماعيل الأوّل الصفوي. كما كان واسع الثقافة شاعراً جيّد الخط يُحسن الضّرب على غير آلة موسيقيّة.

توالى على عرش المملكة من بعده ثمانيةُ ملوك. آخرهم الطفل اسكندر عادل شاه. وفي أيامه استولى الامبراطور المغولي أُورنك زيب على العاصمة (بيجابور)، وبذلك انتهت المملكة العادل شاهيّة.

عُرف ملوك الأُسرة إجمالاً بتحلّيهم بالثقافة العالية.وفي أيّامهم غدت عاصمتهم (بيجابور) مدينة علم ومقصد العلماء، حيث كانوا يلقون الحظوة والرعاية التامّة.

في أيّام الملك علي عادل شاه (١٥٥٨ ـ ١٥٨٠م) وصل البحّار والمُستكشف البرتغالي فاسكو دي جاما إلى سواحل (كيرالا) واحتل أحد مدنها. فاستغاث حاكمُها وتجارُها بملوك البلاد لدفع المُحتلّين. وكان الملك علي عادل شاه ممّن نهض معهم، وأبلى في جهاد البرتغاليين والذين لحقوا به من المُستعمرين الأوروبيين أحسن البلاء.

(٥) الدولة القطب شاهيّة

(٩١٨ ـ ١٠٩٦هـ/١٥١٢-١٦٨٥م)

ويرجع أصل الأُسرة إلى قبيلة قره قيونلو = (الشاة السوداء) التركمانيّة المعروفة بتشيّعها، والتي كانت من القوّة والسّطوة بحيث بسطت سلطانها على قسمٍ من (الجزيرة الفُراتيّة)، واتخذت من مدينة (الموصل) حاضرةً

لها. ثم مدّته على بعض أجزاء من (أرمينيا) و(آذربايجان). وفي مرحلةٍ لاحقةٍ استولت على (بغداد) وما والاها وأجزاء من (إيران).

بعد قيام الدولة الصفويّة وامتداد سلطانها على كلّ (إيران)، هاجر أحد أُمراء القبيلة المُسمّى (الله قُلي) إلى (الهند)، مُصطحباً ابن أخيه (سلطان قُلي) باحثَيْن عن حظوظهما فيها فيما يبدو. وفيها اتصل (سلطان قُلي) بالسلطان محمد شاه الثالث البهمني وغدا أحد أُمراء عسكره ولُقّب بقُطب الملك، اللقب الذي حملته أُسرتُه اسماً لها فيما بعد. وبانهيار الدولة البهمنيّة، اقتطع لنفسه قطعةً من رُقعتها جعل منها دولةً حاضرتها مدينة (كولكنده). ومنها مضى يوسّع أرض دولته، بحيث ضمّت أجزاء كثيرة من هضبة (الدّكَن). إلى أن اغتيل سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣ م.

توالى على العرش من الأُسرة بعده ستة ملوك، آخرهم أبو الحسن تانا شاه (١٠٨٣ ـ ١٠٩٦ هـ/ ١٦٧٢ ـ ١٦٨٤ م). وفي أيامه استولى المغول على (كولكنده) العاصمة، بعد مقاومةٍ طويلة، وبه انتهت دولة القُطب شاهيّة. ومات حسن تانا آخر الملوك الشيعة في (الهند) في الأسر.

وعلى الرغم من الماضي العنيف لقبيلة قره قيونلو في مرابعها السابقة، فإنّ هذه الأُسرة برهنت أثناء مدة حكمها زُهاء قرنين من الزمان في (الهند) عن حكمةٍ سياسيّةٍ وسداد. بأن طوّرت الزراعة، ونظّمت شؤون الرّيّ، واهتمت بالعمران وإنشاء المدارس والمساجد والحسينيّات والجُسور، منها مايزال حتى اليوم بحالةٍ جيّدة. وأحد ملوكها محمد قُلي (٩٧٢ـ١٠٢١هـ/ ١٥٦٤ ـ ١٦١٣م)، الذي كان شاعراً كبيراً بالأُرديّة والفارسيّة. كما ترجم الكثير من غزليّات حافظ إلى هذه اللغة، هو الذي أنشأ مدينة (حيدر آباد)، وزيّنها بالمساجد والعمائر. ومنها البناء المعروف بـ (جهار منار) = (المنارات الاربع) القائم إلى اليوم. ويُعتبر من أجمل الآثار الإسلاميّة في (الهند). إلى غير ذلك، وهو كثير.



في أيام الأُسرة القُطب شاهيّة غدت مدينتا (كولكنده) و(حيدرآباد) مقصداً للعلماء والشعراء والفنّانين القادمين إليهما من مختلف الاقطار. وممّن قصدها من كبار علماء (جبل عامل) الشيخ محمد بن علي بن خاتون العيناثي (ت: ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، فحظي لدى السلطان محمد قطب شاه، ومن بعده لدى ابنه السلطان عبد الله، فأسند إليه منصب أمير جمله، أي أمير الأُمراء. والشيخ علي بن هلال الكركي، الشهير بالشيخ علي المنشار، الذي عاش مدة في (كولكنده)، ثم انتقل منها إلى (إيران)، حاملاً معه مكتبةً كبيرة، ما يدلّ ضمناً على أنّه كان هناك في مقامٍ عزيز. وفي (إيران) شغل منصب شيخ الإسلام المركزي في العاصمة (إصفهان) حتى وفاته فيها سنة ٩٩٣ هـ/ ١٥٨٥ م. والشيخ عبد النبي بن أحمد العاملي، الذي شغل منصب القضاء في مدينة (حيدر آباد). والشاعر العالم الرُّحَلَة علي بن محمد بن مكي العاملي، ممّن نجدُ ذكرهم جميعاً في كتابـَي أمل الآمل وسُلافة العصر[1]. إلى غيرهم من غير أبناء (جبل عامل). وهؤلاء العامليّون الذين اكتفينا بذكرهم، مع أنّه يوجد غيرهم كثيرون، من العلماء والأُدباء والفنّانين القادمين من المنطقة الفارسيّة أو (العراق) أو شرق (شبه الجزيرة العربيّة)، لِما في هجرة أُولئك العامليين من دلالة خاصّة على قوّة جاذبيّة مقصدهم، على بُعد الشُّقّة بين بلادهم ومهجرهم.

(١) وانظر الترجمة لهؤلاء في كتابنا أعلام الشيعة ومصادره.



وفي هذه المُلاحظة إجمالاً دليلٌ قويٌّ على الجاذبيّة الكبيرة التي اكتسبتها هضبة (الدّكَن) في زمان تلك الممالك الثلاثة. بفضل سياسة ملوكها السّديدة والحكمة التي تحلّوا بها. وفي رأس ذلك توفير الأمن، وبسْط العدل، والعناية بالعُمران، ورعاية النُّخبة المثقّفة. وهي أُمورٌ لا يمكن أن تتأتّى إلا إنجازاتٍ مُتوازية. إذا سقط أحدُها سقط الكلّ أو ضعُف.

(٦) ظهيرٌ تاريخيّ إضافي

ذلك هو، بالتفصيل الكافي فيما نحسب، الظهير التاريخي لأوضاع الشيعة في دولة (الهند) الحاليّة، بالمقدار الذي تُعطينا إيّاه ما نعرفه من تاريخها السياسي المتوسّط. لكنّ ذلك لا يُفسّر القاعدة السُكّانيّة الشيعيّة العريضة، التي كانت، ولا بُدّ، الخلفيّة الضروريّة لقيام تلك الممالك الثلاث، بالنحو الذي قامت به. ذلك أنّه من أساسيّات اللُّعبة السياسيّة طلبُ نمطٍ من التّماهي بين الحاكم والمحكومين، أو على الأقلّ الأغلبيّة منهم. ومن ذلك أنّ الإيلخانيين المغول، مثلاً، ما أن استتبّ لهم الحكم في المناطق الإسلاميّة حتى أعلنوا إسلامهم على المذهب الغالب في منطقة حكم أحدهم.

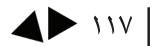
هذه الأُطروحة تُدخلنا في الجانب غير المَرأي من التاريخ. أعني الآن في الحركات السُكانيّة، وفي رأسها الهجرات التي لايُعنى المؤرّخون بتسجيلها أو بالإشارة إليها على الأقلّ. وقد رأيناها فيما سبق من الكتاب في أساس دخول التشيّع إلى مختلف بقاع (الشام) وإلى (إيران).

بالنسبة لـ (الهند)، فإنّ أوثق وأقرب مصدر على الهجرات الشيعيّة الكثيرة التي انصبّت عليها،نجدُه في الأُسرات الكثيرة جدّاً هناك من السّادة الهاشميين، التي تفوق نسبتهم إلى مجموع الشيعة هناك النسبة العاديّة المألوفة. وهم إجمالاً يحتفظون بأنسابهم يزوّدونها بمَن يجدّ. وهي تدلُّ على أنّ وجود وجود بعض أسلافهم في (الهند) يرقى إلى عشرة قرون أو يزيد[١].

والذي يؤخذ من هذه الوقائع الثابتة، أن (الهند) كانت ملجأً مقصوداً للهاشميين من الاضطهاد أو التهديد. وأن ذلك يرقى إلى القرون الإسلاميّة المُبكّرة. وأن هجراتهم كانت ظاهرةً سكانيّةً بارزة. هناك تناسلوا وتكاثروا بحيث باتوا يُشكّلون اليوم عُشر الشيعة الإماميّة في (الهند)، على ما يقوله المصدر الذي أخذنا عنه هذه المعلومات.

وطبعاً فإنّ ذلك لا ينفي هجراتٍ شيعيّةٍ أُخرى، وراءها دافعُ طلب الأمن أيضاً، بالإضافة إلى الفُرَص التي تمنحها أرضُ (الهند) الشاسعة. خصوصاً بعد قيام الدولة الصفويّة، التي أعادت لـ (إيران) سطوتها السياسيّة وحضورها الثقافي العريض والعريق في كلّ ما حولها.

(١) انظر موقع « الشيعة في الهند » على شبكة ويكيبيديا الحرّة. حيث يوردُ ذكر انساب جرى الاطلاع عليها بتواريخ متفاوتة. وقد ألفتني فيها بنحوٍ خاص ذكر السّادة الإسحاقيين، المُنتسبين إلى إسحاق ابن الإمام الصادق عليه السلام. ذلك البيت المجيد ذو الدور التاريخي في نشر التشيّع. ومنهم بنو زُهرة سادة حلب، واليوم في بلدة الفوعة. وقبيلة بنو إسحاق الكبيرة في الصومال، وأُخرى في اليمن. انظر موقع «الإسحاقيون » في الشبكة نفسها.



(٧) الشيعة في الهند اليوم

علينا أن نختم هذا الفصل بإيراد ما تحت يدنا من إحصاءاتٍ لعديد الشيعة الإماميّة في موطن البحث، مع العناية خصوصاً بذكر مواطن انتشارهم في مُدُن وبلدان (الهند).

الذي يُقالُ على نحو الإجمال، أن الشيعة الهنود هم اليوم أقليّةٌ كبيرةٌ بين مسلميها. ثم أنّهم اليوم أيضاً ثاني أكبر تجمُّع للشيعة الإماميّة في العالَم بعد (إيران). وأن هناك العديد من البلدات والقرى الكبيرة والصغيرة فيها تسكنها غالبيّةٌ شيعيّةٌ إماميّة. ذلك كلّه كلامٌ على درجةٍ كافيةٍ من الوضوح والصدق. وإن يكُن لا يُغني عن التفصيل.

وربما كان من المُفيد أن نُشير أيضا، منعاً للالتباس، إلى وجود شيعةٍ إسماعيليّة من البُهرة الداوديّة في ولاية (كجرات) الهنديّة. لكن لاريب في أنّ وجود هؤلاء في (الهند) يرجع زمنيّاً إلى تاريخٍ متأخرٍ كثيراً عن أبناء عمّهم الإماميّة. ثم لا ريب في أن طلب الأمن هو الذي دفع هؤلاء إلى قصد (الهند)، بعد أن كانت فرقتهم قد نشأت في (اليمن).

حين نعمل على طلب التفصيل، فإنّنا نفتقد تعداداً رسميّاً في (الهند) لطوائف السكان. بينما نجدُ إحصاءاتٍ هنديةٍ قريبة العهد زمنياً، وإن تكن غير رسميّة، تقول أن عدد المسلمين الإجمالي في (الهند)، بعد خروج (باكستان) بقسميها، هو بحدود مائة وستون مليوناً.

ما يهمنا الآن من الأمر أنها تقول أن عدد الشيعة بينهم هو بين ٢٥ ٪ و٣١ ٪. أي زُهاء ٤٨ مليوناً. ولكن إحصاءً آخر أعلنته منظّمة غير رسميّة أيضاً قالت أن عدد السكان الهنود الشيعة عام ٢٠٠٠ م حوالي ٣٠ مليوناً[١].

وهذا مختلفٌ بشدّة. وليس الاختلاف ومثله في هذا الشأن بالـذي يُفاجئنا. لعلمنا بغلبة نزعة التكاثر فيمَن ينتمي إلى صاحب الإحصاء. في مقابل التقليل من غيره.

واليوم توجد مجموعاتٌ شيعيّةٌ إماميّةٌ كبيرةٌ في (دلهي و (مومباي) و (حيدر آباد) و (لكنهو) و (أمروهه). ولهم حضورٌ ثقافيٌّ بارز في (لكهنو) العاصمة الثقافيّة لـ (الهند). ومسجد الجمعة الشيعي في (حسين آباد) بـ (لكنهو) من أكبر وأجمل مساجد (الهند). كما أن (حسينيّة آصفي) بـ (لكهنو) أيضاً، التي بناها نوّاب آصف الدولة، وحوت مسجداً يُعرف بـ (مسجد آصفي)، هي أكبر وأفخم حسينيّة في (الهند). وفيها تُقام مراسم عاشوراء، بحضورٍ جماهيريّ ورسميّ غفير من الشيعة وغيرهم.



(١) موقع «الشيعة في الهند» كسابقه.

الفصل الثامن

باكستان

(١) جغرافيا وتاريخ

هي أكبر دولةٍ إسلاميّة من حيث عدد السكان بعد (أندونيسيا). نشأت بالانفصال عن (الهند) سنة ١٩٤٧م. عدد سكانها حسب إحصاء أُجرى قبل بضع سنوات ١٨٠ مليوناً، وهو يُناهز اليوم ٢٠٠ مليوناً. ٢٠، ٢٥ ٪ منهم شيعة إماميّة. أي أنّ عديدهم فيها زُهاء الأربعين مليوناً. والظهير التاريخي لحالتهم السُكّانيّة هذه هو نفسه كما بيّنّاه في عموم (الهند).

ينتشر الشيعة الإماميّة في كافة أنحاء (باكستان) تقريباً، مثل (لاهور) و(مولتان) و(جهنك) و(فيصل آباد) و(كراجي) و(إسلام آباد) و(روالبندي). وينتشرون بصفةٍ أساسيّةٍ في مُدُن وبلدات إقليم (البنجاب)، والمناطق الداخليّة لإقليم السّند). وهم أغلبيّة في المناطق الشماليّة المُحادّة لـ (الصين)، خصوصاً في مُدُن (جلجت) و(بلتستان) و(اسكردو) و(غازار)و(وشيغر) و(هونزا). والجدير بالذكر أنّ أهل هذه الأخيرة ظاهرةٌ تُثير العجب على نطاقٍ عالَميّ، بما لديهم من صفات وراثيّة ممتازة فريدة، بحيث يتمتّعون بأعمارٍ طويلة، وبالخُلوّ من الأمراض المنتشرة في أنحاء الدنيا.

كما أنّهم أغلبيّة أيضاً في مدينة (جنك) بإقليم (البنجاب). ولهم وجودٌ بارزٌ في مدينة (أتك) بالإقليم نفسه. وكذلك في منطقة (كورم إيجنسي) القبَليّة. وأيضاً في مُدُن إقليم (السِّند): (لاركانه) و(نوّاب شاه و(سقر).

مدينة (كويته) عاصمة (بلوشستان) تضمّ أعداداً كبيرةً منهم، لغتهم الفارسيّة، مع أنّهم من العرق المغولي.

ولشيعة (باكستان) مزاراتٌ كثيرةٌ. منها مزارٌ للإمام علي عليه السلام في مدينة (باراجنار). وفي مدينة (لاهور)، من إقليم (البنجاب)، ضريحٌ منسوب إلى السيّدة رُقيّة بنت علي عليه السلام من زوجته أُمّ البنين، مقصودٌ من الزائرين من عموم الشيعة الباكستانيين. ويُشارُ إليه بينهم باسم (بيبي باكدامن).

(٢) أحوال الشيعة السياسيّة الثقافيّة

مع أنّ نسبة الشيعة الإماميّة في (باكستان) إلى مجموع السكان هي الرُبع، فإنّ حضورهم وأثرهم بارزٌ في في الحركة السياسيّة والثقافيّة في البلاد، بما يفوق حضورهم العددي.

يشهد لحضورهم في الشأن السياسي تمثّلهم القوي في المناصب العُليا السياسيّة والعسكريّة والأمنيّة والمدنيّة. وأشهرهم مؤسّس الدولة محمد علي جناح، الذي يعود إليه أكبر الفضل في تأسيس (باكستان) بالانفصال عن (الهند). وهو الذي أعلن استقلالها، وأوّل رئيسٍ لها. بالإضافة إلى الكثيرين من رؤوساء الحكومات والوزراء وقادة الجيش. فضلاً عن الذين يتبوّأون مناصب قياديّة في أغلب الأحزاب السياسيّة، مثل (حزب التحريك الإسلامي) و (حزب الشعب). بالإضافة إلى العديد من المُنظّمات، وأبرزها (حركة تطبيق الفقه الجعفري) و (مُنظّمة الملّة الجعفريّة).

والمعروف أنّ امتناع رئيس الوزراء نوّاز شريف عن الاشتراك العسكري فيما سُمّي (عاصفة الحزم) ضدّ (اليمن)، على الرغم من علاقاته الوثيقة مع النظام السعودي، والإغراءات الماليّة التي لوّح له بها، ـ كان لعلمه وعلم أعضاء البرلمان بالموقف المُعارض للشيعة.

في الشأن الثقافي، فإن الشيعة في (باكستان) قد عملوا على إشادة المدارس والمساجد والحسينيّات. وهناك العشرات من المدارس الدينيّة، التي تُخرّج الآلاف من المؤهّلين للإرشاد والتبليغ. بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من الدّوريات / المجلات، من مختلف الاهتمامات. نذكر ن أسمائها: (الثقلين)، (الإمام الحسين)، (وحدت)، (الصادق)، (الاخبار)، (العارف)، (المشرق)، (المُنتظَر)، وغيرها.

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السّياق، أن الشيعة هناك قد أبتدعوا نظاماً خاصاً لجباية وصرف أخماس المُكلّفين. بأن شكّلوا هيئةً، تعملُ تحت إشراف وكلاء المراجع الدينيين في مدينتي (قُمّ) و (النجف)، مهمتها العمل على جباية الأخماس من أهلها، ومن ثَمّ صرفها على تعمير المساجد والحسينيّات، ومساعدة طلاّب العلم مالياً، وسدّ حاجات الفقراء والمُعوزين، وما إلى ذلك.

ومع أنّ الخطوة التاريخيّة بالانفصال عن (الهند) قد تمّت بعد مُعاناةٍ طويلة للأقليّة الإسلاميّة فيها، كما أنّها كانت مطلباً إسلاميّاً عامّاً عابراً للمذاهب، فإن من المؤسف حقّاً أنّ نرى الفتن المذهبيّة العنيفة بين السُّنّة والشيعة في (باكستان) قد رافقت تاريخها منذ نشأتها، وما انفكّت تنفجر بين الفينة والفينة حتى اليوم. وذلك لأسبابٍ بعضها تاريخيّ، ليس هذا المقام محلّ بسطها. ولكنّها بالدرجة الأُولى بسبب الجهة المعلومة التي دأبت على نشر الفكرِ الديني العدائيّ العنيف المعروف بين سُنّتها. ورعايتها بل وربما تمويلها للمنظّمات شبه العلنيّة، التي لاتكتم أنّها وراء الهجمات والتفجيرات المُتوالية على الهزارة الشيعة في إقليم (بلوشستان). حيث تمّ قتل المئات منهم. بينما كانوا يشاركون في مواكب دينيّة، أو يُصلّون في المساجد، أو ينتقلون على الطرقات.





وقد أعلنت جماعة (جهانكوي) مسؤوليّتها عن معظم الهجمات. لكنّ العديد من قادتها المعروفين استمروا في ما ارتكبوه، مُتجنّبين المُلاحقة القضائيّة. كما هرب عددٌ من الذين تمّت إدانتهم من مراكز الحجز العسكريّة والقضائيّة، دون أن تُكلّف السُلطات نفسها في الحالتين بيان ملابسات هروبهم ومُلاحقتهم. ما يدلُّ على أنّها تمّت بالتنسيق مع بعض هذه السُلطات.

وفي عام ٢٠١١م وُزّعت منشورات في منطقة مدينة (كويتة)، جاء فيها أن (باكستان) تعني الأرض الطاهرة، ولذلك فالشيعة ليس لديهم الحق في سكناها. وعلى الأثر بدأت موجة من الاضطهاد والمُلاحقة لأبناء قوميّة هزارة الشيعة في المنطقة. الأمر الذي اضطرّ الآلاف منهم إلى الهجرة نهائيّاً إلى (إستراليا) و (أُوروبا) عبر وسائل ومسالك بحرية خطرة، وبدون أي ضمان للوصول إلى مقصدهم على قيد الحياة. وسيشهد القارئ في الآتي نماذج عن هذه الهجرات الظالمة.

والمُلاحَظ أن الحكومة الباكستانيّة، خصوصاً في فترة رئاسة ضياء الحق، قد وقفت موقف المُتفرّج من كل هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق، وأمن مجموعةٍ كبيرةٍ من مواطنيها. دون أن تولي أدنى اكتراث بنداءات وبيانات هيئة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch.

الفصل التاسع

أفغانستان

(١) الهوية المُضطربة

هذه المنطقة، ولا نقول الدولة، التي لم تعرف الاستقرار والأمن أبداً في كل تاريخها المعروف. ربما بسبب موقعها الدقيق بين دُولٍ وحضاراتٍ مختلفة، دون أن يكون لديها هويّتها الخاصة الحاضنة.

ومن هنا تقلّب أهلُها في الماضي دينيّاً بين الزرادشتيّة الفارسيّة، والبوذيّة المغوليّة، والهندوسيّة الهنديّة، لتستقرّ بالفتح في أحضان الإسلام. كما تقلّبت منطقتهم سياسيّاً بين إمارة استندت إلى قاعدةٍ بشريّة قوامها قوميّة البشتون (١٨٢٦-١٩١٩)، فمملكة أفغانستان (١٩١٩ - ١٩٧٣)، فجمهوريّة أفغانستان (١٩٧٣-١٩٧٨)، فجمهورية أفغانستان الديموقراطيّة (١٩٧٨ - ١٩٩٢)، فدولة أفغانستان الإسلاميّة (١٩٩٢ - ٢٠٠١)، فإمارة أفغانستان الإسلاميّة (١٩٩٦ - ٢٠٠١)، وأخيراً جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة (٢٠٠٤). أمّا قبل تلك التقلّبات فقد كانت تجمّعاتٍ سُكانيّة ليس لها أي هُويّةٍ ذاتيّة.

والحقيقة التي ينبغي أن يُدركها القارئ جيّداً أن كل هذه الأطوار والعناوين المُتغيّرة هي صنعةُ القوميّة البشتونيّة المُسيطرة سُكّانيّاً على المنطقة. بل وأن كلّ اللعبة السياسيّة العالقة فيها، وستكون موضع تحليلنا بعد قليل، حتى بأكثر أحوالها عنفاً، هي في سبيل حماية موقع القوميّة البشتونيّة.

(٢) السكان وعديد الشيعة

ما من إحصاءٍ دقيقٍ لعدد سكان (أفغانستان). لكنّ تقديراتٍ ترجع إلى العام ٢٠١٦ قالت أن عديد سكانها بحدود ٣٤ مليوناً. نسبة الشيعة منهم ما بين ١٠ و٢٠ ٪، ٢٪ منهم إسماعيليّة والباقون إماميّة. أكثرهؤلاء من قوميّة هزارة، والأقلّ من الطّاجيك.

الهزارة، وأبناؤها يتكلمون الفارسيّة، ويعملون في الزراعة والصناعة. وهم معروفون بمهارتهم العريقة في صناعة وإصلاح الأسلحة. ويُقالُ أنّهم من أصلٍ مغولي. وينتشرون في (هزارة جات) وسط (أفغانستان)، وفي (فارسيوان) بمحافظة (هرات). وبقلّةٍ في مقاطعات (باميان) و(كابُل) و(قندهار) و(غزنة) و(مزار شريف). ولهم في هذه الأخيرة مساجد وحسينيّة يُحيون فيها شعائرهم الدينية.

أغلبُ الشيعة يُقيمون في المناطق الحضاريّة. ولهم اهتمامٌ خاصٌّ بتعليم ناشئتهم في المدارس والجامعات. كما أنّهم يؤثرون الاعمال التجاريّة الخفيفة، التي تُدرُّ عليهم دخولاً جيّدة. وكان لهم دورٌ كبيرٌ في مُناهضة الاحتلال البريطاني ثم السوفياتي.

(٣) في وضع الشيعة في أفغانستان

منذ قرون يتعرّض الهزارة للإضطهاد المُتمادي، لا سيّما من البشتون. وقد افتتح أوّلُ أُمراء البشتون المُسمّى عبد الرحمن (ت: ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م) عهده بأن استصدر فتاوى بتكفير الشيعة وإباحة دمائهم وسبي نسائهم واسترقاقهم.

ومع ظهور حركة طالبان، المدعومة علناً من السُلطات السعوديّة، تعرّضوا لصنوف إضافيّة من الاضطهاد.

وأظهرت بيانات الأُمم المتحدة في خواتيم القرن الميلادي الماضي، أن عدد الهجمات لأسبابٍ دينيّة في (أفغانستان)، وخصوصاً ضدّ الشيعة بكافة أطيافهم، قد ازداد أثناء العامين الأخيرَين. حيث قُتل الآلاف منهم ودُفنوا في مقابر جماعيّة على أيدي جماعة طالبان. كما أنّهم تعرّضوا من بعد للخطف والاغتيال من تنظيم داعش. بتأييدٍ غير خفيّ من السعوديّة، ومكتومٍ من الولايات المتحدة الأميركيّة. لا لسبب إلا لأنّ هذه تعتبرهم بوصفهم شيعةً إماميّةً امتداداً إيديولوجيّاً وسياسيّاً لـ (إيران).



وبحسب فهمنا وتحليلنا، فإن سياسة البشتون العنيفة في كافة أطوارهم السياسيّة تجاه الشيعة، والمدعومة بقوّة من جهاتٍ باتت معروفة، وإن كانت تجري تحت شعارٍ مذهبي، فإنّها في الحقيقة مجرّد قناع لسياسة تثبيت وحماية الموقع المُتسلّط الذي احتلّه البشتون في تاريخ (أفغانستان)، استناداً إلى حجمهم الكمّيّ الكبير، وفي المُقابل الموقع النوعي المتقدّم للأقليّة الشيعيّة في كافة الميادين.

(٤) نحو الحاضر والمستقبل

ومع ذلك فإن هذا البلد، الذي ابتُلي في تاريخه بمَن يسوس أُموره بذهنيّة الاستعلاء و التسلط وإلغاء الآخَر، الشيعيّ بالتحديد، يشهد الآن تنامياً ملموساً لدور الشيعة في مختلف الميادين السياسيّة والاقتصاديّة والتعليميّة والاجتماعيّة. ويسيرُ بخطىً ثابتة باتجاه تصحيح الخلل السياسي، الذي عانى منه مواطنوه دون استثناء. ووفّر



مناخاً وفرصةً مناسبيَن لذوي النزعات التكفيريّة، ولأسلوبهم الهمجي في اضطهاد وإلغاء المُخالف والمختلف إلغاءً مادياً بالقتل الذّريع، لا لسبب إلا حفاظاً على احتكار موقعٍ سياسيّ لم يكسبوه إلا بتفوّقهم العدديّ الكمّي.

في الميدان السياسي. يمكن رصد وفهم الدور الشيعي المُتعاظم في (أفغانستان) باعتبار عدد الأعضاء الشيعة في البرلمان. وأيضاً باعتبار عدد المقاعد التي يشغلونها في الحكومة.

في البرلمان شكّل النواب الشيعة، لأوّل مرةٍ في تاريخ (أفغانستان)، ربع عدد أعضاء البرلمان الأفغاني، وهي نسبةٌ أعلى من نسبة عددهم الإجمالي إلى مجموع السكان.

في المقاعد الوزاريّة وحُكّام الولايات، حصلوا على نسبةٍ عاليةٍ من الوزراء والحُكّام مقارنةً بالنسبة التي كانوا يحصلون عليها في السابق.

وممّا يجدر بنا الوقوف عنده في هذا السّياق، أنّه تمّ الاعتراف بـ «المذهب الجعفري» في دستور «جمهوريّة أفغانستان الإسلاميّة» بوصفه أحد المذاهب الإسلاميّة. وأين هذا من تكفير الشيعة الصريح في «إمارة أفغانستان الإسلاميّة».

وهناك اليوم العديد من الأحزاب والمُنظّمات الشيعيّة الفاعلة في الوسط السياسي الأفغاني. منها (حزب الوحدة) و(حزب وحدة الشعب) و (حزب الاقتدار الوطني) و (حزب الحركة الإسلاميّة للشعب الأفغاني). ولايفوتنا هنا أن نُلاحظ النّفَس الوحدوي ـ الشعبي ـ الوطني في أسماء هذه الأحزاب، مُقابل النّفَس الاستعلائي ـ الإلغائي في دولة ـ إمارة من قبل.

كما أنّ الشيعة الأفغان اهتمّوا ويهتمّون ببناء وشيجةٍ متينةٍ مع إخوانهم في (العراق). ومن ذلك أن مجموعة من العلماء الشيعة العراقيين، برآسة ممثّلٍ للمرجع السيّد السيستاني، زارت (أفغانستان) بدعوةٍ من زملاء لهم، حيث احتُفي بهم من أعلى المراجع والهيئات السياسيّة والشعبيّة.

في المجاليَن الاقتصادي والإعلامي فإنّ للشيعة اليوم حضورهم البارز في قطاع الاتصالات. وقناة (تمدُّن) التي تعمل بإشراف أحد كبار علماء الشيعة الأفغان هي من أبرز القنوات التلفزيونيّة العاملة هناك وأكثرها مشاهدين. ونصف الجرائد اليوميّة والمجلاّت الأُسبوعيّة والشهريّة تصدر من قِبَل إعلاميين شيعة.

في القِطاع التعليمي فإنّ عشرات الآلاف من الطُلاب الشيعة الأفغان باتوا يتلقّون التعليم في مختلف المدارس والجامعات والحوزات، التي أُنشئت أثناء السنوات الخمس الأخيرة، بمبادراتٍ شعبيّة ومعونات من (إيران). و (جامعة خاتم النبيين) الكبرى في (كابُل) العاصمة هي أهمّ إنجازٍ في هذا المضمار وأكثرها نجاحاً. وهي تعمل بإشراف الزعيم الديني الشيعي الأفغاني البارز آصف محسني.

هذا، إلى أن الشيعة اليوم باتوا يؤدّون شعائرهم الدينيّة اليوم بكامل الحريّة في (هرات) و (بلخ) و (باميان) و (مزار شريف) وغيرها. الأمرُ الذي كان محظوراً عليهم في الماضي القريب.

الفصل العاشر

جمهوريات آسية الوسطى

(١) لمحةٌ تاريخيّةٌ عن المنطقة إجمالاً

فضاءٌ جغرافيٌّ سياسيٌّ واسع. يستقرّ بين الحضارتين الروسيّة والصينيّة. أهله إجمالاً مزيجٌ من العرقيَن التتري والطورخاني / التركي. يرجعون إلى القبائل التي كانت تسرح بقطعانها من الأغنام في سهوبه الواسعة. اتصل بهم الإسلام بالفتح. وبقيت المنطقة لفترةٍ طويلةٍ بيد أُمراء القبائل والأسرات، حتى سيطر عليها الرُّوس في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. ثم اصطنع منهم الاتحاد السوفياتي جمهوريات تدور في فلكه. أُخذت أسماءها من أسماء الأعراق التي ترجع إليها: منطقة القرغيز باتت (قرغيزستان)، ومنطقة التركمان (تركمانستان)، وكذلك الطاجيك و الأُوزبك والقوزاق. مع الأخذ بعين الاعتبار التداخُل أحيانا بين الأصول العرقيّة في الكيان السياسيّ الواحد. فـ (أُوزباكستان)، مثلاً، يتمثّل فيها اليوم الأكثريّة الأُوزبكية ٧٠ ٪، إلى أقلّيّات متفاوتة العدد من الطاجيك والقوزاق والتتار والأتراك والمغول.

وعندما تفكّك الاتحاد السوفياتي نالت هذه الجمهوريّات استقلالها، كغيرها من الجمهوريّات التي كوّنت سابقاً الاتحاد السوفياتي.

يُقدّر عدد أتباع المذهب الشيعيّ الإمامي في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق إجمالاً بأربعة ملايين نسمة. يعيش معظمهم (حوالي ٧٠٪ منهم على وجه التقريب) في (آذربيجان)، بينما يتوزّع الآخرون في دول (آسيا الوسطى).

ونذكر أيضاً أنّ في منطقة (كورنو- بدخشان) الواقعة في دولة (طاجيكستان) يعيش ما يقرب من مائة ألف نسمة من الشيعة الإسماعيليّة. وهم طائفة قويّة تتمسّك بقوّة بعقيدتها.

وتُقدّر نسبة الشيعة في الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتي السابق بعشرة في المائة من مجموع المسلمين. وينتمي أغلب المسلمين في تلك البلاد إلى المذهب الحنفيّ. وذُكر أنّ جماعاتٍ من الشيعة تعيش

في بلاد (القفقاز)، وأنّ جماعات أخرى منهم تتوزّع في المناطق الكرديّة. كما ذُكر أن معظم الأكراد في هذه الجمهوريّات هم من الشيعة، وأنّ أغلبهم فيها هم من الاثنى عشريّة.

الباب الأول: أُوزبكستان

(١) جغرافيا وتاريخ

عُرفت في الأدبيّات الإسلاميّة باسم (ما وراء النهر). وهو الاسم الذي أطلقه الفاتحون العرب على المنطقة الواقعة بين نهري جيحون وسيحون اللذين يحدّانها من الشرق والغرب. والاسم بمعناه عريقٌ سابقٌ على الإسلام والعربيّة.

(أوزباكستان) من بين رصيفاتها أكثرها عراقةً وحضوراً سياسيّاً وفكريّاً في الإسلام. ولمُدُنها الرئيسة (طشقند) و(بخارى) و(سمرقند) و(فرغانة) ذكرٌ عريضٌ بمَن أنجبتهم في الأدبيّات الإسلاميّة.



(٢) التشيّع في أوزبكستان

للتشيّع تاريخٌ عريقٌ ومجيدٌ في (أُوزباكستان)، مادّته السُكّانيّة الذين انساحوا من العرب في أرجائها. ومنهم مَن قدموا من (الكوفة) و(البصرة)، واختاروا الإقامة نهائيّاً في (سمرقند) و(كشّ) وغيرهما من مُدُنها. ومن المعلوم الثابت أن الشيعة إجمالاً كانوا يميلون إلى الابتعاد عن المراكز المدينيّة القريبة من مُتناول السُلطة وأجهزتها الأمنيّة.

وممّا يدلُّ على كثافة الجالية الشيعيّة في (كَشّ) خصوصاً، أنه كان للإمام الرضا عليه السلام (١٨٣-٢٠٢هـ/ ٧٨٩-٨١٧ م) وكيلٌ مُكاتبٌ فيها[١]. وظيفته أن يُمثّل الإمام لدى الشيعة فيها،وأن يُكاتبه مُباشرةً بما ينبغي أن يكون محلّ اهتمام الإمام من شؤونهم.

وفي الفترة نفسها أو ماقاربها برز من أهل (كشّ) أعلامٌ، حضروا على مُحدّثي (قُمّ) وغيرها. منهم جبرائيل بن أحمد الفاريابيّ الأصل، الذي كان مُقيماً بـ (كَشّ)، وله فيها حلقةٌ. وكان فاضلاً مُتحرّياً، كثير الرواية عن العلماء بـ (العراق) و(قُمّ). وهو من شيوخ محمد بن مسعود العيّاشي، الذي سنعرفه ونعرف حضوره الباهر في (سمرقند) بعد قليل.

(١) انظر الفصل المُخصّص لـ (كَشّ) من كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه.



ثم طاهر بن عيسى الكَشّي، المُحدّث الذي يروي عن القُميين. ومحمد بن نصير الكَشّي. وسعيد بن جناح الكَشّي. إلى غير هؤلاء أعلامٌ كثيرون، كان من فضلهم أن جعلوا من مدينتهم حاضرةً علميّة. ممّن سجّلهم وسجّل أعمالهم بلديُّهم محمد بن عُمر الكشّي في كتابه السّائر معرفة الرّجال، المعروف مختصره اليوم بـ رجال الكَشّي، مثلما سيفعل محمد بن الحسن الحرّ العاملي في كتابه أمل الآمل ، حيث سجّل أسماء وسِيَر أعلام بلده (جبل عامل)[1].

في عهد الأُسرة السّامانيّة التي حكمت (خراسان) (٢٠٤ ـ ٣٩٠هـ/ ٨١٩ـ٩٩٩م) غدت (أُوزبكستان) عاصمة الإسلام الشرقيّة ثقافيّاً. أثناءها نزل المُحدّث الجليل علي بن إبراهيم الكوفي (سمرقند). الأمر الذي يمكن أن نعتبره أوّلَ اتصالٍ على مستوى النخبة بين (سمرقند) والتشيّع. سيلتقي بعد قليل بالقاعدة السُكّانيّة من الجالية الشيعيّة فيها، التي يبدو أنّها لم تكُن بالصغيرة ولا بالقليلة الشأن والأهميّة. وترتّب على اللقاء ما سنقف عليه بعد قليل.

نزل صاحبنا الكوفيُّ (سمرقند) التي يبدو أنها كانت عطشى إلى مثله. فكان موضع تكريم ملكها نصر الأول بن أحمد السّاماني (٢٥٠ـ٢٧٩هـ/ ٨٦٤ـ٨٩٢م) ثاني ملوك الأُسرة. وذلك أمرٌ له مغزاه عند العارف. لِما هو معلومٌ من أن حاكماً من مستوى ملك يحكم بالغلَبَة، إذ هو يُقرّب فقيهاً غريب الدار، فما ذلك من باب قضاء حقّ العلم وأهله. بل لأنّ ذلك من باب طبائع المُلْك وحُسْن السياسة. الملك بحاجةٍ إلى القوّة التمثيليّة التي يملكها الفقيه عند الناس. فعندما يضعُ الملكُ الفقيهَ في كنفه، ويُقابله الفقيهُ بأن يركنَ إليه، فإنه بذلك يؤدّي شهادةً ضمنيّةً في صالح الملك. فمن هنا عرفنا أنّ الشيعة كانوا يومذاك يُمثّلون ثقلاً سُكّانيّاً في (سمرقند) يُحسَبُ حسابُه.

هذه النتيجة تتأكّدُ عندنا بما سنورده من سيرة محمد بن مسعود بن عيّاش السّمرقندي، المُتوّج الهام بشرف إطلاق ورعاية وإنجاز النهضة العلميّة في بلده.

(٣) العياشي بطل سمرقند

خرج العيّاشيُّ من بلده (سمرقند) قاصداً (العراق). حيث حضر على عددٍ من مُحدّثي (الكوفة) و (بغداد) و (البصرة). فأخذ عمّن ارتضاه منهم. ونوّه تنويهاً خاصّاً بشيخه المُحدّث والفقيه البارز علي بن الحسن بن فضّال.

رجع العيّاشي إلى بلده من رحلته الطويلة، حاملاً معه ما اكتسبه من لقاء الشيوخ والتّحمُّل عنهم. والظاهر أن رجوعه كان له أحسن الوقع بين الشيعة فيها، وهم الذين لم يتمتّعوا بوجود مثله بين ظهرانيّهم من قبل. وما لبث أن جعل من داره «كالمسجد»، على حدّ تعبير الرجالي الشهير النجاشي. لكنّ عُمّاره «بين ناسخٍ أو مُقابِلٍ أو قارئٍ أو مُعلّقٍ. مملؤةٌ من الناس».

(١) نفسه.



من المؤكّد عندنا أنّ هذا الذي وصفه النجاشي بعبارته كان أمراً غير مسبوق في تاريخ (سمرقند). يؤيّده ما أورده النديم (ت: ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) في كتابه الفهرست، حيث وصف العيّاشي بأنه «من فقهاء الشيعة الإماميّة. أوحدُ دهره وزمانه في غزارة العلم». ثم أنّه يُعقّبُ بعبارةٍ كبيرة المغزى، فقال: «ولكُتُبه في نواحي خراسان شأنٌ من الشأن». هذا فضلاً عن أن الذين يوصفون في كُتُب الرجال والسير بأنهم من تلاميذ العيّاشي هم طائفةٌ كبيرةٌ، تنتمي إلى مختلف بلدان (خراسان). أضِف إلى ذلك أنّ مُفهرسي كُتُبه يذكرون بينها كتاباً اسمه جوابات رسائل وردت إليه من بلدانٍ شتّى. وفي هذا وذاك دليلٌ ساطعٌ على ما كان لأعمال العيّاشي وكُتُبه من حضورٍ وأثر كبير في منطقةٍ شاسعةٍ من)خراسان(. كما يدلُّ ضمناً على انتشار التشيّع في بلدانها. ومنها (بُخارى) و (خُجنده) و (إيلاق) و (فرغانه) و (خُتّل) و (الشاش). وكل هذه البلدان وحضور التشيّع فيها قد بسطنا الكلام عليه في كتابنا نشأة الفقه الإمامي ومدارسه / ١٣١ وما بعدها. بل إن كلّ ما أوردناه في هذا الباب مُقتبَسٌ بمقدار موضع الحاجة عن الكتاب نفسه. تجنّبنا فيه تضييع الصفحات بإسناده أيضاً إلى مصادره مصدراً مصدراً، اعتماداً على ما أوردناه هناك. وعليه فليس على من يبتغي التفصيل والإسناد إلا الرجوع إلى الأصل.

السؤال الآن: أين وكيف انتهى كلُّ ما قد وقفنا عليه من ثقلٍ سُكّاني ونشاطٍ فكري للشيعة في (كازاخستان)، بالقياس إلى ما هو عليه وضعهم الآن فيها، ممّا سنقفُ عليه في خواتيم الباب؟

في الجواب نقول: كلُّ ذلك ضاع في الفوضى العسكريّة الهائلة التي ضربت (إيران) و (خراسان الكبرى) إجمالاً منذ القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد.

والحقيقة أنّ ماسمّيناه فوضى عسكريّة ماهو إلا صدىً لحالة الانحلال التي ضربت مركز الدولة (بغداد). حيث قادة العسكر ذي الغالبيّة التركيّة قبضوا على السُلطة، بدلاً عن حمايتها لمصلحة مَن اشتروهم ودرّبوهم. ومذ ذاك أصبحت السياسة وأهلُها لعبة العسكر بامتياز. الأمر الذي تدحرج باتجاه الخارج، وفتح شهيّة كلّ القادرين في (إيران) و (خراسان الكبرى) على أن يقتدوا بهم. وذلك بأن يقتطع كلُّ قادرٍ لنفسه ما تطاله يده. هوذا ما افتتح نزاعاً لا نهاية له بين أُسراتٍ نافذة، بعضها كانوا عمّالاً للدولة المركزيّة. فلمّا رأوا أن يدها باتت رخوةً ضعيفةً أعلنوا استقلالهم عنها.

في ظلّ هذه الفوضى الضاربة أطنابها، ساد الخراب وسيطرت القسوة على المنطقة إجمالاً. باستثناء الفترة التي حكم فيها البويهيّون من عاصمتهم المحلّيّة (الرّيّ) (٣٣٦ـ٤٢٠هـ/ ٩٤٧ـ١٠٢٩م)، وقبلهم بعض السّامانيّين. وكلاهما كانوا رُعاةً للثقافة وأهلها.

وفي ظلّ هذه الفوضى لم يعُد من مكانٍ للحياة العقليّة وأهلها. وباتت مراكزُها في (قُمّ) و (الـرّيّ) و (سمرقند) و (كَشّ)، وغيرها ممّا ذكرناه أعلاه، جزءاً من ماضٍ انقضى ولن يعود. ثم جاء التتار المسلمون، بقيادة المغول البوذيين، ليجتاحوا ويدمروا المنطقة من (تركستان الشرقيّة) إلى أبواب (مصر). وبذلك قضوا على عامّة المعالم الحضاريّة في منطقة عمليّاتهم، وأيضاً على البقيّة الباقية من ذاكرة وتراث تلك الأيام البهيجة.

بالعودة إلى عمود البحث نقول، إنّ الشيعة الإماميّة في أقاليم (خراسان الكُبرى) خصوصاً كانوا خارج



تلك اللُّعبة الوحشيّة جملةً وتفصيلاً. ذلك أنّ مفهومهم للسُلطة والشّرعيّة يتعارض مع كلّ ماجرى ويجري. لذلك رأيناهم ينتشرون سُكّانيّاً ويزدهرون فكريّاً في أوقات السّلم، وينكفئون حتى مادّيّاً في ظل الفوضى السياسيّة والقسوة.

(٤) الشيعة في أوزبكستان اليوم

واليوم تُقدّر نسبة الشيعة الإمامية في (أوزباكستان) بـ ٦ ٪ من مجموع السُكان البالغ خمسةً وعشرين مليوناً، أي ما مجموعه مليون ونصف المليون. ينتشرون في مُدُنها (طشقند) و(سمرقند) و(بُخارى). ولهم مسجدان في (سمرقند) وثالثٌ في (بخارى). كما ينتشرون في شمال جبال (باميان)، لقُربها من مدينة (مزار شريف) كُبرى مُدُن الشيعة في (أفغانستان)، لهم هناك أيضاً مساجدهم وحسينيّاتهم. وهم إجمالاً يتمتّعون بقسطٍ من الحريّة في إحياء شعائرهم الدينيّة. ويحضرها أحياناً شخصيّاتٌ سياسيّةٌ كبيرة. ومُشاركتهم الشّكليّة تحمل معنىً سياسيّاً غير خفيّ على العارف. ويُقال أنّ عائلات من أصلٍ روسي تنزل مُدُن (جيزاك) و(جوليستان) و(كارشي) و(فيرجانا) قد أعلنت إسلامها على التشيّع الإمامي، تأثّراً بالشعائر الحسينيّة.

إن شكوى الشيعة الأساسيّة في (أوزباكستان) اليوم تتلخّص في سكوت الدولة المُطبق على الدعاية الوهّابيّة، التي لاتنفكّ تنشر أفكارها المعروفة، تحرّيضاً للمسلمين من المذاهب الأُخرى عليهم. وهم الذين كانوا يداً واحدةً في مقاومة الاحتلال السوفياتي. الأمر الذي يمكن ان يكون له عقابيله السيئة.

الباب الثاني: طاجيكستان

(١) جغرافيا وتاريخ

جمهوريّةٌ جبليّةٌ حبيسة (لاحدود بحريّةً لها) في (آسية الوسطى). تحدّها من الشمال (قرغيزستان)، ومن الجنوب (أفغانستان)، ومن الشرق (الصين)، ومن الغرب (أوزباكستان). مساحتها ١٤٣١٠٠كلم ٢. عاصمتها (دوشنبه). عدد سكانها حسب إحصاء سنة ٢٠٠٦ سبعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة. تركيبتها السُكّانيّة مختلطة: ٨٠٪ طاجيك، و١٥٪ أوزبك، إلى نسبةٍ قليلةٍ من القرغيز والرّوس. ٩٠٪ من أهلها مسلمون.

استولى الرّوس على أرضها أواخر القرن التاسع عشر للميلاد. وبقيت خاضعةً لحكمهم عمليّاً حتى انهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٩١.

ولقد زار الرحّالةُ ابن بطّوطة (٧٠٣ ـ ٧٧٩ هـ/ ١٣٠٣ ـ ١٣٧٧م) إحدى مدنها (بدخشان) وجوارها، وذكرَ ياقوتها الطبيعيّ الثمين (الياقوت البخشي)، ووصف أهلها بشدّة البأس[1].

(٢) مقاومة أهلها للاحتلال الروسي

ولقد صدّق الزمانُ الآتي ما وصف به ابنُ بطوطة الطاجيك من بأسٍ شديد. فالحقيقةُ أنّهم الشعب الوحيد، من بين مسلمي (آسية الوسطى)، الذي قاوم الاحتلال الروسي الذي ران عليها. ولم يتركه يقرُّ له قرار.

من ذلك أنه سنة ١٩١٧ شنّ الطاجيك الحرب على عسكرهم المُحتلّ، في محاولةٍ غير مُجديةٍ لاستعادة استقلالهم، امتدّت أربع سنوات. عمد الثُّوار البولشفيك الحُكّام الجُدُد لـ (روسيا) أثناءها إلى تدمير المساجد وإحراق القُرى والمواسم الزراعيّة في (الجمهوريّة الطاجيكيّة السوفياتيّة الاشتراكيّة). وعلى التّوّ بدأت هجرةٌ روسيّةٌ واسعة إليها، بحيث ارتفعت نسبتهم في سكانها إلى ١٣ ٪.

عام ١٩٩٠ نشبت الثورة الطاجيكيّة الكبرى على مُحتلّي بلدهم. فخرجت المُظاهرات الحاشدة تُطالبُ بإقالة السكرتير الأوّل للحزب الشيوعي، باعتباره رمز الاحتلال. ردّت عليها السُلطة بإطلاق النار على المتظاهرين. وبالمُقابل عمل هؤلاء على حرق المحلاّت التجاريّة. وتوقّفت المواصلات والمدارس والبريد. كما عمدوا إلى تنظيم المذابح بحقّ الأهالي من أصلٍ روسيّ.

ما لبثت الثورة أن تحوّلت إلى ما يُشبه الحرب الأهليّة، بين المؤيّدين للاحتلال والمُنتفعين به، وأكثرهم في شمال البلاد المُتقدّم اقتصاديّاً، وبين أهل الجنوب المُزارعين. وشكّل (حزبُ النهضة الإسلاميّة) نواة الثورة. واستمرّت الحرب الأهليّة حتى ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٩١.

بالنتيجة تمّت سنة ١٩٩٧ تسويةٌ سياسيّةٌ للأزمة. بتوقيع اتفاق قضى بأن يلي المدعو (إمام علي رحمان) رئاسة الجمهوريّة بصلاحياتٍ واسعة. ومنح قادة الثورة الفرصة للتّرشُّح للبرلمان، إلى جانب احتلال مناصب المُدراء في المرافق الإنتاجيّة الكبرى.



(٣) شيعةُ طاجيكستان اليوم

المُتداوَل في الشبكة العالميّة وغير مصدر أن نسبة الشيعة إلى مجموع السكان بين ٣ و ٤ ٪. وهم منتشرون في أنحاء البلاد وخصوصاً في العاصمة وضواحيها. وما من معلومات عن تاريخ انتشار التشيّع فيها. ولكن اتصال أرضها بأرض (إيران) يُقدّم تفسيراً مقبولاً لذلك. خصوصاً وأنّ القارئ بات يعرفُ أن شعوب (آسية الوسطى) ذات حركةٍ سُكّانيّة نشيطة، بحيث أننا لا نجدُ بقعةً منها صافية العرق.

(١) ابن بطوطة: تحفة النُّظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (الرحلة) ط. بيروت، دار الكتاب اللبناني، لات. / ٢٥٣.

ثم أنّنا لانجدُ ذكراً أيضاً لمساهمة الشيعة في أعمال المقاومة للإحتلال الروسي في كافة مراحلها. ولكنّ دور الرئيس الشيعي القوي إمام علي رحمان / رحمانوف في الحلّ السياسي للأزمة السياسيّة، وما أفرزته من حربٍ أهليّة، ثم المجئ به رئيسا للجمهوريّة، ليدلُّ على أنّ الشيعة لم يكونوا جماعةً هامشيّةً في الثورة وفي نهايتها وحتى اليوم. الأمر الذي يُلقي ظلاًّ من الشكّ على ما ذكرناه من نسبةٍ ضئيلةٍ لهم إلى مجموع السُكّان. خصوصاً وأنّ قناةً شيعيّةً في الشبكة تقول أن نسبتهم الحقيقيّة هي ٣٥ ٪. وهي نسبةٌ مُبالَغٌ فيها ولا ريب. ولكنّ حجم المُبالغة ليس كبيراً جدّاً كالفارق بين ٣، ٤٪ و٣٥٪.

أخيراً ممّا يحسُنُ بنا ذكره والتنويه به، أن لاذكر لنزاعٍ سُنيّ ـ شيعيّ في تاريخ (طاجيكستان). ما يدلُّ على أنّ من فوائد مصيبة الاحتلال الأجنبي أنّها جمعت السّواعد والنفوس على واجب المُقاومة.

ومع ذلك فإنّ لعنة الوهّابيّة، التي نشُطت في كلّ المنطقة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، لا تنفك تُحرّض المسلمين على بعضهم البعض، دون أثرٍ عمليٍّ يُذكر حتى الآن، والحمد لله. كما أنّ الشعائر الشيعيّة تُقامُ في المساجد والحسينيّات، وتأخذ طابع وصفة المراسم الرّسميّة المُنتظمَة. التي يُشارك فيها الآلاف في السّاحات الكبيرة دون تمييز.

الباب الثالث: تركمانستان

(١) جغرافيا وتاريخ

جمهوريّةٌ في (آسية الوسطى). تحدّها (أفغانستان) من الجنوب الشرقي، و(إيران) من الجنوب والجنوب الغربي، و(أُوزباكستان) من الشرق والشمال الشرقي، و(كازاخستان) من الشمال والشمال الغربي، و(بحر قزوين) من الغرب.

مساحتها ٤٨٨١٠٠ كم٢.عاصمتها (دوشنبه). وعدد سكانها زهاء الخمسة ملايين. وتملك ثالث أو رابع احتياطي للغاز في العالم، تُصدّر منه ما يقوم بميزانيّتها. إلى جنب احتياطٍ من النفط يسدّ حاجتها.

كانت (تركستان) في الماضي البعيد جزءاً من امبراطورية جنكيز خان المغولي. ومن سكانها مَن كانوا جزءاً من عسكره الذين دوّخوا العالَم. وعندما جاء الصفويّون وضعوا يدهم على جزءٍ كبيرٍ منها. واستولى عليها الرُّوس في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد. ثم جعلها البولشفيّون من جمهوريّات الاتحاد السوفياتي، باسم (جمهورية تركمانيا السوفياتيّة الاشتراكيّة). إلى ان انهار الاتحاد سنة ١٩٩١. وهي اليوم جمهوريّةٌ مستقلّة، يحظى رئيس الجمهوريّة في نظامها بصلاحيّاتٍ ملكيّة.

من مُدُنها الرئيسة (مرو)، التي تُذكر في الأدبيّات الإسلاميّة باسم (مرو الشّاهجان)، تمييزاً لها عن (مرو الرَّوذ).

والحقيقة أن هذه المدينة القصيّة قد أنجبت في تاريخها مجموعةً من أعلام الفقهاء والصوفيّة ذوي الأثر: أحمد بن حنبل، سفيان الثوري، إسحاق بن راهويه، سعيد بن منصور الخراساني، محمد بن نصر المروزي، أبو بكر القفّال، وشمس الأئمة السّرخسي.

كما أنّها أنجبت من أعلام الزهد والتصوّف بِشْر الحافي وعبد الله بن المبارك. ونظن أنّه كان لها الدّور الأساسي في نشر المذهب الحنفي بين مختلف الشعوب التركيّة، المذهب السّائد بينهم حتى اليوم.

(٢) تركمانستان اليوم

غالبيّة سكانها من التركمان، بأقليّتيَن أُوزبكيّة وروسيّة.إلى عدّة أقليّاتٍ صغيرة.

أثناء الاحتلال الروسي بلغت نسبة المواطنين الرُّوس حوالي ١٩ ٪ من مجموع السكان. لكنّ نسبتهم انخفضت كثيراً بعد الاستقلال.

إن المشكلة الأساسيّة اليوم لـ (تركمانستان) اليوم تتلخّص في نظامها السياسي الكُلّي، الذي يضع كامل السُلطة تشريعيّةً وتنفيذيّةً في يد رئيس الجمهوريّة. ومن ذلك أنّ الرئيس صابر مراد نيازوف، الذي لقّب نفسه بـ (تركمان باشي) = رئيس التركمان، وضع جُملةً من التشريعات التي تتدخّل في صميم إرادة الناس وفي حريّاتهم الأساسيّة البسيطة. ومنها ما يدخلُ تحت عنوان شرّ البليّة المُضحك المُبكي. كمنع بعض ألوان السيارات، وحظر قيادتها على النساء، ومنع التدخين... الخ.



وفي الشأن الديني، وضع كتاباً سمّاه (رُخّ نامه)، ليكون بمثابة دستورٍ للبلاد. وكتاباً فرضه مقدّساً على كافة المواطنين مهما يكُن دينهم.

كما فرض على أئمة المساجد الاستشهاد بنصوص كتابه (رُخّ نامه) في خُطب الجمعة، دون آيات القرآن الكريم ونصوص السُّنّة، تحت طائلة عزلهم وإغلاق المسجد. الأمر الذي ساق إلى حالةٍ من الغضب والاستنكار العام، لكن دون كبير طائل.

(٣) الشيعة في تركمانستان

ما من إحصاءٍ دقيقٍ لعدد الشيعة فيها. ولكن ما من ريب في أنّهم أقليّة ضئيلة. وقد يؤخذُ من ضآلة عددهم أن وجودهم هناك حيث هم اليوم ليس قديماً، وإلا لانتهت نسبة التكاثر الطبيعيّة إلى أكثر من ذلك العدد. وحسب التقديرات المُتوفّرة غير الأكيدة، فإنّ عددهم الإجمالي لايزيد على الأربعة عشر ألفاً. ينتشرون في العاصمة (عشق آباد)، ولكنّهم يتركّزون في قرية صغيرةٍ قريبةٍ من الحدود الشماليّة الإيرانيّة، اسمها (بيرم علي)

= (بئر علي). ولهم ستة عشر مسجداً وعشر حسينيّات. يُقيمون فيها شعائرهم بحريّةٍ من حيث المبدأ، إلا ما قد ينالهم أحياناً من تدبيراتٍ قاسيةٍ، جرّاء ما أشرنا إليه من قراراتٍ وتدبيراتٍ عبثيّة.

من ذلك ما تداولته وسائل الإعلام قبل بضع سنوات، من إقدام السُلطة السياسيّة على إغلاق مسجد (باش كرّار) = (الكرّار الأكبر، يعني الإمام علي عليه السلام)، وعزل إمامه الشيعيّ الشيخ تيمور حجة الله / اللاييف، بحجة امتناعه عن تضمين خطابه بجمع المُصلّين نصوصاً من كتاب (رُخّ نامه). لكن يبدو أن الأصداء الغاضبة من داخل (تركمانستان) وغيرها على ذلك، قد أدّت إلى الإقلاع نهائيّاً عن هذا الاستفزاز العبثي غير المُجدي.

ظاهرةٌ جديدةٌ بين شيعة (تركمانستان) لوحظت في الآونة الأخيرة، على أثر قيام الجمهوريّة الإسلاميّة في جارتها. هي إقبال عددٍ من الطلاب على النّفْر إلى الحوزة العلميّة في (قُمّ) ليتفقّهوا في الدين. وهي ظاهرةٌ مُباركة نظنُّ أنّها غير مسبوقَة، سيكون لها أطيب الأثر في المستقبل على إخوانهم إن شاء الله تعالى.

الباب الرابع: قيرغيزستان

(١) جغرافيا وتاريخ

جمهوريّةٌ شمال (آسية الوسطى). حبيسةٌ (لا منفذ بحريّاً لها) لكنها غنيّةٌ بالبحيرات العذبة. تشترك بحدودها مع (تركستان الشرقيّة)، التي ضمّتها (الصين) إليها وسموها (شينكيانغ). ومن الشمال (كازاخستان). ومن الغرب (أُوزباكستان). ومن الجنوب الغربي (طاجيكستان). مساحتها ما يقرُب من مائتي ألف كم٢. عاصمته (بيشكك). عدد سكانها الإجمالي خمسة ملايين نسمة. ٥٧ ٪ منهم قيرغيز، و٥،٥ ٪ أُوزبك. مع أقلّيّاتٍ من الروس والتتار والآذريين والكازاخيين. أكثر القيرغيز سُنّةٌ أحناف كعامّة التُّرك، يعدّون ثلاثة ملايين ومائتي ألف. و١٨٪ مسيحيون أرثوذوكس. إلى أقلّيّةٍ من الشيعة الإماميّة، سنقفُ عليها في الآتي.

عُرفت (قيرغيزستان) في الأدبيّات الإسلاميّة بـ (وادي فرغانه). الذي يشغل اليوم وسط (قيرغيزيا). ويُمثّل حاليّاً دعامة التجمّع السُكّاني والقلب الاقتصادي للجمهوريّة. وكان طريق الحرير الشهير يمرُّ بالوادي.

احتلتها الامبراطوريّة الروسيّة سنة ١٨٧٦. وثار أهلها على المحتلّين غير مرّة. كما أن منهم من هاجر إلى (الصين) و (أفغانستان). وفي السنة ١٩١٨ جعلها البولشفيك جمهوريةً تدور في فلكهم، سمّوها (الجمهوريّة القيرغيزيّة الفدراليّة الاشتراكيّة). ثم استبدلوا الاسم بـ (الجمهوريّة القيرغيزيّة الاشتراكية السوفياتية). وفي السنة ١٩٩١ نالت الاستقلال بانهيار الاتحاد السوفياتي. وعلى الأثر بدأت فترةٌ سياسيّةٌ مضطربة، سمتُها الاعتراض على حكم الرئيس عسكر آكاييف، باعتباره بقيّة فترة الاحتلال. انتهت بلجوئه إلى (روسيا). ثم استمرّت في عهد الرئيس التالي كرمان بك ماكييف. لتنتهي بخلعه ايضاً ولجوئه إلى (كازاخستان).

(٢) الشيعة في قرغيزستان

مامن إحصاءٍ لعددهم فيها. ولكننا نملك معلوماتٍ كافيةً، وإن تكُن مؤلمة، عن تاريخ ووسيلة وجودهم فيها.

ذلك أنّ ستالين في نطاق سعيه إلى إلغاء الملكيّة الزّراعيّة الفرديّة، لمصلحة المزارع الجماعيّة، أقدم على الانتقام ممّن قاوموا أنتزاع مزارعهم منهم بأن هجّرهم منها. وأرغمهم على الاستيطان في مناطق أُخرى، حيث لا ملكيّة لهم أصلاً. أو نفاهم إلى (سيبيريا)، حيث العيش في طقسها البالغ البرودة بمثابة حُكمٍ بالإعدام على مَن لم يألفه. وعلى كلّ حال، فإنّه اعتمد في التهجير على أقسى الوسائل. إمّا بإرغام المُهجّرين على السير على الأقدام مسافات طويلة جدّاً. وإمّا بنقلهم إلى (سيبيريا) بالعربات المُخصّصة لنقل المواشي، حيث يلقون مصيرهم القاسي.

في هذا النطاق نقل مجموعاتٍ كبيرةً من الكازاخيين والآذريين من بلديهم. أُرغموا على السير مسافة مائة وعشرين كم أو تزيد إلى (بيشكك)، وقسمٌ منهم إلى مدينة (كانت)، وكلاهما في (قرغيزستان). ثم عاد وهجّر جزءً من المجموعة الثانية، وعدّتها عشرة آلاف، إلى (سيبيريا)، حيث لقيت مصيرها المحزن. ومحطّ اهتمامنا الآن هم مَن استوطنوا كُرهاً مدينتي (بيشكك) و(كانت) وغيرهما من (قرغيزستان). من حيث أنهم كانوا أو كان أكثرهم من الشيعة الإماميّة.



كان في عِداد هؤلاء شخصيّاتٌ آذريّة من ذوي الشأن والعلم. وكان من محاسن وجودهم ضمن المهجّرين أن اكتسبت الجالية مكانةً اجتماعيّةً في وطنها الجديد. بأن عملت على حثّ أبنائهم على الدراسة وطلب العلم بقدر الإمكان. وبذلك حصلت الجالية على مكانةٍ اجتماعيّة واقتصاديّةٍ جيّدة. مع الاعتناء بالمحافظة على شعائرها الدينيّة. ومن ذلك أنّها في السنة ١٩٤٦، في عزّ سطوة العهد الستاليني المُظلم، أقدمت على إنشاء مكانٍ مُخصّص للاجتماعات الدينيّة. بل وأنشأت مسجداً في (بيشكك) تحت مُسمّى آخَرَ، ما يزال قائماً عاملاً حتى اليوم.

وثمة اليوم مسجدٌ ثانٍ في مدينة (كانت) لم يستكمل بناءً، بسبب ضعف الإمكانات المادّيّة. بالإضافة إلى الافتقار إلى علماء الدين. ولذلك فإننا نراهم قد يستدعون العلماء المرشدين من مدينة (جو) (بالجيم المُثلّثة) في (كازاخستان) لإحياء المناسبات الدينيّة. كما أنّهم في (بيشكك) قد يُحيون مراسم شهادة الإمام الحسين عليه السلام في المُحرّم في منزل أحدهم، للافتقار إلى حسينيّةٍ تكون مجمعاً لهم.

خلاصة القول على الشيعة وأوضاعهم في (قيرغيزستان) اليوم، أنهم أقلّيّة ضئيلةٌ من جماعاتٌ متفرّقة. أُرغمت في ماضيها القريب على النزوح من مواطنها الأساسيّة في (آذربايجان) و(كازاخستان). ولكنّها استجابت استجابةً جيّدةً صحيحةً لاقتلاعها من جذورها، ولتحدّي التغريب القسريّ. ونجحت في اكتساب موقعٍ ممتاز في مواطنها الجديدة. وهم اليوم جماعاتٌ متفرّقة في مدينة (بيشكك) العاصمة. لكنهم أكثر تضامناً ونشاطاً وحضوراً في (كانت). ويتركّزون بنحوٍ خاصّ اليوم في قرية (ألارجا)

الصغيرة، على مسافة بضع كيلومترات من (بيشكك). وهم بحاجةٍ ماسّةٍ إلى العلماء المبلّغين لإرشادهم وتنظيم أدائهم للشعائر.

الباب الخامس: كازاخستان

(١) جغرافيا وتاريخ

أو (قزاقستان). جمهوريّةٌ في (آسية الوسطى)، وجزئيّاً في (أُوروبة الشرقيّة) غرب نهر الأُورال. هي الموطن الأساسي للعرق الكازاخي، الذي ينتشر في شمال (آسية الوسطى) و(الصين) و(تركيا) و(أُوزبكستان). ويُذكَر في الأدبيّات العربيّة باسم (القبجاق) أو (القفجاق).

(كازاخستان) الحاليّة دولةٌ عابرةٌ للقارّات. لكنّها غير ساحليّة، سوى أنّها تُطلُّ على (بحر قزوين). مساحتها ٣٠٠،٧٢٧ كلم٢. لها حدودٌ مع (روسيا) و(الصين) و(قيرغيزستان) و(أُوزبكستان) و(تركمانستان). عاصمتها (آستانه). عدد سكانها زهاء سبعة عشر مليوناً حسب إحصاء سنة ٢٠١٣. ٧٠٪ من أهلها مسلمون، و ٢٦٪ مسيحيون أورثوذوكس وبعض الكاثوليك. إلى أقليّةٍ من اليهود والبوذيين. إلا أن غالبيّة اليهود هاجروا إلى (فلسطين) المحتلّة.

كانت جزءاً من الامبراطوريّة الروسيّة. ثم جمهوريّة سوفياتيّة. إلى أن استقلّت بانهيار الاتحاد السوفياتي. وقد عانى المسلمون في الحقبة السوفياتيّة الكثير من القمع السياسي والثقافي. بأن أغلقوا المدارس الإسلاميّة، كما أغلقوا أو هدموا الآلاف من المساجد. وفرضوا اللغة الروسيّة لغةً رسميّة. الأمر الذي لم تتحرّر (كازاخستان) من آثاره حتى الآن. واستغلّت (روسيا) رقعتها الشاسعة. ليكون منها مخابر نوويّةً ومركزاً فضائيّاً (مركز بيكانور الفضائي) العامل حتى اليوم.

هي بلدٌ غنيٌّ بالغاز، ويُصدّر منه كمياتٍ كبيرة إلى الخارج. كما يُنتج من النفط ما يقوم بحاجته. وتضمّ أرضه مخزوناً كبيراً من ركازات المعادن والأحجار الكريمة الثمينة. وذات إنتاجٍ حيواني وزراعيّ متنوع.

(٢) الشيعة في كازاخستان

مامن إحصاءٍ إطلاقاً، حتى ارتجاليّاً، لعدد الشيعة فيها. المؤشّر الوحيد الذي يُذكر في هذا النطاق هو إحياء الشعائر الحسينيّة في العاصمة (آستانة) في شهر المُحرّم، إحياءً حاشداً، قد يحضره بعض كبار المسؤولين.

ثم أنّ إحدى القنوات التلفزيونيّة، المُدارة من جهاتٍ وهّابيّة، طفقت منذ مدّة تُنادي بالويل والثبور من

تصاعد أعداد الشيعة في (كازاخستان) خصوصاً. من نسبة ١٪ من مجموع المسلمين، إلى ٧٪ حسب زعمها. وتُطالب بالإعداد والاستعداد للتّصدّي لهم، حمايةً لـ «أهل السُنّة والجماعة» من تأثيرهم، وضيقاً خصوصاً بالمزيد من التكاثر العددي في المستقبل، بعد أن لم يكونوا من قبلُ شيئاً مذكورا.

في ظنّنا أن هذه الظاهرة قائمة وصحيحة، لكنّها ليست على نحو الزيادة الكمّيّة نتيجة التّحوّل من مذهبٍ آخَر إلى التشيّع، كما صوّرتها الدعاية الوهابيّة الغبيّة. بل نراه من باب ظهور ما كان خفيّاً من قبل، بسبب القهر المُزمن أيام القمع الروسي. فلما استقلّ البلد. وطفقت الدولة تفكّر بضرورة التساهل، إن لم يكن التشجيع، على إحياء الشعائر الدينيّة عند الكافّة، ليسُدّ مسدّ الفراغ الإيديولوجي الذي تركه سقوط وهزيمة الإشتراكيّة السوفياتيّة ـ باتت العودة إلى الإسلام عودةً ضمنيّةً لتجسيد الهويّة الكازاخيّة العميقة عند الغالبيّة المُسلمة فيها. ومنهم طبعاً الشيعة الكازاخستانيين. الذين استفادوا من السياسة الجديدة كغيرهم. فطفقوا يُعالنون بشعائرهم، بعد أن انصرفوا عنها زمناً طويلاً، بسبب القهر الروسي ـ السوفياتي.

فمن هذا وذاك يستنتج الباحث أن عدد الشيعة في (كازاخستان) ليس بالضئيل، وإن هم أقـلّيّةً نسبيّا. أي أنّهم بحدود المليون ومائة وسبعين ألفاً، إن نحن أخذنا بالنسبة العُليا التي صرخت بها تلك القناة.

جنوب شرق آسيا (آسيان)

سنخصُّ بالذكر خمسةً من دُولها. لِما للشيعة فيها من حضور.

الباب الأول: أندونيسيا

(١) جغرافيا وتاريخ

أكبر دُول جنوب شرق (آسيا). تتكوّن من أرخبيل من الجُزُر عددها ١٧٥٠٨ جزيرة. عدد سكانها مائتان وخمسون مليوناً. زهاء ٩٠ ٪ منهم مسلمون. نسبة الشيعة بينهم اليوم غير معلومة.

(٢) الشيعة في أندونيسيا

يُجمع المؤرخون الاندونيسيون على أن الإسلام دخل بلدهم على أيدي مجموعة من الشيعة. حيث سنة ١٧٣ هـ / ٧٨٩ م وصلت سفينةٌ عربيّةٌ مدينة (برلاك) في جزيرة (سومطرة)، تحمل عدداً من الهاشميين الهاربين من بطش السلطة. أبرزهم أو قائدهم عبد العزيز بن علي بن محمد الديباج بن الإمام الصادق عليه السلام. ومنهم أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العُريضي.

والمُلاحظ أنّ هذا التاريخ يناسب فترة إمامة الإمام الكاظم عليه السلام (١٤٨ ـ ١٨٣ هـ / ٧٦٥ ـ ٧٩٩م) التي بلغ فيها القمع السُلطوي للشيعة مدىً غير مسبوق، بحيث أقدم الخليفة المأمون على سجن الإمام مدّةً طويلة كما هو معروف، وذلك ما لم يُقدم أحدٌ على مثله من قبل. الظرف الذي يجعل هرب بعض الهاشميين إلى

حيث لاتناالهم يد السُلطة أمراً مقبولاً من حيث المبدأ. كما أنّ خفاء سيرة عبد العزيز نفسه في المصادر العربيّة، وفي المقابل اشتهارها في الأدبيّات الأندونيسيّة، يؤيّدُ مضمون هذا الخبر. خصوصاً أنّه غنيٌّ بالتفاصيل. ومن ذلك أن عدد الذين كانوا معه في السفينة يعدّون مائة شخص، وأن اسم ربانها (خليفة)، وهي تفاصيل غير ضروريّة لأصل الخبر، ولكنّ وجودها إمارةٌ قويّةٌ لدى المؤرخ الخبير على صحّة الخبر. ثم أنّهم التقوا ملكاً فيها اسمه (شاهر)، عرضوا عليه الإسلام فتقبّله قبولاً حسناً. وهكذا بدأت مسيرة الإسلام في هذا البلد الذي يضمّ اليوم أكبر تجمّعٍ بلديٍّ إسلاميّ.

إلى أخلاف عبد العزيز يعود الفضل في إنشاء أوّل مملكةٍ إسلاميّة في مدينة (برلاك) التي نزلها سلفهم. ذلك أنّ عبد العزيز تزوّج ابنة ملكها (شاهر) وأنجب منها علاء الدين، الذي ورث السلطنة عن جدّه (حكم:٢٢٥ ـ ٢٤٩هـ/ ٨٤٠ـ ٨٦٣م)، فكان أوّل ملكٍ شيعي على (مملكة برلاك)، التي امتد حكمها حتى السنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠ م. وبموازاتها نهضت عدّة ممالك في جُزُر (أندونيسيا): باساي، بروني، كرسيك، بانتن، كلّها شيعيّة. أي أن التشيّع بسط سلطانه على أجزاءٍ واسعة من تلك الجُزُر. ومن هنا يُجمع المؤرخون الأندونيسيين على أن التاريخ الإسلامي وتطوره في (أندونيسيا) مرتبطٌ بالشيعة ارتباطاً مباشراً. ثم أن الشيعة هم أصحاب الدور الأهمّ في حروب تحريرها، منذ أن وطأت أقدام المحتلّين الهولنديين أرضها حتى تحريرها.

ومن الإمارات الباقية على قِدَم التشيّع في (أندونيسيا) الشواهد الباقية على قبور المسلمين القديمة التي رُقمت عليها عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله». ومن الآثار الباقية في بعض مناطقها إحياءُ مراسم عاشوراء، وهم يُسمّونها هناك «سورا». كما أن السيوف القديمة المحفوظة في بعض المؤسسات الرسميّة والمجموعات الشخصيّة تحمل إجمالاً عبارة «لا سيف إلا ذو الفقار ولافتى إلا علي». فضلاً عن أن مراسم عيد الغدير ما زالت تُقامُ حتى الآن في بعض المناطق. وعن الأُسرات الكثيرة من السّادة الأشراف الذين يحظون عند عامة الناس بمقامٍ رفيع.

إنّ انحدار أمر التشيّع في (أندونيسيا)، بعد أن كان الغالب عليها، يرجع إلى الاحتلال الهولندي الاستيطاني، الذي رزح عليها مدة ثلاثة قرون ونصف القرن (١٦٠٢ ـ ١٩٤٧م). أثناءها حمل الشيعة وحدهم على عواتقهم عبء مقارعة الاستعمار. وفي هذا السبيل عانوا من ضروب التنكيل والتشريد. فجرَت ملاحقتهم ومطاردتهم من قِبَل المستعمرين دون هوادة، واجتيحت مناطقهم وأُنزل بها كل ما يخطر بالبال من صنوف التدمير والتقتيل. في هذه الظروف العسيرة تبعثروا، والتجأوا إلى المناطق الداخليّة الفقيرة، وفقدوا جامعتهم المذهبيّة. الأمر الذي أودى إلى ذوبانهم حيث حلّوا.

اليوم من المناطق الشيعيّة الخالصة هناك منطقة (أجيه) شمال جزيرة (سومطره)، التي شهدت أيامهم المجيدة في الماضي. وإلى (أجيه) ينتسب أكثر الشيعة التاريخيين الذين يحملون لقب (الأجي). على أن ذلك الوجود الكبير للشيعة لم يبقَ منه قبل بضع عقود إلا وجودٌ بسيط، لا يتعدّى الآلاف. الذين يحتفظون بهويتهم الشيعيّة وأنسابهم العلويّة وسماتها وخصوصيّتها. لكنّهم بدأوا يستعيدون حضورهم. ومن إمارات ذلك أنّه ظهر بينهم عددٌ كبير من العلماء والطلاب، ممّن سنأتي على ذكرهم بعد قليل.

نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران)، الذي ألهب مشاعر الجماهير. ووضع أمامهم أُنموذجاً عن الإمكانات الكبيرة الكامنة في الإسلام، بوصفه حافزاً جماهيريّاً كاملاً باتجاه التقدّم الذاتي غير المُستعار، كان له مفعولٌ معاكسٌ لِما عليه الشيعة الأندونيسيون، فأحيا ذاكرتهم، ودفعهم إلى العمل الجادّ باتجاه استعادة ذاتيّتهم الفقيدة. الأمر الذي نراه اليوم ماثلاً أمامنا في عشرات المؤسّسات، التي أخذت على عاتقها إحياء وتجديد الحالة الشيعيّة في أنحاء البلاد.

وممّا يجدر بنا ذكره بشأن مصادر معلوماتنا في هذا السّياق، أنّ أغناها قد صدرت في سياق الشكوى من التحوّل السريع لارتكاس الجماهير على الثورة الإسلاميّة إلى مشروع وبرامج عمل. جذبت عشرات الآلاف من الشبان النُّخبة. انتظموا في عشرات المؤسّسات العاملة في الشؤون التبليغية والإعلامية والتربوية، بعد أن أعدّوا أنفسهم الإعداد المناسب. وطبعاً أنجب الوضع المُستجدّ مجموعةً مجموعةً من القيادات والكوادر الآهلة لإدارة المؤسّسات. الأمر الذي لاسابقة معروفةً له بحجمه ونتائجه الطيّبة في نطاق الدّعوة والدُّعاة. فكان سبباً لاستنفار الجهة المعروفة التي أنفقت مليارات الدولارات على تقريب فكرها إلى أوسع الجماهير المسلمة، دون أن تحصل على نتائج مُشابهة. فطفقت تشكو مُرّ الشكوى وتُنذر وتُحذّر من مغبّة ذلك النشاط. وفي هذا السياق وضعت لأسيادها تقريراً ضافياً، وصفت فيه نهج العمل العالق وعناصره وصفاً دقيقاً شاملاً، مُحلّىً بالاسماء والعناوين. ممّا يدلّ على أنّها كانت تراقبُ مايجري ويدها على قلبها. وبذلك قدّمت لبحثنا هذا ثروةً ممتازة من المعلومات عن الوضع الجديد الذي ألهب (أندونيسيا)، هيهات أن نحصل على مثله من دونها.

بالنظرلِما جاء في التقرير، فإنّ العملَ بدأ بنفْر عددٍ من الطلاب للدراسة في مدينة (قُمّ). ما لبثوا أن رجعوا سريعاً قُبيل السنة ١٩٩٣م إلى بلدانهم في أنحاء (اندونيسيا)، حيث بدأوا العمل. فكان منهم وممّن تبعهم على خطّتهم، ممّن يبلغ عددهم المئات حسب المصدر، مَن انضوى في بعض الأحزاب السياسيّة ذات الاتجاه الإسلامي، مُتخذاً منها منبراً يطرح من عليه أفكاره السياسيّة المُتقدّمة. ومنهم مَن اتجهوا إلى ميادين العمل التربوي، ففتحوا وأداروا المدارس والمعاهد من مختلف المستويات. ومنهم مَن وجّه جهوده إلى الدعوة والتبليغ عن طريق المحاضرات والندوات واللقاءات وإلقاء الدروس في المساجد والحسينيّات، في المُدُن والقُرى وقنوات التلفزيون والشبكة العالميّة. فضلاً عن نشر الكُتُب والمجلاّت. إلى ما هنالك.

ويجدرُ بنا أن نذكر أنّ التقرير يُلمِحُ إلى أن هؤلاء المئات من المُتفانين في العمل لم يكونوا أصلاً من الشيعة. وإنّما استبصروا وأعدّوا وجنّدوا أنفسهم بعد وبفضل الأُنموذج والعمل التنظيمي الذي قدّمته الثورة الإسلاميّة. والأقربُ إلى الصواب أن هؤلاء ممّن نظنُّ أنّهم ممّن استعادوا ذاتيّتهم التي افتقدوها بسبب السياسة الاستعماريّة التي اضطهدتهم وهجّرتهم وفرّقت صفوفهم. وكم لهذا من أمثال فيما نعرفه في غير (أندونيسيا).

ثم أنّ التقرير الضّافي نفسه، في سياق وصفه لتأثير الجمهوريّة الإسلاميّة الإيجابي على الشيعة والتشيّع في أنحاء (أندونيسيا)، يذكر بالاسماء أربعةً من القادة البارزيَن للحركة العالقة، نذكرهم أداءً لحقّهم، لأنهم غير معروفين خارج (أندونيسيا). هم حسين الحبشي «مدير معهد التربية الإسلاميّة بانجيل جاوه الشرقيّة». هو الذي كان وراء تنظيم نَفْر الطلاب إلى (قُم). وأحمد بارقبة، ود. جلال الدين أحمد، وزاهر بن يحيى. هم

القائمون البارزون الذين شكّلوا شبكةً في أنحاء (أندونيسيا) باسم «رابطة جماعة أهل البيت بأندونيسيا» تُدير أربعين مؤسّسة فيها. والظاهر أن الأوّل من مسلمي (أثيوبيا). والثاني الذي يصفه بأنه «زعيم الشيعة في أندونيسيا» يمانيّ الأصل. أمّا الباقيان فليس في اسميهما ما يدلُّ على منبتهما. فلهم جميعاً منّا ومن إخوانهم في الله تعالى أسمى التقدير.

والتقرير من بعدُ طويلٌ غنيٌّ جدّاً بالمعلومات عن عشرات المؤسّسات الشيعيّة العاملة والعاملين فيها في أنحاء (أندونيسيا). أصله مقالةٌ في مجلة (البيان) السعوديّة، الصادرة بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠١٤، في مقالةٍ بعنوان (التشيّع قي أندونيسيا).

وهذا ثبتٌ بالمؤسّسات ومختلف النشاطات وأربابها بتاريخ صدور التقرير. نوردها بنصّها، على ما فيها من ركّةٍ وأخطاءٍ مُحتَملَة، لِما لها من قيمةٍ، قد تصبح بعد زمنٍ غير بعيد مادةً تاريخيّةً ثمينة:

- مؤسسة المطهري في (باندونج) وأعضاؤها معظمهم جامعيون من (جامعة التكنولوجيا (و (جامعة باجاجارن). وتُصدر مجلة (الحكمة).
- مؤسسة المنتظر تأسست عام ١٩٩١م في (جاكرتا) وعندها مدارس: روضة الأطفال الابتدائية المتوسطة والثانوية.
- مؤسسة الجواد في (مؤسسة ملا صدرا في (بوقور) تأسست عام ١٩٩٣م، وعندها أنشطة تعليمية.
- مؤسسة المحبين تأسست عام ١٩٨٩م في (بكالونجان) بـ (جاوه الوسطى). وغيرها من المؤسسات الآن تطورت كثيرا تبلغ مائة مؤسسة.

المؤسسات التعليميّة

للشيعة معاهد أبرزها (معهد التربية الإسلامية (في (بانجيل) بـ (جاوه الشرقية) و(معهد الهادي) في (بكالونجان) بـ (جاوه الوسطى) (هذا المعهد سبق أن أحرقه المسلمون لِما قاموا بالمتعة) (!) حسب التقرير، كما أن لديهم مدارس عامة في مختلف المراحل، من روضات الأطفال إلى الجامعات وأبرزها (المركز الثقافي الإسلامي) بـ (جاكرتا) ومركز (مدينة العلم) بـ (ديفوك) بـ (جاوه الغربية).

دور النشر والطباعة

أنشط مجال يقوم به الشيعة هناك نشر الكتب والمطبوعات، فأنشأوا عشرات دُور النشر والطباعة أبرزها: مطبعة الميزان، ومطبعة بليتا في (باندونج)، ومطبعة الهداية، ومطبعة السجاد، ومطبعة أبي ذر في (جاكرتا)، ومطبعة يابي في (لامبونج) (سومطرة) وغيرها.

والكتب المطبوعة هناك أكثرها في الترجمة لعلماء الشيعة، مثل: الخميني، المطهري، على شريعتي، محمد التيجاني التونسي وغيرهم. وبعض الكتب من مؤلفات أبناء الشيعة الإندونيسيين.



ومن المجلات والمنشورات:

١. مجلة القدس تصدرها السفارة الإيرانية بـ (جاكرتا) باللغة الإندونيسية طبعا.

٢. مجلة المودّة تصدرها رابطة أهل البيت في (باندونج) بجاوه الغربية.

٣. مجلة الهدى تصدرها الشيعة في (جاكرتا).

٤. مجلة الحكمة تصدرها مؤسسة المطهري في (باندونج).

٥. مجلة المصطفى يُصدرها الشيعة في (جاكرتا).

٦. منشورات الجواد تصدرها مؤسسة الجواد بـ (جاكرتا)[١] ومجلة (الغدير) تصدرها المؤسسة نفسها و (التنوير) تصدرها مؤسسة المطهري و (ابن السبيل) يصدرها شيعة بـ (كالونجان) وغيرها.

واقع الشيعة في اندونيسيا

المؤسسات

١. مؤسسة فاطمة في (جاكرتا).

٢. مؤسسة المنتظر في (جاكرتا).

٣. مؤسسة العقيلة.

٤. مؤسسة الرّضيّة.

٥. مؤسسة ملا صدرا في (بوغور) بجاوا الغربية.

٦. مؤسسة النقي.

٧. مؤسسة القربى.

٨. مؤسسة يافي في (بانجيل) بجاوه الشرقية.

٩. مؤسسة العترة في (جيمبير) جاوى الشرقية.

١٠. مؤسسة روشن فكر في (جوغ) جاكرتا.

١١. مؤسسة بابيم في (جيمبر) بجاوى الشرقية.

١٢. مؤسسة مطهري في (باندونونج) بجاوا الغربية.

١٣. مؤسسة الجواد في (باندونج) بجاوا الغربية.

١٤. مؤسسة المحبين في (بروبولينجنجوا).



١٥. مؤسسة المهدي في (جاكرتا).

١٦. مؤسسة مدينة في (بوغور) بجاوا الغربية.

١٧. مؤسسة انسان جيتا براكارسا في (جاكرتا).

١٨. مؤسسة الصديق في (جاكرتا).

١٩. مؤسسة باب العلم في (بيكاسي) بجاوا الغربية.

٢٠. مؤسسة في (جاكرتا).

٢٢. مؤسسة البراءة في (تاسيكمالايا) بجاوا الغربية.

٢٣. مؤسسة ١٠ محرم في (باندونج).

٢٤. مؤسسة الصديق في (باندونج).

٢٥. مؤسسة السلام في (مجاكينكا) بجاوا الغربية.

٢٦. مؤسسة المكرمة في (باندونج).

٢٧. مؤسسة المجتبى في (بورواكارتا) بجاوا الغربية.

٢٨. مؤسسة سيفيك في (باندونج).

٢٩. مؤسسة الإصلاح في (شيريبون) بجاوا الغربية.

٣٠. مؤسسة العقيلة في (تانجيرانج) بجاوا الغربية.

٣١. مؤسسة دار التقريب في (جيفارا) بجاوى الوسطى.

٣٢. مؤسسة الأمين في (سيمارنج) بجاوى الوسطى.

٣٣. مؤسسة الخيرات في (جيفارا) بجاوى الوسطى.

٣٤. مؤسسة الوحدة في (صولو) بجاوى الوسطى.

٣٥. مؤسسة المودة في (كيندال) بجاوى الوسطى.

٣٦. مؤسسة المجتبى في (وونوسوبو) بجاوى الوسطى.

٣٧. مؤسسة سفينة النجاة في (وونوسوبو) بجاوى الوسطى.

٣٨. مؤسسة المهدى في (جيمبير) بجاوى الشرقية.

٣٩. مؤسسة التقي في (باسوروان) بجاوى الشرقية.

٤٠. مؤسسة الزهرا في (مالانج) بجاوى الشرقية.

٤١. مؤسسة جعفر الصادق في (بوندووسوا) بجاوى الوسطى.

٤٢. مؤسسة اليسن في (سورابايا) بجاوى الشرقية.

٤٣. مؤسسة يافيسما في (مالانج) بجاوى الشرقية.

٤٤. مؤسسة الحجة في (جيمبير) بجاوى الشرقية.

٤٥. مؤسسة الكوثر في (مالانج) بجاوى الشرقية.

٤٦. مؤسسة الهشيم في (سورابايا) بجاوى الشرقية.

٤٧. مؤسسة القائم في (بوربالينجوا) بجاوى الشرقية.

٤٨. مؤسسة أصحاب الكساء في بالي.

٤٩. مؤسسة الإصلاح في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٠. مؤسسة فارادغما في (ماكاسار) سولاويسي.

٥١. مؤسسة فكرة الحكمة في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٢. مؤسسة صدرى (!) في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٣. مؤسسة بينيسي في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٤. مؤسسة ال. أس. أي. أي. في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٥. مؤسسة لينتيرا في (ماكاسار) سولاويسي.

٥٦. مؤسسة في (رياوا) سومطرا.

٥٨. مؤسسة الحكيم في لمبونج سومطرا.

٥٩. مؤسسة فنتوا علموا في باليمبانج سومطرا.

٦٠. مؤسسة أولوا الألباب في أتشيه سومطرا.

٦١. مؤسسة أملي في (ميدان) بسومطرا.

٦٢. مؤسسة المنتظر في (ساماريندا) بكاليمنتان.

٦٣. مؤسسة الرضى في (بانجرماسين) بكاليمنتان.



مجالس التعليم

١. مجلس التعليم الرياحي.

٢. مجلس التعليم أم أبيها في جاكرتا.

٣. مجلس التعليم البطول في جاكرتا.

٤. مجلس التعليم الحوزة في ساوانجان جاوى الغربية.

٥. مجلس التعليم الأدروس في بورواكارتا.

٦. مجلس التعليم النور في (تنجيرانج) بجاوى الغربية.

٧. مجلس التعليم الجواد في (تاسيكمالايا) بجاوى الغربية.

٨. مجلس التعليم العلاوي في (بوربولينجنجوا) بجاوى الشرقية.

الرابطات

١. رابطة جماعة أهل البيت اندونيسيا.

٢. رابطة شبان أهل البيت اندونيسيا.

٣. رابطة الطلبة اندونيسيا □ ايران.

٤. صف المسلمين باندونيسيا.

٥. رابطة الطلبة اندونيسيا في ايران.

٦. مجتمع أهل البيت اندونيسيا.

المراكز واللجان

١. المركز الثقافي في جاكرتا.

٢. التزكية في جاكرتا.

٣. الهادي في جاكرتا.

٤. العفة في جمبر بجاوى الشرقية.

٥. لجنة اتصالات أتباع اهل البيت.

المدارس

١. المدرسة العالية زائدة مطهرى في باندونج وجاكرتا.

٢. التربية الإسلامية الجواد.

٣. الكليّة الاسلامية للدراسات العليا.

٤. مدرسة لازوردي من مستوى حديقة الأطفال الى المدرسة الثانوية.

٥. كلية مدينة العلم في ديفوك جاوى الغربية.

٦. مدرسة نور الإيمان في سورونج ايرايان.

٧. معهد يافي في بانجيل جاوى الشرقية.

(والقارئ اللبيب سيُلاحظ الرّكة والخطأٍ في بعض الاسماء. ما يدفع إلى الظنّ بأن أصل التقرير قد كُتب بلغةٍ أجنبيّة، ثم جرت ترجمته، لنشره في المجلّة المذكورة، على يد غير مُحيط. وقد أصلحنا الكثير منها. ولكن لم يبدُ لنا وجهٌ صحيحٌ في غيرها مع اعتقادنا خطأه. فليلاحظ القارئ الكريم ذلك. ثم فليأخذ بعض مافي التقريربحذر).

الناشرون

١. لينتيرا

٢. الهداية

٣. ميزان

٤. يافي جاكرتا

٥. الهادي

٦. الجواد

٧. المركز الإسلامي الهدى

٨. مطهرى

ومن الكُتّاب

١. علوي حسين

٢. محمد تقي مصباح

٣. أوهاشيم

٤. جلال الدين رحمت

٥. محسن لبيب

٦. حسين الكاف

٧. سليمان مرزوقي رضوان

٨. ديميتري ماهايانا

ومن الطلاب بقم في إيران

١. محمد تقي مصباح

٢. أوس دارياتي

٣. ناصر دمياتي

٤. عثمان الهادى

٥. عبد الرحمن عرفان

٦. محمد توركان

٧. سيتي ربيعة ايدية

٨. مختار لطفي

٩. هيري سوفريونوا

١٠. صالح لافادي

١١. عفيفة أحمد

١٢. أيمي نور حياتي معصوم ساعيد

١٣. لقمان ويشاكسونو

١٤. عمار فوزي هيريادي

ومن خريجي قم بإيران

١. د. عبد الرحمن بيما

٢. د. خليد وليد

٣. محسن لبيب

٤. علي رضا

٥. عمر شهاب

٦. شمسورى علي
٧. جلال الدين رحمت
٨. أحمد بارقبة

عدد الطلاب في قم

- سنة ١٩٩٠ م: ٥٠ طالب اندونيسى يدرسون في قم.
- سنة ١٩٩١ م: اكثر من ١٠٠ شخص.
- سنة ٢٠٠١: ٥٠ طالبا جامعيا التحقوا بالدراسات العليا في قم.
- سنة ٢٠٠٤: ٩٠ طالبا جامعيا التحقوا بالدراسات العليا في قم.
- زيارة الدكتور علي مسكن موسى، رئيس جمعية نهضة العلماء بولاية جاوى الشرقية لإيران قبل فترة. حيث رأى ستة آلاف طالب اندونيسي يدرسون في قم. ثلثمائة منهم منحة دراسية كاملة من الحكومة الإيرانية، بينما الباقي منهم تحت رعاية ملالي في قم (!).

المجلات

١. مجلة الشعار
٢. مجلة الهدى
٣. مجلة الحكمة
٤. مجلة المصطفى
٥. مجلة المودة
٦. مجلة اليوم القدس
٧. مجلة التنوير
٨. مجلة الجواد
٩. مجلة القادر
١٠. مجلة بابيم

الباب الثاني: ماليزيا

جغرافيا وتاريخ

دولة في جنوب شرق (آسيا) تتكون من ثلاث عشرة ولاية، وثلاثة أقاليم فيدرالية، عاصمتها (كوالالمبور). عدد سكانها ٣٠ مليوناً تقريباً، ٦٠ ٪ منهم مسلمون. وتتشارك الحدود البرية مع (تايلاند) و(أندونيسيا) و(بروناي). أما الحدود البحرية فتتشاركها مع (سنغافورة) و(فيتنام) و(الفيلبين).

تتكون من قسمين رئيسين على جانبي بحر الصين الجنوبي، وهما: غرب (ماليزيا)، وشرق (ماليزيا). وتحتوي على شبه الجزيرة الماليزية التي تشكل حوالي ٤٠ ٪ من أراضي البلاد، وتضمُّ سهولاً ساحلية وغابات جبليّة.

(١) الشيعة في ماليزيا

دخل التشيّع (ماليزيا)على أيدي مهاجرين من التجّار العُمانيين واليمانيين. ويبلغ عددهم اليوم زُهاء ثلاثمائة ألف. قسمٌ كبيرٌ منهم يقطنون العاصمة، حيث لهم أقدم حسينيّة في البلاد. كما أنّ لهم بالإضافة إليها ثلاثة مساجد في (كوالالمبور) و(جوهر) و(سارواك). أنشأها جميعها رجلُ الأعمال الشيعي المُحسن العُماني الأصل صالح كمران. كما أنشأ في أنحاء البلاد ست حسينيات وتسع مدارس للتعليم الديني.



وحسب أقوال (مدير منظمة الشؤون الإسلاميّة) الرسميّة في (ماليزيا)، المدعو داتوك عثمان مصطفى، فإنّ انتشار التشيّع الاثنى عشري فيها لم يبدأ إلا بعد نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران). أمّا قبل ذلك، حسب قوله، فلم يكن هناك إلا بعض أتباع المذهب الإسماعيلي (!). وهو كلامٌ مُتحيّز وغير صحيح دون ريب، بدليل أن وجود الحسينيّة في (كوالالمبور) يرجع إلى ماقبل ذلك بكثير. ومن المعلوم أن دخول التشيّع إليها هو جزءٌ من دخول الإسلام كلّه إلى البلاد. وهو يرقى إلى تاريخٍ بعيدٍ دون ريب أيضا.

مهما يكُن فإن الأجهزة العاملة هناك على نشر الوهّابيّة والاتجاه السّلفي التكفيري قد عملت بطريقتها الفجّة، التي تعتمدُ على شراء الذّمم بالمال، على مُحاصرة الشيعة والتشيّع في (ماليزيا) عن طريق رشوة المسؤولين. ومن ذلك أن المنظّمة المذكورة أعلاه قد أعلنت رسميّاً، أنّ جميع فروع الشيعة مُنحرفةٌ عن الإسلام، وتنتهك الشريعة الإسلاميّة.

وبتاريخ ٢٤/ ٧ / ٢٠١٣ أعلنت وزارة الداخليّة الماليزيّة، أن المُنظمات الشيعيّة غير قانونيّة، وممنوعة في (ماليزيا). وأنّ نشر التعاليم الشيعيّة ليس مجرد مُخالفة فتوى، بل يتمُّ الأخذ بعين الاعتبار بشأنها من قِبَل الوزارة بوصفها مسألة تابعةً للأمن القومي. وعليه فإنّ كلّ حِراكٍ شيعي محظور. ثم أنّها أقدمت على إلقاء القبض على ستة عشر من الشيعة البارزين وأودعتهم السجون، بتهمة الترويج للمعتقدات الشيعيّة. كلّ ذلك خلافاً



للدستور الذي ينصّ على حرية الأديان والشعائر الدينيّة.

إن تأثير هذا التدبير الفجّ لم يؤدِّ إلى انكفاء الشيعة هناك عن إقامة شعائرهم. بل ربما زاد من حماستهم وإصرارهم. كما أنّه كان موضع استنكارٍ من الكافّة. ولذلك فإنّ العمل به لم يستمرّ إلا لمدّة قصيرة. كان الشيعةُ أثناءها يؤدّون شعائرهم في البيوت، بعد إغلاق مساجدهم وحسينيّاتهم.

والآن فإن الذي أخذناه من بعض مَن التقينا بهم من شيعتها، أن وضع الشيعة في (ماليزيا) مقبولٌ إجمالاً اليوم، بل إن هناك إقبالٌ ملحوظٌ على الاستبصار. إلا في بعض الولايات التي يحكمها سلفيّون، خاضعون للإرادة الوهّابيّة ويتلقّون منها المعونة الماليّة، في شمال البلاد، وخصوصاً في ولاية (برليس). هؤلاء ما يزالون يعملون كلّ ما بوسعهم للتضييق على الشيعة في ولاياتهم بكلّ وسيلة. وأكبر همّهم الحيلولة دون إقامة المجموعات القليلة من الشيعة شعائرها. بالإضافة إلى تجديد طباعة بعض كُتُب الحديث الهزيلة، مع الحرص الشديد على حذف كلّ ما يُشيد بأهل البيت منها.

أمّا في غيرها من الولايات فأمرهم مختلف. وهم يُحيون شعائرهم ويُمارسون أنشطتهم التبليغيّة والتربويّة ضمن قسطٍ مقبولٍ من الحريّة. لكن وضعهم إجمالاً لا يُقارَن بما وصفناه في الباب السابق من نشاطٍ واسعٍ وناجحٍ بكلّ المقاييس لإخوانهم في أندونيسيا.

الباب الثالث: الفيليبين

(١) جغرافيا وتاريخ

نخص (الفيليبين)، دون غيرها من بلدان جنوب شرق (آسيا) ، لِما لها من خصوصيّة في الشأن التاريخي. يحسُنُ أن تُعرَف لِما فيها من عِبرة.

و(الفيليبين) الحاليّة جمهوريّةٌ دستوريّة. رقعتها أرخبيلٌ من الجُـزُر، ضمن مجموعة الجُـزُر الملاويّة والأندونيسيّة، عددها ٧١٠٠ جزيرة. عدد سكانها اليوم حسب آخر إعلان رسمي فاق المائة مليون. أي أنها الدولة الثانية في جنوب شرق (آسيا) من حيث عدد السكان بعد (أندونيسيا). نسبة المسلمين منهم على اختلاف المصادر بين١١و ١٥٪، بعد أن كانوا أكثريّةً مطلقة، بجنبها أقلّيّةٌ بوذيّة.

(٢) الإسلام في الفيليبين

وصل الإسلام إلى (الفيليبين) مُبكّراً على يد دُعاة من أحفاد الإمام جعفر الصادق عليه السلام قصدوها عام

٢٧٠ هـ / ٨٨٣م. وبعد أربعين سنة هاجر جمعٌ آخر من أحفاد الإمام نفسه من (العراق) للإلتحاق بذوي قرباهم.

ثم في السنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م هاجر المدعو أحمد بن عيسى المُلقّب بـ (المهاجر)، ومعه جمعٌ من أُسرته، إلى اليمن. ومنها هاجر أحفاده إلى جنوب شرق (آسيا) عبر (الهند). والظاهر أن هذا «المهاجر»، الذي لانعرفُ عنه ما يُذكر، كان بنفسه وبأُسرته ذا أثر كبير على انتشار الإسلام في (الفيليبين)، بحيث ما زال يسكن الذّاكرة العامّة هناك.

بنتيجة تلك الهجرات وما تابعها وانبنى عليها، وعلى رأسها هجرة تجار عرب (يمانيين وعُمانيين) وأندونسيين، ساد الإسلام تلك الجُزُر مدة ستة قرون على نحو التقريب. إلى أن وصل الاستعمار الغربي، الذي حمل لواءه الإسبان في ذلك الأوان.

بدأت مساعي الإسبان للسيطرة على المنطقة، على أثر اكتشاف ماجلّان الطريق البحري إليها، في ثلاث سُفُنٍ مشحونةٍ بالمقاتلين. عملت على احتلال الجُزُر بالقوة. فتصدّى لها أهلها المسلمون، حيث دارت معارك عنيفة. أسفرت عن مقتل ماجلّان وأكثر عسكره. لكن الحملات الإسبانيّة توالت، بحيث استولت شيئاً فشيئاً على أكثر الجُزُر. وبدأت على التوّ العمل على تنصير أهليها، مثلما يعمل المستعمرون الغربيون دائماً. وبهذه الوسيلة دخلت المسيحيّة البلاد.

في العصر الحديث، وبالتحديد في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، دخل الاستعمار الأميركي (الفيليبين)، ليُتابع ما كان الأسبان قد أسّسوه. وما أتى نصف القرن العشرين حتى غدا المُتنصّرون أكثريّة. فضلاً عن وضع مقدّرات البلد الاقتصادية والسياسيّة في أيديهم. ومن ذلك مثلاً، أنّهم خصّصوا جزءاً كبيرا من جزيرة (ميناداناو) الكبيرة وذات الأهميّة الاستراتيجيّة والاقتصاديّة للمسيحيين الذين يُهاجرون إليها من الجُزُر الأُخرى. كما أنها خصّتهم باستغلال غاباتها الواسعة لإنتاج الأخشاب الثمينة. وبهذه الوسيلة تدفّق المهاجرون إليها، وجنوا ثرواتٍ طائلة. في حين انحدر مَن بقي فيها من المسلمين إلى قاع المُجتمع من حيث العدد ومستوى المعيشة.

هكذا فإن المسلمين الذي كان عددهم سنة ١٩٠٧م نصف مليون في جزيرة (ميناداناو) وجُزُر (باسيلان) و(صولو) و(تاوي تاوي)، مُقابل خمسين ألفاً من غيرهم، باتوا اليوم أقليّة. فضلاً عن أنّ الوافدين يملكون أكثر موارد الثروة من الأراضي الخصبة وإنتاجها.

كل ذلك، بالإضافة إلى أن الحملات التبشيريّة نفسهابسطت سلطان غير منافس على قطاع التعليم بأكمله وبشتى مراحله. وبالمُقابل أُغلقت المدارس الإسلاميّة أو أغلبها. بحيث أن فرصة المسلمين في تعليم أبنائهم باتت محصورة بتلك المدارس. وهي التي كانت في الحقيقة مؤسّسات تبشيريّة، تتخذ من التعليم غطاءً لمقاصدها السياسيّة الحقيقيّة. ومن ذلك أنّها سنة ١٩٧٠م منعت تدريس اللغة العربيّة. بحيث أدّى إلى إغلاق المدارس العربيّة والإسلاميّة. ومن الغنيّ عن البيان أن ذلك ترك أسوأ الأثر على الأجيال الجديدة، وخصوصاً على وعيها على ذاتها الإسلاميّة، وصِلاتِها الثقافيّة العريقة مع العرب والعربيّة.





(٣) الشيعة في الفيليبين

في هذا السّياق من العمل التغييري، إلى حدّ المَسخ المُتوالي قروناً، بات من غير الممكن أن نتحدّث عن المآل والتطوّر الداخلي الذّاتي للتّشيّع هناك. مع أنّنا قد عرفنا أن الدعوة إلى الإسلام قد بدأت في (الفيليبين) على أيدي مجموعات شيعيّة، بل هي من لبّ آل البيت، فلا بُدّ أن نفترض، وإن على نحو الترجيح، أنّها بالتالي قد أنتجت وتنامت بما يُناسبها. لكن كلّ ذلك ضاع في خضمّ التطوّرات التراجعيّة التالية.

إنّ حجم التغيير الإجمالي الذي حصل أثناء تلك المدّة الطويلة باتجاه التّنصُّر، حيث كان الإسلام دون تمييز هدفاً لهجمةٍ هائلة، وراءها قوى كبرى بإمكانيّاتٍ ضخمة، تركنا عاجزين عن تقدير حجم الخسائر في مذهبٍ بعينه دون مذهب. لأن البلاء وأثره كانا عامّيَن نزلا بالجميع دون تمييز.

ومع ذلك فإن نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران)، قد أيقظ النفوس وحرّك الهمم إلى العمل. وفي هذا السّياق بدأت بعض القيادات الإسلاميّة في الفيليبين الاحتجاج لدى الحكومة المركزيّة على القرارات التي تصبُّ في مصلحة المؤسّسات التربويّة التي تُديرها الهيئات التبشيريّة، بينما تضع العراقيل والموانع أمام مثيلاتها الإسلاميّة. ومن ذلك حظر التدريس باللغة العربيّة، تحت عنوان حظره باللغات الأجنبيّة، مع أنّ تلك تُدرّس باللغة الانكليزيّة وغيرها. كما انّها، بمعونةٍ من الجمهوريّة الإسلامية، أعادت فتح عددٍ من المدارس الإسلاميّة. فضلاً عن بعض المؤسّسات الثقافيّة، أو التي تمدُّ يد العون لأبناء المسلمين لمتابعة دراستهم الجامعيّة.

وحسب بعض التقديرات، التي ترجع إلى ما قبل ربع قرن تقريباً (وهي تقديرات نادرة على كل حال)، فإن عدد الشيعة في (الفيليبين) هو بحدود العشرين أو الثلاثين ألفاً.

الباب الرابع: تايلند

(١) جغرافيا وتاريخ

مملكةٌ في وسط جنوب شرق (آسيا). عُرفت قديماً باسم (سيام). عدد سكانها حسب آخر إحصاءٍ رسميّ أُعلن سنة ١٩٨٦م، نحو ثلاثة وخمسين مليوناً. وحسب الإحصاء نفسه فإن نسبة المسلمين فيها إلى مُجمل السكان ٤٪، أي زهاء المليونين. لكنّ مصادر حُرّة تقول أن نسبتهم لاتقلُّ عن ١٠ ٪، أي أن عددهم الحقيقي هو بحدود الخمسة ملايين. وسيتأيّد ذلك ضمناً لدى القارئ ممّا سنقوله على مواطن انتشارهم وتاريخه ومختلف أطوار نشاطهم.

(٢) الإسلام في تايلند

يتمركز مسلموا (تايلند) في جنوبها، في ولايات (فطاني) و(بالا) و(ساتون) ومحافظات (سونغلا)



و (ناراتيوات) و (كرابي)، حيث يُشكّلون أغلبيّةً سُكانية. وهم من أُصولٍ ملاويّة. أمّا مَن هم من أُصولٍ بورميّة أو صينيّة فهم ينتشرون في الشمال.

وأمّا مَن هم من أُصولٍ هنديّة أو إيرانيّة فهم في الوسط.

سلك الوافدون المسلمون إلى تايلند طريقيَن:

ـ **الأوّل**: وهم مَن يتمركزون حتى اليوم في الجنوب. وهم يرجعون بأُصولهم

إلى التجار العرب وخصوصاً الحضارمة. هؤلاء أنشأوا الموانئ على سواحل ولاية (فطاني) في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد. وما لبثوا أن جعلوا من الولاية مملكةً إسلاميّةً، استمرّت حتى القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد. قبل أن تندمج سياسيّاً في مملكة (تايلند) سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م.

ولقد ظلّت مملكة (فطاني) حتى ذلك التاريخ ذات مكانةٍ عالية بما فيها من مؤسساتٍ تعليميّة. يفِدُ إليها طلاّب العلم الإسلامي من أنحاء المنطقة في طلب العلم. بقي من تراثه حتى اليوم المدارس الأهليّة المُنتشرة في الولاية، التي تُدرّس المعارف الإسلاميّة والعربيّة حتى نهاية المرحلة الثانويّة.

ـ **الثاني**: أتى عن الطريق البرّي مع جنوب (الصين)، بالتحديد منطقة (يونان)، ومن (الهند). هؤلاء ينتشرون في وسط وشمال البلاد.

تنتشر المساجدُ في أنحاء تايلند، ويُقال أن عددها يناهز الألفين وخمسمائة مسجد. وفي (بانكوك) العاصمة مركزٌ إسلامي. إلى جانب العديد من الجمعيّات والهيئات فيها وفي غيرها، وخصوصاً في جنوب البلاد. تُدير مدارس ابتدائيّة إسلاميّة، بعضُها مُلحَقٌ بالمساجد، وهذه تُعنى عنايةً خاصةً بتلقين التلاوة للناشئين. وتختص المحافظات الجنوبيّة حيث أكثريّة السكان مسلمة بأن الاحوال الشخصيّة للمسلمين تحت أشراف محاكم إسلاميّة، تُنظّم شؤون المسلمين وتفصل قضاياهم بمقتضى الشريعة الإسلاميّة.



(٣) الشيعة في تايلند

المعلومات عن الشيعة في (تايلند) نزرةٌ جدّاً، وذلك بسبب قلّة عددهم.

والحقيقة أن ما سنقوله أدناه عليهم مُستفادٌ من الذين صادف أن التقينا بهم شخصيّاً من شيعتها. نخصُّ بالذكر الشيخ غلام علي أبا ذر التايلندي، وهو إمام (مسجد الهُدى) في (بانكوك) العاصمة. التقينا به قبل بضع سنوات في المؤتمر الموسمي الذي يُعقد في (طهران) من الهيئة العامّة للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام. ويضمّ شخصياتٍ وقياداتٍ شيعيّة من كافة أنحاء الدنيا. وقد تحدّثنا معه مليّاً عن الشيعة وأوضاعهم في هذه البقعة القصيّة. وسجّلنا ما سمعناه منه.

والذي يدور على الألسنة لدى عامّة مَن ذكرناهم، ومنهم الشيخ غلام علي، أنّ التشيّع في تايلند عريق. وأن الفضل الأوّل في دخوله إليها يرجعُ إلى رائدٍ داعيةٍ وحيد غير معروف خارج (تايلند)، اسمه الشيخ أحمد القمّي



(١٥٤٣ ـ ١٦٥٧م)، الذي تدلُّ نسبته على صفته ومنبته. ومايزال ضريحه في مدينة (آيوديا) معروفاً مَزوراً من الشيعة وغيرهم فيها إلى الآن.

دخل هذا الرّائد المجهول (تايلند) قبل زهاء ستمائة سنة، واستوطن (بانكوك) العاصمة حيث عمل في التجارة. ويُقال أنه شغل منصباً رسميّاً عاليا. اكتسب إلى التشيُّع بجهده الفردي أعداداً من التايلانديين. الغريب أن أخلاف أُولئك «الشيعة القدماء»، كما يُسمّون لدى إخوانهم في (تايلند) حتى اليوم، ثبتوا من بعده ذلك الزمن الطويل على هَدي آبائهم، إلى درجة أن عددهم في (بانكوك) العاصمة في سبعينات القرن الميلادي الماضي كان بحدود الألف نسمة.

وكما حصل في أكثر أنحاء جنوب شرق (آسيا)، فإنّ نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران) كان له إنعكاسه الطّيّب على المسلمين في (تايلند) أيضاً، وإن يكُن لا يُقاس بمثله في (أندونيسيا) مثلاً. ومن ذلك تضاعف عددُ الشيعة فيها أضعافاً مُضاعفة، باستبصار مجموعاتٍ من غير الشيعة، بل حتى من البوذيين، الدين الغالب هناك. وللمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام نشاطٌ مشهودٌ بين الشيعة التايلنديين. إلى جانب عددٍ من الجمعيات والمؤسسات التعليميّة. أهمّها:

- الجمعيّة العامّة لشباب أتباع أهل البيت في (بانكوك).
- معهد الدراسات والبحوث الإسلاميّة، في العاصمة أيضاً.
- مؤسسة الدراسات الإسلاميّة والإصلاحيّة. وهي أكبر المؤسسات الدينيّة الشيعيّة في (تايلند). تهتم بأُمور شيعتها، وبإحياء مختلف المناسبات الدينيّة. كما تهتم بإعداد برامج دينيّة، لعرضها في التلفزيون الرسمي، في أوقاتٍ مخصّصة للشيعة.

واليوم للشيعة في (تايلند) مساجدهم وحسينيّاتهم وجمعياتهم ومؤسّساتهم التعليميّة والخيريّة في العاصمة (بانكوك) وفي غيرها. حيث يُقيمون شعائرهم، كما أنّهم يُنظّمون الدورات التثقيفيّة التبليغيّة لأبنائهم، ويبذلون العناية لَمن يحتاج اليها منهم، ضمن قسطٍ مقبولٍ من الحريّة. وكانوا يعدّون بتاريخ تسجيل هذه المعلومات زُهاء الأربعين ألفاً في عموم البلاد.

هذا، وإنّنا نخصُّ بالذكر والتنويه أنه كان في (تايلند) بتاريخ تسجيل هذه المعلومات حوزتان علميّتان لإعداد وتخريج المبلّغين. إحداهما (حوزة المهدي عجّل الله فرجه) في مدينة (ناخان سي تامارات) في جنوب البلاد، مُخصّصة للذكور. وهي تمنح المُتخرّجين منها درجةً علميّةً مُعترَفاً بها رسميّاً، كما تمنح حاملها صلاحيّات تبليغيّة وإرشاديّة ورعويّة بين شيعتها. والثانية (حوزة المهدي العلميّة) في (بانكوك). وهي مُخصّصة للإناث. بالإضافة إلى (مدرسة دار العلم) في (بانكوك) ايضاً، أنشأها المرجع السيّد أبو القاسم الخوئي قُدّس سرُّه. وكانت بتاريخ تسجيل هذه المعلومات أيضاً تُدار بإشرافٍ من مندوبٍ من قِبَله. وهي من المؤسّسات التعليميّة الخيريّة العاملة. لكن لم يُذكَر أن أحداً من أبنائها وفد إلى إحدى الحوزتيَن الرئيستيَن في (قُمّ) و (النجف).

نذكر أخيراً أن علاقة الشيعة وقادتهم في (تايلند) بإخوانهم من السُنّة كانت طيّبة تسودها روح التعاون، بما يتناسب مع الظرف الدقيق للمسلمين إجمالاً هناك. وكانوا يشاركون بعضهم بعضاً ويُعاضد بعضهم بعضاً في مراسمهم وندواتهم. إلى درجةٍ أنّهم يُشاركون في إحياء شعيرة ذكرى شهادة سيّد الشهداء عليه السلام في شهر المُحرم.

لكنّ دخول عددٍ من الدُّعاة الذين جرى إعدادهم في المعاهد الوهّابيّة إلى ميدان العمل في أنحاء (تايلند)، حاملين معهم أفكارهم التكفيريّة العنيفة المعروفة، التي لُقّنوها هناك، أحدثت انقلاباً جذريّاً سلبيّاً بكلّ المعاني في مستوى العلاقة. بحيث حلّ التقاطع محلّ التواصل والتعاون.

الباب الخامس: جُزُر القمر

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية القمر الاتحاديّة الإسلاميّة). دولةٌ من أرخبيلٍ من عدّة جُزُر في المحيط الهندي،مقابل الساحل الشرقي لـ (أفريقيا). مساحتها الإجماليّة ١٨٦٢كم٢. ويُقدّر عدد سكانها بـزُهاء ثمانمائة ألف. بعضهم يتكلّمون العربيّة، ما يدلُّ على أُصولهم اليمانية الحضرميّة. استقلّت عن مُستعمِرتِها (فرنسا) سنة ١٩٧٥.

انضمّت إلى جامعة الدول العربيّة سنة ١٩٩٣. ما عدا جزيرة (مايوت) التي صوّتت ضدّ الاستقلال عن (فرنسا) سنة ٢٠٠٩. بل إن أهلها صوّتوا سنة ٢٠١١ على أن تصبح جزيرتهم جزءً من الأراضي الفرنسيّة عبر البحار.

سكانيّا يتميّزُ الأرخبيل بالتّنوّع الثقافي، الناشئ من أن سكانه عبارة عن تجمُّع آتٍ من مختلف المناطق المُجاورة خصوصاً من (اليمن)، حول نواةٍ من سكّانٍ أصليين. لذلك نرى أن للاتحاد القمري ثلاث لغات: اللغة القمريّة المُسمّاة (شيكومور)، والعربيّة لغة مَن هم من أُصولٍ عربيّة، والفرنسيّة التي اكتسبها بعض المواطنين أثناء فترة الاستعمار الفرنسي.

فمن هنا نرى الاتحاد عضواً في المُنظّمة الدوليّة الفرانكوفونيّة، التي تضمّ المُتكلّمين جزئيّاً أو كُلّيّاً اللغة الفرنسيّة. ولكنه في الوقت نفسه عضو في جامعة الدّول العربيّة.



(٢) الشيعة في جُزُر القمر

المُتداول في مختلف المصادر أن نسبة الشيعة بين أهل الجُزُر تتراوح بين ٥٪ و٢٠٪. ومن الواضح أن هذا



التفاوت الكبير يرجع إلى وُجهة نظر قائله، المُتأثّرة بميله الشخصي.

ما نراه أن هذا التنسيب غير دقيق، وأنّه خاضعٌ لنزعة التقليل لدى مَن لا يُعجبهم وجود الشيعة في أي مكانٍ من الدنيا. بدليل أنه في السنة ٢٠٠٦ فاز الفقيه الشيعي أحمد عبد الله محمد سامبي بمنصب رئاسة جمهوريّة الجُزُر لمدة أربع سنوات. وهو الذي لم يكُن تحوّله إلى التشيّع خفيّاً على أحد، بعد أن كان قد درس على أحد كبار المدرّسين في (قُمّ)، وبات عالماً عاملاً في وطنه. بل أبرز علماء الدين في المنطقة إجمالاً.

ومن الغنيّ عن البيان أنّ الأكثريّة التي انتخبته قد أخذت بعين الاعتبار أبرز صفاته، أي كونه عالماً شيعيّاً، خصوصاً في ظلّ حالة التّوتُّر المذهبي الناشئة من نشاط الدعوة الوهّابيّة هناك، وهي المعروفة بعنفها ضدّ الشيعة والتشيّع وكلّ ما يتصل بهما.

ففي ذلك دليلٌ قويٌّ على أن القاعدة الشعبيّة، التي اختارته دون غيره لأعلى منصبٍ في البلاد، كانت مُجانسةً له، أو على الأقلّ راضيةً عن سيرته وأعماله. ما يدلّ على أنّ الشيعة هناك أكثر بكثير ممّا قيل في تلك النِّسَب.

كانت فترة رئاسة الرئيس سامبي مناسبة لبدء الشيعة إظهار أنفسهم وشعائرهم، خصوصاً في جزيرتي (انجازينا) و(هنزوان). ومن ذلك حسب بيانٍ صدر من أحد الدُّعاة الوهابيين المحلّيين، وهو من خريجي الجامعة الإسلاميّة في (المدينة) المُنوّرة، أن خرج بعض الشباب وهم يحتفلون بذكرى عاشوراء. وقد سجّل ذلك الفقيه دهشته من أنّ «بعض مَن أظهروا تلك الطقوس ﴿على حدّ تعبيره﴾ هم من الطلبة الذين لم يبرحوا منطقتنا. فبعضهم درس في مدغشقر، والبعض الآخر في جُزُر القمر. فدلّ ذلك على أنّ هناك حركة سرّيّة في البلاد تهدف إلى نشر التشيّع».

والحقيقة التي لم يرها ذلك الدّاعية أن التشيّع مُتجذّرٌ في أهل تينك الجزيرتين على الأقلّ. ولكنّه لم يكن يملك الرموز والقيادات والمؤسّسات التي تؤهّله للعمل التبليغي والشعائري العلني المُنظّم.

أمّا بعد مجئ الرئيس سامبي إلى السُلطة، فقد تبدّل وضعهم تبدّلاً جذريّاً، وهو الذي لم يتخلَّ رئيساً عن صفته الأساس فقيهاً مُبلّغاً مرشدا. فأطلق العمل في إنشاء المراكز والمؤسسات، بمعوناتٍ سخيّةٍ من الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. التي سارعت إلى تهنئته بالفوز غير المُتوقّع بالرئاسة بوفدٍ من مستوى رفيع، من ثلاثةٍ وخمسين عضواً، بينهم ثلاثة وزراء.

على الأثربدأ إنشاء المراكز التدريبيّة التعليميّة. منها مركزٌ كبيرٌ في جزيرة (هنزوان). ومن أهمّها وأوسعها نشاطاً (مركز الثقلين) في العاصمة، الذي يهتمّ بتلقين الطلاب العلوم التقنيّة وفنون الحاسوب، إلى جانب تدريس الفقه الإمامي لِمَن يرغب منهم.

على الأثر أيضاً استنفرت الجهات الوهابيّة قواها، وفي رأسها طبعاً ودائماً قوّتها الماليّة الثّريّة. فأغرت وزير التربية والتعليم لجزيرة القمر الكبرى بالمال، بعد انتهاء مدّة حكم الرئيس سامبي، فما كان منه إلا أن أصدر قراراً بحظر نشاط (مركز الثقلين)، بذريعة أنّه أُنشئ ويعمل دون ترخيص.

واليوم فإنّ أعـداداً كبيرةً من الطلاب القمريين انتسبوا وينتسبون إلى الجامعة الإسلاميّة الإيرانيّة في (مدغشقر) غير البعيدة كثيراً عن (جُزُر القمر). حيث تُوفِّرُ لهم ما يحتاجون إليه من إيواء وتدريس ورعايةٍ صحيّة. ليعودوا إلى وطنهم وليعملوا في المؤسّسات والمعاهد التربويّة والتبليغيّة المَرعيّة من قِبَل الجمهوريّة الإسلاميّة. ولله أمرٌ هو بالغه.

الفصل الثاني عشر

الصين

نخصُّ تركستان الشرقيّة، بالإضافة إلى بعض (التبت) و(الصين)

(١) جغرافيا وتاريخ

تركستان الشرقيّة غرب ماهو اليوم (جمهوريّة الصين الشعبيّة). ضمّها الزعيم الصينيّ ماوتسي تونغ سنة ١٩٤٩م إلى جمهوريته الجديدة ، تحت اسم (سينكيانغ). وهي منطقةٌ شاسعة، يبلغ عددُ سكانها، بحسب الارقام المُعلَنَة من الدولة الصينيّة ٢١ مليوناً. ١١ مليوناً منهم مسلمون من عرق الإيغور، بالإضافة إلى أقليّات من أعراق تركيّةٍ أُخرى. فالمسلمون فيها من الأُصولِ التركيّة نفسها. وما يزال أهلها يتكلمون بأحد لهجات هذه اللغة، بحيث لايصعُب كثيراً على ابن (تبريز) أو (استامبول) مثلاً أن يتحدّث معهم.

عملت الدولة الصينيّة من جانبها على تهجير المسلمين منها، ونشْرهم في مناطق أُخرى، بحيث لا يكونون أكثريّةً حيثما حلّوا، وإحلال قوميّة (الهان) الصينيّة الكُبرى محلّهم. وحصرت إقامة الشعائر الدينيّة في أماكن العبادة المُعتمَدَة بإرادةٍ رسميّة، وعلى أيدي موظفين مُعتمَدين أيضاً من قِبلِها. كلُّ ذلك جرى تحت شعار إخضاع الدين لِما يتناسب مع مطلب تحقيق الوحدة الوطنيّة.

(٢) الشيعة في الصين

ما من إحصاءٍ لعددهم، لأنّ الدولة تعتمدُ في إحصاءاتها الاعراقَ الكثيرة في بلادها دون الدين. لكن مصدراً محلّيّاً قريباً من الشيعة في (الصين)، أو هو منهم، يقول أنّ عددهم في عموم (الصين) هو بحدود الثلاثة ملايين، بين إسماعيليين وإماميّة. وأنّهم ينتشرون في (تركستان الشرقيّة) و (التبت) ومقاطعة (دونغان) الصينيّة.

الإسماعيليّون لهم وجودٌ بارز في (تركستان الشرقيّة)، وبالتحديد في منطقة (طاشيكورقند)، يرجعُ إلى ماقبل ثلاثة قرونٍ تقريباً. ذلك بأن حضر إليها من مدينة (بُخارى) في القرن ١٧ الميلادي رجلٌ فارسيّ إسماعيلي يُدعى سعيد شارخان، هو الذي نشر الدعوة الإسماعيليّة فيها بين أبناء القوميّة الطاجيكيّة. وهم اليوم في (طاشيكورقند) و (يارقند) و(تزي بو) و(يه تشنغ) وبضع مناطق غيرها من (تركستان الشرقيّة). ولهم فيها مساجد قليلة، يُقيمون فيها الصلاة في المناسبات الدينيّة كعيدي الفطر والاضحى. وكذلك ما يُسمّى (صلاة البراءة) ليلة النصف من شعبان.

حتى السنة ١٩٤٩م تاريخ إعلان (جمهورية الصين الشعبيّة) كان هؤلاء يعملون في التجارة مع (الهند) و(كشمير). يستوردون منها الأدوية، ويُصدّرون إليها الحرير والمُنتجات الزراعيّة والاحجار الكريمة. لكنّ بعضهم أعلنوا في السنة ١٩٧٦م، لأسبابٍ غير واضحة، ما يدلُّ على أنّهم إماميّة تحت عنوان (جماعت). يؤمنون بالله وباليوم الآخر وبالعدل وبالأئمة الاثنى عشر. ولا يعترفون بالخلفاء الثلاثة الأُوَل. فإمّا أنّهم كانوا يكتمون إيمانهم، إلى أن حصل مُتغيّرٌ رفع سببَ الحظر عنهم. وإمّا أنّهم تلقّوا مؤثّراتٍ جديدةٍ حوّلتهم باتجاه الإماميّة. ونحن نُرجّحُ السببَ الأوّل، لأنّ تاريخ إعلانهم ذاك يُصادف تاريخ إطلاق الحُريّات الدينيّة في (الصين) إجمالاً.

ثمة ما يدلُّ دلالةً قويّةً جدّاً على أن التشيّع الإمامي سابقٌ زمنيّاً بكثيرعلى الإسماعيليين. وذلك أنّ من تأثيرات الثورات الشيعيّة، التي تتابعت منذ زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، أن فصمت العلاقة نهائيّاً بين القاعدة الشعبيّة لتلك الثورات وبين السُلطة الأُمويّة. فلجأ قسمٌ منها إلى الهجرة إلى أماكن قصيّة بعيداً عن أيدي السُلطة. وكان منها مَن لجأوا إلى (تركستان الشرقيّة). بالإضافة إلى الذين تحوّلوا إليها قادمين من المنطقة الفارسيّة، وخصوصاً من مدينة (بُخارى). وبقي لنا من آثار وجودهم ما تذكره بعض المصادر الصينيّة عن مسجدٍ في مدينة (تشيوانتشو)، يعود تاريخه إلى السنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، يحتوي على نصَبٍ تذكاريّ منقوشٍ بالأحرف العربيّة، يدلُّ على أنّ بُناة المسجد شيعة. بالإضافة إلى أخبارٍ في بعض المصادر نفسها تذكر نزاعاتٍ في المدينة بين الشيعة والسُنّة.

وحتى اليوم فإن في (تركستان الشرقيّة) مجموعاتٌ شيعيّةٌ إماميّة من قوميّة الويغور، لا ذكر لعددها للسبب الذي ذكرناه قبل قليل. وهم يُشاركون إخوانهم من السُنّة في مختلف الأنشطة الدينيّة، بعد أن جمعتهم مصيبة ابتلاع (الصين) بلادهم. وكثيرٌ من الكُتُب الإسلاميّة التي طُبعت في المدة الأخيرة بأعدادٍ كبيرة هي باللغة الويغوريّة.

كلُّ ذلك فيما يخصُّ (تركستان الشرقيّة)، بوصفها موطن أكبر تجمُّعٍ إسلامي في أنحاء (الصين).

فماذا عن بقيّة أنحائها؟

والذي يبدو ممّا سنذكره بهذا الخصوص، أن القسط المعمول به هناك من الحريّة الدينيّة للمسلمين، بعد عقود القمع والتمييز، بسبب تبدّل هُويّة النظام السياسي هناك، بالإضافة إلى اهتمامه ببناء علاقاتٍ طيّبةٍ مع بعض الدول الإسلاميّة، خصوصاً مع الجمهوريّة الإسلاميّة في (إيران)، ـ قد انعكس على أوضاع المسلمين



في (الصين) إجمالاً. وطبعاً استفاد الشيعةُ من هذا المُناخ الإيجابي، فطفقوا يُحيون شعائرهم الدينيّة مُتظاهرين. وقد زارهم الكاتبُ المصري المعروف فهمي هويدي، وسجّل في كتابه الإسلام في الصين ترقّبهم لـ «المهدي المنتظر»، وغير ذلك من الإمارات التي تدلُّ على تشيّعهم العريق.

ومن ذلك ما حملته الأنباء أخيراً على احتفالات نظّمها بعض الشيعة، من جاليةٍ ومواطنين، في مُختلف المُدُن الصينيّة بليلة النصف من شعبان ذكرى مولد الإمام المهدي (عج). واحتفالاتٍ أُخرى ذات توجّهاتٍ سياسيّةٍ شيعيّة، أُلقيت فيها القصائد بذكر الحشد الشّعبيّ في (العراق)، ضدّ مظالم تنظيم (داعش) السّلفي وسلوكه الوحشي، وفتوى المرجعيّة الدينيّة في (النجف) بوجوب الجهاد وُجوباً كفائيّاً. وذلك في (حُسينيّة أبي الاحرار) بمدينة (إيبو) الصناعيّة القريبة من (شنغهاي).

وآخرُ ما أتانا في هـذا السّياق، زيارةٌ تبليغيّةٌ لـ (الصين) لأحد علماء الدين في (قُمّ) صديقنا الشيخ محمد الحسون، بدأها في ٧/ ٤/ ٢٠١٦م، تجوّل أثناءها في مختلف أنحائها. وسجّل معلوماتٍ طريفة، منها ما قد يدخل في مقاصد بحثنا.

ومن ذلك قوله أنّ عدد الشيعة الإماميّة في (الصين) لا يتجاوز عدّة آلاف (!).

الكثيرون منهم من المُستبصرين. أي الذين اختاروا الإسلام ديناً والتشيّع مذهباً. بالإضافة إلى مجموعاتٍ من المهاجرين الشيعة للدراسة في جامعاتها ومعاهدها، أو للعمل في التجارة. أكثرهم في مدينتي (كوانزو) Guangzhou و (ايوو) Yiuo. وأنّ في (الصين) مدينةٌ اسمها (سين جيان) Xinjian، دخلها التشيّع منذ ثلاثمائة سنة تقريباً على يد تاجرٍ إيراني هاجر إليها. وأنّ عدد الشيعة اليوم فيها يُقدّرُ بثمانية آلاف. ولديهم مسجدٌ كبير. وهم طائفةٌ دينيّةٌ مُعترَفٌ بها رسميّاً. وأن في مدينة (كوانزو) ثلاثة مساجد، قسمٌ من أحدها مُخصّصٌ للشيعة. وأنّ لهم فيها حسينيّة أنشأها شخصٌ نجفيّ مُقيمٌ هناك.

ومن أطرف ما أتانا به أنّ مدينة (سانيا) السياحيّة، في جزيرة (هاينان)، لم يكُنْ فيها قبل السنة ٢٠٠٩م أي شيعيّ. ثم أن أحد أبنائها قصد مدينة (مشهد) المعروفة، وانتسب إلى الجامعة الرضويّة. استقرّ بعدها في بلده، حيث اهتمّ بنشر التشيّع بين أهلها. وبفضله بات عدد الشيعة هناك ثلاثمائة شخص. لهم فيها حسينيّةٌ عامرة وحوزةٌ دينيّة، يدرس فيها عددٌ من الطلاب أوّليّات الدراسة الدينيّة. ليتوجّهوا بعدها إلى (قُمّ) أو (النجف) لُمتابعة الدّراسة. وقد استمع الشيخ فيها إلى مجلس عزاء للسيّدة الزهراء عليها السلام، التي صادف وجوده هناك أوان ذكرى شهادتها. كما زار حوزتها، واطّلع على مناهجها الدراسيّة.

وفي هذا بابٌ عريضٌ مفتوحٌ على مستقبلٍ واعد إن شاء الله. يُعزّزه أن سماح السُلطة بهذه الأنشطة ذات الطّابع التغييري يدلُّ على انفتاحٍ غير مسبوق بقدر ما نعلم. قد يُفسّره ما أفادنا به أحد أصدقائنا من علماء الدين المعارف، أنّه كُلّف بتلبية دعوةٍ رسميّةٍ لزيارة (الصين) لبّاها، حيث جرى الحديث على العمل على إمكانيّة نشر الدعوة الشيعيّة بين مسلميها، خصوصاً في (تركستان الشرقيّة)، لُمواجهة المخاطر المُحدقة، التي تحملها الدعوة الوهّابيّة التكفيريّة النّاشطة هناك.

نختم الفصل باقتباس جزءٍ من نصٍّ منشور في موقعٍ وهابيّ على الشبكة العالميّة لعلاقته بمطالب عالجناها فيه، جاء فيه:

الباب الأول: الرافضة في تركستان الشرقية.

إنتشرت في وسائل التواصل الإجتماعي صور وتعليقات لظهور الشيعة وإقامة الحسينيات في تركستان الشرقية، المسلمون في تركستان سنيّو العقيدة. بينما بعض المناطق مثل منطقة تاشقورغان على حدودباكستان القريبة من جبال همالايا والتي يعيش فيها قومية الطاجيك ينتمون لطائفة الإسماعلية. وهم محافظون على زيهم التقليدي لكنهم يجهلون تماما حقيقة الشيعة الإسماعيلية ولايمارسون أية طقوس. وهناك قلة من الشيعة يعيشون في ياركند يقدر عددهم بعشرات الأسرفقط. وهم كذلك كانوا لايمارسون أي نشاط ومناسبات شيعية مثل الحسينيات وغيرهامن الطقوس. لكن الشيعة (شيعة ياركند) كانوا معروفين لدى الياركنديين بـ«الرافضة».

منذ سنوات بدأ النشاط الإيراني في المنطقة بزيارات متتالية لرؤساء إيران حيث زار الرئيس الإيراني الأسبق محمد خاتمي كاشغر في حزيران/ يوليو ٢٠٠٠م وآثر أن يُصلّي الجمعة مع عشرات الآلاف من المسلمين الأويغور. وكان أول رئيس دولة «إسلامية» يصلي بالمسلمين دغدغ مشاعرهم. وقبله بسنوات زار هاشمي رفسنجاني الرئيس السابق لإيران كاشغر وصلى الجمعة في جامع عيدكاه.



مسلمو تركستان انبهروا بالشيعة لمواقفهم المزعومة المؤيدة لقضية فلسطين، ولتصديهم لهجمات إسرائيلية في لبنان سنة٢٠٠٦م. لكن هذا الإنبهار لم يدم طويلا بل انفضح أمر إيران وحزب الله في الأزمة السورية والعراقية فعرف المسلمون في تركستان الشرقية حقيقة «الرافضة» خاصة بعد تورط إيران وحزب الله في دماء المسلمين السنة في سوريا.

مسلمو تركستان الشرقية مهما فعل بهم الإحتلال الصيني لم يتخلوا وكذلك لن تنجح الرافضة في نشرمذهبهم رغم محاولات إيرانية وسماح الصين بالنشاطات الشيعيّة وإقامة الحسينيات في تركستان الشرقية، بعكس تضييقهاعلى المسلمين السنة في التعليم وممارسة الشعائرالإسلامية ومنع السفرلأداء فريضة الحج. إن الشعب التركستاني يرفض عقائدالشيعة وحتى العلماء فطنوا لخطرالشيعة على العقيدة الإسلامية الصحيحة وكتبوا كتبا. على سبيل المثال للشيخ موسى جارالله كتاب قيم عن الشيعة وعقائدهم الهدامة بعنوان «الوشيعة في نقد عقائد الشيعة» طبع عدة مرات آخرها في القاهرة مؤخراً.

وممّا أراه جديراً بالتعليق منّي، أنّ المدعو موسى جار الله الكاشغري، الذي رأى فيه الكاتب أحدَ «الذين فطنوا لخطر الشيعة على العقيدة الإسلاميّة» (!) بنظره الثاقب من (كاشغر) البعيدة، ـ هو في الحقيقة أحدُ خمسةٍ، الأربعةُ الآخرون من (لبنان) و(مصر) و(سوريا) و(العراق)، وضعوا في أوقاتٍ مُتقاربةٍ في ثلاثينات القرن الماضي كُتُباً حَشَوْها بالنّيل من الشيعة. في الوقت الذي كان فيه اليهود ومَن يؤازرهم يُعدّون ويستعدّون



للإنقضاض على (فلسطين). أثارت رُدود فعلٍ عنيفة. فكان لها أسوأ الأثر على وحدة الموقف الإسلامي من الخطر الماثل. الأمر الذي رأى فيه مؤرّخوا تلك الفترة خِطّةً يهوديّةً مُحكمَةً، خضع لها أُولئك الكُتّاب الخمسة بغباءٍ مابعده غباء. ونرجو أن لايكونوا ضالعين فيها. ومن المؤكّد، على كلّ حال، أنّ افتعال تلك الأزمة منهم في ذلك الظرف العصيب لم يكُن صُدفةً أبدا.

الباب الثاني: التّبّت

(١) جغرافيا وتاريخ

تُسمّى في الأدبيّات الجغرافيّة (سقفُ العالَم) The roof of the world لارتفاعها الكبيرعن سطح البحر. وهي منطقةٌ شاسعةٌ من حيث المساحة، لكنّها فقيرةٌ في الموارد والسكان. موقعها وسط (آسيا)، حيث السيطرة السياسيّة والثقافيّة لـ (الصين). وهي اليوم من مناطق الحُكم الذاتي، تتبع سياسيّاً لـ (الصين)، مُستقلّةٌ في شؤونها الداخليّة.

يتعلّق بحثنا من (التبت) بمنطقةٍ منها اسمها (كرغيل) في الشمال الغربي منها. هي نفسها ما يُسمّيه القاضي نور الله التستري في كتابه مجالس المؤمنين، بـ «التبّت الصُغرى الإسلاميّة»، مُقابل «التّبت الكبرى البوذيّة». الأُولى منهما تُحادّ شمال (كشمير).

ومن هنا يمكن القارئ أن يُقدّر كيف دخل الإسلام إلى هذه المنطقة القصيّة.

(٢) الشيعة في التبت

يتركّز الشيعة في مُقاطعة (جامو) من منطقة (كرغيل)جنوب (التبت). الإسلام في المُقاطعة هو الغالب، ٩٠٪ تقريباً من مجموع السكان، مع أقلّيّةٍ من البوذيين. الغالبيّة العُظمى ٩٧ ٪ من المسلمين فيها هم من الشيعة الإماميّة، والباقي من السُنّة.

ثم أنّ الشيعة ينتمون إلى مُختلف الاعراق، لكلّ عرقٍ لغته الخاصّة به. الأمر الجامع بينهم هو التأثُّر بالثقافة الهنديّة الكشميريّة.

السؤال: كيف وصل الإسلام بمذهبَيه إلى هذه المنطقة القصيّة؟

الجواب المُمكن إجمالاً أنه مادام الإسلامُ ليس أصيلاً فيها، فلا بدّ من أنه وصل إليها عن طريق جيرانها. وليس في الميدان إلا (تركستان الشرقيّة) من الغرب و (كشمير) من الشرق. والظاهر أنّ المحور الفعّال في نقل

الإسلام إلى (كرغيل) هو (كشمير) المُجاورة، بعد أن غدا شمال (الهند) منطقة نفوذٍ إسلاميّ. ونشطت الحركة التجاريّة بين (كرغيل) و (كشمير). وهذا يُفسّر الكثرة الشيعيّة الغالبة فيها.

وحتى اليوم يوجد في إحدى ولاياتها مولّدون يُسمّون (الأغونيّون)، من أُمهاتٍ تبتيّات وآباءٍ مُسلمين من التجار. ثم تابع أبناؤهم الوتيرة نفسها بالزواج من تبتيّات، استوطنوا مُدُن المنطقة. كما أنّ هناك تجار مسلمون من (كشمير) ظلّوا يفدون إليها ويستقرون فيها، إلى أن استولى الشيوعيّون على السُلطة في (الصين) وضمّوا (التبت) إليها.

ومن ذكرياتي أثناء الدراسة في (النجف)، الجاليّة التّبتيّة الكبيرة فيها من طلبة العلوم الدينيّة. الذين كانوا من الكثرة، بحيث أنهم عندما بدأت المدينة تتوسّع شرقاً وجنوباً، اختصّوا هم برقعةٍ واسعةٍ من الأرض اتخذوا مساكنهم فيها. باتت بعدُ قريةً متوسطة من حيث المساحة وعدد السكان. بل ومن فقهائهم اليوم في (النجف) مَن وصل إلى درجة المرجعيّة الدينيّة.





الكتاب الثاني

أُوروبا

الفصل الأول

ألبانيا وشبه جزيرة البلقان

(١) جغرافيا وتاريخ

نُقدّمُ ذكرها على كافة أنحاء (أُوروبا) لأنّها تضمّ أكبر تجمّع إسلامي في القارّة.

(ألبانيا) جمهوريّةٌ تشغل أرضُها الجزء الغربي من شبه جزيرة (البلقان). مساحتها تسعةٌ وعشرون ألف كلم٢ تقريباً. عدد سكانها ثلاثة ملايين ومائتي ألف. يحدّها من الشمال (كوسوفو) و(الجبل الأسود). ومن الجنوب (اليونان). ومن الشرق (مقدونيا). ومن الغرب (البحر الأدرياتيكي). ٧٠ ٪ من سكانها مسلمون، أكثريّتهم المُطلقة من البكتاشيين الشيعة الإماميّة، والباقون نصارى أرثوذوكس وكاثوليك وملاحدة. وهي من أصغر وأفقر بلدان (أُوروبا). على الرغم من غنى أرضها بالنفط والغاز وشتّى المعادن.

المهم بالنسبة لعملنا في هذا الكتاب أنّها تضمُّ أكبر مجموعةٍ مسلمةٍ في (أُوروبا).

والحقيقةُ أنّ ميزتها هذه هي سبب ما نزل بها من صنوف البلايا.

ذلك أنها كانت حتى الحرب العالميّة الأُولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) دولةً كبيرةً مساحتها ثمانون ألف كلم ٢، بعدد سكانٍ مناسبٍ غير معلوم. لكنّ الحرب جعلتها مسرحاً للجيوش المُتقاتلة. التي عمدت بنهاية الحرب إلى تمزيقها أرضاً وسكاناً، كي لاتبقى في (أُوروبا) دولةٌ مسلمةٌ كبيرة. فسُلخت منها (كوسوفو) و(البوسنة) وضُمّت إلى (صربيا). وقسمٌ آخر ضُمّ إلى (مقدونيا)، وثالثٌ إلى (الجبل الأسود)، ورابعٌ إلى (اليونان)، وخامسٌ إلى (بلغاريا). ورُوعي في الخطّة أن ينال السّلخُ المسلمين أرضاً وسكاناً، أكثر ما يكون، كيما تعلو نسبة النصارى في الباقي. وهكذا تقلّصت (ألبانيا) التاريخيّة مساحةً وسُكّاناً من ثمانين ألف كلم ٢ إلى تسعةٍ وعشرين ألفاً، أي إلى ما هو أكثر قليلاً من ثُلث مساحتها الحقيقيّة التاريخيّة. كما تقلّصت بالتّبع نسبة المسلمين إجمالاً من سكانها إلى ٧٠ ٪. وقد كانت من قبلُ أكثر من ذلك بكثير.

ليس هذا فقط، بل جرى تقييد الباقي منها بمعاهدات وتدبيرات تصبُّ في مرامي الخطّة نفسها. من ذلك أن الدّول المُنتصرة فرضت عليها أن تكون دولةً مُحايدةً بدستورٍ علمانيّ، لاذكر لدين الغالبيّة فيه. وأن تكون خاضعةً للرقابة الأُوروبيّة الجماعيّة الصارمة فيما يخصّ شؤون الأقليّات غير المُسلمة. وأن تستبدل الحروف العربيّة للغتها بالحروف اللاتينيّة. وأن تقطع علاقاتها الثقافيّة مع العالَم الإسلامي. إلى ماهنالك من تدبيرات، لم نرها قد فُرض مثلها على أي دولةٍ في العالَم.

هكذا باتت الغالبيّة العظمي ممّن كانوا من مسلمي (ألبانيا) أقلّيّاتٍ مُستضعفَة في البلدان البلقانيّة وجوارها التي نُشروا فيها.

أمّا (ألبانيا) نفسها فقد تتابعت عليها البلايا، التي وصلت إلى ذروتها بشخص الديكتاتور الشيوعي أنور خوجه، الذي ساس البلد بالقهر والبطش الأعمى والاستئثار الكلّي بالسُلطة مدّة أربعين سنة حتى وفاته سنة ١٩٨٥.

(٢) الشيعة في ألبانيا



غالبيّة الشيعة هناك من أتباع الطريقة البكتاشيّة. والقارئ الذي رافقنا فيما سبق من الكتاب يعرفُ أن البكتاشيّة ترجع بأُصولها إلى التشيّع الشامي. الذي قلنا أنّه تشيّعٌ إمامي إثنى عشري. لكنّه لم يتأثّر أو يتصل بالنهضة الفقهيّة ـ الكلاميّة التي ازدهرت في المراكز العلميّة التاريخيّة للتشيّع: (قُم) و(بغداد) و (الحلّة) و (جبل عامل). وفي هذا السّياق تحوّل البكتاشيّون إلى مجموعةٍ من الطُّرُق الصوفيّة، مع المُحافظة المُشدَّدة جداًعلى عناوين التشيّع الإمامي، وفي رأسها طبعاً الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام. ولطالما التقينا بشيوخهم وزعمائهم على هامش المؤتمرات التي تجمعنا. وتجاذبنا أطراف الحديث فيما يهمّنا. وكثيراً ما رأينا من بعضهم وعياً حقيقيّاً على أزمتهم، التي صنعها تاريخهم الطويل من الاضطهاد والانقطاع عن الأُصول.

أمّا مواطن أُولئك البكتاشيين الأصليّة فهي (كيليكيا) و(الأناضول). ثم أنّهم شرعوا يتقدّمون باتجاه الحدود البيزنطيّة، مع تقدُّم الغُزاة المسلمين وتراجُع الروم باتجاه عاصمتهم (القسطنطينيّة). وكان أحدُ زعمائهم غيديك أحمد باشا من قادة الجيش الذي فتح (القسطنطينيّة). وهو طبعاً لم يكُن هناك وحده، بل مع عسكرٍ كبيرٍ من قومه، على ما تقضي به التقاليد العسكريّة المعمول بها في ذلك الأوان وقبله. ثم كان منهم ضُباط وجند العسكر الانكشاري الشهير الذي كان زهرة الجيش العثماني.

وعليه فيمكن اعتبار البكتاشيّة ممّن ضربوا بقسطٍ فاعلٍ في تأسيس الامبراطوريّة العثمانيّة. وكانوا عُمدة وزهرة عسكرها. إلى أن ظهرت الدولة الصفويّة في الجوار، وما استتبعه ذلك من انقلابٍ استراتيجيّ في بُنية الدولة العثمانيّة، إرتكاساً على ظهور مُناجزٍ لها في خاصرتها الشرقيّة. يعرفه جيّداً العارفون بتاريخها.



هذا السّرد التاريخي يطرح سؤالاً:

حسناً، إذا كانت مواطن البكتاشيّة حيث عرفنا، فما الذي حملهم إلى شرق (أُوروبة) على بُعد الشِّقّة بين الأثنين؟

الجواب: ذلك من عقابيل جُملة التّبدُّلات الجذريّة في سياسة الدولة العثمانيّة على أثر وبسبب قيام الدولة الصفويّة في خاصرتها الشرقيّة.

ذلك أن السلطان سليم الأوّل (٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ ـ ١٥١٩ م) رأى أنّ هؤلاء البكتاشيين، الذين ضمن منطقة سلطنته مصدر خطرٍ راهنٍ على دولته، بسبب الرابطة المذهبيّة المتينة والعريقة بينهم وبين الصفويين. بل إن هؤلاء (الصفويّون) كانوا أصلاً منهم في الحقيقة، أي أنهم كانوا في بدو أمرهم بكتاشيين. فعمد إلى تنظيم مذبحة هائلة بمَن كانوا من البكتاشيّة في (كيليكية) و(الأناضول). والقسم الأكبر منهم، الذين نجوا من المذبحة، نفاهم إلى المناطق التي كانت مسيحيّة إلى جواره. وخصوصاً إلى (ألبانيا) و(مقدونيا) و(البوسنة) و(الهرسك). ومع الوقت تكاثر هؤلاء، والظاهر أنّهم تجمّعوا بعدُ في (ألبانيا)، بحيث بات أكثرهم فيها، على ما وصفناهم قبل قليل.

هكذا نشر السلطان سليم التشيّع، من حيث لايقصد طبعاً، في مواطن جديدة ، ما كان يمكن أن يصِلَ إليها بطاقته الذّاتيّة.

فهذا بيانٌ للظهير التاريخي لوضع هؤلاء الشيعة في (ألبانيا) وشبه جزيرة (البلقان) إجمالاً، عدا القسم الأُوروبي من (استامبول).

فماذا عن أحوالهم اليوم؟

ما من إحصاءٍ موثوق لعدد الشيعة في دول (البلقان)، وفي (ألبانيا) منها بنحو الخصوص. ولكن ما من ريبٍ إطلاقاً في أنّهم أكثريّةٌ مطلقَةٌ في هذه الأخيرة، لا تُدانيها في ذلك أيُّ مجموعةٍ سُكّانيّةٌ أُخرى. على الرغم من كل أشكال وصنوف التهجير الصريح والمُقنّع التي ضربتهم في تاريخهم. بل وما يزال بعضها ناشطاً فاعلاً مؤثّراً حتى اليوم.

ومع كلِّ ذلك، فإنّ التّشيّع الإمامي ما يزال الظاهرةَ الأبرز في الأدب المكتوب باللغة الألبانيّة، والأبرز أيضاً في الشعائر الدينيّة المعمول بها في أنحاء تلك البلاد.

الأُنموذجان نقرأهما في ضروب المُطوّلات الشعريّة الحسينيّة الملحميّة باللغة الألبانيّة.

منها ملحمة الشاعر الألباني نعيم بك (ت: ١٩٠٠ م) في مقتل الإمام الحسين عليه السلام سمّاها (كربلا)، وهي في عشرة آلاف بيت. وملحمة (الحديقة) في وقعة عاشورا لداليب فراشري. وكلاهما من روائع الأدب باللغة الألبانيّة. ما زالا يُردّدان في احتفالات شهر المُحرّم الحرام، التي يُعنى البكتاشيّون عنايةً خاصةً بإحيائها. فضلاً عن المسرحيّات التي تُمثّل في الساحات العامّة في ذكرى وفيات الأئمة عليهم السلام . ومنها على سبيل المثال مسرحيّة (حسين جاندار).

ذلك إلى إهتمامٍ ملحوظٍ اليوم بنشر مُيسّراتٍ فقهيّة، وأُخرى في تاريخ وسِيَر الأئمة عليهم السلام باللغة الألبانيّة. كما تمّت ترجمة ونُشر نهج البلاغة والصحيفة السّجّاديّة وغيرها باللغة نفسها.

وفي العاصمة (تيرانا) جمعيّة النسيم، مديرها الشيخ عباس مريا، التقينا به في إحد المؤتمرات وتحدّثنا مليّاً. وهي تهتم بترجمة وطباعة ونشر الكُتُب الشيعيّة باللغة الألبانيّة في (ألبانيا) و(كوسوفو) و(مقدونيا) و(الجبل الأسود). ولها برنامج على الراديو، وتنظّم دروساً وندوات في المناسبات.

وفي (سراييفو) عاصمة (البوسنه) و(الهرسك) مؤسسة ملّا صدرا، مديرها البروفيسور اكبر عيدي. وهي من المؤسّسات التي أنشأها أحد علماء (إيران)، عنوانها على الشبكة العالميّة Mulla Sadra.com.

وفيها أيضاً (معهد ابن سينا). مديره الدكتوربهادر أمينيان. وهو معهد إسلامي جعفري، يعمل فيه عددٌ من العلماء الإيرانيين والبوسنيين. ويختصّ بأبحاث التاريخ الإسلامي والفقه والعقيدة. ويضمّ مكتبةً وقاعة تُعقد فيها المؤتمرات والندوات. عنوانه على الشبكة العالميّة Ibn-sina.com.

وفي (بلغراد) من (صربيا)، (مركز قُمّ للعلوم الدينيّة). عنوانه على الشبكة العالميّة Qom Center of Religeous Siences.

على أنّ أوضاع الشيعة والمسلمين إجمالاً، في (البلقان) عموماً وفي (ألبانيا) خصوصاً، بحاجةٍ ماسّةٍ إلى مختلف المؤسّسات التبليغيّة والتربويّة والإعلاميّة والرجال المؤهّلين لإدارتها، لتعمل على سدّ الفراغ الثقافي الكبير لديهم، الذي يُعانون منه نتيجة البلايا التي انصبّت عليهم طويلاً في تاريخهم القديم والحديث.

الفصل الثاني

أوروبا الغربيّة

الباب الأول: فرنسا

نُثنّي بذكرها لأنّها تضمّ أكبر جاليةٍ إسلاميّة مُتوطّنة في (أُوروبة الغربيّة).

(١) المسلمون في فرنسا

الاسلام هو الدين الثاني فيها من حيث العديد بعد المسيحيّة الكاثوليكيّة. وتشيرُ تقديراتٌ محلّيّة صدرت سنة ٢٠١١م إلى أن نسبتهم إلى مجموع السكان تتراوح بين ٣ و ٨ ٪. وأن عددهم يتراوح بين ٥ و ٦ ملايين. في حين تقول مصادر محلّيّة رسميّة أن عددهم لا يزيد على أربعة ملايين ونصف المليون. لكنّ مصدراً أجنبيّاً معروفاً بدقته نسبيّاً يقول أن عددهم لا يقلُّ عن ستة ملايين. والمُلاحظ أن المصادر الفرنسيّة الرسميّة والمحلّيّة تميل إلى الإقلال من عدد المسلمين فيها. وعلى كلّ حال، فإنّ قانون (الإعلام والحريّات) الفرنسي يمنع تعداد المواطنين حسب عرقهم أو دينهم أو إيديولوجيّتهم.

كثافة المسلمين المُتوطّنين العدديّة في (فرنسا)، بالقياس كل إلى دُول (أُوروبا)، يرجع إلى أسبابٍ تاريخيّةٍ وإلى سياساتٍ استعماريّة، صنعتها واتّبعتها (فرنسا). ومن ذلك عملُها المُزمن على جذب اليد العاملة الرخيصة من (الجزائر). وأثناء الحرب العالميّة الأُولى جنّدت إجباريّاً أعداداً كبيرة من أبناء مستعمراتها يومذاك في (المغرب) و(الجزائر) وغرب (إفريقيا)، شاركوا في الحرب إلى جانبها. هذه السياسة اتّبعتها أيضاً بعد انتهاء الحرب العالمية لبناء ما دمّرته. ثم كرّرتها في وبعد الحرب العالميّة الثانية. وبالنتيجة بلغ عدد المسلمين المُقيمين فيها أرقاماً عالية جدّاً غير مسبوقة في أي بلدٍ بـ (أوروبا الغربيّة). من هنا فإنّ أغلب المسلمين في (فرنسا) اليوم هم من أبناء الجنود والعمال الوافدين إليها من بلدان (المغرب العربي). بالإضافة إلى مستعمراتها السابقة

(السنغال) و (مالي) و (النيجر) و (ساحل العاج). فضلاً عن مسلمين من المشرق العربي (سوريا) و (مصر) و (العراق) و (فلسطين). وأكثرهم من الأتراك، الذين تبلغ أعدادهم في (فرنسا) زهاء النصف مليون.

واليوم يبلغ عدد المسلمين الحاملين للجنسيّة الفرنسيّة أكثر من ثلاثة ملايين. وهم يتمتّعون بكامل الحقوق والواجبات. قلّةٌ ضئيلةٌ منهم فرنسيّون أصيلون تحوّلوا إلى الإسلام، أكثر هؤلاء ممّن استبصر فاختار المذهب الشيعي الإمامي عن بحثٍ وتأمل غالباً. ومن المسلمين إجمالاً الوزراء وأعضاء البرلمان ومجلس الشيوخ. كما أنّ منهم الإعلاميّون والمثقفون والباحثون والمفكرون البارزون، وبعض هؤلاء من ذوي المؤلفات السّائرة.

ومع ذلك فإنّ (فرنسا) تُشكّل أفدح أشكال التعصّب ضدّ الإسلام والمسلمين وشعاراتهم.

(٢) الشيعة في فرنسا

ما من إحصاء، حتى على مستوى التقدير الارتجالي، للشيعة فيها. ولكنّهم إجمالاً جماعةٌ نشيطةٌ، تنطلقُ في أعمالها من مبادراتٍ فرديّة. وتُحسن الاستفادة من مذخورها الثقافي. ولكنّنا إذا قسناها بأمثالها في (بلجيكا) و (هولندا) و (ألمانيا)، كما سنعرفها، سنلاحظ فقرها النسبيّ في الرجال ذوي الامتياز، وفي المقدرة التنظيميّة والإداريّة.

أعرفُ الدعاة الشيعة الفرنسيين هو يحيى القواسمي. وهو من أصلٍ جزائري. كان يعمل جزّاراً في إحدى بلدان الشمال الفرنسي. تأثّر بقوّة بالثورة الإيرانيّة، فاعتنق التشيّع وتخلّى عن مهنته وتفرّغ للعمل الدّعوي. وفي هذا السياق أنشأ (جمعيّة الزهراء) و (الحزب المُناهض للصهيونيّة). سنقفُ عندهما بعد قليل. وقد لقيت أعماله تقديراً عالياً من قادة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة وحزب الله في (لبنان).

ولقد دوهم مركز الجمعيّة في (جراند سانت) من قِبَل السُلطات الفرنسيّة، وأُلقي القبض عليه وعلى مَن صادف وجوده في مركز الجمعيّة. ثم دُوهم مركز الحزب بذريعة مُعاداة السّاميّة. ولكنّ القواسمي لم يتراجع، بل جعل من مركز الحزب مقرّاً لـ (الاتحاد الشيعي في فرنسا). وقدّم مُرشّحين للمشاركة في الانتخابات الدستوريّة التي جرت سنة ٢٠١٢م.

(٣) المؤسّسات والمراكز الشيعيّة في فرنسا

ثمّة في فرنسا اليوم عددٌ من المؤسسات ذات الصفة الدينيّة، يُديرها دُعاةٌ شيعيّون، ذات صفة محصورة في الدعوة والتبليغ. ينحصر نشاطها في إحياء الشعائر والمراسم الدينيّة بين الجاليات الشيعيّة المحليّة. إلى جانب مؤسّساتٍ أُخرى تعنى بالتعليم. نذكرها على ما لها من أهميّةٍ وأثرٍ محدودَين. وإن يكن تأثيرها غير منكور في العمل على حماية أبناء الشيعة من أن تستوعبهم الحضارة القويّة التي يعيشون في أكنافها:

- **مركز الإمام الخوئي في فرنسا (Imam al – khouey Cultural Association)**. مقرّه في (باريس).



أُنشئ عام ١٩٨٨م. يُديره الشيخ إسماعيل خليق. يقتصر نشاطه على إحياء المناسبات الدينيّة، وتنظيم ندوات ثقافيّة.

- **مركز زينب عليها السلام في مدينة (تولوز)**. يُدير مدرسةً في المدينة لتعليم أولاد المسلمين الدين واللغة العربيّة.
- **مؤسّسة فرانكو الإسلاميّة اللبنانيّة (Franco Lebanease Islamic Association)** في (تولوز). لها صالةٌ تُقام فيها الشعائر الدينيّة،وتُلقى فيها المحاضرات. ولها صفحة على الفيس بوك afli.fr.
- **الاتحاد الشيعي الفرنسي (Fedeation Chiite de France)** في (غراند سانت) محافظة (بادو كاليه). مديره يحيى القواسمي. له موقعٌ على الشبكة العالميّة عنوانه Federation Chiite de France.com. وهو تجمُّعٌ رسمي، يُمثّل الشيعة في (فرنسا) بمختلف جنسيّاتهم. هدفه تقوية الوعي الذاتي لدى الشيعة، ونشر ثقافة أهل البيت عليهم السلام.
- **مركز الزهراء عليها السلام (Zahra France)** في (غراند سانت). أُسّس سنة ٢٠٠٥م. يُديره يحيى القواسمي وجمال طاهري وعبد الكريم خالد. يهتمّ بالأنشطة الاجتماعيّة والعائليّة. ويعمل على التعريف بالشيعة والتشيع، وإحياء المناسبات الدينيّة، ونشر ذلك في المجتمع الفرنسي، وما إلى ذلك. وقد حملت إلينا الأنباء قريباً أنّ الشرطة الفرنسيّة عادت فأطلقت بتاريخ ٣/ ١٠/ ٢٠١٨م عمليّةً أمنيّةً واسعة داهمت مركز الجمعيّة، وألقت القبض على مَن وجدتهم في المركز، بذريعة أنّ المُشرفين عليها يُقدّمون الدعم لجماعاتٍ إرهابيّة، وأنّهم قد صدرت منهم تصريحاتٌ معاديةٌ للصهيونيّة.
- **جمعية الغدير الإسلاميّة (Al_ghadir Association Islamique)** في (باريس). أسّسها لبنانيّون شيعة كانوا يُقيمون فيها في أواسط التسعينات. ومعظمهم من الجيل الثاني لمهاجرين. يغلب على نشاطها الطابع الديني الثقافي. وبناء تواصُل مع البيئة الثقافية الفرنسية، بإقامة دوراتٍ تعليميّة مختصّة بالثقافة المعاصرة والعقيدة الإسلاميّة. ويلحق بالمجمع مسجدٌ ومكتبة وصالات للتدريس والندوات. يديرها محمد فرحات.
- **كليّة المعارف الإسلاميّة**. تابعة لجامعة المصطفى العالميّة. أصدرت كتاب أصول العقائد للمرجع مكارم شيرازي.
- **حسينيّة محمّدي**. أسّسها عام ١٩٩٠م ويديرها جماعة الخوجة الهنود في إحدى ضواحي (باريس). ويتفرّع عنها جمعيّة «محفل زينب». يتركّز نشاطها على الاعمال الخيريّة والتربويّة والاجتماعيّة والاستشفائيّة، لرعاية المسلمين المقيمين في (باريس) معاشيّاً.
- **حسينيّة شاه نجف**. أسّسها في سبعينات القرن الميلادي الماضي مجموعةٌ من الباكستانيين، الذين قدموا باريس للعمل على إنشاء مؤسّساتٍ تجارية وسياحيّة.
- **المنظمة الإسلاميّة للطلبة الإيرانيين**. ظهرت في أواخر ثمانينات القرن الماضي في (باريس). أعضاؤها

من الجيل الإيراني الثاني بعد الثورة. الذي استفادوا من المنح الدراسيّة التي تمنحها الحكومة للطلاب الآهلين الراغبين في متابعة دراساتهم العالية في الجامعات الباريسيّة.

يتضمّن نشاطها عقد الندوات الثقافيّة والدينيّة، بالإضافة إلى إحياء المناسبات الدينيّة.

ـ **جمعية عاشورا**. أنشأها في (باريس) طلبةٌ قدموا من شمال (أفريقيا) أواسط تسعينات القرن الماضي. تعقد ندواتٍ ثقافيّة، وتُحيي المناسبات الإسلاميّة. ولها مكتبةٌ جيّدة.

- **المجتمع الإسلامي الإيراني**. تأسّس في (باريس) عام ١٩٨٤م، باهتمام مجموعة من الطلبة الإيرانيين واللبنانيين. أهدافها التعريف بمذهب أهل البيت عليهم السلام، ودعوة مسلمي (فرنسا) إلى التعرّف على أُصوله وأفكاره. ولهذه الجمعيّة نشاطٌ كبيرٌ مُميّزٌ في (باريس) وفي مدينة (بيزانسون) شرق (فرنسا) وفي (ليون). حيث ينشط الدّاعية مصطفى أبو أحمد، بالاشتراك مع الطلبة الإيرانيين، بعقد الحوارات والندوات الفكريّة والدينيّة.

- **جمعيّة الانفتاح الإسلامي الفرنسيّة**. تأسّست في تسعينات القرن الماضي في (باريس). ولها فروعٌ في مُدُنٍ أُخرى. يُديرها مجموعةٌ من الطلاب والعمّال المسلمين من مختلف الجنسيّات. سياستها التعاون مع مختلف المذاهب، ابتغاء الاستفادة من تجارب جميع المسلمين. خصوصيّة هذه الجمعيّة أنّها تجمع بين مسلمين من غير مذهب من المؤمنين بضرورة التعارف والحوار.

- **جمعيّة الوحدة الإسلاميّة**. تضمّ أفراداً من جنسيّاتٍ مختلفة. الأمر الجامع بينهم أنّهم جميعاً أعلنوا الاستبصار والتحوّل إلى المذهب الشيعي الإمامي. وهم يضعون خبرتهم في هذا بخدمة مَن ينتفع بها.

- وأماكن توزُّع هذه المراكز يُشير ضمناً إلى وجود قاعدة من السُكّان الشيعة فيها. يبدو أنّ عامتهم من المهاجرين أو الوافدين من بلدان المشرق العربي. في طلب العلم أو العمل.



الباب الثاني: بريطانيا (المملكة المتحدة)

(١) تمهيد

بالوصول إلى (بريطانيا) نكون قد دخلنا دون أن نقصد في الانتشار العراقي الكبير في أنحاء (أُوروبا) كلّها. بـ (فضل) البعثرة السُكّانيّة الهائلة التي ارتكبها طاغية (بغداد) عامداً قاصداً بحقّ الأكثريّة الشيعيّة في (العراق). رامياً فيما يبدو إلى عملٍ تطهيريّ يترك (العراق) من أكثريّةٍ غير شيعيّة. وفي هذا السبيل ارتكب المجازر الفظيعة نوعاً وكمّاً، دافعاً ملايين المواطنين الشيعة المرعوبين إلى الفرار بأنفسهم إلى أي أرضٍ تحملهم. فأمّا الذين قصدوا الأقطار المجاورة، (سوريّا) و (لبنان) و (العراق) و (إيران)، فقد رجعوا طوعاً بعد سقوط



الطاغية. وهم، على كلّ حال، أقليّةٌ ضئيلةٌ نسبيّاً بين عموم المهاجرين.

لكن حافز العودة ظلّ وما يزال ضعيفاً جداً لدى الذين نزلوا (أُوروبا). بل يبدو أنّه معدومٌ عند الأكثريّة الكاثرة منهم هناك. بعد أن استقرّ بهم المقام في بلدانها زمناً غير قصير، وانخرطوا في سوق العمل المُتعطّش إلى سواعدهم، وإلى ما قد يحملون من كفاءاتٍ ومهارات. وبنوا لأنفسهم حياةً جديدةً بعد ما نزل بهم من خوفٍ مُقيم ومشقّات، وشبّ أبناؤهم على أنماط الحياة الأُوروبيّة. ومن جهةٍ أُخرى، فإنّ أوطانهم الجديدة رأت فيهم رزقاً غير مُحتسَب، زوّدها دفعةً واحدة بمئات الأُلوف من العناصر الشّابّة. فعدّل من تركيبتها البشريّة المُتهالكة، بسبب ضآلة نسبة المواليد الجُدُد عندهم وارتفاع مستوى الاعمار وشيخوخة المجتمع. فضلاً عن وجود نسبة غير قليلة بين المهاجرين من ذوي الكفاءات العلميّة العالية. سنذكر بعضهم فيما سيأتي. بالإضافة إلى أنّ الجيل الذي وُلد في هذا البلد الأُوروبي أو ذاك، وتلقّى الدراسة في مدارسها وبلغتها، لم يعُد يعرف غيرها وطناً. وبذلك فرض مزاجه الجديد فرضاً على أُسرته، فبات لديها حافزٌ إضافيّ قويّ للتوطُّن حيث هي.

وحده الوازع الديني بقي حيّاً عاملاً لدى مئات آلاف المهاجرين العراقيين المُغتربين المُبعثرين. بحيث بقي الرّابط المعنويّ الوحيد الذي يشدّهم إلى أوطانهم. كما بقي بآثاره الإمارةَ الوحيدةَ برسم الباحث على وجودهم حيث هم. إذ طفقوا يُنشئون الجمعيّات والمساجد والحسينيّات حيثما حلّوا وارتحلوا، يلتقون فيها في المناسبات الاجتماعيّة، ويُحيون فيها شعائرهم الدينيّة، فينظّمون أنفسهم في عشرات الجمعيّات والمؤسّسات، ذات الصفات الرّعويّة والتعليميّة والتبليغيّة. التي شكّلت بمجموعها السورالوحيد الذي يحميهم من أن يذوبوا نهائيّاً تحت سطوة الحضارة القويّة، التي باتوا الآن تحت رحمتها في مهاجرهم البعيدة.

من هنا، وفي ظلّ الغياب التّامّ لإحصاءات وتقديرات عديدهم في أقطار (أُوروبا) ومُدُنها، فإنّنا سنتخذ من مختلف المُنشآت والمؤسّسات التي أنشأها ورعاها المهاجرون في مهاجرهم، مؤشّراً على حجم وأماكن توزّعهم فيها. بادئين بـ (بريطانيا) لأنها، فيما تدلُّ عليه الدّلائل، استقبلت أكبر عددٍ منهم. كما أقاموا في مختلف مُدُنها عدداً كبيراً من المؤسّسات. لنا وطيد الأمل بأن تقودهم باتجاه الصّمود والثّبات والنُّموّ.

هكذا سينقلبُ ما قد رمى إليه الطاغية إلى إنجازٍ تاريخيّ باهر، نشرَ الشيعة والتّشيّع في مواطن ما كان يمكن أن يصِلا إليها بأية وسيلة أُخرى. تماماً كما أدّت السياسة العثمانيّة البائسة في (جبل عامل) إلى الهجرة الكثيفة لعُلمائه إلى (إيران) في العهد الصفوي. حيث ساهموا مساهمتهم التاريخيّة المعروفة في إعادة بنائها معنويّاً ذاتيّاً حيث ماتزال حتى اليوم. بل وسَرَت تداعياتُ إنجازهم إلى (آذربايجان)، وأجزاءٍ من (آسية الوسطى) و (الهند).

(٢) المؤسّسات الشيعيّة في انكلترا

١. **مؤسّسة الإمام الخوئي الخيريّة**. مركزها (لندن). مديرها عبد الصاحب الخوئي. لها موقعٌ على الشبكة العالميّة alkhoei.org. وما من بيانٍ لوجوه نشاطها سوى صفتها الخيريّة.

٢. **مؤسسة أهل البيت** عليهم السلام **لإحياء التراث**. مركزها (لندن). مديرها محسن الخلخالي. نشاطاتها: إحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام في المناسبات. وتنظيم دورات فقهيّة للنساء. ومحاضرات دينيّة باللغات العربيّة والانكليزيّة. وتُدير مدرسة آل البيت عليهم السلام لتعليم الدين للشباب من الجنسين. موقعها على الشبكة العالميّة alulbayetuk.com.

٣. **حسينيّة الرسول الاعظم** صلى الله عليه وآله وسلم. مركزها (لندن). تُعقد فيها المجالس في المناسبات. وتُنظّم دورات فقهيّة للفتيات. ولها برنامج ليلي طيلة شهر رمضان. موقعها على الشبكة karbala-London.com.

٤. **المجلس العالمي لشؤون الإماميّة**. مركزه (لندن). يهتمّ بشؤون الطائفة الإماميّة الاثنى عشريّة والمرجعيّة الشيعيّة، وبالدفاع عن حقوقهم على الصعيد العالمي. موقعه على الشبكة imamiah.org. وما من ذكرٍ لإدارته.

٥. **دائرة المعارف الحسينيّة**. مركزها (لندن). مديرها الشيخ الكرباسي. نشاطها محصورٌ في تدوين موسوعة من خمسمائة مجلّد على الإمام الحسين عليه السلام. موقعها على الشبكة easyweb.easynet.co.uk-hussainiencyclop

٦. **معهد التعليم الإسلامي**. مركزه (لندن). يعمل على تكوين مكتبةٍ مختصّة بالأكاديميين في الدراسات الإسلاميّة. وإقامة دورات تعليميّة. وما من ذكر لإدارته وعنوان موقعه على الشبكة العالميّة.

٧. **مؤسّسة الحجّة** عجل الله فرجه. مركزها (لندن). وما من معلوماتٍ إضافيّةٍ عنها.

٨. **مركز الحيدري الإسلامي**. مركزه (لندن). مديره مرتضى بروانى.

٩. **المركز الإسلامي في لندن**. مديره الشيخ المُعزّي. أنشطته: إقامة دورات تعليميّة للجنسين، برامج ثقافيّة وتعليميّة وترفيهيّة، نشر الكُتُب الدينيّة، وترويج الثقافة الدينيّة، وإحياء ذكر موالد ووفيات المعصومين عليهم السلام. موقعه على الشبكة ic-el.com.

١٠. **الإسلام المُبسّط المباشر على الشبكة العالميّة**. مركزه (لندن). مديره شبير حسن علي.

١١. **الجمعيّة العالميّة الإسلاميّة**. مركزها (لندن). وتهتمّ بشؤون الإماميّة، والدفاع عن حقوقهم.

١٢. **Sakina Trust**. مركزها في (لندن). مديرها السيّد البخاري.

١٣. **الاتحاديّة العالميّة لأهل البيت** عليهم السلام. مركزها (لندن). مديرها السيد محمد الموسوي. لها غير مجال للعمل، كالتعليم والطبابة وما إليها. بالإضافة إلى التعريف بمذهب أهل البيت عليهم السلام.

١٤. **مؤسّسة الإمام علي** عليه السلام. مركزها (لندن). مديرها السيّد مرتضى الكشميري. موقعها على الشبكة najaf.org. وهي بمثابة مركز ارتباط للمرجع السيّد السيستاني في (أُوروبا) وشمال (أميركا). عملها الجواب على الاستفتاءات وغيرها ممّا يعرض لمقلديه، من قضايا عقيديّة واستفتاءات فقهيّة وما إلى ذلك.



١٥. **الفدراليّة العالميّة لجاليات الخوجه الاثنى عشريّة**. مركزها (لندن). مديرها حسنين والجي. موقعها على الشبكة world-federation.org.

١٦. **جماعة التعليم الإسلامي(دار التبليغ)**. لاذكر لمركزٍ لها في (انكلترا). وما من ذكرٍ لإدارتها ونشاطها. ويبدو من اسمها أنها تهتم بالشأن التبليغي بين المهاجرين. موقعها على الشبكة quran.org.uk.

١٧. **مجمع الإمام صاحب الزمان** عجّل الله فرجه. يُذكر وجودُ مركزٍ بهذا الاسم في (بريطانيا) دون تحديد. مديره رضا جمعه.

١٨. **رابطة أهل البيت** عليهم السلام **الإسلاميّة العالميّة**. مركزها في (لندن). وهذا كلّ ما ذُكر بشأنها.

١٩. **مؤسسة الفكر الجديد**. مركزها في (انكلترا) دون تحديد. تعمل على إعداد برامج كمبيوتريّة على موضوعاتٍ إسلاميّة، وترويجها على الأقراص المضغوطة. موقعها على الشبكة inminds.co.uk.

٢٠. مركز **الإمام الرضا** عليه السلام. مركزه في (ليفربول). يُدار من قِبَل هيئة إداريّة من عـدّة لجان:

- **الشؤون الدينيّة**. تختصّ بالإجابة على الاستفتاءات والأسئلة الفقهيّة والعقيديّة. وتنظيم الدورات التعليميّة فقهيّة وعقيديّة، وإلقاء المحاضرات بالعربيّة والانكليزيّة والفارسيّة.
- **الشؤون الاجتماعيّة**. تهتم بأُمور الأُسرات الشيعيّة، وخصوصاً بالعمل على فضّ النزاعات في نطاق الأُسرة أو بين أفراد الجالية. كم تُنظّم الندوات فيما يهمّ المسلمين على مختلف الصعدان.
- **إدارة المناسبات**. تهتم بتنظيم إحياء مختلف المناسبات والمراسم، كبرامج شهري محرم ورمضان، والمناسبات ذات العلاقة بأهل البيت عليهم السلام. بالإضافة إلى المناسبات الاجتماعيّة للجالية.
- **شؤون الشباب**. تهتمّ بمواكبة أنشطة الجيل الجديد، ابتغاء إرشادهم عند اللزوم، وحمايتهم من التأثيرات الغريبة وغير الاخلاقيّة، وإقامة المعسكرات الكشفيّة الترفيهيّة.

٢١. **مؤسّسة الزهراء** عليها السلام. مركزها في مدينة (نوتنجهام). وهي تهتمّ بإقامة الشعائر وبإحياء المناسبات الدينيّة إجمالاً، خصوصاً في شهري المحرم ورمضان، والمناسبات ذات العلاقة بأهل البيت عليهم السلام. موقعها على الشبكة azf.org.uk.

٢٢. **مركز أهل البيت الثقافي**. في (ميدلزبره). ونشاطاته الأساسيّة تنظيم محاضرات بالعربيّة والفارسيّة والانجليزيّة. بالإضافة إلى إحياء المناسبات الدينيّة.

٢٣. **مركز إدارة معارف الإسلام**. في (برمنغهام).

٢٤. **مؤسّسة رفاه العراقيين**. في (لندن). وما من معلومات عن إدارة هذه المؤسّسات.

٢٥. **جمعيّة الملّة الواحدة**. مركزها (برادفورد). مديرها رضا جمعة.

٢٦. **مركز الإمام علي** عليه السلام. في (كارديف). يديره أبو مصطفى القطيفي وأبو ثائر الصرّاف. نشاطاته

إحياء المراسم وإقامة الشعائر والمناسبات الدينيّة. ومحاضرات يوميّة، مع إفطار جماعي لأفراد الجالية العراقيّة في النصف الثاني من شهر رمضان. بالإضافة إلى برامج رياضيّة وترفيهيّة.

٢٧. **حسينيّة الشيعة الاثنى عشريّة**. في (بريستول).

٢٨. (**المنتدى العراقي**). تأسّس في (لندن) سنة ١٩٧٨. وهو منظمة عراقيّة خيريّة. تقدّم النصيحة والمعونة والخدمات المجانيّة لأفراد الجالية العراقيّة في شؤون الرعاية الاجتماعيّة، وتسهيل التأقلم مع المجتمع البريطاني. والظاهر أنه مستمر في توفير المساعدة لهم دون تمييز.

٢٩. **مؤسسة دار الإسلام**. مقرّها مدينة (مانشستر). يعنى بإحياء الشعائر والمناسبات الدينيّة.

٣٠. **مؤسسة المسلم**. مقرّها مدينة (برادفورد).

٣١. **الاتحاديّة العالميّة لأهل البيت** عليهم السلام. في (لندن). ونشاطها يتسّع لتعليم وطبابة المحتاجين من المسلمين.

٣٢. **الفدراليّة العالميّة لجاليات الخوجة الاثنى عشريّة**. في (لندن).

٣٣. **عاشوراء الحسين** عليه السلام. في (لندن).

كلُّ ذلك فيما يرجع إلى المؤسّسات التي أنشأتها الجالية العراقيّة في (انكلترا)، ابتغاء رعاية شؤون أبنائها في مهاجرهم. سقناه بوصفه مؤشّراً ضمنيّاً على أعدادهم فيها.فضلاً عن دلالته على الحسّ الذّاتوي لدى المهاجرين بعد أن انقطعوا عن أوطانهم، والخشية العميقة لديهم من أن يودي ذلك بهم إلى الانقطاع عن ثقافتهم وتاريخهم، بحيث يسهُلُ على الحضارة القويّة التي يعيشون في أكنافها أن تتمثّلهم نهائيّاً.

وتقدّر السفارة العراقيّة في (لندن) عدد العراقيين في (المملكة المتحدة) إجمالاً بما بين ٣٥٠٠٠٠ و ٤٥٠٠٠٠. منهم ١٢٥٠٠٠ في (لندن)، و٣٥٠٠٠ في (برمنغهام)، و ١٨٠٠٠ في (مانشستر)، و٨٠٠٠ في (كارديف)، و ٥٠٠٠ في مدينة (غلاسكو). وهذا مختلف بين العدد الإجمالي وتفصيله. يدلّ على أنّ التقدير ارتجالي.

وقيل أنّ منهم ثلاثة آلاف وثمانمائة طبيب في (لندن) وحدها، أمّا عدد الأطباء العراقيين المهاجرين في (المملكة المتحدة) إجمالاً فهو بحدود العشرة آلاف طبيب، أغلبهم من ذوي الاختصاص.

وقد فاز رجل الأعمال العراقي الأصل ناظم الزهاوي بمقعدٍ في البرلمان البريطاني عن حزب المحافظين.



(٣) الشيعة ومؤسّساتهم في إيرلندا

يبلغ عدد الشيعة في جمهورية (إيرلندا) زهاء العشرة آلاف حسب تقديراتٍ ترجع إلى ما قبل خمس عشرة سنة. أغلبهم من المهاجرين العراقيين الذين غادروا وطنهم في ثمانيات وتسعينات القرن الماضي، بسبب مظالم طاغية بغداد. وهم إجمالاً من ذوي الكفاءات العلميّة العالية (أطباء، مهندسون، أساتذة جامعة). مواطن

انتشارهم هناك في العاصمة (دوبلن)، وفي (كورك) و(ملتاون). حيث أنشأوا مختلف المؤسّسات الدينيّة والثقافيّة. نعرف منها:

١. **المركز الإسلامي لأهل البيت في دوبلين.** يحتوي على مسجد وحسينيّة. وهو أوّل مؤسّسة من نوعه في (إيرلندا). بدأ بتاسيسه مجموعةٌ من الطلبة الشيعة سنة ١٩٦٦م. يهتمّ بإحياء الشعائر الدينيّة في المناسبات، وتُعقد فيه الجماعة في أوقات الفرائض اليوميّة. وكان يؤمّ المصلين فيه قبل بضع سنوات العراقي الشيخ علي الصالح، وهو شابٌ جمع بين الدراسة الحوزويّة في (النجف) و(قُم)، ودراسة الطب فتخرّج من الكليّة الملكيّة للجرّاحين. وكان عضواً في مجلس الأئمة الشيعة في (إيرلندا).

٢. **حسينيّة مدينة كورك.** تُقام فيها الشعائر الدينيّة في المناسبات.

٣. **حسينيّة فاطمة** عليها السلام. في (دوبلين). يُديرها مجموعةٌ من الشباب العراقيين. وتهتم بالشعائر الدينيّة، بالإضافة إلى نشاطاتٍ تصبُّ في تعزيز العلاقة بين المهاجرين. كتنظيم الرحلات الجماعيّة، والأنشطة الرياضيّة.

٤. **جامعة أهل البيت.** في (دوبلين). وهو نفسه فيما يبدو مركز الدراسات الأكاديميّة الشيعيّة، الذي نعرف أنّه ذا اهتماماتٍ بحثيّة وفكريّة متنوعة. وقد يستدعي باحثين من ذوي الاختصاص بالشأن الاجتماعي ليُلقوا محاضراتهم في المركز.

٥. **حسينيّة أهل البيت** عليهم السلام. في (إيرلندا) دون تحديد.

وقد لوحظ في الآونة الأخيرة قدوم عددٍ من دُعاة الوهابيّة إلى (إيرلندا)، حيث بدأوا يُنظمون الدعوة إلى أفكارهم العنيفة بين الطلبة المسلمين في بعض الجامعات.

كما أنشأوا موقعاً لهم على الشبكة العالميّة. وهم يُندّدون صراحةً بالنشاط الشيعي فيها. ومنهم الداعية الكويتي المعروف بتطرّفه خالد العُتيبي. ومؤخّراً اعتقلت الشرطة مجموعةً منهم تنشط في (واترفورد) و (لايمرك).

(٤) الشيعة ومؤسساتهم في اسكتلندا

ما من معلومات عن أعداد الشيعة في (اسكتلندا). ويبدو أنه لا وجود لهم بالحجم الذي رأيناه في (انكلترا) و(إيرلندا) الشماليّة. ولهم مسجدٌ في العاصمة (أدنبره)، وثانٍ في (جلاسكو)، وثالثٌ في مدينة (دندي). بالإضافة إلى جمعيّة أهل البيت في (اسكتلندا). كان يُديرها منذ بضع سنوات الأستاذ عزّام محمد يوسف، ثم السيد عباس رضوي. وللعتبة العبّاسيّة نشاطٌ تبليغيّ بين الشيعة فيها. عن طريق تنظيم دورات ترمي إلى تثقيف المهاجرين العراقيين، خصوصاً فيما يخصّ تعليم التلاوة. كما أن المهاجرين أنفسهم يولون عنايةً تامّةً لإحياء مراسم عاشوراء في (غلاسكو).

يُذكَر أنه في السنة ٢٠٠٩م عُقد في (اسكتلندا) أوّل مؤتمر، تحت رعاية البرلمان والحكومة الاسكتلنديّة،

تمثّلت فيه جمعيّة أهل البيت عليهم السلام، تحت شعار التواصُل مع الشيعة المُقيمين في (اسكتلندا)، وتسهيل سُبُل دمجهم في المجتمع المحلّي، مقدمةً للإعتراف بالشيعة، بوصفهم أحد مكوّنات المجتمع الاسكتلندي.

الباب الثالث: ألمانيا

(١) الإسلام في ألمانيا

الإسلام في (ألمانيا) جديد العهد. دخلها عبر العلاقات الطيبة بينها وبين الامبراطوريّة العثمانيّة، التي فتحت الباب لهجرة رعاياها إلى (ألمانيا) التي كانت أوائل القرن الميلادي الماضي في عزّ نهضتها الصناعيّة، وبحاجةٍ إلى مَن يعمل في مصانعها. وحتى اليوم فإنّ الجالية التركيّة هي الأكبر فيها.

(٢) الشيعة في ألمانيا

التشيّع في ألمانيا ليس قديم العهد. فهو دخلها بعد الحرب العالمية الثانية، بهجرة عددٍ من السوريين واللبنانيين للعمل والاستقرار هناك، وكان منهم عددٌ من الشيعة.

بالإضافة إلى هجرة أعدادٍ من الشيعة الاتراك والإيرانيين، الذين أقاموا فيها، حيث كانت منهمكةً يومذاك بإعادة بناء مادمّرته الحرب.



بحسب بيانات وزارة الداخليّة الألمانيّة، التي يعود تاريخها إلى ما قبل خمس عشرة سنة، فإن عدد المسلمين الإجمالي هناك هو أربعة ملايين ونصف المليون. ٧٪ منهم شيعةٌ إماميّة، أي ما يقلّ قليلاً عن الثلاثمائة ألف. لكن الإعلامي الألماني جرهارد كونسلمان يقول في كتابٍ له اسمه الحسين الشهيد، سطوع نجم الشيعة، الذي صدر بعد بيان وزارة الداخلية بثماني سنوات، ان عددهم في ألمانيا هو في خانة مئات الأُلوف.

يُذكَر أنه قبل مدّة عملت السلطات الألمانيّة على ضمّ عشرةٍ من الشيعة لأوّل مرّة إلى عضويّة (المجلس الإسلامي الألماني). وأيضاً أن مسؤولاً في وزارة الداخليّة الألمانيّة التقى عدداً من رجالات الشيعة الألمان، حيث شكى لهم أنّ الشيعة الألمان تشيع بينهم ما سمّاه مُعاداة السّاميّة. وفي ذلك إشارةٌ غير خفيّة إلى موقفهم السياسي المُعارض للصهيونيّة وحضورها القوي في ألمانيا.

(٣) المؤسسات الشيعيّة في ألمانيا

للشيعة فيها مراكز كثيرة، تأتي بالدرجة الثانية من حيث العدد وتنوّع النشاطات بعد مثيلاتها في بريطانيا. هي:



١. **مركز ومسجد الإمام علي عليه السلام**، في (هامبورغ). وهو أوّل مركزٍ إسلامي في (أُوروبا). وقد توالى على إمامته سلسلة من العلماء الإيرانيين البارزين. وهو مركزٌ عظيم العطاء في مختلف الميادين. مازال يرفد الشيعة والمجتمع الألماني بما هو جديدٌ من الكُتُب الإسلاميّة المترجمة إلى الألمانيّة. ويعقد الندوات ويُنظّم الفعاليّات الرّامية إلى مواكبة المسلمين، وبينهم العديد من الألمان المُستبصرين، بالرأي والمعرفة والموقف.

٢. **مركز التراث**، في (برلين). وهو بإدارة المُستبصر الألماني المدعو محمد عامر. (وهوالاسم الذي اتخذه بعد أن استبصر).

٣. **مجتمع السّجّاديّة في مدينة** (فشتا) **Vechta**. وهو بإدارة السيّد مرتضى حسين. ويهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة.

٤. **مؤسّسة أُمّ البنين**، في مدينة (أسن) Essen. تُديره مجموعةٌ تُسمّي نفسها (خدَمة أمّ البنين). تهتمّ بإحياء المناسبات الحسينيّة. كما تُدير مدرسةً لتعليم اللغة العربيّة وتلقين تلاوة القرآن الكريم لأولاد المهاجرين. ولديها مكتبة لترجمة الكُتُب الفقهيّة والعقيديّة إلى الألمانيّة.

٥. **حسينيّة الإمام الهادي عليه السلام**، في مدينة (ميونخ) Munchen. لها صفحةٌ على الفيس بوك Hadi Zentrum Imam Al. يُديرها علاء الدين أبو يحيى. وتهتمّ بإقامة الصلوات جماعةً يوميّاً، وبإقامة الشعائر.

٦. **Orientalish Deutches Haus** أي حسينيّة أهل البيت، في (أوكسبورك) Augsburg. يديرها الحاج سعدون مكي والحاج غالب عبد الأمير. وتهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة، والتواصُل مع المراكز والمؤسّسات الإسلاميّة، وتُدير مدرسةً لتعليم العربيّة للأطفال.

٧. **مركز الزهراء الإسلامي**، في (لايبزك) Leipzig. يُديره الدكتور عبد الزهرا الدعمي. وتهتم بإحياء كافة المناسبات الدينيّة. ويُصدر المركز أوراق الزواج والطلاق. ويُساهم في الندوات والاجتماعات للجالية العراقيّة والشيعيّة عموماً في ألمانيا.

٨. **موكب عباس الشاكري**، في مدينة (كولن) Koln. يديره عادل المحمداوي. ويهتم بإحياء المناسبات الدينيّة، والتواصُل مع المراكز والمؤسسات الإسلاميّة والثقافيّة، وبتعليم أطفال المسلمين اللغة العربيّة.

٩. **مؤسّسة الزهراء عليها السلام الدينيّة والثقافيّة**، في مدينة (باد أُوينهاوسن) Bad Oeynhausen. يُديرها السيّد نعمة النوري. وتهتم بالشأن الديني إجمالاً، وبرعاية الشباب المسلم في منطقة عملها. والمساعدة في حلّ المشكلات الأُسريّة للجالية العراقيّة. وتلقين تلاوة القرآن الكريم للرّاغبين.

١٠. **مركز المجتبى**، في (برلين). بإدارة الحاج هاني والسيد أبو هاشم. يُعنى بإقامة الشعائر الدينيّة، والاهتمام بأُمور الجالية المسلمة في المدينة. له موقعٌ على الشبكة Almujtaba.de.

١١. **مسجد وحسينيّة الهادي Alhadi Gemeinschaft**، في مدينة (كيل)Kiel. يُديرها الحاج علي درب. يُعنى بإقامة الشعائر في المناسبات، إلى الاهتمام بأُمور الجالية الإسلاميّة في المدينة، وتعريف الألمان بالإسلام. موقعه على الشبكة alhadikiel.de

١٢. **موكب أنصار الإمام المهدي** عجل الله فرجه، في (مانهايم). يديره فراس الحوراني. يهتم بإحياء المناسبات الدينيّة في المدينة. موقعه على الشبكة ansarulmahdi_Mannheim.de.

١٣. **مؤسسة تراث أهل البيت**، في (برلين). يُديره السيد محمد النقوي.

١٤. **مركز الزهراء الإسلامي**، في (لايبزك). يديره الحاج الدكتور عبد الزهرة جبار الغرباوي. يهتم بإقامة المجالس الحسينيّة، وإصدار عقود الزواج، والمساهمة بالنشاطات الاجتماعية والخيرية في المدينة وغيرها، والمشاركة في المناسبات التي تهتم بها الجالية.

١٥. **مركز الزهراء الثقافي**، في (نورنبرغ). يديره السيد أبو حيدر. يهتم بإحياء المناسبات الدينيّة، وبتعليم أبناء الجالية العراقية اللغة العربيّة، ونشاطات نسائيّة وثقافيّة.

١٦. **مؤسسة رابطة أنصار الحسين الإسلاميّة أ في (دوسلدورف)**. يديره صفاء العبودي. تهتم بنشر الثقافة الإسلامية وبالتعريف بالصورة الحقيقية للإسلام، والاهتمام بالمستبصرين والمُهتدين الجُدُد.

١٧. **الجمعيّة الإسلامية**، في (هامبورغ). بإدارة صديقنا الدكتور علي العماري. لها نشاطٌ وحضورٌ إسلامي متنوّع.

١٨. **معهد العلوم الإنسانيّة والإسلاميّة**، في مدينة (هامبورغ). موقعه على الشبكة islamische_bildung.de.

١٩. **مركز الإمام الهادي** عليه السلام، في مدينة (هيرتن) Herten.

٢٠. **مؤسسة الطريق الإسلامي**، في (دوسلدورف).

٢١. **المركز الإسلامي العراقي**، في (برلين).

٢٢. **جمعية الزهراء** عليها السلام، في مدينة (باوس سار) Bous saar. بإدارة السيد قصيدي.

٢٣. **المركز الإسلامي**، في مدينة (مونستري) Munsteri.

٢٤. **الجمعية الثقافيّة العلوية**، في مدينة (مُلنهايم) Mulenheim.

وما من ذكرٍ لأولياء المؤسسات السبع الأخيرة، عدا الخامسة منها، ولوجوه نشاطها.

الباب الرابع: هولندا

(١) جغرافيا وتاريخ

مملكة (هولندا)، وقد تُسمى (البلاد الوطيئة) لانخفاض رُبع رقعتها عن سطح البحر. سكانها زهاء سبعة عشر مليوناً، ٥٪ منهم مسلمون، أغلبهم من الأتراك، حسب تقديرٍ يرجع إلى ربع قرنٍ خلا. وما من ريبٍ في أنّ



هذه النسبة قد ارتفعت كثيراً جداً بعد الهجرة العراقيّة والأفغانيّة الكثيفة إليها في الظروف القاسية التي أحاطت بالبلدين، ما بات القارئ على خُبرٍ به. وسنقفُ على معالم هجرتهم فيما يأتي.

(٢) الإسلام في هولندا

علاقة هولندا بالإسلام والمسلمين عريقة جداً، ترقى إلى خواتيم القرن السادس عشر للميلاد. ربما عبر استعمارها الطويل لـ (أندونيسيا) أكبردولةٍ إسلامية من حيث عدد السكان، الذي طال مدة ثلاثة قرون ونصف القرن.

ومن الإمارات الثقافيّة على علاقتها المُميّزة بالإسلام، أنّها في السنة ١٥٩٩م أسست في جامعة (ليدن) أوّل كرسي للدراسات العربيّة والإسلاميّة في (أوروبا). ثم أنشئت في المدينة نفسها أوّل مطبعةٍ عربيّة في (أُوروبا) أيضاً، اعتنت بنشر طبعاتٍ مُميّزة من حيث مستوى التحقيق لمجموعةٍ مختارةٍ من أُمهات الكُتُب بالعربيّة، ما تزال عاملةً مُنتجةً حتى اليوم. كما أنّ مكتبة جامعة (ليدن) تضمُّ أكبر مجموعة من المخطوطات العربيّة في (أُوروبا).

والمعروف أنّ الشعب الهولندي يمتاز بالتسامح الديني إجمالاً. وثمّة لكثيرون من الهولنديين الذين تحوّلوا إلى الإسلام، نتيجة الاحتكاك بالجالية الإسلاميّة الكبيرة في وطنهم، بالإضافة إلى علاقة البلد العريقة بالإسلام.

ومع ذلك ففي هولندا أصواتٌ ترتفع بين الفينة والفينة تُجاهر بعدائها الشديد للإسلام وبضيق ذَرعها بالمهاجرين المسلمين ومؤسّساتهم الكثيرة. من المُحلّلين مَن يُرجعها إلى النفوذ اليهودي البالغ هناك. لكنّ ثقافة التسامُح هي السّائدة على صعيد الأداء السياسي والاجتماعي للدولة، وعلى صعيد الشارع الهولندي.

(٣) الشيعة في هولندا

ممّا يجدر بنا ملاحظته في سياق استيفاء الكلام تحت العنوان أعلاه، أنّ علاقة التشيّع بـ (هولندا) وبذاكرة الدولة الهولنديّة لا تخلو من سوءٍ وعَداء. مَرَدّه إلى أنّ الشيعة في (أندونيسيا)، يوم كانت خاضعةً للاستعمار الهولندي، هم الذين حملوا على عواتقهم عبءَ مُقارعة المستعمرين مدةً طالت ثلاثة قرون تقريباً. وخاضوا معهم معاركَ شِداد. أودت بالتّمادي إلى تقتيل الشيعة، وتشتيت مَن بقي منهم في مجموعات صغيرة. بحيث أنّهم يوم انجلى الاستعمار عن أندونيسيا سنة ١٩٤٧م كانوا جماعةً هامشيّةً، تُعاني من الإحباط السياسي والاجتماعي. وربما لذلك لم نرَ هجرةً شيعيّةً إلى المملكة الهولنديّة من (أندونيسيا)، ومن (سورينام) خصوصاً باعتبارها مركز تجمّع للشيعة، إلا بعد مرور زُهاء نصف قرن. أي إلى أن خمدت أو تُنوسيت بمرور الزمان حالة العداء التاريخي بين الفريقين.

الطلائع الأُولى من المهاجرين الشيعة إلى (هولندا) أتت من (تركيا) في بداية ستينات القرن الماضي. ساعيةً إلى الحصول على العمل وعلى فرصةٍ لحياةٍ أفضل. هؤلاء كانوا يُحيون شعائرهم الخاصّة في بيوتهم، ويُقيمون الصلوات في مساجد إخوانهم المسلمين. ولم يكن لديهم مسجدهم الخاصّ، أو مؤسّسة دينيّةٍ تجمعهم. والقول نفسه يصحّ على مَن تبعهم من المهاجرين الشيعة الهنود والباكستانيين.

في العام ١٩٨١م قدم العاصمة (لاهاي) فقيهٌ أو زعيمٌ أو مرشدٌ ديني اسمه (الشيخ حمزة كُل علي)، يبدو من فحوى اسمه أنه إيراني أو تركي. حيث بدأ العمل على المهاجرين الشيعة، باتجاه تنظيم جهودهم وإمكاناتهم، ابتغاء تأسيس نواةٍ ثابتةٍ تجمعهم وتلمّ شملهم. وبالنتيجة وضعَ حجر الأساس لأوّل مسجدٍ للشيعة في (لاهاي). لكن يبدو أن إقامته هناك لم تطُل. فأتى بعده وتابع ماكان قد بدأه الشيخ محمد القون. وفي عهده جرى افتتاح المسجد. فكان أوّل إمامٍ شيعيّ يؤمّ مُصلّين شيعة في مسجدٍ للشيعة في عموم (هولندا). بعد ذلك أُنشئ مسجدٌ ثان للأتراك أيضاً، حملَ اسم (مسجد الأربعة عشر معصوماً)، ثم حسينيّةٌ لعموم الشيعة، أنشأها الباكستانيون والهنود سنة ١٩٩٧م سُمّيت (محفل علي). جُدّد بناؤها سنة ٢٠٠٦م.

والحقيقة أنّ أوضاع الشيعة هناك لاتنفصل عن أوضاع المسلمين إجمالاً في (هولندا). فكل إنجازٍ ينال المسلمين هناك، بفضل السياسة الحكيمة المَرِنَة التي تلتزمها الدولة الهولنديّة تجاه الأعداد الغفيرة من المهاجرين المسلمين الذين نزلوا أرضها، ينعكس على أوضاع الشيعة منهم.

واستناداً إلى آخر التقديرات فإنّ عدد المسلمين في(هولندا) فاق المليون. بمَن فيهم بضع آلاف من الهولنديين المُستبصرين. أكثر المسلمين المُقيمين عدداً هم من الأتراك، يتلوهم المغاربة والعراقيون. يأتي بعدهم بالتوالي من حيث العدد الصوماليّون والهنود والباكستانيّون والأفغان والبوسنيّون والمصريّون والأندونيسيون. أمّا نسبة السوريين فهي ضئيلة، على الرغم ممّا نزل ببلدهم في السنوات الأخيرة، فكان سبباً لتدفّق المهاجرين منهم على (أُوروبا). وكذلك اللبنانيّون وأكثرهم من المُقيمين مؤقتاً لغرض الدراسة.

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السّياق، القانونَ الإنساني الفريد الذي وضعه البرلمان الهولندي وقضى بجمع شمل المهاجرين. فسمح للآلاف من عائلاتهم بالإلتحاق بذويهم الذين سبقوهم هجرةً.كما أنّه أصدر سنة ١٩٩٠ قانوناً أتاح للمهاجرين المشاركة في الحياة السياسيّة. وذلك بأن سمح للأجانب الذين مضى على إقامتهم خمس سنوات على الأقلّ بالمُشاركة في انتخاب المجالس البلديّة بصفة منتخبين أو مرشحين. وبالنتيجة بلغ عدد المسلمين الأعضاء في المجالس البلديّة سنة ١٩٩٨م خمسةً وسبعين عضواً.

وفي السنة ١٩٩٤م بلغ عدد نوّاب البرلمان من المسلمين الذين اكتسبوا الجنسيّة الهولنديّة أربعة، من أصل مائة وخمسين نائباً. ثم ارتفع عددهم إلى سبعة بانتخابات السنة ١٩٩٨م. وهو أفضل أداءٍ سياسي إسلاميّ في الدول الغربيّة قاطبة.

والحقيقة التي يجب التنويه بها،أن تلك المُكتسبات هي ثمرةٌ يانعةٌ للقوانين الهولنديّة لاكتساب الجنسيّة. حيث الإجراءات من طبيعةٍ سهلة. تتلخّص في قضاء مدة خمس سنوات إقامةً شرعيّةً، دون ارتكاب مُخالفةٍ

كبيرةٍ للقوانين. ودون اعتبارٍ لشرط اكتساب اللغة والعمل، كما هو الحال في عامة الدول الغربيّة. بالإضافة إلى حق المُتجنّس بالاحتفاظ بجنسيّته الأصليّة. وفي ظلّ هذه القوانين الرؤوفة، التي تأخذ بعين الاعتبار الظروف الصعبة التي يضطرب فيها المهاجرون، ارتفع عدد المسلمين من حاملي الجنسيّة الهولنديّة، حتى السنة ٢٠١٤م إلى زهاء مائة وسبعين ألفاً. والعدد إلى ازدياد.

كلُّ ذلك فضلاً عن أنّ المؤسّسات الرسميّة وغير الرسميّة (مراكز تجاريّة، مدارس، جامعات... الخ) هناك لم يصدر عنها أي ما يُشير إلى ضيقها بعمل أو بانتماء المُسلمات المُحجّبات إلى المؤسّسات، شأن غيرها من الدول الغربيّة، التي افتعلت منها مشكلة، ليس وراءها في الحقيقة إلا المزاج العنصري والعصبيّة الدينيّة ـ الثقافيّة. بل بلغ التّفهُّم لخصوصيّة المرأة الهولنديّة المسلمة في هذا الشأن، أن وصل إلى حد تصميم زيٍّ خاصٍّ للواتي يعملن منهنّ في سلك الشرطة.

حسب آخر التقديرات فإن عدد الشيعة الإماميّة في (هولندا) هو بحدود مائتين وخمسين ألفاً. أي رُبع عدد المسلمين الإجمالي فيها. ويرجع الارتفاع الكبير المُفاجئ لعديدهم، إلى الانفجار الكبير لهجرة الشيعة العراقيين بمختلف الاتجاهات، بعدما بانت نوايا طاغية (بغداد) في ملاحقة واضطهاد كلّ شيعي لايؤيّد حكمه وسياساته تأييداً صريحاً لا لَبس فيه. فضلاً عن كلّ مَن هوعنده من أصلٍ إيراني، حتى وإن يكن من حاملي الجنسيّة العراقيّة.

والمُلاحَظ أنّ نسبةً عاليةً من المهاجرين العراقيين هم من ذوي الأهليّة العلميّة والكفاءة المهنيّة والإمكانات الماديّة. ومن هنا فإنّ نسبةً منهم استفادوا من إمكاناتهم الماديّة، فسارعوا إلى النجاة بأنفسهم وعائلاتهم إلى مختلف البلدان الأُوروبيّة. أمّا غيرهم فقد استقرب المَهرَب، باللجوء إلى (سوريا) أو (لبنان) أو (إيران).

(٤) المؤسسات الشيعية في هولندا

نختمُ الباب بذكر ماوصل إلينا العلمُ به من وضع الشيعة والمؤسّسات الثقافيّة والدينيّة ذوات الأثر الخاصة بالشيعة الإماميّة في مُدُن (هولندا):

بالإضافة إلى ماذكرناه من مؤسّسات دينيّة في مطلع هذا الباب، فإننا وقفنا على عددٍ من المؤسّسات التي أنشأها المهاجرون الشيعة في (هولندا)، نذكر أكثرها أهميّةً:

١. **جمعيّة الرسول الأعظم** صلى الله عليه وآله وسلم. في مدينة (دمويدن) Dmuiden. تهتمّ بإقامة مناسبات أهل البيت، وتُدير مدرسةً لتعليم اللغة العربيّة لأبناء المهاجرين، وإحياء شعائر ليلة الجمعة.

٢. **مؤسّسة الكوثر الثقافيّة**. في (لاهاي). تهتمّ بإحياء ذكر أهل البيت عليهم السلام، وبإقامة ندوات فكريّة وثقافيّة، وتتبعها لجان للإهتمام بشؤون الشيعة محليّاً. موقعها على الشبكة العالميّة alcauther.com.

٣. **البرلمان الشيعي الهولندي**. o.s.v De Overoepelende Shiitishe Vereniging في (روتردام). يلي إدارته

صديقنا الكاتب المؤرخ محمد سعيد الطريحي. تأسّس سنة ٢٠٠٤ م بالتفاهم والتنسيق مع السُلُطات الهولنديّة. ليرعى ويواكب مجموعة الجمعيّات والمؤسّسات الشيعيّة في (هولندا). وطبعاً اعترفت به الدولة. ومن ثَمّ برز على السّاحة الهولنديّة بوصفه منظّمةً شيعيّةً مستقلّة، مهتمّةً بالنشاطات الدينيّة والثقافيّة للشيعة. والبرلمان الشيعي يُعنى بإقامة دورات تأهيليّة لمعلمي القرآن الكريم واللغة العربيّة، وبالندوات النسائيّة، والدورات الرياضيّة للشباب. كما يُنظّم الاحتفالات الدينيّة لإحياء المناسبات، والتعريف بمذهب أهل البيت وبكبار مراجع الدين، في موقعه على الانترنت. وبطباعة ونشر المقالات والكرّاسات حول الشيعة. كما أن الاستاذ الطريحي يُتابع في (هولندا) إصدار مجلّته الشهيرة (المواسم).

موقع البرلمان على الشبكة العالميّة shiaparlement.com.

٤. **الجمعيّة الثقافيّة العراقيّة I.c.vDordrcht.** يديرها كفاح الحسيني. تهتمّ بإحياء مناسبات أهل البيت عليهم السلام، وبإقامة الندوات الفكريّة والثقافيّة، وبالنشاطات الاجتماعيّة. وبإقامة صلاتي المغرب والعشاء جماعةً يوميًا. وتُصدر نشرةً بمواقيت الصلاة.

٥. **جمعية اهل البيت عليهم السلام الثقافيّة Verennig Ahlal el_bait Culturelle.** مقرّها مدينة (ألمبرا). وهي تهتمّ بإدارة مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وبإقامة الندوات والمحاضرات العقائديّة، وبالاحتفالات ومراسم العزاء للمعصومين عليهم السلام. وتُصدر نشرةً فصليّةً باسم (الكلمة). وبتأسيس وفتح قناة أهل البيت التلفزيونية. والاهتمام بالمُستبصرين.

٦. **مركز الإمام المهدي عجل الله فرجه.** في هولندا دون تحديد. يديره الشيخ رشاد الانصاري.

٧. **المركز الثقافي العراقي Cultureel Centrum Irakezen nieuwegen.** مقرّه في مدينة (أوترخت). يُديره الحاج أبو محمد خلف. ويهتمّ بتعميق الوعي الإسلامي بين المهاجرين، وبالالتزام بالأحكام الشرعيّة بينهم. وبالمحافظة على الثقافة الإسلاميّة. ويدعم تعليم اللغة العربيّة والقرآن الكريم خاصةً للناشئين. ويُدير مدرسة الزهراء عليها السلام. كما يُقيم دوراتٍ صيفيّةٍ للأطفال. موقعه على الشبكة العالميّة .com.Alrisala٩٥

الباب الخامس: بلجيكا

(١) المسلمون في بلجيكا

وجود المسلمين ملحوظٌ فيها منذ بداية ستينات القرن الماضي. فابتداءً من السنة ١٩٦٤م عقدت الدولة البلجيكيّة اتفاقيّةً مع (المغرب) و(تركيا) و(تونس) و(الجزائر)، قضت بالسّماح بهجرة اليد العاملة لحاجتها



إليهم. فضلاً عمّن هاجر إليها من (باكستان) و(العراق) بمُبادرةٍ فرديّةٍ من المهاجرين. ومُذ ذاك ظلّ عدد المسلمين فيها يتزايد بالهجرة، بالإضافة إلى التكاثر السُكّاني الطبيعي. انضاف إليهم أعدادٌ كبيرةٌ من اللبنانيين، الهاربين من ويلات الحرب الأهليّة في وطنهم (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢م). وأكثر هؤلاء من الشيعة القادمين من بلدان (سهل البقاع)، وخصوصاً من مدينة (بعلبك) وجوارها. يُضافُ إليهم نسبةٌ ملحوظةٌ من بلدان (جبل عامل).

ما من إحصاءاتٍ لعدد المسلمين الإجمالي في (بلجيكا). ولكنّ تقديراتٍ تستند إلى ملاحظاتٍ شخصيّة تقول أن نسبتهم كانت أواخرَ القرن الماضي بحدود ٤٪ من مجموع السكان. يتركّزون في العاصمة (بروكسل)، حيث بلغت نسبتهم فيها ٣٩٪. أكثرهم من أُصولٍ مغاربيّة[1] يتلوهم من حيث العدد الأتراك والعراقيّون والباكستانيون والألبان والمصريون واللبنانيّون. والجميع ينتشرون أيضاً في (لييج) و(شارلروا) و(أنتويرب).

وطبعاً فإن الجميع ما أن يستقرّ بهم المقام، حتى يُبادروا حيثما حلّوا إلى الحصول بالشراء أو بغيره على مُنشآتهم الدينيّة والثقافيّة، من مساجد ومراكز وحسينيّات ومدارس ومكتبات. وفي هذا السبيل رأينا منهم من يتدبّر أمر اقتراضٍ جَماعيٍّ من أحد المصارف، يتقاسمون تسديده أقساطاً شهريّةً أو أُسبوعيّة من دخلهم المُتواضع. على حالتهم الماليّة الرّقيقة باعتبارهم عُمّالاً عاديين لا يملكون إلا قوّة عملهم. وقد لاحظنا بإعجاب، أنّ من تلك المُنشآت ما كان إنجازه ثمرة تعاونٍ إسلامي عابرٍ للمذهبيّة والمذاهب، وأن السُّنّة والشيعة كانوا يُقيمون الصلوات ويُحيون الشعائر فيها جَماعيّاً دون تمييز.

(٢) الشيعة في بلجيكا

بدأ وجود الشيعة في بلجيكا بهجراتٍ عراقيّةٍ كثيفةٍ، وأُخرى أقلّ من لبنان. وكلا الهجرتيَن حصلت بـ (فضل) اضطراب الأمن فيهما اضطراباً مديداً، وما صاحبه وترتّب عليه من صعوبة الارتزاق. والظاهر أنّ ذلك الوجود الضئيل نسبيّاً كان البذرةَ التي نمت نموّاً سريعاً، بفضل الأصداء القويّة، التي تجاوبت في العالم الإسلامي على أثر نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران). بحيث باتت البذرة على ما سنقفُ عليه بعد قليل.

لكنّ ما يُفاجئ الباحث أنّ الاستجابة في (بلجيكا) للثورة الإسلاميّة، قد حصلت في غير الوسط الشيعي الضئيل فيها حتى الآن، المُتكوّن من مهاجرين عراقيين ولبنانيين. بل في الوسط الكبير المُتكوّن من مهاجرين مغاربة. الذين عبّروا عن تأثّرهم القويّ بالثورة إلى حدّ التّماهي معها، بأن أعلنوا تحوّلهم بالآلاف من مذهبهم المالكي إلى المذهب الشيعي الإمامي. والظاهر أن هذه الظاهرة غير العاديّة قد حصلت بسبب حالة الاغتراب التي كانت تُعاني منها الجماعة المغربيّة الكبيرة في وسطٍ مُغاير. في غياب أدنى عناية تُعلي وتُنمّي ذاتيّتها، في مقابل السّطوة الحضاريّة القاهرة للوسط الذي تعيش فيه. وتمنحها القوّة على الصمود وهي تعيش في أحضانها.

وممّا يُكمل هذا التحليل، أنه ما أن تكوّنت القاعدة البشريّة لتيّارٍ شيعيّ بين المغاربة، حتى اتجهت إلى إنجاب المُثقّف المُنتمي إلى هُويّتها الجديدة/ الفقيه على المذهب الإمامي. فاتجه عددٌ من أبنائها المؤهّلين إلى (قُمّ) للدراسة في حوزتها العلميّة، حيث تلقّوا ما يكفي لتأهيلهم للتبليغ بالمقدار المطلوب. وما عتّموا أن رجعوا

سريعاً إلى مواطن نزولهم في مُغترباتهم،حيث أنشأوا بها لدى إخوانهم من إمكانيّاتٍ ذاتيّة، وربها أيضاً بمعونةٍ من الجمهوريّة، مساجد وحسينيّات، سنقفُ عليها وعلى أربابها والعاملين فيها بعد قليل.

هذا الحِراك غير المسبوق أطلق النذير بين الفئة السلفيّة المعروفة. فطفقت تُطلق النُّذُر، وتنشر المقالات والتقارير في بعض الصحف. وفيها معلومات دقيقة عن المراكز والمساجد والحسينيّات. لا نُخفي أنّنا استفدنا من بعضها في بحثنا هذا. وإن هي قدّمتها بوصفها من «آليّات التسلُّل الإيراني في المجتمعات الإسلاميّة»، عبر «تشجيعهم على زواج المُتعة الذي يُمكّنهم من الحصول على أوراق الإقامة» (!). وأنّه هو «ما مكّن الإيرانيين من تأسيس جالية شيعيّة مغربيّة في بلجيكا». ومن الواضح أن هذا التحليل السخيف يتجاهل ضمائر عشرات الألوف من المغاربة، الذين وجدوا في الثورة الإسلاميّة ما يتوقون إليه، بوصفهم مسلمين اضطرّوا إلى مغادرة وطنهم الذي ضنّ عليهم بلقمة العيش والحاة الكريمة، إلى حيث يُعانون من الاغتراب وسط مُجتمعاتٍ مُغايرة. وبالمقابل تُصوّرهم مُجرّد خاضعين لآليّاتٍ سياسيّة، لم يسبق لهم أن كان لهم أدنى علاقةٍ بها. وخاضعين أيضاً لشهواتهم الجنسيّة التي وفّرتها لهم (المُتعة).

لكنّنا نلاحظ أن الدراسات الغربيّة على الظاهرة نفسها تتصف بالموضوعيّة والابتعاد عن التّشنيع السخيف. ومن ذلك أن باحثةً بلجيكيّة اهتمّت بدراسة التشيّع في بلدها، وصفت انتشاره في بلجيكا بأنه «كُرة ثلج. ففي بروكسل هذه الظاهرة حاضرةٌ جدّاً بسبب سياق العولمة وتدفّق المعلومات بسهولة. وهناك بالفعل جيلٌ ثانٍ من الشيعة الجُدُد. ونحن نرى المزيد والمزيد من المواليد الجُدُد يُسمّى جعفر وفاطمة الزهراء».



وصلت حملة التحريض على الشيعة الجُدُد في (بلجيكا)، وما قد أورثه من احتقان، إلى درجة إقدام أحد المغاربة السّلفيين على الإحراق المُتعمّد لأكبر وأهمّ مسجد للشيعة في (بروكسل)، هو المعروف بـ (مسجد الإمام الرضا). أودى إلى وفاة إمام المسجد الشيخ عبد الله الدّحدوح يرحمه الله تعالى اختناقاً بالدخان. وذلك في شهر آذار/ مارس ٢٠١٢م.

والشيخ الدّحدوح يرحمه الله تعالى (١٩٦٥ ـ ٢٠١٢م) مغربيّ الأصل من أهل (طنجة) وممّن هاجرمنها إلى (بلجيكا). ثم كان أحد الذين نفروا إلى طلب العلم في (قُمّ). ليعود منها إلى (بروكسل) فيؤمّ المُصلّين في (مسجد الرضا)، وليُدرّس الفقه الإماميّ باللغة الفرنسيّة في المركز التابع للمسجد نفسه، بحيث غدا أشهر شخصيّةٍ شيعيّةٍ في (بلجيكا). وكان من أقواله: «نحن (يعني شيعة بلجيكا) كبُرنا هنا في بلجيكا. ولم تكُن لنا ثقافةٌ مالكيّة أو صوفيّة، كما هو الحال عليه في المغرب. صحيحٌ أنّنا كُنّا سُنّةً بالوراثة. إلا أنّه مع انتصار الثورة الإيرانيّة في بداية الثمانينات، لم يكُن أكثر المغاربة الذين تشيّعوا يعرفون أيَّ شيءٍ عن ولاية الفقيه.ومع ذلك انحازوا إلى إيران. وكان المغاربة الذين تشيّعوا بسطاء في تفكيرهم، ولم يكونوا يفقهون المذهب المالكي. وكان تشيّعهم ردَّ فعلٍ على التهميش والإقصاء والظلم». و«تشيّعتُ وعمري ٢٣ سنة. وبعد أربع سنوات ذهبتُ للدراسة بقُمّ في إيران. وهناك اطّلعتُ على الفكر الشيعي بعُمق».

وفي هذا الكلام تحليلٌ بسيط، وعن مُعايشةٍ وتجربة، للأسباب الحقيقيّة لانتشار التشيّع بين مغاربة (بلجيكا).

كان للقتلة الشنيعة للشيخ دحدوح يرحمه الله على يد طرفٍ سلفيّ، ردّة فعلٍ عنيفةٍ، جعلت من ظاهرة تشيّع المغاربة، مُقابل ردّ الفعل السّلفي الهمجي عليها، حديث وسائل الإعلام وصفاً وتحليلاً. وكانت الصلاة على جثمانه مناسبةً هائلة جمعت الشيعة من كل (بلجيكا). وأمّ المُصلين عليه صديقه ورفيق درسه الشيخ محمد الورداسي، وسط تهديداتٍ سلفيّةٍ بقتله هو أيضاً. ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه (طنجة) حيث دُفن. كما خرجت التظاهرات الحاشدة المُندّدة بالجريمة بمشاركة مواطنين بلجيكيين حياديين أحياناً. بل إنّ من التظاهرات ما خرج في دُولٍ مُجاورة. وألقي القبض على مُرتكب الجريمة رشيد البخاري ليُحاكَم، وليُحكم عليه بسبعةٍ وعشرين سنةٍ سجناً.

النتيجة أن الجريمة جعلت الشيعة موضع عطف عام. أي أن الشيخ دحدوح يرحمه الله نفع عقيدته بشهادته بمقدار، وربما أكثر، ممّا نفعها بأعماله على أهميتها.

(٣) المؤسّسات الشيعيّة في بلجيكا

ينتشرُ الشيعةُ اليوم هناك في (بروكسل) العاصمة وفي (لييج) و(شاربورو) و(أنتويروب). ولهم فيها مؤسّسات. وقفنا منها على التالية:

١. **مسجد ومركز الرضا الثقافي الإسلامي**. في (بروكسل). تأسّس سنة ١٩٩٤م. وهو أبرز مراكز الشيعة في (بلجيكا). فيه تُقام الفرائض والشعائر الدينيّة، وفيه تُنظّم المؤتمرات والدورات التبليغيّة والتعليميّة. فضلاً عن أنّه يؤدّي مهمّة مركز اجتماعي لعموم الشيعة، فيه يتعارفون ويتلاقون. ويضمُّ المركز مدرسةً لتعليم العربيّة سُمّيت (مكتبة العترة). وأوّل مَن أمّ المُصلين فيه عالمان مغربيّان من خرّيجي (قُمّ)، هما السيّد مصطفى المغربي، والشيخ عبد الله المغربي. وكلاهما من أهل (طنجه).

٢. **مركز الزهراء** عليها السلام. في (بروكسل). والظاهر أنّه من المراكز التي أنشأها المهاجرون العراقيّون لإحياء المناسبات الدينيّة.

٣. **مسجد الرحمان**. في (بروكسل)، مُشترَكٌ بين السُنّة والشيعة المغاربة. لكنّ إمامه شيعيّ سنذكره بعد قليل.

٤. **جمعيّة الهدى**. أسّسها الشيخ اللبناني عباس الكوثراني. ويبدو أنّه تخلّى عنها. فانتقلت إدارتها من بعده إلى الشيخ أسعد بلّوق رحمه الله. وهما عالمان دينيّان لبنانيّان تواليا على العمل فيها لخدمة المهاجرين اللبنانيين. لكن يبدو أن مقامهما في (بلجيكا) لم يطُلْ. وانتقلت إدارة العمل في الجمعيّة بعدهما إلى شيعةٍ أتراك.

٥. **مكتبة الإيمان**. وهي برعاية الشيخ محمد المغربي.

٦. **جمعيّة الهادي المغربيّة**. وهي تابعةٌ لإحدى المرجعيّات الدينيّة العراقيّة. ويقتصر نشاطها على إحياء المُناسبات الدينيّة.

٧. **مركز القائم**. في (بروكسل). سُجّل رسميّاً سنة ٢٠٠٤م. وهو مركزٌ ثقافي إسلامي. يهتمّ برعاية الشؤون الدينيّة للشيعة في (بلجيكا). عمل ويعمل بإشراف مُمثّل المرجع الديني السيّد الخوئي في (أُوروبا). ويُشـرفُ ميدانيّاً على نشاط المركز الشيخ محمد جواد الدمستاني. ويهتمّ بمختلف الوجوه ذات الصفة الدينيّة، من مثل عقود الزواج، والطلاق، وتجهيز الموتى ودفنهم، وطباعة ونشر الكُتُب، وما إلى ذلك.

٨. **مركز الغري**. **Al-Ghary Instituet** في مدينة (أنتويرين). تمّ افتتاحه سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨ م. ويتسع لسبعمائة شخص. تُقام فيه صلاة الجماعة ومختلف المناسبات الدينيّة. ويتضمّن مكتبة عامّةً. كما أنّ له موقع على الشبكة العالميّة. وهو بإشراف السيّد مرتضى الكشميري. ولكنّه ميدانيّاً بإدارة الشيخ محمد جواد الدمستاني والدكتور قيس الكرّام. وتابعٌ لمؤسّسة الإمام علي في (لندن). هذا المركز هو أكبر المراكز الشيعيّة في (بلجيكا) وأوسعها نشاطاً. ويتضمّن دوائر مُتعدّدة تُغطي كافة احتياجات الشيعة في الشؤون الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والتعليميّة. فدائرةٌ للشؤون الدينيّة، وثانيةٌ للإجتماعيّة، وثالثةٌ لإدارة المناسبات الدينيّة، ورابعةٌ مكتبة عامّة، وخامسةٌ مدرسة لتعليم أبناء الجالية العربيّة لغتهم. فضلاً عن موقع على الشبكة العالميّة مُختصّ بشؤون المدرسة www.alqaim.net و www.alqaim.org.

٩. **مكتبة بيروت**. في (بروكسل). ويبدو من اسمها أن مؤسّسها لبناني. ولا ذكر لوجوه نشاطها.

١٠. **حسينيّة الحسن المجتبى**. في (بروكسل). أنشأها مهاجرون عراقيّون.

١١. **مكتبة الإيمان**. وهي مُشتركة بين السُنّة والشيعة. برعاية الشيخ محمد المغربي أبو مهدي، أحد خرّيجي (قُمّ). وهو نفسه مؤسّس وإمام مسجد الرحمان الذي سبق أن ذكرناه أعلاه.

كل ذلك، بالإضافة إلى عددٍ من المساجد الشيعيّة المنتشرة في (بروكسل) العاصمة، مثل (المسجد اللبناني الباكستاني)، (الجامع العراقي)، (المسجد التركي)، (مسجد الهادي) وغيرها.

الباب السادس: إسبانيا والبرتغال

(١) جغرافيا وتاريخ

أي شبه جزيرة (إيبيريا) جنوب غرب (أُوروبا). أو ماسمّاه المسلمون (الأندلس) أثناء فترة حكمهم الطويلة لشبه الجزيرة. وقد ضممنا (البرتغال) إلى جارتها الكبرى، لأن الوجود الإسلامي عموماً ضئيلٌ فيها. وما ذكرناها بنحو الضميمة إلا لضرورة الإشارة إلى مَعْلمٍ فيها على اسم « فاتيما» Fatima.

وللمسلمين في (إسبانيا) اليومَ وجودٌ عريض. تقول آخر التقديرات غير الرسميّة أنّه بحدود المليون. ونحن نُلاحظ أنّ وجودهم فيها ليس على نحو وُجودهم في (بلجيكا) مثلاً، أي من مهاجرين بائسين، تركوا



أوطانهم في طلب الأمن أو العمل. بل منهم ذوو يسار، يستوطنون (إسبانيا) أُنساً بمناخها المتوسطيّ اللطيف. على قُربها من بلادهم. وربما أيضاً لِما فيها من معالم إسلاميّةٍ باذخة، يشعرون معها أنّهم في أرضٍ ينتمون إليها أو تنتمي إليهم. بالإضافة إلى أعدادٍ من الطلاب في جامعاتها. بعضها من ذوات السُّمعة العالميّة الطيّبة، خصوصاً في حقلَي الدراسات الإسلاميّة والطب.

ويُذكر في سياق الحديث عن المسلمين في (إسبانيا)، أنّه كان فيها حتى أمدٍ قريب قوانين قديمة، تنصُّ على مُحاربة الإسلام والمسلمين في بلادها. الأمر الذي كان يُنفّر المسلمين منها، ويحول بينهم وبين قصدها. ومن الغنيّ عن البيان أنّ هذه القوانين، التي ظلّت سارية المفعول مدة خمسمائة عام، ما هي إلا أصداءٌ بعيدةٌ لـ «حروب التحرير»، التي خاضها الإسبان والبرتغاليّون ضد حاكميهم المسلمين. إلى أن ألغتها الدولة الإسبانيّة سنة ١٩٦٧م. وعلى الأثر بدأ يظهر إلى العلن مسلمون إسبان. يُقال أنّهم ممّن كتموا إسلامهم تلك الأزمان المُتطاولة، خشية مُلاحقتهم من قِبَل محاكم التفتيش الرهيبة. طفقوا يُنظّمون أنفسهم تحت عنوان «الهيئة الإسلاميّة الإسبانيّة».

وفي السنة ١٩٩٢م أبرمت الحكومة الإسبانيّة و«الهيئة الإسلاميّة الإسبانيّة» اتفاقاً وقّعه الملك كارلوس الأوّل، نصّ على حريّة المسلمين في إسبانيا في اعتقاداتهم وشعائرهم. وبفضل هذا التطوّر الإيجابي في العلاقة بين الإسلام و (إسبانيا) قفز عدد المسلمين حتى نهاية القرن الماضي إلى مائتي ألف، على ما تقوله التقديرات الرسميّة، بين مهاجرٍ مُقيم، وبين مواطنٍ إسبانيّ. بالإضافة إلى زهاء ثلاثين ألف إسبانيّ اعتنقوا الإسلام. كما أُنشئت مساجدُ كثيرة في مُختلف المُدُن. واستناداً إلى ما ورد في صحيفة Confdencial الإسبانية، عدد ٨/ ٤/ ٢٠١٥ فإن عدد المسلمين في (إسبانيا) يتجاوز المليون ونصف المليون.

(٢) الشيعة في إسبانيا

بدأ دخول التشيّع (إسبانيا) في العقود الأخيرة من القرن الماضي. لكنه كان مُختلفاً في عناصره البشريّة عن دخول غيرهم من المسلمين من قبلهم. ذلك أنّه كان من الباكستانيين السّاعين في طلب الرزق، ومن العراقيين الهاربين من مظالم طاغية (بغداد)، ومن اللبنانيين المهاجرين بسبب أهوال الحرب الأهليّة النّاشبة في وطنهم (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢م). بالإضافة إلى طلاب إيرانيين في الجامعات الإسبانيّة. وعلى أيدي الأخيرَين أُنشئت سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٦٨م أوّلُ حسينيّة على الأرض الإسبانيّة في مدينة (غرناطة). سُمّيت باسمٍ غير مألوف هو «حسينيّة الأُمّة». قيل لأن الجالية اللبنانيّة ـ الإيرانيّة في (غرناطة) كانت تُطلقُ على نفسها اسم «الأُمّة». ومن قبلُ أُنشئ في (برشلونة) سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م مسجدٌ للشيعة حمل اسم «مسجد أهل البيت». ولسنا ندري ظرف إنشائه ومَن كان وراءه.

واليوم يوجد في (إسبانيا)، بالإضافة إلى المسجد والحسينيّة الرّائدين، المؤسّسات التالية:

١. **مأتم القائم**. في (برشلونة). والظاهر أنّه من إنشاء مهاجرين عراقيين. له صفحة على الفيس بوك بعنوان: Imam Bargahalqaim Barcelona

٢. **مؤسّسة آل البيت إسبانيا. Fundacion Ahlulbeyt (P) Espana**. في (مدريد). لها صفحة على الفيس بوك، بعنوان ahlulbeyt.org. بإدارة العراقي الحاج موسى كامل الأعسم. والظاهر أنّ هذه المؤسّسة هي آخر ما أُنشئ من مؤسسات شيعيّة في إسبانيا. جرى افتتاحها بتاريخ ٨/ ٤ / ٢٠١٥.

٣. **جمعيّة أهل البيت** عليهم السلام في مدريد. بإدار عبد الغني المعمار. تهتمّ بإحياء ليالي شهر رمضان الكريم، شهر محرم الحرام، جميع مواليد الأئمة ووفياتهم، وكلّ النشاطات الدينيّة المُتعلّقة بتاريخ التشيّع.

٤. **حسينيّة الإمام الرضا** عليه السلام في ملقة (Malaga).

٥. **مكتبة أهل البيت** عليهم السلام **الإسلاميّة**. في (اشبيلية). لها صفحةٌ على الشبكة العالمية biab.org. بإدارة المستبصر ميكائيل ألباريث رويث.

أخيراً نقول أنّنا لم نقِف على تقديرٍ لعدد الشيعة في (إسبانيا) لكنّ الصحيفة الإسبانيّة المذكورة أعلاه قالت، إن أوّل محاولاتٍ لنشر المذهب الشيعي في)إسبانيا(قد حصلت في مدينة (برشلونة) في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، على أيدي جمعيّةٍ طلابيّة مغربيّة. فلعلّها هي نفسها الجماعة التي قُلنا أعلاه أنّها أنشأت في المدينة «مسجد أهل البيت».

بالنسبة للبرتغال، فإنّ وجود المسلمين فيها ضئيلٌ، لا يتجاوز بضع آلاف. أمّا وجود الشيعة فهو معدوم. وكما قُلنا أعلاه، فإنّ السبب الوحيد الذي يدعونا لذكرها، هو القصّة العجيبة عن وجود مقامٍ في بلدةٍ صغيرةٍ من بلدانها يحمل حتى اليوم اسم Fatima.

خلاصة القصة أن في تلك البلدة مشهدٌ مقصودٌ من الزائرين. يرجع تاريخه إلى السنة ١٩١٦م. حيث كان ثلاثةٌ من الأولاد يلعبون في منطقةٍ خلويّةٍ من البلدة أو بجوارها. وإذا بملاكٍ يظهر لهم، ويُخاطبهم بكلامٍ لطيف قبل أن يختفي. ثم أنّهم رأوها من بعد مرتين. آخرها في شهر أيّار / ماي من السنة التالية، حيث قال لهم: «لا تخافوا! أنا لا أُريد إخافتكم». فسألوه: «مَن أنت؟» فأجاب: «أنا فاطمة بنت الرسول»... إلى آخر القصّة.

بعد انتشار الخبر وتكرار ظهور (الملاك)، وفي إحدى المرّات بمشهدٍ من عددٍ غفيرٍ من الناس، عمد أهلُ البلدة إلى بناء مشهد حيث ظهرت لهم. أعادوا تجديده بعد إحراقه من بعض مَن لم تُجبهم ملابسات بنائه. إلى أن بُني بناءً مُهيباً بعد أن اعترفت به الكنيسة سنة ١٩٤٠م. وفي السنة ١٩٥٢م أُقيمت فيه مراسمُ خاصة. ثم في السنة التالية أعلنت الدولة البرتغاليّة اعترافها به. ومُذ ذاك غدا يوم ١٣ أيار/ ماي من كل عام موسماً خاصاً لزيارته، يقصده الزائرون من أنحاء البرتغال. كما سُمّيت البلدة باسم Fatima وما تزال. ثم أن الناس في البلدة وجوارها طفقوا يُسمّون بعض المواليد من بناتهم باسم Fatima.

من المؤكّد أنّ قسماً من القصة صحيحٌ بلا ريب. من تكرار بناء المقام، إلى اعتراف الكنيسة فالدولة به ، إلى اعتبار المقام مزاراً صحيحاً للقاصدين، وُصولاً إلى إقبال الناس من المُحيط وخارجه على زيارته، كما لايزالون.

لكنّ ما هو أبعدُ من القصّة على كلّ حال، أن اسم فاطمة ليس من الأسماء المعروفة في الغرب كلّه بين غير المسلمين منهم، كي يُقال إن القصّة مُختَلَقَةٌ من الأساس جملةً وتفصيلا. والمسيحيّة ليست فقيرةً بالرموز لكي



تلجأ إلى استعارة رمزٍ إسلامي. خصوصاً وأنّ الذّاكرة المحلّيّة، حيث وُلدت القصّة وشاعت، لايُكنُّ للإسلام وأهله ولكل ما يتصل به، ومنه طبعاً الاسماء الإسلاميّة، إلا أسوأ انطباع. يرجع إلى أيّام المعارك الشّداد مع المسلمين في نهاية حكمهم، وما تلاه من تحريضٍ دينيٍّ عليهم، ومُلاحقةٍ شديدةٍ لكلِّ مَن بقي منهم.

من هنا نقول، إنّ من المؤكّد أنّ الحدّ الأدنى المقبول من القصّة إجمالاً، أنّ الموقع واسمَه ذو أساسٍ إسلاميّ. أمّا التفصيل فعلمه عند علاّم الغيوب. وعلى كلّ حال، فليس هذا أوّل معلم دينيّ بقي من حقبةٍ سابقةٍ مُغايرةٍ دينيّاً، لكنّه بدّل قناعه ليتناسب مع الوجه الجديد.

الباب السابع: إيطاليا

(١) جغرافيا وتاريخ

الجمهوريّة الإيطاليّة شبه جزيرةٍ في جنوب (أُوروبا)، بالإضافة إلى جزيرتي (صقليّة) و(سردينيا)، وعددٍ من الجُزُر الصغيرة في البحرين الأدرياتيكي والتيراني، وجمهوريّة (سان مارينو) الصغيرة المستقلّة. سكانها بحدود الستين مليوناً.

علاقة التشيّع الإسماعيلي خصوصاً بجنوب (إيطاليا) مُزمنة. ففيه قامت في القرن ٥ هـ/ ١١م مملكة الصقليّتيَن، التي ضمّت جنوب (إيطاليا) وجزيرتي (صقلّيّة) و(سردينيا). حيث كانت تُقام شعيرتا الغدير وعاشورا. ومنها القائد الفاطمي الشهير جوهر الصِّقلّي.

(٢) الشيعة في إيطاليا

أغلب الشيعة في (إيطاليا) من المهاجرين إليها من (لبنان) و(المغرب). ويُقدّر عدد اللبنانيين منهم بالمئات. أمّا عموم الشيعة فبخمسة إلى عشرة آلاف. أغلب اللبنانيين يُقيمون في مدينة (كومو) الشماليّة ونطاقها. وهم من بلدات (عنقون)و(كونين)و(قانا) العامليّة و(أفقا) و(علمات) من قضاء (جُبيل) في (جبل لبنان)، ومن (بعلبك) و(مقنة) البقاعيّتيَن، و(الغبيري) في الضاحية الجنوبيّة لـ (بيروت). وينتسبون إلى أُسراتٍ معروفة: الخنسا، المولى، يونس، خير الدين، منذر، شقير، بلوط، سرحان. أمّا سبب الأساسي والأغلب لوجودهم حيث هم فهو أساساً الدراسة. ولكنّهم بعد أن يُتمّوا دراستهم يستقرّون في (إيطاليا)، لتوفّر فُرَص العمل هناك بنحوٍ أفضل من وطنهم. ومنهم أعدادٌ من المهندسين والأطباء وغيرهم من ذوي الكفاءات العالية. ومنهم أيضاً أعدادٌ تركوا وطنهم بسبب الحرب الأهليّة التي طالت زُهاء خمس عشرة سنة. هؤلاء يعملون في تجارة السيّارات أو إدارة المطاعم التي تُقدّم الأطعمة اللبنانيّة المرغوبة.

يُذكر أنّ الجالية اللبنانيّة الشيعيّة في (إيطاليا) مُتعاونةٌ بنحوٍ جيّد. كما أنّها بذلت العون لإخوانهم من المهاجرين الجُدُد الذين انهالوا على أنحاء (إيطاليا) إبّان الحرب الأهليّة، قاصدين التسلُّل منها إلى العُمق الأُوروبي في (سويسرا) و (ألمانيا) وغيرها من البلدان الأُوروبيّة المجاورة. لكنّهم آثروا البقاء حيث هم، إمّا لفشلهم في عبور الحدود باتجاه البلد الذي يقصدونه ، وإمّا بتأثير العون السّخيّ الذي تلقّوه من إخوانهم. ومع الوقت اكتسب الجميع الجنسيّة الإيطاليّة، مُستفيدين من الشروط القانونيّة السّهلة نسبيّاً.

لكن يُذكر أيضاً أن أفراد هذه الجالية أولوا اهتمامهم لشؤونهم المعاشيّة، ولم تُبدِ أدنى اهتمام بإنشاء مؤسّسات دينيّة وثقافيّة، شأن إخوانهم العراقيين حيثما حلّوا في المُغتَرَبات. المحاولة الوحيدة في هذا، أنه أثناء السنة ٢٠٠ م أنشأ المهاجرون من (قانا) (جمعيّة قانا الثقافيّة). لكنّهم سرعان ما ألغوها على أثر تفجير المركز التجاري في (نيويورك) في السنة التالية. في جو التحريض الأميركي العالمي على المؤسّسات ذات الصِّفة الإسلاميّة.

(٣) المؤسّسات الشيعيّة في إيطاليا

١. **حسينيّة العزيزة.** في (نابولي). وهي أقدم حسينيّة في (إيطاليا).

٢. **حسينيّة الإدريسي في** (بريشيا). ولم يتيسّر لنا الحصول على معلومات عمّن كان وراء إنشائها. ويبدو لنا من اسميها أنها باهتمام شيعةٍ مغاربة.

٣. **جمعيّة الإمام المهدي الإسلامية.** Association Islamica Imam Mahdi في روما. كان يرأسها سنة ٢٠٠٠م الشيخ عباس دي بالما. وهو من المستبصرين الإيطاليين. والحسينيّة هي الوحيدة المُسجّلة رسميّاً في (إيطاليا). لها موقعٌ على الشبكة العالميّة Islmshia.org.

٤. **مؤسّسة أهل البيت** عليهم السلام **الإسلاميّة.** Ahl_al_bait Associazione lalamica. في نابولي. لها موقعٌ على الشبكة العالميّة Shia_islam.org.

(٤) اغتيالُ شيعيّ إيطاليّ بارز

بتاريخ ١٥/ ١١/ ٢٠٠٠م اهتزّت (إيطاليا) لنبأ العثور على ادواردو الليني Eduardo Elliny جثةً هامدةً مُضرّجةً بالدماء تحت جسر (سافينو) في مدينة (تورينو) الإيطاليّة.

وادواردو ابن أُسرة الليني الإيطاليّة البالغة الثّراء. التي تملك عدداً من أكبر الشركات في (إيطاليا). منها شركتي فيات وفيرّاري للسيارات، ونادي يوفنتوس الرياضي الشهير، إلى جانب عددٍ من أشهر الصُحُف الإيطاليّة، من مثل صحيفة La stampa وصحيفة Corriere dello sport. فضلاً عن مجموعةٍ من الشركات القابضة.

ولقد بقي سرُّ اغتيال ادواردو لغزاً لم يُكشف عنه الستار. بل ولم يُعرف أنّ السُلطات الأمنيّة الإيطاليّة قد بذلت جُهداً صادقاً، يؤدّي إلى كشف الجهة أو الشخص الذي ارتكب الجريمة، بحقّ ابن أحد أهمّ الأسرات الإيطالية. ممّا يدلُّ على الأمر كان أكبر من أن يُترَكَ للخائضين. وأنّ الجميع، بمَن فيهم أُسرته، آثروا الصمت مُكرَهين.

والثابتُ أن الشهيد إدواردو قصد، يوم كان في العشرين من العمر، جامعة (برنستون) الأميركيّة، ذات السُّمعة الطيّبة في الدراسات الشرقيّة، لدراسة الديانات والفلسفات الشرقيّة، حيث نال درجة الدكتوراه. ممّا يدلُّ على أنّه كان مسكوناً بأشواقٍ معرفيّةٍ، وأن الثروة الطائلة لم تُغره بالركون إلى ما هو طوع يده من ملذّات.

بالنتيجة أعلن اعتناقه الإسلام، واتخذ لنفسه اسم (مهدي). وأثناء العشرين سنة التالية من عمره، ساهم مُساهمةً فعّالةً في (الرابطة الإسلاميّة لمسلمي إيطاليا). ثم زار (إيران) حيث قابل عدداً من المسؤولين، الذين رحّبوا بابن كبير أرباب الشركات الإيطاليّة.

لكنّ ما أوصل الأُمور إلى حدّ تدبير اغتياله هو، فيما تدلّنا عليه الدّلائل، ما صرّح به لأحد أصدقائه الإيرانيين حسين عبد اللهي ، قُبيل شهادته بفترةٍ وجيزة، أنّه عازمٌ على الانصراف إلى الدّراسة في (قُمّ). الأمر الذي إن حصل، وغدا ابن الأُسرة القويّة عالمَ دين شيعيّاً عاملاً، بما لأُسرته من موقع سياسي واقتصادي، وبما تحت يده من إمكانات ماليّة. لكان ضربةً معنويّةً وعملانيّةً تُصيبُ أكثر من جهة.

منها الهيئات المسيحيّة القويّة في عاصمة الكثلكة، والوهّابيون الذين كانت لهم مُمثّليّة عاملة في (روما)، والتنظيم اليهودي العالمي. وما من ريبٍ في أنّ كلاً منهم خشي مغبّة ماكان الرجل متوجهاً إليه. والله أعلم مَن كان من هؤلاء السبّاقَ إلى اغتياله يرحمه الله برحمته الواسعة.

الباب الثامن: السويد

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (مملكة السويد). وقد تُسمّى أيضاً بـ (أسوج). إحدى الدول الاسكندينافيّة في شمال (أوروبا). سكانها زهاء العشرة ملايين. الكثافة السكانيّة فيها ٦٢٠/ كم٢. قوانين الهجرة إليها واكتساب الجنسيّة سهلة، لحاجة سوق العمل فيها إلى الأيدي العاملة، خصوصاً من ذوي الخبرة والمهارة. بسبب هجرة ثلث سكانها بين السنتين ١٨٢٠ ـ ١٨٣٠ م إلى (أميركا الشماليّة). وهناك اليوم في (الولايات المتحدة) ٤،٤ مليون سويدي أميركي.

علاقة الإسلام بالسويد حديثة ترجع إلى السنة ١٩٤٩م، حيث هاجرت إليها مجموعةٌ من التتار المسلمين من (فنلندا). وفي ستينات القرن الماضي بدأت تستقبل المهاجرين من (البلقان) و(تركيا) و(شمال أفريقيا) و(الشرق الأوسط). ما رفع عدد المسلمين فيها إلى ٦٠٠،٠٠٠ نسمة. وفي السنة ٢٠١٦ م بلغت نسبة المسلمين فيها ٨٪ من مجموع السكان، أي ٨٠٠،٠٠٠.

حسب إحصاء سنة ٢٠٠٧ م الرسميّة بلغ عدد المهاجرين العراقيين فيها، ١٠٩،٤٤٦ والإيرانيين ٣٥٧، ٦٦ ومن (البوسنة والهرسك) ٥٥٠،٩٦ ومن اللبنانيين ٢٩١،٢٣. والظاهر أنّ هذا الإحصاء لم يشمل المهاجرين إليها من (تركيا) و(شمال أفريقيا) و(باكستان) و(سوريّا) و(أفغانستان)، لسببٍ غير معلوم.

(٢) الشيعة في السويد

أوّلُ هجرةٍ كبيرةٍ من الشيعة إلى (السويد) هي هجرة الخوجة الإمامية من (أُوغنده) في بداية سبعينات القرن الماضي. على أثر أن طردهم عيدي أمين منها. فاتجهوا بنحوٍ جَماعيّ إلى (السويد). وكان عددهم زهاء ألفي شخص، غالبيّتهم من التجار والمُتموّلين. والمعروف أنّ هذه الجماعة متعاونة حسنة التنظيم، يعملُ أكثر أفرادها في التجارة. لذا أحسنت السويد استقبالهم، لِما لديهم من إمكانات ماديّة وسُمعةٍ طيّبة. ليستقرّوا في مدينتَي (ترولهاتان) و(ماريا ستاد) وشمال العاصمة (استوكهولم) في (ميشتا). حيث أنشأوا جمعيّاتٍ في مختلف مناطق إقامتهم، ابتغاء تنظيم أعمالهم المعنويّة. التحقت بـ(رابطة الجمعيّات الإسلاميّة في السويد)، وهي رابطة تجمع جمعيّاتٍ إسلاميّة غير شيعيّة، آثروا الانتماء إليها مؤقّتاً، على الرغم من وجود (الاتحاد الشيعي في السويد)، لأن تلك الرابطة أكثر عراقةً، فضلاً عن أنّ لها مَن يُمثّلها في الإدارة المركزيّة، خلافاً للإتحاد الشيعي الحديث العهد.

في العام ١٩٨٦م أنشأوا جمعيّتهم (الجمعيّة الإسلاميّة الشيعيّة) في (ترولهاتان) أوّل مسجدٍ شيعيّ في (السويد). فجاء بهندسةٍ إسلاميّةٍ جميلة. تُزيّنه منارتان سامقتان وقبّةٌ مُذهّبة. ثنّت عليه بتأسيس (مركز الزّينبيّة). الذي كان من أهمّ نشاطاته نشرُ الكُتُب الإسلاميّة المُبسّطة باللغة السويديّة، وإحياء الشعائر والمناسبات الشيعيّة.

على أثر وبسبب المسلسل العاثر الذي ارتكبه طاغية (بغداد)، بدءً من شنّ الحرب على (إيران) التي طالت مدة ثماني سنوات، فاحتلاله (الكويت)، فضربه الانتفاضات الشيعيّة في جنوب (العراق) (الانتفاضة الشعبانيّة)، وذروته الاحتلال الأميركي لـ (العراق)، على الأثر وأثناءها بدأ العراقيّون الشيعة يتدفّقون بالآلاف إلى (السويد)، للإفادة من تسهيلات الهجرة إليها. خصوصاً وأنّ الكثيرين منهم كانوا من ذوي الكفايات العلميّة أوالملاءة الماليّة (أطباء، مهندسون، رجال أعمال... الخ). وكانت طليعتهم من الذين خرجوا من بلدانهم في (العراق)، هائمين على وجوههم في البادية، بعد أن ضاقت عليهم أوطانهم الخاضعة لنزوات طاغية (بغداد) الدّمويّة، فكان أن تجمّعوا في مُخيّم (رفحاء) على الأرض السعوديّة، ومنه جرى ترحيلهم إلى

أنحاء (أُوروبا). حيث فازت (السويد) بالعدد الأكبر منهم. وحيث استقرّت مائةٌ وخمسون عائلة منهم في مدينة (كريستيان إستاد) Kristianistad السويديّة.

واليوم فإنّ الجاليات الشيعيّة على الأرض السويديّة قد أتت من (العراق) أكثر ما كان. ثم من (إيران) بالدرجة الثانية من حيث العدد، ثم بأعدادٍ أدنى من (سوريّا) و (لبنان) و (أفغانستان) و (باكستان) و (شمال أفريقيا و (البلقان). ويُذكَرُ أنّ الجالية العراقيّة هي من العرب والأكراد الفيليّة والتركمان، ولكنهم جميعاً من الشيعة.

(٣) المراكز والمؤسّسات الشيعيّة في السويد

يوجد اليوم عشرات المراكز والجمعيّات والمساجد والحسينيّات في شمال وجنوب (السويد). ينتشر أكثرها في العاصمة (استوكهولم)، بالإضافة إلى المُدُن السويديّة الكبرى. ففي العاصمة أكثر من ستة مؤسّسات ومراكز شيعيّة كبيرة وصغيرة، لها نشاطات دينيّة وثقافيّة وخدماتيّة. منها ماالتحقت بـ (رابطة الجمعيّات الإسلاميّة بالسويد)، ومنها ما التحقت بـ (باتحاد مسلمي السويد)، بينما أسّست أُخرى اتحاداً إسلاميّاً شيعيّاً. اعترفت به الدولة السويديّة سنة ٢٠٠٩ م. الأمر الجامع بينها رعاية الشؤون الدينيّة والثقافيّة والخدماتيّة حيثما حلّوا في (السويد). نذكرُ منها:

١. **مركز الإمام علي الإسلامي Imam Ali Islamic Center**. في (استوكهولم). تأسّس سنة ١٩٧٧م. يهتمّ بـ:

- إقامة احتفالات ومؤتمرات اسلاميّة ثقافيّة باللغات العربيّة والفارسيّة والسويديّة.
- توثيق الصّلة مع المراكز والمؤسسات السويديّة، ابتغاء تعزيز الترابط بينها وبين المسلمين في (السويد).
- إجراء عقود الزواج، وتنظيم الاحتفال بالزواج، وإيقاع الطلاق، وإصدار الوثائق المُتعلّقة بالحالتيَن.
- تنظيم برامج تعليميّة وتربويّة وترفيهيّة مُخصّصة للأطفال، يومي السبت والأحد من كل أُسبوع. الاهتمام بدفن أمواتهم وفق الشريعة.

٢. **جمعيّة نور الهدى الإسلاميّة. Noor Al-Huda Islamiska Forening** في (ترولهتن)، بإدارة عبد اللطيف حسن. أهدافها:

- إحياء المناسبات الإسلاميّة.
- النشاطات الأدبيّة والفنّيّة والثقافيّة والرياضيّة للجنسيَن.
- تعليم اللغة العربيّة للناشئين، ولمَن يرغب من الكبار.
- تنظيم دورات لتدريس اللغتيَن الانكليزيّة والسويديّة، واستعمال الحاسوب.

- تعزيز اندماج المهاجرين بالمجتمع السويدي.
- مختلف النشاطات النسائيّة، وتنظيم أسفار ترفيهيّة.

٣. **حسينيّة الحوراء زينب** عليها السلام . **Husseinia Al-Hauraa Zainab** في (فيستيروس) **Vasteras**. بإدارة الحاج حسين قاسم الخفّاف. تهتمّ بإقامة الشعائر الحسينيّة. موقعها على الشبكة العالميّة **yazainab.net**.

٤. **الجمعيّة الشيعيّة في مدينة مالمو -السويد. The Shia Society in Malmo Sweden** وهي بإدارة أبو ترتيل السماوي. تهتمّ بإقامة المناسبات الدينيّة وفروض الصلوات اليوميّة، وإجراء عقود الزواج، ورعاية الشباب بما فيه إنشاء فرقة رياضيّة.

٥. **جمعيّة الإمام الحسين** عليه السلام **Al-hussein Culture Society** في مدينة (مالمو) **Malmo**. بإدارة الشيخ علي أبو طيو. تهتمّ بإقامة الشعائر، ورعاية الشباب والاعتناء بالأطفال من الأسرات العراقيّة المهاجرة.

٦. **جمعيّة الإمام الهادي الثقافيّة. Alhady Kulturforening**. مقرّها مدينة (كريستيانإستاد) **Kristianistad**. تأسّست سنة ١٩٩٩م على يد مجموعةٍ من العراقيين من اللاجئين الأوائل إلى (السويد). وهي بإدارة سالم رمضان. تهتمّ بتعليم العراقيين المُقيمين في (السويد) وبتثقيفهم عن طريق تنظيم محاضرات وما إليها مع اهتمامٍ خاصٍ بالأطفال.

كما تذكر بعض المصادر أنهم أنشأوا في المدينة نفسها جمعيتَين باسم جمعيّة الوحدة الإسلاميّة و جمعيّة الإمام الحسن المجتبى. لم يطُل بهما العهد.

٧. **دورة الرسول الأكرم للقرآن الكريم.Al Rasoul Al Akram of The Quran** في (لينشوبنك) Linkoping بإدارة الحافظ محمد العامري. تهتم بـ:
- بتلقين الأولاد دون العشرين الأحكام والتلاوة حفظاً وتفسيراً.
- بإحياء المناسبات والشعائر الدينيّة.
- بتعليم الناشئة اللغة العربيّة.

٨. **مؤسّسة المُنتظَر Association Al-Montazar**. في مدينة (مالمو). بإدارة أبو حيدر الكاظمي. وهي مؤسّسة تابعة لمركز الارتباط للمرجع السيّد السيستاني في (لندن). وتولي الاهتمام لـ:
- تعليم الناشئة الأحكام والتلاوة واللغة العربيّة.
- تنظيم الندوات التثقيفيّة للجالية العراقيّة.
- تأسيس مكتبة عامّة ونادٍ رياضي للشباب.
- إصدار مجلّة فصليّة.
-

٩. **مجمع أهل البيت عليهم السلام Association of The Islamic unity** في (استوكهولم). وهو يُعنى بـ:

- إقامة الشعائر الدينيّة طيلة السنة.
- عقد الندوات والمؤتمرات للتعريف بالإسلام ومعالم الدين.
- نشر وتيسير الكُتُب الإسلاميّة للقارئين.
- تأليف وترجمة الكُتُب الإسلاميّة لتيسير المعرفة للجالية، باللغة السويديّة وبلغاتٍ أُوروبيّة ضمن دائرة نشاط المجمع.
- تنظيم المُخيّمات العائليّة والطُلاّبيّة والدورات الرياضيّة والأعمال الترفيهيّة في فصل الصيف وأثناء العطلات. ابتغاء تعزيز الأواصر بين الجاليات الإسلاميّة المنتشرة في أنحاء (أُوروبا). وبالخصوص بين أئمة المساجد.
- الاعتناء بتوطيد العلاقة بين الشخصيّات والمؤسسات الثقافيّة والعلميّة.

١٠. **مركز الزينبيّة الإسلامي. Zanabiya Islamic Center**. في (استوكهولم). بإدارة محمد راي.

١١. **المكتبة الإسلاميّة الثقافيّة**. في (مالمو) جنوب (السويد) بإدارة حيدر الحلّي. من أهمّ نشاطاتها:

- طبع الكُتُب والكرّاسات الدينيّة.
- إحياء المناسبات الإسلاميّة.
- مواجهة الفِرق المنحرفة كالأحمدية والوهابيّة.
- تيسير أعارة الكُتُب والأفلام.

١٢. **حسينيّة سيّد الشهداء**. تأسّست سنة ٢٠٠٥ م في مدينة (غوتنبرغ Gutenberg)، وحصلت على الرخصة الرسميّة من الدولة السويديّة. وهي تستضيف علماء وخطباء من أنحاء (أُوروبـا) ومن خارجها، في المناسبات الدينيّة، خاصة في شهري محرم ورمضان ومواليد ووفيات الأئمة عليهم السلام.

١٣. **اتحاد الشيعة في السويد**. Iss. تأسّس عام ١٩٨٩م. يضمّ زهاء ١٤ جمعيّة شيعيّة. على رأسها (جمعيّة الوحدة الإسلاميّة) في (استوكهولم). وأنشات مبنىً ضخماً مساحته ٢٣٠٠ م٢، يضمّ قاعةً للصلاة تتسع لألف شخص. وتستقبل حوالي ٨٩ طفلاً في مدرسةً مُخصّصةٍ لتعليم اللغة العربيّة. كما يُقدّم المعونة لآلاف العائلات المحتاجة في مختلف أنحاء (السويد)، من أُصولٍ لبنانيّة وعراقيّة وإيرانيّة. يبلغ عددها حسب تقريرٍ رفعته إلى الدولة السويديّة حوالي خمسة آلاف عائلة، ٧٠٪ بالمائة منها من أُصولٍ عراقيّة. ومع ذلك فإنّ الدولة السويديّة ومجلس التعاون الإسلامي لم يعترفا بالاتحاد، ولم يتلقّ أي دعمٍ مالي من الحكومة. وهو يعتمد في مصادر تمويله على تبرعات التجار والاعضاء وبعض المساعدات الخارجيّة.

١٤. **المركز الإسلامي الشيعي**. في (مالمو). بإشراف عمران الياسري والدكتور علي السّبتي. يتبعه مسجدٌ

كبيرٌ للنساء. وهو يُقدّم برامج متنوّعة، منها تعليم الأحكام الشرعيّة، تعليم اللغة الانكليزيّة، وإحياء المناسبات الدينيّة في أوقاتها.

ويؤخذ من بعض المصادر أن المهاجرين العراقيين أنشأوا في مدينة غوتنبيرج Gutenberg مركزَين آخرَين، بالإضافة إلى حسينيّة سيّد الشهداء التي ذكرناها أعلاه برقم١٢،هما مركز الولاءومركز النور،لم نقع على ذكرٍ لهما. فالظاهر أنّهما لم يطُل بهما العهد،وانصرف الاهتمام إلى الحسينيّة.

وممّا يجدر بنا ذكره في ختام هذا التقرير، أن أكثر وأهمّ معلوماتنا عن أوضاع الشيعة ومؤسّساتهم في (السويد)، قد أخذناها من مصادر وهّابيّة، جرى جمعها ابتغاء رفعها إلى أربابها. لأن أرباب مؤسساتنا إجمالاً لايولون الاهتمام الكافي للشأن الإعلامي من وجوه نشاطاتهم، على الرغم من أهميّته القصوى.

ونحن إنّما أثبتنا من هذه المعلومات هنا ماثبت لدينا تأييده من مصادر أُخرى موثوقة أو مقبولة على الأقلّ. ما يدلُّ على أنّ هذه الجماعة لاتنفكّ عن تتبُّع أحوال الشيعة في العالم ابتغاء الكيد لهم ما استطاعت، حتى في السلوكيّات البريئة التي لاتعود عليها بأي ضرر. بل ونظنّ أن امتناع الحكومة السويديّة عن الاعتراف بـ «اتحاد الشيعة بالسويد» هو نتيجة ضغوطٍ عليها من هؤلاء. وإلا فإن من الثابت أن ليس من طبع وسياسات الحكومات الغربيّة أن تعرقل نشاطاً خيريّاً بريئاً على أرضها. بل هو يدخل في صميم أولويّة وقدسيّة مفهوم الحريّة لديها.



الباب التاسع: سويسرا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّا (الاتحاد السويسري)، لأنّها نشات نتيجة اتحاد بين مكوّناتها، فأتت بلداً متعدّد الأعراق والثقافات واللغات. ومع ذلك فإنّها من أكثر البلدان استقراراً وسلاماً. بالإضافة إلى جمال مناظرها الطبيعيّة. عدد سكانها أكثر قليلاً من مليونين.

(٢) الشيعة في سويسرا

عامّة الشيعة فيها من المهاجرين العراقيين، الذين هاجروا من بلدهم في الظروف التي باتت معروفةً لدى القارئ. وما من ذكر لعديدهم فيها.

لكنّهم، كما يفعلون حيثما حلّوا، أنشأوا فيها عدداً من المراكز الدينيّة. أهمّها:

١. **هيئة الإمام المهدي** عجّل الله فرجه. في (فيفيه)، كانتون (فود) Vevey / canton vaud. بإدارة أسعد الموسوي.

تهتمّ بإحياء أمر أهل البيت ونشر تعاليمهم، وتقديم خدمات اجتماعيّة وشرعيّة للمهاجرين العراقيين: مجالس الاعراس والوفيات، إجراء عقود الزواج، تجهيز أموانهم ودفنهم.

٢. **المركز الثقافي الإسلامي لأهل البيت** عليهم السلام. **Culturelle Fondation Islamique dÀhlel el beit** في (جنيف). تهتم بإقامة صلاة الجمعة والجماعة، وإحياء المناسبات والشعائر. لها موقعٌ على الشبكة العالميّة 12imam.ch.

٣. **حسينية الإمام المهدي لخدمة أهل البيت** عليهم السلام. في (زيوريخ). بإدارة السيد صالح آل فائز. تهتم بالتعريف بمذهب وشيعة أهل البيت عليهم السلام. لها موقعٌ على الشبكة العالميّة Almahdi.com.

٤. **المركز الإسلامي العراقي في سويسرا. The Iraqi Islamic Center in Switzerland** في (زيوريخ). بإدارة قاسم الكوفي. يهتمّ بتعليم اللغة العربيّة لأبناء الجالية العراقيّة في (سويسرا)، وإقامة الشعائر الحسينيّة والدينيّة والمناسبات الوطنيّة. له موقعٌ على الشبكة العالميّة iq_ch.com.

٥. **مؤسّسة البيت المسلم لحقوق الانسان. The Muslim Home for Human Rights** في (جنيف). بإدارة محمود اللواساني. وهي، حسب برنامجها المُعلَن من قِبلها «منظمة عالميّة غير حكوميّة، تهتمّ بحقوق الانسان. لها نشرةٌ دوريّةٌ باسـم الميزان في معرفة حقوق الانسان».

٦. **مركز الإمام الحسين** عليه السلام. في (زيوريخ). بإدارة السيّد فلاح الموسوي.

٧. **المنظمة الإسلامية العالميّة لحقوق الانسان للدفاع عن الإماميّة. O.I.I.D.H.I.** مقرّها في (جنيف). بإدارة د. صلاح الخطيب. وهي، حسب البرنامج المُعلَن من قِبَلها «منظمة إسلامية مستقلة عن الجهات السياسية والعرقية والاقليمية. تعملُ على رفع الحيف والظلم والاضطهاد عن هذه الطائفة، وكشف المغالطات والتهم والمؤامرات التي تُحاك ضد المذهب، ابراز الحقيقة للجميع من خلال التقارير والوثائق التي تنشر، واصدار نشرة دورية باسم «إمامية»».

الباب العاشر: فنلندا

رسميّاً (جمهوريّة فنلندا). من البلدان الاسكندينافيّة شمال (أوروبا). تتكوّن من آلاف الجُزُر والبُحيرات. عدد سكانها حاليّاً يزيد قليلاً على الخمسة ملايين. وما من إحصاءٍ أو تقدير لعدد المسلمين الإجمالي فيها.

(١) الشيعة في فنلنداومؤسساتهم

أمّا عدد الشيعة فيها هو، حسب تقديراتٍ ترجع إلى السنة ١٩٩٣م، بحدود ستة آلاف. أغلبهم من المهاجرين العراقيين. ينتشرون في العاصمة (هلسنكي)، وفي مدينتي (توركو) و (تامبرا). حيث أنشأوا المؤسسات التي تولي الاهتمام لإحياء المناسبات الدينية، وتقديم الخدمات الثقافيّة والاجتماعيّة للمهاجرين، وبتدريس أبنائهم لغتهم الأُمّ.

١. **مركز تامبرا الإسلامي**. بإدارة السيد علي الخرسان. يهتمّ بالمناسبات الإسلاميّة.

٢. **مكتبة الإمام الصادق العلميّة Imam Jafar Essadek Library Helisinky Finland**. بإدارة الشيخ مصطفى الهادي. أسّسها سنة ١٩٩٣م. تحتوى على كُتُب باللغات العربيّةوالفارسيّةوالإنكليزيّةوالفنلن ديّة.وهي أكبر مكتبة إسلاميّة في الدول الاسكندينافية تحتوي على ٢٣٠٠٠ كتاب، بين ورقي ومنسوخ على الأقراص. كلّها موقوفة على المنتفعين. وتقدّم التسهيلات للدّارسين والباحثين مجاناً.

٣. **مؤسّسة الإمام علي** عليه السلام **الثقافيّة الإسلاميّة. Community Islamic Imam Ali** في (هلسنكي). بإدارة الشيخ مصطفى الهادي أيضا. وهي حاصلة على الإجازة الرّسميّة لإصدار الوثائق الشخصيّة الإسلاميّة. كما أنها تهتمّ بالشؤون الدينيّة والاجتماعيّة للعراقيين.

٤. **مؤسّسة أصحاب الكساء** عليهم السلام. في (هلسنكي). وهي بإدارة الحاج عبد البصير الخليف.تهتم بإحياء الشعائر الدينيّة، وبتعليم أبناء العراقيين اللغة العربيّة.

٥. **مؤسّسة الرسالة للتعليم الإسلامي. Foundation Resalat Islamic Educational** في (هلسنكي). بإدارة الشيخ مصطفى الهادي ، أسّسها سنة ١٩٩٣م. وهي تهتم بمختلف النشاطات الإسلاميّة. بالإضافة إلى تيسير التعارف والتواصُل بين العراقيين، وإجراء عقود الزواج، وما إلى ذلك.

٦. **مسجد الإمام الصادق** عليه السلام. في مدينة (كوبيو). إمام وخطيب المسجد الشيخ عبد البصير الخليف.



الباب الحادي عشر: الدانمارك

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (مملكة الدانمارك). دولة اسكندينافيّة شمال (أُوروبا). ومن أعلى الدول في العالم بمستوى الدّخل. كما أنه مُتقدّمةٌ جدّاً باعتبار العناية الصحيّة والاجتماعيّة والتعليم. سكانها حوالي الخمسة ملايين. عدد المسلمين الإجمالي فيها،استناداً إلى تقديرات سنة ١٩١٠م،زهاء ثلاثمائة ألف. على أن (الدانمارك) في تاريخها البالغ الاضطرا ب لم يُتح لها من قبل الاتصال بالعالَم الإسلامي.

(٢) الشيعة في الدانمارك

الأغلبيّة العظمى من المسلمين فيها من الشيعةٌ إماميّة هم من أُصولٍ عراقيّة. هاجروا من بلادهم في الظروف التي باتت معروفةً عند القارئ. فنزل أوائلهم منطقة (نوبغو) في (كوبنهاكن)، حيث أسّسوا محالّ

تجاريّة. وامتهنوا إعداد المُعجّنات في أفرانٍ خاصّة، والمطاعم التي تُقدّم الأطعمة الشرقيّة. التي أقبل عليها الدانماركيّون الذين لم يسبق لهم أن عرفوها.

على أنّه ما من إحصاءات أو تقديرات لعديدهم في البلاد.

يُعاني الشيعة في (الدانمارك) كثيراً من الصورة السيئة التي ينشرها الوهابيّون عن الإسلام، عبر أفكارهم وسلوكهم المعروفيَن. في ظلّ عدم قدرة المواطنين الدانماركيين على التمييز بين إسلام وإسلامٍ غيره. فهم يعتقدون أنّ ما يُذاع وينتشر عنهم هو الإسلام، وأنّ ما من إسلامٍ سواه. خصوصاً وأن هؤلاء هم الأعلى صوتاً والأكثر نشاطا، بما تحت أيديهم من إمكاناتٍ ماليّة كبيرة، ليستْ طوع أيدي الشيعة هناك. كما أنّ أصوات شرورهم وآثامهم الفظيعة في غير قطرٍ إسلاميّ تُصمّ آذان العالمين.

هذا الوضع هو الذي أودى إلى موقفٍ مُتخوّفٍ رافضٍ من عموم الدانماركيين لوجود الاسلام والمسلمين في بلادهم، شمل رفض انتشار مؤسّساتهم ورموزهم (خصوصاً المآذن/ الصواريخ) في بلادهم. وما الرسوم الكاريكاتوريّة الشهيرة المُنّددة بالإسلام ورموزه، التي نشرتها بعض الصُحف الدانماركيّةُ قبل مدّة عن الاسلام ونبيّه، وعن رمزيّة المآذن خصوصاً، إلا التعبير الصريح عن هذا الانطباع وما بُني عليه من موقف.

في المقابل عملت القيادات الشيعيّة في (الدانمارك) كلَّ ما بوسعها على بناء أفضل العلاقات مع مُضيفيهم. ومن ذلك الاحتفال الباهر الذي نظّموه في العاصمة (كوبنهاكن) بمناسبة افتتاح مسجد الإمام علي عليه السلام فيها. فكان له من الصدى الحسن ما أظهر أن المسلمين جماعةٌ مُنفتحة، تتعاون في سبيل إنجازاتٍ إيجابيّة على مستوى البلد الذي يحلّون فيه.

ذلك أنّهم بعد أن حصلوا على موافقةٍ رسميّةٍ ببناء مسجدٍ جامعٍ، باسم (مسجد الإمام علي)، في منطقةٍ من مناطق العاصمة تحمل اسم (نوربرو)، على الرغم من معارضة بعض الأحزاب المحلّيّة، شرعوا بالعمل فأتى بناءً جميلاً بهندسةٍ إسلاميّةٍ طبعاً، لكنّها مُطعّمةٍ بملامح مقصودة من التراث الدانمركي. وهو يتّسع لألف وخمسمائة مُصلٍّ، بالإضافة إلى قاعةٍ واسعةٍ حسنة لتجهيز للمؤتمرات. ما يزال أكبر وأحفل مسجدٍ في البلدان الأسكندينافيّة.

يوم الجمعة بتاريخ ٢/ ١٠/ ٢٠١٥م جرى الاحتفال بافتتاح المسجد، بحضور جمهورٍ واسع من الشيعة من كلّ أنحاء (الدانمارك). تمثّلت فيه هيئاتٌ سياسيّةٌ ودينيّةٌ إسلاميّةٌ ومسيحيّة. خطب فيه مُمثّل القيادة الإيرانيّة، ومُمثّل المرجع السيّد السيستاني، وإمام المركز الإسلامي الدانمركي، ورئيس كنائس كوبنهاكن، وعميدة كليّة العلوم الدينيّة والاجتماعيّة في جامعتها. بحيث أتى ظاهرةً غير مسبوقَة على مستوى علاقة المسلمين المُقيمين في الدانمارك بشعبها. ظهرت بأنّه في الساعات الثلاث الأُولى بعد افتتاح المسجد زاره عشرة آلاف دانمركي، للاطلاع على منظره الجميل، والتعرُّف على ما وراءه من حضارةٍ باهرة. لم يُتح لهم من قبل أن يتصلوا بها.

(٣) المؤسّسات الشيعيّة في الدانمارك

١. **جمعيّة العراق الدانماركيّة Iraqi Social Center**. مقرّها (كلنتفي) Glentevei. بإدارة نصير الحداد.

٢. **حسينيّة خدَمة الحسين** عليه السلام. وهي بالمقرّ والإدارة نفسها.

٣. **حسينيّة سيّد الشهداء** عليه السلام. في (أودنسه) Odense. بإدارة هيئة إداريّة. تضمُّ مدرسة لتعليم اللغة العربيّة لأبناء المهاجرين العراقيين وتلقينهم التلاوة. كما تُدير حوزةً علميّةً، تُدرَّس فيها المقدمات والسطوح، بالأضافة إلى برنامج للتعريف بالإسلام للراغبين من الدانماركيين. مع إحياء المناسبات والشعائر.

٤. **مركز الشهيد الصدر**. في (كوبنهاكن) بإدارة علي العلاّق. وهي تهتمّ بنشر الثقافة الإسلاميّة بين المهاجرين الشيعة العرب. والاهتمام بمشكلاتهم الأسريّة في المهجر.

٥. **دار الحسين** عليه السلام. **I.S.C** في (كوبنهاكن).

الباب الثاني عشر: النرويج

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (مملكة النرويج). دولةٌ في شمال (أوروبا)، تحتلُّ الجهة الغربيّة من شبه الجزيرة الاسكندنافيّة، بالإضافة إلى أرخبيل (سفالبارد) و(جان مانيت) في المنطقة القطبيّة الشماليّة. مساحتها الكُلّيّة ٢٥٢، ٣٨٥ كم٢. عدد سكانها بحدود الخمسة ملايين.

يُقدّر عدد المسلمين في النرويج بمائة وستين ألفاً. والمُلاحَظ إقبال النرويجيين إجمالاً على اعتناق الإسلام، خلافاً لأهل المنطقة الاسكندنافيّة عموماً، وهي ظاهرة تتصل بالخواء الروحي الذي يعاني منه الناس هناك. في مقابل حالة الرفاه المادي الممتاز. ويُقدّر عدد المُتحوّلين منهم إلى الإسلام بخمسمائة شخص سنويّاً.



(٢) الشيعة في النرويج

عامة الشيعة في (النرويج) هم من المهاجرين العراقيين. بالإضافة إلى مهاجرين أقلّ عدداً من (باكستان) و(البوسنة والهرسك) و(إيران) و(تركيا) و(لبنان). وما من إحصاءٍ أو تقدير لعددهم الإجمالي أو الفردي. والقارئ بات يعرف جيّداً الظروف التي هاجر العراقيّون بسببها بلدهم بهذه الكثافة. الإضافة هنا أن المهاجرين الأكثر عديداً منهم هم من الذين التجأوا إلى (مخيّم رفحاء) على الأرض السعوديّة. ثم وليت الأُمم المتحدة



نقلهم إلى (أُوروبا) ومنها (النرويج). وأنّهم أُنزلوا في وسطه وجنوبه، وقلّةٌ منهم في شماله، وأنّ عددهم في (أُوسلو) العاصمة بحدود الألفين. وأنّهم حيثما حلّوا يُبادرون إلى تأسيس المؤسّسات ابتغاء الحفاظ على ذاتيّتهم وذاتيّة أولادهم من بعدهم.

(٣) المؤسّسات الشيعيّة في النرويج

١. **مركز أبي الفضل العبّاس الإسلامي الثقافي. Center Abu Alafadl Islamic** مقرّه في مدينة (بيرغن) Bergen، بإدارة علي سلمان العبيدي. يهتم بإحياء المناسبات الدينيّة، وبالدروس الفقهيّة للمهاجرين يومي السبت والأحد. ويُديرمدرسةً لتعليم اللغة العربيّة للناشئين. وبتقديم الخدمات الدينيّة والاجتماعيّة للجالية العراقيّة، من زواج وإصلاح ذات البين ودفن الموتى.

٢. **مركز أهل البيت عليهم السلام Ahl Ibeyt (a.s) Center** في مدينة (تروندهايم)، بإدارة الشيخ غلام مصباح. يهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة. وهو أول المراكز الشيعيّة تأسيساً في (النرويج).

٣. **مؤسّسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه Imam Mahdi Foundation** في (أُوسلو) العاصمة. بإدارة الشيخ ميثم الخفاجي. أُسّس سنة ٢٠٠٢م على أيدي نخبة من الأساتذة الحوزويين والجامعيين من ذوي الكفاءات العلميّة. يُدير برنامجاً دينيّاً شاملاً. وله موقعٌ على الشبكة العالميّة imamihdi.com.

٤. **مركز التوحيد الإسلامي Tauheed Islamic Center**. في (أُوسلو) ، بإدارة شمشاد رضوي (وهو من التابعيّة الباكستانيّة). أُسّس سنة ١٩٩٤م. وكان يضمّ بتاريخ تسجيل هذه المعلومات ٨٥٠ عضواً مُسجّلاً. وهو من أكبر المراكز الإسلاميّة في (النرويج). ويضمّ بين أعضائه الباكستانيين والهنود والافغانستانيين واللبنانيين. ويهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة. كما يُدير (مدرسة الجواد) لتعليم اللغة العربيّة. وكان أربابه بتاريخ تسجيل هذه المعلومات بصدد بناء مُجمّع تابع للمركز، يحتوي على مسجد وحسينيتين ومدرسة وحوزة علميّة ومكتبة عامّة ومُغتسل للأموات. وفي السنة ٢٠٠١م اشترى المركز أرضاً في (أُوسلو) مساحتها ٢٠٠٠ م ٢، وبدا أعمال البناء. له موقعٌ على الشبكة العالميّة tauheed.no. وهو المؤسّسة الشيعيّة الوحيدة غير العراقيّة في (النرويج)، بل فيما يبدو في كل الدول الاسكندنافيّة.

٥. **مركز الإمام الرضا عليه السلام الإسلامي**. في (أُوسلو). ولا ذكر لإدارته. ويهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة. ويُدير بالتعاون مع مؤسّساتٍ أُخرى مدارس لتعليم الناشئة اللغة العربيّة والتلاوة يومي السبت والأحد.

٦. **مركز الغدير**. مقرّه مقاطعة (أوست فولد)، في شرق (النرويج). احتُفل بتدشينه سنة ٢٠٠٢م، ليُباشر نشاطه في إحياء المناسبات الدينيّة. ولم نقع على معلوماتٍ إضافيّة عن هذا المركز. وذُكر أنّه من جناحين، جناحٌ للرجال وآخر للنساء. والظاهر أن اهتمامه محصورٌ بإحياء الشعائر المُعتادة.

وبتاريخ ١٦/ ٦ / ٢٠٠٧ أُعلن في أُوسلو ولادة (مجلس علماء الشيعة في النرويج)، الذي ضمّ ثلاثة عشر عضواً من علماء الشيعة. وقد تمّ تسجيل المجلس رسميّاً لدى الدوائر المعنيّة في (النرويج). وحصل على الترخيص القانوني لمباشرة نشاطه.

الباب الثالث عشر: النمسا

(١) جغرافيا وتاريخ

(جمهوريّة النمسا) هو اسمها المُتداول عند الناطقين بالعربيّة. رسميّاً Osterria، أي العالَم الشرقي. جمهوريّةٌ فيدراليّة، مساحتها٥٠٠ ، ٨٢ كم٢، عدد سكانها ثمانية ملايين ونصف المليون. لغتها الرسميّة الألمانيّة. لكن من أهلها مَن يتكلّمون، بالإضافة للألمانيّة، لغاتٍ متعدّدة.

(٢) الإسلام في النمسا

صلة (النمسا) بالإسلام قديمة. ترجع إلى يوم كانت امبراطوريّة، تضمّ بلداناً إسلاميّة كلّيّاً أو جزئيّاً من (أوروبة الشرقيّة)، منها (البوسنة والهرسك) و (صربيا) و (كرواتيا). وما يزال قسمٌ من أهلها يتكلمون لغات هذه البلدان. واستناداً إلى إحصاءات السنة ٢٠٠١م فإن نسبة المسلمين فيها إلى عدد السكان الإجمالي ٥ ٪. أي أن عديد المسلمين فيها زُهاء نصف مليون مسلم.

سنة ١٩١٢م اعترفت الامبراطوريّة النمساويّة المجريّة بالإسلام أحدَ الأديان الرسميّة على أرضها. وذلك على أثر ضمّ إقليمي (البوسنة والهرسك) ذوي الأغلبيّة الإسلاميّة إلى الامبراطوريّة. ما كان السبب في منح المسلمين ميزاتٍ مهمة، ما تزال ساريةً حتى اليوم.

ومن ذلك أنّ دستور البلاد يُسوّي بين الأقليّة الإسلاميّة والأكثريّة الكاثوليكيّة. في حريّة إقامة شعائرهم، وفي تنظيم الرعاية الدينيّة الخاصة بهم وفي حماية كافة نشاطاتهم الاجتماعيّة والثقافيّة والماليّة.

في السنة ١٩٧٩م شُكّلت رسميّاً (الهيئة الدينيّة الإسلاميّة النمساويّة) لتكون المُمثّل الرسمي للمسلمين تجاه مختلف السُلطات.

والدولةُ تدعم تدريس مادّة الدين الإسلامي لأربعين ألف تلميذٍ مسلم، حسب إحصاء سنة ١٩٨٢م، في مدارسها. يُشرف على مُدرّسيها سبعة مفتشين. فضلاً عن تأسيسها مركزاً خاصّاً لإعداد المعلمين الذين سيتولّون تدريس الدين الإسلامي، اسمه (مركز إعداد المعلّمين المسلمين في النمسا). والكلُّ يتلقّون رواتبهم من الدولة.

وللهيئات الإسلاميّة حصّتها لبثّ برامج دينيّة مُنتظمة في كافة وسائل الإعلام من مرئيّةٍ ومسموعةٍ ومطبوعة.

ويزيد عددُ المساجد في (النمسا) على مائتي مسجد. ثلاثةٌ وخمسون بين مسجدٍ ومُصلّى في العاصمة (فيينّا). وأكثر الباقيات في (سالسبورغ) و (إنسبروك). ويندرُ أن تجد بلداً من بلدان (النمسا) ليس فيه مسجد.

وعليه فيمكن القول أن المواطنين والجاليات الإسلاميّة فيها يتمتّعون بأفضل نمطٍ من العلاقات الإيجابيّة مع الدولة في كل (أوروبا). باستثناء بعض الإشكالات العابرة، الناشئة من اعتمار بعض النساء المسلمات النقاب الممنوع قانوناً في الأماكن العامّة. وإرغام الشرطة إياهنّ على نزعه.

وطبعاً يستفيد الشيعة، شأن غيرهم من المسلمين، من هذا الوضع المُؤاتي.

(٣) الشيعة في النمسا

مامن إحصاءٍ دقيق لعديدهم هناك. لكنّهم إجمالاً من المهاجرين مؤخّراً من (العراق) و (أفغانستان) و (إيران) و (باكستان) و (الهند). تفرّقوا في أنحاء أوروبا، بسبب الظروف السيئة في بلدانهم. ممّا بات معروفاً لدى القارئ.

وتقول بعض التقديرات الارتجاليّة، أن عددهم هناك بحدود الثلاثة آلاف أو أكثر قليلا. لكنّهم على قلّتهم اكتسبوا إلى جانبهم مواطنين نمساويين. من أبرزهم الشيخ محمد أريش والدمن. الذي لم ننجح في الحصول على شيءٍ من سيرته. ويبدو من لقبه (حجة الإسلام والمسلمين) أنّه درس في إحدى الحوزات الدينيّة الشيعيّة. وكان إلى ماقبل زهاء خمس عشرة سنة المسؤول عن (مجمع أهل البيت عليهم السلام في النمسا). فضلاً عن أنّه عضوٌ في الهيئة العامّة لـ (المُجمّع العالمي لأهل البيت عليهم السلام) في (طهران). ولم نوفّق للقاء به أثناء اشتراكنا بضع مرّات في جلسات المجمع. مع أنه كان في ذلك التاريخ المُمثّل الرسمي للشيعة في (النمسا).

يُلفتنا ما نُقل عنه أنّه قال، إن عدد الشيعة في (النمسا) يتراوح بين سبعين وتسعين ألفاً. ونحن نُلاحظُ الفارق كبيرٌ بين هذا وبين التقدير السابق.

ولعلّ ذلك لاختلاف زمان صدور التقديرين. وعلى كلّ حال، فقد أثبتنا التقديرَين كلاهما، بانتظار الحصول على معلوماتٍ أوفى.

نلاحظُ أيضاً بارتياح تامّ، أنّ روح التعاون والتكامل تسود العلاقات بين الشيعة والسُنّة في (النمسا). وهم شركاء كاملوا الشراكة في (الهيئة الدينيّة الإسلامية النمساويّة) التي أتينا على ذكرها قبل قليل.

ومن ثمرات تعاونهم في إطارها، أن سارعت الدولة إلى إضافة العدد المناسب من المؤهّلين الشيعة إلى (مركز إعداد المعلّمين المسلمين في النمسا) ليُعِدّوا الذين سيتولّون إعداد المعلّمين لتدريس التلاميذ الشيعة في مدارسها. وممّا يحسنُ بنا ذكره هنا، أنّ مَن يجري إعدادهم في المركز من السُنّة قد يحضرون الدروس مع إخوانهم

الشيعة، للتعرُّف على خصوصيّات مذهبهم.

هذا، ولاحقاً أنشأت (الهيئة الدينيّة الإسلامية النمساويّة) فروعاً لها في كلّ الولايات النمساويّة التسع. ينتخبُ كلُّ فرعٍ هيئةَ رئاسة وأربعة أعضاء. ويضمُّ فرع العاصمة أعضاء من الشيعة. ولهم أيضاً أعضاءٌ في (هيئة الإفتاء الإسلاميّة في النمسا). ولاريب في أنّ الفضل في ذلك يعود إلى الغياب الوهّابي عن الساحة النمساويّة. وما يجرُّ إليه حضورهم دائماً من إيقاع الفتنة بكلّ وسيلة بين أبناء المذاهب الإسلاميّة.

(٤) المراكز الشيعيّة في النمسا

خلافاً لِما رأيناه من روح تعاونٍ وتكامُلٍ بين أرباب المذاهب الإسلاميّة في النمسا، فقد لاحظنا أن الشيعة هناك أنشأوا مراكز دينيّةً لهم تحت عناوين قوميّة. ولعلّ ذلك راجعٌ إلى اختلاف اللغات فقط.

من ذلك: (بالإضافة طبعاً إلى (مُجمّع أهل البيت عليهم السلام في النمسا). وقد ذكرناه قبل قليل):

١. **مركز الإمام علي** عليه السلام. في (فيينّا). وهو للشيعة العراقيين.

٢. **مسجد أهل البيت** عليهم السلام. للشيعة الأتراك.

٣. **مركز إمام العصر**. للشيعة الباكستانيين.

٤. **مركز الزهراء الثقافي**. للشيعة الأفغانيين.

٥. **مركز أهل البيت الثقافي**. للشيعة العراقيين واللبنانيين.

٦. **المركز الثقافي للشيعة النمساويين**.

٧. **مسجد الإمام علي** عليه السلام. في (سالسبورغ). وهو تابعٌ لـ (مركز الإمام علي عليه السلام) في (فيينّا). وقد عرفنا أنّه للشيعة العراقيين.

٨. **حسينيّة أهل البيت** عليهم السلام. في (لينز). وهي للعراقيين أيضا. وقد عرفنا العراقيين الأبعد همّةً دائماً في إنشاء المؤسّسات حيثما حلّوا.

الفصل الثالث

أُوراسيا وشرق أوروبا

الباب الأول: روسيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (الاتحاد الروسي) أو (روسياالاتحاديّة). دولةٌ عُظمى في شمال (أُوراسيا). وهي أكبر بلدٍ في العالم من حيث المساحة. وتاسع بلدٍ من حيث عدد السكان (١٤٣ مليوناً). تضمّ ثلاثةً وثمانين كياناً اتحاديّاً. واحدٌ وعشرون منها جمهوريّة، معظمها يتمتّع بالاستقلال في شؤونه الداخليّة. لكلٍّ منها دستورها ورئيسها.

(٢) الإسلام في روسيا

علاقة الإسلام بروسيا عريقةٌ. بل هي أكثر عراقةً من الدولة الروسيّة نفسها. ترجع إلى عصر الفتوحات الإسلاميّة الواسعة في القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد. بدايةً في إقليم (داغستان) وحاضرته مدينة (دربند) العريقة، التي سمّاها المسلمون (باب الابواب). وصولاً إلى بلاد ماوراء القوقاز الشرقي (آذربايجان) وآسيا الوسطى.

اليوم ينتشر المسلمون في (روسيا) في منطقتَين رئيستَين:

١. **منطقة الفولغا والأورال**، في قلب (روسيا). وذلك في ست جمهوريات: (تتارستان)، (بشكيريا)، (تشوفاش)، (موردوفيا)، (ماريل)، و(أدمورت). إضافةً إلى إقليم (أورنبرغ).

٢. **القوقاز الشمالي North Caucasus**، في جنوب غرب (روسيا). وتضمّ جمهوريات (داغستان)،

(شيشان)، (إنغوشيا)، (أُوسيتيا)، و (الشركس). وكانت هذه في الماضي دولةً/ إمارةً إسلاميّة مستقلّة.

ويوجد مسلمون أيضاً في مدينتي (موسكو) و (بطرسبرغ) وفي منطقة (سيبيريا)، وقد أشرنا فيما فات إلى ترحيل الزعيم السوفياتي مسلمين من (القفقاس) إلى (سيبيريا).

عدديّاً المسلمون حوالي ١٥ ـ ٢٠٪ من إجمالي سكان (روسيا الاتحاديّة)، أي زهاء عشرين خمسة وعشرين مليوناً. لكنّهم، بصرف النظر عن عدديهم الحالي، يُمثّلون قوّةً سكانيّة مُتصاعدة، بسبب الارتفاع الكبير لنسبة المواليد بينهم، بالقياس إلى مواطنيهم المسيحيين.

إدارة الشؤون الدينيّة للمسلمين موكولةٌ إلى أربعين إدارةٍ دينيّة رسميّة. أكثرها نفوذاً الإدارة الدينيّة لمسلمي الشطر الأوروبي من (روسيا). تُشرفُ الدولةُ عليها وترسم لها توجّهاتها.

وفي السنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م حجّ، لأول مرّةٍ في التاريخ الذي نعرفه، عشرون ألف حاجّ من كافة أنحاء روسيا الاتحاديّة. وتلك ظاهرةٌ لا تخلو من كبير معنى. وقد رحّب بها المسلمون خارج (روسيا) وهلّلوا لها. لكنّ هناك من غير المسلمين مَن رأى في هذه السابقة نذيراً بروحٍ جديدةٍ تنفخ في الجسد الإسلاميّ الكبير في (روسيا).

(٣) الشيعة في روسيا

دخل التشيّع مُبكّراً جدّاً إلى ما هو اليوم (روسيا الاتحاديّة). والشاهد على ذلك أنّ مدينة (دربند / باب الابواب)، التي تُسمّى اليوم (ديربينيت)، وقد عرفنا أنها أوّل ما فتحه المسلمون (سنة ١١٥هـ / ٧٣٣م)، ـ يغلبُ عليها الشيعة الإماميّة حتى اليوم. وفيها أوّل مسجدٍ بناه شيعةٌ في كافة أنحاء (روسيا)، ما يزال بأيديهم. وقد أنتج المُستبصر الروسي عبد الله انطوني فيلماً قصيراً عن الشيعة في المدينة، وعن مجدهم التليد فيها. أتى دليلاً ساطعاً على عُمق وأصالة التشيّع في المنطقة إجمالاً، الذي كان سابقاً زمنيّاً دون أدنى ريب على بناء المسجد فيها. وما برح الشيعة يحتفلون فيها، منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، بمختلف المناسبات الدينيّة احتفالاتٍ حاشدة، خصوصاً شعائر شهر المحرّم الحرام.

ومن علماء الشيعة المعاصرين فيها الشيخ ناظم الدربندي، الذي التقينا به سابقاً في أحد المؤتمرات. وتحدّثنا مليّاً على أوضاع الشيعة في منطقته. وكان فيما سجّلناه عنه أن عددهم في (روسيا) إجمالاً بحدود الخمسة ملايين نسمة.

ومن علمائهم السابقين الشيخ آغا بن عابد الدربندي (١٢٠٨ ـ ١٢٨٥هـ / ١٧٩٣ ـ ١٨٦٨م)، الذي نجدُ الترجمة له والإشادة بفضله في عامة الكُتُب المعنيّة بالترجمة لأمثاله. من مثل أعيان الشيعة للسيّد الأمين و طبقات أعلام الشيعة للطهراني.

لكنّنا لم نعثر فيما تحت يدنا من المكتبة التاريخيّة، وهو كثيرٌ بحمد الله، على مايُضيء لنا سرّ انتشار التشيّع إلى

هذه البقعة القصيّة، ولا من أين بالتحديد أتوا. على أنّنا لانشكُّ أنّهم لم يكونوا بعيدين عن معدن الشيعة في (الكوفة)، أو من منطقةٍ تأثّرت بها.

هذا، وابتداءً من السنة ١٩٩٠م بدأت هجرةٌ واسعةٌ من (آذربايجان) باتجاه مدينة (بطرسبرج). قدّر عديدَها أحدُ الشيعة المُقيمين في المدينة بمليون شخص. اندفعوا إلى الهجرة إليها بسبب سوء الحالة المعيشيّة في بلدهم. ولم يتأيّد العدد لدينا من مصدرٍ آخر. لكنّ أصل هذه الهجرة أكيدٌ فيما يبدو.

ومن أسف فإنّ هؤلاء خامدون في وطنهم الجديد من حيث نشاطهم الديني. كما هو شأن كلّ القسم الذي استولى عليه الروس من (آذربايجان)، طمعاً بثروته النفطيّة الكبيرة. فأفسدوا أهلها دينيّاً ابتغاء القضاء على روح المقاومة عندهم. ومن هنا رأينا الآذريين في (بطرسبرج) قد أنشأوا في مهجرهم عدّة مراكز تحمل أسماء شيعيّة، لكنّها ضعيفة النشاط والأثر. وليس لهم فيها مسجد. والمسجد الوحيد في المدينة هو للتتار.

واستناداً إلى معلوماتٍ صدرت سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م فإنّ الشيعة في (موسكو) يُحيون شعائر المحرّم، التي يُشارك فيها الآلاف من الشيعة المُقيمين في المدينة وجوارها، وحتى من الآذريين الذين يتأثّرون بإخوانهم فيرجعون إلى أصالتهم، فضلاً عن المُستبصرين الرّوس. وقد شهدت (موسكو) وغيرها من المُدُن الروسيّة في السنوات الأخيرة تطوُّراً جيّداً في إحياء هذه المراسم.

على أنّنا لم نقع على ذكر مؤسّسات شيعيّة في أنحاء (روسيا)، مثلما رأينا في عامة البلدان الأوروبيّة التي وقفنا عليها حتى الآن.

لكنّ ذلك قد يكون راجعاً إلى ضعف المعلومات التي نصدر عنها. يؤيّد ذلك أنّ بعض المنشورات التي تُصدرها الجهات المعلومة، التي تضع نصب عينيها مُناهضة الشيعة والتشيّع بكلّ وسيلةٍ حيثما كانوا، تتحدّث عن «التّحرّك الواسع لنشر التّشيُّع من خلال الجمعيّات الصفويّة (؟!) المُنتشرة في موسكو. وتحمل أسماء مختلفة مثل أهل البيت، فاطمة الزهراء وغيرها. بجانب إقامة المعارض والمؤتمرات والمحطّات الإذاعيّة التي تخدم الصفويّة ». فإذا لم يكُن هذا الكلام أوهاماً وتخليطاً وتخيّلات، أو وسيلةً لسحب المال من أرباب تلك الجهة بحجة تمويل التّصدّي لـ (الخطر) الشيعيّ الماثل، وهو ما نُرجّحه، فهو دليلٌ على أن ثمّة مؤسّسات نفتقدها لعول معلوماتنا.

الباب الثاني: أوكرانيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهوريّة أوكرانيا). ثاني أكبر دولة مساحةً وعددَ سكان في (أوروبة الشرقيّة). سكانُها سبعة وأربعون مليوناً. اللغة الرسميّة فيها الأوكرانيّة، وهي فرعٌ من فروع اللغة السُّلافيّة الشرقيّة. وقد لاحظ أحدُ

الباحثين أنّ فيها مائتا كلمة من أصلٍ عربي، ونحو ثمانون مصطلحاً إسلاميّاً. ما يدلُّ على علاقاتٍ قديمةٍ طويلة الأمد قامت في الماضي بينها وبين العالَمَ الإسلامي.

(٢) الإسلام في أُوكرانيا

اتصال (أوكرانيا) بالإسلام وأهله، يرجع زمنيّاً إلى النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. وذلك عن طريق التجار الذين كانوا يقصدون أو يمرّون في مدينة (كييف)، التي كانت في ذلك الأوان عاصمة إمارة (كييف روس)، حاملين مختلف البضائع الشرقيّة المرغوبة في المنطقة. ما نزال نجدُ آثارهم في العملات والمسكوكات المعدنيّة، التي عُثر عليها هناك، بما رُقم عليها من كلماتٍ عربيّة، يرجع تاريخُ بعضها إلى ذلك الأوان. كما تأتي مراجعُ محلّيّة على ذكر جاليةٍ إسلاميّة تُقيم وتزاول بعض الأعمال في الإمارة في القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد. والظاهر أن كلاهما أتى من (آسية الوسطى) والبلاد العربيّة أو من بلاد (الفولجا) و (القوقاز).



(٣) الشيعة في أوكرانيا

لا ذكر لعدد الشيعة فيها. لكنهم يوجدون وجوداً ما في العاصمة (كييف)، وفي بعض البلدان المُحاذية للبحر الأسود. وخصوصاً في مدينة (لوغانسك) شرق (أُوكرانيا). والفضلُ في انتشار التشيّع فيها يعود غالباً للإتصالات التجاريّة وما تحمله معها من مؤثّراتٍ ثقافيّة، كما حصل في كثيرٍ من البلدان. كذلك إلى إجراءات النّفي القسري للمسلمين، ومنهم الشيعة، من (القوقاز) وبلدان (آسية الوسطى) في العهدَين القيصري والشيوعي. ساهمت، دون أن تقصد طبعاً، في انتشار المسلمين في (أُوكرانيا).

ينتمي أكثرُ الشيعة الأُوكرانيين إلى العرق المغولي، وإلى المعروفين باسم القوزاق، الذين أتوا من (أُوزباكستان) و (كازاخستان) (راجع المادتين في الفصل السابق). إلى جانب مُستبصرين منهم، اعتنقوا الإسلام على المذهب الشيعي. وحديثاً إلى الطلاب، الذين يقصدون الجامعات الأُوكرانيّة من جنوب (لبنان)، فيُقيمون فيها سنوات. ويُحيون حيثما حلّوا الشعائر الحسينيّة بالاشتراك مع إخوانهم البحرانيين والإيرانيين والعراقيين والقادمين من شرق شبه الجزيرة العربيّة ، التي تُشكّل عامل جذب للأُوكرانيين.

وقبل بضع سنين استحضروا لأوّل مرّةٍ من (لبنان) أحد خطباء المجالس الحسينيّة المعروفين (السيّد صادق الموسوي)، فأحيوا شعائر شهر المُحرّم في مدينة (خاركوف) بنحوٍ غير مسبوق. بحيث جذبت إليها الأُلوف من المُستمعين. وخصوصاً من الآذريين الشيعة الذين يحملون الجنسيّة الأُوكرانيّة، فأحيت ما كان قد خمد في نفوسهم من التزام واعتناء بالشعائر الدينيّة، بتأثير المُحتلّين الرّوس لبلادهم. على ما سبقت منّا إليه الإشارة في

الفصل السابق مادة (آذربايجان). والظاهر أنّهم على الأثر اندفعوا، عن غير سابقة منهم، إلى إنشاء مسجدٍ في (خاركوف)، وحسينيّة كبيرة في (كييف).

(٤) المؤسّسات الشيعيّة في أُوكرانيا

بالإضافة إلى المسجد والحسينيّة المذكورتين أعلاه، يوجد في مدينة (لوغانسك) مركز ديني.

و (لوغانسك) مدينة شرق (أُوكرانيا)، يغلب الرّوس على سكانها. ومنهم الكثيرون ممّن هم أصلاً من إحدى الجمهوريّات الإسلاميّة. فأسّسوا فيها بيت الزهراء عليها السلام. وكان إلى ما قبل بضع سنين ناشطاً بإدارة باقر الواعر. وله موقعٌ على الشبكة العالميّة baitalzahra.org. ويهتم، حسب ما ورد في الموقع، بنشر مذهب أهل البيت عليهم السلام، وإحياء المناسبات الدينيّة، وإقامة المجالس الحسينيّة، وتوزيع الكُتُب. وقد زار مديره العتبات المقدسة في العراق سنة ٢٠٠٢م، يرافقه مفتي (أوكرانيا) الشيخ أحمد تميم، ونائبه الشيخ رستم غفوري، ومدير العلاقات الخارجيّة لمسلمي (أوكرانيا) الشيخ حسام الدين الحلواني. كما التقى بعض العلماء، بالإضافة إلى رئيس ديوان الوقف الشيعي يومذاك السيد علاء الموسوي. حيث قدّم شرحاً للأعمال والخدمات التي يلونها بين المسلمين في (أوكرانيا). ومن ذلك إنشاء جامعة أو رابطة إسلاميّة. ورعاية برنامج تلفزيوني إسلامي باللغة الأوكرنيّة، يُبثّ على القناة الرسميّة.

كما تذكر بعض المصادر عرَضاً جمعيّةً في (كييف)، اسمها «جمعيّة أهل البيت». الظاهر أن اهتمامها محصورٌ في إقامة شعائر شهر المحرّم. كما نذكر «مؤسّسة المصطفى الثقافيّة»، في (كييف) أيضاً. ويظهر من صفحتها على الفيسبوك انّها تُعنى بالتعاطي والتاون مع «جامعة المُصطفى العالميّة» المعروفة.

ولسنا ندري ما آل إليه وضع هذه المؤسّسات بعد الاضطراب السياسي الكبير الذي حصل في (أُوكرنيا)، على قاعدة الجو العدائي لـ (روسيا). خصوصاً في مدينة (لوغانسك) المُحادّة لـ (روسيا)، وقلنا أنّ الروس يغلبون على سكانها، بحيث أنّ الأمر وصل إلى حدّ قصفها من الجيش الأوكراني سنة ٢٠٠٤م.

الباب الثالث: رومانيا

(١) جغرافيا وتاريخ

جمهوريّةٌ شرق (أُوروبا). مساحتها ٢٣٨،٣٩١ كم٢. سكانها اثنان وعشرون مليوناً. يتكلّمون لغةً من

فروع اللاتينيّة. كانت بين السنتين ١٩٦٤ــ١٩٨٩م من الدول الشيوعيّة الدّائرة في فلك (روسيا). وفي السنة ٢٠٠٧م انضمّت إلى الاتحاد الأُوروبي.

(٢) الإسلام في رومانيا

وجود الإسلام فيها قديم، ناشيءٌ من الحركات السُكّانيّة الناشطة في المنطقة. قيل أنّه يرجع إلى ما قبل تسعة قرون. عدد المسلمين فيها ٦٨٠٠٠ نسمة، أي ٣ ٪ من مجموع السكان. ينتمون جميعاً إلى العرق التتاري، ويتركّزون في منطقة (دبروجه) على ساحل (البحر الأسود)، التي كانت تابعةً للدولة العثمانيّة مدة خمس قرون (١٤٢٠ ــ ١٨٧٨م). الدين الإسلامي مُعترَفٌ به رسميّاً. وللمسلمين فيها مُفتٍ يحمل لقب (مفتي الدين الإسلامي في رومانيا) Muftiatu Cakltului Musulman

(٣) الشيعة في رومانيا

وجودهم فيها جديد. عامّتهم من العراقيين الذين انتشروا في أنحاء (أُوروبا) هرباً من بطش طاغية (بغداد). عددهم فيها غير مذكور. لكنّهم كدأبهم حيثما حلّوا أنشأوا فيها مراكز دينيّةً، نعرف منها:

١. **مركز الزهراء الإسلامي Associatia Centrul Cultural social Islamic** في العاصمة (بوخارست). وما من ذكرٍ لإدارتها واهتماماتها.

٢. **مركز أهل البيت عليهم السلام الثقافي. Centrul Cultural Islamic Ahlul Bayet Grozavesti** في (بوخارست). له صفحةٌ على فيس بوك poatacunocasttern.islam



الباب الرابع: جورجيا

(١) جغرافيا وتاريخ

(جمهوريّة جورجيا) دولةٌ قوقازيّة. تُكوّن مع (أرمينيا) و(آذربايجان) منطقة (القوقاز) / (ققفاسيا). وهي نفسها ماكان يُسميه الجغرافيون العرب (بلاد الرّحاب). عُرفت قديماً بينهم باسم (الكرج)، وهو تحريفٌ لاسمها الأصلي. مساحتها سبعون ألف كم٢. عاصمتها (تبليسي)، التي كان اسمها عند العرب (تفليس). سكانها بحسب إحصاء سنة ٢٠١٧م ٧،٣ مليوناً. كانت تابعةً لـ (إيران) زمانَ الدولة الصفويّة. ومنها خرج العديد من علماء الشيعة.

عام ١٨٠١م استولت عليها (روسيا)، حتى انهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٩١. فعانت من اضطراباتٍ دامية. وفي السنة ٢٠٠٣م شهدت ثورةً مُدبّرَةً، انتهت إلى تبديل وجهها السياسي نحو الالتحاق كُلّيّاً بالقُوى السياسيّة الغربيّة.

(٢) الإسلام في جورجيا

دخل الإسلام (جورجيا) مع الفتوحات الإسلاميّة الأُولى لبلاد (الكرج). وقد شغل أبناؤها مناصب رفيعة أيّام الدولة المملوكيّة، ومنها أتى العديد من أُمرائها.

يُقدّر عدد المسلمين فيها، حسب إحصاء سنة ٢٠٠٢م الرسمي، بـ ٤٦٣ ألفاً. بينما يؤكّد نائب رئيس (اتحاد مسلمي جورجيا) إسلام سايدابييف أنّ عددهم لا يقلُّ عن مليون ونصف المليون، من أصل أربعة ملايين وستمائة ألف، هو العدد الحقيقي للسكان. أي أنّهم ثُلثُ سكانها. ومسلموها يتبعون في شؤونهم الدينيّة (الإدارة الدينيّة لمُسلمي القوقاز) ومركزها (آذربايجان).

(٣) الشيعة في جورجيا

أكثر المسلمين في (جورجيا) شيعةٌ إماميّة من (آذربايجان). تتراوح نسبتهم إلى مُجمل السكان بين ٥ و ٨٪. يتمركزون في جنوب البلاد. وقليلٌ منهم في العاصمة.

في السنة ٢٠١١م أعلنت الحكومة الجورجيّة، لأسبابٍ غير مفهومة، أنّها تمنح العراقيين حقّ الدخول إليها دون تأشيرة، والإقامة مدّة سنة كاملة. بعد انقضائها يمكن أن يحصل على الإقامة الدائمة.

لقي هذا الإجراء غير العادي قبولاً كبيراً لدى العراقيين، بسبب الظرف غير المؤاتي للحياة الهانئة في بلدهم. خصوصاً في ظلّ نقص الخدمات المدنيّة التي كان المواطن العراقي يُعاني منها في ذلك الأوان. فانطلقوا بالألوف معهم ما تحت أيديهم من مال، حيث شرعوا يشترون المساكن في (تبليسي) و (باتومي)، ويُنشئون المحالّ التجاريّة، والمطاعم التي تُقدّم الأطعمة العراقيّة. في ظلّ التسهيلات من قِبَل السلطات المحلّيّة.

هكذا نهضت في (جورجيا) جاليةٌ شيعيّةٌ عراقيّةٌ كبيرةٌ. لكنّها، خلافاً لِما درج عليه إخوانهم حيثما حلّوا، لم نرَهم يهتمّون بتأسيس المراكز الدينيّة. ومن هنا رأينا أن المركز الشيعيّ الوحيد في (تبليس) هو الفرع الذي أسّسته فيها (مؤسّسة آل البيت)، لتنشُط نشاطاً مشكوراً، على صعيد البرامج الدينيّة والثقافيّة والخدمات الاجتماعيّة، والمنح الماليّة لضَعَفَة المسلمين. ومن ذلك أنها تُنظّم دوراتٍ لتلقين التلاوة. وتعقد حلقاتٍ تعليميّة لتفقيه المؤمنين. كما أصدرت مجلّةً للأطفال. وأقامت مؤتمرات وطنيّة وإقليميّة ، تحت مختلف العناوين.

كما تمّ برعاية المرجع السيّد السيستاني إنشاء مسجد ومستوصف، على اسم الإمام الحسين عليه السلام، في مدينة (مارنولي)، افتتحه وكيله العام السيّد جواد الشهرستاني. وشارك في حفل افتتاحه، بما فيه صلاة الجمعة، السُنّة والشيعة دون تمييز.

نذكر أخيراً أنّ العلاقات بين الأكثريّة الشيعيّة من المسلمين، وإخوانهم في (جورجيا) من المذاهب الأُخرى، تسودها المودّة وروح التعاون. ومن ذلك أنهم يتشاركون إقامة صلاة الجماعة في مسجدٍ بالعاصمة. الأمر الذي أغاظ مَن لايُعجبهم إلا التحريض على الفتنة والتّدابُر بين المسلمين. فكتبوا في موقعٍ لهم على الشبكة العالميّة، أنّ الشيعة في (جورجيا) يستولون على مساجد السُنّة بحجة التقريب والتقارب.

الباب الخامس: ليتوانيا

(١) جغرافيا وتاريخ

(جمهوريّة ليتوانيا) في (أُوروبا) الشماليّة. إحدى دول سواحل بحر البلطيق الثلاثة وأكبرها. من جمهوريّات الاتحاد السوفياتي سابقاً. عاصمتها (فيلنوس) Vilnus. مساحتها ٦٥٧،٣٠٠كـم٢. سكانها ثلاثة ملايين ونصف المليون.



(٢) المسلمون في ليتوانيا

عدد المسلمين فيها لا يتجاوز الآلاف القليلة. عامتهم من التتار، ومن القبائل القَرميّة (نسبةً إلى شبه جزيرة القرم)، نزلوها منذ ستة قرون. ومنهم مَن أتى من الجمهوريّات الإسلاميّة المجاورة في الحقبة الشيوعيّة: (تتارستان) و(بشكيريا). وفي تسعينات القرن الماضي وفد إليها مسلمون من (تركيا) و(الشرق الأوسط) واستقرّوا فيها.

من مظاهر تنوّع أُصول المسلمين في (ليتوانيا)، أننا قد نجد إماماً تركيّاً في أحد مساجد العاصمة، إلى جنبه في مسجدٍ غيره إماماً لبنانيّاً، وثالثاً تتاريّاً.

ولهم هناك احتفالٌ خاصٌّ بيوم عاشورا، يتّسم بالسذاجة والبُعد عن الحقيقة التاريخيّة. ما يدلّ على مؤثراتٍ شيعيّةٍ أصيلة تليدة. لكنّها غامت عليهم بسبب الاغتراب والافتقار إلى التواصل مع إخوانهم، بالإضافة إلى غياب العارفين والمُبلّغين.



(٣) الشيعة في ليتوانيا

وجود الشيعة اليوم فيها جديدٌ وضئيل. منشؤه مَن وفد إليها من مهاجرين عراقيين، في إطار البعثرة السكانيّة الكبرى لشيعة (العراق) على يد طاغية (بغداد)، لاتزيد عدّتهم عن بضع مئات. ومع ذلك فإنهم ما لبثوا أن أنشأوا حسينيّة في مدينة (كاونس)، سمّوها (حسينيّة أهل البيت)، تُدار جماعيّاً من قِبلهم. يقتصر اهتمامها على إحياء المجالس الحسينيّة أسبوعيّاً. كانت ما تزال عاملةً حتى السنة ٢٠١٢ م.

الباب السادس: بلغاريا

(١) جغرافيا وتاريخ

(جمهوريّة بلغاريا) في جنوب (أُوروبا الشرقيّة). من بلاد شبه جزيرة (البلقان). مساحتها ٠٠٠، ١١١ كم٢. عدد سكانها سبعة ملايين حسب إحصاء سنة ٢٠١١م. يتكلم أهلها اللغة البلغاريّة السُّلافيّة.

حكمها العثمانيّون سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، واستمر حكمهم قرابة خمسة قرون. انتهت بأن أُنشئت إمارةٌ بلغاريّة سنة ١٨٧٨م. وكان ثلث سكانها من الأتراك المسلمين. ومذ ذاك تقلبت أحوالها إلى أن انتهت إلى وضعها الحالي.

(٢) الإسلام في بلغاريا

سنة ١٩٦٠م، يوم كانت (بلغاريا) دولةً شيوعيّةً تدور في فلك (روسيا)، صدر قانون تسجيل كافة السُكان البلغاريين. حتّم على المسلمين الذين من أصلٍ تركي أن يتّخذوا أسماء بلغاريّة.ابتغاء قطع علائقهم بكلّ عناصر أصلهم. فهذا بالإضافة إلى الدعاية الشيوعيّة ضدّ الأديان، ومنعهم من إقامة شعائرهم الدينيّة، أدّى إلى انخفاض عديد المسلمين فيها.

اليوم يبلغ عددهم فيها زهاء المليون. أكثرهم من هم من أصلٍ تركي، ومنهم أعدادٌ من التتار، الذين ترجع أُصولهم إلى (تتارستان)، نزحوا منها فراراً من الروس، بالإضافة إلى الغجر. وهم إجمالاً يتركّزون سكانيّاً في شمال شرق (بلغاريا) وجنوبها. ولهم فيها دارٌ للإفتاء، ومجلسٌ إسلامي، ومؤسسات تعليميّة. بالإضافة إلى حزبٍ إسلامي (حزب حركة الحقوق والحريات) مُتمثّل في البرلمان.

(٣) الشيعة في بلغاريا

تختلف المصادر اختلافاً بيّناً في عدد الشيعة هناك، بين ثمانين ألفاً ومائة وخمسين ألفاً. لكنّها تتفقُ على أنّهم جميعاً من البكتاشيين، الذين بيّنّا أُصولهم سابقاً في الباب المُخصّص لـ (تركيا) في الفصل السابق. ويُسمّون في (بلغاريا) بالقُزُلباشيين. وقد بيّنّا هناك أيضاً منزع هذا الاسم. ونقول الآن أنهم يتركّزون سكانيّاً في المنطقة الجبليّة المُسمّاة (رودوبا). وعليه فيمكن أن نبني على ذلك أنّ أصلهم من الذين أتوا مع العثمانيين، أُسوةً بغيرهم من الأتراك.

أفضل مصدرٍ عن الشيعة البكتاشيين في (بلغاريا) هو كتاب (أهل الحقيقة) الذي صنّفه باللغة المحلّيّة الباحثُ البلغاري غيورغي كولوف. فروى فيه قصّة الجالية العلويّة في منطقة جبال (رودوبا). مُبيّناً أنّها طائفةٌ دينيّةٌ قريبةٌ من الشيعة الاثنى عشريّة، تمتاز بتماسكها على الرغم من العدوان الذي الذي كانت تُعاملهم به الدولة العثمانيّة. ويذكر بالتقدير أحد مشايخهم واسمه سعد الله خير الله. كما يُنوّه بنجاحها في الاندماج بالمجتمع البلغاري، بحيث باتت جزءاً لايتجزّأ منه.

الباب السابع: بولندا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (الجمهوريّة البولنديّة) من دول أُوروبا الوسطى. مساحتها ٣١٣ ألف كم٢. عدد سكانها يزيد قليلاً على ٣٨ مليوناً. لغتها الرسميّة البولنديّة، وهي من مجموعة اللغات السلافيّة. تُكتب باللاتينيّة مع إضافة تسعة أحرف إلى أبجديّتها. أثناء القرنين ١٥و١٦م اعتُمدت العربيّة لكتابتها، ثم جرى التّخلّي عنها. عاصمتها (وارسو). تأسّست بحدودها الحاليّة سنة ١٩١٨م. وفي السنة ١٩٤٤م باتت تابعةً للاتحاد السوفياتي. أُطيح بالحكومة الشيوعيّة سنة ١٩٨٩م. ومذ ذاك اعتمدت دستوراً ديموقراطيّاً.

(٢) الإسلام في بولندا

اتصلت (بولندا) بالإسلام منذ نحو ستمائة سنة بدخول التتار بصفة غُزاة في القرن ١٣م. لكنّهم مع الوقت اندمجوا في المجتمع البولندي. ماسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينيّة بحريّة. لكنهم بمرور السنين فقدوا لغتهم وتناسوا شعائرهم. وانخرطوا في مقاومة الاحتلال الألماني ثم السوفياتي. ما منحهم مكانةً خاصّةً في المجتمع البولندي. وهم يُعاملون اليوم بوصفهم مواطنين كاملي المواطنيّة، ويعدّون اليوم زهاء خمسة عشر ألفاً. وكان



لهم حتى وقتٍ قريب مسجدين أثريين في مدينتَي (كريشينياني) و (بوهونيكي). واليوم للمسلمين مساجد متعددة في العاصمة (وارسو) وفي (كدانسك) و (بياليستوك).

بدايةً من العام ١٩٧٠م ، بدأ عدد المسلمين يتزايد، بالوافدين إليها من الدول العربيّة وشمال (أفريقيا) في طلب العلم في جامعاتها. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٨٩م تزايد عدد الطلاب القادمين من (تركيّا) و(يوغوسلافيا) السابقة. بالإضافة إلى مهاجرين وفدوا إليها من (أفغانستان) و(باكستان) و (الشيشان).

(٣) الشيعة في بولندا ومؤسساتهم

ما من إحصاءٍ لعددهم هناك. وهم إجمالاً من القادمين من (العراق) و(إيران) و(لبنان) و(البحرين) و(باكستان)، إمّا في طلب العلم، وإمّا مهاجرين لسببٍ ممّا يُلجئ المرءَ إلى الضّرب في الأرض. والقارئ بات يعرف جيّداً الاسباب التي حدت بالعراقيين خصوصاً إلى النزوح من بلدهم بأعدادٍ كبيرةٍ. حيث تفرّقوا بمئات الأُلوف في أنحاء (أُوروبا). والآن ها نحن نراهم في (بولندا)، على الرغم من خلوّها ممّا يُغري النّازح باللجوء إليها، لفقرها بالقياس إلى غيرها. فلا بدّ، والأمر على ماوصفنا، من أنّهم لم يكونوا هنا بأعدادٍ كبيرة، شأن إخوانهم في غرب وشمال (أُوروبا). ومن هنا، فيما نحسَب، لم نرهم يعملون ويتكاتفون في (بولندا) لإنشاء المؤسّسات الدينيّة، على ما درجوا عليه حيثما حلّوا في غيرها.

مايستحقُّ منّا أعلى التنويه، أنّ إنشاء مؤسّستيَن دينيّتين شيعيّتين في (بولندا) كانت من نصيب مواطنين بولنديين، استبصروا على مذهب أهل البيت عليهم السلام، طليعتهم عالمان دينيّاَن هما الشيخ محمود طه جوك، والشيخ رافال أحمد بيركر.

والحقيقة أنّنا لم ننجح في الحصول على معلوماتٍ شافيةٍ عن هذين الرّائديَن. وإن نكُن لانشكّ في أنهما بولنديّيَن أصيليَن، وأنهما نهلا العلم في معاهده في (إيران) أو (العراق). ونرجو أن نوفّق في المستقبل إلى الوفاء بحقهما من الذكر الطّيّب.

نتيجة أعمالهما، بالتعاون فيما بينهما، أنشآ في وطنهما المؤسّستيَن التاليتيَن:

١. **جمعيّة المسلمين المتحدين**. مركزها في (وارسو) العاصمة، ولها فرعٌ في كلٍّ من مدينتَي (بيدكوشج) و (أولشتين). وهي تُدارُ بالتعاون بين الشيخيَن.

٢. **جمعيّة الاتحاد الإسلامي. Muslim Unity Society** في (وارسو). بإدارة الشيخ محمود طه جوك. وتهتمّ بـ:

- ترجمة الكُتُب الشيعيّة إلى اللغة البولنديّة.
- تيسير إرسال الطلبة إلى الحوزات العلميّة لتلقّي العلوم الدينيّة.

- إقامة المحاضرات الثقافيّة والاحتفالات الدينيّة بشكلٍ مُبسّط. وللجمعيّة موقعٌ على الشبكة العالميّة (al_Islam.org.pl).

كما يوجد موقعٌ آخَر باللغة البولنديّة، يُعنى بتقديم الإسلام على المذهب الشيعي الإمامي (szia.webpark.pl). يُقدّم ترجمةً بالبولنديّة لمؤلفات بعض العلماء الشيعة، كالشيخ مُطهري، والسيد حسين نصر، والسيد محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير الميزان وغيرهم.



الكتاب الثالث

قارّة أفريقيـا



الفصل الأول

حوض النيل

الباب الأول: مصر

(١) تأريخ

دخل التشيّع (مصر) بدخول الإسلام إليها. كان جمعٌ من أبرز أنصار الإمام علي عليه السلام في جملة الفاتحين. منهم كاتبه أبو رافع، والمقداد بن الأسود الكندي، وأبو ذر الغفاري، وأبو أيوب الأنصاري. ثم كان مسلموا (مصر) طليعة مَن ثاروا على عثمان، وفي هذا السبيل حضروا إلى (المدينة). ثم كانوا ممّن دعا الإمام عليه السلام إلى استلام السُلطة وقبول البيعة فلبّى طلبهم. وعند دخولهم مصرَ عائدين من (الحجاز) منتصرين كانت أُهزوجتهم

خُذها إليك واحذرن أبا الحسن　　إنّا نُمرُّ الحرب إمرارَ الوسن

بالسيف كي نُخمد نيران الفتن

ثم أنّه ولّى عليها صاحبه قيس بن سعد بن عبادة الانصاري، ثم ربيبَه محمد بن أبي بكر. وعندما وصل المشروع السياسي للإمام عليه السلام إلى العجز الموضوعي عن قتال الباغي عليه معاوية، بعد أن فقد (العراق) في (صفين) نسبةً عاليةً من القوّة القادرة على القتال، التفت إلى كنانته (مصر)، التي كانت ماتزال سليمةً بشريّاً، فأرسل إليها رجله للمهمّات الكبري مالك الأشتر، ليلي من هناك وضع معاوية بين فكّين. لكنّ معاوية، الذي كان يعرف أن وصولَ مالك إلى (مصر) سيكون له قوّةَ القضاء عليه، اغتاله في (بعلبك)، كما حقّقنا في كتابنا مالك الأشتر ومقامه في بعلبك. ولو انه وصل إلى (مصر) لكان من الأرجح أنّنا نعيش اليوم في عالَمٍ مختلف. وعلى التّوّ أرسل معاويةُ إليها عمرو بن العاص بقوّةٍ عسكريّة، فقتل ابنَ أبي بكر واستولى عليها. ومُذ ذاك بدأ

وضع الشيعة في مصر بالانحدار، بسبب المواقف السياسيّة المُعادية لهم طيلة العهود التاليّة. ثم جاء الفاطميّون الإسماعيليّون فبسطوا سلطانهم عليها زهاء قرنين من الزمان (٣٦٢. ٥٥٥هـ / ٩٧٢. ١١٦٠م). وهؤلاء استفادوا ولا ريب من ولاء المصريين لأهل البيت عليهم السلام في تثبيت سلطانهم. كما كانوا من جانبهم يُقيمون المراسم الشيعيّة الأساسيّة: عيد الغدير، ذكرى يوم عاشوراء. والذي يعرفُ (مصر) وأهلَها اليوم يرى أنّها ما تزال تُكنُّ في أعماقِها ولاءً غير مَجذوذ لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ممّا سنرى آثارَه جليّةً فيما سيأتي.

(٢) الشيعة في مصر

مامن إحصاءٍ مقصودٍ لعديدهم هناك. والأمر يخضع، أولاً، لميول القائل بين مُستكثرٍ ومُقلّ. وثانياً لِما يُعنى بوصف «شيعيّ». هل هو صِرف المُوالي ولاءً ما لأهل البيت عليهم السلام، مع شيءٍ من اللوم أو التثريب لَمن نال منهم بالقول أو بالعمل. أم هو هذا التشيّع الإمامي الكلامي الفقهي المعروف؟

في الذين هم أقربُ إلى الحياد نذكرُ (معهد إعلام الشرق الأوسط) في مدينة (واشنطن)، الذي أصدر في شهر كانون الثاني / يناير ٢٠٠٥ م تقريراً تفصيلياً على الشيعة في (مصر)، جاء فيه أنّ (مركز ابن خلدون) في (القاهرة) قدّر عددهم فيها بنحو ١٪ من مجموع السكان المسلمين، أي ٦٥٧ ألفاً.



لكنّ أحد معارف الشيعة بـ (مصر)، محمد الدّريني، وهو الأمين العام لـ (المجلس الأعلى لأهل البيت)، يقول أنّ عددهم هناك يفوق ذلك بكثير. باعتبار أنّ فيها ما يزيد على العشرة ملايين نسمة من أتباع الطُرُق الصوفيّة. بينهم ما لا يقلّ عن المليون من الشيعة اعتقاداً وعملاً. فضلاً عن أن من الشيعة المصريين من غير أُولئك الصوفيين مَن مَن يتجنّبون إعلان تشيّعهم حِفاظاً على أنفسهم، وخشية النفوذ الوهّابي، الذين لا يُوفّرون جهداً ولا مالاً في سبيل مُلاحقة الشيعة والمُتشيّعين والتضييق عليهم. إلى حدّ شراء ذِمم أرباب المؤسّسات الدينيّة، الذين لاينفكّون عن الكيد للشيعة أينما ثقفوهم، ويُحرّضون الناس عليهم، بنسبة أُمور وأفعالٍ غير لائقة وغير صحيحة إليهم.

ولنلاحظ أن كلام الدريني هذا يعكس الاضطراب الذي أشرنا إليه في مفهوم التّشيّع. بينما يقول بهاء أنور أحمد، الذي يوصَف بأنّه (المُتحدّث الرسمي باسم الشيعة المصريين) أن عدد الشيعة في (مصر) يصل إلى ثلاثة ملايينٍ غالبيّتهم يخشون الإعلان عن مذهبهم كي لايتعرّضوا للاضطهاد في عملهم أو التنكيل بهم وقمعهم وحرمانهم من أعمالهم.

هذا العرض المقصود يعكس أمرين:

الأول: أن التشيّع في (مصر) هو من تراثها التليد، الذي اجتاز عهوداً من الاضطهاد، فكان أن احتمى بعددٍ كبيرٍ من الطُّرُق الصوفيّة، التي ما تزال تُعبّر عن هويّتها الأصيلة المكتومة بتنظيم احتفالاتٍ موقوتة، كالاحتفال السنوي الحاشد أخيراً بمولد السيّدة زينب، والآخر بمولد الإمامين الحسين و



المهدي عليه السلام. والاحتفالان الأخيران هما من خصوصيّات منطقة (أسوان)، حيث ما يزال هناك قبيلةٌ كبيرةٌ اسمها (الجعافرة)، نسبةً إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، لأنها ترتفع بنسبها إليه. وأنّها التجأت في الماضي البعيد إلى هذه المنطقة القصيّة الطّرفيّة نأياً بنفسها عن مواطن السُّلطة وفراراً من اضطهادها لهم بعد الفاطميين.

ومن الذكريّات الغالية عليّ من أيّام الشباب، أن صادف أنّني التقيتُ في إحدى مكتبات (خان الخليلي) بالقاهرة بالأُستاذ عباس محمود العقّاد يرحمه الله. فرأيت منه إقبالاً غير مُتوقّع على شخصٍ مثلي يلتقي به أوّل مرّة، إلى رغبةً منه غير خفيّة في تبادل الحديث، كانا مبعث غبطةٍ وسرورٍ لا يوصفان لديّ، كما كانا مبعث تعجّبٍ من الحاضرين. وسرعان ما اكتشفتُ أنّ مبعث هذا الإقبال منه ليس شخصياً، بل زيّي وما فيه من دلالةٍ على مذهبي. وكان ممّا قاله لي أنّه، وهو الذي وُلد ونشأ في (أسوان)، شيعيّ الجذور، ومن (الجعافرة) الُمتحدّرين من إسحق ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. وهذا قد يُفسّر الكثيرَ من مواقفه وآرائه ذات النّفَس الشيعي غير الخفيّ، التي عبّر عنها في غير كتابٍ من كُتُبه الكثيرة، خصوصاً في مجموعة عبقريّاته الشهيرة.

الثاني: أنّ هذه الخصوصيّة المصريّة، وما فيها من ميلٍ صريحٍ إلى التشيّع، ومن تعلُّقٍ غير خفيّ بأهل البيت عليهم السلام، قد استفزّ جهاز الدعاية الوهابيّ العالَميّ، بما كان تحت يده من إمكاناتٍ ماديّةٍ كبيرة، فانفق الكثير على شراء بعض الأبواق الإعلاميّة وأرباب المؤسسات الدينيّة. لغرضٍ واحد هو التحريض إلى حدّ الإغراء بالقمع الماديّ المباشر لَمن يُظهر أدنى ميلٍ إلى التشيّع أو بعض شعائره. وكان من الآثار المباشرة لذلك أن الجامع الأزهر، الذي كان شيخه قد أفتى في الماضي القريب فتواه الشهيرة بصحة التعبُّد بالمذهب الشيعي الإمامي، رأيناه قبل مدةٍ قريبةٍ يُخصّص الأعداد الُمتوالية من مجلته الرسميّة (الأزهر) للتحذير من «خطر الشيعة». كما خصّصتْ الكتاب الُملحق بالمجلّة للحديث بما هو مليءٌ بالقذف والتخليط والبهتان بعنوان «الخطوط العريضة لدين الشيعة». وفيه من صنوف الاختلاق ما يدلُّ على جهل كاتبه الُمطبق ونواياه غير البريئة. مع أن رئيسها كان في ذلك الأوان من عيون الباحثين المصريين. وما يزال كتابه عن الُمعتزلة من المصادر التي لايستغني عنها الباحثون في تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي. وقد عرفته جيّداً في الماضي، يوم كان يعيش في كوخٍ من أكواخ (حي الزيتون) بضواحي (القاهرة). ولكنّه كان يفتخر بفقره. وإن أنسَ فلا أنسى يوم دعاني إلى الغداء في كوخه البائس، وقولته لي إن هذا هو قدَر مَن لا يبيع علمه وقلمه. لكنّ صُورَه المنشورة وكتاباته الوهّابيّة الُمتشدّدة اليوم تشهد بأنه بات إنساناً آخر، ارتفع في نمط عيشته بما لا يُقاس، مُقابل هبوطٍ مؤسفٍ مُحزنٍ، بالنسبة لعارفي فضله السابق، في نمط فكره وكتاباته.

ولنضُف إلى هذا الأُنموذج آخرَ مُشابهاً في انقلابه وفي مواقفه. هو الاخواني الشيخ يوسف القرضاوي، رئيس ماكان يُسمّى بـ (الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين). وكان بصفته هذه يعقد الجلسات الحافلة، يتمثّل فيها فقهاء معارف من مختلف المذاهب، ابتغاء بناء وتعزيز التعارف فيما بينهم، ومن ثَمّ الحوار على مبانيهم الفقهيّة. لكنّنا رأيناه بعدُ ينقلب على نفسه، فطفق يُحذّر من خُطورة المَدّ الشيعي، وعملهم بزعمه على غزو المجتمع السُّنّي.

المُهمّ أن أُنموذجي الأُستاذ العقّاد وصاحبنا المُحدَث النعمة الشيخ القرضاوي يُلخصّان لنا التيارَين المُتفاعلَين تحت سطح المجتمع المصري. أوّلهما بما له من قوّةٍ ذاتيّةٍ تليدةٍ ما تزال فاعلةً بمعنىً من المعاني. والثاني بما يختزن من فكرٍ معروف عاجزٍ عن فهم الآخر المُختلف، فمضى يعمل بما تحت يده من إمكانات كبيرةٍ على إلغائه بكلّ وسيلة. وذلك لو كان يعقلُ، مالن يكون.

كلُّ ذلك عن المؤثّرات الشيعيّة الأصيلة الموروثة في (مصر). فماذا عن التّطوّرات العالقة بآثارها حتى الآن في الوسط نفسه؟

(٣) التأثيرات الحاليّة على التشيّع في مصر

كانت فترة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر رحمه الله ذات أثرٍ كبيرٍ مُتمادٍ في نطاق علاقات المذاهب الإسلاميّة في الوسط المصري.

حقٌّ أنّ الأُطروحة السياسيّة للرجل كانت قوميّةً، شوفينيّةً إلى حدٍّ ما، ولكنّه كان، من منظورٍ سياسي، شديد الحرص على إحياء أطيب العلاقات بين عناصر الأُمّة. ومن ذلك تغييب العناصر المُفرّقة بين أتباع المذاهب. وهنا نرجع إلى الفتوى الأزهريّة، بجواز التّعبُّد بالفقه الشيعيّ الإمامي، لنقول أنّها صدرت في عهده وبمُبادرةٍ سياسيّةٍ منه ولا ريب.



ثم أنّه سهّل انتماء الطلاّب العرب إلى الجامعات المصريّة. فوفد إلى مصر أُلوفُ الطلاّب القادمين من مختلف البلدان العربيّة للدراسة فيها. وبينهم كثيرون من الشيعة العراقيين واللبنانيين والخليجيين والأحسائيين ـ القطيفيين (نسبةً إلى الأحساء والقطيف شرق شبه الجزيرة العربيّة، المنطقة ذات الأكثريّة الغالبة من الشيعة). وبذلك أسّس، ربما دون أن يقصد، لأوّل اتصالٍ حُرٍّ مباشرٍ بين بلده وبين جماعاتٍ شيعيّةٍ ذات صفةٍ نخبويّة. مضت تعملُ على تعريف زملائهم وأصدقائهم بمذهبهم ويُيسّرون لهم كُتُبهم. ومَن يقرأُ مُذكّرات بعض المُتشيعين المصريين البارزين، مثل الدكتور أحمد راسم النّفيس والكاتب صالح الورداني، يرَ تأثّرهم البالغ بما أوقفهم عليه طلاّبٌ شيعةٌ في الجامعات المصريّة. وبذلك تحرّروا من السيطرة الفكريّة للدُّعاة المذهبيين المُحترفين.

أضِفْ إلى ذلك تأثير القنوات التلفزيونيّة الفضائيّة الشيعيّة الكثيرة. فضلاً عن مواقع التواصل الاجتماعي التي عقدت وما تزال مُناقشاتٍ نقديّة غير مسبوقة، نال بعضُها ممّا كان سابقاً فوق كلّ نقد، مثل صحيح البخاري. الأمر الذي حرّك اهتمام الكثيرين باتجاه البحث عن مصادر إسلاميّة مختلفة بعد القرآن.

ثم جاءت الثورةُ الإيرانيّة التي ألهبت مشاعر المصريين، في ظل التّراجُع السياسيّ المحلّي عن كلّ الأُطروحات الوطنيّة والقوميّة، التي كانت قد وضعت (مصر) في موضع قياديّ لدى أكثر الشعوب العربيّة. وأخيراً أتت إنجازات حزب الله في (لبنان) قِبال الغطرسة الإسرائيليّة. التي قدّمت أُنموذجاً مفقوداً للإمكانات السياسيّة

والتعبويّة المذخورة في الوازع الديني، عندما يوجّه بالاتجاه الصحيح.

كلُّ هذه المؤثّرات الجديدة الفاعلة، وضعت صورة الشيعة والتشيّع في أذهان المصريين في موقعٍ مُتقدّم، شتّان ما بينه وبين الصورة السابقة، التي سوّقتها الأجهزة الدينيّة، بدعمٍ ماليّ وسياسيّ من أرباب الدعوة الوهّابيّة. أدّت إلى إيقاظ المؤثّرات التاريخيّة التي باتت معروفةً لدى القارئ، وإلى تحريكها من الوضع السّكوني إلى آخر فاعل. كما أدّت إلى إعلان عددٍ من الطليعة المصريّة خروجهم على مفاهيم الإسلام السُلطوي، وبالتالي تحوّلهم إلى التشيّع، ما لبثوا أن غدوا في موضعٍ قياديّ لقاعدةٍ شعبيّةٍ مُتزايدة باطّراد. على الرغم من صنوف الاضطهاد والتضييق الرسمي، وعلى الرغم أيضاً من التشنيع وتشويه السُّمعة الذي ضلعت فيه أجهزةٌ إعلاميّة مكتوبة ومَرئيّة، لم تتورّع عن صنوف الاختلاق والبهتان والتحريض، الذي هبط إلى مستوى تسويغ والإغراء بالقتل. أدّت أحياناً إلى أعمال في الغاية من الوحشيّة. التي بلغت أقصى غايتها بالقتلة العلنيّة الوحشيّة دون أدنى سبب لأربعةٍ من الشيعة، بينهم القيادي الشيخ حسن محمد شحاته، ومعه شقيقاه شحاته وإبراهيم وتلميذه عماد ربيع علي، يرحمهم الله تعالى. وذلك بتاريخ ٢٣ تموز / يونيو ٢٠١٣م، ببلدة (زاوية أبو مسلم) بـ (الجيزة).

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السياق أن الجريمة الوحشيّة حصلت بمرأى ومسمع من رجال الأمن المحليين. بينما كان عددٌ من تنظيم الإخوان المسلمين والدُّعاة السلفيين يُحرضون بعض أهالي البلدة المخدوعين على الهجوم على المنزل، حيث التقى بضع عشرات من الشيعة ليلة النصف من شعبان، بزعم أنّهم يعملون أعمالاً مُنكرَة دينياً وأخلاقيّاً. وبالنتيجة قُتل أُولئك الأربعة، ولم تتحرّك السلطات القضائيّة لمُعاقبة القتلة. ولو لم تتحرّك إحدى الهيئات الاجتماعيّة مُطالبةً بالتحقيق في الجريمة، لذهبت دماء أُولئك الشهداء المظلومون هدراً.

(٤) مواطن انتشار الشيعة اليوم في مصر

١. **محافظة الدّقهليّة**. وخاصّةً عاصمتها مدينة (المنصورة). حيث يُقيم أحد أبرز وأشهر الشخصيّات الشيعيّة المصريّة، الأُستاذ في كلّيّة الطب بجامعة المنصورة الدكتور أحمد راسم النّفيس.

٢. **محافظة الشرقيّة**. حيث يتمركز الشيعة في منطقةٍ تُسمّى (كفر الإشارة ، التي تُطلق عليها إحدى وسائل الإعلام المحلّيّة لقباً يشي بوضوح بضيقها بها هو «وكر الشيعة».

٣. **محافظة أسوان**. وقد وقفنا آنفاً على الأُصول العريقة، نسَبيّةً وسببيةً، للشيعة فيها. وهؤلاء ما يزالون يحتمون حتى الآن بالطُّرُق الصوفيّة، التي لاتخفى في أعمالها ورسومها إماراتُ أُصولها الشيعيّة. ولولا أن هؤلاء ممنوعون من التواصُل وتلقّي التبليغ من إخوانهم لكان لها أمرٌ مُختلفٌ جِدَّ الاختلاف.

وهناك حديثٌ مُتداوَلٌ بين الأوساط الشيعيّة بـ (مصر) عن وجود تجمُّعاتٍ شيعيّة لا تتجاهر بمراسم تشيعها في محافظاتي (أسيوط) و (سوهاج). وقد شهدتُ بأُم العين، أثناء زيارتي قريةً من قُرى المنطقة برفقة أحد الأصدقاء، ساحة القرية وقد امتلأت الجدران المحيطة بها بكتاباتٍ حافلةٍ بالرموز الشيعيّة الصريحة. وعندما

عبّرتُ لصاحبي عن عجبي ممّا أرى، قال: لا تعجب! لقد أفرغ أهل القرية ما في وُجدانهم بهذه الوسيلة التي لا يملكون غيرها.

والأمر نفسه يُقال عن سكان أجزاءٍ من صحراء (سيناء). فضلاً عن بعض الأحياء الشعبيّة في (القاهرة). حيث يوجد أهمّ المقامات الشيعيّة التاريخيّة، ماتزال مقصودةً من جُموع الزّائرين الغفيرة، خصوصاً في مواسم معلومة.

(٥) المراقد الشيعيّة في مصر

١. **مقام مالك الأشتر**. بمنطقة (القلج) بالقُرب من بلدة (الخانكة)، الواقعة ضمن حدود مدينة (عين شمس) القديمة، أي المدينة الخراب خارج القاهرة، بالقُرب من (المطريّة). وقد جُدّد منذ بضع سنوات باهتمام البُهرة الإسماعيليين. وكان المقام قبل تجديده منسوباً محلّيّاً بين أهل المنطقة إلى المُلقّب بـ (الشيخ العجمي).

والحقيقة أنّنا لسنا ندري ما هي الحُجّة في نسبة المقام إلى مالك الأشتر التي استند إليها الذين جدّدوه، ومُذ ذاك شاعت وانتشرت. مع أنّ هذه النسبة المزعومَة لم ترِدْ في أي مصدرٍ تاريخيّ. بل إنّها تُخالف الرواية المزعومة، القائلة أنّه اغتيل بالسُّم في مدينة (السويس)، البعيدة مسافةً طويلةً جدّاً عن وسط الدلتا المصريّة.



ونحن قطعنا في كتابنا مالك الأشتر ومقامه في بعلبك أنّ قبره الحقيقي هو في هذه المدينة، استناداً إلى أدلّةٍ كثيرةٍ قويّة. وإنّما ذكرناه هنا للإشارة إلى ذلك. وكي لايظنّنّ أحدٌ أنّنا قد تجاهلناه بعد العلم به.

٢. **مقام السيّدة زينب** عليها السلام، في الحيّ المنسوب إليها بـ (القاهرة). وقد توالت عمارته أثناء القرون بدرجاتٍ مختلفة من حيث الحجم والفخامة. ونحن نُرجّح أنّه حقّاً مرقد الحوراء زينب بنت علي عليه السلام بطلة (كربلا). وفيه يُقام في شهر رجب من كلّ عام احتفال كبير. يبدو أنّه لم ينقطع منذ الفاطميين إلا فترةً وجيزة.

٣. **مرقد السّيّدة نفيسة** والمقامات والمشاهد الكثيرة التي يضمّها (طريق أهل البيت).

والسيدة نفيسة هي ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن علي عليهما السلام. زوجها إسحاق بن الإمام الصادق عليه السلام، المُلقّب بإسحاق المؤتمَن. توفيت في (مصر) ودُفنت بدارها بـ (القاهرة) بطلبٍ من أهلها، في المنطقة المُسمّاة اليوم (السيّدة نفيسة).

ومزارها اليوم من أشهر مزارات أهل البيت عليهم السلام بـ (مصر). ويُقامُ لها في كلّ عام احتفالٌ كبير بذكرى مولدها.

وممّا يجدرُ بنا ذكره، أنّ مقامها يقع في الطريق المُسمّى حتى اليوم بـ (طريق أهل البيت). وهو طريقٌ شهير، يبدأُ بمشهد الإمام علي زين العابدين عليه السلام، ثم مقام السيّدة نفيسة، ثم مشهد السيّدة سُكينة

بنت الحسين عليه السلام، فمشهد السيّدة رُقيّة بنت الإمام علي الرضا عليه السلام، بعده مشهد محمد بن جعفر الصادق عليه السلام. وفي آخر الطريق مشهد السيّدة عاتكة عمّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. **مقام رأس الحسين** عليه السلام. وهو مقامٌ شهير جدّاً في المحلّة المُسمّاة بـ (الحسين) بالقاهرة.

والمُتدَاوَل عند الناس وفي بعض الكُتُب أن الرأس الشريف كان مدفوناً في مدينة (عسقلان)، على الحدود بين (فلسطين) و(مصر)، (هي اليوم تحت الاحتلال اليهودي، واسمهاعندهم (أشدود)، وأن موكب السبايا العائدين إلى المدينة من (دمشق) هم الذين دفنوه هناك. وأن الفاطميين نقلوه سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م إلى حيث هو اليوم. خشية استيلاء الصليبيين على المدينة والنَّيْل من المقام. وهي روايةٌ تبدو لنا معقولة جداً.

وعلى كل حال، فليس من غرضنا الآن تحقيق القول في الأمر. لأن ما نسعى إليه هو دلالة الأثر على هُويّة الذين شادوه. وذلك يتمّ لنا على كلّ حال. خصوصاً وأنّ وجود المقام بـ (مصر) كان وما يزال من العوامل الفاعلة في ربط المصريين بأهل البيت عليهم السلام.

٥. **مقام محمد بن أبي بكر**. وهو في بلدة (ميت دمسيس) التابعة لمدينة (المنصورة). وثمة قبرٌ ناحية (الفسطاط)، يُقالُ لدفينه (محمد الصغير). والناس هناك يرون أنّه لمحمد نفسه.

والثابتُ على كل حال أنّ محمد بن أبي بكر رضوان الله عليه قُتل ودُفن في (مصر).

وثمة أيضاً ما يُقال له (مقام زين العابدين). الذي يُعتقَد أنه لرأس زيد بن علي عليه السلام. ومقامٌ لكلثوم بنت القاسم بن محمد بن الإمام الصادق عليه السلام. وهو بجوار (مسجد الشافعي) بـ (القاهرة). وآخر للسيّدة عائشة بنت الإمام الصادق عليه السلام أيضاً. وهو في الحيّ المعروف المُسمّى باسمها في (القاهرة).

(٦) المؤسّسات الشيعيّة في مصر

١. **المجلس الأعلى لرعاية آل البيت**. يرأسه محمد الدريني. أُعلن تشكيله في الصعيد الأعلى في نهاية تسعينات القرن الماضي، ليكون إطاراً جامعاً للسّادة الاشراف المصريين، وللدفاع عن أتباع نهج أهل البيت. وقد وُصف هذا المجلس في بعض أجهزة الإعلام بـ «الكيان الجاذب للشيعة». وهو يُصدر صحيفةً باسم (صوت آل البيت).

٢. **جمعية آل البيت**. أُعلن تأسيسها سنة ١٩٧٣م. ولم تكُن الجمعيّة أوّلَ أمرها تُظهر توجّهاتها الشيعيّة صراحةً. فكان نشاطها مُقتصراً على بذل المساعدات الاجتماعيّة والخدمات الثقافيّة والدينيّة للمُنتسبين إلى آل البيت. كما بنَتْ علاقاتٍ طيّبة مع الهيئات الإسلاميّة المختلفة في (مصر)، وفي مقدمتها جماعة الاخوان المسلمين. فكانت صفتها في هذا الشأن أقربَ إلى التقريبيّة بين المسلمين. خاصةً وأنّها ضمّت بين المُنتسبين إليها بعض غير الشيعة.

لكنّها في وقتٍ لاحق ظهرت على الناس بوجهها الصريح، بأن نشرت عدداً من الكُتُب ذات الصفة الشيعيّة الصريحة. مثل المراجعات وعليٌّ لا سواه والتشيّع ظاهرةٌ طبيعيّةٌ في إطار الدعوة الإسلاميّة. الأمر الذي استفزّ الجماعات ذات الاتجاهات التكفيريّة. ذلك بالإضافة إلى الثورة الإسلاميّة في (إيران) ومُعاداة الحكم السّاداتي الصريحة لها، أدّى إلى تعقيد الأُمور في وجه الأنشطة الإسلاميّة إجمالاً، والشيعيّة منها بنحوٍ خاص. كلُّ ذلك قاد إلى إصدار الحكومة قراراً بحظر الجمعيّة، بحُجّة أنّها «تُمثّل خُطورةً على عقائد الناس، ووحدة صفهم، ببثِّ أفكارٍ غريبة تُخالف الدين الإسلاميّ، وتؤيّد الفكر الشيعي (!)». أي أنّ الجمعيّة لم تُعمّر إلا زُهاء ستة أعوام(٢٢/ ٨ / ١٩٧٣ ـ ١٢/ ٢/ ١٩٧٩م).

٣. **حزب الوحدة والحريّة.** حزبٌ سياسيّ أطلقه بعض الشيعة المصريين في شهر أيلول/ اغسطس ٢٠١١م. وهو أوّلُ حزبٍ سياسيٍّ شيعيّ في (مصر). أعلن وكيلُ مؤسّسيه الدكتور أحمد راسم النفيس أن الحزب يُمثّل المُستضعفين في (مصر)، وفق وصيّة النبي ﷺ لسبطيه: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عونا».

وحسب ما قاله أيضاً محمود جابر، وهو أحد وكلاء الحزب أيضاً، إنّ برنامج الحزب يدور على شعاراتٍ ثلاثة: حريّة، عدالة، وحدة. مؤكّداً أنّها شعاراتٌ مشتركة مع كلّ الأحزاب السّاعية إلى التغيير في (مصر). وأنّ الحزب يؤمن بمدنيّة الدولة. ويرفض دخول الدين في الصراع السياسي. بل يجب أن يكون صراعاً سياسيّاً على ما فيه مصلحة الجميع. ويؤمن بقضيّة المواطنة، وأنّ العدو الأوّل لـ (مصر) هو الكيان الصهيوني. ويرى أنّ إزالة هذا الكيان هو الطريق الحتم نحو تحرير الأُمّة. وأنّ الوجود الأميركي وتدخّله في شؤون الشعوب هو سبب مُعاداة الحزب لها.

٤. **حزب غد الثورة.** وهو من الأحزاب السياسيّة التي نشأت في (مصر) في نطاق (ثورة ٢٥) يناير على حكم حسني مبارك. وهوكسابقه من حيث أنّ الذين أطلقوه كانوا من الطليعة الشيعيّة المصريّة، بسبب معاناتها طويلاً من التهميش والترذيل. ومن أبرزهم بهاء أنور محمد، عضو الهيئة العليا للحزب، والمُتحدّث الرسمي باسم الشيعة المصريين. ومن تصريحاته لإحدى القنوات التلفزيونيّة المصريّة، أنّه تقدّم بطلبٍ إلى الحكومة والبرلمان الهولندي لمنح الشيعة المصريين حقَّ اللجوء السياسي، أُسوةً بالأقباط المصريين بعد أن منحتهم هذا الحقّ. ذلك بسبب «ما يتعرّض له الشيعة من تمييز واضطهاد، وفصلهم من أعمالهم في القطاعين العامّ والخاصّ، وتهديدهم بالقتل باستمرار، وعدم تمثيل أو دعوة الشيعة لجلسات الاستماع بالجمعيّة التأسيسيّة للدستور». كما حذّر ممّا وصفه بـ «استحواذ تيّارٍ واحدٍ على الدولة المصريّة، بعد قيام الثورة. من أجل تأسيس دولةٍ مدنيّةٍ، تحفظ حقوق الجميع باعتبارهم مواطنين. بعيداً عن انتماءاتهم ودياناتهم ومذاهبهم». وخلُص إلى القول أنّ «عدد الشيعة في مصر يصِلُ إلى ثلاثة ملايين مواطن. أغلبهم يخشون الإعلان عن مذهبهم كي لا يتعرّضوا للاضطهاد في أماكن عملهم، أو التنكيل بهم وقمعهم».

(٧) شخصيّات شيعيّة بارزة في مصر

١. **د. أحمد راسم النفيس.** وُلد في مدينة (المنصورة) سنة ١٩٥٢م. أستاذٌ في كليّة الطبّ بجامعتها. كان له مقالٌ أُسبوعيّ في صحيفة (القاهرة) التي تُصدرها وزارة الثقافة. انتسب مدةً إلى جماعة الاخوان المسلمين. ثم انفصل عنها سنة ١٩٨٥م وأعلن تشيّعه. جرى توقيفه من قبل السلطات المصريّة سنة ١٩٩٦م.

له عدّة كُتُب منها الطريق إلى آل البيت وأوّلُ الطريق وعلى خُطى الحسين. وهو عضوٌ في الهيئة العامّة لـ (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام). وقد التقينا به مراراً في المؤتمرات التي يعقدها المجمع.

٢. **محمد إبراهيم الحسيني.** وُلد ونشأ في (الاسكندريّة). انضمّ إلى جماعة الاخوان المسلمين منذ الطفولة حتى وصل إلى درجةٍ تنظيميّة اسمها «اخوان أ» أي عضواً عاملاً فيها مُعترَفاً به رسميّاً من الجماعة.

ترك تنظيم الاخوان سنة ٢٠٠٣م ليُعلن تشيّعه. فقابلتْ الجماعةُ قراره بالهجوم ثم بالنُّصح. وأخيراً قالوا له: «لا تترك الجماعة، فهناك إخوانٌ في إيران، ولا مانع من أن تكون شيعيّاً واخوانيّاً».

أتى تحوّله إلى التشيّع على قاعدة تأثّره بالثورة الإسلاميّة في إيران، التي رأى فيها «انتصار وشيءٌ كبيرٌ جداً». بينما «انتهى اخوان الاسكندريّة واخوان مصر كلّها. وهم يستحقّون تلك النهاية. فهم يملكون فكراً تدميريّاً لأيّ دولة. اكتشفتُ أنّها أوّل الطريق إلى داعش، نظراً لكونها مليئة بالتكتيكات لهدم الدُّوَل. ولا أنسى أناشيد الاخوان التي يُنادون فيها بالجهاد والعمل المُسلّح».

زار إيران عدّة مرّات لحضور مؤتمر الشباب والصحوة الإسلاميّة وغيره من المؤتمرات. وفي إحداها دخل (جامعة المصطفى) لفترةٍ قصيرةٍ لغرض الدراسة.

من أعماله تأسيس (مجلس حكماء الشيعة) لتوحيد جهود الشيعة في مصروتنظيم صفّهم لنشر المذهب. لكنّه صدفَ عنه فيما بعد. وهو يعيش اليوم في (الإسكندريّة).

٣. **حسن محمد شحاتة العناني.** كان يرحمه الله تعالى من أبرز القيادات الشيعيّة في (مصر). وُلد عام ١٩٤٦م في محافظة الشرقيّة. تلقّى دراسةً دينيّة وأصبح من أئمة أحد المساجد. أعلن تشيّعه سنة ١٩٩٦ م. وعلى الأثر اعتقلته السلطة الأمنيّة بتهمة ازدراء الأديان. ثم اعتُقل مرّةً أُخرى سنة ٢٠٠٩م مع ثلاثمائة شيعيّ آخر. وعقب الإفراج عنه مُنع من السفر سنة ٢٠١٣م. سقط شهيداً مع ثلاثةٍ من إخوانه. وقد روينا قصّة شهادتهم المُدبّرة قبل قليل.

٤. **سعيد أيوب.** وُلد في (القاهرة) سنة ١٩٤٤م وفيها نشأ.

انصرف إلى قراءة التاريخ الإسلامي قراءةً دقيقة مستوعبة، وسرعان ما اكتشف أن تاريخ الإسلام شيءٌ وتاريخ المسلمين شيءٌ آخر. وأن هذا حافلٌ بالصراعات في سبيل الاستيلاء على السلطة.

اهتم بالبحث في الحقبة التي تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فتبيّن له أنّه كان يُمهّد السبيل من بعده لأهل

بيته عليهم السلام. لكن ما أن توفي حتى ترك الصحابةُ وصاياه وتدبيراته، بل وتنكّروا لنصوصٍ قرآنيّةٍ صريحة، وعملوا وفق نوازعهم الموروثة. بحيث انتهت الخلافة إلى ملكٍ عضوض. وبالنتيجة أعلن تشيّعه. وانصرف إلى تصنيف عدد من الكُتُب التي أفرغ فيها تجربته الغنيّة في البحث. هي:

- **معالم الفتن**. نظراتٌ في حركات الإسلام وتاريخ المسلمين.
- **الانحرافات الكبرى**. القُرى الظالمة في القرآن الكريم.
- **ابتلاءات الأُمم**. تأملاتٌ في الطريق إلى المسيح الدّجّال والمهدي المُنتظَر في اليهوديّة والمسيحية والإسلام.
- **الطريق إلى المهدي المُنتظَر**.
- **الرساليّون**. قراءةٌ في أصالة الحُجّة وتأملاتٌ في معالم التأويل وحكمة الابتلاء.
- **زوجات النبي** صلى الله عليه وآله وسلم. قراءةٌ في تراجم أُمهات المؤمنين في حركة الدعوة.
- **عقيدة المسيح الدّجّال في الأديان**. قراءةٌ في المستقبل.
- **في ظلال أسماء الله الحُسنى**.
- **الظّلّ الممدود**. في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته.
- **وجاء الحقّ**. والمقصود بالحق الدعوة الخاتمة.
- **الأوائل في أحداث الدنيا وأخبار الآخرة**.

وقد لاحظنا أن هذه الكُتُب، عدا واحد منها، طُبعت في (بيروت). ومغزى ذلك واضح بغنىً عن البيان.

٥. **الدمرداش بن زكي العقالي**. وُلد ونشأ في أواسط صعيد (مصر)، في إقليم (أسيوط)، بقرية اسمها (العقال)، التي ظلّ ينتسبُ إليها.

تخرّج في كلية الحقوق بجامعة (القاهرة) سنة ١٩٥٤ م. اشتغل فترةً بالمُحاماة، ثم قاضياً في وزارة العدل المصريّة. تدرّج في سلك القضاء إلى درجة مستشار بمحكمة استئناف (القاهرة). وفي السنة ١٩٨٦م أصدر رئيس الجمهوريّة السّادات قراراً بتعيينه عضواً في (مجلس الشُّورى المصري). ثم اختاره الرئيس حسني مبارك مستشاراً له في الشؤون القانونيّة، وأخيراً عيّنه الملك السعودي فهد بن عبد العزيز مستشاراً له في الشؤون نفسها.

انضمّ إلى تنظيم جماعة (الاخوان المسلمون) حتى بات من قادته. ومع ذلك فإنّه في الاثناء ماانفك يُفكّر ويُقلّب النظر فيما تحفل به الساحة المصريّة من آراءٍ ومذاهب. إلى أن انتهى به البحث والتّمعُّن إلى إعلان تشيّعه.

من أقواله التي عرض فيها تجربته: «لقد مرّ عليَّ زمنٌ، استغرق عقدين من السنين، حاولتُ أثناءه أن أتعرّف وجه الحقّ في الاعتقاد بمذهب أهل البيت. وكان مُنطلقي في بداية البحث ريفيّاً، حيث جُبلتُ على حبّ أهل البيت، وإعطائهم ولاء قلبي الكامل».



بالنظر إلى مكانته العلميّة العالية وسيرته النّقيّة وتجربته الحافلة، غدا من بعد الزعيم الروحي للشيعة في (مصر)، والمُعبّر عن قضاياهم في المحافل المحلّيّة.

لخّص تجربته مع تنظيم الاخوان بقوله:

«إنّ الاخوان المسلمين أضاعوا على مصر والأُمّة العربيّة فرصةَ قيام الوحدة العربيّة، عندما نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر. بأن حرّضوا حُكّام السعوديّة على الوقوف ضدّ أُطروحته للوحدة. مع أن عبد الناصر كان سابقاً من الاخوان المسلمين. وقد أوصى حسن البنّا بأن يكون هو رئيس التنظيم من بعده».

وفي هذا الكلام شهادةٌ نادرةٌ وفي الغاية من الخُطورة، أصدرها عارفٌ من موقع الاطلاع المُباشر والمُشاركة الفعليّة.

(وصلنا نعيه رضوان الله عليه أثناء كتابة هذه النبذة عنه، يوم الجمعة ١/ ٢/ ٢٠١٩م)

٦. **صالح الورداني**. كاتبٌ وصحفيٌّ. وُلد في القاهرة سنة ١٩٥٢م. اعتنق التشيّع سنة ١٩٨١م. صنّف ونشر أكثر من عشرين كتاباً، أودعها تجربتَه الشخصيّة التي قادته إلى إعلان التشيّع، منها:

- الحركة الإسلاميّة في مصر.
- الكلمة والسيف.
- مصر وإيران.
- فقهاء النفط.
- راية الإسلام أم راية آل سعود.
- إسلام السُّنّة أم إسلام الشيعة.
- مُذكّرات مُعتقَلٍ سياسيّ.
- الشيعة في مصر من الإمام علي حتى الإمام الخميني.
- موسوعة آل البيت (في سبعة أجزاء).
- تثبيت الإمامة.
- زواج المتعة حلالٌ عند أهل السُّنّة.
- الخدعة رحلتي من السُّنّة إلى الشيعة.
- دفاعٌ عن الرسول ضد الفقهاء والمحدّثين.
- أهل السنّة شعب الله المختار.
- فراعنةٌ وعبيد. مصر الوجه الآخَر.

ـ أكاذيب الوهّابيّة.

ـ عقائد السُّنّة وعقائد الشيعة.

ـ مدافع الفقهاء. التّطرُّف بين فقهاء السّلف وفقهاء الخَلَف.

٧. **محمد الدّريني**. وُلد في قرية (سيلا) بمحافظة الفيّوم. درس مدةً في الأزهر، وكان إلى وقتٍ قريبٍ يُواصلُ الدراسة في إحدى الحوزات العلميّة.

يرئس إدارة (المجلس الأعلى لرعاية آل البيت بمصر) منذ تأسيسه. كما يرئس تحرير صحيفة (صوت أهل البيت) الأُسبوعيّة.

٨. **بهاء أنور أحمد**. وقفنا على شيءٍ من سيرته قبل قليل.

٩. **الطاهر الهاشمي**. الأمين العامّ للطريقة الصوفيّة الهاشميّة المدنيّة، وهي من الطُّرُق الصوفيّة الكبرى في (مصر)، والمُتحدّث الرّسمي باسم (قُوى آل البيت بمصر).

نظّم علناً لأوّل مرّة في (مصر)، منذ بضع سنوات سبقتْ، احتفالاً حافلاً بذكرى مولد السيّدة زينب عليها السلام حضره جمهورٌ واسع. وأقام مسرحاً أمام مسجدها ملفوفاً بعلم مصر، إشعاراً بموقعها العالي، وبرمزيّة مرقدها الجامعة لكافة المواطنين المصريين بمختلف مذاهبهم.

من أقواله المأثورة عنه:

«إنّ الأسرات الشيعيّة بمصر كانت تحتفلُ دائماً بموالد آل البيت، وعلى رأسها مولد الإمام المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السلام، خِفيةً داخل منازلهم، بسبب اضطهادهم في عهد النظام السابق (يعني فترة رئاسة الرئيس السابق حسني مبارك). وإنّ احتفالات الشيعة بمصر لاتختلف عن احتفالات أهل السُّنّة والجماعة بموالد آل البيت».

يعني بالعبارة الأخيرة الاحتفالات التي درج عليها أرباب الطُرُق الصوفيّة في (مصر).

وقد علّق محمد الدريني (سبق ذكره قبل قليل) على هذا الاحتفال بالقول:

«إنّه أوّل احتفال للحركة بعد سقوط مبارك. وكان آخرَ احتفال رسميّ مُماثلٍ قد حصل في القاهرة قبل خمس سنوات، وذلك بالاحتفال بمولد سيّدنا الحسين. لكنّ أمن الدولة اعتقلنا بعدها، على الرغم من حصولنا على تصريحٍ من وزارة السياحة».

وهذا كلامٌ كبير وشهادةٌ بيّنة. مُستفادَةٌ من خبرةٍ ومُعاينةٍ ومشاركةٍ من موقعٍ قيادي. يستحقّ أن يُضافَ إلى ما قدّمناه في الفقرة الثانية من هذا الفصل عن تغلغل التشيّع في وُجدان الشعب المصري.

١٠. **الشيخ مصطفى أمين الدريني**. آخر مَن نعرفه من كُبراء المصريين تشيّعاً.

كان من أهم قيادات الاخوان المسلمين المؤيّدة لحركة حماس الفلسطينيّة. وقيل إن الرئيس المصري السابق





محمد مُرسي، وهو من جماعة الاخوان المسلمين، كان يعتبره أباه الروحي. كما كان لمدة طويلة من الدُّعاة الإسلاميين العاملين في الولايات المتحدة الأميركيّة، بل هو أوّلُ داعية إسلامي فيها، هاجر إليها وأمضى زُهاء أربعين سنة في جنوب (كاليفورنيا)، أنشأ أثناءها عدّة مساجد ومراكز دينية.

بتاريخ ١٦/ ٤/ ٢٠١٦م ترك كلّ ما هو فيه وقصد (كربلا)، حيث ارتقى منبر أحد مساجدها، ليُلقي خطاباً مؤثراً أعلن فيه اعتناق «مذهب أهل البيت» على حدّ ما قال. مشفوعاً ببيان الأسباب التي قادت خُطاه وفتحت بصيرته بعد تأمُّلٍ طال أربع سنوات. أتى فيه على ذكر صاحبه الشيخ حسن محمد شحاته وشهادته الفاجعة. مانفهم منه أنّ التّوحُّش التكفيري وخلفيّته الفكريّة كان حاضراً في ذهنه طوال فترة التأمّل التي سبقت إعلانه التشيع.

الباب الثاني: السـودان

(١) ظهيرٌ تاريخيّ

يبدو أنّ وجود الشيعة الإماميّة في (السودان) هو بشريّاً فرعٌ عن وجودهم في (مصر).

ذلك أنّ الانقلاب السياسي الجذري في (مصر) بسقوط الدولة الفاطميّة، وما ترتّب عليه من انقلابٍ مُوازٍ نال من المذهب السّائد، بالإضافة إلى بعض المُحاولات اليائسة من المصريين، لإعادة مجاري الأُمور إلى الوراء، ثم ردّ الفعل العنيف من السُلطة الجديدة عليه، ـ كلُّ ذلك انتهى إلى هجراتٍ كبيرةٍ من منطقة الدّلتا المصريّة الأكثر عمراناً باتجاه الجنوب، أي (أسوان) و(السودان). مادتها من البشر الذين رأوا أن المناخ السياسي ـ المذهبي الجديد لم يعُد مُلائماً لهم، أو أنّه مصدر خوفٍ عليهم.

نخصُّ بالذكر من هؤلاء، السّادة الاشراف الذين تسلّلوا من (مصر) ناجين بأنفسهم على أثر انهيار الخلافة الفاطميّة. وهم الذين كانوا يلقون مُعاملةً تفضيليّة أيّام الفاطميين، فباتوا الآن موضع الاتهام والازورار على الأقلّ من النظام الجديد، إن لم يكُن أكثر، وُصولاً إلى حدّ الاضطهاد المقصود. ولذلك لم يجدوا منجىً لهم إلا بالهجرة الجماعيّة، ودائماً باتجاه الجنوب، لأن شرق وشمال مصر بحران (البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسّط)، أمّا غربه فهو صحراء (سيناء).

وقد وقفنا في الباب السابق على عشيرة الجعافرة المُنتسبين إلى الإمام الصادق عليه السلام، الذين قادتهم الهجرة إلى (أسوان) المُحادّة لـ (السودان) حيث مايزالون.

تلك الهجرة الكبيرة، التي تجاهلها المؤرخون اسطويون، كما يفعلون غالباً، يُفسّر لنا كثرة العشائر السودانيّة التي تنتسب إلى أهل البيت عليهم السلام. ومن هذه عشيرة (العبدلاب)، الذين ينتهون بنسبهم إلى الإمام علي بن

محمد الهادي عليه السلام، ثم عشيرة (الرّكابيّة) التي ترتفع بنسبها إلى الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام. وكلاهما من كُبريات العشائر في (السودان).

وليس من خطّتنا ولا من قصدنا هنا أن نتحقّقَ من نسب هؤلاء إلى أهل البيت عليهم السلام صحةً أو بُطلانا. لأنّ مجرد الانتساب بنفسه دليلٌ كافٍ على هُويّة صاحبه عند نفسه على الأقلّ. فالمرء لاينتسب، حتى باطلاً، إلا لِمَن يمحضه حباً وتقديراً خالصيَن، لايُعادله حبٌّ غيرُه.

ثم أنّ الموروث الثقافي الشعبي في (السودان)، خصوصاً لدى التنظيمات الصوفيّة الكثيرة الفاعلة بما لها من قوةٍ تمثيليّةٍ وعُمقٍ شعبيّ، حافلٌ بالرموز الشيعيّة الكثيرة، وفي رأسها التّنويه واللجوء إلى الأئمة الاثنى عشر بأسمائهم واحداً واحداً، خصوصاً إلى إمام العصر عجل الله فرجه.

وممّا هو كبير مغزى في هذا النطاق، أنّ محمد بن أحمد بن نجل، عندما ثار ثورته الكبرى على مظالم الحكم التركي في (السودان)، أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، اتخذ لنفسه لقب «المهدي»، وكان ذلك من أهمّ أسباب التفاف الناس من حوله، بحيث أنّه في النهاية نجحت ثورته في طرد الأتراك. وذلك أمرٌ ما كان له أن يحصل، لو لم تكن فكرة المهدي المُخلّص جزءً من وُجدان الشعب في السودان. ومن المعلوم أنّ هذه العقيدة هي من خصوصيّات التشيّع الإمامي.

فجَماعُ ذلك كلّه دليلٌ وإمارةٌ أكيدةٌ وواضحةٌ على التّهيّؤات الشيعيّة الكامنة في الثقافة الشعبيّة السّودانيّة. وما هي إلا تراثها الباقي، الآيل إليها من تاريخها السابق في مصر حَصْراً. لأنّنا نعرف على نحو اليقين أن المنطقة السودانيّة إجمالاً لم تتصل من قبل اتصالاً مباشراً بالتشيّع. الاتصالُ المُباشر حصل في أيّامنا.



(٢) الشيعة اليوم في السودان

الانتشار الحديث للتشيّع فيها حصل في ظلّ وبتأثير مُتغيّرَين أساسيَّين، وطبعاً ودائماً على قاعدة التّهيّؤات الكامنة.

المُتغيّر الأوّل: الطلاّب الذين ارتحلوا للدراسة في بلدانٍ شيعيّةٍ كليّاً أو جزئيّاً. حيث اتصلوا بزملاءٍ لهم من الشيعة، أو حضروا شعائر شيعيّة تأثّروا بما فيها من حيويّة. وخصوصاً بالشعائر الحسينيّة التي لا مثيل لها في بلادهم. أيقظت ما هو كامنٌ في نفوسهم، فاعتنقوا التشيّع. ثم ما لبثوا أن غدوا دُعاةً ممتلئين حماسةً بعد أن عادوا إلى أوطانهم.

منهم المهندس كمال الدين الضّوّ، الذي عُرف بمناظراته البارعة مع الذين أقلقهم واستفزّهم الانتشار الشيعي في مصر، وما هم إلا الوهابيون كما دائماً. فضلاً عن مواهبه المتعدّدة.

صنّف عدّة كُتُب، منها:

- لعنة نواطير بيروت. عرضٌ لتجربته في التحوّل إلى التشيّع.



- البُعد الديني عند الشباب السوداني في بيروت.
- معنى التشيّع.
- مفهوم الشيعة والتشيع.
- تاريخ الشيعة في السودان.
- الشيعة داخل السودان.

ومنهم المحامي والكاتب المعروف السيّد عبد المُحسن حسن، الذي اعتنق التشيّع بعد طول تأمّل وتمعُّن. وقد عرض تجربته في هذا النطاق في كتابه بنور فاطمة اهتديت، الذي لقي رواجاً واسعاً بين قومه. وهومن الكُتُب السّائرة ذات الاثر.

ومنهم الشيخ محمد علي المتوكّل. نشأ سلفيّاً وهّابيّاً. ما لبث أن فارقهم بعد أن اكتشف افتقارهم للفهم الحقيقي للإسلام.

تأثّر بالثورة الإسلاميّة في (إيران). ثم تعرّف على مجموعةٍ شيعيّة في جامعة (القاهرة)، أدار معها نقاشات لم تؤدّ إلى نتيجة بالنسبة إليه. ولكنّها فتحت ذهنه على وُجهات نظرٍ جديدة. ماحسم تردّده الفكري لقاؤه بأحد علماء الدين الشيعة، الذي اقترح عليه قراءة كُتُبٍ بعينها. بالاطلاع عليها أعلن اعتناقه التشيّع.

صنف كتاب: دخلنا التشيّع سُجّداً.

ومنهم الشيخ معتصم سيّد أحمد. اهتم في مطلع أمره بالوهابية التي نشطت في (السودان). فكان يحضر ندواتهم ومناظراتهم. ودار بينه وبينهم مناقشاتٍ جمّة، وبدأ

يتعاطف معهم. لكنّه ما لبث أن تركهم لجمودهم الفكري ولتسرّعهم واستسهالم تكفير المسلمين.

انتسب إلى كليّة الدراسات الإسلاميّة بـ (جامعة وادي النيل). وبدأ قراءات شاملة، انتهت به إلى اعتناق التشيّع. ارتحل إلى (قُمّ) للدراسة. وهو اليوم من العلماء البارزين وأستاذ في الحوزة العلميّة.

صنف:

- الحقيقة الضائعة. رحلتي نحو مذهب آل البيت. عرض فيه تجربته الشخصيّة التي انتهت به إلى التشيّع.
- مناهج التشريع بين الموروث ومحاولات التجديد.
- بصائر في طريق المعرفة.
- الهرمنيوطيقا في الواقع الإسلامي بين حقائق النّص ونسبيّة المعرفة.

المُتغيّر الثاني: نجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران) وقيام الجمهوريّة. ومن المعلوم أنّها تركت صدىً طيّباً تجاوب في كافة أنحاء العالمّ الإسلامي. لكنّ تفاعلها في (السودان) كان سريعاً قويّاً، لِما عرفناه من خلفيّةٍ ثقافيّةٍ لهذا البلد.

من جانبها أولت مؤسّساتُ الجمهوريّةِ الإسلامية الإيرانيّة (السودانَ) اهتماماً خاصّاً. بأن نشرت سلسلةً من المراكز الثقافيّة. شحنتها بالكُتُب المُتاحَة للباحثين والطلاب وبالمرشدين الذين يساعدون الطلاب دون مُقابل. ونظّمتْ فيها دوراتٍ من مختلف المستويات لتعليم اللغة الفارسيّة للرّاغبين، إلى مُسابقاتٍ أدبيّة وثقافيّة. وإلى جانب دعواتٍ للإعلاميين لزيارة إيران، والتّعرُّف على معالمها الدينيّة والتاريخيّة والثقافيّة.

وقد بلغ عددُ هذه المراكز في أقصى امتدادها ستةً وعشرين مركزاً في العاصمة والولايات. بالإضافة إلى إنشاء عددٍ من الحسينيّات، قيل أنّها بلغت خمس عشرة حسينيّة في عموم (السودان). وقد بلغ هذا النشاط غايته باحتفالٍ شعبيّ حاشدٍ بذكرى مولد الإمام المهدي ﷺ، في ضاحية (جبل أولياء) جنوب العاصمة.

كلُّ ذلك حصل في ظلّ علاقاتٍ سياسيّة ممتازة بين حكومتي (إيران) و(السودان) في ظلّ ما سُمي في أوانه (حكومة الإنقاذ).

ومثلما يحدث دائماً، كما رأينا غير مرّة، فقد استفزّ هذا النشاط الكبير النّاجح الجهات الوهابيّة، فلجأت إلى الضغط على الحكومة، مُستفيدةً من قوتها الماليّة. كما لجأت إلى أقسى الوسائل لبثّ الرعب في المُتشيّعين السودانيين. ومن ذلك أنها اغتالت الصحفي محمد طه محمد أحمد بتاريخ الخامس من أيلول / سبتمبر ٢٠٠٦م. لأنه كان يتعاطف مع الثورة الإسلاميّة ويُشيد في مقالاته بالإمام الخميني، بل سمّى احد أبنائه (خُميني). فاختُطف من منزله، ثم عُثر على جثته مقطوعة الرأس.

كان من نتائج هاتيك الضغوط، بالإضافة إلى تبدّل الاتجاه السياسي لحكومة الرئيس البشير، خضوعاً للعقوبات القاسية، التي فرضتها الولايات المتحدة الأميركيّة، بالإضافة إلى وضْعها نظامه في قائمة الدُّوَل الرّاعية للإرهاب، إلى غير ذلك من أساليب الضغط السياسي والاقتصادي وحتى الشخصي على الرئيس البشير، ـ أن أصدرت الحكومة السودانيّة مُرغمَةً قراراً بإغلاق كافة المراكز الإيرانيّة وطرْد كلّ العاملين فيها، وصولاً إلى قطْع العلاقات الديبلوماسيّة بين البلدين.

ومع أنّ التدبيرات القاسية التي اتخذها التحالف الأميركي ـ السعودي قد أوقفت مؤقّتاً عملاً استجاب له السودانيّون بكامل الغبطة، فإن التطوّرات التالية لم تخلُ من بعض الإيجابيّة، بحيث أتاحت مُتابعة العمل وإن بوتيرةٍ أقلّ.

وإننا بهذه المناسبة نُنوّه هنا بحكمة ودأب المستشار الثقافي الإيراني في (السودان) الشهيد الشيخ إبراهيم الأنصاري رحمه الله، الذي سينال شرف الشهادة عندنا في (لبنان).

واليوم ينتشر الشيعة في (السودان) في ولاية (نهر النيل)، منطقة (ابو حمد) و(عطبرة). وفي ولاية (كردفان)، بمنطقة (أُم دم حاج أحمد) و(أبو زبد). وفي بعض مناطق النيل الأزرق. بالإضافة إلى معاهد دينيّة، أهمّها معهد الإمام الصادق عليه السلام في العاصمة. فضلاً عن عدّة حسينيّات في أحيائها، كـ(حي الأزهري) و(أمبدة) و(جبل أولياء)، و(حسينيّة المرتضى) في (أُم درمان).

وفي هذا السياق الجديد برز عددٌ من الدُّعاة،الذين استفادوا من التجربة السابقة، فالتزموا نهج الحكمة

والموعظة الحسنة، دون أن يتخلّوا عن شجاعة الموقف. نذكر منهم عيسى المدني العنيني، الذي ينشط في مقاطعة (كردفان)، حيث كسب أعداداً من المؤمنين المُمتلئين حماسةً للعمل. كما يؤمّ المصلّين في مسجد بلدة (أبو زبد) في المقاطعة نفسها. وله هناك مكتبة كبيرة يقصدها طلاّب العلم والجامعة. وقد زارنا قبل بضع سنوات في (بيروت). وهو نعم الرجل حكمةً وحماسةً وبُعد نظر. وبفضل دأبه يتكاثر الشيعة باطّراد في شمال (كردفان)، وبنحوٍ خاصّ في محلّة (أُم دم) وبعض المحالّ المُجاورة.

الفصل الثاني

شمال إفريقيا

الباب الأوّل: المغرب

(١) جغرافيا وتاريخ

رسمياً (المملكة المغربيّة). اسمها التاريخي (مرّاكش)، وهو اليوم اسم أحد أكبر مُدُنها.

هي في أقصى غرب شمالي (أفريقيا)، ومن هنا ورد اسمها في الأدبيّات البُلدانيّة العربيّة (المغرب الأقصى). تمتاز بأنّها تلقّت في تاريخها عدّة مؤثّرات حضاريّة: عربيّةً ـ إسلاميّة، بربريّةً / أمازيغيّة وغربيّة.

ثمّة بعدٌ تاريخيٌّ لعلاقة المغرب بالتشيّع. فعلى أرضها تشكّلت في الماضي أوّلُ دولةٍ هاشميّةٍ في دار الإسلام. تلك هي دولة الأدارسة التي أعلنت استقلالها عن الدولة الأُمويّة سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م. بطلها وأوّل ملوكها إدريس بن عبدالله بن الحسن المُثنّى بن الإمام الحسن عليه السلام. الذي فرّ إلى (المغرب) الأقصى، بعد أن نجا من معركة (فخّ) قرب (مكة) سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م. حيث احتضنته قبيلةٌ بربريّةٌ عاونته على بسط سلطانه على منطقةٍ واسعة، تشمل كلَّ ما هو (المغرب) اليوم. ومن بعده حكمت الأسرة الإدريسيّة حتى السنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م. فمن هنا يمكن القول أنّ للتشيّع أصالته في الهويّة المُركّبة للمنطقة، بما جدّ عليها بعد الأدارسة من دُولٍ مُتعدّدة العقائد.

(٢) الشيعة في المغرب، الموروث والحاضر

من الآثار الباقية للتشيّع التّليد هناك الاحتفالُ الشعبيُّ بيوم عاشوراء. أثناءه تتحوّلُ المُدُن والقرى المغربيّة

إلى مناطق شيعيّة، تتشارك إحياء ذكر يوم (كربلا) وشهادة الإمام الحسين عليه السلام. ولهذا الاحتفال تقاليد طريفة، تدلُّ على عراقتها، كما تدلُّ على تأثّرها بمؤثّراتٍ محلّيّة، يصعُبُ جداً إرجاعُها إلى أُصولها في الثقافة المحلّيّة. لكنّنا نعرف أنّ مثل هذا التفاعُل الموروث بوجهيه فاعلٌ حيث تتوفّر شروطه.

تبدأُ الأُسراتُ الاستعدادَ للاحتفال بعاشوراء منذ عيد الأضحى السابق. بأن تحتفظ بعظم القائمة اليمنى للأُضحية، وتوكلُ إلى إحدى الفتيات أمرَ العناية به، واسمه عندهم (بابا عاشور)، فتخبئه في مكانٍ آمن، بعد أن يُزيّن بالحنّاء. صباح عاشوراء يُزيّن (بابا عاشور) بملابس بيضاء.ثم ينطلق النسوةُ به في موكبٍ جنائزيّ حزين، وهنّ ينُحنَ «عيشوري، عيشوري، دلّيت (أنزلت) عليه شعوري (شعري)». وفي اليوم التالي ١١ محرم يحملنه في موكب إلى مكانٍ يختارونه، يكون عادةً في موقعٍ مرتفع فيدفنّه، بينما الفتيات ينُحنَ: «عيشوري العزيز في الزاوية دفنتو».

هذا، بالإضافة إلى الالتزام بلبس السواد طيلة الأيام العشر الأُولى من المُحرّم. وصيام يوم عاشوراء، خصوصاً في مناطق الجنوب الصحراوي. والامتناع عن الزينة وحلق الشعر وكل مظاهر الفرح. ومن أطرف ما يعملونه بالمناسبة وأصدقها تعبيراً، إهداء الماء للأطفال في قِرَبٍ طينيّة مخصوصة تُجهّزُ للمناسبة، وهو تأصيلٌ وإحياءٌ لعطش الأطفال يوم (كربلا).

ومن الجدير بالذكر أنّ الأُسرة المالكة أعلنت يوم ٥ نيسان/ ابريل ٢٠٠٢م / ١٢ محرم ١٤٢٣هـ أنّها لن تُقيم الأفراح بمناسبة زواج الملك، مُراعاةً لتقليدٍ يقضي بالامتناع عن إقامة الأفراح في شهر المحرّم.

وممّا هو بغنىً عن البيان، أنّ تلك التقاليد الرّاسخة هي ما ثبت على توالي القرون، مجتازاً أحياناً ظروفاً سياسيّة تُجاهر بالعداء لكلّ مايتصل بالشعائر الشيعيّة. وقد لخّص الدكتور عبد اللطيف السّعداني من مدينة (فاس) تلك التقاليد بمقالة نشرها في العدد الثاني من مجلّة (الهادي) التي تصدر في (قُمّ) وكان ممّا قاله: «فتبدأُ الأُسَرُ هذه المراسم منذ الأول من المحرم إلى العاشر منه.

أمّا الشُرفاء فيستمرّون إلى آخر الشهر. ويُطبخُ الطعام للتّصدّق به. وبعضهم يُمسكون عن الطعام في هذا اليوم احتساباً. وأمّا الأطفال فلهم في هذه الذّكرى اللُّعَب. من بينها قُلل الماء الصغيرة التي تُهدى إليهم من ذويهم، رمزاً للعطش الذي مات عليه شهيدُ الذكرى.... الخ».

كلُّ ذلك فيما يرجع للذّاكرة الشعبيّة المغربيّة، ولِما يُكنّه وُجدانُها إرثاً من تاريخها القديم من ميولٍ وولاءٍ وشعائر، ذات علاقةٍ بدُوَلٍ سادت في تاريخها القديم. قد يبدو لغير العارف أنّها قد انمحت وضاعت، ساحبةً وراءها كلَّ ما تربّت عليه الأجيال.

لكنّ من المعلوم أنّ هذا النمط من الشعائروالولاء، ذات الشّحنة المعنويّة القويّة، قد تتحوّل تحوُّلاً ما، لكن شحنتها ورموزها عصيّةٌ جدّاً على الزوال. إنّها كالبذرة، قد تكمن دهوراً، لكنّها ما أن يتوفّر لها الظرف المُناسب، حتى تنبعث وتنمو.

هوذا تنظيرٌ بسيطٌ وصادقٌ لِما رأيناه من قبل في (مصر) و(السودان)، وسنراه الآن في (المغرب). وربما في غيره من البلدان.

الثورة الإسلاميّة في (إيران)، وتصاعُد المقاومة الإسلاميّة الشيعيّة في لبنان ضدّ إسرائيل، وماحقّقته من إنجازاتٍ غير مسبوقة في هذا النطاق. وبنحوٍ خاص التعاطُف الشامل مع صمودها لآلة الحرب الصهيونيّة سنة ٢٠٠٦ م. وفي المُقابل فشل الإسلامُ السُلطويّ في تحقيق أي إنجاز على الصعيد السياسي العملي، على الرغم من الفُرص الكبيرة التي سنحت له، وعلى الرغم أكثر من الثروات الهائلة التي تحت يده، بالإضافة إلى لهجة التّشفّي وعلى الأقلّ عدم الاكتراث سنة ٢٠٠٦م، ـ كلّ هذه كانت الشّرارة التي ألهبت ماهو كامنٌ في الذاكرة الشّعبيّة للمغاربة. وخصوصاً لدى الأعداد الكبيرة منهم في المهاجر الأوروبيّة، حيث يتوفّر لهم قسطٌ جيّدٌ من حريّة العقيدة ومن العمل بما يُناسبها ويقتضيها، ممّا هم محرومون منه في أوطانهم. وقد وقفنا آنفاً على مختلف نشاطاتهم السبّاقة في (فرنسا) و(بلجيكا) وغيرهما، من تأسيس المساجد والمراكز والجمعيّات، وعلى تأثيراتها الباقية في نشر التشيّع. وليس غرضنا الآن من التّذكير بها إلا رصْدُ التفاعُل الخلاّق بين أُولئك المهاجرين وبين إخوانهم المُقيمين.

التفاعُل بين الكامن الموروث وبين المُستجدّ الموقِظ، كان يتمّ بصمت على مستوى العقول والأنفس، وماتختزنه من ماضيها وتتطلّع إليه في مستقبلها.

دائماً تسلكُ التغييراتُ الاجتماعيّةُ الكبيرة أوّلَ أمرها هذا السبيل، قبل أن تكتسبَ صفة حقائق فكريّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة. لكنّ الذي سرّع التُحوّل في الحالة المغربيّة، هو التّماسّ المُباشر بين ماكان يحصل في المهاجر من اندفاعٍ نحو اعتناق التشيّع، وما كان ينضج بصمت في الوطن من تأثُّرٍ بالثورة الإيرانيّة والمقاومة الإسلاميّة في (لبنان). وهنا نستحضر بنحوٍ خاصٍ واقعة اغتيال الشيخ عبد الله الدّحدوح يرحمه الله تعالى في (بلجيكا) على يد جماعةٍ وهّابيّة (وقد بسطنا الكلام عليها في باب (بلجيكا) فيما فات، وما كان لها من أصداءٍ تداعت بسرعة في مهجره ثم في وطنه. بحيث اتخذت صفة البادئ لانتقال الشيعة المغاربة من طورٍ في العمل والحضور إلى طورٍ غيره.

كانت السلطات في (المغرب) وسفارتها في (بلجيكا)، كلٌّ من جانبه، يُراقبان بقلق ظاهرة المدّ الشيعي هناك بين مواطنيها المغاربة. ومع ذلك فإنّها لم تُقدِم على اتخاذ أي إجراء بحقّ أيّ شيعي مغربي يعود إلى وطنه. وعندما اغتيل الشيخ الدحدوح، ونُقل جثمانه إلى بلده الأصلي (طنجه) لدفنه، وتجمّعت أعدادٌ كبيرةٌ من الشيعة القادمين من (بلجيكا) ومن أنحاء (المغرب) للمُشاركة في الجنازة، فإنّ السُلطة حافظت على سياسة المُراقبة الصامتة، ولم تتدخّل لمنع مراسم الدّفن. على الرغم من أنّ جموع المُشاركين لم يُخفوا شعائرهم ورموزهم الشيعيّة. ومن ذلك اعتمار أغطيةٍ كُتب عليها «يا حسين» أو «هديّة كربلاء». ومن رفع أصواتهم بالصلاة على النبي وآله.

لقد كانت هذه المُظاهرة الكبيرة أوّلَ مرّةٍ يُعلنُ فيها الشيعةُ المغاربةُ هويتهم في وطنهم.

وهكذا يكون الشهيد الدحدوح قد خدم العقيدة التي آمن بها شهيداً، بمثل ما عمل على نشرها حيّاً.

على الأثر، تقدّمت مجموعةٌ من الشيعة المغاربة من السلطات بطلب الإجازة لمؤسّسة بحثيّة باسم (مؤسّسة المواطن الرسالي للدراسات والأبحاث الإسلاميّة)، التي ستُعرَف باسم (رساليّون تقدّميّون). بعد أن كان بعضهم قد طلب سنة ٢٠٠٧م الإجازة لجمعيةٍ باسم (أنوار المودّة). وهو اسمه ذو نكهةٍ شيعيّةٍ غير خفيّة. ولذلك فإنّ الطلب رُفض فوراً.

وكما هو مُتوقّع، فإنّ الطلب الجديد كسابقه قوبل بالرفض. بل ودُبّرت لرئيس المجموعة عبد الرحمن الشُّكراني تهمةٌ بالاختلاس، أثناء عمله مديراً لإحدى وكالات البريد. كان من نتيجتها أن حُكم عليه بالسجن وبغرامةٍ ماليّة، ابتغاء إحباطه وتهديد المجموعة بأقسى الإجراءات.

في ظلّ هذه التدبيرات القاسية لجأت المجموعة إلى خطوةٍ تصعيديّةٍ، بمُراسلة الملك محمد السادس، طالبين منه الإجازة لجمعيّة باسم (مؤسّسة الخطّ الرّسالي)، والنظرَ في وضع رئيسها القابع في السجن. والظاهر أن طلبهم حظي بالقبول هذه المرّة، لأن أصحابه شفعوا طلبهم بالتهديد بتحريك المُطالبة الصريحة بالحريّة الدينيّة التي يكفلها الدستور.

من هنا تتابعت الخطوات، ومنها تصريح الشُّكراني لصحيفةٍ مغربيّة، بما يتضمّن الإشارة إلى الاستعدادات الجارية لإحياء مراسم العاشر من المحرم علناً، بنحوٍ لم يعهده المغاربة من قبل. مع التأكيد على أنّه سيُراعى فيه عدم استفزاز أو المسّ بمشاعر أحد. الأمر الذي يدلُّ على ثقة الجماعة الشيعيّة النّامية بنفسها. كما يدلُّ على تصميم أعضائها على نيل حقّهم الدستوري في حريّة الاعتقاد والمُمارسة الدينيّة دون قيود. ذلك مُقابل تحالف السُلطة السياسيّة مع رجال الدين الرسميين المُلتحقين بها، الذين عملوا معاً كلّ ما بوسعهم وبدون هوادة على تضييق الخناق على كل محاولات الجماعة الشيعيّة، ومنعها من الاستفادة من حقّها الدستوري، في ظل عدم التمييز بين المواطنين.

سنة ٢٠١٣م أصدرت السلطة المغربيّة قراراً بمنع جمعيّة (رساليّون تقدّميّون) من العمل. ردّت عليه المجموعة بعقد جمعيّةً عموميّةً في مقرّ (جمعيّة الدفاع عن حقوق الانسان) في مدينة (تطوان)، رفعت شعار الدفاع عن حقوق الأقليّات الدينيّة المذهبيّة، وضرورة القبول بالاختلاف والتنوُّع الثقافي والعرقي والديني، وضمان حريّة المعتقد. كل ذلك على قاعدة عدم التمييز بين المواطنين عل أيّ أساسٍ من أُسُس التمييز المُحرّمة دستوريّاً. وبنتيجة الاجتماع خرج أحدُ النّاشطين الشيعة ببيانٍ نشرته إحدى الصُحُف، ممّا جاء فيه:

«إنّنا لسنا ساذجين ولا طوباويين، ولا نعتقد أنّ العقليّة السُلطويّة سوف تتغيّر بسهولة. لكنّنا عازمون على خوض كافة أشكال النضال السياسي من أجل المُواطنة وعدم التمييز».

ومن البيّن أنّ لهجة الخطاب تعكس مستوىً عالياً من الثقة بالنفس وأحقّيّة المطالب.

في هذا السّياق، وبالخصوص الآن على المستوى السياسي، أنّه عندما كانت (أميركا) تُعدُّ إعلاميّاً لضربةٍ عسكريّةٍ لـ (سوريّا)، بذريعة استعمالها السلاح الكيماوي ضدّ تنظيم (القاعدة) في منطقة (الغوطة)، أصدر



(الاتحاد الشيعي المغربي) (الخطّ الرسالي بالمغرب) بياناً، أدان فيه التّدخُّل الأميركي المُزمَع عليه، وهو الذي سيكون حتماً لمصلحة التكفيريين. كما تناول البيانُ الموقفَ المغربيَّ الرّسميَّ المُمالئ لـ (أميركا) في هذا الشأن. واصفاً إياه بأنّه غير شرعي، ما لم يكُن مُستنداً على قرارٍ صادرٍ عن الأمم المُتحدة.

إنّ أهميّة هذا البيان هي في أنّه أوّل موقفٍ سياسيّ لشيعة (المغرب) مُتمايزٍ عن موقف الدولة.

هذه الظاهرة الجديدة ثنّى عليها القيادي الشيعي المغربي إدريس هاني، في مُقابلةٍ مع صحيفةٍ مغربيّة تصدر بالفرنسيّة، عزا فيه التدخُّل الأميركي في سوريّا إلى «المشروع الأميركي الصهيوني»، العامل على تفكيك كافة عناصر المُمانعة في المنطقة. كما تناول الكلام السيّء لجماعة (التوحيد والإصلاح) (وهي التنظيم الديني التابع لـحزب العدالة والتنمية الحاكم) بحق حزب الله في (لبنان)، بالقول إن كلامها «نهيق حمار». والأمثلةُ كثيرةٌ على الروح الشُجاعة التي سكنت الشيعة في (المغرب) منذ السنة ٢٠١٢م. وكانت فاتحتُها الجنازة الحاشدة الغاضبة للشهيد الشيخ دحدوح يرحمه الله.

نذكر أنّه بينما كانت هذه التطورات عالقة، عمدت السُّلطة المغربيّة إلى قطع العلاقات الديبلوماسيّة مع (إيران)، بذريعة أنّها تعمل على «تقويض المذهب المالكي ونشْر التشيّع في البلاد». وقد استمر قطع العلاقات من السنة ٢٠٠٩ حتى٢٠١٥م. حيث أُعيدت العلاقات على أثر اتصال هاتفي من العاهل المغربي بالرئيس روحاني

(٣) الشيعة في المغرب اليوم ومواطن انتشارهم

منطقة شمال (المغرب)، التي حاضرتها مدينة (مكناس) التاريخيّة، كانت الخليّة الرئيسة لأنشطة الشيعة، بقيادة رُوّاد من أبناء المدينة. بيدَ أن التضييق عليهم من السُلُطات ألجأهم إلى نقل نشاطهم إلى مدينة (طنجة) ونواحيها، حيث الأُسرات والعشائر ذات الاتجاه الصوفي ، المُهيّأة بخلفيّةٍ شيعيّة عنوانُها حبُّ وتبجيلُ أهل البيت عليهم السلام. بالإضافة إلى التأثير والتأثُّر بين بعض المغاربة الشيعة المهاجرين في (أوروبا) وبين مناطقهم الأصليّة في أوطانهم. اتصالاً مباشراً أو بواسطة وسائل الاتصال الألكترونيّة، التي كان المهاجرون يستخدمونها لعقد نقاشاتٍ دينيّة مع معارفهم في الوطن.

بدأ الحِراك نحو التشيّع بالافتتان بشعارات الإمام الخميني. وكان في طليعة هؤلاء مجموعةٌ انبثقت عن (الشبيبة الإسلاميّة)، وهي تنظيمٌ غير شيعي، أسّست (حركة الاختيار الإسلامي). ذهب بعضها إلى حدّ الاتصال بقياداتٍ إيرانيّة. كما أنّ منهم مَن التحق فيما بعد بـ (الحركة من أجل الأُمّة) وحزب (البديل الحضاري). ماحدا بالدولة إلى حلّ الحزب بذريعة أنّه فتح بابه للمُتشيعين. الأمر الذي انتهى بعددٍ من المُتشيعين فيما بعد إلى تأسيس (الخطّ الرسالي للدراسات والنشر) بالاعتماد على القانون التجاري، لتعذّر تأسيسها اعتماداً على قانون الحريات العامّة. ثم جمعيّة (الرّساليّون التقدميّون) بزعامة السيّد عصام حميدان الحسيني. هكذا نرى النّفس الحركي الذي مافتئ يطبع تحرّكات المُتشيعين الذين انشقّوا عن (الشبيبة الإسلاميّة).

فهذه خلاصةٌ للحِراك الشيعي الذّاتي في (المغرب) ومواطنه.

ثم كان للجالية المغربيّة المُتشيّعة القاطنة في (بلجيكا) و(هولندا) أطيب الأثر في نقل الأفكار الشيعيّة لأُسراتهم حين يعودون إلى وطنهم. خصوصاً الجالية القاطنة في (بلجيكا)، حيث حظيت ببعض القادة المُتميّزين بالمعرفة والحماسة والإدارة الذكيّة، كما أنشأت عدة مراكز وجمعيّات عملت على نشر التشيّع، وتشجيع التعليم الديني، وإحياء المناسبات والشعائر الدينيّة الشيعيّة. كما كان لخليّة حسن ايغيري بـ (مكناس) شأنٌ هامٌّ في توجيه أهلها نحو فكر أهل البيت. وفي (الدار البيضاء) كان المعرض الدُّولي السنوي للكتاب أحد أكبر العوامل في إيصال أفكار ومبادئ المذهب الشيعي. بما أتاح للناس فيها الفرصة لعرض الكتاب الشيعي من قِبَل دور نشرٍ شيعيّة من (لبنان) و(سوريا) و(العراق) و(إيران). الأمر الذي أثار حفيظة الجهات الوهابيّة والمتأثّرين بها من فقهاء السُلطة، فلم يجدوا وسيلةً لمُعارضتها إلا بالمُطالبة بإلغاء المعرض، أو على الأقلّ بمنع دخول الكتاب الشيعي وعرْضه في المعرض.

كذلك كان لمكتبة (مدينة العلم) في (الدار البيضاء) دورها الخاص في تعزيز التعريف والتعارُف. الأوّل بتيسيرها الحصول على الكتاب الشيعي. والثاني بوصفها محطةً للقاء بين المُتشيعين المغاربة. كما أنّها كانت تستقبل أحياناً ضيوفاً قادمين من المشرق (لبنان، سوريا، العراق، إيران، بعض دول الخليج). فضلاً عن القادمين منهم من أنحاء (أُوروبا) وخصوصاً من (بلجيكا) و(هولندا). فتدور النقاشات وتُطرح الأسئلة. الأمر الذي كان له أطيب الأثر في تنسيق الجهود وتبادل الخبرات والتجارب بين الشيعة المغاربة.

أضف إلى ذلك دور الإعلام المرئي، مثل قناة (أهل البيت) وقناة (فدك) التلفزيونيّتَن العراقيّتَين. وهوالدّور الذي يمكن أن نعتبره الدّور الرديف في اطّلاع المغاربة على الشعائر الدينيّة الجذّابة في (العراق)، مثل الاحتفالات المُهيبة والبالغة التأثير بيومي عاشورا وأربعين الإمام الحسين عليه السلام في (كربلا). وكثيراً ما بيّن غير مُتشيّعٍ مغربيّ بارز مثل إدريس هاني في مقالته «المغرب والتشيّع، أية علاقة»، المنشورة في مجلّة (وُجهة نظر)، العدد ٣٩، وعبد اللطيف السعداني في مقالته «حركات التشيّع في المغرب ومظاهره » المنشور في مجلة (المنهاج) العدد ٢٧، حيث بيّنا بصراحة أن بداية تأثّرهما بالفكر الشيعي كان بمشاهدة برامج تينك القناتيَن.

في هذا السّياق نذكر يضاً الأثر الإيجابي لمُبادرة الملك محمد السادس بإعادة العلاقات الديبلوماسيّة مع (إيران) سنة ٢٠١٥م كما ذكرنا آنفاً. وهي التي لم يكُن لقطعها أي ضرورة من وجهة نظرٍسياسيّة. والذي يبدو لنا أن سلفه كان قد أقدم عليها بضغطٍ أو إغراءٍ من أرباب الدعوة الوهّابيّة المعلومين. وما رافق القطع من تدبيراتٍ عدائيّةٍ قاسية وغير مُجدية، فيما رمى إليه منها مَن أقدموا عليها. من مثل منع دخول الكتاب الشيعي كما أسلفنا. وهو تدبيرٌ غبيٌّ لا طائل منه بعد قيام الشبكة العنكبوتيّة العالميّة التي تخترق كلّ الحدود والموانع. وإغلاق (المدرسة العراقيّة التكميليّة) في (الرباط) بذريعةٍ مُفتعلَة مكشوفة هي على ما قالوه «مُخالفة مناهج النظام الأساسي للتعليم المدرسي الخصوصي المُعتمَد من قِبَل الوزارة الوصيّة». وما السبب في الحقيقة إلا اتهام المسؤولين عنها بنشر المذهب الشيعي. مع أنّ ذلك لم يكُن من بُغيتها ومقاصدها بالتأكيد، بل ولم تكُن مؤهّلةً



له. وإن يكُن مجرّد وجودها قد يؤدّي إلى بعض ما كان السبب في غضبهم.

بإعادة العلاقات الديبلوماسيّة باتت أوضاع الشيعة في (المغرب) تميل بعيداً عن العنف الرسمي. حقٌّ أن الكتاب الشيعي كان ما يزال محظوراً. والعلاقات بين السُلطة والشيعة في البلد لا تخلو من الحذر والتّريُّب. لكنّ العلاقة مع الملك الحالي منذ العام ١٩٩٩م، وإن رافقتها نظراتُ الريبة، تخضعُ لمبدأ حريّة المُعتقَد. مع ظهور أصواتٍ عاليةٍ تنصر الشيعة والتشيّع.

واليوم تتفق التقديرات الإحصائيّة (على اختلاف التّعداد فيما بينها) وردود فعل المُتوجّسين من انتشار الشيعة هناك، على أن نهضة التشيّع في (المغرب) تسير إلى الأمام بخُطىً ثابتة. كما عادت بعض الجمعيات الشيعيّة إلى العمل بعد أن أُجيزت من الدولة، وإن أحياناً بعناوين جديدة. وغالباً تحت عنوان الدفاع عن الحريات الدينيّة وعن حقوق الأقليّات الدينيّة والمذهبيّة. وعلى الرغم أكثر من هوس جهاتٍ وهابيّة وبعض فقهاء حزب السُلطة بالسعي لتدبيج صنوف الدعاوى المُهينة بحق بعض قادة الحِراك الشيعي. ابتغاء إرعابهم وإرعاب مَن هم على خطّتهم.

من ذلك اتهام عبد الرحمن الشكراني، رئيس جمعيّة (رساليّون تقدّميّون) بالاختلاس. والحكم عليه بسنةٍ سجناً. أُضيفت إليها بعد تنفيذها، سنةٌ أُخرى اعتباطاً ودون حكمٍ قضائيّ. ما يدلُّ على النفوذ البالغ الذي كان يتمتّع به مَن هم وراء الدعوى فالحكم فالتنفيذ فالحبس الكيفي.

ومنه اعتقال الشيخ عبد الله الحمزاوي بمدينة (سلا)، لاتهامه بارتكاب الفاحشة مع سيّدة مُحصن، ليلة الوقوف بعرفة / ٢١ ديسمبر، كانون الأول ٢٠١٥م. وذلك بناءً على شكوى تقدّم بها زوج المرأة، وهو عضوٌ في إحدى الحركات الإسلاميّة المعروفة بميولها الوهابيّة. وقد أُفرج عن الشيخ لعدم ثبوت الاتهام.

نختم الباب بالوقوف عند أسماء مَن وصل إلينا العلمُ بهم من معارف الشيعة العاملين في (المغرب):

١. **الدكتور إدريس هاني**. يوصف في بعض المصادر بأنّه «أمير الجماعة الخُمينيّة بالمغرب». لأن الجماعات الوهّابيّة لم تكفّ عن القول أنه يؤدّي وظيفةً شيعيّة بأجندةٍ إيرانيّة. والحقيقةُ أنّ الرجل لم يكُن يُخفي ولاءَه للثورة الإسلاميّة.

نال الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة السوريّة. وصنّف عدّة كُتُب التي تُلقي ضوءاً على التراث الفكري لدى الشيعة. أبرزها:

- محنة التراث والآخر.
- المُلّا صدرا رائد الحكمة المُتعالية.

كثيراً ما اتهمته صُحُفٌ مغربيّة محسوبةٌ على الوهّابيين بأنّه رأس الأفعى الذي يقود التشيّع في البلاد. وأنّه استطاع بتفسيراته للتاريخ المغاربي إقناع الكثير من الشباب المغربي باعتناق التشيّع. خصوصاً بفضل الإعجاب الذي يُبديه شباب المغرب بمقاومة حزب الله في (لبنان).

٢. **السيد عصام حميدان الحسني**. وُلد في (مراكش) سنة ١٩٦٧م. من سُلالة الأُسرة الإدريسيّة. درس في (طنجة) ثم (فاس) إلى أن حاز إجازةً في الحقوق.

اعتنق التشيّع أثناء دراسته الجامعيّة بفضل اطلاعه على الكُتُب الشيعيّة في المعرض الدولي بـ (الدار البيضاء). انتقل بعدها إلى (سوريا)، حيث انتسب إلى الحوزة الزينبيّة. وهو الآن عالمٌ عاملٌ في بلده.

شارك في الاجتماع التأسيسي لجمعيّة (رساليّون تقدّميّون)، الذي عقده شيعةٌ مغاربة في مقرّ جمعيّة الدفاع عن حقوق الانسان بمدينة (تطوان). حيث تمّ انتخاب هيئة المكتب. وفي اليوم التالي نشر إخباراً على صفحته، أعلن فيه أن التأسيس هو اختبارٌ جدي لمدى استعداد السُلُطات لتطبيق الدستوروالقانون، وتغليب مبدأ المواطنة وعدم التمييز بين المواطنين على أيّ أساسٍ من أُسُس التمييز المُحرّمة دستوريّاً.

له العديد من المقالات المنشورة في الدوريّات، والدراسات التالية:

- تاريخ التشيّع في المغرب العربي: مشروع قراءةٍ تاسيسيّة.
- الوهّابيّة، جذورها التاريخيّة ومرتكزاتها الفكريّة.
- الأربعون حديثاً النبويّة من الطرق المعتبرة عند الإماميّة.
- مفهوم النّصّ: قراءةٌ نقديّةٌ تأسيسيّة.
- مفهوم العولمة على ضوء فلسفة التاريخ.
- مشروع الوحدة الإسلاميّة: المداخل والآليّات.

٣. **عبد الرحمن الشكراني**. رئِس جمعية (رساليّون تقدميون)، التي أخذت على عاتقها الدفاع عن حرية المعتقد، وحِرابة الإسلاميين المُتطرفين. من أبرز الشيعة الناشطين في (المغرب). لذلك دُبرت له التهمة بالاختلاس، كما ذكرنا قبل قليل. وكثيراً ماهُدّد بالقتل قبل ذلك. وكثيراً ما كان يُبيّن أنّ الجمعيّة لا تعمل على نشر الأفكار الشيعيّة، مع أنّ أعضاءها من الشيعة. بل تدافع عن الحريّات الدينيّة، وعن حقوق الأقلّيّات الدينيّة بمَن فيهم الشيعة.

٤. **عبد الله الحمزاوي**. عضوٌ بارزٌ في (اللجنة المشتركَة للدفاع عن المعتقلين الإسلاميين) باحثٌ بارزٌ في العلوم السياسيّة، ومسؤولٌ في مؤسسة (الخط الرسالي). كما أنه عضوٌ في مجلسٍ غير مُعلَن يضمّ ممثلين للشيعة في كافة أنحاء (المغرب).

٥. **عبد اللطيف السعداني**. وُلد في (فاس) سنة ١٩٣٩. من أوائل المُتشيعين المغاربة. تخرّج في جامعة (طهران) دكتوراً في الأدب الفارسي سنة ١٩٦٤. أي قبل قيام الثورة الإسلاميّة. اهتم في مؤلفاته بتاريخ وتراث أهل البيت، وخصوصاً في (المغرب). أشهر كتاباته حركات التشيّع في المغرب ومظاهره. إلى مقالاتٍ كثيرة منشورة في مختلف الدوريات.

٦. **محمد المرواني**. الأمين العامّ لـمنظّمة (الحركة من أجل الأُمّة). وقياديٌّ في تنظيم (البديل الحضاري).



اعتُقل مع خمسةٍ آخرين سنة ٢٠٠٨ م، فيما سُمّي في الإعلام المغاربي الرسمي آنذاك باسمٍ ينطوي على التهويل هو «شبكة بليرج». منهم مُراسل قناة المنار في (المغرب) عبد الحفيظ السريتي. وذلك بسبب التشيّع، وأنّ لهم علاقة بالسفارة الإيرانيّة.

والعمليّة أُحيطت في الإعلام الرسمي والأبواق الوهّابيّة بضجيجٍ كبير. بالقول مثلاً أنّ «السُلطات المغربيّة قامت باتخاذ إجراءٍ لتطويق زحف التشيّع». وهم يعنون بذلك «التطويق الاستباقي، ومُحاصرة امتداد التوجه الشيعي الثوري في المغرب». كما رددت الأبواق نفسها دون كلل: «إن أبرز تأثيرات التشيّع السياسي تجلّت في حالتي حزب البديل الحضاري والحركة من أجل الأُمّة ». مع ربط هذه الأخيرة بمفهوم ولاية الفقيه.

حوكم المُعتقلون بعد ستة أشهر من اعتقالهم اعتباطاً، وحُكم عليهم بالسجن. وظلّوا رهنه حتى ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١م.

٧. **مصطفى المعتصم**. قياديٌّ في التنظيمين نفسيهما. تعاون مع محمد المرواني، ما أودى إلى حُكم عليه بخمسةٍ وعشرين سنةٍ سجناً. أعلن في سجنه الإضراب عن الطعام مُطالباً بمحاكمةٍ عادلة. أُطلق سراحه في عهد الملك محمد السادس الذي عرفنا أنّه أجاز تنظيم (البديل الحضاري).

٨. **عبد الله بوصوف**. ناشطٌ شيعي مغربي.

قطن مدّةً في (بلجيكا). حيث كان الأمين العامّ لـ (مجلس الجالية المغربيّة في الخارج). أنشأ أربعة مساجد كبيرة للجالية المغربيّة الشيعيّة في (بروكسل). غدت فيما بعد خلايا ناشطة تُنتج المزيد والمزيد من المُستبصرين. لذلك رأت فيه الجماعات الوهابيّة في المغرب سبباً لخطرٍ داهم، بمَن يتربّون عليه في تلك المساجد، قبل عودتهم إلى الوطن، حاملين معهم أفكارهم الشيعيّة.

فبهذا الانجاز اعتبرناه من الشخصيّات المغربيّة الشيعيّة ذات الأثر في (المغرب)، على الرغم من غياب نشاطه الفكري والتبليغي المُباشر فيه.

الباب الثاني: تونس

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (الجمهوريّة التونسيّة). دولةٌ في شمال (أفريقيا) تحتلُّ رقعةً ذات ماضٍ حضاريّ متنوّع. كان اسمها عند الرومان (آفريكا)، ثم سُمّيت القارّةُ كلها باسمها. ما يدلُّ على خصوصيّةٍ قويةٍ للمكان، هي عند المؤرخين من الصفات الثابتة حيث توجد.

فتحها العرب سنة ٥٧هـ، دون كبير مقاومةٍ من أهلها البربر، وأنشأوا فيها مدينة (القيروان)، هي ثاني مدينةٍ أنشأوها في (أفريقيا) بعد (الفسطاط) بمصر. ومنها انتشر الإسلام في الحوض الجنوبي للبحر المتوسط، ثم منه في عموم قارة)أفريقيا). وفيها ومنها انطلقت الدولة الفاطميّة، لتتخلّى عنها طوعاً بعد أن فازت بـ (مصر). ثم ليُسيطر عليها المذهب المالكي حيث ما يزال. ولينتشرَ منها إلى أنحاء القارّة الأفريقيّة.وفي هذا الحِراك التاريخي الخصب دليلٌ آخر للمؤرخ على الخصوصيّة الباهرة للمكان.

(٢) التراث الشيعي في تونس

لسنا نملك معلوماتٍ وافيةً عن الجذور القديمة للتشيّع في (تونس). لكنّ الباحث المُتتبّع لا يسعه إلا أن يُلاحظ أمرين:

الأول: التلقائيّة التي رافقت قيام الدولة الفاطميّة الإسماعيليّة فيها، وتقبُّل قبيلة كُتامة خصوصاً للشعارات ذات العلاقة بأهل البيت بأحسن القبول، على مافيها من إجمالٍ وغموض، لسنا نراه إلا مقصوداً. مثلما فعل الدّعاة العباسيّون من قبل في أنحاء (خراسان) بالدعوة لـ «الرضا من آل محمد». مع ملاحظة التلقائيّة المُماثلة التي رافقت قيام الدولة الإدريسيّة في (المغرب).

الثاني: انتشار الطُرُق الصوفيّة ذات النَّفَس الشيعي فيها. مثلما رأينا في (مصر) و(السودان).

وإنّ في القيام التلقائي لكلتا الدولتين في المنطقة لدليلٌ أكيدٌ على قطعةٍ ضائعةٍ من التاريخ السابق على قيامهما، فشل المؤرخون أو استنكفوا عن تسجيلها. لكنّ آثارها بقيت كامنةً في الذّات الشعبيّة، وهي الأكثر صدقاً وأمانةً بما لا يُقاس من المؤرخين الخاضعين لنزوات السُلطة. استفاد منها أربابُ الدولتين. ربما يرجع الفضل فيها إلى دُعاةٍ أو مهاجرين مجهولين. ضرورةَ أنّ أمراً كهذا لايمكن أن يحصل من نفسه بنفسه.

ومما يجدرُ بنا ذكره في هذا السياق، أنّ مدينة (نفطة) في أقصى الجنوب الغربي لـ (تونس)، بجوار مدينة (قفصة)، قد عُرفت قديماً بـ (الكوفة الصُغرى). الأمر الذي يذكّرنا بمدينة (حمص) في وسط (سوريّا)، التي عُرفت أيضاً باسمٍ مُشابه (الكويفة)، بسبب هجرة الهمدانيين الكثيفة إليها من (الكوفة).

فهل ذلك يعني أن تلك المدينة القصيّة قد تلقّت هجرةً مُماثلة، كانت من الحجم بحيث فرضت هويّتها على المدينة ؟

لا نملكُ في الجواب إلا أن نقول: الله أعلم!

لكنّ الأمر الأكيد أنّ نسبتها إلى (الكوفة) على بُعد الشّقّة لم يكن عبثاً كيفيّاً اعتباطيّاً دون مُسوّغ. ثم لاريب في أنّه يتصل اتصالاً ما برمزيّة (الكوفة) الشيعيّة، التي منها انتشر التشيّع في الأقطار. على ما حقّقنا في غير كتابٍ لنا. وعلى ما هو ثابتٌ عند العارفين على كلّ حال. الأمر الذي يجعل حدوث هجرةٍ منها إلى تلك المنطقة القصيّة، بسبب وعلى أثر إحدى النوازل الكثيرة التي حاقت بها، طلباً للأمن، فكرةً مقبولةً جدّاً من حيث المبدأ.

والذي يُعزّز بقوّةٍ هذه النظريّة أو الاحتمال أن أُسرة الدكتورمحمد التيجاني، الذي سنعرفُ موقعه العالي في نشر التّشيّع في (تونس) وغيرها، التي تتوطّن حتى اليوم مدينة (قفصة) المُجاورة لـ (نفطة) / (الكوفة الصغرى)، ترجع بأُصولها البعيدة إلى مدينة (السّماوة) العراقيّة القريبة من (الكوفة)، هاجرت منها إلى (قفصة) حيث ماتزال. ومن هنا أتى لقبُ (السّماوي) الذي يُذيّل اسم الدكتور التيجاني.

وممّا يؤكّد أيضاً وأيضاً أصالة التشيّع في جنوب (تونس)، أن الشيعي التونسي البارز عماد الدين الحمروني، الذي سنُعرّفُ به أيضاً بعد قليل، يُردّد: «إنّ أجدادي في الجنوب التونسي هم من شيعة آل محمد». أي أن تشيّعه لم يكُن عن استبصارٍ شخصيّ فقط، بل إنّه أصيلٌ في أُسرته المعروفة التي تقطن جنوب (تونس).

ولنذكر أيضاً في سياق سبرنا للجذور الشيعيّة في جنوب (تونس)، ما نراه كامناً في اللغة والعادات الشعبيّة الشائعة هناك حتى اليوم. من ذلك أن الناس في منطقة (الجريد)، جنوب غرب (تونس) أيضاً، يمتنعون عن طبخ الطعام يوم عاشورا. ومنه شيوع اسم (محمد علي) بينهم. وأنّه لا يُدخلُ العروسَ إلى بيت عريسها إلا الذي اسمه محمد أو علي. وعندما يتعثّر أحد الأولاد، أو تتعسّر ولادة أحدى النسوة، يُقال له أو لها: «حاضرْ لَك / لِك محمد وعلي».

ولا يستهيننّ أحدٌ، من المُتأثّرين بذهنيّة التاريخ السُلطوي، بهذا التراث الشعبيّ ومثله، فلا يرى فيه إلا سلوكيّات أُناسٍ بُسطاء، هيّنةً لا تستدعي الاهتمام. ذلك لأنّ هذا التراث في الحقيقة خزّانٌ حافلٌ بمعالمَ قادمة من أعماق التاريخ الإنساني غير المكتوب، حيث لاتصِلُ يدُ السُلطة لتُثبت أو تمحو بما يتناسبُ مع نزواتها ومصالحها، ومع نُزوعها للاستيلاء المعنوي على المستقبل عن طريق تسجيل تاريخها هي حصراً.

هذا النّمط من التاريخ لايُحسنُ قراءته إلا المؤرخ الإنساني، المَسكون بفكرة أنّ الناس العاديين هم حصراً سادةُ التاريخ وصانعوه، بما يتناسب مع القوى المذخورة في العقل والمرامي الجَمعيّة. وأن سلوكه وتراثه وتقاليده هي خزّانٌ ضمّ ما لم يسجّله المؤرخون المحترفون لمصلحة القابضين على أزمّة الأُمور. وأنّ السلطة وأربابها عاملٌ طفيليٌّ، يُسخّر النصّ الذي يُدبّجه لها المؤرخ السُلطوي لِما فيه مصلحتها ويُناسب مقاصدها. الأمر الذي يُملي على القارئ اللبيب أن يأخذ التّراث الشعبي دائماً بعين الاعتبار مهما بدا له هيّناً.

(٣) الشيعة اليوم في تونس

تلك الجذور ظلّت كامنة قروناً. فكأنّها بذرةٌ دفينةٌ في قلب الأرض، تنتظر الظرف المُلائم لتنبتَ ثم تُثمر. هو ذا ما حصل في أيامنا بفضل ثورة المعلومات وسهولة التّواصُل، التي قرّبت المسافات بين الناس وحملت الأفكار.

إلى هذين يعودُ الفضلُ في نُهوض التّشيّع بـ (تونس) ابتداءً من ستينات القرن الماضي. وطبعاً كان لهذا وذاك روّادٌ وأبطال تأثّروا وأثّروا. أو بالأحرى تأثّروا قبل أن يؤثّروا. بعضهم ممّن نعرفهم، أُولئك هم الذين لم

يقفوا عند الهُدى الذي نالوه بوصفه مكسباً شخصيّاً، فتحوّلوا إلى دُعاة يعملون على نقل تجربتهم إلى غيرهم. أعرفهم وأبعدهم أثراً الدكتور محمد التيجاني السّماوي. سنبدأُ سردَ العوامل الحديثة لنهضة التشيّع هناك بشيءٍ من سيرته وأعماله.

والشيخ الدكتورالتيجاني شخصيّةٌ مُدهشة. جمع في سيرته بين المُختلفات، لينفذ منها إلى أمرٍ جديد، لا علاقة له بكلّ ما اضطرب فيه وتطلّع إليه في مطلع حياته. وُلد في أُسرةٍ مالكيّة المذهب، لكنّها تتبع الطريقة التيجانيّة الصوفيّة. كان يُعِدُّ نفسه ليكون عالماً أو مرشداً دينيّاً. فانتسب إلى (جامعة الزيتونة). وبعد أن تخرّج منها عمل في التدريس مدة سبع عشر سنة. انتسب بعدها إلى جامعة (السوربون) الشهيرة في (باريس)، لينال منها الماجستير في الفلسفة، ثم الدكتوراه على أُطروحته النظريات الفلسفيّة في نهج البلاغة. كما ترجم الكتاب نفسه إلى الفرنسيّة. ليحتلّ من ثَمّ كرسي تدريس في الجامعة نفسها لمدّة سنة.

سنة ١٩٦٤م، أي يوم كان في الحادية والعشرين، زار (الحجاز) بوصفه مندوباً عن الكشّافة التونسيّة. هناك عرف الفرقة الوهّابيّة فتأثّر بها ومال إليها. وبذل جُهداً صادقاً في نشرها، فكان يطوفُ في المساجد ناهياً الناس عن تقبيل الأضرحة والتّوسُّل بأصحابها.

أثناء رحلةٍ له بالباخرة من (الاسكندريّة) إلى (بيروت) التقى أُستاذاً شيعيّاً عراقيّاً في جامعة (بغداد). حيث دار بينهما نقاشٌ حادٌّ، واجهه فيه بما كان قد لُقّنه عن الوهّابيّة بحقّ الشيعة، من مثل أنّ لهم قرآنهم المُختلف، وأنّهم يؤلهون بعض أهل البيت، وما إلى ذلك ممّا هو مأثورٌ عنهم. لكنّ الأُستاذ العراقيّ بيّن له ما جعله يتساءل على الأقلّ عن صحّة تلك الأفكار. فاتخذ طريقه مع صديقه العراقي إلى (العراق).

في النجف قابل المرجعين الشيعييَن السيّد أبو القاسم الخوئي والسيد محمد باقر الصّدر رضوان الله عليهما، فصارحهما بما في ذهنه من أفكارٍ وهواجس عن الشيعة. فكانت جوابات هذين العلميَن حافزاً له لأن يبدأ رحلةً واسعةً مع الكُتُب بحثاً عن الحقيقة. قادته إلى اعتناق التشيّع.

مُذ ذاك سخّر تجربته الغنيّة وثقافته الواسعة وقلمه لخدمة عقيدته. فصنّف عدداً من الكُتُب، غير المسبوقة من أي مُفكّرٍ أو مصنّفٍ من شمال (أفريقيا). كان لها ضجيجٌ هائل في أنحائه وفي مهاجر أبنائها في (أوروبا). بحيث باتت من أهمّ أسباب وأدوات نهضة التشيّع في (تونس) خصوصاً. فضلاً عن حضوره الشخصي، بما يملك من تجربةٍ غنيّةٍ مُتنوّعة، من المالكيّة المُتصوّفة، إلى الوهّابيّة، إلى السّوربونيّة، ليتستقرَّ به النّوى في واحة التشيّع.

هكذا منحته تجربته الغنيّة مقدرةً ممتازة على تفهُّم أزمات مُحاوريه وسُبُل علاجها. ومن هنا لقّبه أستاذنا السيّد الصدر رضوان الله عليه «بذرة التشيّع التي غُرست في تونس».

لقد كانت أعمال هذا الرّائد بدايةَ تفاعُلٍ متسلسلٍ في المجتمع التونسي. نقرأه في جديد الطّلب الحثيث للكتاب الشيعي من طليعةٍ تونسيّةٍ عريضة، بعد أن كان مجهولاً تماماً، بل كان موضع ازورارٍ واستنكافٍ عام هناك. كما نقرأه في ارتحال أعدادٍ مُتزايدةٍ من المُتشيعين التونسيين الجُدُد إلى الحوزات العلميّة الدينيّة في (إيران) و (سوريّا) و (العراق) في طلب العلم، ليبلّغوا قومهم إذا رجعوا إليهم.



إلى أن أتت لحظة الثورة الإسلاميّة في (إيران)، والاستجابة العفويّة الباهرة عليها في العالَم الإسلامي قاطبة، لتقلب كلّ المعايير والسّدود والعوائق التي أمضت دُولُ الإسلام السُلطويّ القرونَ من قبلُ في بنائها وإعلائها.

ومن إمارات هذا الوضع الانقلابي في تونس خصوصاً، الذي يعود جزءٌ من الفضل في إطلاقه إلى الشيخ التيجاني، أنّ (حركة الاتجاه الإسلامي) / (النّهضة) حاليّا، وهي حركة تونسيّة غير شيعيّة، أعلنت فوراً مُساندتها للثورة دون تحفُّظ، واعتبرتها جزءاً من «الصّحوة الإسلاميّة».

هذا التّقبّل العلني الصريح، من حركةٍ إسلاميّة فاعلة غير شيعيّة يجب اعتباره، بالنسبة لمواصفات الحالة التونسيّة، من ثمرات كلّ ما سبق من مبادرات، ممّا بيّنّاه أعلاه. وهو يدلّنا دلالةً صريحةً على أن التّشيّع بات يحظى هناك بقسطٍ وافرٍ من القبول في النسيج الإسلامي التونسي، بعد أن كان قبل قليل خارج كلّ الأطياف والميول.

وممّا يدلّنا على حجم تأثير الثورة الإسلاميّة في الوُجدان التونسي، إقدامُ الحكومة التونسيّة بُعيدها بقليل على قطع العلاقات الديبلوماسيّة مع (إيران). دونما سبب إلا الزّعم بـ«دعم إيران مجموعات الإسلاميين، التي كانت تنشط آنذاك ضد النظام التونسي».

والحقيقةُ التي يتجاهلها أصحاب هذا الكلام، أنّ «مجموعات الإسلاميين»، كما غيرها من أوسع الجماهير، هي التي بادرت فأقبلت على الثورة وهلّلت لها علناً. فكان من الطبيعي أن تردّ الثورةُ التحيّةَ بمثلها. الأمرُ الذي رأى فيه النظام التونسي استفزازاً له. لكنّ الحقيقة أنّ المشكلة الأساسيّة للنظام هي مع جزءٍ من قاعدته الشعبيّة تأثّرت بالثورة فأعلنت مُساندتها لها بنحوٍ أو بغيره. وليست مع الثورة ورجالها.

الارتكاس الأعنف، والأكثر شراسةً على كلّ هذه التّبدُّلات العميقة حصلت، كما دائماً، من الجهات الوهّابيّة. فطفقت توظّف كلّ ما تحت يدها من إمكاناتٍ إعلاميّةٍ، مُستندة إلى وضعها الماليّ القويّ، في بثّ الكراهية وتشويه صورة رجال النهضة الشيعيّة.

ومن الطريف أن أحد مواقع التواصُل الاجتماعي لهؤلاء ظلّ مدةً يُنكرُ وجود شخصٍ اسمه محمد التيجاني. بالتّرديد دون كلل أنّه شخصيّة خياليّة، ابتدعتها أجهزةٌ أجنبيّة (يعني إيرانيّة). وطبعاً كان لهذا الطّرح الغبيّ تأثيراً عكسيّاً ارتدّ على أربابه. لأن الرجل ونشاطه المؤثّر كانا معروفين على نطاقٍ واسعٍ في (تونس).

اليوم ما من إحصاءٍ يمكن الرّكون إليه لعديد الشيعة في (تونس). والذي يقرأه القارئون هنا وهناك من تعداد ليس إلا انطباعات شخصيّة، خاضعةٌ لميل أصحابها الشخصي غالباً.

وعلى كلّ حال، فإنّه بصرف النظرعن اعتبارات السند، فإنّ أي تقدير هو ابن لحظته. بسبب التّسارع في نمو عدد الشيعة في (تونس)، خصوصاً بين النُّخبة التي خابت آمالها في كافة اتجاهات الإسلام السُلطوي.

الأمرُ الذي لاريب فيه، أن التشيّع هناك قد اجتاز صراطَه. وبات ظاهرةً مُتناميةً في المجتمع التونسي. وهو مُرشّحٌ للمزيد والمزيد من النّمو، مع عودة الطلاب الكثيرين الذين يُعدّون أنفسهم في الحوزات الدينيّة للعمل التبليغي بين قومهم إذا رجعوا إليهم.

(٤) أعلامٌ شيعةٌ تونسيّون

نختم الباب بالتعريف بمَن وصل إلينا العلم بسيرتهم، بالإضافة إلى الشيخ التيجاني، من أعلام ومؤسّساتٍ شيعيّةٍ. لِما في ذلك من فائدةٍ للقارئ.

١. **مبارك بن محمد بعداش**. وُلد عام ١٩٣٥م في ولاية قِبِلي جنوب غرب (تونس). التحق في فتوّته بحلقات دروس القرآن. ثم بإحدى المدارس، ثم تابع بالمعهد الثانوي بـ (جامع الزيتونة). وتخرّج منه سنة ١٩٥٧م. ومع ذلك فإنّه تأثّر بالمَدّ القومي الذي كان في ذروة صعوده يومذاك، وغدا من المؤيدين العاملين له.

التقى براشد الغنوشي، يوم كان هذا في بداية حراكه السياسي وشاركه في تأسيس (حركة الاتجاه الإسلامي)، التي لم تكن للحقيقة سوى واجهة لتنظيم (الإخوان المسلمون). وبات من أعضائها العاملين. لكنّه لم يلبث أن اكتشف أنّها توجّه أكبر اهتمامها إلى الجانب الثقافي، على حساب البُعد الروحي للإسلام. بالإضافة إلى أنّ قياداتها يعيشون خارج (تونس) ولاخبرة لهم بوضعها، ثم أنّهم لا يسمحون بتوجيه النقد إليهم.

من هنا بدأ ينسحب من حركة الإخوان باتجاه أُصوله الصوفيّة. فانقلب عائداً إلى مدينة (قفصة) العريقة في غرب الجنوب التونسي، التي كان قد أقام فيها من قبلُ مدةً، حيث انصرف إلى التأمّل في التّصوّف. وبالنتيجة وصل إلى أنّه عملٌ يدور على ذات الشخص المُتصوّف، يمكن أن يوصِلَ صاحبه إلى درجةٍ من الرّضى الشخصي. لكنّه عاجزٌ عن أن يكون بمستوى أُطروحةٍ مؤهّلةٍ للتعامل مع المُشكلات السياسيّة والاجتماعيّة والمعاشيّة والفكريّة التي يُعاني منها المسلمون، وكانت المُحرّك له ولكلّ المسكونين بالهموم المستقبلة من أمثاله.

في (قفصة)، التي كانت يومذاك من الحصون المُبكّرة للشيعة، اتصل بعددٍ من الشباب الشيعة الذين كانوا يعملون تحت شعار (جماعة أهل البيت). وبنتيجة نقاشات طويلة معهم أعلن اعتناق التشيّع. ثم ما لبث أن غدا من الرموز البارزة للتشيّع في (تونس).

٢. **عماد الدين الحمروني**. مفكّرٌ سياسي وعالِمٌ في الجغرافيا السياسيّة والعلاقات الدوليّة. درّس المادة لمدّةٍ في أكاديميّة العلوم السياسيّة في (باريس).

يقول أنّه ينتمي إلى أُسرةٍ شيعيّةٍ في الجنوب التونسي، وأنّ أجداده هناك هم «من شيعة آل محمد قبل أن تصبح إيران شيعيّة» (!). وقد بات من المعلوم للقارئ أنّ هذه المنطقة عريقةٌ في التشيّع، وأنّها أخرجت أغلب وأبرز القادة الشيعة في (تونس).

أسّس سنة ٢٠٠٣م ورعى أوّل مؤسّسة تونسيّة، اعتنت بنشر ثقافة أهل البيت عليهم السلام، وإحياء المراسم والمناسبات الدينيّة، سمّاها (مؤسّسة أهل البيت الثقافيّة). والحقيقة أنّ هذه الجمعيّة هي بداية الظهور العلني للشيعة في المجتمع التونسي. والظاهر أنّ المكانة العلميّة لمؤسّسها هو الذي غطّى المؤسّسة تجاه

الدولة وحماها في ذلك التاريخ، حيث كانت المؤسّساتُ الإسلاميّة تُلاحق وتُقمَع هناك دون هوادة.

انسجاماً مع خبرته العلميّة والعمليّة بالشأن السياسي، اعترض على خطّة الشيخ التيجاني في الامتناع عن التدخُّل في هذا الشأن. تحت شعار أنّ الشيعة في (تونس) موجودون في السّاحة الوطنيّة، وأنّهم قد ساهموا من قبلُ في إسقاط نظام الحبيب بو رقيبة. فدعا إلى التنسيق مع المعارضة التونسيّة الليبراليّة واليساريّة والإسلاميّة، وإلى العمل جبهةً واحدةً للدفاع عن الانجازات الوطنيّة وأهمّها الدولة والدستور، وفي سبيل التوزيع العادل للثروة وإحياء الثقافة الوطنيّة. في حين قامت خطّة التيجاني على التبليغ والاقتصار على الدعوة لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

أشاد بمساهمة الشيعة التونسيين بثورة ٢٠١٠ـ٢٠١١م التي انتهت بإسقاط زين الدين بن علي ومغادرته (تونس). والحقيقة أن نجاح هذه الثورة منح الحراك الشيعيّ النّاشئ فرصةً لالتقاط الأنفاس، وتكريس حضورهم الرّسمي القانوني. وبات لهم حضورهم السياسي والثقافي والديني. وبعضهم ناشطون في الأحزاب الوطنيّة من موقع المُواطنَة. وبعضهم الآخر انصرف إلى تركيز الصفة المؤسّسيّة، بإنشاء الجمعيات وما إليها. ممّا سنذكره بعد قليل.

٣. **محمد صالح الهنشير**. كاتبٌ ومُفكّرٌ تونسي شهير. كان من قياديي وعضو شورى (حركة النهضة) التونسيّة حتى السنة ١٩٩٧م. غادرها على أثر خلافاتٍ مع قيادتها على المسار العامّ للحركة، التي قلنا قبل قليل أنّها كانت واجهةً لتنظيم الاخوان المسلمين.

والظاهر أنّ هذه الـ «خلافات» لم تكُن إلا تعبيراً عن التحوّلات الفكريّة التي كانت تنضج في عقله. ذلك أنّه ما لبث أن فاجأ عارفيه بإعلان اعتناق التشيّع سنة ٢٠٠٠م.وأتى إعلانه صريحاً وعلنيّاً دون ما وجل.وثمرة بحثٍ عميقٍ وتساؤلاتٍ كبيرة وتوتّراتٍ ذهنيّةٍ دامت سنوات. عالجها بصمت ولم يجد منها مخرجاً إلا في الفكر والعقيدة الشيعيّة الإماميّة. أي أنّه لم يخرج من قناعاته السابقة تحت تأثير أحد، بل كانت قراراً شخصيّاً بكلّ ما للكلمة من معنى. عاش قبله سنوات مع القلق والتساؤلات. لم يجد لها علاجاً في كُتُب الموروث الإسلامي السّائدة في المجتمع التونسي المالكي الأشعري.

كان لإعلان الهنشير العلني المُفاجئ وقعاً صاعقاً بين رجال المؤسّسات الدينيّة ارسميّة المحلّيّة. لِما له من مكانةٍ فكريّةٍ في (تونس). خصوصاً بعد أن وجّه نقده للمذهب المالكي السّائد في أنحاء المغرب العربي، إلى حدّ القول أنّه مذهبٌ غير صحيح، وطعن في نسب الإمام مالك. فتجنّدت شخصيّاتٌ ومواقع وصفحات اجتماعيّة لشنّ الحرب عليه دون هوادة، وعَبْره على الشيعة والتشيّع إجمالاً ، بتكفيرهم والزعم أنهم غرباء عن المجتمع التونسي. ونُشرت صُوره على وسائل الاتصال مشفوعةً بنعته بالكفر. كما أنّه طُرد مرّةً من أحد المساجد، ومُنع من أداء الصلاة فيه. ومع كلّ ذلك فقد ظلّ صاحب الصوت العالي. يظهر بدأبٍ في مختلف وسائل الإعلام مُعبّراً عن رأيه دون خوفٍ ولا حرج. وقاد العديد من الاجتماعات والندوات المُنظّمة من قِبَل شيعةٍ تونسيين.

وصف تجربته بكافة مراحلها، وصولاً إلى إعلان تشيّعه، في كتابه هكذا فهمتُ الإسلام. وهو من أروع الكُتُب في بابه. كما نشر العديد من المقالات المُمتازة التي تدور على البُعد القرآني في تجليّاته.

دأب على الأسفار ابتغاء تنمية صِلاته مع الأوساط والنُّخَب الشيعية خارج بلده. فشارك سنة ٢٠١٢ م في (مهرجان الشهادة) في (كربلا). كما شارك في أعمال (مهرجان الغدير الدولي) في (النجف). وكانت مشاركته فيهما فرصةً للتعريف بفكره المُتميّز خارج منطقة (المغرب) العربي. كما دأب على زيارة (الجزائر)، حيث كان يلتقى بشيعتها، ويتداول معهم فيما هو مُشترَك. ويُلقي المحاضرات والدروس.

ولطالما عبّر عن تقديره العالي لهم بالقول: «إن غالبيّة الشيعة الذين أعرفهم في الجزائر هم من أهل الفكر». كما دأب على بثّ روح المُبادرة فيهم. ومن أقواله في هذا النطاق: «أنا مع إعلان الشيعة عن وجودهم في الجزائر» يعني كما فعل هو في (تونس).

٤. **محمد الرصافي المقداد.** وُلد ونشأ في أُسرةٍ مالكيّة مُتديّنة تسكن بلدة (فنطاسة) في جنوب (تونس). وتلقّى في بدو أمره تعليماً إسلاميّاً قرآنيّاً في الكُتّاب. ثم التعليم الذي توفّره المدارس الرّسميّة دون أن يُتمّ المرحلة الثانويّة.

يبدو أنّه حتى بلغ السابعة والعشرين من العمر لم يكُن يتطلّع إلى أكثر من عملٍ بسيط يرتزق منه. وفي هذا السبيل انتقل إلى مدينة (قابس) للعمل في إحدى الشركات. حيث كان يُقيم ابنُ عمّه الشيخ مبارك البعداش.

ولقد عرفنا الشيخ البعداش فيما سبق قبل قليل أحدَ مؤسّسي (حركة الاتجاه الإسلامي) مع الشيخ الغنوشي، ثم مُتشيّعاً صلباً. وكان يوم التقى به صاحبُنا مايزال من المُلتزمين العاملين بالحركة إيّاها. وهكذا أُتيح له ان يرافق فترة تحوّل قريبه باتجاه التشيّع، وأن يستفيد منها بما لم يكُن في طوقه بنفسه، بالنّظر إلى معارفه وتطلُّعاته البسيطة. إذن، فما المقداد الذي سنعرفه إلا ثمرةُ لقائه بالشيخ البعداش ومواكبته إياه في مرحلة البحث والتأمّل، التي قادت خُطى الاثنين إلى مُستقرِّهما.

يصِفُ المقداد في كتابه نعم لقد تشيّعتُ وهذا هو السبب انصرافه مع قريبه ومعهما عددٌ من «الاخوان» إلى البحث في كتابي المراجعات للسيّد شرف الدين وفضائل أمير المؤمنين للشيخ المُظفّر، اللذين قدّمهما لهما الشيخ التيجاني. ثم في كتاب الغدير للشيخ الأميني، الذي حصل عليه من معرضٍ للكتاب. وكانت دراستهم للكُتُب الثلاثة دقيقةً: ينظرون فيما اقتبسوه ثم يقارنونه بأصله. وبالنتيجة وجدوا أنّها كلّها صحيحة، وما استفاده منها مؤلفوا الكُتُب الثلاثة في محلّه. الأمر الذي كان كافياً لـ «الالتحاق بمذهب أهل البيت».

كانت هذه اللحظة فاصلةً في سيرة المقداد. فكان يصحب الشيخ البعداش في أسفاره التبليغيّة إلى مدينة (قفصة) في الجنوب التونسي. ثم طفق شيخه يكلّفه بالاتصال مع مَن يتوسّم فيهم خيراً. وعن طريق الاتصال بطلاب الجامعة اكتسب عدداً إضافيّاً من المبلّغين.انتشروا في أنحاء (المغرب). بحيث لم تبقَ مدينةٌ إلا وفيها مُستبصرون.



في السنة ١٩٨٦م اعتُقل وحُقّق معه بشأن تشيعه، وأُطلق سراحه بعد أربعة عشر يوماً. وفي السنة التالية طُرد من العمل. ليُعتقل ثانيةً بضع أشهر. ثم اعتُقل ثالثاً سنة ١٩٩١م تعرّض أثناءه للتعذيب. ثم في السنة التالية طُرد من العمل نهائيّاً. ليُعتقل أيضاً سنة ١٩٩٤م خمسة ايّام.

له من التصانيف ثلاثة كُتُب:

- نعم لقد تشيّعتُ، وهذا هو السبب. وهو يدورُ على سيرته الذّاتيّة ومسيره إلى التشيّع.
- بيّناتٌ من الهدى.
- دراسةٌ مُقارنَةٌ في التوحيد والنُّبوّة. وفيه بحثٌ غير مسبوق على حقيقة العقيدتيَن عند الشيعة، مُقارّنَةٌ بما عند غيرهم، وخصوصاً الوهّابيين.

فضلاً عن بضع مقالات. نُنوّه منها بـ (حقيقة مصحف فاطمة). وهو من أفضل ما كُتب في هذه الإشكاليّة، التي طالما شنشن بها الوهّابيّون، بالزّعم أنّه قرآنٌ للشيعة غير ما عند عامّة المسلمين.

٥. **محمد العربي التونسي**. من أوائل المستبصرين التونسيين. التقى طالباً إيرانياً في إحدى كلّيات الجامعة في مدينة (تونس) في سبعينات القرن الماضي، عرّفه بالشيخ التيجاني، الذي أخذ بيده إلى اعتناق التشيّع. على أنّنا لم نجِد لهذا الشيعيّ التونسي المُبكّر في المصادر التي بين يدينا ما يدلّ على أنّه اهتمّ بالتبليغ. وإنّما ذكرناه تقديراً لمُبادرته التاريخيّة في إطار نهضة التشيّع ببلده.

٦. **يوسف القروي**. ليس لهذا المُتشيّع التونسي المُبكّر فضلٌ بنفسه على نهضة التشيّع في (تونس). ولكنّه دافع على طريقته عن حقّ الشيعة في بلده بالظهور وبنشر أدبيّاتهم، عن طريق إنشاء مكتبة لبيع الكُتُب في العاصمة (تونس) سمّاها (المكتبة الشّاملة). ونراه قصد بوصف «الشّاملة» أن مكتبته ليست تقتصرُ على عرْض كُتُب المذهب السّائد في المغرب العربي وما ناسبها، بل تُيسّر كُتُبَ غيره من المذاهب، ومنها طبعاً كُتُب مذهبه هو. ولطالما ردّ على الذين أخذوا عليه أنّه كسرَ الحَرْمَ المضروب على الكتاب الشيعي، إلى درجة أنّهم تجمهروا مُطالبين بإغلاق مكتبته، ـ ردّ عليهم بالقول: «إنّها مكتبةٌ تريد مُقارعة الفكر بالفكر. ومَن كانت ثقته بمُعتقده هشّة فهذه مشكلته. وحينما يُهاجَم الكتاب، ويُخافُ منه في حضارةٍ ما، فيجب إطلاق صفّارات الإنذار على أُفول الفكر وغياب مبدأ الحوار». وهذا الكلامُ يدلُّ على عقلٍ نقديٍّ راجحٍ، وعلى وعيٍ سوسيولوجي لأهمّيّة تدبيراتٍ صغيرةٍ أحياناً في نشر الأفكار. والحقيقةُ التي نقرأها فيما يرِدُ في الترجمة لغير واحد من المُتشيعين المغاربة، أن تيسير (المكتبة الشاملة) للكتاب الشيعي في (المغرب العربي) كان له أطيب الأثر في ترشيد الحوارت والمناقشات، كما في إيصال أصحابها إلى نتائج واضحة مُقنعة. ونُذكّرُ بالمناسبة بدور مكتبة (دار العلم) في (الدار البيضاء) بـ (المغرب).

٧. **هشام البوعبيدي**. دكتور في الفلسفة ومُدرّس لها في الجامعة.

وُلد في (قفصة) جنوب تونس. المدينة التي يعرفها القارئ بوصفها من مراكز التشيّع في (تونس). واعتنق

التشيّع أثناء دراسته في الجامعة، متأثّراً بزملاءٍ له سبقوه إلى التشيّع. وبعد التخرُّج انصرف إلى التدريس في الجامعة.

أصدرابتداءً من ١٤/ ١/ ٢٠١٣م صحيفةً سمّاها (الصّحوة) «صحيفةً أُسبوعيّةً عربيّةً مستقلّة جامعة. تقوم على شعار الحقُّ أحقُّ أن يُتّبَع». كما قال في افتتاحيّة العدد الأوّل منها. لتكون أوّل صحيفةٍ ناطقةٍ باسم الشيعة بـ (تونس).

وقد حشد في العدد نفسه مواقفَ سياسيّة واضحة على قضايا الشيعة.

٨. **إدريس هاني الحسيني**. مُفكرٌ وباحثٌ وكاتبٌ مغربيّ معروف. أعلن تشيّعه فجأةً وعن غير توقُّع، فكان لذلك ضجيجٌ كبير في الأوساط المغاربيّة إجمالاً.

وقد روى قصة رحلته الفكريّة بالاتجاه الذي استقرّ إليه بعد طول بحثٍ وتأمُّل في كتابه المُمتع لقد شيّعني الحسين. ومغزى الاسم واضحٌ لا خفاء فيه.

والحقيقة أنّ الشيخ السيّد إدريس كان، فيما اختاره اسماً لكتابه، أميناً جدّاً على تجربته، من حيث أنّه بدأ تساؤلاته بالاطلاع على كتابٍ على شهادة الإمام عليه السلام، التي لم يكُن لها أيّ ذكرٍ علنيّ بين الناس في (المغرب). وعن هذا الطريق توالت التساؤلات، التي لم يجِد عليها جواباً إلا بأنّ القسم الأكبر من حقائق التاريخ مكتومٌ لمصلحة فريقٍ مُسيطر. على حساب فريقٍ آخر عانى العزْل والتهميش، مع أنّه هو الأكثر أصالةً وحضوراً في الإسلام الصحيح. وهو الذي هيّأ له النبي صلى الله عليه وآله وسلم في نصوصٍ وأعمالٍ كثيرةٍ لا ريب في صحّتها، لكنّها مُعطّلة عمليّاً. وما هي إلا خطُّ أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

على الأثر انتقل إلى (سوريا) حيث التحق بالحوزة العلميّة في (دمشق)، ليدرس على أساتذتها. في عودةٍ مُدهشةٍ إلى حياة الطّلب. وهو صاحب المكانة الفكريّة البحثيّة العالية. ثم ما عتّم أن صرف جهده إلى وضع مجموعةٍ من الكُتُب والمقالات التي تدور على رؤيته الجديدة. هي:

(الكُتُب المطبوعة):

١. لقد شيعني الحسين، الانتقالُ الصعب في رحاب المُعتقد والمذهب.

٢. الخلافةُ المُغتصبَة، أزمة تاريخ أم أزمة مؤرّخ.

٣. هكذا عرفتُ الشيعة، توضيحاتٌ ورُدود.

٤. محنةُ التّراث الآخَر، النّزعات العقليّة في الموروث الإمامي.

(المقالات):

١. في نقد الأُسطورة السّبئيّة.

٢. الجابري واللامعقول الشيعي.





٣. الانطولوجيا المشّائيّة في أُفُق انفتاحها ومُقاربةٌ لنظريّة الوجود عند صدر المتألهين الشيرازي.

٤. مع ابن تيميّة في رُدوده على المنطقيين.

٥. آفاق النهضة في الفكر العربي المعاصر وجدليّة العلاقة مع الغرب من منظارٍ نقدي.

٦. المعقول واللامعقول في أُصوليّات روجيه غارودي.

٧. حوار الحضارات.

وكلّها منشورةٌ في مختلف الدوريات.

بالإضافة إلى هؤلاء الثمانية الرُّوّاد الأعلام، هناك مجموعةٌ من المستبصرين التونسيين، يُذكرون دون التنويه بنشاطٍ خاصٍّ مُميّزٍ بكلٍّ منهم، ربما لأنّ نشاطهم التبليغي كان يتمُّ تحت ستارٍ كثيفٍ من الكتمان. حذرَ المُراقبة والتّضييق الشديدين التي تضربها عليهم الجماعات السّلفيّة. سنوردُ أسماءهم حفظاً لحقّهم، وأملاً بأن يأتي مَن تتّفرُ لديه معلوماتٍ أفضل عنهم:

أبو الحسن التونسي، أحمد الرّياحي، الاسعد بن علي، حامد فرحاني، حسن بن شقرا، حفيظ بالخيريّة، حمزة بن مبارك، صالح الطيّب، علي أكبر مالكي، حياة ياسين، علي بن الفيتوري الهوّاري، منذر القفراشي.

(٥) مؤسّساتٌ شيعيّة في تونس

نشُطت وتنشط في (تونس) عدّة جمعياتٍ شيعيّة علنيّة. بالإضافة إلى تجمّعاتٍ عفويّةٍ، تُنظّم لقاءاتِها التبليغيّة في بيوتٍ كثيرة.

أهمُّ تلك الجمعيّات:

١. **جمعية أهل البيت عليهم السلام الخيريّة**. ذكرنا آنفاً أنّ مؤسّسها ورئيسها هو عماد الدين الحمروني. ونُضيفُ الآن أنّها تأسّست سنة ٢٠٠٣م. وعملت بدأبٍ ونجاح على التّعريف بالتشيّع وإحياء مراسمه وتأصيل نهجه. كما ساهمت في إحياء وتجديد الخطاب الإسلامي الأصيل. على الرغم ممّا أُنزل بها من تشهيرٍ وتشويه من الجهات السّلفيّة المعروفة والمُتأثرين بها وبإغراءاتها الماليّة، ومن تضييق الأجهزة الرسميّة.

٢. **جمعيّةالمودّة الثقافيّة الشيعيّة**. في العاصمة (تونس). وهذه كالتي قبلها أوّل مؤسّساتٍ من مثلهما في (تونس). والظاهر أنّها لم تحظَ بالترخيص من الحكومة.

٣. **حسينيّة في مدينة (قابس)**. توصف في بعض المصادر بأنّها «الوحيدة تقريباً في البلاد»، يعني التونسيّة. و (قابس) مدينة كبيرة وعاصمة الولاية المُسمّاة باسمها.وكان من حُسْن تأثير حسينيّتها الرّائدة، أن المدينة باتت اليوم، من حيث العديد، المجمَع الأوّل للشيعة في (تونس).

٤. **الرّابطة التونسيّة للتسامُح**. مؤسّسها ورئيسها الشيعيّ صلاح المصري. ظهرت إعلامياً سنة ٢٠١٢م، في ظلّ الثورة التي انتهت بسقوط رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي، ومن ثَمّ لجوئه إلى النظام السعودي، بأن نظّمت (مهرجان الأقصى) في مدينة (بنزرت). وفيه أعلن رئيسُها أن الرابطة ترى في حريّة الاعتقاد والانتماء السياسي حقّاً مقدساً للإنسان. وأنّ الاختلاف أمرٌ طبيعيّ.

ومن الواضح أنّ اسم الرابطة وأُطروحتها السياسيّة يُصوّبان مباشرةً إلى الجماعات السّلفيّة التي تحصرُ الحقَّ وحريّة الدعوة بها. وتمتشق سلاح التكفير في وجه كلّ مَن يُخالفها ويدعو إلى مُعتقده.

٥. **حزب الله تونس**. حاول الشيعيّ سيف الدين العجيلي سنة ٢٠١١م تأسيس حزبٍ بهذا الاسم. يستند في أدبيّاته على «مراجع الفقهاء من المذهب الشيعي» على حدّ تعبيره في بيان التأسيس.

٦. **حزب الغد**. كما حاول الدكتور هشام البوعبيدي تأسيس حزبٍ سياسيّ بهذا الاسم. أعلن صراحةً أنّه سيتمثّل تجربة الثورة الإيرانيّة.

وطبعاً لم ينَل الاثنان الترخيصَ بالعمل من الحكومة.

٧. **حزب الوحدة**. سنة ٢٠١٣ م تقدّمت مجموعةٌ من الشيعة من الجهات المُختصّة بـ (تونس) بطلب تأسيس حزب بهذا الاسم. هو وإن لم يُصرّح بهويّته الشيعيّة، لكنّ كلّ قيادته المُفترَضَة جميعاً كانت معروفةً بأنّها من الشيعة.



دعا حزب الوحدة في بيانه التأسيسي إلى «إقامة دولة الحقّ والعدل، استناداً إلى قاعدة لاإله إلا الله محمدٌ رسول الله». وأكّد على حريّة الاعتقاد وحريّة إقامة الشعائر الدينيّة، وفي المقابل إلى إدانة تكفير كلّ مَن يشهد أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله. وقد أُجيز الحزب، وشارك في أوّل انتخاباتٍ تشريعيّة، دون أن ينال أيّ مقعد.

ومن الواضح أن جَماع تلك التوجهات، وآخرها تأسيس حزب الوحدة، تدلّ على أنّ التشيّع المُستجدّ بهذا العزم على الساحة التونسيّة، بدأ يسعى إلى إنتاج مؤسسات. وهذه ظاهرةٌ وحيدة في التشيّع الناهض في عموم (أفريقيا). لم تجِدْ مَن يُثنّي عليها بعد الفشل العملاني لحزب الوحدة.

الباب الثالث: الجزائر

(١) قبل البحث

ثمّة فارقٌ نوعي جوهريٌّ بين حِراك التشيّع، أو بالأحرى الحِراك نحو التشيّع، في (المغرب) و(تونس)، وبين مثيله في جارتها (الجزائر). لسنا نجدُ له وصفاً أحرى من القول، إنّه كان هناك (أي في المغرب وتونس) في الغاية من التّوهُّج والعزم ورُكوب المُبادرة، وفي توطين النفس على تحمُّل مخاطرها وتبعاتها مهما تكُن قاسية.

أمّا في هذه (الجزائر) فهو حذِرٌ جدّاً، نراه أكثر ميلاً إلى التّخفّي والعملِ من وراء ستارٍ. الأمر الذي قد نرى أنّه انعكس وبان أثره في الفارق الكبير في حجم النّتاج العملي بين الجمهور كمّاً ونوعاً، الذي يميل بوضوح لصالح (تونس) و(المغرب). على الرغم من الفارق النوعي في شيعة (الجزائر) لصالحها.

ولسنا نظنُّ أن سبب الفارق يكمن في العامل السياسي / القمعي فقط. الذي يأُولُ إلى حجم وقوّة وقسوة التدبيرات المُعاكسة التي لجأت إليها الدولة هنا وهناك. ذلك لأنّ الجميع في الحالتين اعتمدوا القمع بكافة أشكاله لوقف المَدّ الشيعي. وكلّهم لقي عوناً سياسيّاً وماليّاً غير مجذوذ من الجماعات السّلفيّة، وانتفع بجيبها العامر. وإن يكُن تأثيرها في (الجزائر) أقوى وسيفها أمضى. نقول ذلك بناءً على أقوال المسؤول في أوانه بوزارة الشؤون الدينيّة في (الجزائر) المدعو عدة فلاحي[1]. حيث يتحدّث عن الإجراءات الرسميّة ضدّ الشيعة والتشيّع، ودور الجهات السلفيّة فيها. من ذلك أنها نظّمت حملةً تحريضيّةً عارمةً على الشيعة في (الجزائر). تضمنت إصدار فتاوى من الفقهاء المُلتحقين بالسُلطة، تُحرّم شعائرهم الدينيّة. وإطلاق مايُشبه النفير العامّ للمواطنين كافة، يوهم كلّ فردٍ منهم بأنه في موضع المسؤوليّة الشرعيّة عن مراقبة الشيعة حيثما اجتمعوا وحلّوا، وعن حصارهم داخل أماكن وجودهم.

كل ذلك كان يجري في ظلّ العلاقات الطّيبة بين (إيران) وحكومة الرئيس بو تفليقة. وفي ظلّ تماثل الأداء السياسي بين الدولتين في العديد من القضايا، كالحرب على (سوريا) و(اليمن)، والقضيّة الفلسطينيّة، وتأييد تيّار المُمانعة. دون أن تدخل في مواجهاتٍ مباشرةٍ مع الشيعة الجزائريين. تاركةً المُهمّة لحلفائها في التيّار السلفي. أي أن هذه السياسة المُتذاكية ذات الوجهين تُصيبُ عصفورين بحجرٍ واحد. فتحظى بتأييد السلفيين المعنوي وبخيراتهم المبذولة. وتظهر في الوقت نفسه حريصةً على القضايا الوطنيّة الأساسيّة.

(٢) أطوار التشيع في الجزائر

ما من ريبٍ في أنّ الطُرُق الصوفيّة في (المغرب) و(تونس) أقوى حُضوراً وأوسع قاعدةً بكثير من مثيلتها في (الجزائر). وربما يرجع ذلك إلى تأثير الاستعمار الفرنسي، الذي بذل كل ما في وسعة لفرنسة (الجزائر)، مقدّمةً لاستتباعها نهائيّاً، تحت شعار «الجزائر فرنسيّة».

ولقد أشرنا آنفاً غير مرةٍ إلى أنّ الطُرُق الصوفيّة في (أفريقيا) تنطوي على ميلٍ غير مكتوم لأهل البيت عليهم السلام. هذا إن لم نقُلْ أنّها تمويهٌ اختبأ وراءه الشيعة في الماضي، بعد أن قُمعوا ودالت أيامهم قديماً في شمال (أفريقيا)، بما فيه حوض النيل. فلمّا أحسّوا بنهوض الشيعة وارتفاع نجمهم في غير مكان، وفي رأس ذلك طبعاً نجاح

(١) هو شخصيّة بالغاية من الطّرافة والاستقلاليّة. وُصف في مصادر بأنه «مُتشيّع». أمّا هو فقال عن نفسه إنه «مُتشيّعٌ سياسي يميلُ إلى إيران». يعني أنّه يؤيّد الثورة الإسلاميّة والأداء السياسي للجمهوريّة، مع البقاء على مذهبه. كما أنّه طالما أرجف بخطر السلفيّة على الجزائر، وأن الشيعة لاخطر منهم. لكنّه طالب (صديقه) أمير الموسوي، بالرحيل عن الجزائر. لأنّه تجاوز حدود وظيفته، بوصفه مستشاراً ثقافيّاً تابعاً للسفارة الإيرانيّة.

الثورة الإسلاميّة في (إيران)، وتأثيرها المُتمادي بمختلف الدرجات، تحرّك الكامن في الأنفس من ولاءٍ لأهل البيت عليهم السلام، وقاد خُطاهم باتجاهه وبما يُناسبه.

ومن ذلك أنّ الباحث يجِدُ في العادات الشعبيّة المعمول بها في (الجزائر) اليوم آثاراً واضحة لماضيها الشيعي بمعنىً من المعاني.

من ذلك أنّهم يُسمّون الأيام العشرة الأُولى من شهر المُحرّم بـ «العواشر». ومن الواضح أنّ تخصيصها باسمٍ محلّي فيها يدلُّ على خصوصيّةٍ سلوكيّة عميقة وتاريخيّة، وإن هي باتت منسيّة بمرور الازمان المتطاولة.

ويمتنع أكثر الناس، خصوصاً في القرى والدساكر،عن الاحتفال بالزواج وولائم الأعراس طوال الشهرالحرام. كما ينطلق الزّائرون بأعدادٍ كبيرةٍ إلى زيارة ضريح مَن اسمه عندهم «سيّدي الحسني» في مدينة (وهران). وقد لاحظ كاتبُ تقريرٍ عن ضروب النشاط الشيعي في (الجزائر)، موجّهٍ إلى الجهات المركزيّة الوهابيّة، أنّ عديد الزّائرين لمقام الحسني يتضاعف عدّة مرّات في ذكرى عاشوراء. ما يدلّ على أن صاحب الضريح، هو شخصيّةٌ شيعيّةٌ من نسل آل البيت على الأرجح. كان ذا مكانةٍ عاليةٍ في زمانه. لكن ذكره ضاع من التاريخ الرسمي المكتوب، وحفظته التقاليد الشعبيّة.

وتختصّ منطقة (سوف) الجزائريّة بالاحتفال المُميّز بعاشورا منذ أوّل أيام الشهر. ومايزال أبناؤها يحفظون عن ظهر قلب الأناشيد المخصوصة بذلك اليوم، مع مايُصاحبها من سرديّات تروي بعض أحداثه خصوصاً شهادة الإمام عليه السلام. ولهذه السرديات اسمٌ خاصٌّ عندهم سنذكره توّاً.



ذلك أنّ من طرائف احتفال هذه المدينة بيوم عاشورا مايسمونه هناك «شايب عاشورا». وهو رجلٌ بلحيةٍ بيضاء طويلة، يلعب دور الإمام الحسين عليه السلام. يتعارك، وسط حماسة الناس، مع ما يُسمونه «السّبع». وهو رجلٌ يضع على وجهه قناعاً بشكل وجه أسد، يُمثّل خصم «شايب عاشورا». وتدور المعركة الطويلة التي تجري في الليل، لتنتهي دائماً بانتصار «شايب عاشورا» / الحسين عليه السلام على خصمه الشرير، وسط تهليل الجمهور.

وأمثال ذلك كثيرٌ جدّاً في التراث الشعبي الجزائري، لافائدة من استقرائه كلّه. لكنّ واحداً منه ينفذُ بالمتأمّل إلى عُمق الوجدان الشعبي الجزائري، وبالدرجة نفسها إلى عُمق التراث الشيعي، هو ما يسمّونه بـ «اليد والخمسة»، التي تعني بأصابعها الخمسة: محمد وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام. ومن المعلوم أن رمزيّة (الخمسة)، ومرجعها إلى أصحاب الكساء، موجودة بتنويعاتها المختلفة لدى كافة الجماعات الشيعيّة.

ومع ذلك، مع كلّ هذا الغنى المُدهش بالرموز، وما ينطوي عليه من دلالاتٍ عميقة، تتصل بوجدان الجزائريين، وبقابليّتهم لتقبُّل التشيّع بمعناه الكلامي ـ الفقهي، ـمع ذلك فإنّنا نلاحظ أن (الجزائر) لم تُنجب رُوّاداً أبطالاً معارف، تركوا بصماتهم على (نهضة) التشيّع في (الجزائر)، من مثل وحجم وحضور التيجاني ودحدوح والهنشير وبعداش والحمروني والنفيس والورداني والعقالي وهاني في (مصر) و (السودان) و (تونس) و (المغرب).

ولقد وقفنا آنفاً على قولة الأستاذ الهنشير: « إنّ غالبيّة الشيعة الذين أعرفهم في الجزائر من أهل الفكر».



لكن لاهو ولاغيره ذكر أسماءهم أوبعضها. مع أنّنا نعرفُ جيداً أنّ الرجل ليس ممّن يُطلق الكلام على عواهنه. وليس ممّن يُكيّفُ الأشياء على وِفق غرضه. ما يدلّ على أن هؤلاء الذين عرفهم وعرف أنّهم من «أهل الفكر» لم يكونوا معروفين على نطاقٍ واسع في وطنهم، أي بالتالي أنّ نشاطهم الدّعويّ هناك كان ضئيلاً أو مكتوما، على الأرجح بسبب السيطرة القويّة للثقافة المُتفرنسة كما أشرنا أعلاه.

على أنّ هذا التحليل وما أدّى إليه لايدلُّ على أنّ انتشار التشيّع شعبيّاً في (الجزائر) ضئيل. بل هناك ما يدلُّ على أنّه كان يتغلغل بصمت. مَسوقاً بما وصفناه من خلفيّةٍ تاريخيّة، وربما أيضاً، استناداً إلى تحليل أبرز رموز التشيّع في الجزائر الصادق سلايميّة، بالروح التي نفختها فيه الثورةُ على الاحتلال الفرنسي، وتركته مسكوناً بثقافة الثورة، لم يجِد ما يُلبيها إلا في الفكر الشيعي.

ذلك أنّه في السنة ٢٠١٥م، فوجئت الأوساط الرسميّة والسّلفيّة بمئات الناس المحتشدين في مطار العاصمة الجزائريّة، قاصدين (كربلا) لزيارة مقام الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بمناسبة الذكرى السنويّة لأربعينه.

كان الأمرأشبه بمظاهرة غير مسبوقة، أعلنت، قصداً فيما يبدو، الحجمَ الكبير المكتوم للمتشيعين. بحيث كان له وِقْع ومعنى المفاجأة، وبحيث لم يجد الغاضبون أي وسيلةٍ رادعةٍ حيالها. فانتظرت السلطة عودتهم لتُلقي القبض عليهم جميعاً، مع مصادرة كل ماوجدوه معهم، ممّا يحمله زائروا (كربلا) معهم. وعلى الأثر صرّح وزير الشؤون الدينيّة والأوقاف مُعقّباً على واقعة الاعتقال، بأن بلاده «لن تكون ساحةً للصراعات المذهبيّة» كما قال مُتباهياً: «إنّ توقيف مُروّجي التشيّع دليلٌ قاطعٌ على قُدرة السُلطات على مراقبة كلّ الفِرق الدينيّة التي تعمل على اختراق المرجعيّة الدينيّة المُوحَّدَة للجزائريين» وطبعاً كان السّلفيّون في الغاية من الرضى عن الوزير عملاً وقولاً.

لكنّ الذي حصل، على مستوى تفاعُل الحدث السُلطوي ومُسوّغاته المُعلنَة، أن بعض المستقلّين من غير الشيعة رفعوا أصواتهم بإدانة التّصرُّف النزق لأجهزة الدولة الأمنيّة. ورأوا فيه بحقّ اعتداءً صريحاً على الحقوق الدستوريّة للمُواطن. وبذلك باتت قضيّة الشيعة والمُتشيعين في (الجزائر) أعلى من خِيارٍ فرديّ، بل قضيّة وطنيّة يُدافع عنها حتى بعض الذين لايؤمنون بها. وكان صوتُ صاحبنا عدّة فلاحي من أعلى الأصوات المُندّدة بما جرى.

(٣) الشيعة اليوم في الجزائر

يتفقُ المؤيّدون والمعارضون على أن ارتفاع عديد المُتشيعين في (الجزائر) يسير بوتيرةٍ ثابتةٍ. على الرغم من القمع الماديّ والمعنوي من التحالف السلطوي السّلفي. لِما يجده الجزائريون في التشيّع من منهجٍ فكري واضح أصيل. ولِما يلمسوه فيه من روح التسامح. في مُقابل العنف الفكري والعملاني للخطّ الوهّابي، الذي أغرق العالَمَ الإسلامي بالدماء. بعد أن فرض نفسه منذ ما يزيد على العقدين على المؤسّسة الدينيّة في غير بلد مسلم، بالوسيلة الوحيدة التي يملكها.

كما يتفقون على أن انتشاره هناك حصل بفضل توفُّر وسائل الاتصال العالميّة السّهلة شبه المجّانيّة. وبذلك انتزعت القضيّة الدينيّة من الذين وظّفوها لخدمة السُلطة وبما يتناسب مع مصلحتها، وطرَحَها للنقاش الحرّ.

ذلك، بالإضافة إلى انتقال مئات من ذوي الأهليّة من (العراق) و(سوريا) و(لبنان) للعمل في القطاعات التعليميّة الناشئة، منهم كثيرون من الشيعة، بعد حصول الجزائر على الاستقلال، واهتمام قادتها بإحياء التعليم بالعربيّة. لأنّ الفرنسين قد فرضوا لغتهم على عدّة أجيال طوال سنيّ الاحتلال، فيما عُرف بـ (الفرنَسَة). باستثناء مؤسسات التعليم الدينيّة، التي بقيت بمنجى بفضل تحصُّنها بالقرآن، باعتماده المادّةً الأساسيّةً في منهجها التعليمي.

المهمّ أنّه بهذه الوسيلة غير المقصودة حصل أوّلُ اتصالٍ بين النّاشئة ومُدرّسيهم من الشيعة.

ثم كان لنجاح الثورة الإسلاميّة في (إيران) مثل ماكان لها في غير (الجزائر). فألهبت مشاعر أوسع الجماهير. التي اكتشفت القوّة الهائلة الكامنة في الإسلام عندما يتحرّر من توظيف السُلطة إياه. فيتحرّر من الفكروية (الإيديولوجيا)، التي توالت الأنظمة الحاكمة في الماضي والحاضر على تركيب عناصرها، ممّا فيه مصلحتها، ويؤدّي إلى استدامة حكمها.

تلك المؤثّرات الثلاثة التقت في (الجزائر). في الحين الذي كانت خارجةً على التوّ من تجربة ثورتها المُظفّرة على الاحتلال الفرنسي، مُشبَعَةً بالروح وبالثقافة النضاليّة. بعد أن روت أرضها بدماء مليون شهيد. ومن هنا نلاحظ أن تأثير الوهابيين على الجمهور الجزائري كان ضئيلاً. وأنّه كان محصوراً بصيغة تبادل المنافع مع الدولة كما بيّنّا آنفاً، وبالهيئات الدينيّة الرسميّة وشبه الرّسميّة،الخاضعة للسّطوة الماليّة الوهابيّة.

مع ملاحظة أنّ هذه اختلفت اختلافاً بيّناً مع الهيئات الدينيّة غير الرسميّة في تقدير حجم الشيعة. فبينما رأينا وزير الشؤون الدينيّة والأوقاف ينفي أيّ وجود للشيعة في (الجزائر): «لا يوجد تشيّع في الجزائر. لافي غربها ولاشرقها ولاوسطها. مَن يمارس الطقوس الشيعيّة في بلادنا هم لاجئون سوريّون (!)»، رأينا عدة إنذارات بانتشار الشيعة، خصوصاً في مدينة وهران «للعلم معظم المتشيّعين حديثاً بوهران هم من الطبقة المثقفة، وفي مقدمتهم أساتذة الجامعة، وكادرات في قطاعات مختلفة» قالها أحدُ سكّان المدينة مُحذّراً مُنذراً.

مهما يكُن، فإنّ مسار التشيع في (الجزائر) كان، كما قُلنا آنفاً في مطلع الباب: «حذِرٌ، أكثر ميلاً إلى التّخفّي والعملِ من وراء ستار». وقد ألمح إلى ذلك الشيعي الجزائري البارز الصادق سلايميّة حيث قال، جواباً عن سؤالٍ على عدد الشيعة هناك: «مَن يسأل عن عدد الشيعة في الجزائر عليه أوّلاً أن يُعطيهم الحقّ في الوجود والاجتماع ليُدرك كم عددهم». أي أنّ اضطرارهم إلى التّخفّي بعقيدتهم هو الذي يحول دون معرفة عددهم الحقيقي.

وفي الجواب عن سؤالٍ آخر عن أماكن العبادة للشيعة قال: «مذهبنا ليس هندوسيّاً حتى تكون له أماكن عبادة خاصة. فنحن نُصلّي في المساجد، ونحجُّ بيت الله الحرام، ونصوم رمضان. أمّا الحسينيّات ومكان التجمّعات بها، فالحقّ فيها لا يزال ممنوعا».



وفي هذا الكلام إشارةٌ واضحةٌ إلى الحَجْرالرسمي على شيعة (الجزائر)، بمنعهم من إنشاء مؤسّساتهم الدينيّة، تحت شعار ضرورة الموافقة الرسميّة المُسبَقَة على إنشائها، وفقاً لقانون صادق عليه البرلمان الجزائري سنة ٢٠٠٦م ، قضى بمنع «إنشاء أماكن للعبادة دون رخصةٍ من السلطات المُختصّة». في غياب أي مقاييس مُعلنَة لمنح الرخصة أو حجبها، الأمر الذي ترك هذا الشأن خاضعاً إجازةً ومنعاً لاعتباراتٍ كيفيّةٍ. وطبعاً كان الشيعة في طليعة المحظور عليهم.

كلّ ذلك يفسّر الغياب التّامّ للمؤسّسة الدينيّة الشيعيّة في (الجزائر). بالإضافة إلى حظر كافة شعائرهم الخاصة الدينيّة. على الرغم من وجود قاعدة شعبيّة شيعيّة عريضة، يُفتَرَضُ أنّها تملك الحقّ في حريّة العقيدة والعبادة ولوازمهما بنصوص الدستور. في الوقت الذي تنشغل أبواق الجهات الوهابيّة، المدعومة ماليّاً من قِبَل السفارة السعوديّة، بالتحريض علناً على الشيعة المُسالمين. وتعقد الندوات على خطورة الشيعة على المجتمع الجزائري، وضرورة التصدّي لشعائرهم حتى التي يجري إحياؤها في المنازل.

وقد صرّح رئيس ما يُسمّى (المجلس الإسلامي الأعلى) بأنّ من حقّ رجال الأمن الجزائريين اقتحام البيوت السّرّيّة للطائفة الشيعيّة واعتقالهم. ولطالما دوهم منزلٌ لأحد الشيعة لمُجرّد أنّ صاحبه استقبل أصدقاء له من مذهبه لمُناسبةٍ دينيّةٍ أو بدونها. وذلك كلّه يدخل في الخطّة التي صرّح بها وزير الأوقاف والشؤون الدينيّة الجزائري في أوانه، حيث قال: «إن بلادي لا تتسامح مع ظاهرة التشيّع المُتنامية بشكلٍ واضحٍ وسط الشباب بالجزائر». بل بلغ به الأمر أن طلب منع أي كتابٍ من التداول يدعو إلى التشيّع، أو يتحدّث عن علماء الشيعة أو مذهبهم.

ومع كلّ ذلك فإن التشيّع كان وما يزال «ظاهرةً مُتناميةً» في المُجتمع الجزائري بشهادة الوزير نفسه. وبناءً على تقريرٍ لمُنسّق الطريقة القادريّة في (الجزائر) وفي عموم (أفريقيا)، فإنّ عدديهم قبل زهاء ما يزيد قليلاً عن عشر سنوات بلغ ثلاثمائة ألف شيعي. كثيرون منهم من النُخبة العاملة في المؤسّسات التعليميّة بمختلف درجاتها وفي غيرها. وهم في (الجزائر) العاصمة و (وهران) و (قسطنطينة) و (سطيف) و (بلعباس) و (تبارب) و (برج بوعريرج) و (سيدي خالد) و (الشليف) وغيرها من بلدان (الجزائر)، وخصوصاً في قُراه المعمورة بالقبائل الامازيغيّة. ومن المتوقّع والمفهوم أن عددهم قد زاد اليوم واتسع، استناداً إلى ما نشهده من حركتهم المُتصاعدة عدديّاً باتجاه المشاهد التي يقصدها الشيعة في (العراق) و (إيران)، في المناسبات المخصوصة.

ومن الغنيّ عن البيان، أنّ ذلك الانتشار الكثيف الواسع عدديّاً ومكانيّاً، في ظلّ ما وصفناه من قمعٍ وترهيب، لم يحصل بنفسه بالتأكيد. بل هو يُخفي خلفه أبطالاً كثيرين من الدُّعاة المجهولين المتكتّمين، الذين عملوا بصمت وتحت التهديد الدائم، في المدارس والمساجد واللقاءات الاجتماعيّة اليوميّة على تبصرة الناس، المُهيئين سلفاً بتراثٍ عريقٍ من حب أهل البيت عليهم السلام، وبأصداء الثورة الإسلاميّة في (إيران)، وبالمقاومة الإسلامية في (لبنان). بالإضافة إلى عاملٍ آخر، نراه خفيّاً بهذه الصفة، هو القمع التمييزي للشيعة الذي تقفُ وراءه علناً الجهات السّلفيّة، مُتسلّحةً بوفرتها الماليّة وبفكرها التكفيري، باعتباره استفزازاً مكشوفاً لامُسوّغ له أخلاقيّاً وقانونيّاً في حقّ مجموعة أقلُّ مايُقال فيها أنّها مُسالمة. في حين أنّ مَن يحرّضون عليها يرتكبون ويدعمون التوحُّش في طول العالَم الإسلامي وعرضه.

(٤) شخصيّاتٌ شيعيّةٌ بارزةٌ في الجزائر

نختم الباب بذكرهم على قلّتهم نسبيّاً. وذلك ليس إلا قضاءً لحقّهم وتنويهاً بثباتهم. مع التأكيد على أنّ هؤلاء هم رأسُ الجبل البارز. أمّا الجزء الأكبر منه وربما الأبعد أثراً، فهم أولئك الدُّعاة المُتكتّمون، الذين نوّهنا بهم أعلاه.

- **الصادق سلايميّة**. استناداً إلى ما تحدّث به هو عن تجربته، نشأ في بيئةٍ تُشيد بأهل البيت، لا تعرف سُنّةً ولا شيعة. ثم أنّه في ظلّ الحملة الظالمة السّلفيّة على الشيعة بدأ قراءاتٍ واسعة، سرعان ما أبانت له أن المسألة سياسيّة في جوهرها تدور على قضيّة الحريّات. وأن السُّنّة هم فريق السُلطة، والشيعة هم فريق المعارضة. وأن المسلمين ارتكبوا خطأً كبيراً مُتمادياً حين منعوا المعارضة من حقّها المشروع بالمساهمة في قيادة الأُمّة، إلى حدّ تشويه صورتها واضطهادها وأخيراً تكفيرها.

انصرف إلى قراءة كُتُب أبو الأعلى المودودي على قضايا الخلافة والمُلك والإمامة والسياسة، وهو المعروف بحملته الشعواء على كلّ الذين يختلفون مع إسلام السُلطة، التي أكّدت له النتائج التي وصل إليها من قراءاته السابقة. ومع ذلك فإنّه حافظ على علاقةٍ طيّبة مع عددٍ من علماء المذهب المالكي في (الجزائر). منهم الشيخ محفوظ نحناح والشيخ جاب الله. ولكنه كان في الوقت نفسه يُتابع تأملاته.

سنة ١٩٩٢ أعلن تشيّعه. وعلى الفور بدأ، وهو الكاتب المعروف والإعلاميّ المتمرّس، نشاطه في الجهر بمذهبه، خلافاً للذين آثروا الانطواء والحياد، كما بدأ توجيه النقد المُباشر إلى السُلطة الجزائريّة في تعاملها المُشين مع المُتشيعين، مع أنهم لم يبدُ منهم أي أذى أو تهديد. ومع أنّ الجمهور الجزائري المُتنوّرتقبّلهم بأحسن القبول. باستثناء الجماعة الوهّابيّة السّلفيّة، التي «عشّشت في الأحياء الشعبيّة الفقيرة، وغرست أفكارها في عقول المواطنين البسطاء». وكثيراً ما نادى في وسائل الإعلام بأن التشيّع هو قمّة الوطنيّة. وأن الفكر الشيعي هو فكرٌ مُتحضّر.

من إمارات تحرّره وشجاعته الأدبيّة أنّه دعا، في مقالٍ نشرته إحدى اليوميّات الجزائريّة، إلى تقنين / تشريع زواج المتعة، لأنه يُساهم في الخفض من ظاهرة الزّنا المُنتشرة في المجتمع الجزائري. فتُنتج سنويّاً ثمانين ألف طفل غير شرعي، ينتهي أكثرهم في الشوارع.

ثم أنّه عندما ألقت السُلطة الجزائريّة القبض على الزّائرين الجزائريين العائدين من (كربلا) في (العراق) وصادرت مامعهم، رفع صوته مُندّداً بهذا التصرف الطائش، وما ينطوي عليه من عدوان على مواطنين مُسالمين، لم يصدر منهم أي ما من شأنه الإخلال بالأمن. الأمر الذي شجّع الساكتين، وفيهم مُستقلّون أحرار من غير الشيعة، على رفع صوتهم أيضاً بالتنديد. ما جعل من ماجرى على أُولئك الزوّار قضيّةً وطنيّة.





بتاريخ ٢٧و٢٨ نيسان/ ابريل ٢٠١٣م شارك في (المؤتمر الدولي للوحدة والتقريب) الذي عُقد في (بغداد).

ـ **عبد الباقي بن قرنة**. وُلد في (الجزائر) العاصمة سنة ١٩٥٧م، في أُسرةٍ قطنت قبلُ مدينة (المسيلة) شرقي (الجزائر). ودرس في (الجزائر) العاصمة، حيث حصل على ماجستير في التربية.

أعلن اعتناقه التشيّع سنة ١٩٨٧م. وفي السنة التالية انتقل إلى مسقط رأسه مدينة أُسرته (المسيلة)، حيث عمل في التدريس بإحدى مدارسها. كما كان يُلقي دروساً تبليغيّة على المُصلين في مسجد أُسامة بن زيد في المدينة نفسها. إلى أن طُرد من المسجد ومن المدينة، ووُضع تحت المراقبة كي لا يعود. فارتحل إلى (قُمّ) للدراسة في حوزتها.

عمل على تصنيف كُتُبٍ نقدية على سيرة بعض الصحابة، منها:

١. قراءةٌ في سلوك الصحابة.

٢. الوهمي والحقيقي في سيرة عمر بن الخطاب.

٣. المغيرة بن شعبة.

٤. معاوية.

ـ **محمد العامري**. أنشأ ويُدير شبكة (شيعة الجزائر) الألكترونيّة. التي غدت وما تزال الصوت الوحيد للشيعة في (الجزائر).

الباب الرابع: ليبيا

الهجرة العراقيّة الشيعيّة إلى ليبيا

تاريخيّاً ما من وجودٍ للتشيّع في (ليبيا). والذين فيها اليوم هم بضع آلاف من الشيعة العراقيين، الذين اضطروا إلى هجرة وطنهم في الظرف المعروف. والكثيرون منهم من ذوي الكفاءات العلميّة (مدرّسون، أطباء، مهندسون، محامون... الخ.) لجأوا إليها في أزمتهم.

لكنهم، شأن العراقيين حيثما حلّوا، لهم فقهاؤهم وخطباؤهم وروّادهم في الأعمال الاجتماعيّة والثقافيّة. كما أنهم أنشأوا بعض المراكز الدينيّة والاجتماعيّة، نعرف منها، (وكلّها في العاصمة):

١. مسجد الإمام الحسين عليه السلام.

٢. مؤسسة أهل البيت للإعلام والشؤون الثقافيّة.

٣. مجلّة (الزهراء) الشهريّة.

٤. موقع (أهل البيت) الألكتروني.

٥. مكتبة (دار الحكمة). تحتوي على خمسة آلاف مجلّد.

٦. المضافة الفاطميّة.

٧. منارة الإمام الصادق عليه السلام للعلوم الإسلاميّة.

الفصل الثالث

أفريقيا الغربيّة

الباب الأوّل: نيجيريا

(١) جغرافيا وتاريخ

كبرى دول غرب (أفريقيا). مساحتها زهاء تسعمائة ألف كم٢. عدد سكانها مائة وسبعون مليوناً حسب تقديرات السنة ٢٠١٢م. ٥٠٪ على الأقلّ منهم مسلمون حسب التقديرات الغربيّة، التي تقول أيضاً أن عدد المسيحيين فيها ٤٨٪ من مجموع السكان. وما من ريبٍ في أنّ هذا وذاك يميل إلى استكثار المسيحيين على حساب عديد المسلمين.

تضمُّ (نيجيريا) مايزيد على المائتين وخمسين عرقاً، لكلّ عرقٍ منها لغته وعاداته وتقاليده. فهي بهذا الاعتبار حالةٌ فريدة من نوعها في الدنيا. اللغة الرسميّة المفروضة فيها الانكليزيّة. لكنّ اللغة العربيّة تنتشر بين المسلمين منهم في المناطق الشماليّة، لحاجتهم إليها في عباداتهم وشعائرهم الدينيّة. وما من ريبٍ في أنّ انتشار الإسلام فيها عريق. وهو جزءٌ من انتشاره في عموم (أفريقيا)، وخصوصاً غربها، انطلاقاً من شمالها، عبرَ الصِّلات التي تقوم بين المناطق المُتجاورة، استجابةً لحاجات أهلها. أمّا الانتشار الواسع للمسيحيّة الكاثوليكيّة والبروتستانيّة فيها، فيعود إلى النشاط الكبير للحملات التبشيريّة، المدعومة سياسيّاً وماليّاً من الدولة البريطانيّة، ذات النفوذ التّامّ المُطلَق المُستمرّ في (نيجيريا) حتى اليوم.

(٢) التشيع في نيجيريا

إنّا، وإن نكُن لانملك صورةً واضحةً مُفصّلةً لانتشار التشيّع في (نيجيريا) خصوصاً وفي غرب (أفريقيا)

عموماً، بسبب غياب التأريخ للحركات السُكّانيّة في المنطقة، بما فيها الحركات اليوميّة التي تقودها نزعة التبادل التجاري، وما تحمله معها من تثاقُف، لكنّنا على يقين من أنه عريقٌ فيها عراقةَ الإسلام. بل إنّ التشيّع فيها أقدم من المذهب المالكي،الذي بدأيبسط سلطانه بقوّة السلطة على شمالي الصحراء منذ القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد، ومنها بدأ ينتشر غرباً شيئاً فشيئاً.

ثم إنّ الذّاكرة الشعبيّة في المنطقة ما تزال تتغنّى إلى اليوم بأمجاد مملكتي (بنين) و(يوروبا) الشيعيّتيَن، بمعنى الولاء المُطلَق لأهل البيت عليهم السلام، وليس مجرّد التّستُّر وراء هذه الطريقة الصوفيّة أو تلك. ولقد قامت الدولتان في جوار ما هو اليوم (نيجيريا). قبل أن يقضي عليهما النّهبُ الغربي المكشوف لعموم (أفريقيا) بشراً وثروةً.

المُهمُّ أنّه بدون أخذ هذا التاريخ، ومن ثَمّ استمرارَه، بعين الاعتبار، لا يمكن تفسير انتشار التشيّع في (نيجيريا). بحيث أنّه حتى في الحالة السُكونيّة، التي كان عليها قبل أن يبدأ حِراكه في أيّامنا، كان عقيدة الملايين في شمال البلاد. حيث نهضت لهم دولةٌ عاصمتها مدينة (سوكوتّو) شمال (نيجيريا). تلك هي (الدولة العثمانيّة)، نسبةً إلى مُنشئها الشيخ عثمان بن فودي، وأتباعه المخلصين من أبناء قبيلتَي (الهوسا) و (الفُلا)، التي سادت مدة قرنٍ من الزمان (١٨٠٤. ١٩٠٣م)، وامتدّت إلى بعض (الكامرون) و(تشاد) شرقاً و(داهومي) غرباً قبل أن تسقط على أيدي المستعمرين البريطانيين. بعد حربٍ شعواءٍ طالت مدّة سنة وأشهر،دافع أثناءها أبناءُ القبيلتين عن أنفسهم ووطنهم دفاع الأبطال. لكنّ الفارق النوعي بالسلاح والتكتيكات حسم الحرب لصاح المستعمرين.

ومع ذلك فقد بقيت المنطقة وبقيت عاصمتها (سوكوتّو) ذات أغلبيّةٍ شيعيّةٍ مُطلَقةٍ. ليأتي السّلفيّون الوهابيّون في زماننا حاملين فكرهم التكفيريّ البالغ العنف. وليصبّوا عليها جام غضبهم، بافتعال مذبحةٍ سقط فيها المئات دون أي سبب إلا يقظتها الدينيّة الرشيدة. وإلا عجْز الوهّابيين عن مُجاراة الحالة الفكرية الرفيعة والإنسانية للشيعة فيها. فلجأوا إلى أُسلوبهم الأثير باستخدام قوّتهم الماليّة في شراء ذمم بعض السّاسة النيجيريين، ودفعهم دفعاً إلى اضطهاد الشيعة دون أدنى مُسوّغ، إلى حدّ تنظيم المذابح الوحشيّة عليهم.

وسنعود إلى وقائع ماجرى من ذلك بعد قليل.

(٣) يقظة التشيّع في نيجيريا

يتركّز الشيعة، إلى درجة أن يكونوا أكثريّةً مطلقَة، في منطقتين من شمال (نيجيريا). إحداهما التي حاضرتها مدينة (سوكوتّو)، والثانية التي حاضرتها مدينة (زاريا). ومع ذلك فإنّنا لم نشهد لأبناء هاتين المدينتيَن كبيرَ دورٍ في يقظة التشيّع في (نيجيريا) إجمالاً. بل كان الأبطال الذين يعود إليهم فضل نفخ الروح في شيعتها السّاكنين من غيرهما، بل من غير الشيعة في الأساس. أي أنّهم كانوا من الذين استبصروا واعتنقوا التشيّع، ممّن سنُعرّف

بهم بعدُ. ولكنّ المدينتيَن تقبّلت سعيهم بأحسن القبول. ثم أنّها دفعت ثمن موقفها هذا من دماء أبنائها مُحتسبةً، ومن تهجيرهم ومن تدمير مؤسّساتهم.

والحقيقة أن يقظة التشيّع في هذا البلد يعود إلى:

أوّلاً: طائفة الخوجة الإماميّة. وهي تلك الطائفة ذات العديد والحضور في أنحاء (أفريقيا) شرقاً وغرباً، ومن هذه (نيجيريا)، وذات الدّور المشهود حيثما حلّت في العمل الاحيائي التبليغي وفي إنشاء المؤسّسات الدينيّة. جزاءً وفاقاً لحُسن تنظيمها ولتكاتفها وبراعة أبنائها في استثمار ثرواتهم في الأعمال التجاريّة المُربحة. ومن ثَمّ صرْف أخماس أرباحهم جماعيّاً، فيما يعود بالخير العميم على جَمْعهم في الشأنين الشعائري والاجتماعي.

ثم إنّ حضور هذه الطائفة المُتميّز، ورعايتها الذكيّة للشأن الديني، والحرص على إقامة الشعائر بكافة وجوهها، هو بنفسه عاملٌ جاذبٌ يُقدّم للناس أُنموذجاً يُرغَبُ بالانضمام إليه.

ثانياً: المهاجرون اللبنانيّون من أبناء (جبل عامل). حقٌّ أنّ هؤلاء لم يكونوا في مثل تنظيم الخوجة، ولا في مثل انضباطهم وراء أهدافٍ ومرامٍ وقياداتٍ محلَّ قبولٍ من الجميع. لكنّ الصعود الكبير للمقاومة الإسلاميّة في بلدهم، وفي المقابل الموقف العدائي غير المكتوم للمقاومة من الدولة الوهابيّة ومن عملائها المحلّيين، نفخ فيهم روحاً جديدة. خصوصاً بعدما هاجر قسمٌ كبيرٌ منهم من العاصمة السياسيّة (لاغوس) إلى العاصمة الاقتصاديّة (أبوجا) سنة ١٩٩١م. وبذلك باتوا قوةً اقتصاديّةً يُحسب حسابها.

هذان العاملان المباشران في نشر التشيّع في (نيجيريا) عملا في ظلّ عوامل أُخرى غير مباشرة:

الأوّل: انتشار التشيّع في شمال البلاد، حيث كانت أعظم كثافته في مدينتي (سوكوتّو) و (زاريا). حقٌّ أنّه كان في حالةٍ سكونيّة. ربما بسبب المعاناة المُزمنة للدّونيّة، بعد أن اكتسحه المذهب المالكي في عموم (أفريقيا). ولكنّ وجودهم بنفسه يُقدّم رصيداً قابلاً للصّرْف في الوقت المناسب. وسنرى أن ذلك قد حصل بالفعل بمجرّد توفُّر الظروف.

الثاني: الطُرُق الصوفيّة التي عرفنا آنفاً تأثيرها الإيجابي على نهضة التشيّع في (أفريقيا) إجمالاً. وفي رأسها الطريقتان التيجانيّة والقادريّة اللتان حافظتا على الهُويّة التاريخيّة الشيعيّة، وإن تحت ستار التصوُّف. ومن ذلك رعايتها وتقديرها لمدافن (الشُّرفاء) ذات الدّلالة على أُسُراتٍ من المنتسبين إلى أخلاف أهل البيت عليهم السلام كانت قد هاجرت إلى المنطقة، كما حصل في (مصر) و (السودان).

الثالث: أصداء الثورة الإسلاميّة في (إيران). وقد لمسنا غير مرّةٍ تأثيرها التاريخي على مفهوم الإسلام في (أفريقيا) وفي غيرها، لدى قطاعاتٍ واسعة من المسلمين. بأن قدّمت أُنموذجاً باهراً عن الإمكانات العملانيّة المذخورة في تراثهم الديني.

هذه العوامل الخمسة، ماكان منها مباشراً، وما كان غيرمباشر، هي التي كانت قاعدة نهضة التشيّع القادمة

في (نيجيريا). ولكنّها أيضاً هي التي استنفرت الجهات الوهابيّة للعمل بالطريقة الوحيدة التي تُحسنها. أي بما أدّى إلى تنظيم المذابح بحقّ الشيعة فيها، بما لانجِدُ له مثيلاً في كلّ أنحاء (أفريقيا). ما سنقفُ عليه في الآتي.

(٤) رائد حركة الاستبصار في نيجيريا

هو، بقدر ما أعطانا إياه البحث، إدريس بن حام التيجاني. سنُعرّف به تقديراً لموقعه التاريخي في بلده. وإن تكُن المعلومات عن سيرته نزرةً، فلا تمنحنا فكرةً كافيةً عن موقعه في نهضة التشيّع في بلده خصوصاً. ولكنّ سيرته الذّاتيّة تُنبئُ عن أنّه كان من نمط الرجال القلقين. أعني أولئك الذين لايقفون عند ما يتيسّر لهم من الرأي. بل يسعون إلى طمأنينة اليقين بالبحث والتأمّل. فإذا هم وصلوا إليها عملوا على نشْر تجربتهم برسم كلّ مَن يستفيد منها.

وُلد بمدينة (ايكولي) بولاية (كوغي) في نيجيريا، في أُسرةٍ تعتنق المذهب المالكي، فشبّ على مذهبها. حصل على الشهادة الثانويّة. ودرس في مدارس دينيّة. فقرأ علوم القرآن والكُتُب الفقهيّة على مذهب مالك. وبذلك تمكّن من اللغتين العربيّة والانكليزيّة. ويبدو أنّه كان يُعِدُّ نفسه لوظيفةٍ دينيّة، كأن يكون إمام أو خطيب مسجد.

بدأ تأملاته بالمسألة المذهبيّة على أثر كلامٍ سمعه من أحد أصدقائه، خلاصته أنّه قد اطّلع على أدلّةٍ قويّةٍ تقول أن عليّاً عليه السلام هو صاحب الحقّ في خلافة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

كانت تلك أوّلَ مرةٍ يطرق سمعَه كلامٌ من هذا القبيل. الأمر الذي هزّه وأقلق باله ودعاه إلى التّحقّق من الأمر. إلى أن صادف أن أعاره صديقٌ له مُتشيّعٌ كتاب نهج البلاغة، ثم كتاباً آخر بالانكليزيّة بعنوان (الإمامة). ثم كتاب المراجعات للسيّد شرف الدين. الذي ألفتَه بنحوٍ خاصٍّ إلى أهميّة حديث الثقلين المشهور. وبالتأمّل العميق بمدلول الحديث، وبمناقشة كلّ ماوقع تحت يده من ضروب نصّه وتأويله، بالإضافة إلى بعض مواقف قادة الجمهوريّة الإسلاميّة في (إيران)، التي تدلُّ على صدق وخلوص إسلامهم مطلقاً. خلافاً للسّاسة العرب الذين قد يخضعون لإملاآت الأجنبي، دون اكتراثٍ بمصالح أُمتهم وبلادهم. كل ذلك انتهى به إلى اعتناق مذهب أهل البيت عليهم السلام سنة ١٩٨٨م في مسقط رأسه.

وقد عرض إشكاليّة حديث الثقلين بمختلف جوانبها وعمله عليها في بحثٍ مبسوطٍ مُتقَن، ضمّنه في السيرة الذاتيّة التي كتبها لنفسه. يدلُّ على جودة فكره ودقّة نقده للنصوص التي يعالجها.

لسنا نعرف إلى مَ صرف إدريس جهده بعد أن استبصر، وإلى أين انتهى بـه السعي. باستثناء إشارةٍ سريعة ختم بها سيرته إلى أن أهل بيته اتّبعـوا خطوته. وأنه أقنع عدداً من أصدقائه بأن يختاروا لأنفسهم على ضوء الدليل. وفيما خلا ذلك فإنّنا لا نجد له ذكراً في الأحداث الخطيرة التالية، التي دارت على نهوض التشيّع في بلده، ومن ثَمّ قمْعه بأعنف الوسائل. ممّا سنقفُ عليه في الآتي.





(٥) الشيخ الزكزكي ودوره في نهضة التشيّع في نيجيريا

هو إبراهيم بن يعقوب بن تاج الدين بن حسين. لُقّب بـ (الزكزكي) نسبةً لمسقطه في مدينة (زكزك)، وهو اسمٌ آخر لمدينة (زاريا) بشمال (نيجيريا)، التي قلنا آنفاً أنّها أحد مركزي الشيعة الرئيسيَن فيها.

وُلد عام ١٩٥٣م في أُسرة مالكيّة المذهب، مُعرقةٍ في العمل السياسي. فجدّه حسين عالمٌ لُقّب بين قومه بالإمام. أصله من مملكة (مالي). هاجر إلى حيث قبيلتَي (الهوسا) و(الفُلا)، لينضمّ إلى صفوف المجاهدين بقيادة الشيخ عثمان بن فودي، مُنشئ الدولة العثمانيّة التي وقفنا على شأنها قبل قليل. فشغل فيها منصباً عالياً. ثم توالي أبناء الأسرة جيلاً بعد جيل على شغل مواقع سياسيّةٍ واجتماعيّة، إلى ان وصل الدّور إلى الشيخ إبراهيم.

بدأ الدراسة صغيراً بتلاوة القرآن. وفي السادسة عشرة كان قد تلقى دروساً في الفقه والعقائد. سنة ١٩٦٩م التحق بمدرسة إعداد المعلّمين في (زاريا). ثم ارتحل إلى مدينة (كانوا) حيث أقام مدة خمس سنوات يدرس في (مدرسة الدراسات العربيّة) School for Arabic studies. بالإضافة إلى دراسة السياسة والاقتصاد. ليعود إلى (زاريا) سنة ١٩٧٦م حيث انتسب إلى جامعة أحمد بلو، أكبر جامعةٍ في (نيجيريا) في ذلك الأوان، ليتخرّج منها سنة ١٩٧٩م، حاملاً شهادةً في السياسة والاقتصاد.

بعد تخرّجه من الجامعة بدأ اسمه يبرز بوصفه مشروع زعيمٍ سياسي. ولعب دوراً بارزاً في (الحركة الإسلاميّة في نيجيريا) المُتأثّرة بشدّة بـ (الاخوان المسلمون). وفي هذه المرحلة من سيرته وتطوّره الفكري أعلن رفضه أداء الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، بحجة أنّها عبادةٌ لصنمٍ جديدٍ اسمه (الوطن). ومن المعلوم لدى العارف أنّ هذا الطّرح إمارةٌ من إمارات تأثّره البالغ بـ (الاخوان المسلمون)، وخصوصاً بفكر سيّد قطب في المرحلة الأخيرة العنيفة من أدائه الفكري ـ السياسي.

وعلى ما في طرحه ذاك من مواضع للنّقد، من وجهة نظر الوطنيين على الأقلّ، فقد أكسبه شعبيّةً واسعةً، خصوصاً في أوساط الشباب من الطّلاّب المُمتلئين بالحماسة الدينيّة، بوصفها الجامع للأكثريّة المسلمة في ظلّ التنوّع العرقي الكبير للمسلمين. وأيضاً في وجه السيطرة المُطلقة لبريطانيا على بلدهم خصوصاً على ثروته النفطيّة الكبرى.

هكذا بدأ الشاب الزكزكي يسلك طريقه المفتوح على زعامةٍ سياسيّة.

لكنّه بعد سنةٍ من تخرّجه من الجامعة ترك كلّ شيءٍ فجأةً واتخذ طريقه إلى (إيران). ليدخل على الإمام الخميني، وليُعلن اعتناق التشيّع. ثم ليتجه إلى (قُمّ) لينتسب إلى حوزة الدراسات الدينيّة فيها. وما من شكٍّ في أنّ خطوته الجذريّة / الانقلابيّة على نفسه وعلى كلّ ما كان فيه، كانت ثمرةَ تأثُّرٍ عميقٍ بالثورة الإسلاميّة العالقة، على الرغم من المخاطر الهائلة المُحدقة بها في تلك المرحلة الصّعبة من انطلاقتها. الأمر الذي يدلُّ على حسّه السياسيّ المُرهَف، وأيضاً على استعداده النضالي غير المحدود.

قضى في (قُمّ) مدّةً تسكت المصادر عن ذكرها. لكنّنا نعرف أنه كان في بلده (زاريا) بتاريخ ١/ ١/ ١٩٩٢م، أي بعد ١٢ سنة من ارتحاله إلى (إيران). حيث، بوصفه قائد (الحركة الإسلاميّة في نيجيريا)، افتتح (مؤسّسة

الشهداء)، التي يبدو أنّها أوّل سلسلة المؤسسات الدينيّة / الاجتماعيّة التي أنشأها. ممّا يدلُّ على أنّه لم يمكث في (قُمّ) إلا بضع سنوات. وذلك أمرٌ مفهومٌ جدّاً بالنظر إلى المُهمّات الثّقال التي كانت بانتظار عوده إلى بلده.

المُهمُّ أنّه ما أن رجع إلى وطنه،مُتوّج الهام بالعمّة الشيعيّة، حتى بدأ العمل. وشمل نشاطه عدة بلدان إفريقيّة، منها جمهوريّة (النيجر)، جمهوريّة (غانا)، جمهورية (مالي)، جمهورية (جنوب أفريقيا)، جمهوريّة (السودان). فكان يزورها للمشاركة في ندوات أو على سبيل الاستطلاع. كما أنّه أنشأ بضع مؤسسات دينيّة ـ اجتماعيّة، منها:

- **مُجمّع المركز الإسلامي.** في (زاريا)، يضمُّ مسجداً وحسينيّة ومدرسة ومستوصفاً ومؤسسة اجتماعيّة. ليكون المركز الرئيس لكافة الأنشطة الدينيّة والرّعويّة في المنطقة.
- **مؤسسة الشهداء.** تهتم برعاية أبناء الشهداء وكفالة أيتامهم وأراملهم.
- **مؤسسة الزهراء الخيريّة.** أنشاها سنة ٢٠١٠ م، لتكون المؤسّسة ذات الصفّة الخيريّة، فتُقدّم الخدمات الإنسانيّة لمن يحتاجها. من حفر الآبار للحصول على المياه الصالحة للاستعمال المنزلي، وشقّ القنوات، ومساعدة الفقراء والمعوزين وما إلى ذلك.

بفضل حضوره الشخصي الباهر، بالإضافة إلى نشاطاته الواسعة المتنوعة، بدأ التشيّع، الذي لم نكُن نعرفه إلا سُكونيّاً من قبل في (نيجيريا)، يغدو ظاهرةً سياسيّةً ودينيّة بارزة، لها مؤسّساتها، ولها رؤيتها السياسيّة. وطبعاً كان لهذا الطارئ على الصورة السياسيّة القائمة أثره على كلّ الذين أزاحهم عن مواقعهم وأقلق بالهم. وتوالت النُّذُر على ألسنة خطباء بعض المساجد وفي وسائل الاتصال الاجتماعي، بأن الشيخ الزكزاكي إن تُرك فسيكون «خمينيّ نيجيريا» القادم لا محالة. ومن الواضح أن هذا بمثابة نذير بأنّه يحمل مشروعاً انقلابيّاً بالمعنى السياسي وبالمعنى الديني.



هكذا بدأت تتجمّع في الأفق إماراتُ وعناصر عملٍ قمعيٍّ للظّاهرة. التقت عنده مصالح ومرامي:

- **الجماعات الوهّابيّة.** المدعومة بقوّة سياسيّاً وماليّاً من بعض الدول العربيّة النفطيّة. التي امتشقت سلاح التكفير كما شأنها دائماً، وطفقت تُطلق الفتاوى التي تُبيح قتل الشيعي. بل إنّ ممّا قاله أحد مشايخهم المدعو أبو بكر فرفروا في خطبةٍ علنيّةٍ بالمُصلّين: «اعلموا أنّ جزاء مَن قتل شيعيّاً هو الفردوس». وقيل أن رشاوى بمبالغ كبيرة دُفعت لأحد المسؤولين في مدينة (زاريا) للإغضاء عن ما كان يُخطّط له.
- **الجيش النيجيري.** المُختَرَق من إسرائيل، مثل كثيرٍ من المؤسسات النيجيريّة في ذلك الأوان. وهو على كلّ حال خاضعٌ للسيطرة البريطانيّة المُطلقة على مُقدّراتها. ولطالما أعلن هذا الجيش في وسائل الإعلام وصف «حزب الله النيجيري » على حركة الشيخ الزكزكي.
- **النفوذ الإسرائيلي.** ومن المعلوم أنّ الاستكبار الغربي ترك (أفريقيا) إجمالاً ساحة مفتوحة لإسرائيل، عدا مصالح بعض الدول الغربيّة في البترول والمعادن النادرة وفي رأسها اليورانيوم.
- أواخرشهر ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م بدأت العمليّات ضد المراكز والتّجمّعات الشيعيّة في

(نيجيريا)، وذلك في مدينة (سكوتو) شمال البلاد، بالهجوم فجأةً على الأشخاص الشيعة الذين صادف وجودهم في أحد المراكز. دون تمييز بين الرجال والنساء، ودون أي سبب. وأُحرقت البيوت والمحالّ التجاريّة العائدة لأي شيعيّ أبعد نهْب مافيها. كما هُدمت جميع المباني التابعة لُمجمّع (المركز الإسلامي) في وسط المدينة، ويضمُّ مسجداً وحسينيّةً ومدرسةً ومستوصفاً ومؤسسة اجتماعيّة. كلّ ذلك حصل دون أدنى تُحرّك من السلطات المحليّة لردع الفاعلين. بل قيل أنّ الذي أعدّ خطة الهجوم هو أحد المسؤولين في الولاية، بحيث يجري تنفيذها بسرعة قبل أن يتسنّى مراجعة السُلطة العُليا. وعلى كلّ حال،فإن هذه اكتفت باستنكار الجريمة لفظيّاً المَهولَة دون ملاحقة مُرتكبيها.

وفي شهر تموز/ يوليو ٢٠١٤م أقدمت الشرطة على إطلاق النار دون سببٍ أيضاً على مسيرة يوم القدس العالمي. فقُتل أربعةٌ وثلاثون من المشاركين في المسيرة، بينهم ثلاثةٌ من أولاد الشيخ الزكزاكي هم أحمد وحميد وعلي.

يوم الجمعة ٤/ ١٢/ ٢٠١٥ أقدمت جماعةٌ مسلّحة على إطلاق النار على مسجد قرية (غاباري) أثناء صلاة الجمعة فاستشهد أربعة. وجُرح عدد كبير. ثم تكرر ذلك يوم الجمعة التالي. فاستشهد ثمانية.

ثم يوم السبت١٢/ ١٢/ ٢٠١٥م ، الذي سيُعرف في تاريخ (نيجيريا) بـ «مذبحة زاريا» و«يوم السبت الأسود» وقعت الواقعة على الشيعة في المدينة ذات الأكثريّة الشيعيّة، وحيث أهم مراكزهم الدينيّة الاجتماعيّة.

وبتاريخ ١٦تشرين الثاني / نوفمبر٢٠١٦م أطلقت قوات الجيش النيجيري النار على المجتمعين لإحياء مراسم أربعينيّة الحسين عليه السلام في مدينة (كانو)، ماأدى إلى شهادة مائة منهم وجرح عددٍ كبير.

ومن الواضح أن هذه الاعتداءات المتسلسلة، التي امتدت خمس عشرة سنة، تدلُّ على تصميم تامٍّ من جهة سياسيّةٍ قادرةٍ على قمْع النهضة الشيعيّة في (نيجيريا). وأنّ أقساها وأوقعها وأبعدها أثراً مُتمادياً مذبحة (زاريا). لذلك فإننا سنُفصّل الكلام عليها تفصيلا.

بدأ كلّ شيءٍ وفق خطّةٍ مرسومةٍ فيما يبدو. بأن حاصرعددٌ من رجالُ الشرطة المحلّيّةُ حسينيّة المدينة (حسينيّة بقيّة الله)، بينما كان يجري الإعداد داخلها لمراسم ذكرى ولادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأُسبوع الوحدة الإسلاميّة، على جاري العادة في كلّ عام. ثم بدأوا بإطلاق النار عشوائيّاً دون إنذار. فسقط عددٌ من الرجال والنساء والأطفال بين قتيلٍ وجريح. وعندما خرجت النساء بالتكبير والاستنكار أقدموا على سوق عددٍ منهن إلى أحد المراكز الأمنيّة، حيث أُوردن مورد الهلاك. ثم تدخّل الجيش بآليّاته ومدرعاته، ليقصف الحسينيّة وماحولها ويجعلها ركاماً هديما. كما قُطع الطريق على القادمين من البلدان والقرى المجاورة للاشتراك بالاجتماع وقُتلوا حيث هم. وقد قضى في المذبحة ما يزيد على الألف شهيد. بينهم ثلاثةٌ آخرون من أبناء الشيخ وعددٌ من قياديي الحركة. وهُدمت الحسينيّة كما قلنا آنفاً. إلى عددٍ كبيرٍ غير مُحدّد من الجرحى، بينهم الشيخ الزكزاكي الذي نُقل إلى المستشفى تحت الاعتقال. ومزيداً في النّكاية هُدم بيته وسُوّي بالأرض وجُرفت مقابرُ أسلافه.

على الأثر خرج عشرات الأُلوف من الغاضبين، في مختلف المُدُن النيجيريّة: (كانو) و (كادونا) و (باووشي) و (كاتسينا) و (غومبا)، احتجاجاً على المجزرة التي فاقت بهولها كل تصوّر. وسرعان ما امتدّت التظاهرات

لتشمل (النيجر) و(تشاد) و(الكاميرون). كما خرجت التظاهرات المُطالبة بإطلاق سراح الشيخ فوراً في (باكستان) و(كشمير) و(أندونيسيا) و(تركيا). وأعلن الشيخ كمال الدين أبو بكر في (غانا) عن تشكيل شبكة من المحامين من عدّة دول أفريقيّة لرفع القضيّة إلى المحاكم الدوليّة. كما كشفت إحدى الصُحُف النيجيريّة عن أنّ (اللجنة الإسلاميّة لحقوق الإنسان) في (لندن)، قد هيّأت ملفاً لمحاكمة الرئيس النيجيري محمد بخاري ورئيس أركان الجيش النيجيري الجنرال توكور بوراتاي أمام محكمة الجنايات الدوليّة. وقالت منظمة العفو الدوليّة: «يجب على وجه السرعة فتح تحقيق في إطلاق الجيش النيجيري النار على شيعةٍ في زاريا وقتل أفرادها. وتقديم أي شخصٍ تتبيّن مسؤوليته عن أعمال القتل غير القانونيّة إلى العدالة».

في سبيل السّعي لاستيعاب ردود الفعل على الجريمة، أمرت المحكمةُ العليا الفيدراليّة في (أبوجا) بتوفير مكانٍ آمن للشيخ، بدلاً عن الثكنة العسكريّة التي هو مُعتَقَلٌ فيها. كما أصدرت حكماً على الأجهزة بدفع خمسين مليون نايرا (وحدة العُملة النيجيريّة) تعويضاً لأُسرة الشيخ. كما دعَتْ وزارةُ الاستخبارات إلى إطلاق سراحه. لكنّ الجيش والحكومة المركزيّة لم يمتثلا للأمر. وحده الملك السعودي سلمان اتصل هاتفيّاً بالرئيس النيجيري محمد بخاري ليُعلن له دعمه وتأييده فيما ارتكبته قوّاته بأمرٍ منه. ودلالة ذلك غير خفيّة.

وقد بقي الشيخ قيد الاعتقال، دون الافصاح عن وضعه الصحّي وعن مكان اعتقاله، حتى ١٧/ ١/ ٢٠١٨م. حيث بهذا التاريخ دبّرت له القوات الامنيّة الظهورَ في الإعلام. خشية توتّر الوضع الأمني، على أثر تردُّد إشاعاتٍ عن وفاته.



كان من الطبيعي بعد ما نزل بالحركة من قمع، وخسارتها عدداً من قيادييها، على رأسهم طبعاً الشيخ زكزكي،واستفراس خصومها المحليين، أن تعمد إلى استيعاب ظرف عملها الجديد، بالامتناع عن تنظيم التجمعات والمسيرات. ويبدو أنه أُعيد بناء (حسينيّة بقية الله) في (زاريا) بالميسور. حيث تابع بعض أصحاب الشيخ العمل. منهم الشيخ يعقوب يحيى وإبراهيم موسى وربما غيرهم ممّن لا نعرفهم. ولله أمرٌ هو بالغه.

الباب الثاني: السنغال

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية السنغال). مساحتها ١٩٧ألف كم٢. عددسكانها زهاء ١٤ مليوناً، نسبة المسلمين منهم ٩٥٪ تقريباً. أكثرهم من أتباع الطُرُق الصوفيّة: القادريّة، التيجانيّة، المُريديّة، الشّاذليّة. دخل الإسلامُ إليها عن طريق التواصل الحيوي مع شمال (أفريقيا)، كما كلّ غربها. ولأبناء قبيلة (الفُلا) Folany دورهم التاريخي في إدخال الإسلام إليها، كما في كلّ غـربها أيضا.



(٢) الشيعة في السنغال

علاقة (السنغال) بالتشيع عريقة، ترجع إلى العقود الأخيرة من القرن ١٩م. حيث بدأت الهجرة إليه في ذلك الأوان من أبناء (جبل عامل)، سعياً وراء الفُرص التي كانت تُقدّمها، بالقياس إلى انغلاقها في وطنهم تحت الحكم العثماني الوحشي. ومن أُولئك المهاجرين الأوائل غير واحدٍ من أبناء أُسرتنا ومن أرحامها، في قريتي (حنويه) و (قانا) العامليتيَن. فكان منهم مَن أصابوا الثروة من أعمالٍ بسيطةٍ في مهجرهم. ثم تتابع المهاجرون مع تقلُّب الأحوال بوطنهم، وخصوصاً مع الاحتلال اليهودي لـ (فلسطين) سنة ١٩٤٨م، الذي أغلق أمامهم فُرص العمل في (حيفا) و (صفد) وغيرها من بلدان (فلسطين)، فكان منهم مَن التحقوا بالذين سبقوهم إلى الهجرة إلى (السنغال). ثم أتت الحرب الأهليّة اللبنانيّة التي انفجرت سنة ١٩٧٥م، واستمرّ سُعارُها حتى السنة ١٩٩٢م. فكانت حافزاً إضافياً في الاتجاه نفسه.

واليوم يوجد في (السنغال) عشرات الأُلوف من الشيعة العامليين، أو الذين هم من أُصولٍ عامليّةٍ من مختلف الأجيال حتى الجيل الرابع. يُديرون أعمالاً تجاريّةً وصناعيّةً ناجحةً كبيرة. بل إنّ من أوائلهم مَن يشغلون الآن مراتب إداريّة وعسكريّة عالية، بعد أن اندمجوا بكلّيّتهم في وطنهم الجديد.

على أنّنا نلاحظ أن أُولئك المهاجرين العامليين، على كثرتهم وعلى حضورهم القويّ في المواقع التي يشغلونها، فإنّهم لم يولوا الشأن الديني ـ الثقافي الاهتمام الذي يستحقّانه، بوصفهم جماعةً مُقتَلَعَةً من أرضها، فيكون من طبعها أن تعمل على الحفاظ على جذورها حيّةً في المهجر. مثلما رأينا قبلُ المهاجرين العراقيين يفعلون، وهم الذين اقتُلعوا من أرضهم في ظروفٍ مشابهة. فرأيناهم ما أن يستقرّ بهم المقام في مهاجرهم البعيدة، حتى يُبادروا من فورهم إلى إنشاء المساجد والحسينيّات والمراكز... الخ، فيُحيون شعائرهم وكأنّهم ما يزالون في بلدهم.

والحقيقة أنّ أوّل مَن أولى قضيّة المهاجرين اللبنانيين في مختلف المهاجر الأفريقيّة، ومنها طبعاً (السنغال)، الاهتمامَ الذي تستحقّه هو الإمام السيد موسى الصدر كان الله له.

سعى الإمام إلى تحفيز وإعمال الطاقات الشيعيّة حيث هي ولمّ شملها وتوجيهها. وفي هذا السياق أدرك بثاقب نظره الإمكانيّة المُعطّلَة الكامنة في المهاجرين الشيعة في أنحاء (أفريقيا)، وهي المُقدّرة عدديّا بنصف مليون شخص على الأقلّ، أكبر تجمّعٍ لهم في (السنغال). فقام بغير جولةٍ بينهم حيث هم، حاثّاً إياهم على إصلاح ما قد أهملوه، ممّا سيعود عليهم بالخير العميم إن هم استدركوه بالعمل المناسب، وعلى رأسه إنشاء المساجد والحسينيّات. وأولى (السنغال) عنايةً خاصّةً، لِما لمهاجريها ما قد عرفناه من عديدٍ ومكانة. فهيّأ لحضور صديقنا الشيخ عبد المنعم الزين إليها ، فحضر بالفعل سنة ١٩٦٩م ليستقرّ في (دكار) العاصمة، وليلي مهامّ التبليغ والإرشاد فيها حيث ما يزال.

والحقيقةُ أيضاً أن هذه الخطوة كانت تاريخيّةً بأكثر من معنى. انضاف إليها فيما بعد التأثير الباهر للثورة الإسلاميّة في (إيران)، ثم العمل التبليغي والتعليمي للمؤسّسات التي أنشأتها أو دعمتها وأمدّتها الجمهوريّة

الإسلاميّة، ممّا رصدنا مثيله ولمسنا فعله آنفاً في غير بلدٍ أفريقي. وسيكون علينا فيما هو آت أن نتتبّع تطوّر الأحوال بالشيعة في (السنغال)، باتجاهٍ نهضويّ ـ تعليميّ بتأثير هذين العاملَين.

والذي يؤخذُ من مصادر متقاطعة، منها ما عن الشيخ الزين نفسه، أنّ عدد الشيعة في (السنغال) بتاريخ صدور المعلومة قبل زهاء خمس سنوات، ناهز المائة وستين ألفاً، من مختلف المستويات الاجتماعيّة والعلميّة والاقتصاديّة. وأنهم ينتشرون في العاصمة (دكار)، فضلاً عن خمسة مدائن سنغاليّةٍ أُخرى هي (دار الهجرة)، قريةٌ بجوار مدينة (غوناس)، و (كولدا)، (كازماس)، (انجاسان)، (كولاخ).

كما أنّ الذي يؤخذُ من مُجمل الأقوال بشأن عديد الشيعة في (السنغال)، أنّ أُولئك المُتشيعين المائة وستين ألفاً هم جميعاً ممّن استبصروا، بفضل العمل المُنظَّم الذي قاده رجالٌ مُكلّفون أو مدعومون من قِبَل مؤسّسات الجمهوريّة الإسلاميّة المحلّيّة العاملة في أنحاء (أفريقيا). أي أنّه لم يكُن للتشيّع في (السنغال) أيّة جذور تستحقّ التنويه من قبل. اللهم إلا ما هو مخبوءٌ بعضُهُ في الطُرُق الصوفية الشائعة هناك. وقد وقفنا على تلك الطُرُق قبل قليل، وعلى تأثيرها على نهضة التشيّع إجمالاً في (أفريقيا) آنفاً غير مرّة.

لذلك فإنّنا، في سبيل مَنْح القارئ صورةً صادقةً عن نهوض التشيّع في (السنغال)، سنعمدُ لإحصاء المؤسسات التي أنشأها وعمل فيها أُولئك الرُّوّاد، مع ذكر أوسع المعلومات عنها وعن أربابها بالنّظر إلى مُعطيات مصادرنا.



(٣) المؤسسات الشيعيّة في السنغال

١. حوزة الرسول الاكرم ﷺ في (دكار).

وهي مدرسةٌ لإعداد المؤهّلين لوظيفة التعليم والإرشاد. يلي التدريس فيها معلّمون سنغاليّون أُعدّوا في الحوزات العلميّة في (إيران) و (لبنان). وجميع طُلّابها سنغاليّون. توفّر لهم إدارتُها مجّاناً إقامةً كاملةً من حيث الخدمات. ويتخرّجون بعد أربع سنوات. ثم يُمنَح الآهلون منهم مِنَحاً لمتابعة الدراسة في قُمّ. وقد أُرسلت أوّلُ مجموعةٍ منهم إليها سنة ٢٠٠٨م.

٢. كليّة فاطمة الزهراء عليها السلام في (دكار) أيضاً.

وهي مدرسةٌ لكافة المراحل الدراسيّة، من الروضة حتى الثانويّة. وكان عدد طلابها بتاريخ تسجيل المعلومات عنها قبل زهاء عشر سنوات، (أي سنة ٢٠٠٨م)، ستمائة طالب وطالبة. أكثرهم من أبناء الجالية اللبنانيّة الذين باتوا يحملون الجنسيّة المحلّيّة، مع أقلّيةٍ سنغاليّة من أبناء الميسورين. لغة الدّراسة فيها الفرنسيّة، مع عنايةٍ خاصةٍ باللغة العربيّة. وإلى جنبها مسجدٌ كبير، يخدم العاملين والطلاب في المدرسة، ويقصده المجاورون في أوقات أداء الصلوات وفي المناسبات.



٣. **المؤسسة الإسلاميّة الاجتماعية.** في (دكار) بالمنطقة التجارية. وهو عبارةٌ عن بناءٍ كبيرٍ من أربع طبقات. يضمُّ مسجداً كبيراً، إلى قاعةٍ واسعةٍ مُجهّزةٍ للمحاضرات، ومكان مُخصّص للهيئات النسائيّة، ومنزل يُقيم فيه الشيخ الزين. موّلت بناءه الجالية اللبنانيّة. وافتُتح سنة ١٩٨١م.

٤. **مؤسّسة المُزدهر الدوليّة في دكار.**

أنشأها محمد علي الشريف حيدر. وهو مُتموّلٌ شيعيّ سنغالي من أصلٍ موريتاني. يُقيم في قريةٍ سمّاها (دار الهجرة) بجوار مدينة (غوناس)، أتت الإشارة إليها قبل قليل. وهو من أهمّ العاملين السنغاليين على نُصرة التشيّع. وقد نظّم في (دكار) مؤتمراً شيعيّاً دوليّاً بمناسبة المعرض الدولي فيها. شارك فيه علماء شيعة من (أوروبا) و(آسية) و(أفريقيا).

٥. **جامعة المصطفى. وهو فرع من جامعة المصطفى الدوليّة، مركزه في ضاحيةٍ راقيةٍ من ضواحي (دكار).**

يتضمّن عدّة كليّات في مختلف فروع الدراسات الإسلاميّة، بالإضافة إلى قسم اللغة والتاريخ والآداب الفارسيّة. ويُهيّئُ المُتخرّجين منه لمتابعة الدراسات العُليا في الجامعة المركزيّة بإيران.

٦. **رابطة عموم أفريقيا لآل البيت. مقرُّها الرئيس في (دكار) حيث لها مركزٌ مؤقّت.**

رئيسها الموريتاني بكار ولد بكار، زعيم شيعة (موريتانيا). وأمينها العامّ الشيخ شريف أمبالو أبو جعفر. ونائب رئيسها الأثيوبي يوسف الجروتي، المُكلّف بالمنطقة الشرقيّة. والشيخ محمد تاحايبو، من (جنوب أفريقيا)، نائب الرئيس أيضا، ومُكلّفاً بالمنطقة الجنوبيّة. والشيخ عبد الله عادل انتولولو من (الكونغو برازافيل)، نائب للرئيس ومُكلّفاً بالمنطقة الوسطى. وإمام عبدول النّاظر دمبا من (ساحل العاج)، نائب للرئيس ومُكلّفاً بالمنطقة الغربيّة. وجواد شيبو من (النيجر) أمينا مُكلّفاً بالماليّة.

وقد حدّدت الرّابطة أهدافها بـ «نشْر علوم أهل البيت، وعرْض الصورة الحقيقيّة للإسلام المُتسامح، وحماية أقليّات أتباع أهل البيت في جميع أنحاء أفريقيا بتعزيز المكاسب والدفاع عن السّلم الاجتماعي» ومن الواضح أنّ هذاالكلام يُصوّب إلى العمل السّلفي النّاشط في عموم (أفريقيا)، وبالخصوص إلى دأبه على نشر فكره التكفيري، والتحريض على التعامُل مع المُختلف بأقصى العنف.

هذا، وفي مصادر مُتقاطعة، منها ما عن الشيخ عبد المنعم الزين في كتابه مذهب أهل البيت عليهم السلام، أنه منذ السنة ١٩٦٩م، تاريخ دخوله (السنغال)، أُنشئت في الأقاليم السنغاليّة مائةٌ وعشرون وحدة دينيّة وثقافيّة شيعيّة، مابين مركز وحوزة ومدرسة ومسجد. وأنّ المدارس والحوزات ضمّت ما يزيد على تسعة آلاف طالب وطالبة. امتدّ تأثيرهم إلى أهاليهم وأوليائهم، فانتشر التشيّع بينهم الانتشار السريع، بحيث بلغ عديدهم بتاريخ صُدور النّصّ قبل خمس سنوات المائة وستين ألفاً.

الباب الثالث: سيراليون

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً اليوم (جمهوريّة سيراليون). لكنّها كانت حتى السنة ١٩٦١م مُستعمرةً بريطانيّةً.

دولة في الغرب الأفريقي. كان عدد سكانها سنة ٢٠٠٤م ستة ملايين. ما يزيد على ٧٥٪ منهم مسلمون. دخل الإسلامُ إليها كما (السنغال) بفضل قبيلة الفُلا، عندما كانت (سيراليون) جزءاً من دولة (مالي) الإسلاميّة. وتُشابه (السنغال) أيضاً في شيوع الطُرُق الصوفيّة نفسها فيها. وهي غنيّة بالمعادن مثل الذهب والألماس واليورانيوم والحديد.

(٢) الشيعة في سيراليون

علاقة سيراليون بالشيعة عريقةٌ مثلما رأينا قبلُ في جارتها (السنغال). لأنّها مثلها كانت من المهاجر الأثيرة لأبناء (جبل عامل). بدأت هجرتهم إليها في العقدين الأخيرَين من القرن التاسع عشر الميلادي. وبلغ عديدهم فيها في تسعينات القرن الماضي قُرابة خمسةٍ وعشرين ألفاً. منهم الكثيرون من أسرتنا من بلدة أسلافنا (حنويه) العامليّة. بعضهم كانوا من كبار تُجّار الألماس، ومن ذوي السّجلّات التجاريّة الرسميّة للتّعامل به شراءً وبيعاً. فيستخرجونه من مناجمه أو يشترونه ثم يُصدّرونه إلى (لبنان)، حيث يجري إعداده مجوهرات بالصّقل في مشاغل مُختصّة، قبل أن يُعيدوا تصديره إلى (بلجيكا).

لكنّ عديدهم انخفض اليوم إلى نحو ستة آلاف، بسبب الأزمات السياسيّة المُتوالية في مهجرهم، ثم تناهت إلى الحرب الأهليّة التي نشبت فيها سنة ١٩٩١م واستمرّت أربع سنوات، ومن ثَمّ مردودها على أمن الناس وسوق العمل فيها. ما دعا الأكثر من مهاجرينا إلى الانتقال إلى مهجرٍ آخر، أو غالباً العود إلى وطنهم.

على أنّ المؤسسات الدينيّة والثقافيّة الكثيرة، التي كانوا قد أنشأوها أيّامَ عزّهم العددي والعملاني، ما تزال قائمةً عاملةً حتى اليوم. بل تعزّزت ونمت بفضل المزيد من المؤسسات العديدة المُنشأَة أو المدعومَة من الجمهوريّة الإسلاميّة، بما فاق كثيراً مثيلتها في (السنغال).

ومع ذلك فإنّنا لانشهدُ أثراً مناسباً لذلك لعديد الكبير من المؤسسات ولرجالها الكثيرين على حركة الاستبصار في المواطنين، يُشبه أو يُقارب ما رأيناه فيما وقفنا عليه في البلدان الأفريقيّة. بل إنّنا لم نقع على أيّ إحصاءٍ أو تقديرٍ لعدد الشيعة فيها. خلا ما قضاه الشيخ صالح الكرباسي في كتابه المعروف موسوعة المعارف الحسينيّة ، حيث قال إن نسبة الشيعة إلى مجموع السُكان في (سيراليون) هي ٥ ٪، أي أنّهم يعدون فيها ثلاثمائة ألف. لكنّنا رأيناه يتفرّد بهذا التقدير. لذلك فإنّنا نُثبت قوله مع التّحفُّظ عليه. خصوصاً أنّنا لا نعرف أنّ لديه



الجهاز الذي يسمح له بإيراد هذا الإحصاء ومثله. كما أنّنا ضبطناه غير مرةٍ يورد إحصاءات مُبالغ فيها لعدد الشيعة في غير بلد. وخصوصاً أكثر أنّ الاحصاءات التي أوردها في كتابه تكاد تكون عالَميّة حيثما وُجد شيعة. الأمر الذي يقتضي إمكانات بحجم دولةٍ كبيرة. فكأنّه يستند في ما قاله على هذا الشأن الخطير إلى تقديراتٍ شخصيّةٍ، استقاها من مُلابسات الحضور والفعل والنشاطات وما إلى ذلك.

لذلك، وفي ظلّ عوْل المعلومات على عدد الشيعة فيها، سنُحوّل الكلامَ إلى ذكر المؤسسات والمراكز التي سبق إلى أنشائها المهاجرون اللبنانيّون، ثم ثنّت عليهم الجمهوريّةُ الإسلاميّةُ بما هو أكثر وأعود.

(٣) المراكز والمؤسسات الشيعيّة في سيراليون

نذكرها استناداً إلى معلوماتٍ موقوفةٍ عند السنة ٢٠١٥م.

١. **المدرسة اللبنانيّة.** أنشأها المهاجرون العامليّون سنة ١٩٥٦م لاستدراك تعليم أولادهم بما لايختلف كثيراً عن المناهج المعمول بها في بلدهم، مع مُراعاة المناهج المحلّيّة ولغتها. مقرّها في العاصمة (فريتاون). مراحل الدّراسة فيها حتى نهاية الثّانويّة. لغة التدريس فيها العربيّة والانكليزيّة. مستواها رفيع بحيث يقصدها أيضاً أولياء الطلاب السيراليونيون الميسورون بأولادهم.

٢. **المركز الثقافي اللبناني.** في العاصمة أيضاً. يحتوي قاعةً للمناسبات الدينيّة والاجتماعيّة ومكتبة. توالى على إدارة العمل فيها خطباء وعلماء دين لبنانيّون بإحياء مختلف الشعائر، وخصوصاً في شهري المحرم ورمضان. كما قد يُصدر بعض النشرات الإرشاديّة في المناسبات.

٣. **المعهد العالمي للدراسات الإسلاميّة.** في العاصمة أيضا. وهوحوزة دينيّة لإعداد المُبلّغين، أُسست أثناء ثمانينات القرن الماضي، تحتوي على مساكن للطلبة ومسجد وعيادة طبيّة ومكتبة وقاعة للمحاضرات. يُدرّس فيها أساتذةٌ إيرانيّون وسيراليّنيّون سبق إعدادهم في (إيران) و(لبنان) و(سوريا). جميع طلابها من المواطنين. التعليم فيه مجّانيّ مع بعض التّقدمات الماليّة والعينيّة. وشهادتها موضع اعتراف وزارة التربية والتعليم، تُعادل شهادتُها شهادة كليّات التعليم الوطنيّة. وتهتمّ بإرسال الآهلين من خريجيها إلى (قُمّ) لمتابعة التحصيل.

٤. **المركز الثقافي الإيراني.** في (فريتاون) العاصمة. افتُتح سنة١٩٨٧م. ويحتوي على مكتبة كبيرة تضمّ الكُتُب والمراجع الشيعيّة. وهو مقصودٌ بأعدادٍ كبيرةٍ من الطلبة والباحثين والأكاديميين والإعلاميين. كما يضمّ (المدرسة الحسينيّة) لتعليم الناشئة.

٥. **جمعيّة أهل البيت.** أُسست سنة ١٩٩٠م. مقرّها وسط العاصمة. يرأسها العالم الديني الشيعي السيراليوني البارز الشيخ أحمد تجان سيلا. ويعملُ فيها كثيرون من ذوي الثقافة العالية والإعلاميين. وهي من أنجح وأعود المؤسسات الشيعية الاجتماعية في سيراليون.

٦. **معهد الإمام الخميني**. في العاصمة. معهدٌ تعليمي إعدادي وثانوي مديره الشيخ المام كمارا. أُسّس بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم. التدريس فيه باللغة الانكليزيّة. والدراسات الإسلاميّة بالعربيّة.

٧. **معهد الإمام الخميني الدولي**. مقرّه في محافظة (كونو) شرقي (سيراليون). وهو مُخصّصٌ للنساء. حيث يتلقين تدريباً مهنيّاً مُتنوّعاً، يتناسب مع وضعهن الاجتماعي، كالخياطة والطهي والتزيين الداخلي والتدبير المنزلي. والعمل فيه يجري بالتعاون والتنسيق مع عدّة جمعيّاتٍ أهليّة نسائيّةٍ محلّيّة.

٨. **المركز الإسلامي**. مقره في مدينة (كنما) شرق (سيراليون). وأذكر بالمناسبة أنّني عرفتُ هذه المدينة جيّداً أثناء إحدى زياراتي لـ (سيراليون). لأنّ أحد أكبر أحيائها مسكون من أجيال المهاجرين من أُسرتنا أو من بلد أسلافنا (حنويه)، ويحملُ اسمها.

يحتوي المركز على مسجدٍ رحيب، وعلى قاعة للمناسبات الدينيّة والاجتماعيّة، ومعهدٍ يُدرّس الطلبة حسب المنهج المحلّي، بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم.

٩. **المركز الإسلامي**. مقرّه في مدينة (كونو) بمحافظة (بو) جنوب البلاد. ويضمّ مسجداً ومدرسة.

١٠. **مركز الإمام الحسين** عليه السلام. مقرّه في مدينة (بو). ويهتمّ بالتدريب على برامج الحاسب مجاناً، من الساعة الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساءً، من يوم الاثنين حتى الجمعة. بحيث يستفيد يوميّاً ثلاث مجموعات من الطلاب.



١١. **مسجد الإمام الحسين** عليه السلام. في العاصمة (فريتاون).

١٢. **المسجد المركزي**. في العاصمة. وهو أكبر مساجدها، إمامه الشيخ تجان سيلا، وقد ذكرنا قبل قليل ما للشيخ حفظه الله من مكانةٍ عالية وتقديرٍ عامّ. يقصد المسجد لصلاة يوم الجمعة سياسيّون كبار وحكوميّون وإعلاميّون من الشيعة وغيرهم دون تمييز. ولطالما ذكر السلفيّون هذا المسجد في أُكتوباتهم، بالحسرة على أولئك الذين يقصدونه من أهل السُّنّة للصلاة خلف إمامٍ (رافضي).

١٣. **مركز التدريب المهني**. شرق العاصمة. وهو خاصٌّ بتدريب البنات على مهنة الخياطة.

١٤. **مركز التدريب المهني للبنات**. وسط العاصمة. ويُعنى بتدريبهن على برامج الحاسب.

١٥. **مركز السيّدة زينب** عليها السلام للتقنيّة. في (أبو) بمحافظة (كنما). وكان بتاريخ هذه المعلومات قيد البناء.

١٦. **مسجد ومدرسة الزينبية Zainabia School mosq** في (فريتاون). مديرها وإمام مسجدها الشيخ عبد الرحيم باري.

١٧. **مؤسسة أهل البيت**. في مدينة (بو) جنوب (سيراليون). مديرها الشيخ خليفة عبد الله كوياته. تضمُّ مسجداً وحسينيّةً ومدرسة. تعمل في التوجيه والإرشاد. ولها وقتٌ مُحدّدٌ في الإذاعة المحلّيّة.

١٨. **مجمع أهل البيت**. في (كنما). مديره الشيخ موسى تراوري. يولي اهتمامه للتبليغ وإقامة الشعائر وإحياء المناسبات.ويضمّ مكتبةً عامّة.

١٩. **الجمعيّة الجعفريّة.** في (فريتاون). مديرها الشيخ تيجان سيلا. تهتمُّ بدعم الحركة الشيعيّة في عموم (سيراليون) عن طريق النشر والدعوة.

هذا فضلاً عن أنّ الجمعية تُدير إذاعة Free Radio القرآنيّة، التي تبثُّ من الاستوديو الخاص بها، ومقرّه وسط العاصمة. إلى مساجد متعدّدة في أنحاء العاصمة (فري تاون) Freetown. يؤمُّ المصلّين فيها أئمةٌ من علماء الدين الشيعة السيراليونيين المُتخرّج أكثرهم في (قُمّ).

(٤) أسماء بارزين من الدعاة الشيعة في سيراليون

١. **الشيخ أحمد تجان سيلا.** الإمام الرّاتب في المسجد المركزي بـ (فريتاون) العاصمة. درس في حوزة (قُمّ) إلى أن بلغ مرتبةً جيّدة. ثم رجع إلى وطنه حيث غدا أبرز علماء الدين الشيعة فيه. يُقدّم برامج في التفسير من إذاعة Free Radio المذكورة أعلاه ويرئس (جمعية أهل البيت). يعملُ تحت إشرافه مجموعةٌ من الإعلاميين الذي يكتبون المقالات لتُنشر في مختلف الصُحُف المحلّيّة.

٢. **الشيخ تشرنو محمد ووري باري.** درس في (قُمّ). وبعودته غدا إمام أحد المساجد في العاصمة. له حلقاتٌ في الفقه والتفسير والحديث تُبثُّ من عدّة إذاعات.

٣. **الشيخ محمد سعيد مالابو.** درس في إحدى الحوزات في (لبنان). داعية وإمام مسجد في مدينة (بو). وزوجته أمُّ زينب درست في الحوزة نفسها، وتعمل في النطاق النّسوي.

٤. **الشيخ أحمد علي قانع.** لبناني. رئيس تحريرمجلّة (الشجرة الطيّبة) التي تصدر في (فريتاون). يعاونه في أُمورها الفنيّة قريبه محمد صالح قانع.

٥. **عبد الرشيد جالو.** تخرّج في كلية الإعلام بجامعة سيراليون. إعلاميٌّ في مؤسسةٍ تابعة لـ (جمعيّة أهل البيت) المذكورة أعلاه. وينشرُ كتاباتٍ دينيّةٍ في بعض الصُحُف.

٦. **الشيخ عبد الرحيم باري.** درس في حوزة (دمشق). داعيةٌ معروف ومُدرّس وإمام مسجد ومدرسة الزينبيّة. وله دروسٌ دينيّةٌ في الإذاعة.

٧. **الشيخ محمد ألفا.** درس في (المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة) في (فريتاون). داعيةٌ وإمام مسجد.

٨. **الشيخ إسحاق كماري.** درس في المعهد نفسه. إمام مسجد ومدرّس اللغة الانكليزيّة في المعاهد.

٩. **الشيخ علي باو.** تخرّج في كليّة الإعلام بجامعة سيراليون. صحفي وله برنامجٌ في إذاعة Free Radio.

١٠. **الشيخ محمد تراولي.** درس في (المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة) في (فريتاون). داعيةٌ وإمام مسجد. ويُقدّم برامج إرشادية في الإذاعة نفسها.

١١. **سمويل بوكاري.** تخرّج في كليّة الإعلام بجامعة سيراليون. صحافي وداعية ومُعدّ برامج إذاعيّة.

١٢. **تجان جالو**. تخرّج كسابقه. صحافي ومهندس ومُذيع في إذاعة Free Radio.

١٣. **فاطمة بنتا**. تخرّجت كسابقها. داعيةٌ وصحافيّةٌ ومُقدّمة برامج في الإذاعة نفسها.

١٤. **الشيخ المام كمارا**. درس في حوزةٍ في (لبنان). مدير (معهد الإمام الخميني) في (فريتاون).

١٥. **الحاج شيخ إبراهيم باه**. درس في (قُمّ). مدير (المعهد العالمي للدراسات الإسلاميّة) في (فريتاون).

١٦. **السيّدة سُميّة بسما**. لبنانيّة من بلد أسلافنا (حنويه). وُلدت وتُقيم في (سيراليون). أثرت من العمل في التجارة. تدعم بمالها المشروعات الشيعيّة فيها. وتُقدّم المنح لطلاّب الجامعات الشيعة. ولها علاقات واسعة في الدولة. وصديقةٌ شخصيّةٌ لزوجة رئيس الجمهوريّة.

١٧. **محمد ووشا كنتي**. تخرّج في كليّة العلوم الإداريّة والتجاريّة في (فريتاون). مهندس وصحافي. كان يعمل في (إذاعة صوت الإسلام) الوهابيّة، ثم أقيل منها بعد أن ظهرت منه إماراتُ الاستبصار. وخصوصاً نقده اللاذع ومواقفه ضدّ الوهابيين. يعمل في الإذاعة الوطنيّة. ويكتب في الصحف بما يُؤيّدُ مذهبه. وينشر في وسائل الاتصال الاجتماعي.

١٨. **الشيخ محمد رمضان**. درس في (قُمّ). نائب الشيخ أحمد تجان سيلا إمام المسجد المركزي في (فريتاون).

١٩. **الشيخ أحمد طالب**. درس في (المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة) في (فريتاون). مُحاضرٌ في المعهد نفسه وإمام مسجد.

٢٠. **الشيخ إبراهيم كوياتيه**. درس في إحدى الحوزات في (لبنان). داعيّة وإمام مسجد.

٢١. **الشيخ محمد أمين جونا**. درس في حوزة (دمشق). داعيةٌ وإمام مسجد.

٢٢. **الشيخ خليفة كوياتيه**. درس في حوزةٍ بـ-في (لبنان). مدير (معهد الإمام الحسين عليه السلام) في مدينة (بو).

٢٣. **الشيخ إبراهيم باه**. درس في (المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة) في العاصمة (فريتاون). يوصفُ في بعض الأُكتوبات الوهابيّة بأنّه « داعيةٌ خطير وإمام مسجد ومديرُ البرامج في إذاعتهم»، يعني إذاعة Free Radio.

٢٤. **الشيخ هارون باري**. درس في (المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة) في (فريتاون). داعيةٌ وإمام مسجد. يُقدّم برامج في الإذاعة نفسها.

٢٥. **الشيخ محمد صالح**. درس في (قُمّ). وُصف من الوهابيين أيضاً بـ «داعية خطير». يُقدّم برامج العقيدة في إذاعة Free Radio.



الباب الرابع: موريتانيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً اليوم (الجمهورية الإسلاميّة الموريتانيّة). عُرفت في الأدبيّات الجغرافيّة الإسلاميّة القديمة بـ (بلاد شنقيط). تحتلُّ موقعاً جغرافيّاً بالغ الأهميّة، بوصفها همزة الوصل بين الشمال والغرب الأفريقيّيَن. مساحتها زُهاء مليون وثلاثمائة ألف كم٢. وقد تُعرف بـ (أرض العلماء) وبـ (بلد المليون شاعر). وذلك يومئُ إلى عزٍّ تليد.

من موقعها هذا سيطرت في الماضي على معظم الطُّرُق التجاريّة العاملة بين المنطقتيَن (شمال وغرب أفريقيا). ومن على هذه القاعدة، بالإضافة إلى العصبيّة الصنهاجيّة (نسبةً إلى قبيلة صنهاجة) ظهرت فيها في القرن ٥هـ/ ١١م دولةُ المُرابطين.

التي بقي من آثارها حتى اليوم أنّها فرضت المذهب المالكي بالقوّة على منطقة حكمها المُمتدّة من المحيط الأطلسي غرباً إلى حوض نهر السنغال جنوباً. كما سيطرت لفترةٍ على شبه جزيرة (إيبيريا)، المُسمّاة عندنا بـ (الأندلس). ومنها امتدّ المذهبُ على عموم (أفريقيا) حيث ما يزال.

(٢) التشيّع في موريتانيا

من شبه المقطوع به بين المؤرخين أنّ (موريتانيا) كانت في الماضي مركزاً للتشيّع في (أفريقيا). وأنّ لدُعاةٍ من الشيعة يعود الفضلُ في وصول الإسلام إليها وانتشاره بين السُكان. لأنّهم وجدوا فيها الأرض المُناسبة للعمل، لبُعدها عن أيدي الأنظمة التي حاربته واضطهدت أتباعَه. فاتخذوا منها ملاذاً ووطناً. قبل أن يأتي المرابطون بسياستهم التطهيريّة حيال كلِّ المُخالفين لهم في المذهب. ومُذ ذاك بدأ التشيّع، كما غيره من المذاهب، ينجلي عنها.

بل إنّ من المؤرخين الموريتانيين المعاصرين، من مثل الأستاذ بجامعة العاصمة (نواكشوط)، الدكتور حماه الله ولد سالم، وهو المؤرّخ العارف الخبير بتاريخ منطقته، ومصنّف كُتُب عديدة في تاريخها، مَن يذهبُ إلى استمرار تأثُّر الموريتانيين بالمذهب الشيعي حتى بعد المُرابطين وسياستهم القَمعيّة التطهيريّة، التي أصابت التشيّع في رقعة حكمهم بالصميم. وذلك أمرٌ مفهومٌ جدّاً للمؤرخ الإنساني، الذي يُحسن قراءةَ التاريخ، انطلاقاً من فهمه طبائعَ البشر وقوانينَ الاجتماع. ومن ذلك أنّه مع التغيير الوُجداني الثقافي الذي قد يحصل للبشر، لسببٍ أم لغيره، فإنه لا شيء ينمحي بكُلّه. بل لا بُدّ من أن تبقى من الماضي باقية، يقرأها المؤرخ الحصيف حيث هي كامنة في العادات والتقاليد والمُيول.

يسوق د. حماه الله أمثلةً على ما بقي في الوجدان الموريتاني من آثار تشيّعه الماضي منها:

- **انتشار حبّ أهل البيت بينهم.** والإمام علي وبنوه عليهم السلام هم عندهم القدوة دون سائر الصحابة.
- يتداولون لوناً أدبيّا غنائيّاً يسمونه «المدح»، يدور على تمجيد أهل البيت عليهم السلام وترديد فضائلهم. وهو منتشرٌ بكثرةٍ ويفعلونه في سهراتهم ليليّاً في مختلف المُدُن والقرى والأرياف. إلى غير ذلك من صنوف الأعمال والميول. ومنها ما هو ذو علقةٍ صريحةٍ بيوم كربلا وشهادة الإمام الحسين عليه السلام.

السؤال: من أين أتت هذه المؤثّرات على أهل موريتانيا القصيّة؟

الجواب: إنّ سُكّانها اليوم ليسوا كلّهم من عُمّارها الأصليين الأمازيغ قبل الإسلام، المعروفين عند العرب بالبربر. والذين حملوا الإسلام إليها هم أبناء قبائل عربيّة. ومع الزمن اختلط العرقان، وتشكّل عرقٌ هجينٌ من الاثنين، هم اليوم عمود سكّانها.

إذن فالذين حملوا الإسلام إلى (موريتانيا) هم أنفسهم الذين حملوا إليها المؤثّرات الشيعيّة. ومَن هم إلا بنو حسّان فرعٌ من قبائل بني معقل العرب، ما يزالون يُعرفون باسم «الحسّانيين»، جاءوا من صعيد (مصر). ومن المعلوم أن هذه المنطقة كانت دائماً وما تزال قريبة جدّاً من التشيّع، كما بيّنّا أعلاه في الباب المُخصّص لـ (مصر). وإلا أيضاً المعروفين عندهم بـ «الزّينبيّين»، نسبةً إلى «علي الزينبي»، وهو من نسْل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من العقيلة زينب بنت علي عليهما السلام. خرجوا من (الحجاز) في الظرف القاسي على الهاشميين بعد يوم (كربلا)، وانتهى أمرهم في (موريتانيا) القصيّة البعيدة عن يد السُلطة الأُمويّة. ومثل هذا التّشتُّت إلى البقاع البعيدة غير نادرٍ في تاريخ انتشار التشيّع. وقد رأينا آنفاً أُنموذجاً واحداً على الأقلّ في شيعة (عُمان).

اليوم يُقدّر عدد الشيعة الصّريحين في (موريتانيا) بخمسين ألفاً. وهو تقديرٌ نراه غير مُنصف. خصوصاً وأنّنا رأينا زعيمهم في (موريتانيا) بكار ولد بكار يقول أنهم يأتون بالدرجة الثانية عديداً بعد (نيجيريا). يتركزون في العاصمة (نواكشوط) وفي مدينة (نواذيبو)، إلى تفاريق في بعض البلدان الداخليّة. بيدَ أنهم يفتقرون إلى الأُطُر التنظيميّة والمؤسّسات. كما كانوا إلى وقتٍ قريب يُعانون من غياب القيادات الآهلة لنظْم أمرهم ورفْع صوتهم فيما يهمّهم عند الاقتضاء.

استناداً إلى معلوماتٍ ترجع إلى العقد الأوّل من هذا القرن الميلادي، فإنّ أبرز زعماء الشيعة في (موريتانيا) هو الشيخ بكار ولد بكار. وقد نوّهنا بذكره آنفاً في الباب المُخصّص لـ (السنغال). حيث وقفنا على (رابطة عموم أفريقيا لأهل البيت) وانتخاب مؤسسيها إياه رئيساً لها.

ومن أسف فإنّنا بعد البحث لم نظفر بمعلوماتٍ وافية على سيرة هذا الرّائد. لكنّنا نعرف إجمالاً أنه وُلد في أُسرةٍ مالكيّة المذهب. وأنه أعلن اعتناق التشيّع سنة ٢٠٠٦ م. وأنّه فيما بعد أسّس (جمعيّة بكار للثقافة والعلوم) في منطقة (عرفات) بالعاصمة (نواكشوط). وهي أوّل مؤسسةٍ شيعيّةٍ من نوعها في (موريتانيا). كما أنه أوّلُ مَن أعلن بإحياء الشعائر الشيعيّة في أكثر من بلدٍ موريتانيّ. بحيث أنّ الشيعة الموريتانيين، الذين كانوا من قبلُ يُسافرون إلى (السنغال) للمُشاركة في إحياء شعائر شهر المُحرّم، طفقوا يُنظّمونها في بلدهم وأحيائهم.



وأنّه في أُوليات هذا العقد الميلادي الثاني، كانت المساعي مُتجهةً إلى إنشاء حسينيّة في منطقة (عرفات) ذات الكثافة الشيعيّة في (نواكشوط)، وما ندري إلى أين انتهت المساعي.

وفيما خلا ذلك فإنّنا لانعرف ما يُذكر على سيرة الشيخ قبل ذلك التاريخ، ولا خلفيّة استبصاره، ولا إلى أين انتهت مساعيه. وذلك، فيما يبدو لنا، بسبب الآثار النفسيّة المُحبطَة التي ترتّبت على مذبحة (نيجيريا) الرهيبة، التي كان من آثارها أنّها كبحت العمل الشيعي الدّائر بعموم (أفريقيا)، ومنها طبعاً جارتها (موريتانيا)، وتركته جريحاً مَهيض الجناح. ومنحت التيّار الوهّابي حقنةً مُنشِّطةً، صوّرته أمام نفسه وأتباعه قوّةً جبّارةً، ما من أحدٍ مُخالفٍ ينجو من بطشها، مهما تكن قوة وسعة قاعدته الجماهيريّة. ولقد شكا الشيخ بكار في مقابلةٍ له مع صحيفة (المُشاهد) الموريتانيّة من تأثيرهم القويّ حتى على رئيس الجمهوريّة. إلى درجة ضرْب العزل عليه من قِبَل قائد الجيش، ومنعه من القيام بأي نشاط، حتى في نطاق جمعيّته، المُجازَة بحسب القانون المعمول به.

(٣) شخصيّاتٌ شيعيّةٌ بارزة في موريتانيا

(طبعاً بالإضافة إلى الشيخ بكار)

١. **الشيخ أحمدو ولد بلا.** كان شيخاً لطريقةٍ صوفيّةٍ قبل أن يتحوّل إلى التشيّع. ينتمي إلى أُسرةٍ علميّةٍ مرموقة. اشتهر بمقدرته الفذّة وبشجاعته في مُناظرة الوهابيين دون تهيُّب، على ما يتمتّعون به من سطوة، وما عُرفوا به من بطشٍ وقسوة.

٢. **الشيخ محمد ولد الشيخ ولد الشريف.** يعمل في التجارة، بالإضافة إلى ما له من مكانة. وفي هذا السبيل ينتقل بين (مالي) و(غامبيا) و(بوركينافاسو). يعمل دائباً بجاهه وماله في مُساندة الشيعة. وهو من أكثر المرجعيّات الشيعيّة أهميّةً في بلده.

٣. **الأستاذ إشبيه ولد الشيخ ما العينيَن.** يرئس حزب الجبهة الشعبيّة. وهو من أُسرة (ما العينيَن)، ذات الحضور والنفوذ البالغ في (موريتانيا) و(المغرب) و(السنغال). شغل لمدةٍ منصب وزير الاقتصاد. وترشّح لمنصب الرئيس سنة ١٩٩٧م. يتجاهر بحبّ أهل البيت والدفاع عن مواليهم، دون أن يُعلن تشيّعه، مُراعاةً لوضعه السياسي ومصالحه التجاريّة فيما يبدو.

٤. **سيد احمد ولد التباخ.** صحفي ناشط. شُنّت عليه حربٌ شعواء من الوهابيين. ومن ذلك نشْر بيانات متناقضة مكذوبة عليه في الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي.

٥. **محمد ولد حبيب.** عالمٌ جليل. كان من أتباع المذهب المالكي. ولمّا أعلن تشيعه شُوهّت سمعته بكل وسيلة من الوهابيين. توفي بتاريخ ٢٢ نيسان / مايو ٢٠١٧م.

٦. **لمهابه ولد بلال.** مهندس زراعي. وُلد وتربّى في قريةٍ نائيةٍ، ثم تخرّج من الجامعة مهندساً زراعيّاً. نُصب عمدة لـمدينة (نواذيبو) ذكرناها آنفاً.

الباب الخامس: غينيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهوريّة غينيا). من دُول غرب (أفريقيا). رزحت لمدة طويلة تحت الاستعمار الفرنسي، حيث عُرفت باسم (غينيا الفرنسيّة). عاصمتها (كوناكري). عدد سكانها ثلاثة عشر مليوناً تقريباً، ٩٥٪ منهم مسلمون. والإسلام عريقٌ جداً فيها. وتنشط فيها الطُرُق الصوفيّة، وأكثرها أتباعاً الطريقة التيجانيّة.

البُنية الإثنيّة في غينيا شديدة التنوّع. مكوّنة من ٢٧ عرقاً. أمّا بنيتها الاقتصاديّة فهي فقيرةٌ جدّاً. مع أنها تتمتّع بثرواتٍ باطنيّةٍ هائلة. أهمّها الألماس والمعادن المتنوّعة وبعضها ثمين كالذهب واليورانيوم. وهي الدولة الأُولى بتصدير خام البوكسيت لصناعة الألمينيوم. لكنّ تخلّفها والاضطرابات العديدة والنزاعات المحلّيّة جعلها عاجزةً عن استثمار ثرواتها.

إلى جنب (جمهورية غينيا) دولةٌ صغيرةٌ بالاسم نفسه، تُسمّى (غينيا بيساو)، كانت لُمدّةٍ طويلةٍ أيضاً مستعمرةً برتغاليّة. لكنّها خضعت أثناء فترة الاستعمار لعملٍ تنصيريّ طويل، بحيث بات أكثر سكانها اليوم نصارى. في حين أنّ البقيّة الإسلاميّة مقهورة لاشأن لها اجتماعيّاً وسياسيّاً. ويبدو أن لا أثر فيها للشيعة يستحقّ الذكر.

إذن، فالأُولى هي المقصودة بالبحث.



(٢) الشيعة في غينيا

على معرفتنا بأن هذا البلد كان من المهاجر الأفريقيّة المقصودة لأبناء (جبل عامل)، وأنّه كان منهم هناك جالية كبيرة قويّة اقتصاديّاً، خصوصاً في العاصمة (كوناكري)، فإنّنا لا نجدُ لها أدنى أثر على صعيد تأسيس المؤسسات الدينيّة أو الاجتماعيّة، أو وجوداً لأحد علمائهم الدينيين، قبل الدخول القويّ والفعّال للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة ميادينَ العمل التبليغي فيه. ومثل هذا الانصراف لاحظناه سابقاً في موطنٍ أفريقيّ آخر هو (السنغال). وما ذلك، فيما نحسب، إلا لأنّ أولئك المهاجرين كانوايصرفون كلّ اهتمامهم إلى الأعمال التي يُديرونها، وما تُدرّه عليهم من مالٍ وفير.

هكذا كانت (غينيا) قبل ثمانينات القرن الماضي ميداناً حُرّاً للوهابيين، يسرحون فيه كما يشاؤون دون مُضادٍّ أو مُنافس. حيث كانوا يوجّهون جلّ أعمالهم إلى مُناكفة أرباب الطُرُق الصوفيّة، بطريقتهم الفجّة المُستعلية المعروفة، طبعاً دون أن يُصيبوا نُجحاً يُذكَر، بالقياس إلى النفقات الكبيرة التي كانوا يتكبّدونها في هذا السبيل.



إلى أن جاءت الأجهزة الإيرانيّة بما تملكه من خبرات، وما تتحلّى به من حنكةٍ وخبرة، فضلاً عن أُطروحتها المقبولة وأعمالها النافعة.

والحقيقةُ أنّ العلاقات بين (غينيا) و (إيران) كانت طيّبةً قبل الثورة.

فمنذ خمسينات القرن الماضي عقدت الدولتان اتفاقيّات لشراء الأخيرة بعض المعادن، خصوصاً خام البوكسيت لصناعة الألومينيوم، غير الموجود في الأرض الإيرانيّة بكمياتٍ كافية. وبعد الثورة وقيام الجمهوريّة تابعت (إيران) مساعيها في النطاق نفسه في عهدي الرئيسين رفسنجاني وخاتمي. بل وانضاف إليها في عهد الرئيس نجاد الاهتمام باستيراد اليورانيوم لمصلحة المشروع النووي الإيراني. وفي عهد الرئيس رفسنجاني سنة ١٩٨٩م قصد وفدٌ إيرانيٌّ العاصمة (كوناكري) برئاسة أحد كبار العلماء الدينيين، حيث التقى بالرئيس الغيني يومذاك، بالإضافة إلى بعض المسؤولين. ردّت عليها غينيا بزيارة وزير خارجيتها. ثم المسؤول عن الرابطة الإسلاميّة الغينيّة، للمشاركة في مراسم أربعين وفاة الإمام الخميني. وتتابعت الزيارات المُتبادلة بين البلدين. منها زيارة وفدٍ إيرانيّ برئاسة وزير خارجيتها يومذاك الدكتور ولايتي سنة ١٩٩٤م.

في السنة ١٩٩٢م عقد الطرفان اتفاقاً أعطى إيران حقّ استخراج خام البوكسيت. وهو أوّلُ مشروعٍ إيرانيّ من نوعه لاستخراج المعادن خارجها. واليوم تملك (إيران) في (غينيا) مشروعاً ضخماً لإنتاج الألمنيوم، فضلاً عن استثمارات لمدة ٩٩ سنة لاستخراج خام البوكسيت، بشركةٍ لـ (إيران) منها ٥١٪ و٤٩٪ لغينيا.

على قاعدة هذه العلاقات الطيّبة بين البلدين، حصل سنة ٢٠١٠م تحوُّلٌ إيجابيٌّ في العلاقات الغينيّة ـ الإيرانيّة. كان الوصولُ إليه غايتنا ممّا سردناه على العلاقات الاقتصاديّة. هو إنشاء أوّل حوزة كبرى لتخريج المُبلّغين الغانيين في العاصمة (كوناكري)، ستكون ذات أثر تاريخي على حالة الشيعة والتشيّع في موطنها.

حملت الحوزة الجديدة اسماً صريحاً يُشيرُ إلى الغاية منها هو (مدرسة أهل البيت). جرى استحضار المدرسين فيها من (قُمّ). وحسب إحصاءٍ أورده مصدرٌ وهابي مُراقب، وإن هو نسبه إلى «مصادر شيعيّة»، فإنّ عدد طلاب الحوزة بلغ سنة ٢٠١٢م ستمائة طالب. مايدلُّ على الإقبال الممتاز الذي حظيت به أوّلُ حوزة دينيّة شيعيّةٍ في (غينيا). كما يدلُّ بالتّضمُّن على التهيّؤات الشيعيّة الكامنة في البيئة الثقافيّة الغينيّة، التي يمكن إرجاعها بسهولة إلى الطُرُق الصوفيّة العاملة فيها، وعلى رأسها الطريقة التيجانيّة.

بدأ تأثير رحم (مدرسة أهل البيت) فوراً في توليد المؤسّسات، التي يرأسها ويُديرها خريجو المدرسة. منها ثماني جمعيّات عاملة في العاصمة. نعرف منها بتاريخ صدور معلوماتنا حوالي السنة ٢٠١٦م: (جمعية أهل البيت)، (جمعية السيّدة زينب الكبرى)، (جمعيّة الإمام علي)، (جمعية الإمام الحسين)، (جمعيّة الإمام المهدي)، (جمعيّة السيّدة الزهراء)، (جمعيّة الشباب المؤمن) وهذه أنشأتها مجموعةٌ من طلاب الجامعات الغينيين.

هذا، بالإضافة إلى جمعيّاتٍ كثيرة في مختلف المناطق، أنشأها خرّيجون آخرون حيثما انتشروا.

وأيضاً بالإضافة إلى سلسلة من المساجد، المُنتشرة في أحياء العاصمة وبلدانٍ أُخرى غيرها. نذكر منها ما وصل إلينا العلم به، منسوبةً إلى أئمتها، وجميع هؤلاء من المواطنين الغينيين: (مسجد النور) إمامه الشيخ

إبراهيم باه، مسجدٌ إمامهُ الشيخ محمد بيلو جاو، (مسجد الإمام الحسن المُجتبى) إمامه الشيخ أحمد باه، مسجد في مقر (مُجمّع السيدة الزهراء) إمامه الأستاذ كبا مامادي، (مسجد الإمام علي) إمامه الأستاذ محمود بنجورا، (مسجد تانقن) إمامه الشيخ محمد سعيد باه.

ويقول الدّاعية السلفي الغيني محمد حافظ صو، في تقريرٍ له رفعه إلى سادته في السعوديّة: «أسّس الشيعة (في غينيا) ١٠ مدارس شيعيّة أشهرها مدرسة أكبر الكبرى (!) تحت رعاية السفارة الإيرانيّة». ولاوجود بالتأكيد لذلك العدد من المدارس الشيعيّة في (غينيا)، وسيكون إن شاء الله، ولا لمدرسةٍ تحمل ذلك الاسم «تحت رعاية السفارة الإيرانيّة». والظاهر أن (الداعية) المذكور رمى من وراء ذلك التّهويل والاختلاق إلى استجرار المال من أسياده. كما أنّه في مقابلةٍ مع صحيفةٍ تصدر في السعوديّة أجاب على سؤال: «ما أبرز التحديات التي يواجهها المسلمون في كوناكري»؟، بقوله: «في الحقيقة أنّ أبرز التحديات التي تواجه المسلمين فكرةُ التشيّع. فالشيعة موجودون في كوناكري منذ ١٥ سنة... الخ». وهذا تهويلٌ آخر يرمي إلى الغرض نفسه.

من الغنيّ عن البيان، بعد هذا العرض الواضح لانبعاث الحالة الشيعيّة في (غينيا)، أولاً، أنّ الانبعاث حصل بفضل تخطيط ومبادرات ورعاية الجمهوريّة الإسلاميّة للعمل الإعدادي والتبليغي. وثانياً، أن الذين عملوا على الأرض في العمل التبليغي هم جميعاً من أبناء (غينيا)، وبالتحديد من خرّيجي (مدرسة أهل البيت).

واليوم تذهب أكثر الاحصاءات والتقديرات لعدد الشيعة في (غينيا) أنّ نسبتهم إلى مُجمل السكان بحدود ٥٪، أي زهاء خمسمائة وستون ألفاً. وذلك إنجازٌ لسنا نعرف له شبيهاً بمواصفاته.



الباب السادس: ساحل العاج

(١) جغرافيا وتاريخ

رسمياً (جمهورية ساحل العاج الديموقراطيّة). دولة وسط (أفريقيا) الغربيّة، شمال المحيط الأطلسي حيث خليج (غينيا). عاصمتها بحسب دستورها (ياموسوكرو). لكنّ العاصمة الفعليّة هي (ابيدجان)، أكبر مُدُنها وأكثرها أهميّةً ونشاطاً، فضلاً عن وجود بعض السفارات والوزارات فيها حتى ما قبل بضع سنين على الأقلّ. اللغة الرسميّة فيها الفرنسيّة، لكن إحدى اللغات المحلّيّة هي لغة الناس والسوق. رزحت تحت الاستعمار الفرنسي منذ السنة ١٨٤٣م حتى نالت الاستقلال سنة ١٩٦٠م. ولاسمها نكهةٌ استعماريّةٌ غير خفيّة، ترجع إلى أنّ أنياب الفيلة كانت تُعرض على سواحلها برسم التصدير إلى (أُوروبا). مساحتها ٣٢٢٤٦٢كم٢. عدد سكانها زهاء العشرين مليوناً.



(٢) الإسلام في ساحل العاج

تبلغ نسبة المسلمين إلى مجموع السكان ٦٠٪. والباقون ٣٠٪ منهم مسيحيّون كاثوليك، مع أقلّيّةٍ يهوديّةٍ وبهائيّة وأحمديّة ضئيلة و ١٠٪ وثنيّون من أتباع الأديان الأحيائيّة الموروثة، الضاربة جذورها إلى أعماق التاريخ الأفريقي. أكثر المسلمين من أتباع المذهب المالكي. مع حضورٍ قويّ للطُّرُق الصوفيّة، خصوصاً منها التيجانيّة والقادريّة.

الإسلام فيها عريق، عراقتَه في غرب ووسط (أفريقيا). أما الوجود المسيحيّ الكبير فهو جديدٌ نسبيّاً ونتيجةٌ للعمل التبشيري، الذي نظّمته ورعته (فرنسا) أثناء احتلالها الطويل للبلاد، وفق القاعدة الاستعماريّة المعروفة، التي تمنح المُبشّر موقعاً أساسيّاً وتأسيسيّاً في المشروع الاستعماري لغرضٍ صِرْف سياسي، يُمهّد للعسكري فالتاجر والمستثمر.

(٣) الشيعة في ساحل العاج

الوجود الشيعي الصريح فيه ترجع بداياته إلى المهاجرين العامليين الكثيرين، الذي قصدوا (ساحل العاج)، لِما يمنحه من فُرَصٍ جيّدة للعمل والكسب، ولِما يتمتّع به من ثرواتٍ زراعيّة وتجاريّة. بالقياس إلى انغلاقها في بلدهم، في ظلّ الحكم العثماني الوحشي، الذي تفنّن رجاله في اضطهاد شعبه وإفقار بلدهم، خصوصاً في أيامه الأخيرة.

المعروف والمُتدَاول في أوساط (جبل عامل)، أن بداية هجرة أبنائه إلى (ساحل العاج) حصلت في بدايات القرن العشرين. حيث مجموعةٌ منهم، بعد أن ضاقت بهم سُبُل العيش، جمعت أمرها وولّت وجهها صوب (أفريقيا)، على صعْب السفر يومذاك. والله يعلم كم قاسى أُولئك الرّوّاد من مشقّاتٍ ومخاطر، قبل أن يستقرّ المقام ببعضهم في بلدٍ، نرتابُ في أنهم كانوا قد سمعوا حتى باسمه من قبل، هو الـ Cote Divoir. الذي سيُعرف بينهم وبين العرب إجمالاً باسمٍ مُحرّفٍ قليلاً هو (ساحل العاج).

ثم جاءت نكبة احتلال (فلسطين) سنة ١٩٤٨م، فزادت من انغلاق فُرَص العيش على أبناء (جبل عامل). لأنهم كانوا من قبلُ يرتزقون بالعمل موسميّاً في مُدُنه وبلدانه: (حيفا)، (يافا)، (صفد) وغيرها، ويتاجرون معها استيراداً وتصديراً.فانبعثت الهجرةُ من جديد صوب (أفريقيا). وفازت (ساحل العاج) بالنصيب الأكبر منهم، بعد أن بات فيها جاليةٌ مستقرّة من إخوانهم ، يُمكن أن تُقدّم العون للقادمين الجُدُد منهم، في الوقت الذي هم أحوجُ ما يكون إليه، ممّن يجمعهم بهم نسبُ الغُربة ووشيجة البلديّة. ثم جاءت الحربُ الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢م) لتُضيف عاملاً جديداً على الهجرة القائمة، عناصره فقدان الأمن وفُرَص العيش. فانبعثت الهجرة من (جبل عامل) باتجاه أفريقيا، عارمةً هذه المرّة. ودائماً يفوز (ساحل العاج) بالنصيب الأوفر منها.

والظاهر أنّ هذه الموجةُ من الهجرة (١٩٤٨ ـ ١٩٩٢م) كانت كبيرة العدد. خمّنّا ذلك استناداً إلى أن الجيل الثالث والرابع من أبناء المهاجرين العامليين في (ساحل العاج) يُعدُّ اليوم بالأُلوف الكثيرة (أخبرني أحدُ المهاجرين أنّهم يزيدون على العشرة آلاف رجل دون أُسراتهم). ومن الغنيّ عن البيان، أنّ أكثرالأسلاف الأُوَل لهؤلاء هم من الذين هاجروا إليه إبّان الظرف الذي تشكّل في (جبل عامل) بالاحتلال اليهودي لـ (فلسطين).

ثمة عاملٌ ثانٍ، ذو أثرٍ نوعيٍّ هذه المرّة، على المهاجرين العامليين في (ساحل العاج). هو جولة الإمام السيّد موسى الصدر كان الله له في أنحاء (أفريقيا) سنة ١٩٦٧م، ومنها طبعاً (ساحل العاج)، ابتغاء تنظيم جهود الجاليات العامليّة فيها.

وقد أتينا على ذكرها آنفاً في الباب المُخصّص لـ (السنغال). فدعاهم إلى إنشاء المؤسسات والمراكز الدينيّة والاجتماعيّة والتعليميّة، لِما لها من تأثيرات حسنة على أوضاعهم في مغترباتهم. وبالخصوص على الأجيال التي تولد وتنشأ في الغُربة، وتتربّى في مدارس وجامعات ستُساهم ولا ريب بذوبانهم في وسطها الثقافي ـ الحضاري. ومع الوقت سينفصلون وجدانياً عن ذاتيّاتهم. وعلى الأثر بدأ طورٌ جديدٌ في هُويّة الحضور الشيعي للمهاجرين في هذا البلد. وسنقفُ في الآتي عن قريب على معالمه، حيث سنذكر ما وصل إلينا العلم به من المؤسسات التي أنشأوها في مهجرهم هذا.

يُضافُ أيضاً إلى الأسباب التي تتراكم لتؤدّي إلى ما سنقف عليه من نهوض التشيّع في (ساحل العاج)، دخول رُجال الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة العريض سُوحَ العمل فيه. وقد رأينا آنفاً أنّهم دخلوا غير ساحةٍ من سُوح شمال وغرب (أفريقيا)، وسنقفُ إن شاء الله على مثيله في وسط وشرق القارّة. وأنّهم حيثما دخلوا قلبوا المُعطيات القائمة، بما يملكون من تجربةٍ وخبرةٍ عميقةٍ في العمل التبليغي ـ الارشادي، وبما لديهم من رجالٍ ومؤسّساتٍ تمرّسوا بالدعوة إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة. يُسندهم قرارٌ سياسيٌّ مركزيٌّ بالدّعم والرعاية.



واليوم يبلغ عديد الشيعة من أبناء (جبل عامل) في (ساحل العاج)، استناداً إلى تقديراتٍ موقوفةٍ في السنة ٢٠١٦م، مائة ألف شخص. أربعون ألفاً منهم في العاصمة الاقتصاديّة (أبيدجان) وحدها. يُضافُ إليهم أعدادٌ غير معروفة من المواطنين العاجيين المُستبصرين. لكن من المؤكّد أنّ هؤلاء في حالة تكاثُرٍ وتنامٍ مُطّرد عدديّاً ونوعيّاً.

فهذا يُلخّص للقارئ الوضع الشيعي إجمالاً في (ساحل العاج).

على أنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ خصوصيّة الحضور العاملي في (ساحل العاج) ، بالقياس إلى حضورهم في المهاجر الأفريقيّة قاطبة ، أنّهم هناك الجالية الأكبر عدداً بين الجاليات غير الأفريقيّة، بمن فيها الجالية الفرنسيّة نفسها. مع أنّ هذه تستند إلى وضعٍ تاريخيٍّ مسيطر سياسيّاً واقتصاديّاً وثقافيّاً، امتدّ على ما يزيد على قرنٍ من الزمان.

بدأت الحركة الاقتصاديّة (صناعيّةً وتجاريّةً اليوم) للمهاجرين العامليين مُقتصرةً على الاعمال التجاريّة

البسيطة، التي يُديرها فرديّاً أحد المهاجرين. لكنهم ما عتّموا أن أصبحوا يُديرون ٣٥ أو ٤٠٪ من مُجمل الاقتصاد العاجي.

فابتداءً من تسعينات القرن الماضي علا شأنهم في قطاعاتٍ اقتصاديّةٍ مهمة وأساسيّة، منها قطاعات النقل والوقود والمال. مُستفيدين من موجة خصخصة مؤسسات الدولة في نهاية التسعينات، فاستولوا من ضمن عمليّات الخصخصة على بعضها. ثم أنّهم استفادوا من الرّحيل الكثيف لأرباب العمل الفرنسيين، على أثر اختلال الأمن في البلد سنة ٢٠٠٦م. فاشتروا منهم مؤسساتٍ تجاريّةٍ كبيرة، وصالاتِ عرضٍ شهيرة، وأسماءَ تجاريّة عريقة خصوصاً في سوق توزيع السِّلع في العاصمة (أبيدجان). ومن الممكن تلخيص الوضع الاقتصادي الفعّال للمهاجرين اللبنانيين أجمالاً في (ساحل العاج) اليوم، وأكثريّتهم السّاحقة من العامليين، بالقول إنهم يُديرون مجموعةً من الموظفين يفوق ماتُديره الدولة نفسها. وأنّ مظاهر حضورهم بمختلف وجوهه في هذا البلد كثيرة. وليس غرضنا استيعابها ذكراً، بل تأثيره على انتشار التشيّع فيه، طبعاً بالتكامل مع رجال الجمهوريّة الإسلاميّة. لذلك فإنّنا سنصرفُ الكلام إلى المؤسسات التي أنشأوها وإلى رجالها العاملين.

(٤) المؤسسات الشيعيّة في ساحل العاج

- **الجمعيّة الإسلاميّة الثقافيّة.** في (أبيدجان) وهي أوّل جمعية شيعيّةٍ هناك. أُسست سنة ١٩٧٧م بتحريضٍ من السيّد الصّدر. لها فرعٌ يهتمّ بالشؤون الثقافيّة للمرأة يحمل اسم (جمعيّة الزهراء النسائيّة).
- **جمعيّة الغدير الخيريّة.** في (أبيدجان) منطقة (ماركوري). وهي جمعيّةٌ كبيرة ونشيطة، بإدارة مجموعة من الجالية اللبنانيّة. وتُدير مُجمّعاً كبيراً عاملاً هو (مُجمّع الزهراء الثقافي). ولها (مستشفى الزهراء). كما بنت المسجد الكبير في حي ماركوري كلاهما في (أبيدجان).

وممّا يجدر بنا ذكره هنا، أنّ الدولة العاجيّة طردت سنة ٢٠٠٩م إمام المسجد الكبير الشيخ عبد المنعم قبيسي، بسبب اتهامات أميركية إياه بأنه يجمع المال لمصلحة المقاومة الإسلاميّة. مع أنه يحمل الجنسيّة العاجيّة. ولكنّها سرعان ماعادت وأذنت له بالعودة.

- **المركز الإسلامي العربي الأفريقي.** في (أبيدجان).
- **الجمعيّة الإسلاميّة الثقافيّة للدعوة والإرشاد.** في (أبيدجان). تُدير مدرسة للعناية بأولاد المهاجرين.
- **المركز الشيعي الجعفري.**
- **المركز اللبناني.** في نطاق بلديّة (ماركوري) من (أبيدجان)، المعمور من أكثريّةٍ شيعيّةٍ عامليّة.
- **مركز الشباب.** في (أبيدجان). الظاهر أنّه يهتمّ بالشأن الرياضي الترفيهي للناشئة.
- **مؤسسة الإمام الصادق** عليه السلام. في (أمباتو).

- **جمعيّة الشباب المسلم**.في (أمباتو) أيضاً. لها أنشطة مختلفة ومدرسة.
- **مجمع الغدير**. في (أبيدجان). بإدارة اللبناني الشيخ أنيس حجازي. وفيه (مسجد المهدي) ، إمامه اللبناني أيضاً الشيخ غالب كُجُك.
- **جمعية البِرّ والتعاون**. رئيسها اللبناني الشيخ غسّان درويش.
- **جمعيّة الهدى**. وهي من مؤسسات السيد محمد حسين فضل الله (رض). رئيسها اللبناني الشيخ وهيب مُغنيّة.
- **الجمعيّة الإسلاميّة**. في (جران باسام).
- **جمعيّة الإمام الصادق الفرانكوفونيّة**. في (أبيدجان). مديرها الإيراني الشيخ مرتضى خليق. تهتمّ بالتدريس باللغة الفرنسيّة فقط. أوّلاً لحاجة المُبلّغين إليها. ثم أن من أجيال المهاجرين العامليين مَن بات لا يُحسن غير الفرنسيّة، بل إن الجيليَن الثالث والرابع منهم لايفهمون اللغة العربيّة. فبات من الضروري التواصل معهم باللغة التي يُحسنونها. بل وإحياء شعائر شهر المُحرّم بهذه اللغة، الأمرُ الذي استلزم إعداد قُرّاء المجالس المناسبين. وبل أيضاً أُقيم مسرحٌ عاشورائيّ بالفرنسيّة، أشرف عليه مُخرجٌ معروف، فلقي إقبالاً ممتازاً من الجمهور وتنويهاً من الإعلام. فإنشاء هذه الجمعيّة دليلٌ على إدراكٍ جيّدٍ لمُقتضيات التبليغ الذّكيّ.
- **جمعية خريجي معهد أهل البيت**، التابع لـ (جامعة المصطفى العالميّة).
- **مسجد الإمام علي** عليه السلام . في (جران باسام).
- **مسجد الاثنى عشريّة**. في (أبيدجان).
- **مسجد كانكاكورا**. في أبيدجان).
- **مؤسسة أهل البيت**. في (باسام). رئيسها إبراهيم جكتي، سنذكره لاحقاً.
- **مسجد الشيعة الجعفريّة**. في (جران باسام).
- **مسجد عديّ**. في (سان بيدرو).
- **مسجد المنطقة التجاريّة** في (بتريشفيل).
- **ثلاث حسينيّات**. في (أبيدجان).
- **مركز الإمام الحسين** عليه السلام . في (أبيدجان).
- **مدرسة الزهراء** عليها السلام . للبنات، في (جران باسام).
- **مدرسة الإمام علي** عليه السلام . في (جران باسام) أيضاً.
- **مدرسة أهل البيت**. في (أوديينه).



- **مدرسة العترة الطاهرة**. في (أبوبو)
- **مدرسة العترة الطاهرة**. في (سينفرا)، بإدارة الشيخ ألفا سيسي.
- **مدرسة سبيل النجاح**. في (أبوبو غار).
- **مؤسسة الإمام الصادق** عليه السلام. في (امباتو).

والحقيقة أنّ من الصّعب جداً إحصاء جميع المؤسسات الشيعيّة العاملة في أنحاء (ساحل العاج) لكثرتها وتنوّعها. خصوصاً وأنّ الكثير جدّاً منها أنشأها ويُديرها مُبلّغون عاجيّون، ممّن تخرّجوا في الحوزات العلميّة في (لبنان) و (سوريا) و (إيران) أو في الفرع المحلّي لـ (جامعة المصطفى).

وقد أحصى تقريرٌ رفعه وهابي لسادته أسماءَ ستٍ وعشرين مدرسة يُديرها مُبلّغون عاجيّون، مُنتشرة في أنحاء (ساحل العاج). صدفنا عن ذكرها بأسمائها لأنّها أتت في مصدرها حافلة بالاخطاء الفاحشة، بحيث أن القارئ يعجز عن معرفة أسمائها الحقيقيّة.

كما أنّ الشيخ محمد الحسّون لاحظ، أثناء زيارةٍ تبليغيّة له لـ (ساحل العاج) سنة ١٤٣٦هـ/ ٢٠٠٦م، وجود العشرات وربما المئات من المساجد والحسينيّات المحلّيّة في القرى والأرياف، مبنيّة من المواد المُتاحة بالوسائل المحلّيّة، التي تعتمد الطين في الجدران والأعشاب في السقوف. حيث تُقام الصلوات ويجري إحياء الشعائر خصوصاً الحسينيّة منها.

فهذا بيانٌ للمؤسّسات الكثيرة المُتنوّعة، التي كانت وما تزال عماد العمل التبليغي في (ساحل العاج)، وبذلك أنتجت عاملاً تاريخيّاً في حضور التشيّع المُتنامي في (أفريقيا الغربيّة). وقد أشار إلى ذلك غيرُ تقريرٍ وهابيّ مصحوبٍ بالغيظ الشديد، وببيان أثرها الكبير على انتشار الشيعة في هذا البلد الأفريقي.

نختمُ السّرد بالتنويه بأمرين:

الأوّل: شهيد التبليغ في (ساحل العاج) العلاّمة الجليل والخطيب المُفوّه ابنُ خالنا الشيخ جعفر الصائغ العاملي.

فقد ارتحل رحمات الله تعالى عليه من بلدته (قانا) العامليّة إلى (أبيدجان)، على أثر الاجتياح الإسرائيلي لوطنه وبلده سنة ١٩٨٢م. هناك بدأ عملاً تبليغيّاً مباشراً بين الوطنيين العاجيين. مُعتمداً بادرةً غير مسبوقة نوعيّاً، على كثرة وتنوّع مارأينا من بادرات، كلُّها تعتمد أُسلوبَ جَذْب الناس إلى مختلف المؤسسات.

أمّا هو فقد قصدهم في أحيائهم الفقيرة. وقد حدّثني في إحدى زياراته لوطنه، أنّه في بعض مراحل عمله الأُولى هناك، استأجر سطح أحد الأبنية، ونصب عليه خياماً سمّاها (خيام الحسين) عليه السلام. الأمر الذي حرّك مشاعر الناس المُهيّأين للانجذاب إلى اسم سيّد الشهداء، بحُكم تكوينهم الثقافي المُتأثّر بالطُرُق الصوفيّة. فبدأوا يحضرون للاستماع إليه، والمُشاركة في إحياء مختلف المناسبات الشيعيّة المعروفة. وكان لذلك أبعد الأثر، بحيث أن اسمه غدا ملء الاسماع والنفوس في أحياء المدينة.

طبعاً كان الوهّابيون ومن لفّ لفّهم أكثر المستفزّين من هذه الظاهرة، فأغروا بعض الأوباش بالمال لاغتياله. فكمنوا له ليلاً في مدخل منزله، وانهالوا عليه ضرباً إلى أن أسلم الروح. وقد أُعيد جثمانه الطاهر إلى (قانا)، حيث شُيّع تشييعاً حافلاً، ليُدفن في مقام السيّدة زينب بجوار (دمشق).

وقد قال لي أحدُ مَن التقيتُ بهم بعدُ من مهاجري بلده (قانا) في (أبيدجان)، أنّ اسم «جعفر صايغ» غدا، بعد شهادته الفاجعة، اسماً مقدّساً في أحياء المدينة التي عرفته واستبصر أهلُها ببركة سعيه. يُذكر بالتجليل والتعظيم.

الثاني: جامعة المصطفى في (ساحل العاج). نُفردها بالقول لِما لها من تأثيرٍ تاريخيّ مُستمرّ.

بدأ العملُ بتأسيس (معهد أهل البيت للدراسات العليا)، التابع لـ (جامعة المصطفى العالميّة) في (طهران)، سنة ١٩٩٩م. وبدأ يستقبل الطلاب في السنة التالية. وفي السنة ٢٠٠٤م تخرّج منه أربعون طالباً. ارتحل بعضهم إلى (إيران) لُمتابعة الدراسة في الجامعة بـ (طهران)، أو في الحوزة العلميّة في (قُمّ). والباقون انتشروا في سُوح العمل التبليغي في أنحاء بلدهم. وفي السنة ٢٠٠٥ م تخرّج منه ثمانيةٌ وثلاثون.

وسنقفُ في الآتي إن شاء الله على أسماء من عرفناهم من العاملين العاجيين في الميدان التبليغي. وأكثرهم من خريجي المعهد المذكور، الذين تتابع تخريجهم في السنتين الأُوليّيَن وفي السنوات التالية.

(٥) أعلامٌ من المُبلّغين العاجيين

- **الشيخ عمر سوغو دوغو.** فقيه جليل وعالمٌ مشهودٌ له في المعارف الإسلاميّة، فضلاً عن إتقانه وطلاقة لسانه بالعربيّة. درس مدة سنوات في الحوزة العلميّة للسيد محمد حسين فضل الله رحمه الله في (بيروت). وعاد إلى وطنه ليُقيم في العاصمة. وهو من كبار مُدرّسي المعهد المذكور.
- **الشيخ عبد الرحمن وتارا.** يسكن مدينة (كوماسي). من خرّيجي المعهد نفسه قبل أن يُتابع ويتخرّج في (جامعة المصطفى) في (إيران). وهو أيضاً من مُدرّسي المعهد.
- **الشيخ زكريا كوناتي.** درس في الحوزة الزينبيّة في (دمشق). وهو من روّادها الأوّلين من العاجيين. كان حتى السنة ٢٠١٠م يُقيم في (كوماسي) أيضاً، حيث يُديرُ (مدرسة أهل الكساء).
- **الشيخ يوسف سانوغو.** درس بـ (بيروت) في حوزة السيد فضل الله. وهو من العاملين في (مجمع الزهراء) ومن مُدرّسي المعهد.
- **ـ الشيخ إسحاق كلبالي.** درس في (الحوزة الزينبيّة). من مدرّسي المعهد.
- **الشيخ سليمان كوني.** درس في الحوزة نفسها. مُدرّسٌ بالمعهد، وإمام مسجد في حي (ريفيرا) بـ (أبيدجان). له علاقاتٌ جيّدة ونفوذ بين أهل السياسة ودوائر الدولة. ساعد بالحصول على التصريح الرسمي بإنشاء المعهد، بعد أن كانت الحكومة قد رفضت ذلك في محاولةٍ سابقة. وهو أيضاً من مُدرّسي المعهد.



- **الشيخ عبد القادر دومبيا**. من أبرزهم. يتحلّى بثقافةٍ جيّدة. تلقّى تأهيلاً وتدريباً دعوتيّاً في معهدٍ بـ (إيران). وهو من مُدرّسي المعهد و (مدرسة العترة الطاهرة) المذكورة آنفاً، وإمام مسجد.
- **الشيخ سيلا سليمان**. درس على شيخ سلفي بارز في وطنه. ولكنّه ما عتّم أن التحق بـ (الحوزة الزينبيّة) في (دمشق). ولما رجع غدا من كبار مُدرّسي المعهد.
- **الشيخ ألفا سيسي**. درس في (الحوزة الزينبيّة) بـ (دمشق). ورجع ليُقيم في مدينة (سينفرا)، وليُنشئ فيها (مدرسة العترة الطاهرة). له في منطقته أثرٌ تبليغيٌّ محمود.
- **إبراهيم جكتي**. درس في وطنه على أبيه الشيخ هاشم، الذي يبدو أنّه كان يميلُ إلى التشيّع، بل على قول ابنه أعلن تشيّعه قبل وفاته.

ارتحل إلى (دمشق) للإلتحاق بالجامعة. وعندما رجع كان قد غدا شيعيّاً. أنشأ بمساعدةٍ من زملاءٍ له سابقين خليجيين (حسينيّة الزهراء) في (باسام). كما يترأّس (مؤسسة أهل البيت) فيها.

من مُجمل السّرد نعرف أن عدد الشيعة الاجماليّ في (ساحل العاج) مُتحرّك بسرعة مع النشاط التبليغي الكثيف الناجح. أي بالتالي أن كل الأرقام الواردة في مختلف المصادر قاصرةٌ بشدّة عن العدد الحقيقي.

الباب السابع: الغابون

(١) جغرافيا وتاريخ

دولةٌ كبيرة المساحة في وسط غرب (أفريقيا)، عاصمتها (ليبروفيل)، مساحتها ٢٧٠ ألف كم٢، تُغطّى الغابات العذراء أكثر رقعتها، بحيث أنّها البلد الثاني في العالَم من حيث كثافة الغابات بعد (البرازيل). لدرجة أنّ أجزاءً منها لم تطأها أقدام بشر.عدد سكانها زهاء المليونين. سكانُها تركيبةٌ من مجموعاتٍ قبَليّة. احتلتها (فرنسا) سنة ١٨٨٥م، وعيّنت عليها حاكماً فرنسيّاً. وفي عام ١٩١٠م أصبحت واحدةً من أربعة أقاليم متحدة في (أفريقيا) الاستوائيّة. ثم بعد الحرب العالميّة الثانية سنة ١٩٤٥م جعلت منها فرنسا جمهوريّةً ذاتيّة الحكم ضمن الاتحاد الفرنسي. إلى أن نالت استقلالها سنة ١٩٦٠م. وفي السنة التالية انتُخب أوّلُ رئيسٍ لها.

ومع ذلك فإنّ (فرنسا) ما تزال تُهيمن على ثروات البلد من نفطٍ وأخشاب ومعادن الذهب والحديد والمنغنيز (هي البلد الثاني في العالَم المنتج لهذا المعدن). وفي هذا السبيل تبسط سُلطاناً دون مُنازع على الإدارة العموميّة.

(٢) الإسلام في الغابون

نسبة المسلمين فيها إلى مجموع السكان هي ١٢٪ حسب بعض التقديرات. لكنّ عدداً من الدوائر الإسلاميّة تؤكّد أن نسبتهم تقرب من ٤٥ ٪. خصوصاً أنّ من القبائل، ومنها قبيلة البونجوي، التي ينتمي إليها رئيس الجمهوريّة عمر بونجو، قد دخلت الإسلام على أثر اعتناقه هو، كما سنعرف.

وعلى كلّ حال، فإنّ الأقليّة المسلمة حكمت الغابون منذ السنة ١٩٧٣م. ذلك أنّه بهذا التاريخ اعتنق رئيسُها المسيحي ألبرت برنارد الإسلام، وبدّل اسمه إلى الحاج عمر بونجو. ليحكم البلاد منذ السنة ١٩٦٧م، حتى وفاته سنة ٢٠٠٩ م. ثم ليخلفه ابنه علي.

(٣) الشيعة في الغابون

دخلها التشيع مع المهاجرين الشيعة القادمين إليها من بلدان (جبل عامل)، ابتداءً من أوائل القرن الميلادي الماضي. ومع الوقت، بالتكاثُر الطبيعي وقدوم المزيد من المهاجرين، بلغ عددهم قبل خمس سنوات ثمانية آلاف. ينتمون إلى أُسرات شقير، حجيج، قاطبيّة، هاشم، جابر، العزي، مزهر، خنسا، نحلة، ريحان، حيدر. وكلّها من (جبل عامل)، إلا ربما أُسرة خنسا التي نظنُّ أنّ مهاجريها هناك هم من الضاحية الجنوبيّة لـ (بيروت).

من أُولئك المهاجرين مَن يعملون في تجارة اللحوم والمواد الغذائيّة والسيّارات. وآخرون يعملون في الصناعة. لكنّ قطاع البناء هو الأكثر جذباً لهم. وثمة في (الغابون) غير شركة مقاولات مُهمّة مملوكةٌ لأحد اللبنانيين، تتولّى تنفيذ بناء أكبر المشروعات فيها.

ومع ذلك الحضور الكمّيّ والنوعي الجيّد، فإنّنا لم نقع على اهتمامٍ لائقٍ للمهاجرين بالشأن الديني والثقافي، مثلما رأينا آنفاً في غيرها. اللهم إلا مسجدٌ لهم في مدينة (بورت جنتيل) الغابونيّة. ذُكر بمناسبة أن المُنتخب المصري لكرة القدم، الذي حضر إلى المدينة للمُشاركة بكأس الأُمم الأفريقيّة سنة ٢٠١٧ م، رفض أداء صلاة الجمعة فيه لأنه للشيعة، ولأنّ إمامه الذي يُلقي الخطبة بالفرنسيّة منهم. ومن هذه الملاحظة الأخيرة نفهم أنّ أخلاف المهاجرين الأُوَل باتوا لا يُحسنون بل لا يفهمون اللغة العربيّة.

هذا، مع أنّ الإمام موسى الصدر، كان الله له، زار (الغابون) والتقى المهاجرين الشيعة فيها، ضمن جولته الواسعة على أقطار (أفريقيا) سنة ١٩٦٧م. ولا ريب في أنّه حثّهم على مثل ما حثّ عليه إخوانهم من المهاجرين اللبنانيين، كما ذكرنا آنفاً غير مرّة. ولكن يبدو أن نداءه في الغابونيين منهم ذهب أدراج الرياح لأسبابٍ لا نعرفها. ربما ترجع إلى قلّة عددهم نسبيّاً.





الباب الثامن: غانا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّا (جمهوريّة غانا). دولةٌ في غرب (أفريقيا). رزحت تحت الاحتلال الاستعماري البريطاني منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، عُرفت أثناءها بـ (ساحل الذهب) لغناها بمعدنه، الذي كانت سُلُطات الاحتلال تجمعه على ساحلها مُقدمةً لنهبه. إلى أن نالت الاستقلال سنة ١٩٥٧م بعد أكثر من قرنٍ من مُقاومة الاحتلال. فكانت أوّلَ دولة أفريقيّةٍ جنوب الصحراء الكبرى نالت الاستقلال.

عاصمتها (أكر). مساحتها ٢٣٨،٥٣٥ كم٢. عدد سكانها حوالي سبعةٍ وعشرين مليوناً. هم من مجموعاتٍ مُتنوّعة عرقيّاً ولغويّاً ودينيّاً. اللغة الرسميّة فيها الانكليزيّة. إلى جنب عدّة لغات محلّيّة مُتداولة في الشؤون اليوميّة للناس. وهي اليوم من البلدان الأفريقيّة المُتقدّمة بالقياس إلى غيرها من الدُّول الأفريقيّة على صعيد البُنى التّحتيّة والخدمات.

٢٤٪ من مجموع السكان مسلمون، قسمٌ كبيرٌ منهم من أتباع الطريقة الصوفيّة التيجانيّة. و٧١٪ منهم مسيحيّون، اعتنقوا المسيحيّة بتأثير البعثات التبشيريّة التي نشطت أثناء الاحتلال. والباقون من أتباع الأديان الوثنيّة الأحيائيّة المنتشرة في (أفريقيا).

نُشيرُ أخيراً إلى أنّ عدد المهاجرين اللبنانيين إليها ضئيلٌ نسبيّاً، لايتجاوز الخمسة آلاف على أبعد التقديرات (يقول تقديرٌ آخر أن عددهم ثلاثة آلاف فقط). وهو على كلّ حال رقمٌ مُتواضعٌ بالقياس إلى عددهم في الدول الأفريقيّة المُجاورة. أكثرهم من غير الشيعة، مسيحيّون من منطقة (المتن)، وسُنّةٌ من (بيروت) و (طرابلس). لذلك فإنّنا لن نجدَ للشيعة منهم أدنى تأثير على ما سنقفُ عليه من نهضة التشيّع الواسعة في هذا البلد.

(٢) الشيعة في غانا

قبل السنة ١٩٨٤م لم يكن للشيعة أدنى وجود في (غانا)، باستثناء عددٍ غير كبير من المهاجرين العامليين الخامدين معنويّاً / ثقافيّاً، وإن يكُن بعضهم من الناجحين في ميادين العمل وجني الثروة. ومنهم مَن هم من أُسرتنا.

والحقيقة أنّ الحضور الباهر اليوم للتشيّع في (غانا) حصل بفضل الجهود الدعويّة / التبليغيّة الثقافيّة لرجال الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. على قاعدةٍ من الطريقة التيجانيّة الواسعة الانتشار بين المسلمين هناك. وما يُكنّه أتباعُها من ولاءٍ غير مجذوذ لأهل البيت عليهم السلام، بات معروفاً للقارئ الذى طوى معنا ما سبق من الكتاب.

سنة ١٩٨٠م افتتحت الجمهوريّة سفارةً لها في العاصمة، وإلى جنبها مُلحقيّةٌ ثقافيّة، على رأسها عالمُ دين. شرع فوراً ببناء علاقةٍ مع أعيان الطريقة، عن طريق زيارتهم في مقارّهم ومساجدهم، وتقديم الكُتُب لهم، لتكون الباب الذي يُعيدُ اتصالهم بجذورهم الشيعيّة، بعد ان انقطع مابينهم وبينها مدة قرون. ثم بإنشاء المؤسسات التعليميّة، من مدارس ابتدائيّة ومتوسّطة وثانويّة، وحوزة دينيّة بدأت بسيطة، عملت على إعداد الدُّعاة من الغانيين إعداداً أوّليّاً، بالمقدار الكافي لينتشروا بين قومهم مبلّغين ومُرشدين. ثم تطوّرت إلى مستوى أعداد مبلغين كاملي الأهليّة، وإرسال النابهين منهم إلى إيران لُمتابعة التحصيل.

بهذه الطريقة البسيطة بدأت القاعدةُ، المَبنيّة من ولاءٍ مُعطَّلٍ، تؤتي أُكُلها وتتحوّلُ إلى تشيّعٍ إماميٍّ صريح. وسرعان مابدأت في طورها الجديد تُعبّر عن ذاتها وذاتيّتها، بنهوض سلسلةٍ من المؤسسات والمراكز الثقافيّة والرّعويّة والتعليميّة والإعداديّة من مختلف التوجّهات والمستويات. إلى جانب اهتمامٍ كان غير مسبوق لديها من قبل، بإقامة الشعائر الدينيّة وإحياء المناسبات الدينيّة الشيعيّة.

هكذا أثناء ثلاثين سنة من العمل، تحوّل عدد الشيعة الغانيين من صفر تقريباً إلى مليون، أي إلى مانسبته إلى مجموع السكان ٤٪ تقريباً. ينتشرون في العاصمة (أكرا) وفي (تامالي) و (كوماسي تافوا) و (تاكورادي) و (كنتنبوا) و (أشامن). وذلك إنجازٌ قد يبدو مُبالغاً فيه، كما بدا لي لأوّل وهلة. ولكنّه الذي تتطابق عليه كافة المصادر، ما كان منها من موقع الإشادة والرضى. وما كان منها من موقع النّذير والغضب وطلب التّصدّي لـ (الخطر الرّافضي).



(٣) المؤسسات والمراكز الشيعية في غانا.

وكلّها ورد ذكرها تفصيلاً في تقرير اطلعنا عليه. حرّره شخصٌ تدلّ الدّلائل على أنّه وهابي يُقيم في (غانا)، برسم رفْعه إلى سادته في (السعوديّة)، ابتغاء استجرار التمويل، كما جرت عليه سيرة أمثاله:

- مركز شباب أهل البيت.
- مؤسسة الكوثر.
- مؤسسة الإمام الحسين. كلّها في (أكرا).
- معهد أهل البيت العالي للدراسات الإسلاميّة. نظنّ أنه فرع لـ (جامعة المصطفى العالميّة).
- منظمة شيعة أهل البيت الإسلاميّة.
- مركز شيعة أهل البيت الإسلامي.
- مدرسة فاطمة الزهراء الإسلاميّة للبنات.
- مجمع الإمام المهدي للدراسات العربيّة والانكليزيّة. في (أشامن).

- مركز الجعفريّة للتدريب على الحاسب الآلي.
- مركز الزُّلفى للتدريب المهني.
- مدرسة الجعفريّة الإسلاميّة. في (كوماسي تافوا).
- مكتبة عامة. في (أكرا).

هذا كلّه، إلى عددٍ كبيرٍ لم يكُن موضع إحصاءٍ من أحد، من المساجد والحسينيّات والمستوصفات. بالإضافة إلى مراكز متعدّدة للإرشاد الزراعي في القرى والارياف، وبرنامج لكفالة الايتام. ومجلتي (الكوثر) و (القلم) كلاهما باللغة الانكليزيّة.

المُساهمة الوحيدة من المهاجرين اللبنانيين الشيعة في هذا الجهد الواسع هو تمويل بناء وتجهيز (الجامعة الإسلاميّة غانا)، التي أُنشئت سنة ١٩٨٨م. بالمُوالفة مع (جامعة ليغون) الغانيّة، أكبر وأفضل الجامعات في (غانا). وفيها كليّات للدراسات الإسلاميّة والزراعة والتجارة وعلوم الحاسوب واللغات. بالإضافة إلى مكتبة كبيرة ومستوصف ومسجد واسع يتسع لخمسمائة مُصلٍّ ومساكن للطلبة. والجامعة هي بإشراف مدير إيراني.

في ختام الباب نقول، إنّنا لم نقع على أسماءٍ لَمن أنجبتهم نهضة التشيّع في (غانا) كما تقتضي طبيعة الأُمور. اللهم إلا الشيخ أحمد كمال الدين، الذي يوصف بأنه «زعيم الشيعة في غانا» عرفناه بمناسبة اشتراكه في مؤتمرٍ عُقد في (كربلا). ولم نقع له على ذكر في كل مصادر المعلومات التي بين أيدينا. على أنّنا ما نشكُّ في أن هناك غيره ممّن أنجبتهم النهضة.

الباب التاسع: مالي

(١) جغرافيا وتاريخ

دولة فقيرةٌ في غرب (أفريقيا)، عاصمتها الإداريّة (بماكو). لكنّ أكثر مدنها حجماً وشُهرةً ومكانةً هي (تمبكتو)، التي كانت قديماً عاصمة امبراطوريّة (مالي) الإسلاميّة العظيمة.

استولت عليها (فرنسا) أواخر القرن ١٩ م، وجعلتها جزءاً ممّا سمّته (السودان الفرنسي). مُكوّنةً مع (السنغال) دولة (مالي الاتحاديّة)، التي لم يطُل بها العمرغير سنة، بانسحاب (السنغال) منها. فسُمّي الجزء الباقي (جمهوريّة مالي). وهو الاسم الرسمي اليوم. مساحتها ١٢٤٠١٩٢كم٢. سكانها من العرب والطوارق والأفارقة. عددهم ١٤ مليوناً ونصف المليون. ٩٠٪ منهم مسلمون مالكيّو المذهب، مع انتشارٍ بينهم للطريقتين التيجانيّة والقادريّة. والباقون مسيحيّون ووثنيّون.

(٢) الشيعة في مالي

من المؤكّد أنه قبل العقدين الأخيرَين من القرن الميلادي الماضي، لم يكُن للشيعة أدنى وجود في (مالي). اللهم إلا عددٌ ضئيلٌ من المهاجرين العامليين، الذين اختاروا، أو فرض عليهم ظرفهم، الهجرة إليها على فقرها وضآلة الفُرص فيها. على أننا سنرى أنّ لـ (جبل عامل) دوره في نشر التشيّع في (مالي) وإنْ بالواسطة، على يد أحد المهاجرين منه إلى (أفريقيا) لغير طلب الكسب.

الانتشار السريع للتشيّع في (مالي) حصل ويحصل منذ العقد التاسع من القرن الماضي. وذلك على قاعدة الأغلبيّة المُنتميّة إلى إحدى الطريقتيَن الصوفيّتيَن. اللتين رأينا آنفاً غير مرّة أنّ أتباعها لم يجدوا أدنى صعوبة في التحوّل السّهل إلى التشيّع. بل هو من باب رجوع الفرع إلى أصله. فكان أن استولدت من ذاتها دُعاةً عاملين على استعادة شعبهم هُويته الفقيدة.

ثم هناك دائماً الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة حيثما ولّى الباحثُ وجهه في أنحاء (أفريقيا)، بحضورها الذّكي المُسالم النافع.

فهذان هما العاملان اللذان كانا وما يزالان وراء ماوصفناه بالانتشار السريع للتشيّع في (مالي). سنتناولهما بشيءٍ من التفصيل، بادئين بالعامل المحلّي، لأنّه الأساس الذي بنى عليه العاملُ الثاني.



أوّلُ أبطال ذلك العامل داعيةٌ شابٌّ، معروفٌ بين قومه بأنّه من أُسرةٍ ترتفع بنسبها إلى الإمام زين العابدين عليه السلام . تأثّر فيما يبدو بنهضة التشيّع العالقة في أنحاء (أفريقيا)، وبانتصار الثورة في (إيران). هو ذو الفقار محمد بايجي حيدر، المُلقّب بـ (شوال). الذي كان مالكي المذهب. ثم إذا به يُعلن تشيّعه فجأةً سنة ٢٠٠٥م، فتقبّل الناسُ خطوته قبولاً حسناً، لِما يتمتّع به من نسبٍ شريف وسُمعةٍ طيّبة. الأمر الذي نُقدّر أنّه كان السبب وراء خطوته التالية، إذ لم يقِفْ عند استبصاره شخصيّاً، بل تحوّل إلى داعيةٍ نشيط، يُحرّض قومه المُهيأين سلفاً على أن يقتدوا به.

أنشأ (شوال) جمعيّةٍ سمّاها (حزب الرحمان). فكأنّه باختياره هذا الاسم دون سواه كان ينسج على منوال (حزب الله). فالتفّ الناس من حولها في (بماكو) العاصمة والقرى المجاورة. وطفقت جموعهم تلتقي لإحياء شعائر ومناسبات دينيّة لم تعرفها المنطقة من قبل، من الاحتفال بعيد الغديروالمجالس الحسينيّة، وتلاوة دعاء كُميل ليالي الجمعة إلى ما هنالك. الأمر الذي يدلُّ أيضاً وأيضاً على أنهم كانوا في تمام الأهليّة لاجتياز المسافة الضئيلة، الفاصلة بين وُجدانهم الموروث والتشيّع الإمامي وشعائره.

البطل الثاني الشيخ أبو تراب، الذي لم نحظَ بعد البحث إلا على كنيته هذه، دون تمام اسمه. وهو من قرية (ماركاكنغوا)، على مسافةٍ من العاصمة. ارتحل إلى (أبيدجان) حيث درس على شهيد الدعوة الشيعيّة في (أفريقيا) الشيخ جعفر الصائغ يرحمه الله. عاد بعد شهادة أُستاذه سنة ٢٠٠٧م إلى قريته، حيث أسّس فيها (مدرسة أمير المؤمنين)، فمدرسةً ثانيةً باسم (مدرسة أهل البيت). والمدرستان كانتا منذ زُهاء خمس سنوات تضمّان مئات الطلاب والطالبات، حيث يتلقّون تعليماً جيّداً وتربيةً حسنة، لم تعرف مثلها من قبلُ



منطقتها البائسة. ثم حسينيّة بمساعدة أحد المهاجرين اللبنانيين في (مالي) الحاج حسن نعمة. غدت عامرةً بمن يُشاركون بإحياء الشعائر والمناسبات الدينيّة. الأمر الذي كان له إجمالاً أحسن الأثر على كلّ إقليم (كوليكورو) حيث قريته.

البطل الثالث هو الشيخ أبو علي جلو. وهو عالمٌ دينيٌّ من قبيلة (فولا) ذات الامتياز في كلّ (أفريقيا) في غير حقل، ومن ذلك نشر الإسلام في أنحائها.

ومن أسف، فإنّ المعلومات عن هذا الرّائد النشيط نزرة جدّاً، لم يصِلنا منها إلا القليل على مستوى التفاصيل. لكنّها تقول إجمالاً أنّه عمل طويلاً وبمثابرةٍ مدهشةٍ على الدعوة إلى التشيّع بين أبناء قبيلته في قرى وأرياف (مالي) دون تحديد. وأنّه نجح في عمله نجاحاً واسعاً.

إذن فهو، فيما نحسَب، من الأبطال الذين عملوا في مناطق نائية من (مالي)، بحيث لم يندّ عنها ماوصل إلى المُراقبين، ومن ثَمّ إلينا.

فيما يخصُّ أنشطة الجمهوريّة الإسلاميّة في (مالي)، فالحقيقةُ أنّ مصدر معلوماتنا عنها، كما غالباً، هو تقريرٌ سطره شخصٌ وهابي من موقع المُراقبة الدقيقة، برسم رفعه إلى سادته المعلومين. حيث ذكر المؤسسات التعليميّة والاجتماعيّة التي أنشأتها في هذا البلد. نذكرها مع شيءٍ من التّحفُّظ عليها. لأسبابٍ سيُلاحظها القارئُ العارف:

- جامعة المصطفى الدوليّة. في الضاحية الغربيّة لـ (بماكو). بلغ عدد المنتسبين إليها بتاريخ التقرير سنة ٢٠٠٩م مائتان وعشرة طالب وطالبة. تُدرّس اللغة العربيّة، اللغة الفارسيّة، والتاريخ والأديان والفلسفة.
- المركز الثقافي الإيراني. تتبعه، على حدّ قول كاتب التقرير، حوالي ١٣ مدرسة، منتشرة في مختلف أنحاء البلاد.
- مدرسة بقيّة الله للعلوم الإنسانيّة في (سيقو).
- ثانويّة الغدير لأهل البيت بمدينة (كا).
- مركز جمعيّة أهل البيت. في العاصمة، وله خمسة فروع.

ومع أنّنا لم نقع على تقديرٍ لعديد الشيعة في (مالي) اليوم، فإنّنا نملكُ من الأسباب ما يسمحُ لنا بالقول، إن التشيّع هناك قد اجتاز بنجاحٍ مدهشٍ مرحلة التأسيس، بعد أن لم يكُن شيئاً مذكورا. وها هو يسير الان بخُطىً ثابتة نحو النُموّ والانتشار، أساساً بفضل عددٍ من الدُّعاة المحلّيين، دون أن يُواجه مشكلاتٍ حقيقيّة. وهو ينتشر باطراد في (بماكو) وإقليم (كوليكورو) ومدينة (تمبكتو) و (سيغو) و (موبتي) و (كيدال) و (كا).

الباب العاشر: بوركينا فاسو

(١) جغرافيا وتاريخ

دولةٌ في غرب (أفريقيا) من أفقر دُول العالَم. عاصمتها مدينة (واغادوغو). مساحتها ٢٧٤،٢٠٠كم٢. كان عدد سكانها سنة ١٩٩٨م زُهاء اثنا عشر مليوناً من قبائل عدّة. رزحت تحت الاحتلال الفرنسي منذ السنة ١٨٩٥م. وحصلت على الاستقلال سنة ١٩٦٠م. قُسمت أرضُها أثناءه بين دُول (ساحل العاج) و (النيجر) و (السودان). ليُعاد تشكيلها سنة ١٩٥٧م.

كان اسمها في الماضي (جمهورية فولتا العُليا). وفي الرابع من شهر تموز / يوليو سنة ١٩٨٤م بدّل الرئيس توماس سانكارا اسمها إلى (بوركينا فاسو)، الذي يعني باللغة المحلّيّة: بلد الناس الطيبين. وبعد سلسلةٍ من الفوضى العسكريّة أُعلنت سنة ١٩٩١م دولةٌ دستوريّةٌ باسم (جمهوريّة بوركينافاسو).

(٢) الإسلام في بوركينافاسو



دخلها الإسلام عن طريق التجار المسلمين، القادمين بعضهم من مملكة الهوسا التي انتقلت إلى بعض مناطق (الفولتا). قصدوها في طلب الذهب من مناجمها والنّقولات وثمار الكولا والملح الصّخري. فاستقرّوا بعدُ في المُدُن (بوبو) و (ديولاسو) و (كونغ) و (بودونكو)، كما في غيرهامن المُدُن القريبة من مناجم الذهب. ومع الوقت استقر بعضهم، وتزوّجوا من النساء المحلّيّات وأنجبوا منهن. وهكذا نشات اجيالٌ خُلاسيّة، من أبٍ مسلم وأُمٍّ فولتيّة. امتزجت بالمجتمع المحلّيّ. وهكذا نشأت جاليةٌ إسلاميّةٌ، مضت تنمو بالتكاثر الطبيعي وبمَن ينضمُّ إلى دينها من غيرهم.

وبناءً على إحصائيّةٍ نظّمتها (الإدارة الوطنيّة للإحصائيّات والمؤشرات السُكانيّة) في العاصمة سنة ١٩٩١م، كانت نسبة المسلمين إلى مجموع السكان ٥٢٪. والباقون بين مسيحيين ووثنيين. لكن في آخر إحصاءٍ جرى بعد سبع سنين، استعداداً لانتخاب رئيس في السنة التالية، تبيّن أن نسبة المسلمين ارتفعت إلى ٦٥٪.

(٣) الشيعة في بوركينافاسو

ما من إحصاءٍ ولا حتى تقدير لعددهم هناك. وأيضاً ما من كلامٍ يقول مباشرةً أو بالتّضمُّن كيف دخل التشيّع إليها. ومن شبه الثابت أنّ شأن (بوركينا فاسو) المذهبي كان شأن بلدان الشمال والغرب الأفريقي: أغلبيّةٌ مالكيّة مع انتشارٍ مُوازٍ للطريقتيَن الصوفيتيَن القادريّة والتيجانيّة. إلى جانب نشاطٍ دعويّ وهّابيّ،



وغيابٍ تامٍّ للشيعة. بدليل أنّ تقريراً ضافياً كتبه المسؤول عن موقع (مداد) الوهّابي بُعيد السنة ٢٠٠٠م، يصفُ فيه كاتبهُ الأوضاع الدينيّة في (بوركينا)، وأنشطة ومؤسسات قومه، لم يأتِ إطلاقاً على ذكر الشيعة فيها. باستثناء إشارة سريعة إلى أنّ الشيعة قد «فتحوا مكتباً في العاصمة وفي المدينة الثانية منذ ثلاث سنوات». ولو كان لهم أدنى فعلٍ هناك، لأصمّ أسماعنا بصنوف السُباب والشتائم والبهتان، ولشكى مُرَّ الشكوى من اعتدائهم واستباحتهم حريمه. لكنّنا رأينا أنّ شكواه الوحيدة هي من تقاعُس مَن بيدهم المال عن إمداده، وعن أعمال المُبشرين المسيحيين.

فهذا دليلٌ بيّنٌ لاريب فيه على أنّ كلّ مَن سنذكره من مُستبصرين ومؤسساتٍ ودُعاةٍ شيعة إنّما حصل بعد ذلك التاريخ. أو أنّه على الأقلّ كان في ذلك الأوان في طور الولادة، لم يبِنْ له أثرٌ بعد.

والظاهر أنّ ما يُشبه أو ما هو من تباشير نهضةٍ شيعيّةٍ في هذا البلد قد حصل أيدي مُستبصرين من أبنائه. ودائماً على قاعدةٍ من ميلٍ كامن للتشيّع، اختزنته الطريقتان الصوفيّتان.

أحدهم علي تراوري، الذي كتب سيرته الذّاتيّة. وفيها أنّه بعد أن اجتاز مراحل الدراسة حتى نهاية الثانويّ، انتسب إلى كليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة في جامعة (قَطَر)، ليتخرّج منها عام ١٩٩٠م حاملاً شهادة الليسانس. تفرّغ بعدها للدعوة الوهابيّة في بلاده. وشغل مناصب رفيعةً في هيآتها. وأنّه كان يحملُ فكرةً عنيفةً جدّاً ضدَّ الشيعة. إلى حدّ رفضه ردَّ السلام على زملائه في الجامعة منهم، إلى ما هنالك. كما كان في الأثناء يتمتّع بوضع معيشيٍّ واجتماعيٍّ ممتاز.

بدأت رحلته باتجاه الاستبصار بعد أن قرأ عدداً من كُتُب علماء الشيعة والذين سبقوه إلى الاستبصار منهم. إلى أن انتهى به السعي إلى إعلان اعتناق التشيّع. وما أن فعل حتى اتُّهم بالكفر وبإرادة فتنة المسلمين وهجره أصدقاؤه. كما فُصل من كافة مناصبه، وحُرم من كلّ ما كان ينعم به من معيشةٍ راضية.

على الأثر بدأ، بالتعاون مع بعض إخوانه، حركةً شيعيّةً نشيطةً في بلده (بوبوجولاسو). أدّت إلى انتشار مذهب أهل البيت عليهم السلام انتشاراً سريعاً في المدينة ومحيطها. من ضمنها تأسيس حوزة دينيّة لتخريج الدُّعاة المؤهّلين. سنأتي على ذكرها بعد قليل.

ثانيهم حسن كوني لاسينا، الذي بدأ بداية صاحبه في الدراسة، وتأثّر بعُمق بنمط التفكير الوهابي. إلى ان انتهى مثله أيضاً صاحبَ مكانةٍ دينيّةٍ واجتماعيّةٍ رفيعة. لكنّه يحملُ أسئلةً مُقلقةً عن المسألة المذهبيّة في الإسلام. وأنّه سعى إلى الحصول على أجوبةٍ عنها. خصوصاً مَن هم الشيعة؟ ربما لأنّه شبّ في منطقةٍ يحمل أبناؤها حُباً خالصاً لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكان من قوله أنّ حبّهم بين أهلها أنّهم «حتى الصبيّ يقول إذا عمل عملاً ما، اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمد».

في سبيل الحصول على جوابٍ عن أسئلته المقلقة، راسل مؤسساتٍ شيعيّة. كما زار السفارة الإيرانيّة في العاصمة سائلاً مستوضحاً. وقرأ عدداً من الكُتُب ذات العلاقة بحلّ أزمته. وبالنتيجة أعلن هو أيضاً اعتناق التشيّع. وكان إلى ما قبل بضع سنوات مُنصرفاً إلى التّزوّد بالمزيد من المعرفة بالمذهب، إلى جانب العمل في مجال التبليغ في محيطه بالعاصمة (واغادوغو).

نذكرُ أيضاً، إلى جنب ذينك الرّائديَن البارزيَن، عدداً من العاملين في مجال التبليغ الشيعي في (بوركينافاسو)، وإن كنّا لا نملك معلوماتٍ كافية عن سيرتهم، وخصوصاً عن مواصفات استبصارهم.

منهم: بدر علي تراوري، الذي يبدو أنه ابن الرائد الأوّل ذكراً الشيخ علي تراوري. والشيخ أحمد ناصر الدين تاو، وعيسى ترتغدي، وحسن سنكري. وسنأتي على ذكرهم بالتفصيل الممكن في الفقرة التالية، بوصفهم رؤساء مؤسسات شيعيّة عاملة في أنحاء (بوركينا فاسو). ثم الشيخ يعقوب سانا، والشيخ عيسى كندو، الذي وصفته إحدى التقريرات بـ «زعيم أتباع أهل البيت في البلاد»، ويحيى تراوري، الذي زار (كربلا) مُشاركاً في فعاليات مهرجان (ربيع الشهادة الثقافي العالمي الثالث عشر).

(٤) المؤسسات الشيعيّة في بوركينافاسو

سنذكر أولاً ماوصل إليه علمُنا عنها. مع الإشارة إلى أن معلوماتنا عنها ترقى إلى السنوات الأُولى من العقد الميلادي الثاني. الأمر الذي يترك البحث مفتوحاً على ما جدّ منها أو عليها بعد هذا التاريخ.

١. مؤسسة الإمام الحسن عليه السلام. في مدينة (بوبوجو لاسو). بإدارة الشيخ بدرعلي تراوري. وهي تضمّ حوزةً دينيّةً، وتهتمّ بإحياء المناسبات والشعائر الدينيّة.

٢. مدرسة الإمام الحسن المُجتبى عليه السلام. بمدينة (واهبغويا). بإدارة الشيخ أحمد ناصر الدين تاو. وهي تهتمّ بنشر مذهب أهل البيت عليهم السلام، وبإحياء المناسبات والشعائر.

٣. مدرسة منهاج الهدى. في مدينة (غارنغو). بإدارة الشيخ حسن سنكري.

٤. جمعية أهل البيت عليهم السلام. في مدينة (غارنغو) أيضاً. بإدارة الشيخ عيسى ترتغدي.

ثم أثناء تحرير تلك المعلومات وصلتنا رسالةٌ من الشيخ محمد تاو، رئيس (المجلس الأعلى لأهل البيت عليهم السلام) في (بوركينا فاسو). الذي يضم كافة الشخصيات العلمائية والثقافية والجمعيات والمؤسسات الشيعية هناك. وهو ممن درسوا في الحوزة العلميّة للسيد محمد حسين فضل الله (رض) في (بيروت). يؤخذ منها أنه في العام ٢٠١٠ م، أسّس ويُدير مدرسة في منطقة عمله، تضمّ كافة المراحل الدراسية، من الروضات حتى الثانوية. مجموع تلاميذها ٤٥٠. بالإضافة إلى أن للمجلس الذي يترأسه نشاطات اجتماعيّة وصحيّة ودراسيّة وتبليغيّة واسعة.

نخلصُ من مُجمل السّرد إلى أن الشيعة في (بوركينافاسو) ينتشرون في العاصمة (واغادوغو) وفي (بوبوجولاسو) و (غارنغو) و (واهبغويا). وأن التشيّع هناك ظاهرةٌ ناميةٌ، مثلما هو في عموم (أفريقا).

نقول في ختام الفصل، إنّنا وقفنا في أبوابه العشرة على الدُّول التي سجّل فيها التشيّع قاعدةً شعبيّةً فاعلة، ولها علماؤها الدينيّون ومؤسساتها العاملة.

أمّا في (ليسوتو) و (سوازيلاند) و (سيشل) و (الكاميرون) و (النيجر) و (الرأس الاخضر) و (توغو)

و (بنين) فإن أعداد الشيعة فيها ضئيلة، ومؤسساتهم معدومة، باستثناء (توغو) التي يوجد فيها مؤسسة شيعيّة وحيدة. و (الكاميرون) حيث يوجد (معهد آل البيت)، الذي أُنشئ سنة ١٩٩٢م.

على أنّهم لا تخلو منهم دولةٌ من دُول (أفريقيا). والمستقبل مفتوحٌ على آمالٍ عريضة. ظهيرُها قاعدةٌ عريضة من مسلميها الأصيلين، مسكونةٌ تاريخيّاً بحب وولاء أهل البيت عليهم السلام. إلى جانب جاذبيّة الأُطروحة الشيعيّة، وماتحظى به من ملائمةٍ للفطرة التي فطر اللهُ تعالى الناسَ عليها. خصوصاً حيث تُقارَن بالتوحّش الوهابي، الذي كان يطرح نفسه زاعماً أنه الصورة الصحيحة للإسلام.

ولعلّ من أعظم العِبَر، التي يستخرجها المتأمّلُ العارفُ من كل ما قد سردناه تحت عنوان (الشيّعة في أفريقيا)، أنّ الدعوة الوهابيّة التي أُنفق عليها مليارات الدولارات في أقطار (أفريقيا)، لم تخلُ من فائدةٍ غير مقصودةٍ طبعاً لإقبال الناس على التشيّع. من حيث أنّها قدّمت لهم فرصةً كانت معدومة للمُقارنة بين فكرهم العنيف السّطحي المُنفصل عن كلّ ما يؤدّي إلى التقدّم. في مقابل الفكر الشيعي المُسالم والغنيّ والإنساني.

ولله أمرٌ هو بالغه.

الفصل الرابع

أفريقيا الشرقيّة

الباب الأول: كينيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية كينيا). دولةٌ في شرق (أفريقيا)، عاصمتها (نيروبي)، ومن مُدُنها الكبرى (مومباسا). مساحتها٣٦٧،٥٨٠كم٢. عدد سكانها زهاء ٣٣ مليوناً. بين ١٠ و١٢٪ منهم مسلمون. والباقون ٦٥٪ مسيحيّون، و٢٥٪ يدينون بالديانات الأفريقيّة الأحيائيّة.

احتلتها (بريطانيا) سنة ١٨٨٨م عقب معاهدةٍ مع (ألمانيا)، قضت باقتسامهما شرق (أفريقيا)، بحيث تكون (كينيا) والقسم الأكبر من (الصومال) من نصيب (بريطانيا). وبقيت تحت الاحتلال حتى السنة ١٩٦٣م. وبعد سنة من استقلالها أُعلنت جمهوريّة.

(٢) الإسلام في كينيا

الإسلام في (كينيا) عريقٌ بفضل قُربها من السواحل الغربيّة لـ (شبه الجزيرة العربيّة). توالت الهجرات العربيّة إليها منذ العقد الأخير من القرن الأوّل للهجرة. منها هجرةٌ من (عُمان)، انتهت إلى ظهور إمارةٍ إسلاميّةٍ في منطقة بجوار موقع مدينة (ممباسا) اليوم. إلى هجراتٍ متواليةٍ خرجت من مدينة (شيراز)، أسّست عدداً من المُدُن الساحليّة.

بهذه الهجرات غدا المسلمون، المنتشرون على طول الساحل الشرقي لـ(أفريقيا)، خليطاً عرقيّاً عجيباً من

الأفارقة والعرب والشيرازيين، اكتسبوا من موقعهم على الساحل اسماً جامعاً هو (السّواحليّون). كما أنتج خليطهم لغةً جديدةً، سُمّيت هي الأُخرى اسماً مُنتَزَعاً من موقعهم: (السّواحيليّة). ما تزال اللغة الجامعة لشعوب ربوع (أفريقيا).

انتشارالإسلام باتجاه الداخل الأفريقي حصل بموازاة انتشار اللغة الجديدة. ومن هنا نعرف أنّ جزءاً على الأقلّ من انتشار الاسلام في عموم (أفريقيا)، يرجع الفضلُ فيه إلى الهجرات المُتعدّدة، التي ذكرنا بعضها، من السواحل الغربيّة الأسيويّة المُسلمة إلى السواحل الشرقيّة الأفريقيّة الوثنيّة. ومن هذه حملته حركة التجارة المُزدهرة بين الساحل والداخل.

هذا السّرد يُلخّص لنا الجزء الأساسي من حركة انتشار الإسلام في كلّ شرق (أفريقيا)، وليس في (كينيا) فقط، حتى أوائل القرن ١٦م.

ذلك أنّه بذلك التاريخ حصل أوّلُ اتصالٍ بين شرق (أفريقيا) وبين الغرب. وبذلك نشأت ظاهرةُ الاستعمار، الذي أنزل بكلّ (أفريقيا) أفدح عمليّة نهبٍ وتدمير في التاريخ. نالت البشر والثروة معاً، بحيث أحبط بنشوئه واستمراره أدنى إمكانيّة للتقدم.

البرتغاليّون، بعد أن اكتشفوا الطريق البحري الذي سمّوه (رأس الرجاء الصالح)، شنّوا حرباً مُدمّرةً دامت قرنين على كلّ الإمارات الإسلاميّة في الساحل. إلى أن نهضت دولة آل بوسعيد الإسلاميّة العُمانيّة، التي امتدّ نفوذها من (زنجبار) إلى داخل شرق (أفريقيا) خلف انتشار الإسلام. فطردت البرتغاليين من (أفريقيا) نهائيّاً في أواسط القرن١٧م.



ما بين هذا التاريخ وبين السنة ١٨٨٨م، التي قلنا آنفاً أنّها تاريخ الاحتلال البريطاني لـ(كينيا)، أي أثناء قرنين وثُلث القرن، استعاد الإسلامُ في شرق (أفريقيا) انفاسه، وتابع انتشاره بين الوثنيين في الداخل. إلى أن جاءت البعثات التبشيريّة المسيحيّة المدعومة بقوّة من البريطانيين، فعملت على تنصير الوثنيين. وعن هذا الطريق باتت المسيحيّة الدين الأكثر عدداً فيها. وما تزال الحملات التبشيريّة تؤدّي عملها، بما تملك من مؤسسات قويّة متمرّسة بالعمل التبشيري.

(٣) الشيعة في كينيا

ما دمنا قد عرفنا أن الإسلام قد دخل شرق (أفريقيا) على موجات الهجرة من مسلمين عربٍ وفُرس إليها، فإن علينا أن نتساءل بادي البحث هل كان بينهم أحدٌ من الشيعة؟

ثمة احتمال في أن تكون هجرةً مُبكّرةً منها، يُقالُ أنّها خرجت من (العراق) فراراً من مظالم الحجّاج، والتجأت إلى المنطقة التي ستحمل بعدُ اسم (كينيا)، كانت من الشيعة. يُعزّز الاحتمال أنّ (العراق) كان في

ذلك الأوان يضمّ الحاضنة الأُولى للشيعة في دار الإسلام، وأنّ عداء الحجّاج وداعي الفرار كان مُوجّهاً إليهم أكثر ما يكون.

واحتمالٌ ثانٍ في أن تكون الهجرات الشيرازيّة المُتوالية إلى المنطقة نفسها كانت أو كان بعضها من الشيعة. لأن مدينة (شيراز) كانت في ذلك الأوان من المراكز الشيعيّة جُزئيّاً في (إيران).

لكنّ مايجعل ذينك الاحتمالين غير ذوي جدوى للبحث، أنّنا لسنا نجدُ لهما أدنى أثرٍ ممّا قد يبقى برغم عوادي الزمان. فإمّا أن يكون أُولئك المهاجرون جميعاً من غير الشيعة. وإمّا أنهم ذابوا ضمن الأكثريّة غير الشيعيّة (شافعيّةً في مبدئها، ثم مالكيّة مع الحركة السُكانيّة الأخيرة القادمة من الصومال).

الهجرة الشيعيّة المُحقَّقَة إلى (كينيا) وغيرها من بلدان شرق (أفريقيا)، هي التي صنعها المعروفون باسم (الخوجة) قبل زُهاء قرنٍ ونصف.

و (الخوجةُ) طائفةٌ من الشيعة الإماميّة أُصولها هنديّة، عُرفت بالثروة، وبالمهارة الفائقة في الأعمال التجاريّة، وبنَظْم أمرهم، وبأنهم لايصدرون في أُمورهم الجامعة إلا عن شُورى مُلزِمَة. وهم اليوم موزّعون في وطنهم الأوّل (الهند) وفي (بريطانيا) و (الولايات المتحدة) و (كندا) وشرق (أفريقيا). وهم يمتازون بأنهم لايعملون لدى غيرهم. ولهم حيثما حلّوا مؤسساتهم التعليميّة الأُولى، التي تبدأ بتحفيظ أولادهم القرآن وبالتفقّه بأحكام الدين، ولهم حيثما حلّوا مساجدهم وحسينيّاتهم وأوقافهم برسم الصّرف من ريعها على مؤسّساتهم. بالإضافة إلى مؤسساتهم الصحيّة والرّعويّة لأيتامهم وشيوخهم. كلّها مضمونةٌ لأفرادهم دون مُقابل.

ما أن حلّ عديدُ الخوجة الكثيف القادم من (الهند) في أرض (كينيا)، حتى شرعوا في إشادة مساجدهم ومؤسساتهم على جاري عادتهم.

وعليه فيُمكن القول أنّهم أوّلُ وجودٍ شيعيٍّ عرفته (كينيا) وأنّ مؤسّساتهم هي أوّلُ مؤسّساتٍ شيعيّةٍ فيها. على أنّنا لانعرفُ لهذه الطائفة نشاطاً مقصوداً يعمل على نشْر مذهبهم، إلا ما قد يحصلُ عفواً بالقدوة الحسنة، خصوصاً بين الذين يعملون لهم في أعمالهم الواسعة من المواطنين، أو بين الذين يقصدون مساجدهم وحسينياتهم منهم. وقد كان لذلك أثره الطيّب دون ريب، بشهادة ما نقرأه في التقارير الوهابيّة، وما تتضمنه من ضيقٍ شديدٍ بحضور (الخوجة)، بوصفهم الذين بزعمهم هم الذين نشروا التشيّع في أنحاء (كينيا).

العملُ الجادّ في افتتاح ورعاية الدعوة إلى التشيّع في ذلك القطر، على قاعدةٍ من العمل الإرشادي ـ النهضوي ـ المؤسّسي، مرفوعُ اللواء لعالم دينٍ لبنانيّ مُتواضعٍ نتشرّف بصداقته هو السيّد مرتضى مرتضى العاملي.

نزل السيّد مرتضى (نيروبي) بعد أن اكتفى من الدراسة في (قُمّ). فأسّس معهدين دينيّين لتهيئة المؤهّلين للتبليغ والإرشاد.

أوّل المعهدين في مدينة (نيروبي) العاصمة، أُسّس سنة ١٩٨٦م، هو (حوزة أمير المؤمنين عليه السلام)، احتوى في أحد أطواره على أربعةٍ وعشرين صفّاً دراسيّاً. ما يدلُّ على مالقيه من إقبال. ويُقال أنّه حتى ما قبل بضع

سنوات خرّج ما مجموعه ألفي طالب. ارتحل بعضهم إلى (إيران) أو (لبنان) أو (سوريا) لمُتابعة الدراسة في معاهدها قبل أن يرجعوا إلى بلدهم. وانتشر الباقون في القرى والبلدان للتبليغ أو في مختلف المؤسسات التي أُنشئت تباعاً.

والمعهد الثاني في مدينة (نكورو)، يبدو أنّه لم يكُن بمثل أهميّة وأثرحوزة (نيروبي). كما جرى إنشاء (مركز بلال)، ليكون المركز الرئيس لمُختلف الأنشطة التبليغيّة الشيعيّة في (كينيا). وفيه مطبعة، ومعهد للتدريب على الحاسوب، وقاعة للمؤتمرات، ومساكن للمُتدربين والعمال، ومدرسة كاملة المستويات حتى التخرّج من الثانويّة. وهو برئاسة السيّد مرتضى.

(٤) المؤسسات الشيعيّة في كينيا

بالإضافة إلى ما ذكرنا أعلاه، نسردُ أسماء ما وصل إلينا العلم به من مختلف المؤسّسات الشيعيّة فيها. مع الإشارة إلى أنّ معلوماتنا عنها موقوفةٌ عند خواتيم العقد الأوّل الميلادي.

في العاصمة (نيروبي):

- (المركز الثقافي لتدريس اللغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة). ويُوزّع عدّة مجلاّت شهريّة: (رسالة التقريب) و (التوحيد) و (رسالة الثقلين) و (الهُدى).
- (مدرسة الرسول الأكرم). من الروضة حتى الثانويّة، بالإضافة إلى مسجدٍ، ومعهدٍ لإعداد الدُّعاة يضمُّ قسماً داخليّاً.
- (مركز الرسول الأكرم) في حي (ناكورو) الفقير. والحيُّ من أهم مواطن الانتشار الشيعي. ويضمُّ المركز مدرسةً مُتكاملة حتى الثانويّة ومسجداً ومعهداً لإعداد المُبلغين وقسماً داخليّاً.
- مركزٌ يضمُّ مسجداً ومدرسةً في حي (رونده) الفقير.
- (مدرسة الإمام جعفر).
- (النادي الجعفري) في حيٍّ راقٍ من أحياء العاصمة.

في مختلف المُدن الكينيّة:

- (مسجد الصّفا) في مدينة (لامو). وهو من أكبر المساجد في (كينيا). كان مسجداً صغيراً، فهُدم ثم أُعيد بناؤه من جديد، على نفقة المُحسن الكويتي الشهير الحاج عبد الحسين بهمن يرحمه الله. فغدا «قِبلةً للشيعة» على حدّ عبارةٍ وردت في تقريرٍ وهابيّ. ممّا يدلّ على تأثيره الواسع في هذه المدينة العريقة

ذات التاريخ المجيد وحولها. «ولذلك فإنّ النشاط الشيعيّ بدأ منها». أيضاً على حدّ عبارةٍ وردت في التقرير نفسه.

- (مدرسة الصفاء) في المدينة نفسها. تضمّ كافة المراحل الدراسيّة من الابتدائيّة حتى الجامعيّة.
- (صندوق دعم الرُّسوم المدرسيّة). في مدينة (لامو) أيضاً. وهو تدبيرٌ ذكيٌّ يُكملُ سابقَه، بأن يُتيح للفقراء تسديد الرسوم المدرسيّة على حساب الصندوق بالاشتراك فيه بمبلغٍ ماليّ رمزيّ.
- (جمعيّة آل البيت). في (لامو). تُشرفُ على مسجد ومدرسة الصفاء. والجمعيّةُ مدعومةٌ ماليّاً من رجال أعمال كويتيين ولبنانيين.
- مدرسةٌ ثانويّةٌ في مدينة (ممباسا) السّاحليّة. منهجها مَبنيٌّ على الجَمْع بين المنهج الدراسي الرسمي ومادةٍ جيّدةٍ من العلوم الشرعيّة الشيعيّة.
- مدرسة ابتدائيّة في مدينة (ماتندوني).
- مركزٌ مُتكاملٌ في مدينة (فارسين).
- مركزٌ في مدينة (مالندي) يضمُّ مدرسةً ابتدائيّةً ومسجداً ومكتبةً عامّةً.
- مركزٌ في مدينة (ماثوفا) يهتمّ بإعداد الدُّعاة وطلبة العلم القادمين من مناطق (كينيا). يضمّ قسماً داخليّاً لإسكانهم.
- مسجدٌ ومدرسةٌ ابتدائيّةٌ في مدينة (شيموني).

هذا، إلى عددٍ كبيرٍ من المساجد الصغيرة في القُرى النائية والأرياف. بالإضافة إلى عددٍ مُماثل من المستوصفات الصحيّة، التي تُقدّم العلاج والرعاية الصحّيّة للفقراء. وهي توجد غالباً إلى جنب أوحيثما يكون مركزٌ أومدرسةٌ أو مسجد.

(٥) شخصيّاتٌ شيعيّة بارزةٌ في كينيا

- الشيخ عبد الله ناصر. كان من أعرف علماء الدين المَرعيّين من الدعوة الوهابيّة، لكنّه استبصر وبات «من أهمّ الشخصيّات الشيعيّة» على حدّ عبارة تقريرٍ وهابيّ. وابنه محمد جعفر «أكبرُ مُموّلٍ لهم (للشيعة) عن طريق شركته غرين بلاك» Green blaak.
- مزي منبي بن الشيخ أحمد البدوي. كان من كبار شيوخ الصوفيّة في (كينيا) ثم استبصر.
- حسين البيتي. رئيس بلديّة (لامو).

ـ عدّة شخصيّات من أبناء أُسرة عيدروس، الأُسرة الوحيدة ذات النسب العلوي الشريف في (كينيا).

ـ حسين بيضون. رجل أعمال لبناني من مدينة (بنت جبيل) العامليّة.

(٦) انتشار الشيعة في كينيا

اليوم ينتشر الشيعة في (كينيا) في العاصمة (نيروبي) وفي مدينة (ممباسا) الساحليّة، ومُدُن (لامو) و (فارسين) و (مالندي) و (ماثوفا). إلى وُجودٍ أقلّ في مختلف البلدان الكينيّة.

ما من إحصاءٍ أو تقديرٍ لعددهم فيها. وكلّ ما يُقال هنا وهناك إنّما يرجع إلى تقديراتٍ ارتجاليّة، مبنيّة على ملاحظات محدودة مكانيّاً وزمانيّاً.

لكنّ من المؤكّد أنّ التشيّع بات اليوم ظاهرةً بارزةً ناميةً باضطراد في أنحاء (كينيا). على الرغم من المُعارضة الشّرسة، المُفتقرة إلى العلم والذكاء والإخلاص في العمل من الجهات الوهابيّة. ومن الأُخرى المسيحيّة، المدعومة بقوّة من أربابها المحلّيين والغربيين، إلى درجة أن قيل إن (كينيا) هي ابنة الفاتيكان المُدلّلَة.

والمُستقبل وحده هو الذي سيكشف مُستقرَّ الأُمور.



الباب الثاني: تنزانيا (ومنها زنجبار)

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهوريّة تنزانيا المُتحدة). دولة حديثة التكوين سياسيّاً بهذا الاسم من كيانين سابقين هما (تنجايقا) وجزيرة (زنجبار) مُقابل الساحل الشرقي في المُحيط الهندي. واسمها منحوتٌ من اسميهما. مساحتها ٩٤٥٠٠٠ كم٢. عاصمتها (دار السلام). قُدّر عدد سكانها سنة ٢٠٠٩م بحوالي أربعة وأربعين مليوناً. اللغة الرسميّة فيها الانكليزيّة ، بينما السواحيليّة هي لغة الناس اليوميّة. أكثر سكانها من أصولٍ أفريقيّة، مع جالياتٍ عربيّة (عُمانيّة ولبنانيّة)، وأسيويّة هنديّة وإيرانيّة (شيرازيّة وشوشتريّة).

خضعت (تنجانيقا) مدّةً قصيرةُ لاستعمارٍ ألمانيّ. فيما كانت (زنجبار) تحت الاستعمار البريطاني، بعد أن كانت لمُدّة قرون تابعة للدولة البوسعيديّة من مركزها في (عُمان). بعد أن قضت هذه نهائيّاً على الاستعمار البرتغالي، وبسطت نفوذها على الساحل الشرقي لـ(أفريقيا). حيث كان نفوذ سلاطين(عُمان) يمتدّ إلى (ممباسا) و (مقديشو) و (أسمرة)، وصولاً إلى بعض مُدُن وسط (أفريقيا). وفي أوّل السنة ١٩٦٤م انتهت

السلطنة البوسعيديّة على يد الأفارقة نهايةً عنيفةً في (زنجبار). وكان آخر سلاطينهم فيها جمشيد بن عبد الله بوسعيد. وعلى الأثر أُعلنت الدولة الاتحاديّة، باسم (تنزانيا الاتحاديّة).

(٢) الإسلام في تنزانيا

ما من ريبٍ في أنّ الاسلام عريقٌ جدّاً فيها، وخصوصاً في (زنجبار). التي كانت حاضرةً لبني سعيد، بالإضافة إلى (عُمان). وهم الذين نشروا الإسلام في نطاق سُلطتهم، بعد أن قضوا على الاستعمار البرتغالي.

اليوم تبلغ نسبةُ المسلمين فيها إلى مجموع السكان ٧٠٪. لكنّ نسبتهم ترتفع كثيراً في المراكز الحضاريّة. فتبلغ ٩٠ ٪ في العاصمة (دار السلام). وكذلك في مدينة (كلو) التاريخيّة، التي أنشأها المسلمون في القرن ٤ هـ / ١٠م وزينوها بالمساجد والمدارس.

الأكثريّة المُسلمة تنتشر اليوم في المناطق السّاحليّة. بينما الباقون، من مسيحيين والذين يتبعون أحد الأديان الأفريقيّة الوثنيّة، ينتشرون أكثر في الداخل. باستثناء جيبٍ داخليٍّ ذي أكثريّة إسلاميّةٍ في ولاية (طابورة) الدّاخليّة. والمسلمون إجمالاً من أكثريّةٍ شافعيّة، إلى وُجودٍ متفاوتٍ من مذاهب أُخرى. مع حضورٍ قويٍّ للطريقتين الصوفيّتيَن التيجانيّة والقادريّة، وأقلّ للشّاذليّة.

نُلاحظ هنا أنّ المذهب الإباضي بات معدوماً اليوم في (زنجبار)، بل في كامل (تنزانيا). مع أنّه كان مذهب دولتهم البوسعيديّة التي حكمت المنطقة طويلاً جدّاً. وما ذلك إلا لأنهم، وبالأحرى الذين بقوا منهم بعد المذبحة، انسحبوا جماعيّاً إلى (عُمان) على أثر الانهيار العنيف والدّموي لدولتهم في (زنجبار).

(٣) الشيعة في تنزانيا

الوجود المُحقّقَ للشيعة فيها هي هجرة (الخوجة) قبل زُهاء قرنٍ ونصف من الزمان إلى ماكان في ذلك الأوان (تنجانيقا) و (زنجبار)، قبل اتحادهما وتشكيل (تنزانيا).

والحقيقة أنّ هجرتهم هذه ما هي إلا جزءٌ من هجرتهم إلى عموم (أفريقيا) الشرقية. وقد وقفنا في الباب السابق على هذه الطائفة، وقلنا مايحسُن بنا قوله على مواصفاتها، وعلى أسلوبها الفائق في العمل بمختلف وجوهه، إنْ لأنفسهم، وإن لدينهم. وأنّهم حيثما حلّوا يُشكّلون مجتمعاتٍ مستقلّةٍ بشؤونها. وليس على القارئ الطُّلعة إلا أن يرجع إلى ما قلناه هناك.

بل إنّ الظاهر أن الجزء الأوفر منهم هم الذين نزلوا العاصمة (دار السلام)، حيث المركز الرئيس لهم، وفيها جرى ويجري نظْم أمرهم في عموم المنطقة. ومدينة (عروشا) التي باتت بفضلهم أحد معاقل الشيعة الإماميّة الكبرى في (تنزانيا) بعد أن زيّنوها بالمؤسسات العاملة على إنتاج المُبلّغين وعلى إحياء الشعائر والمناسبات.

وقيل أن عددهم في أنحاء (تنزانيا) لا يقلُّ عن الاثنى عشر ألفاً. إليهم يعود الفضل في إنشاء ورعاية عامّة المراكز والمؤسسات التي سنأتي على ذكرها.

(٤) المراكز والمؤسسات الشيعيّة في تنزانيا

- مركز للخوجة في مدينة (عروشا)، هو الأكبر من نوعه في عموم شرق (أفريقيا). يضمّ حوزةً دينيّة لإعداد المُبلّغين (حوزة وليّ العصر)، ومؤسسة تعليميّة تختصّ بتنظيم حلقاتٍ دراسيّة للرّاغبين في القرآن ونهج البلاغة، وأيضاً بتنظيم الاحتفالات بمواليد ووفيات الأئمة عليهم السلام، وإطلاق برامج توعية دينيّة. والمركز كان سنة ٢٠٠٦م بإدارة محمد رضا بيار علي.
- عددٌ كبيرٌ من الحسينيّات في (زنجبار)، قيل أنّ عددها أربع عشرة. منها (حسينية المأتم) التي تُعتبر أوّل حسينيّة فيها، يرجع تاريخ بنائها إلى ماقبل مائةٍ وأربعين سنة.
- (حوزة الإمام القائم). في مدينة (تنغا) الساحليّة. وهي تتقبّل وترعى الرّاغبين في إعداد أنفسهم ليكونوا مُبلّغين عاملين. ولها إنجازاتٌ سبّاقة ممتازةٌ في هذا المجال.
- (مؤسسة العترة الطاهرة). في مدينة (عروشا). وهي تتبع مركز الخوجة الرئيس في المدينة. وتهتمّ بنشر الكُتُب الشيعيّة بعد ترجمتها إلى إحدى اللغتين الانكليزيّة أو السواحيليّة. كما تُصدر مجلة (لايت) Light بالانكليزيّة، ومجلة (صوت بلال) بالسواحيليّة. ولهذه المؤسسة دورٌ بارزٌ في نشر الفكر والعقيدة الشيعيّة الإماميّة في أنحاء (تنزانيا).
- عددٌ كبيرٌ من المساجد. أكبرها وأعمرها مسجد الخوجة في العاصمة (دار السلام). ومسجد جمعيّتهم في (عروشا). ومسجد (كيوندا) في (زنجبار). إلى مساجد تفوق الإحصاء حيثما وُجد شيعي في البلاد.
- مدرسة أهل البيت عليهم السلام.
- مدرسة السيّدة الزهراء عليها السلام. كلاهما في العاصمة.
- حوزتان، إحداهما في مدينة (يانكان)، والثانية في العاصمة (دار السلام). بلغ عدد الطلاب فيهما قبل زهاء العشر سنوات أربعمائة طالب. فضلاً عن الذين تخرّجوا منها من قبل، وأُرسل بعضهم لمتابعة الدراسة في (إيران) و (سوريا) و (لبنان).
- عدّة مراكز، نذكر منها: مركز السّيّد الخوئي، مركز بلال مسلم، مركز دار الهدى.
- واليوم يُقدّرُ عدد الشيعة في عموم (تنزانيا) بمليون شخص. أكثرهم في (دار السلام). وينتشرون بنِسَبٍ متفاوتة في (عروشا) و (تانكا) و (موانزا) و (ليندي) و (سونيكا) و جزيرة (زنجبار).



الباب الثالث: أوغندا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسمياً (جمهورية أُوغندا). دولةٌ داخليّةٌ لاحدود بحريّةً لها. عاصمتها (كمبالا). مساحتها ٩٣٠٠٠ كم٢. عدد سكانها خمسةٌ وعشرون مليوناً حسب آخر التقديرات. ينتمون إلى عددٍ كبيرٍ من القبائل. لكلّ قبيلةٍ منها لغتها وتقاليدها وعاداتها الخاصة بها. اللغة الانكليزية هي الرسميّة فيها. إلى جانب لغةٍ عاميّةٍ محلّيّةٍ اسمها (اللغنديّة). ومن ثَمّ تتعدّدُ اللغات في مُدُنها وقُراها بتعدُّد القبائل.

كانت (أُوغندا) محميّةً بريطانيّةً منذ السنة ١٨٩٤م إلى أن نالت الاستقلال سنة ١٩٦٢م. وعلى الأثر سُمّي إدوارد فريدريك ملكاً عليها ليس له من المُلك إلا الاسم، أمّا الفعل فهو للبريطانيين. وفي السنة ١٩٦٧م أطاحت به ثورةٌ شعبيّة أعلنتها جمهوريّة. لكنّ هذه لم تستمر إلا أربع سنوات، حيث الجنرال عيدي أمين قاد سنة ١٩٧١م انقلاباً عسكريّاً، ونصب نفسه رئيساً للجمهوريّة. ليحكم البلاد بعدها مدة ثماني سنوات حكماً ديكتاتوريّاً، تخلّلتها سلسلةٌ من حروب العصابات ضدّ نظامه، أدّت إلى تخلّيه في النهاية عن السُلطة. بعده نعُمت (أُوغندا) بحدٍّ مقبولٍ من الاستقرار السياسي.

(٢) الإسلام في أُوغندا

دخلها الإسلامُ مُبكّراً بدءاً من شمالها المُجاور لجنوب (السودان). حيث قامت علاقاتٌ إنسانيّة، تجاريّة في الغالب، على نحو ما تقوم بين بلدين مُتجاورين. ومن هذا الطريق دخلت إحدى القبائل الأُوغنديّة الإسلام. ومُذ ذاك بدأ ينتشر بين القبائل الأُوغنديّة. إلى أن جاء الاستعمار الغربي ومعه مؤسساته التبشيريّة ذات الخبرة الطويلة، والمدعومة بقوّةٍ من السُلطة الأجنبيّة الاستعماريّة. وبهذه الوسيلة انتشرت المسيحيّة سريعاً في (أُوغندا) بحيث باتت اليوم الدينَ الأكثرَ أتباعاً فيها، بعدهم عدداً المسلمون.

يبلغ عدد المسلمين فيها اليومَ زُهاء العشرة ملايين، أي ما نسبته ٤٠ ٪ من مجموع السكان. أكثرهم شافعيّة، كما في عموم شرق (أفريقيا). إلى جانب مذاهب أُخرى، منها الشيعة الإماميّة.

ومنذ ثمانينات القرن الميلاديّ الماضي نشُطت الجماعات السّلفيّة الوهابيّة فيها. فأنشأت المدارس وشادت المساجد والمؤسسات الصحيّة، وشحنتها بالدُّعاة. كما قدّمت التسهيلات للرّاغبين في الحجّ، والمِنَح الدراسيّة للراغبين بالالتحاق بالجامعات التابعة لها في (السعوديّة) و (مصر) وإمارات الخليج.

ومع ذلك فإنّ المُلاحَظَ أن المسلم الأُوغندي لم يتقبّل الفكر السّلفي بنُسخته الوهابيّة. بل حافظ على أحسن العلاقات بين أرباب مختلف المذاهب الإسلاميّة. ومن إماراتِ ذلك أنّ (أُوغندا) هي الدولة الأفريقيّة

الوحيدة التي عملت على تنظيم العلاقات بنحوٍ مُتكافئٍ بين كل المذاهب الإسلاميّة فيها. وفي هذا السبيل تمّ تأسيس (المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة في أُوغندا). ليضمّ جميع الهيئات والجمعيّات الإسلاميّة بمُختلف مذاهبها. ولهذا المجلس دستوره ولوائحه ونُظُمُهُ، التي تعملُ على تنظيم العلاقات بين المذاهب المُتمثّلة فيها. ومن الغنيّ عن البيان، أنّ هذا التدبير ينطوي على مُعارضةٍ صريحةٍ للسُلوك والنهج الوهابي المعروف. لكنّها ذكيّةٌ تجتنبُ استفزازاً لا ضرورة له. كما تنسجم مع طبيعة الشعب الأُوغندي الودود المُسالم، الذي أبى دائماً كافة أشكال العُنف في الفكر والسلوك.

(٣) الشيعة في أُوغندا

ثمة غير عاملٍ تآزر في انتشار الشيعة فيها.

- أوّلُها بات القارئ الذي رافقنا فيما فات من البحث على خُبْرٍ به. ألا وهو هجرة (الخوجة) إلى أنحاء شرق (أفريقيا)، ومنها ـ طبعاً ـ (أُوغندا). فقد دخلوها كما دخلوا غيرها. وأنشأوا التجارات وشادوا المساجد والحسينيّات والمؤسسات، على ديدنهم حيثما حلّوا. إلى أن أخرجهم عيدي أمين منها. فتفرّق القسم الأوفر منهم في أنحاء (أُوروبة) و (أميركا). ثم عاد قسمٌ منهم بعدُ إلى أملاكهم وأعمالهم في (أُوغندا) حيث ما يزالون. ومع ذلك فإنّ دورهم في تعزيز التشيّع في هذا البلد تاريخيّ باقٍ.
- ثانيها العمّال الأسيويّون الذين جيء بهم بأعدادٍ كبيرة للعمل في بناء السكّة الحديد المُمتدّة بين (ممباسا) و (أُوغندا). وكان بينهم أعدادٌ من الشيعة الإماميّة والإسماعيليين من شبه القارّة الهنديّة. استقرّ بعضهم نهائياً في (أُوغندا)، حيث باتوا من مواطنيها.
- ثالثها، وهو أكثرها أهميّةً لأنّه ذو صفةٍ فكريّة، النشاطُ الإيرانيّ في أنحاء (أُوغندا) العامل على تعريف الناس بالمذهب الشيعيّ الإمامي.

وأكثر المراكز والمؤسسات التي سنقفُ عليها فيما يلي هي من مُبادرة أو من صُنع الإيرانيين إنشاءً وإدارةً واستثماراً، ثم بالدرجة الثانية (الخوجة). ومع ذلك، أي مع العوامل المُتعدّدة القويّة لنشر التشيّع في أنحاء (أُوغندا)، فإنّنا لانجد إحصاءً لعديد الشيعة فيها. وتقولُ بعض المواقع الشيعيّة في الشبكة العالميّة، أنّهم يَعدّون هناك بمئات الأُلوف، ينتشرون في أغلب المُدُن الأُوغنديّة: (بونيا) و (أمبالي) و (جنجا) و (إيكانكا) و (فورتبورتل) و (سوروشي).

ومركزهم الأكبر هو في العاصمة (كمبالا). والشيعة هناك ينشطون في مجالاتٍ عدّيدة وهامّة. فهم يُنشؤون ويُديرون المراكز الثقافيّة الإسلاميّة، والمدارس (الحوزات) الدينيّة التي تُخرّج مئات الطلاب.وقد تخرّج منها بالفعل أعدادٌ غير قليلة. انصرف العشراتُ منهم إلى العمل التبليغي في القُرى والبلدان. وارتحل غيرهم لمُتابعة الدراسة في الحوزات العلميّة في (إيران) و (لبنان) و (سوريا).





(٤) المراكز الشيعيّة في أُوغندا

- **مركز أهل البيت الإسلامي الثقافي.** في (كمبالا). وكان لفترةٍ برئاسة عالم دينٍ أُوغنديٍّ جليل، هو الشيخ الدكتورعبد القادر موايا، إلى أن اغتيل يرحمه الله بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ٢٠١٤م على يد جماعةٍ تكفيريّة.

وممّا يجدر بنا ذكره، أنّه في تاريخٍ مُقاربٍ ارتكبت جماعةٌ تكفيريّةٌ أيضاً جريمة اغتيال الشيخ مصطفى باهيجا يرحمه الله، رئيس جماعة التبليغ والدعوة في (كمبالا). لرفضه كافة أشكال العُنف والقسوة فكريّاً وعملانيّاً، التي درج عليها أُولئك التكفيريّون.

- **مركز أهل البيت** عليهم السلام. في مدينة (جنجا)، المدينة الثانية في (أُوغندا) وحيث منبع نهر النيل.أُسّس سنة١٩٨٩م. شيد بمعونةٍ من أحد المؤمنين في (كينيا)، ابتغاء سدّ الفراغ الذي حصل بطرد عيدي أمين (الخوجة) من بلده سنة ١٩٧٢م. وهو يتضمّن عدداً من المؤسسات، هي:

أ. معهد لإعداد المُبلّغين. اسمه معهد أهل البيت الإسلامي. بدأ بتأهيل بعضهم للعمل المحلّي. كما أرسل منهم إلى (قُمّ) لمتابعة الدراسة.

ب . مدرسة ثانوية باسم ثانويّة الإمام جعفر الصادق. يتلقّى طلابها الدروس حسب المنهج الرّسمي في ثانويّةٍ حكوميّةٍ صباحاً. ثم بعد الظهر يدرسون المواد الدينيّة فيها.

ج. مدرسة ابتدائيّة باسم مدرسة الإمام الحسن عليه السلام.

د. مسجد أهل البيت عليهم السلام. في وسط المدينة.

هـ. معهد الدعوة والتبليغ. ابتغاء إعداد الدُّعاة للعمل التبليغي الفوري في القُرى والأرياف.

و . مكتبة عامّة باسم مكتبة أهل البيت عليهم السلام. وهي أوّل مكتبة من نوعها في (أُوغندا). تعمل على تزويد القارئ بالكتاب الإسلامي.

- **مؤسسة أهل البيت** عليهم السلام. في محافظة (إيغانغا). وهي مؤسّسة ضخمة. شيدت بتبرّعٍ سخيٍّ من أحد المؤمنين الكويتيين. وتضمُّ مدارس دينيّةً وأكاديميّةً ومسجداً ومستوصفاً وداراً للأيتام.

- **مؤسسة الإمام الحسين** عليه السلام. في مدينة (بغيري). وهي بإدارة الشيخ محمد مزمل مليندوا. وتهتمّ بنشر المعارف الإسلاميّة في منطقتها.

- **مقرّ جمعيّة الخوجة.** في (كمبالا). وهو يضمّ الذين رجعوا منهم إليها، بعد أن كان عيدي أمين قد أخرجهم منها ظُلماً وعُتُوّاً. وهو عبارةٌ عن مسجدٍ في أحد أطراف المدينة. يلتقون فيه لإقامة الفروض والشعائر الدينيّة.

يُضافُ إلى ذلك عشرات المساجد، التي شادها الشهيد الشيخ عبد القادر موايا يرحمه الله في أنحاء (أُوغندا)، وزوّدها بالأئمة والمرشدين. وما يزال ابنه الدكتور بونكو يُتابع رعاية إنجازات أبيه.

(٥) شخصيات شيعيّة بارزة في أُوغندا

١. **عبد الله موكر**. وُلد سنة ١٩٧٣م في مدينة (كامولي) ونشأ في بيئةٍ شافعيّة المذهب. وتخرّج من الجامعة في قسم الفلسفة. أعلن اعتناق التشيّع سنة ١٩٩٠م. وعمل في التدريس بمدرسة الإمام الحسن عليه السلام بمدينة (جنجا).

٢. **قاسم عبد السلام كتمبو**. وُلد سنة ١٩٧٣ في مدينة (جنجا) في وسطٍ شافعيّ. التحق بمعهد أهل البيت عليهم السلام للدراسة الإعداديّة سنة ١٩٨٩م. وحصل على دبلوم في اللغة الأُوغنديّة المحلّيّة. صنّف كتاب (هي الحقيقة) باللغة نفسها، عرض فيه تجربته الشخصيّة حتى الاستبصار، فأصاب الكتاب نجاحاً بين مواطنيه. شغل منصب المسؤول الثقافي في معهد أهل البيت عليهم السلام في (جنجا). صنف كتاب (الأربعون حديثاً للأطفال) بالعربيّة والأوغنديّة.

٣. **عبد الحكيم ساجد**. وُلد ١٩٧٥م في مدينة (سوروني) في أُسرةٍ شافعيّة. بعد أن حصل على الشهادة الثانويّة اتجه إلى تعليم الناشئة القرآن والعقيدة الإسلاميّة. استبصر على يد الشهيد الشيخ عبد القادر موايا يرحمه الله. واكتسب الثقافة المُلائمة في معهد اهل البيت عليهم السلام.

٤. **علي عبد الله حسن تبنكانا**. وُلد ١٩٧٦م. بعد أن اجتاز المرحلة الثانويّة درس لمُدة أربع سنوات في مدرسة بويا الشافعيّة. وعلى الأثر أعلن اعتناق التشيّع، وارتحل إلى (قُمّ) للدراسة. وهو واسع الثقافة. يُحسن، بالإضافة إلى عدّة لغاتٍ أفريقيّةٍ، اللغات العربيّة والسواحيليّة والانكليزيّة والفارسيّة.

٥. **محمد داود ماكاسا**. وُلد سنة ١٩٦٣م في مدينة (مينكو) بجوار العاصمة. ونشأ في أُسرةٍ شافعيّة.

بعد أن استبصر التحق بالحوزة العلميّة في (قُمّ). وما أن اكتفى من الدراسة فرجع إلى وطنه، حيث عمل مرشداً دينيّاً في (مركز أهل البيت الثقافي الإسلامي) في العاصمة (كمبالا). وهو يُجيد اللغات الأُوغنديّة والسواحيليّة والعربيّة والانكليزيّة والفارسيّة.

ومن حقّه علينا في هذا العمل أن نقول، إن أكثر معلوماتنا في هذا الباب مُستفادةٌ من كتاباته.

٦. **مُرشد يوسف مُسنا**. المعلومات عن سيرته ضئيلة. سوى أنّه وُلد في (أوغندا) سنة ١٩٧٥م. تلقّى دراسةً إسلاميةً في بلده. يؤمُّ المُصلّين في أحد المساجد.

٧. **يوسف برسرنجوجي**. وُلد عام ١٩٧٠ م في مدينة (كانكيسا). واصل دراسته الأكاديميّة فيها حتى أتمّ المرحلة الثانويّة. اتجه بعد ذلك إلى دراسة العلوم الدينيّة في أحد المعاهد المحلّيّة. ولي بعدها إمامة المُصلّين في منطقته.

٨. **الدكتور بونكو بن الشيخ عبد القادرموايا**. أبرز شخصيّة شيعيّة اجتماعيّاً في (أوغندة). بل هو أوّل مسؤولٍ شيعيّ من مستوى رفيع في شرق (أفريقيا) كلّه. ومن ذلك أنّه شغل منصب مُحافظ مدينة (بونيا) الأُوغنديّة، ومُمثّل رئيس الجمهوريّة في عموم (أفريقيا الشرقيّة).



الباب الرابع: جيبوتي

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهوريّة جيبوتي). دولة في شرق (أفريقيا)، وبالتحديد في منطقة ما يُسمّى القرن الأفريقي،نظراً لهندسته الجغرافيّة التي تُشبه قرن بعض الحيوانات، الذي تحتلُّ مكاناً ضيّقاً منه بين جاراتها الثلاثة: (أريتريا) (أثيوبيا) (الصومال). عاصمتها مدينة (جيبوتي). مساحتها ٢٣٢٠٠ كم٢. عدد سكانها زُهاء المليون نسمة. أكثرهم من أُصولٍ عربيّة بين عُمانيّة ويمانيّة. نسبةٌ عاليةٌ جدّاً من سكانها يعيشون تحت الخطّ العالمي للفقر، على الرغم ممّا هو معروفٌ أنّ أرضها تضمّ مخزوناً جيّداً من النفط والغاز ومعدن اليورانيوم. ولكنّ الجهات الأجنبيّة المُسيطرة لا مصلحة لها الآن في استثماره. رزحت في ماضيها القريب مدّةً طويلةً تحت الاستعمار الفرنسي، كانت تُسمّى أثناءها (الصومال الفرنسي).

(٢) الإسلام في جيبوتي

٩٥٪ من سكانها مسلمون، شافعيّة ومالكيّة. مع حضورٍ قويٍّ للطُرُق الصوفيّة. دخل الإسلام إليها مُبكّراً بفضل التُّجّار العرب، الذين استقرّ بعضهم فيها حيث ما يزالون. ولا أثر فيها للأديان الأفريقيّة. وفيها أقلّيّةٌ مسيحيّةٌ كاثوليكيّة. تنصّرت في الفترة الاستعماريّة، على يد المبشّرين المَرعيين من سُلُطات الاستعمار.

(٣) الشيعة في جيبوتي

يبدو أن الوجود الشيعيّ فيها هومن الأكثر حداثةً في شرق (أفريقيا)، إن لم نقُلْ في (أفريقيا) كلّها. وأنّ الفضل في كلّ ما سنعرفه، بما يخصّ الشيعة فيها، يعود حصراً للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، دون أن يكون له أساسٌ من قبل. إلا إذا نحن أخذنا بالاعتبار ما أشرنا إليه من طُرُقٍ صوفيّةٍ فيها، وما لها من خصوصيّة التّعلّق بأهل البيت عليهم السلام، بأعمق ممّا هو لدى غالبيّة المسلمين. الأمر الذي يُعطيهم أن يكونوا أقربَ إلى قبول الفكرة الشيعيّة.

ثم أنّ الذي يبدو لنا أيضاً، أنّ منشأ الاهتمام من رجال الجمهوريّة بشأن (جيبوتي) إجمالاً، هو موقعها البالغ الأهميّة على مضيق (باب المندب)، حيث الطريق البحريّ الذي يسلكه نفط المنطقة وهو يتجه إلى مختلف أنحاء الدنيا. وميناؤها البحري يتوسّط خطوط المِلاحة بين الشرق الاوسط وأفريقيا والمحيط الهندي. بالإضافة إلى مُحاولات اليهود الحثيثة على أن يكون لهم موطأ قدمٍ عليه. وسط عجز وسكوت الدول العربيّة والإسلاميّة، بل ورضى بعضها. وأن اهتمامهم بالعمل على تعريف الناس فيها بالشيعة والتشيّع إنما هو فرعٌ عن ذلك المطلب الأساس. ولن نُطيل الكلام بعدُ في الطرائق التي سلكوها لهذا الغرض. ذلك لأنّنا في شان (جيبوتي)

أمام مُجتمعٍ خامدٍ بكل المعاني. لا ماضي له ولا حاضر. ولذلك فسنقصر الكلام على المؤسسات التي أنشأها الإيرانيّون فيه. راجياً أن تُعطينا صورةً ما عن مستقبلٍ موعودٍ أفضل:

- **مجموعة (المُستبصرون)**. وهي المؤسسة الوحيدة التي وجدنا لها ذكراً في الشبكة العالميّة. مقرّها بالعاصمة (جيبوتي). مديرها المُستبصرعبد الرحيم آدن ورسمة. وُصفت في موقعٍ مُتعاطفٍ في الشبكة العالميّة بأنّها «جماعةٌ حديثة العهد. تشكّلت من قِبَل المُنتسبين حديثاً إلى نهج آل البيت عليهم السلام في جمهوريّة جيبوتي. وتهدف إلى التّعريف بالنهج الإسلاميّ الأصيل [....] ونشر المؤلفات والكُتُب الشيعيّة باللغات المختلفة. وإقامة المناسبات المختلفة لآل البيت».

هذا، ثم أنّ تقريراً كتبه شخصٌ أو جهةٌ وهابيّة، يرقى تاريخه إلى السنة ٢٠١٥م، يذكر عدداً من المؤسسات الشيعيّة الجديدة في (جيبوتي). ولطالما زوّدنا هذا النمط من التقارير بأندر وأغنى المعلومات عن هذه المؤسسات ومثلها في مختلف الاقطار:

- **مركز أهل البيت**. افتُتح سنة ٢٠١٤م بالحي الثاني في العاصمة (جيبوتي). يُوصَف في التقرير إيّاه بأنّه «يُعدُّ من أهمّ مؤسسات التشيّع وأكثرها نشاطاً في البلاد. وهو من عدّة غُرف: واحدةٌ للضيوف، وثانيةٌ للمكتبة، وأخيرةٌ قاعةٌ للندوات وما إليها. وهو بإدارة الشيخ محمد حسين».
- **حسينيّة الرسول الاعظم**. في أحد أحياء العاصمة. وهي مُخصّصةٌ للشعائر الحسينيّة. كما قد تُعقد فيها الاجتماعات والندوات. وتُحيى المُناسبات بذكرى مواليد ووفيات أئمة أهل البيت عليهم السلام.
- **المركز الثقافي للمُستبصرين**. وهو برعاية (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام) في (طهران). يهتمّ بطباعة ونشر الكُتُب، وبترجمة بعضها للغات الفرنسيّة والصوماليّة والعفريّة. وإقامة المُناسبات ذات العلاقة بأهل البيت عليهم السلام.
- **مؤسسة الإمام جعفر الصادق** عليه السلام. تهتم بترجمة الكُتُب والبحوث إلى اللغات المحلّيّة وطباعتها ونشرها.
- **مقرّ جمعيّة النور الثقافيّة الخيريّة**. تهتمّ بالأنشطة الفكريّة. بالإضافة إلى بعض الاعمال الخيريّة.
- **مكتبة فاطمة الزهراء الإسلاميّة**. مكتبةٌ عامّةٌ في العاصمة.



الباب الخامس: الصومال

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً: (الجمهورية الاتحاديّة الصوماليّة). من دُول شرق (أفريقيا). مساحتها ١٤٧٤٠٠٠كم٢.



عاصمتها (مقديشو). موقعها الجغرافي استراتيجيٌّ على طول المداخل الجنوبيّة لـ (باب المندب) و(البحر الأحمر)، حيث لها أطول ساحل في (أفريقيا) (٣٣٢٥كم٢). فهي نقطة تواصُلٍ بين القارات الثلاثة (آسية وأفريقيا) وأُروبا). وهذا امتيازٌ جغرافي فريد.

عدد سكانها زهاء ١٥ مليوناً، ينتمون إلى أعراقٍ عدّة. لغتها الرسميّة الصوماليّة. وهي اللغة التي كُتب بها دستور البلاد والمتداولَة في دوائر الدولة والصحافة والمؤسسات التعليميّة. لكنّ اللغة العربيّة شائعة بين الناس. ومن هذا الباب دخلت (الصومال) في (جامعة الدول العربية) سنة ١٩٧٤م.

يُذكَرُ أن عدد الصوماليين في شرق (أفريقيا) إجمالاً زُهاء ٢٠ مليوناً. ١٢ مليوناً منهم في الجمهوريّة. يغلبُ عليهم جميعاً المذهب الشافعي. إلى جانب وجودٍ قويّ للطُرُق الصوفيّة (القادريّة والأحمديّة).

إنّ أهميّة موقعها الجغرافي، بالإضافة إلى غنى أرضها ببعض المعادن النادرة، كان من أسباب بلائها، ابتداءً من انفجار حربٍ أهليّة بين مُكوّناتها، أدّت إلى انهيار الدولة (١٩٩١. ٢٠٠٦م) ، وصولاً إلى انتشار المجاعة فيها حتى السنة ٢٠١١م. وما تزال (الصومال) تُعاني من عقابيل ما جرى عليها.

(٢) الشيعة في الصومال

ثمة تاريخٌ مُعقّدٌ للتشيّع في (الصومال). زاده إشكالاً بُعدُها عن مواطن نشاط السُلطة، التي يمنحها المؤرخون أقصى اهتمامهم. لذلك فإنّنا لم نجِد أدنى ذكرٍ لشؤونها في الأُمهات. وإنّما تُتناقل عرَضاً وبسرعة حيثما يُذكر (الصومال) وجواره.

فمن ذلك ما يُقالُ عن هجرةٍ شيعيّةٍ إليها من (العراق) زمان عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ٧٠٥م). ومن المعلوم أنّ مظالم الحجّاج قد بعثرت أهل (العراق) كلَّ مُبعثَر، ودائماً إلى اتجاهاتٍ نائية. وقد وقفنا في الباب المُخصّص لـ (عُمان) فيما فات من الكتاب على مثلها.

ومنه أيضاً، وهو أمرٌ عجيبٌ جداً في بابه، هجرةٌ شيعيّةٌ كُبرى، يُقال أنّها خرجت من مدينة (شيراز) الإيرانيّة المعروفة. قائدها مَن اسمه (الأمير علي حسن الشيرازي). فنزلت المنطقة ، حيث أنشأت ما يجري ذكره كثيراً في المصادر المحلّيّة باسم (الدولة الشيرازيّة الفارسيّة). التي غلبت على أغلب المُدُن الساحليّة في شرق (أفريقيا): (مقديشو) و (مركة) و (براوة) و (كسمايو). واستمرّ حكمها زُهاء ثلاثة قرون.

والحقيقة أنّنا بعد التّحرّي المُستمرّ، ومُساءلة العارفين من إخواننا الإيرانيين، لم نقع على ما يزيدنا علماً بهذه الواقعة العجيبة ذات الأهميّة.

وآخره انتشارُ (الخوجة) في شرق (أفريقيا)، ومنه طبعاً (الصومال) على قِلّةٍ نسبيّاً فيها (يُقال أنّها كانت من ألفي شخص). وقد قُلنا ما عندنا على هذه الطائفة غير مرّة فيما فات من هذا الفصل. وخصوصاً على همّة رجالهم العالية ونظامهم البديع وأعمالهم الذّكيّة.

فهذه ثلاثة روافد انفتحت بين التشيّع وبين أهل تلك المنطقة القصيّة. لم يبقَ منها اليوم إلا بعض (الخوجة). وحتى هؤلاء لا يبدو أنّهم تركوا فيها ما عوّدونا عليه، من نشاطٍ يُذكَر ومؤسساتٍ مُنتظمةٍ عاملة. خلا أنهم أسسوا متأخرين (سنة ١٩٨٦م بالتحديد) جمعيّةً سمّوها (جمعيّة المُنتظَر). سُجّلت رسميّاً لدى الدولة الصوماليّة. ترأسها هاشم حسن علي أوكيرا. اقتصرت أعمالها على حقل التعليم والصحّة وقضايا الأُسرة. وكانت لهم مقبرةٌ خاصّةٌ بهم في أحد أحياء (مقديشو). أي أن نشاطهم كان محصوراً في تنظيم أُمورهم الخاصّة. وحتى السنة ٢٠١٥م لم يكُن في (الصومال) إلا جمعيّة شيعيّة واحدة، اسمها (جمعيّة آل البيت عليهم السلام)، مقرّها مدينة (هرغيسا)، وهي بإدارة خضر إبراهيم. وكانت بذلك التاريخ في طور التأسيس والتخطيط.

الباب السادس: أريتريا

(١) جغرافيا وتاريخ

دولةٌ في القرن الأفريقي، في الجنوب الشرقي للقارّة، مُقابل جنوب شبه الجزيرة العربيّة. سكانها زُهاء أربعة ملايين. مساحتها ١٢٠٠٠٠كم٢. لها ساحلٌ بطول ألف كم على البحر الاحمر، يحتوي أهم ميناءين هما (عصب) و(مصوع) / (باضع). وهذا هو الذي رست فيه السفينة التي حملت المُهاجرين المسلمين الأُوَل سنة ٨ هـ / ٦١٤ م، لينطلقوا منها إلى دار مُلك النجاشي. حيث اليوم (مسجد مدر). الذي شيدَ تخليداً للواقعة فيما يُقال.

عُرفت (أريتريا) في الأدبيات الجغرافيّة الإسلاميّة باسم (بلاد الزّيلع) و(بلاد البجة)، والظاهر أنّهما من اسمَي عرقيَن سكناها. وحتى اليوم فإن (أريتريا) سُكانيّاً من عدّة أعراق. منها عرقٌ يتكلّم العربيّة.

رزحت طويلاً تحت الاحتلال الحبشي ـ البرتغالي، فالإيطالي. ثم وُضعت تحت الانتداب البريطاني. وتحرّرت منه سنة ١٩٥١م. ليُفرض عليها قسراً الاتحاد مع (أثيوبيا). أخيراً نالت الاعتراف الرسمي من الأُمم المتحدة باستقلالها سنة ١٩٩٣م.

٥٠٪ من سكانها مسيحيون تابعون لكنيسة التوحيد الأرثوذكسيّة الأريتريّة. و٤٨٪ مسلمون. و٢٪ وثنيّون.

(٢) الشيعة في أريتريا

يبدو أنّ التشيّع مُعرقٌ فيها. بدأ بهجرة الشيرازيين الشيعة إلى سواحل شرق (أفريقيا). حيث استقرّ قسمٌ



منهم في ساحل (بنادر)، الذي يشمل (مقديشو). ثم في الهجرات التي خرجت من (مصر) بعد سقوط الدولة الفاطميّة، وتوزّعت في أنحاء (أفريقيا). وكلتا الهجرتيَن بقيت كامنةً خامدةً فيها، إلى أن استيقظت مؤخراً بفعل أصداء الثورة الإسلاميّة في (إيران). الأمر الذي رصدنا أصداءه في الإرجافات الوهابيّة، المُنذرة بتنامي النشاط الشيعيّ في عموم (أفريقيا)، وفي القرن الأفريقي خاصّةً ومنه (أريتريا). يندرجُ في ذلك الإرجاف ما تُسميه بعض كتاباتهم بـ «الغزو الثقافي». حيث، حسب ماورد في تقريرٍ وهابي «تعمل إيران جاهدةً على إعطاء صورةٍ نموذجيّةٍ عن الحكم الإسلامي الديموقراطي فيها. وعن احترامها لحقوق الإنسان. وسعيها لرفع الظُلم بدعم بعض الدول فيها تنمويّاً، وبمنح دراسيّةٍ للطلاب في المعاهد الإيرانيّة (...) بالإضافة إلى مؤسساتٍ خيريّةٍ، كمؤسسة إمداد الإمام. ورعايتها للأُسر الفقيرة وتأسيس مدارس وجمعيّاتٍ خيريّة».

في هذا السّياق لم يُذكَر بالاسم إلا مُنظّمةٌ نسائيّةٌ اسمها «مُنظّمة الزهراء» وأنّ «في أريتريا أضحى عددهم (يعني الشيعة) رُبع المسلمين تقريباً». فإذا صحّ ذلك فهو يعني أن عددهم في (أريتريا) يُناهز اليوم الخمسمائة ألف. ينتشرون بتجمُّعاتٍ سكانيةٍ كبيرة في (مصوع) و (عصب) وبعض المُدُن الأُخرى.

الباب السابع: أثيوبيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية اثيوبيا الفيدراليّة الديموقراطيّة).

على أنّ اسمها الوارد في النصوص التاريخيّة القديمة هو (الحبشة)، نسبةً، فيما يُقال، إلى قبيلةٍ يمانيّةٍ تُسمّى (حبشت)، كانت قد هاجرت من مرابعها على أثر انهيار سدّ مارب ونزلت مرتفعات القرن الأفريقي.

وقيل أيضاً أنّ كلمة (حبش) هي عَلَمٌ على عرقٍ نشأ من تزاوج عرقٍ ساميّ قَدِمَ من جنوب (شبه الجزيرة العربيّة) مع السكان الحاميين المحلّيين سُمّي (الحبش)، أي المُختلط في إحدى اللغات المحلّيّة. والجمع بين الروايتيَن واضح.

عاصمتها (أديس أبابا). مساحتها مليون ومائة وأربعة آلاف كم٢. سكانها حسب إحصاء سنة ٢٠١٣م زهاء أربعة وتسعين مليوناّ. من مجموعات عرقيّة مُتنوّعة. أكبرها قوميّة (الأمورو). ويمتاز تاريخها بأنها لم يضربها الاستعمار الأُوروبي إلا لمدة قصيرة بين السنتين ١٩٣٦ ـ ١٩٤١م حيث (إيطاليا) استولت مؤقتاً على قسمٍ من شرق (أفريقيا) ضمنه (أثيوبيا).

(٢) المسلمون في أثيوبيا

حسب تعدادٍ نُظّم سنة ٢٠٠٧م فإنّ نسبة مسلمي (أثيوبيا) إلى مجموع السكان هو ٩، ٣٣٪، أي ٢٥ مليوناً تقريباً. يتركّزون بنسبةٍ عاليةٍ في إقليم (عفر)، وغالبيّته من القوميّة العفريّة المُسلمة. وفي إقليمي (صوماليا) و (نغلي بورنا)، وبنسبةٍ أدنى في إقليم (أمهرا) وفي أقليمي (تيغراي) و (أورميا). وهم نسبة ٣٣٪ من سكان العاصمة. ويكثرون في مدينة (أكسوم). إلى تفاريق في كافة أنحاء البلاد. لكن كتاب حقائق العالَم يوردُ نسبةً أعلى لعدد المسلمين الإجماليّ فيها.

حتى الماضي القريب عانى المسلمون في (أثيوبيا) كثيراً من تراثٍ من التهميش السياسي الاجتماعي، بالإضافة إلى التدخُّل الرسمي بنحوٍ غير قانوني في شؤونهم الدينيّة. والنّيل منهم علناً في وسائل الإعلام الرسميّة. ولكنّ النظام الفيدرالي، الذي أُقرّ سنة ١٩٩٥م بعد استفتاءٍ عام، يعِدُ بمستقبلٍ أفضل للمسلمين هناك.

(٣) الشيعة في أثيوبيا



ثمة أوهامٌ تتردّد في بعض المواقع الشيعيّة على الشبكة العالميّة، تربط بين الهجرة الإسلاميّة الأُولى إلى (الحبشة) برآسة جعفر بن أبي طالب، وبين انتشار التشيّع فيها. وهو كلامٌ ينطوي على وهمٍ واضح.

ومع ذلك فإنّه ما من ريبٍ في أنّ التشيّع في (أثيوبيا) قديم، وأنّه تخلّل هذا البلد المسيحيّ المُزمن، محمولاً على الحركة السُكانيّة الدّائبة مع الجوار ذي الأغلبيّة المُسلمة بمُختلف مذاهبها في (كينيا) و (الصومال) والقرن الأفريقي إجمالاً. والشاهدُ على ذلك ماثلٌ في أنّ الأغلبيّة الشيعيّة في إقليم (نغلي بورنا) شمال شرقي (أثيوبيا) هي خليطٌ من قوميّاتٍ متعددةٍ من الأورومو والصوماليين. ومن العسير جدّاً في هذه الحالة من التطوّر البطئ أن نضع تاريخاً مُحدّداً لنتائجه العمليّة.

واليوم ينتشر الشيعةُ بنِسَبٍ مختلفةٍ في شمال وشرق (أثيوبيا) وخصوصاً في العاصمة (أديس أبابا). بحيث قيل أنّ نسبتهم إلى مجموع المسلمين الإجمالي هناك هو في حدود ٤٠٪، أي زُهاء العشرة ملايين نسمة. ولكنّهم إجمالاً في حالةٍ سيئةٍ من التخلف المعاشي والثقافي. لكنّنا بدأنا منذ بضع سنوات نشهد نهوض بعض المؤسسات الشيعيّة في العاصمة خصوصاً، بفضل التواصُل مع مؤسساتٍ شيعيةٍ مُشابهةٍ في الجوار، وبالأخصّ في (كينيا).

الباب الثامن: رواندا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسمياً (جمهوريّة رواندا). دولةٌ في شرق (أفريقيا).عاصمتها (كيغالي). مساحتها ٣٣٨، ٢٦ كم ٢. عدد سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٨٧م ستة ملايين ونصف المليون. ٨٠٪ من سكانها من قبائل الهوتو، والباقون من التوتسي. لغتها الرسميّة هي لغة (الكينا روندا) إلى جانب الفرنسيّة. ويتداول مسلموها في حياتهم اليوميّة اللغة السواحيليّة.

كانت في الماضي جزءاً من مستعمرة شرق (أفريقيا) الألمانيّة. ثم وضعتها الأُمم المتحدة بعد الحرب العالمية الأُولى تحت الانتداب البلجيكي. إلى أن حصلت على الاستقلال المظهري سنة ١٩٦٢م. ولكنّها خضعت بعده لفتنةٍ دمويّةٍ تطهيريّةٍ سنة ١٩٩٤م بين الأكثرية الهوتو والأقلّيّة المُسيطرة التوتسي قضت على أكثر هؤلاء. ساد بعدها السلام.

(٢) الإسلام في رواندا

المسلمون أقليّةٌ في هذه الدولة ذات الأكثريّة المسيحيّة الكاثوليكيّة، التي نشأت ونمت أثناء فترة الاحتلال البلجيكي الطويلة. ومن المعلوم أنّ الاستعمار الغربي يسعى أينما حلّ على تسليط المُبشّرين المسيحيين على الشعوب المغلوبة. ابتغاء توليد حالةٍ من التماهي بين الغالب والمغلوب لما فيه مصلحة الأوّل.

وحسب إحصاء رسميٍّ جرى سنة ٢٠٠٩م فإن نسبة المسلمين فيها إلى مجموع السكان هي ٧،١٪، أي أنهم بحدود المائة وعشرين ألفاً تقريباً. ٤٠٪ منهم شيعةٌ إماميّة. وقد ارتفع شأنُ المسلمين إجمالاً والشيعةُ منهم خصوصاً في (رواندا) بفضل موقفهم الحيادي المُسالمِ أثناء الفتنة. مع أنّ منهم مَن هم في الفريقَين المُتقاتليَن. في مُقابل أنّ المسيحيين منهم قتل بعضهم بعضاً بوحشيّةٍ مُتناهيةٍ، وسط صمتٍ تامٍّ للدولة التي نشرت الدين المسيحيّ بينهم. ويتردّدُ في المصادر، أنّ ذلك كان سبباً لإقبال الناس بعد استتباب السلام على الدخول في الإسلام.

(٣) الشيعة في رواندا

في جوّ السلام الذي استتبّ بعد الفتنة، وبفضل ما بات للشيعة من نهضة وكثرة الداخلين في أمرهم، تنادى شيعةُ (رواندا) إلى إنشاء هيئةٍ منهم تلي رعاية شؤونهم، وتكون لها صفة تمثيليّة تجاه الدولة ومؤسساتها. وبالفعل

أُنشئ سنة ٢٠٠٦ م ما سُمّي (المجلس الأعلى لشؤون الشيعة في روانـدا). Rwanda Ithna Ashariyah Comunity

وهي أوّل هيئةٍ من نوعها في الدولة. منحتها الحكومة صفة القانونيّة في إطار مهمّاتها. وبهذه الوسيلة اكتسبت الأقليّة الشيعيّة الاعتراف بها، بوصفها مجموعةً دينيّةً، أُسوةً بغيرها من المجموعات الدينيّة في (رواندا).

تبع هذه الخطوة بتاريخٍ غير معلوم إنشاء (مؤسسة أهل البيت الإسلاميّة في دولة رواندا) بمُبادرةٍ من الشيخ باجاروكا حسن سيف (ابوعلي) (رئيس)، ومعونة الحاج روجو غيرو أبو بكر (نائب رئيس)، والشيخ يوسف مجالوي (أمين صندوق ومُبلّغ)، والسيّدة سفينة بانكوندية (مسؤولةٌ عن لجنة السيّدة زينب عليها السلام).

والمؤسسة أو المركز يهتمُّ بالدرجة الأُولى بالعمل التبليغي بين المؤمنين، وبنشر مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وبإقامة صلاة الجماعة والجمعة والعيدين، وبإلقاء الدروس الفقهيّة على المؤمنين باللغة المحلّيّة، وبإحياء مختلف مناسبات أهل البيت عليم السلام، خصوصاً شهر المُحرّم، وليالي شهر رمضان.

والشيخ باجاروكا هو مُنشئُ أوّلَ حسينيّةٍ في (رواندا) هي (حسينيّة صاحب الزمان). بناها أولاً مع أعوانه من الطين وصفائح معدنٍ قديمة. وكان يرفع الأذان في أوقاته من هذا البناء المتواضع.

في السنة ٢٠٠٧ م أُنشئ في (كيجالا) (مجمع أهل البيت عليهم السلام). ليعمل على رعاية نشاط المُبلّغين، البالغ عددهم عشرون مُبلّغاً تقريباً، وعلى توزيع الكُتُب والنشرات الدينيّة.

هذا بالإضافة إلى (جمعيّة الشيعة الاثنى عشريّة). وهي برئاسة الشيخ شافي حسين. وتُشرفُ على (مُصلّى الإمام الصادق عليه السلام) في (كيجالا). كما تُنظّم برامج لتعليم أولاد الشيعة التلاوة في يومي السبت والأحد. وإحياء ليالي الجُمع بقراءة دعاء كُميل.

(مكتبة العترة الطاهرة) في (كيجالا). تُيسّر الكُتُب الدينيّة للمؤمنين بيعاً وتوزيعاً. وهي بإدارة الشيخ هارون شيكالي.

(المركز الإسلامي) في (كيغالا). يُدير (مدرسة دار الهدى الإسلاميّة) لتدريس علوم أهل البيت عليهم السلام ، ومكتبةً ودوراتٍ تعليميّةٍ، ويُقيمُ مراسم العزاء الحسيني.

نختم الباب بذكر مَن وصل إلينا العلمُ بهم من علماء الدين الشيعة في (روانـدا)، بالإضافة إلى مَن ذكرناهم،وهما الشيخان عمران عبد الحسين ومسعود مباروشيملنا.





الباب التاسع: مدغشقر

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية مدغشقر). دولةٌ جَزِيريّة في المحيط الهندي، قبال الساحل الجنوب شرقي لأفريقيا. مساحتها ٥٨٧ألف كم٢. عدد سكانها خمسةٌ وعشرون مليوناً. عاصمتها (تاناناريف). لغتها الرسميّة الفرنسيّة، إلى جانب اللغة الملغاشيّة المحلّيّة. غزتها (فرنسا) سنة ١٨٨٣م. وفي السنة ١٨٩٦م ضمّتها إلى ممتلكاتها وراء البحار. سنة ١٩٤٧ م ثار أهلها ضدّ الحكم الفرنسي أدّت إلى إعلان استقلالها سنة ١٩٥٨م. ٤٥٪ من سكانها مسيحيّون و٧٪ مسلمون، أي زهاء مليون وسبعمائة ألفاً. والباقون يتبعون أحد الأديان الأحيائيّة الأفريقية. لكنّ عدد المسلمين يتزايد فيها بنحوٍ راتبٍ من المُتحوّلين من الأديان التقليديّة. رغبةً عن المسيحيّة،على قوّة مؤسساتها. لأنها ارتبطت في أذهانهم بالاستعمار.

(٢) الشيعة في مدغشقر

المعلومات عن الشيعة في هذه الجزيرة نادرةٌ جدّاً. إلى درجة أنّنا لم نقع على إحصاء أو تقدير لعديدهم. والظاهر أنّهم أقلّيّة نشأت من نواة هي هجرة (الخوجة) إلى الجزيرة قبل زُهاء قرنٍ ونصف، مثل غيرهم في أنحاء شرق (أفريقيا)، ثم الذين انضافوا إليهم من المُستبصرين بفضلهم. وقد وقفنا فيما سبق من هذا الفصل على غير مثالٍ مُشابه. ومن هؤلاء فيما يبدو مَن ذُكر بوصفه «رئيس الطائفة الشيعيّة في مدغشقر»، بمناسبة تبرعه لأحد مقامات أهل البيت عليهم السلام في (العراق). واسمه (فضلي مولو). الأمر الذي يدلُّ ضمناً على نمطٍ من التنظيم لشؤون الشيعة فيها. يُعزّزه إشارة عرَضيّةٌ إلى أنّهم يواصلون «بناء المراكز الدينيّة والخيريّة والمساجد والحسينيّات». ما يدلُّ على نشاطٍ واعد. منها «مسجد وحسينيّة السيّدة خديجة عليها السلام» في العاصمة (تاناناريف). بالإضافة إلى افتتاح «مسجدٍ وحسينيّة جديدتيَن» في مدينة (نوسيبي)، شيدا بتبرّع من أحد المؤمنين الكويتيين. وافتتاح مسجدٍ أيضاً في مدينة (أنبيلوبي). وتُذكَر أيضاً «هيئة محمد الأمين صلى الله عليه وآله» و «مركز الإمام القائم عليه السلام» بإدارتها في مدينة (ماجنغا). وكلّها أعمالٌ مُستجدّةٌ، تدلُّ بمجموعها على روحٍ جديدة للشيعة. يؤمَلُ أن تتواصل وتتلقّى الرّعاية المناسبة. خصوصاً أنّنا لاحظنا أثناء البحث والتنقيب غيابَ أدنى ذكر للمُبلّغين الآهلين.

أفريقيا الوسطى

الباب الأوّل: بوروندي

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهوريّة بوروندي). دولـةٌ في شرق وسط (أفريقيا). عاصمتها (بوجمبورا). مساحتها ٢٧٨٣٤كم٢. عدد سكانها حسب إحصاء السنة ١٩٩٠م خمسة ملايين وثلاثمائة وستة وخمسين ألفاً. لغتاها الرسميتان الفرنسيّة والكيروينديّة (لغة محلّيّة). واللغة السواحيليّة شائعةٌ بين سكانها.

احتلّها الألمان سنة ١٨٩٠م. وبعد الحرب العالميّة الأُولى وضعتها مُنظّمةُ (عصبة الأُمم) تحت الانتداب البلجيكي. وفي السنة ١٩٦٢م أُعلن استقلالها بعنوان (مملكة بوروندي). وفي السنة ١٩٦٦م أُطيح بالملكيّة وأُعلنت جمهوريّة.

سُكّانياً تُشبه جارتها (رواندا) من حيث أنّها من قبيلتَي الهوتو٨٥٪، والتوتسي ١٥٪. ومن حيث نشوب الفتنة الدمويّة فيها بين القبيلتيَن (انظر الباب الثامن من الفصل السابق).

الأكثريّة الغالبة فيها مسيحيّة، شأن عامّة البلدان الأفريقيّة التي رزحت تحت الاستعمار الأُوروبي.

(٢) الإسلام في بوروندي

من المعلوم أنّ انتشار الإسلام في (أفريقيا) أكثر ما كان في السواحل. ولم يتوغّل إلى الداخل إلا في القرون المتأخرة. حيث بدأ الاسلام يدخل (بوروندي) في القرن ١٩م عن طريق جارتها (تنزانيا) على يد التجار العُمانيين واليمنيين.

واليوم تبلغ نسبة المسلمين فيها ٤ أو ٥ ٪ تقريباً، أي زُهاء الأربعمائة ألف.

أكثرهم كان حتى ستينات القرن الماضي على المذهب الشافعي. ينتشرون في أنحائها، مع تمركزٍ واضحٍ في العاصمة. بعدها بدأت الدعوة الوهابيّة تنتشر بينهم. مُستغلّةً الجهل المُتفشّي بين المسلمين، وما تحت يدها من إمكاناتٍ مادّيّة.

(٣) الشيعة في بوروندي

دخل التشيع بوروندي بفضل التجار (الخوجة)، الذي وقفنا على انتشارهم وأثره البالغ في أنحاء (أفريقيا) غير مرّةٍ فيما سبق. وكان لتأسيسهم (مُنظّمة بلال) أكبر الأثر في تعريف الناس هناك بالشيعة والتشيّع.

للشيعة في (بوروندي) حتى ثمانينات القرن الماضي ثمانية مساجد وبضع حسينيات. أكثرها في العاصمة. ومسجد (الخوجة) فيها من أجمل المساجد. وهم يهتمّون بإقامة الشعائر والمناسبات.

الباب الثاني: زامبيا



(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية زامبيا). دولةٌ جنوب وسط (أفريقيا). كانت سابقاً مستعمرة بريطانيّة باسم (روديسيا الشماليّة). كما كانت بين السنتين ١٩٥٣ و١٩٦٣م جزءاً من (اتحاد روديسيا الجنوبية)، (زمبابوي اليوم) ونالت الاستقلال سنة ١٩٦٤م. عاصمتها (لوساكا). مساحتها سبعمائة واثنين وخمسون كم ٢. عدد سكانها نحو أحد عشر مليوناً ونصف المليون حسب تقدير السنة ٢٠٠٥م. لغتها الرسميّة الانكليزيّة. ويتحدث معظم أهلها بلغة البانتو.

(٢) الشيعة في زامبيا

شأن كلّ الدّاخل الأفريقي، فإن الإسلام وصل إليها متأخراً زمنيّاً عن المناطق الساحليّة. لكن ميزة زامبيا الإضافيّة أن عدد الشيعة فيها يفوق عدد المسلمين من غيرهم. والفضل في ذلك يعود، فيما يبدو، إلى جموع المهاجرين اللبنانيين الشيعة إليها من (جبل عامل).

واستناداً إلى كلامٍ منقول عن «مفتي زامبيا»، «أن عدد الشيعة فيها سبعمائة ألف شخص». بينما يقول قائلٌ محسوبٌ على الوهابيين أنّ نسبتهم إلى مجموع السكان فيها بحدود ٢ ٪. أي أنهم بحدود عشرين أو خمسةٍ وعشرين ألف شخص. وهؤلاء مُتّهمون في هذا ومثله لأسبابٍ غير خفيّة.

مهما يكُنْ فإنّ الجالية العامليّة الشيعيّة فيها كبيرة، قُدّر عدد الرجال أرباب العائلات فيها منذ عشرين سنة بألف وثلاثمائة شخص. أي أنّ مجموعها كان بتاريخ تسجيل المعلومة لا يقلُّ عن سبعة آلاف. يُقيم أكثرهم في العاصمة (لوساكا). وأقلّهم في مدينة (كابوي). يتحدّرون من البلدان العامليّة: (حناويه) و (حاريص) و(جويّا) و(ياطر) و (شَمَع) و(المنصوري) و(معروب). أمّا أُسراتهم فهي أُسرة أقاربنا آل (سقسوق) في (حناويه) و (هاشم) و (صفيّ الدين) و (عز الدين) و (سعيد) وغيرهم.

والمهاجرون العامليّون في (زامبيا) ناجحون إجمالاً في أعمالهم. كما أنّ علاقات الجالية الكبيرة بأهل الحكم هناك متينة، ودورها الاقتصادي موضع تقديرٍ منهم. حيث أنهم يُمسكون بمفاصل الاقتصاد المحلّي، ويملكون المناجم والمصانع والوكالات والمتاجر الكبرى. ومنهم ابنُ عمّنا حسن كامل سقسوق، سفير (سيراليون) في (زامبيا) ، فضلاً عن أنّه من كبار التجار البارزين فيها. كما أنشأوا في مهجرهم المساجد والحسينيّات، نعرف منها بالاسم (مسجد الإمام الرضا) عليه السلام في العاصمة. حيث يُقيمون الشعائر الدينيّة ويُحيون المناسبات والشعائر، بمُشاركة المستبصرين من المواطنين. برعاية عددٍ من علماء الدين. منهم، بتاريخ تسجيل المعلومة سنة ٢٠١٥ م، اللبنانيان الشيخ صادق غريب، والشيخ وسام شقير، والإيراني الشيخ حسين صابري. وإليهم وإلى أنشطتهم الدينيّة يرجع الفضل في استبصار أعدادٍ غير قليلة من أهل البلاد.

الباب الثالث: تشاد

(١) جغرافيا وتاريخ

رسميّاً (جمهورية تشاد)، موقعها وسط (أفريقيا). عاصمتها (نواكشوط). مساحتها مليون ومائتان وأربعة وثمانون ألف كم٢.عدد سكانها زهاء أحد عشر مليوناً. لغتاها الرسميتان الفرنسيّة والعربيّة.

سنة ١٩١٠م احتلّتها (فرنسا) زمناً تحت مختلف الذرائع والعناوين. إلى أن نالت الاستقلال سنة ١٩٦٠م وأصبحت جمهوريّة. وبعد خمس سنوات قامت فيها ثورةٌ عاتيةٌ للتخلّص من النفوذ الفرنسي الطاغي، أودت إلى حربٍ أهليّةٍ مديدةٍ. استقرّت أوضاعها السياسيّة على جمهوريّة على قاعدةٍ مُنتخبَة.

(٢) الإسلام في تشاد

شقّ الإسلامُ طريقه إليها بهدوء، بفضل الحركة التجاريّة العالقة بينها وبين جارتيها، (السودان) في شرقها، و (ليبيا) في شمالها. وعن هذا الطريق انتشر الإسلام ومعه بخطٍّ مُوازٍ انتشرت اللغة العربيّة. بحيث ما لبثت أن غدت سريعاً لغة التخاطُب المُشترَكة بين مختلف القبائل التشاديّة العديدة، التي لكلٍّ منها لغتها الخاصّة بها.

اليوم نسبة المسلمين إلى مجموع سكانها ٨٥٪. أغلبهم على المذهب المالكي. مع حضورٍ قويٍّ جدّاً للطُرُق الصوفيّة، خصوصاً الطريقتين الأحمديّة والتيجانيّة. مع أقلّيّةٍ تنصّرت بتأثير الحملات التبشيريّة المدعومة من الاستعمار الاجنبي. وأقلّيّة ضئيلةٍ جدّاً من الذين بقوا على الأديان الأفريقيّة التقليديّة.

(٣) الشيعة في تشاد

دخلها التشيّع حديثاً محمولاً على الموجة الهائلة التي استولدها نجاحُ الثورة الإسلاميّة في (إيران).

هنا علينا أن لاننسى درجة الاستعداد العالية لدى أرباب الطُرُق الصوفيّة، لاجتياز المسافة القصيرة الفاصلة بين التشيّع الفقهي الكلامي، وبين التّشيّع الوُجداني الذي يُمثّله التصوّف الأفريقي، مادامت الوشيجة المُوصلة بينهما حبُّ وولاء أهل البيت عليهم السلام. وهو ولاءٌ ألمحنا غير مرّة إلى أنّه يرجعُ إلى وحدة المولد والنّشأة. قبل أن تُفرّق بينهما وتُبدّدَ شملهما عوادي الزمان. وما هي إلا دخول العناصر العسكريّة في الصورة السياسيّة للمنطقة، من (مصر) وجنوباً.

ومع ذلك فإن التشيّع لم يُسجّل انتشاراً يُذكَر في (تشاد). على الرغم من الظّرف النفسيّ المُلائم، وعلى الرغم من دُعاةٍ انبروا بحوافز ذاتيّةٍ إلى العمل باتجاه تعريف الناس، عن غير سابقةٍ، بمعناه غير المألوف لديهم.

من هؤلاء المدعو يوسف بريمة، وهو مواطنٌ تشاديٌّ فيما يبدو لا نعرفُ عنه ما يُذكَر. يُوصف في بعض المصادر بأنّه الذي وضع الحجر الأساس لوجود التشيّع في بلده. ولكنّ عمله الفُروسيّ لم يُصِب النجاح المأمول عدديّاً، بسبب حالة التخلُّف الشاملة. بالإضافة إلى تباعُد المسافات بين المجموعات السُكانيّة، وسط الصحراء الشاسعة الصّعبة المِراس المُترامية الأطراف. وانتهى به الأمر إلى أن ترك (تشاد) واتجه إلى (بنين) المُجاورة حيث تابع نشاطه.

ومنهم آدم بن آدم، وسيسي سليمان، وعبد الله هاشم، وهذان الأخيران من أشهر دُعاة الشيعة في (تشاد) بين الأوساط الطُّلّابيّة وفي الجامعات. وعبد الله تامبا، الذي اكتسب التشيّع أثناء زيارةٍ له إلى (السودان)، حيث اتصل ببعض الاشخاص والمؤسسات الشيعيّة فيه. وعلى الأثر أعلن اعتناق التشيّع. وما انفكّ يعمل بدأب في الأوساط الحكوميّة. ويُقال أنّه نجح في كسب بعض المسؤولين إلى عقيدته. وكذلك حوّاء ابتشه، العاملة النشيطة التي تُوصَفُ بأنّها «ناشطةٌ في نشر التشيّع داخل الأمانة العامّة للحكومة».



واليوم فإن الشيعة في (تشاد) أقلّيّةٌ ضئيلةٌ. يقتصر نشاطها الإعدادي الدّعويّ على بعض (الخلوات القرآنيّة) التقليديّة، التي تُلقّن التلاوة للفتيان والشّبّان من الجنسيَن.

وحتى ما قبل بضع سنوات، فإنّها (الأقلّيّة) لم تنجح في إنشاء وضع مؤسسيّ لها، حتى على مستوى المساجد الصغيرة. وعليه فيمكن القول أن وضع الشيعة في (تشاد) يُمثّل إمكانيّةً مهدورَةً.

والحقيقة أنّ هذا البلد يُمثّل مجموعة إمكاناتٍ مهدورة في كافّة شؤونه تقريباً.

ومنها ثرواته الظاهرة والباطنة. في الظاهرة ثروته الهائلة من الدواجن والأسماك. وفي الباطنة ثروته الكبيرة جدّاً من النفط، إلى جانب مخزونها الهائل من المعادن النادرة (ذهب ويورانيوم وزنك) ومخزون كبير من الحديد والرخام. ومع ذلك فإن نسبةً عاليةً من سكانه تعيش تحت خطّ الفقر.

الفصل السادس

أفريقيا الجنوبيّة

الباب الأوّل: جمهوريّة جنوب أفريقيا

(١) جغرافيا وتاريخ

دولةٌ تقع في الطرف الجنوبي للقارّة.عاصمتها (جوهانسبرغ). مساحتها مليون وثلاثمائة وواحد وثلاثون ألف كم٢. عدد سكانها سنة ١٩٨٨م ثلاثةٌ وثلاثون مليوناً وثمانمائة ألفاً. من خليطٍ من الأوروبيين والأسيويين وأغلبيّة سوداء البشرة. يتكلمّون لغةً خليطاً من الهولنديّة الممزوجة بكلماتٍ انجليزيّة وألمانيّة (اللغة الافريكانيّة). إلى جانب لغاتٍ كثيرةٍ محلّيّة.

هي الأكثر تطوّراً بين كافة الدول الأفريقيّة. عانت منذ السنة ١٩٤٨م من سياسة الفصل العنصري، المُوجّهة ضدّ الأكثريّة السوداء صاحبة الأرض. إلى أن أُلغيت ابتداءً من سنة ١٩٩٠م بعد صراعٍ طويل. فباتت اليوم من أكثر الدول استقراراً في (أفريقيا).

(٢) الإسلام في جمهورية جنوب أفريقيا

دخلها الإسلام مع الهجرات الكبيرة القادمة إليها من أنحاء (آسية). أكثر ماكان من منطقة الملايو (أندونيسيا، ماليزيا) ومن شبه القارّة الهنديّة.

هؤلاء المهاجرون المسلمون لم يبقوا على صفائهم العرقي، فمضوا يتزاوجون ذكوراً وإناثاً مع الأوروبيين والأفريقيين. الأمر الذي أدّى إلى اضطراب هويتهم الدينيّة، وميل أكثرهم إلى جهة المسيحي، الغالب عدداً،

والمُسيطر سياسيّاً واقتصاديّاً. واليوم يُقدّر عدد المسلمين فيها من مختلف المذاهب بحدود مليوني شخص. وما من إحصاءٍ دقيقٍ لهم.

لكنّنا نلاحظ غياب العناصر الوهابيّة في هذا البلد، وهي التي رأينا كيف ملأت أركان (أفريقيا) بنشاطاتها، مُولّدةً القسوةَ في الفكر والعمل حيثما حلّت. وغيابها يرجعُ إلى سياسة الدولة الصارمة تجاه هؤلاء. مع عدم اكتراثها بالإغراءات الماليّة التي يضعونها دائماً طُعماً في مصيدتهم.

(٣) الشيعة في جمهورية جنوب أفريقيا

ما من إحصاءٍ لعديدهم هناك. والتقديرات تذكر أرقاماً من مستوى عشرات الأُلوف. ينتشرون مجموعاتٍ في العاصمة (جوهانسبرغ) وفي مدينة (دربان)، إلى مُتفرقات في كافة الانحاء. ولكنّهم أينما حلّوا ذوو نشاطٍ، لهم مؤسساتهم ومراكزهم. وسنقفُ على ماوصلنا العلم به منها. كما أنّهم، أثناء المعركة مع الأقليّة الأُوروبيّة ونظام الفصل العنصري، شاركوا مواطنيهم من الزنوج والمُلوّنين المعارك التي خاضوها، وقدّموا شهداء. ومن هنا فإنّهم بعد أن استتبّ النظام الجديد، الذي ساهموا بفرضه، التقى جمعٌ منهم برئيس الجمهوريّة، يتقدّمهم السيّد افتاب رضوي، رئيس (مؤسسة أهل البيت في جنوب أفريقيا)، مُطالبين بأن يتمّ الاعتراف الرسمي بمذهب أهل البيت عليهم السلام. وبأن يُمثّلهم نائبٌ في الهيئة الدينيّة في الجمهوريّة. وهكذا كان.



(٤) مراكز ومؤسسات شيعيّة فيها

1. **مركز أهل البيت** عليهم السلام **Ahlul Bait (AS)Foundationof South Africa** مقرّه مدينة (كيب تاون). يديره سيد حيدر افتاب رضوي. وهو مركزٌ متكاملٌ، تُعقد فيه الصلوات اليوميّة وصلاة الجمعة. وتُحيى فيه مناسبات أهل البيت والمناسبات الإسلاميّة والاجتماعيّة.
2. **مؤسسة أهل البيت** عليهم السلام **في أفريقيا الجنوبيّة Ahlul Bayt Foundation of South Africa** مقرّها في (كيب تاون). تُديرها مريم نوسا.
3. **مركز الجهاد.** في (كيب تاون). بإدارة يوسف محمد.
4. **مركز أهل البيت الإسلامي.** في قرية (فيلبي) بجوار (كيب تاون). بإدارة المدعو عيسى.
5. **حسينيّة أبو الفضل العباس** عليه السلام. في (غوتنغ ـ بريتوريا) جنوب شرق البلاد. بإدارة الشيخ أحمد قاسم.
6. **مركز القائم** عليه السلام. في (غوتنغ ـ بريتوريا). بإدارة جعفر شاه.
7. **المصطفى.** مسجد ومركز إسلامي. في (غوتنغ ـ سبرنجس). بإدارة الشيخ عبد الواحد منير.

٨. **مركز العلم الإسلامي**. في (جوهانسبرج). بإدارة السيد خرام المهدي.

٩. **قصر الزهراء**. في (جوهانسبرج) بإدارة حسن بوت.

١٠. **المركز الإسلامي لأفريقيا**. في (غوتنغ ــ جوهانسبرج). بإدارة سيّد رضائي.

١١. **مركز الإمام الصادق** عليه السلام **الإسلامي**. في (نايجل) جنوب شرق البلاد.بإدارة عبد الرحمن ماهلانغو.

١٢. **جماعة أهل البيت**. في (مبو مالانجا). بإدارة الشيخ مسعود علي.

١٣. **مسجد الإمام الحسين** عليه السلام . مدرسة دينيّةٌ ومركزٌ ثقافي. في (ديربان). بإدارة الشيخ جابر شاندو.

١٤. **المدرسة الجعفريّة الإسلاميّة**. في (ديربان). بإدارة راشد.

١٥. مركز **الإمام الباقر** عليه السلام **الإسلامي**. في (كيب الشرقيّة) ميناء أليزبث. بإدارة الشيخ أحمد.

١٦. **المركز الإسلامي للإمام موسى الكاظم** عليه السلام . في (كرونستاد ــ فري ستيت) وسط البلاد. بإدارة الشيخ عبد الله.

ذلك بالإضافة إلى اثنى عشر مسجداً وثماني حسينيات موزعة في أنحاء الجمهوريّة. بعضها ممّا ذكرناه أعلاه.

ومن الواضح للمُتمعّن أن كثرة المؤسسات بين مساجد وحسينيّات، بالقياس إلى عدد الشيعة، يرجع إلى تعدّد أُصولهم العرقيّة والبلدان التي أتوا منها.

الباب الثاني: أنغولا

(١) تعريف

رسمياً (جمهوريّة أنغولا). دولةٌ على الساحل الغربي لجنوب (أفريقيا). عاصمتها (لواندا). عدد سكانها حسب إحصاء سنة ٢٠١٤م ستةٌ وعشرون مليوناً، أكثرهم مسيحيون، ثم من أتباع أحد الأديان الأفريقيّة التقليديّة. عدد المسلمين الإجمالي فيها لايتجاوز المائة ألف. وهم عموماً من المهاجرين إليها من مختلف الأقطار القريبة والبعيدة.

(٢) الشيعة في أنغولا

الشيعة فيها يُعدّون بالأُلوف القليلة (قيل أنهم بحدود أربعة آلاف). وهم حصراً من المهاجرين من أبناء (جبل عامل). هجرة بعضهم إليها قديمة، ترجع إلى بضع عقود.

والحقيقة أن المرء ليعجب من اختيار هؤلاء الهجرة إليها، بسبب فقرها وانغلاق الفُرص فيها يوم هاجروا. ولكنّ حظوظ هؤلاء كانت بانتظارهم على أثر اكتشاف الألماس والذهب في أرضها بكميّاتٍ كبيرة، بالإضافة إلى النفط بكميّاتٍ تجاريّة. فقطفوا زهرة الازدهار الاقتصادي المُفاجئ مُبكّرين، بحيث غدا بعضهم من كبار العاملين في قطاع الألماس استخراجاً وتجارةً. بالإضافة إلى الذين عملوا في قطاعاتٍ أُخرى، ممّا نما على هامش حالة الازدهار العامّة.

لكنّ النعمة الهابطة كان لها ثمنها الردئ على بعضهم. لأن اليهود أثار غضبهم دخولُ هؤلاء المسلمين الشيعة ذلك الدخول القوي على قطاع الألماس، الذي يعتبرونه من خصوصيّاتهم عالميّاً. فطفقوا، بما يملكون من نفوذٍ عالميّ، يفتنّون في الكيد لهم بمختلف الوسائل الكثيرة التي طوع أيديهم. وصولاً إلى دفع رجال الدولة الأنغوليّة إلى إغلاق مراكز أعمالهم وأمرهم بالمُغادرة. وإصدار قرارٍ بمنع الدين الإسلامي في بلدها. الذي يُصيبُ عمليّاً الشيعة، لأنهم الأكثريّة المُطلقة بين الأقلّيّة المسلمة هناك. الأمر الذي كان موضع استهجانٍ عالمي. دفعها إلى إعلان التراجع السريع عنه.

وأوضح نماذج هذه السياسة ما حاق بأُسرة تاج الدين العامليّة التي جنت ثروتها الكبيرة في (أنغولا). حيث لوحق أبناؤها عالميّاً، اغتيالاً وتوقيفاً وتجميد أرصدتهم الماليّة في بيوت المال.

لكنّ المُلاحظ أن ظروف النهوض العملاني للجالية العامليّة في هذا البلد، وما ترتّب عليها من ضروب التضييق والمُلاحقة، قد حالت بينها وبين الاهتمام بالشأن المعنوي. فلم نرها إلى ما قبل بضع سنوات قد عنيت بإنشاء المُنشآت الدينيّة، من مساجد وحسينيّات ومراكز ذات صفةٍ ثقافيّة. كما رأيناها قد فعلت وتفعل في غيرها من الأقطار الأفريقيّة. إلا ماكان من مُصلّيات في بعض البيوت، يلتقون فيها لإحياء شعائر شهر المُحرّم. كما أنّنا لم نرَ أحد علماء الدين العامليين قد قصدها لخدمة إخوانهم المهاجرين في الشؤون الدينيّة.

الباب الثالث: ناميبيا

(١) تعريف

رسميّاً (جمهوريّة ناميبيا). دولةٌ في جنوب غرب القارّة. مساحتها ٨٢٥٦١٥ كم٢. عدد سكانها نحو مليونين ونصف المليون. عاصمتها (ويندهوك). لغتها الرسميّة الانكليزية. لكن لغة الناس هي لغات شعوبها الأصليّة، إلى جانب لغةٍ هجين من الانكليزيّة والألمانيّة واللغات المحلّيّة تُسمّى الافريكانيّة. ٩٠٪ من سكانها مسيحيون. تنصّروا أثناء فترة الاحتلال الطويلة لبلدهم. والباقون أقلّيّات، منها الأقلّيّة الإسلاميّة.

(٢) الإسلام في ناميبيا

لاتاريخ للإسلام فيها. بل انتقلت من التديّن بالأديان الافريقيّة التقليديّة إلى التّنصُّر. وأوّل عهدها بالإسلام أثناء ثمانينات القرن الماضي. يوم أعلن أحد كبار ساستها اعتناقه. وهو أيضاً من رؤساء إحدى أكبر قبائلها المُسمّاة (ناماكوا). وعلى الأثر بدأ الإسلام ينتشر بسرعةٍ بين أبناء قبيلته وغيرها. واليوم ينتشر في العاصمة وفي عددٍ من بلدانها، حيث بنوا المساجد حيثما حلّوا. واختصّت العاصمة بستة مساجد. ويُقدّر عددهم فيها قبل بضع سنوات مابين ثلاثةٍ وخمسة آلاف.

(٣) الشيعة في ناميبيا

يُقدّر عدد الشيعة فيها ببضع المئات القليلة.

والحقيقة أنها عرفت التشيّع بفضل جهود الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة. حيث أنشأت أوّل مسجدٍ في (ناميبيا) في أفضل منطقة من العاصمة سنة ١٩٩٢م، مساحته أربعة آلاف وأربعمائة م٢. حرصت على تسميته باسم آتٍ من الذّاكرة الإسلاميّة الجامعة (مسجد قبا). حضر افتتاحه شخصيّاً النائب الأوّل لرئيس الجمهوريّة الإسلاميّة آنذاك. وعيّن لإمامته إماماً شيعيّاً وطنيّاً. وفي كلّ يوم جمعة تُقامُ صلاتها بحضور المسلمين دون تفريق. كما يُتلى في ليلتها دعاءُ كُميل بحضورٍ جامعٍ أيضاً.

الباب الرابع: بوتسوانا

(١) تعريف

رسميّاً (جمهوريّة بوتسوانا).. دولةٌ في جنوب الصحراء الأفريقيّة الكُبرى. مساحتها ٥٨١٧٣٠كم ٢، ٧٠٪ منها صحراويّة غير مسكونة. عاصمتها (غابورون). عددسكانها ١٩٠٠٠٠٠. كانت لزمنٍ محميّةً بريطانيّةً، إلى أن استقلّت سنة ١٩٦٦م. أكثريّة سكانها مسيحيّون.

(٢) الإسلام في بوتسوانا

المسلمون فيها أقلّيّةٌ ضئيلةٌ، لا يتجاوز عددهم مرتبة عشرات الأُلوف، عامتهم من سكان الأرياف الفقيرة. ولم نقع على ما يدلُّ أو يؤشّر إلى وجود شيعة بينهم، سوى ما يُذكر على جمعيّةٍ في عاصمتها اسمها (الجمعيّة

الإسلاميّة لخامس أصحاب الكساء في بستوانا). وهو اسمٌ صريحٌ في أنّ أصحاب هذه الجمعيّة من الشيعة. والأمر بحاجةٍ إلى مزيد بحث.

الباب الخامس: موريشوس

(١) تعريف

رسميّاً (جمهوريّة موريشوس). جزيرةٌ في المحيط الهندي قبالة جنوب (أفريقيا). مساحتها ٢٠٤٥كم٢. عدد سكانها، حسب تقديراتٍ في السنة ٢٠٠٨، حوالي المليونين. هم خليطٌ من العرب والهنود والصينيّون والزنوج. استعمرها الفرنسيّون مدّة قرن تقريباً (١١٢٧ ـ ١٢٢٥م) إلى أن طردهم البريطانيون منها، فاستولوا عليها حتى السنة ١٩٩٢م،حيث أُعلنت جمهوريّةً مستقلّةً تابعةً للكومنولث. اللغة الرسميّة فيها الانجليزيّة. لكنّ معظم سكانها يتحدّثون بلغة (الكريول). وهي خليطٌ من الفرنسيّة والهنديّة.

(٢) الإسلام في موريشوس

أكثريّة سكانها يدينون بالهندوسيّة. نسبة المسلمين فيها ٢٠٪ تقريباً، تعود أُصول أكثرهم إلى جنوب (آسية) (الهند، باكستان، جزر القمر). نسبة الشيعة منهم غير معلومة. لكن لهم مساجدهم وحسينيّة واحدة في العاصمة. وجمعيّة اسمها (جمعيّة الشيعة الاثنى عشريّة) Jamat Shia of Moritius Ithnaasharia



الكتاب الرابع

قارّة أميركا



الفصل الأوّل

أميركا الشماليّة

الباب الأوّل: الولايات المتحدة الأميركيّة

(١) الإسلام في أميركا

مثل كلّ سكان (أميركا) غير الأصليين، فإنّ المسلمين وفدوا إليها من خارجها. وما من ريبٍ في أن أوّل المسلمين فيها هم من سكان (أفريقيا)، الذين كانوا يؤسرون من سواحلها، ثم يُنقلون كُرهاً إلى حيث يُسخّرون لسدّ حاجة المهاجرين الأُروبيين إلى مَن يعمل لهم في الأرض.

واليوم يُقدّرُ عدد المسلمين الإجمالي فيها بأربعة ملايين، ينتشرون في أنحائها، وأكثر ما يكونون في مدينة (ديترويت). ٢٥٪ من مسلميها من العرب، و٣٠٪ من جنوب (آسيا)، و٢٥٪ من الزنوج. والـ٢٠٪ الباقية من (إيران) و (أفغانستان) و (أندونيسيا) و (البلقان). وفي السنة ٢٠٠٦م انتُخب أوّلُ عضو مسلمٍ في الكونغرس عن ولاية (مينيسوتا). وفي السنة ٢٠٠٨م انتُخب ثاني عضوٍ مسلمٍ عن ولاية (إنديانا).

على أنّنا يجب أن نأخذ بالاعتبار أنّ كلّ التقديرات لأعداد المسلمين فيها قاصرةٌ عن الواقع القائم اليوم، لأنها تنتمي زمنيّاً إلى ما قبل ماحاق بسكان (لبنان) و (سوريا) و (العراق) وأخيراً بـ (اليمن) من كوارث، وما استولدته من حوافز جديدة قويّةٍ للهجرة إلى (أميركا) كما غيرها.

في السنة ١٩١٥م بُني أول مسجد في (أميركا)،بناه مهاجرون ألبان في مدينة (بدفورد) بولاية (ماين). وفي السنة ٢٠١١م بلغ عدد المساجد الإجمالي فيها ٢١٠٦ مساجد حسب إحصاءٍ أجرته جامعةٌ أميركيّة. أكثرها (٢٥٧) مسجداً في ولاية (نيويورك). تتلوها ولاية (كاليفورنيا) ٢٤٦ مسجداً. ثم ولاية (فلوريدا) ٢١٨ مسجداً. ثم (تكساس) ١٦٦مسجداً. والباقيات في مختلف الولايات.

(٢) الشيعة في أميركا

يقول تقديرٌ غير منسوب ولا مؤرّخ أن عدد الشيعة فيها يُناهز الثمانمائة ألف. أكبر تجمُّعٍ لهم في مدينة (ديترويت) بولاية (ميشيغن)، حيث عددهم يزيد على الثلاثين ألفاً. معظمهم لبنانيّون، هجرتهم إليها قديمة. تصاعدت بقوّة أثناء الحرب الأهليّةاللبنانيّة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢م). ولا عبرة بما يزعمه مركزٌ شيعيٌّ يقول أنّه يُعنى بأوضاع الشيعة في الأقطار، أنّ عددهم فيها (الولايات التحدة) أربعة ملايين.

لكنّ من الثابت أنّهم حيثما حلّوا فيها مجموعاتٌ حسنة التنظيم، لها مؤسساتها وهيئاتها العاملة، التي تُدارُ غالباً إدارةً جماعيّة. وجزءٌ من الفضل في ذلك يعود لاكتسابهم الذهنيّة المحلّيّة في التنظيم وقوّة الفريق. ثم إلى تنامي عددهم، ونجاح الكثيرين منهم في الناحية الماليّة. بحيث باتوا قادرين على تمويل إنشاء المراكز الدينيّة ـ الاجتماعيّة والمساجد وتزويدها بالأئمة والمبلّغين. ومن ذلك أنّ (المركز الإسلامي في أميركا) في منطقة (ديربورن) بولاية (ميشيغن)، حيث مساكن ومراكز أعمال أكبر تجمّعٍ شيعي في (أميركا)، هو أكبر مركز في القارّة، يحتوي على مسجدٍ يتسع لثلاثة آلاف مُصلٍّ. فضلاً عن عشرات المؤسسات المُنتشرة في مختلف الولايات، تدلُّ بمجموعها على أنّ مَن هم وراءها ويُديرون العمل فيها ما يزالون متعلّقين بشعائرهم الدينيّة وذاتيّتهم الثقافيّة. سنذكر منها ما وصل إلى علمنا به.



(٣) المراكز الشيعيّة في أميركا

مركز الجمعيات الشيعية الإثنا عشرية في أمريكا الشمالية

North American Shia Ithna-asheri Muslim Communities

مركز ديني ثقافي في أمريكا الشمالية تأسس للارتقاء بالمستوى الديني والثقافي للشيعة الاثنى عشريّة في القارة الامريكية

ـ المؤسسة الإسلاميّة في نيويورك Islamic Institute in New Newyork

إحدى أكبر المؤسسات الإسلاميّة الشيعيّة في (أميركا). لها مبنى متعدّد الطوابق بمساحة ٣٦٠٠٠ ألف قدم مربع. شيد من قِبَل مؤسسة علوي الإيرانيّة، ومُنح للمؤسسة الإسلاميّة. تُدار من مجلس أُمناء، وهيئة عموميّة، ومجلس إدارة، ولجنة برامج. وظائف وصلاحيّات هذه الوحدات الإداريّة مسجلة في القانون الأساسي للمؤسسة.

تهتم بالتعليم الديني والثقافة الإسلاميّة، وخصوصاً التلاوة وسيرة الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام، وبتعليم الأحكام، وعقد الندوات والمحاضرات الدينيّة. وبإحياء المناسبات من أعياد ووفيات أهل البيت عليهم السلام. وبتقديم الخدمات الدينيّة والاجتماعيّة والخيريّة للمسلمين، مثل عقود الزواج ومجالس العزاء. وبتعزيز روح

الإخاء بين المسلمين باختلاف مذاهبهم. وبالتواصُل مع المنظمات الإسلاميّة في الولايات المتحدة.

- **مؤسسة الإمام الخوئي**. في (نيويورك). أُسست سنة ١٩٨٠م. تحتوى على مدرسة تُعنى بتلقين التلاوة واللغة العربيّة للمهاجرين وأولادهم. فضلاً عن إقامة الشعائر الدينيّة وإحياء المناسبات في أوقاتها.
- **الجمعيّة الجعفريّة الإسلاميّة**. رابطة الشيعة في منطقة خليج سان فرانسيسكو. الجمعيّة الزينبيّة الإسلاميّة. وهذه الثلاثة المؤسسات في ولاية (كاليفورنيا).
- **المعهد الإسلامي لأهل البيت**. في ولاية (كونكتيكت).
- **مركز قافلة حيدر**. مركز شباب زينب. مركز زينب الإسلامي للتربية. جميعها في ولاية (جورجيا).
- **مركز الإمام المهدي الإسلامي**. في ولاية (إيداهو).
- **منظمة العصر**. منظمة المسلمين الشيعة في الغرب الاوسط. كلتاهما في ولاية (إلينوي).
- **إدارة الجعفريّة التعليميّة**. مركز الإماميّة. كلتاهما في ولاية (مريلاند).
- **مركز الخدمات التعليميّة الإسلاميّة لأنصار الإمام المهدي**. مركز كربلاء التعليمي. مسجد الإمام علي. مؤسسة فدك. جميعها في ولاية (ميشيغن).
- **المركز الجعفري الإسلامي**. في ولاية (مينيسوتا).
- **المركز التعليمي الإسلامي الشيعي**. في ولاية (ميسوري).
- **مؤسسة الهداية**. في ولاية (نبراسكا).
- **الحوزة العلميّة جامعة ولي العصر**. مركز النجف الإسلامي. جماعة الشيعة الاثنى عشريّة. رابطة الشيعة في أميركا الشماليّة. آستان زهرا. جميعها في ولاية (نيويورك).
- **بيت القائم**. محفل شاه خراسان. مركز إمام الزمان في أميركا الشماليّة. جميعها في ولاية (نيوجرسي).
- الاتحاد الجعفري في أوهايو.
- **منظمة الأطباء الإماميّة**. المهديّة. جمعيّة الاثنى عشريّة.جميعها في ولاية (بنسلفانيا).
- **المركز الإسلامي** في (ميشيغن).
- **جمعيّة الشيعة الاثنى عشريّة** في شمال غرب أميركا.
- **مركز إيمان الثقافي** في لوس انجلوس.
- **مدرسة مدينة العلم الإسلاميّة** في كاليفورنيا.
- **مؤسسة الهجرة** في كاليفورنيا.
- **الرابطة الإسلاميّة** لأهل البيت في تكساس.

- **مركز صبا الإسلامي** في كاليفورنيا.
- **المركز الإسلامي ومسجد الرسول** في كاليفورنيا.
- **مركز فرسنو الثقافي الإسلامي** في كاليفورنيا.
- **مسجد الإمام علي** عليه السلام في نيو جرسي.
- **مسجد الزهراء** عليها السلام في لوس انجيلوس.
- **مؤسسة البشير الإسلاميّة** في أريزونا.
- **أكاديميّة ومسجد بيت العلم** في ألينوي.
- **مركز الكوثر الثقافي التعليمي** في أريزونا.
- **رابطة أهل البيت بأميركا** في هيوستن.
- **مركز كربلا الإسلامي** في دير بورن.
- **رابطة الطلاب المسلمين** في أميركا الشماليّة.
- **مركز الإمام المهدي** عجل الله فرجه في بلتيمور.
- **الجمعيّة الحيدريّة.** المركز الإسلامي الثقافي في هيوستن. حوزة القائم عليه السلام. **جميعها** بولاية (تكساس). والحوزة المذكورة تُدرّس مرحلة المقدمات من الدراسة الحوزويّة باللغة الانكليزيّة.
- مركز الكوفة للمعارف الإسلاميّة. في ولاية (فرجينيا).
- **منظمة زينب** في (سياتل) الكبرى.
- **مركز الإمام المهدي** عجل الله فرجه **الإسلامي.** في مدينة (تاشفيل) بولاية (تينيسي) يُعنى بإحياء المناسبات الدينيّة، وتدريس الفقه للراغبين. ويُنظّم عقود الزواج. ويضمّ مدرسة للناشئة.
- **مؤسسة شهيد المحراب للتبليغ الإسلامي.** في مدينة (نيويورك). وهي بإدارة السيّد جعفر الحكيم.
- **مؤسسة الإمام علي** عليه السلام **(مؤسسة الإمام الشيرازي العالميّة).** في ولاية (فرجينيا).
- منظمة **«شيعة» لُمراقبة حقوق الإنسان.** في (سانت لويس). تُعنى بالدفاع عن حقوق الشيعة في العالَم.
- **المؤسسة العالميّة للحضارة الإسلاميّة.** مركز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإسلامي. كلاهما في ولاية (فرجينيا).
- **مؤسسة المكارم الإسلاميّة.** في مدينة (أبري) بولاية (بنسيلفانيا). وهي تضمّ
- **مدرسةً لتلقين التلاوة.** وتهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة.
- **الجمعيّة العراقيّة الإسلاميّة في أميركا.** في مدينة (بوسطن). تهتمّ بإقامة الندوات والمؤتمرت الإسلاميّة.
- **مركز المرئيّات والصوتيّات الإسلاميّة.** في (لوس انجلس). تُصدر مجلّة (الحكمة) الشهريّة بالعربيّة.



والقارئ المُدقّق يرى من أسماء تلك المؤسسات على الأقلّ، على كثرتها وتنوّعها، أنّ الهمّ الرئيس لمؤسسيها والعاملين عليها هو الحِفاظُ على الهُويّة الذّاتيّة، في قِبال حضارةٍ قويّة مؤهّلةٌ لهضم وتمثُّل مَن يعيش فيها من غير أبنائها. باستثناء حالةٍ واحدة غلب عليها الهمّ المهني، هي (منظمة الأطباء الإماميّة). بالإضافة إلى حالةٍ ثانيةٍ ذات صفةٍ دفاعيّة (منظمة «شيع» لمُراقبة حقوق الإنسان) وراءها والحافزُ إلى تأسيسها المظالم التي تنال الشيعة في العالَم.

(٤) شخصيّاتٌ شيعيّةٌ بارزةٌ في أميركا

نذكر في طليعتهم رائدهم وأبقاهم وأبعدهم أثراً، مُلهم ومؤسس النشاط الشيعي في أميركا الشماليّة، الشيخ محمد جواد شرّي يرحمه الله.

هو من أبناء بلدة (خربة سِلِم) من بلدان (جبل عامل). ارتحل إلى (النجف) حيث اختتم حضوره فيها بتلقّي الأبحاث الفقهيّة العالية للشيخ محمد حسين النائيني (ت:١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م).

سنة ١٩٤٨م هاجر إلى (أميركا) باستدعاءٍ من المهاجرين العامليين في (ديترويت). فأقام فيها يرعى شؤونهم الدينيّة. وكان من دأبه أن يزور الجاليات الشيعيّة حيث هي في أنحاء (أميركا).

سنة ١٩٥٩م زار مصر حيث التقى الرئيس جمال عبد الناصر، طالباً مساعدته ببناء مسجد في (ديترويت). فقدّم له مساهمةً ماليّة وشرع في إنشاء أوّل مركزٍ شيعيٍّ في (أميركا). افتُتح سنة ١٩٦٢م. ثم جرت توسعته فيما بعد.

توفي ودُفن في (بليموث) في المقبرة التي أنشأها.

- **السيّد حسن القزويني**. كان حتى أمدٍ قريب إمام مسجد ومدير المركز الإسلامي في (ديترويت).
- **السيّد حسين نصر**. الكاتب والباحث الإيراني الشهير.
- **السيد جعفر الحكيم**. مدير مؤسسة شهيد المحراب في (نيويورك).
- **الدكتور رضا الخالصي**.مدير مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.
- **السيد عادل نور الياسري**. مدير منظّمة «شيعة» لمراقبة حقوق الإنسان.
- **الشيخ فاضل السهلاني**. مدير مركز الإمام الخوئي في (نيويورك).
- **جعفر أمير**. مدير المركز الإسلامي الثقافي في (هيوستن).
- **نضال سلطان**. مدير مركز الإمام المهدي في (ناشفيل).
- **الشيخ عبد اللطيف بري**.مدير المجمع الإسلامي في (دير بورن) (ديترويت).

وغيرهم كثيرون جدّاً يعسر إحصاؤهم.

الباب الثاني: كندا

(١) الإسلام في كندا

الإسلام جديدٌ على (اتحاد كندا). لأنّه، على مساحته الهائلة التي تناهز العشرة ملايين كم٢، مايزال في طور التكامُل والنموّ سُكانيّاً. والهجرة الإسلاميّة إليها إنّما نشطت في العقود الأخيرة، بسبب المُتغيّرات السياسيّة الكبيرة التي جدّت على شرق العالَم الإسلامي خصوصاً.

ويجدرُ بنا في المقام أن نذكر أن (كندا) هي البلد الوحيد بين البلدان الغربيّة الذي يتمتّع سكانه، ومنهم المسلمون طبعاً، بالحريّة المطلقة في أن يعتقدوا ويتصرّفوا ويظهروا بما تُمليه عليهم عقيدتهم وتقاليدهم، مادام لا يتعارض مع قانونٍ مَرعيّ. ولقد شهدتُ مرّة شرطيّاً من أصلٍ هنديّ يُنظّم السير في مدينة (أدمنتون) بمقاطعة (ألبرتا)، وهو يعتمر عمامة السيخ المعروفة، وعليها الشعار الرّسمي المُناسب لوظيفته. وليس من الغريب أن نرى في الأماكن العامة هناك امرأةً مسلمةً ترتدي الحجاب الإسلامي، بل منهن مَن ترتدي الشادور الإيراني أو النقاب السعودي.

(٢) الشيعة في كندا

مامن إحصاءٍ رسميٍّ لعددهم هناك. والأحصاءات الأُسريّة الرسميّة، المُشار إليها قبل قليل، أخذت بالاعتبار الإسلام جُملةً دون مذاهبه.

وتقول مصادرُ قريبةٌ من الشأن الشيعي، وعلى اطلاعٍ جيّدٍ عليه. أنّ عددهم الإجمالي هناك أوائل القرن كان ثلاثمائة ألف: خمسةٌ وثمانون ألفاً في مدينة (تورنتو) ٦٠٠٠ منهم إيرانيون، و١٥٠٠٠باكستانيون، و ٦٠٠٠ أفغانيّون، و٢٠٠٠ من كلٍّ من (العراق) و (لبنان). وخمسون ألفاً في مدينة (مونتريال). وأربعون ألفاً في (فانكوفر). وثمانية آلاف في (كالغري). وعشرة آلاف في (وندسور). واثنى عشر ألفاً في (أُوتاوا). والباقون متفرّقون بنسبٍ أقلّ في غيرتلك المقاطعات. وما من ريبٍ في أنّ هذه الارقام قد تصاعدت بعد ذلك في ظلّ الأوضاع الأمنيّة غير المستقرّة في غير بلدٍ إسلاميّ وما تودي إليه من هجرات.

(٣) المؤسسات الشيعية في كندا

ولقد استفاد الشيعة فيما يبدو من أجواء الحريّة الممتازة في مهاجرهم الكنديّة. فطفقوا ينشئون المؤسسات التعليميّة والثقافيّة والدينيّة، بما لانجِدُ له نظيراً في أي بلدٍ غربيّ. ونذكر أدناه منها ما وصل إلينا العلمُ به:

١. **جمعيّة السلام الخيريّة Asssalam Foundation**. في مدينة (مسيساغا). بإدارة السيّد الدكتور علي الجزائري. وهي ذات اهتمامات واسعة من إحياء المناسبات الدينيّة والأعياد الإسلاميّة. وتلقين التلاوة للناشئة، وإقامة ندوات اجتماعيّة ودينيّة. والعناية بتجهيز الأموات. وما إلى ذلك.

٢. **المجتمع الإسلامي في مونتريال. Muslim Community Center of Montrial** بإدارة العراقي الحاج وفيق خليل. ويهتم برعاية الشؤون الدينيّة للجالية العراقية في المدينة. ومن ذلك مدرسة لتعليم اللغة العربيّة، وتنظيم عقود الزواج بما يتناسب مع الشريعة الإسلاميّة والقانون المدني المعمول به في كندا.

٣. **مركز البتول الإسلامي Albatoul Islamic Society**. في مدينة (هاليفاكس). بإدارة العراقي حسن العويد. ويهتم بإحياء الشعائر والمناسبات الدينيّة. وتدريس الأحكام، ومدرسة لتعليم اللغة العربيّة، وإدارة نشاطات رياضيّة.

٤. **مؤسسة الغدير الإسلاميّة. في مدينة (كالغري)**. بإدارة الحاج مهدي ابن المؤلف، بالتعاون مع الجالية اللبنانيّة الكبيرة في المدينة. وتهتم بالشعائر والمناسبات الدينيّة. مع تنظيم ندوات دينيّة ثقافيّة مساء أيام السبت.

٥. **جمعية الرسول الاعظم الإسلاميّة Arrasoul aladham Islamic Comunity**. في (هاليفاكس ـ نوفا سكوشا). بإدارة الحاج طالب أبو زينب، من (القطيف) فيما يبدو. تهتم بتلاوة دعاء كميل ليالي الجمعة،ثم محاضرة باللغة الانكليزيّة. وبرنامج بثّ مباشر من (القطيف). وإحياء غالب مناسبات أهل البيت عليهم السلام.

٦. **حسينيّة الحوراء زينب الكربلائيّة. في (مونتريال)**. تنظم مجالس حسينيّة مساء كل يوم جمعة. ومجالس قرآنيّة، ونشاطات ترفيهيّة للشباب.

٧. **مؤسسة ومسجد أهل البيت**. في (مونتريال). بإدارة العراقي الحاج عمّار الزبيدي. لها نشاطات واسعة، من إحياء الشعائر والمناسبات الدينيّة، والأعياد الإسلاميّة. ونشاطات للفتيان والشباب مساء كل يوم جمعة، ضمنها دروس قرآنيّة. وإقامة مخيمات ونزهات رياضيّة ترفيهيّة وبرامج عائليّة.

٨. **مسجد أبو ذر الغفاري**. في (أوتاوا). برعاية عبد الله الفضلي. وهو أوّل وأكبر مسجد في شرق ولاية (أُونتاريو). افتُتح سنة ١٩٩٣م. تُقام فيه الصلوات اليوميّة وصلاة الجمعة. وتُعقد فيه حلقاتٌ لتلقين التلاوة.

٩. **حسينيّة المصطفى**. في مدينة (هاملتون). بإدارة أمين الطاهر. ضمنها مدرسة لتعليم الناشئة اللغة العربيّة وتلقينهم التلاوة. وفيها تُحيى المناسبات الدينيّة. كما تخدم الجالية الشيعيّة في المدينة في المناسبات الاجتماعيّة من أعراسٍ وفواتح.

١٠. **مؤسسة الكوثر. Al kawther Community Center Of Calgary**. في مدينة (كالجري). بإدارة هاشم فوّاز.وهي تُعنى بإحياء المناسبات الدينيّة والاجتماعيّة للجالية اللبنانيّة.

١١. **مركز الإمام المهدي Al-Mahdi Islamic Center.** في (أونتاريو) بإدارة السيّد زكي الباقري.

١٢. **مؤسسة الإمام الحسين الخيريّة. Imam Hussain Charitable Foudation.** في مدينة (مونتريال). تُدير برنامجاً حافلاً. من إقامة الصلوات وإحياء المناسبات. إلى دروس أُسبوعيّة لتعليم اللغة العربيّة وتلاوة القرآن والأحكام. وجلسات ثقافيّة أُسبوعيّة للشباب، تتناول موضوعاتٍ عقيديّة وفقهيّة وتاريخيّة وأخلاقيّة. إلى توزيع المنشورات والكُتُب باللغات العربيّة والانكليزيّة والفرنسيّة.

١٣. **مؤسسة الإمام الحسين** عليه السلام. في مدينة (ويندزور). تضمّ مسجداً تُقام فيه صلاة الجمعة و الصلاة اليوميّة جماعةً. وحوزةً دينيّة تعتمد مناهج حوزة (النجف) و (قُمّ). ومدرسة دينيّة يوم الأحد بالانكليزيّة لتعليم الدين والقرآن. ومعهد الإمام الرضا عليه السلام لتحفيظ القرآن. ومكتبة الإمام علي عليه السلام العامّة. إلى غير ذلك من مختلف النشاطات الدينيّة والثقافيّة.

١٤. **مركز أهل البيت** عليهم السلام **في (أوتاوا) Ahlulbayet Center Ottawa.** «مركزٌ إسلاميٌّ أهلي لرعاية الاحتياجات الاجتماعيّة والدينيّة للمجتمع الإسلامي في كندا». تأسس سنة ١٩٩٣م.

١٥. **جمعيّة الشيعة الجعفريّة** في تورنتو. بإدارة رزاق دمني.

١٦. **رابطة الإمام المهدي المنتظر Almahdi Almuntazar Union** في (أونتاريو). بإدارة محمود حيدر. تهتم بأطفال الجالية المسلمة وإقامة الندوات وإحياء الشعائر والمراسم الدينيّة.

١٧. **مركز الزهراء الإسلامي. Al- Zahra (a.s) Islamic Center.** في (مسيساغا- تورنتو) بإدارة السيد علي الجزائري. لها برنامج أُسبوعي في ليلتي الجمعة والأحد. وتدير مدرستين للناشئة كلّ أحد بالعربيّة والفارسيّة. وتُنظّم مراسم الزواج والعزاء في مركزها للجالية.

١٨. **مؤسسة الفتح المبين. Al-Fateh Al-mubin Publications.** في (أُونتاريو). بإدارة الشيخ سليم بيمجي. تنشر الكُتُب والدراسات والبحوث الإسلاميّة الجعفريّة.

١٩. **مؤسسة فاطمة البتول. Al-Batul Fatima Association inc..** في (أوتاوا). بإدارة شاكر الصافي. تهتم بالشعائر والمناسبات. وتُصدر نشرةً شهريّةً في مواقيت الصلوات ومواعيد ذكريات أهل البيت. وتُجري عقود الزواج الإسلاميّة في مكتبٍ خاصٍّ مُجازٍ من قِبل الحكومة.

٢٠. **مؤسسة الخدمة الإنسانيّة الإسلاميّة Islamic Humanitarian Service.** في (مونتريال).

٢١. **مجمع أهل البيت** عليهم السلام **Ahlul Bayet Assambly of Canada.** في (تورنتو). بإدارة الشيخ محمد صادق الابراهيمي. يهتم بعقد الندوات الإسلاميّة، وإحياء المناسبات الدينيّة.

٢٢. **مركز المصطفى الإسلامي. Al-Mustfa center.** في (هاملتون). بإدارة محمد البزوني. يهتم بخدمة الجالية العربية عامةً والعراقية خصوصاً في مدينة (هاملتون).

٢٣. **جمعية الرسالة الإسلاميّة اللبنانيّة الكنديّة. Association El-Rissaleh Libano-canadienne.**



في (مونتريال) بإدارة الحاج علي فاعور. مركزٌ إسلاميّ، كشافة الرسالة الإسلاميّة، ومدرسة تدرّس باللغة العربيّة.

٢٤. **جمعية الدعوة والتبليغ The Dawah Tabligh Association**. في (تورنتو). بإدارة السيد محمد جمعة. مسجدٌ ومركزٌ إسلامي. دار نشر. مدرسة، مكتبة عامة إسلاميّة. مع الاهتمام بالُمستبصرين. وتُصدر مجلّةً إسلاميّة.

٢٥. **مؤسسة الإمام الخوئي الخيريّة Al-Khoie Foundation**. في مدينة (مونتريال). مركز إسلامي ثقافي يهتم بأُمور الجالية في (مونتريال). ويوفّر لهم خدمات مختلفة. منها مكتبة عامة إسلاميّة، محاضرات وندوات دينيّة، مجالس عزاء، دورات تعليميّة صيفيّة.

٢٦. **جمعية الرسالة الإسلاميّة العراقيّة. Alrissala Iraqi Islamic Society**. في (تورنتو).

٢٧. **مؤسسة الزهراء العالميّة**. في (مونتريال). بإدارة الشيخ محمد الطائي. تضمّ مسجداً،ومؤسسة المرتضى لإجراء وتسجيل عقود الزواج الشرعيّة والرسميّة. أكاديميّة ابن سينا. مخيّم الزهراء. وخدمات دينيّة متنوعة.

٢٨. **جمعية الشيعة في كالكري. Hussaieni Association of Calgary**. بإدارة رياض خواجا. تُقيم صلاة الجمعة وتلاوة القرآن، وتعقد ندوات دينيّة.

٢٩. **جمعية المسلمين الشيعة. The Shia Musslem Community**. في (فانكوفر).

٣٠. **مركز الرسول الأعظم الإسلامي The Great prophet Isslamic Association**. في (فانكوفر).

٣١. **مجمع مسلمي فانكوفر Vancouver Musslem Community**.

٣٢. **مؤسسة الإيرانيين المسلمين Persian Mosslem Foundation. جمعية الحسينيين الكنديين Canadian Hussaini Association** كلتاهما في (فانكوفر).

٣٣. **جمعية الولاية الإسلاميّة. Al_wilayat Isslamic Association**. في (هاملتون).

٣٤. **المركز الرضوي الإسلاميRazavi Isslamic Center**. في (هاملتون).

٣٥. **مركز الجعفريّة الإسلامي Jaafaria Isslamic center**.

٣٦. **جمعية الهدى الإسلاميّة. Al-huda Musslem Society**. بإدارة الحاج محمد شكرون.

٣٧. **مركز الهدى**. جمعية الهدى. تنظم برامج تعليميّة ترفيهيّة للشباب. وتُحيي الشعائر الدينيّة.

٣٨. **جمعية بني هاشم (باب العلم) Bany Hashim Socaiety**.

٣٩. **مجمع أهل البيتAhlulbaiet Socaiety**. بإدارة الشيخ الإبراهيمي. جميعها في (تورنتو).

٤٠. **المجمع الإسلامي لشيعة كندا.**

٤١. **جمعية الأفغان الشيعة. Al-Afghan Shia Society**. في (مونتريال). بإدارة غضنفر حسيني.

٤٢. **جمعية الهداية الإسلاميّة. مُصلّى الإمام المهدي. Alhidaya Islamyia Association Musalla Alimam Almahdi**. في (مونتريال). بإدارة الشيخ علي سبيتي.

٤٣. **الجمعيّة الإسلاميّة للشيعة الاثنى عشريّة.Isslamic Shia IthnaAshariya Association**. في (مونتريال).

٤٤. **الاتحاد الإسلامي للطلبة الإيرانيين.Isslamic Society of Iranian Studend**. في (مونتريال).

٤٥. **الجمعيّة الإسلاميّة للشيعة الحيدريين. Shia Haidarya Isslamic Socaiety**. في (مونتريال). بإدارة جاويد قريشي.

٤٦. **الاتحاد الطلابي للتوعية الإسلاميّة. Students Association for Musslem Awarenes** في (مونتريال).

٤٧. **مركز الزهراء الإسلامي**. أو الجماعة الشيعيّة. في (كولومبيا البريطانيّة). وهو أحد المعاهد التعليميّة الشيعيّة في (كندا). له مركزٌ كبيرٌ في مدينة (ريتشموند).

وللمركز نشاطات متنوعة، تهتمّ بتعريف المسلمين على أُصول الإسلام وأحكامه. وينظّم برامج تعليميّة على قيم الإسلام وأُصولها في النظام الأخلاقيّ.



كل ذلك بالإضافة إلى مايزيد عن مائة مسجد وحسينيّة بإشرافٍ شيعي، تنتشر في (كالغاري) و(أوتاوا) و(تورنتو) و(فانكوفر) و(كينغستون) و(مونتريال) و(كيتشنز) و(فـادزور) و(أدمنتون) و(أونتاريو) و(لندن) و(هاملتون) و(نياجرا).

الباب الثالث: المكسيك

(١) الإسلام في المكسيك

استناداً إلى تقديرٍ صدرفي السنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، فإن عدد المسلمين الإجمالي في (المكسيك) كان آنذاك بحدود عشرين ألف مسلم. عامتهم من المهاجرين من الشرق الأوسط خصوصاً من بلاد)الشام(. وبالأخص من (لبنان). ومن أهم عوامل وأسباب انطلاق هجرة هؤلاء الهرب من المظالم العثمانيّة الفظيعة. خصوصاً فرْض الجنديّة الإجباريّة عليهم. التي كانت بمثابة الحكم بالموت على المُجنّدين.

بدأت المراكز الإسلاميّة بالظهور في (المكسيك) تباعاً ابتداءً من السنة ١٩٨٤م. وذلك بتأسيس (النادي المصري. بعده أسّس مهاجرون مسلمون لبنانيّون ومغاربة وباكستانيّون بالتعاون فيما بينهم (المركز التعليمي

لمسلمي المكسيك)، ومسجد (دار السلام) في العاصمة. وإلى ما قبل بضع سنوات بلغ مجموع عدد المساجد في كل (المكسيك) ثمانية مساجد.

(٢) الشيعة في المكسيك

مامن تقديرٍ لعددهم هناك. والمؤكّد أنّهم أقلّيّةٌ صغيرة. أغلبهم من المهاجرين اللبنانيّين من (جبل عامل) ومن (بعلبك) ونطاقها. وهم يتركّزون في مدينة (لاجونا) بولاية (توريون)، حيث لهم مركزٌ باسم (المجتمع الإسلامي)، أُنشئ سنة ٢٠٠٥ م. ويضمّ مسجداً. وفيه تُحيى شعائر شهر المحرم. وفي العاصمة (جمعيّة المسلمات المكسيكيّات)، أسّسها ويُديرها عددٌ من النساء الشيعيّات اللبنانيّات من (جبل عامل).

الفصل الثاني

أميركا الجنوبيّة (اللاتينيّة)

الباب الأول: البرازيل

(١) الإسلام في البرازيل

ما من ريبٍ في أن عدد المسلمين الإجمالي اليوم في (البرازيل) هو بالملايين، ويصعب التحديد.

ذلك أن هذا البلد الشاسع الغنيّ ظلّ منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي يستقبل المهاجرين القادمين من مختلف أنحاء بلاد الإسلام، وخصوصاً من بلدان الشرق الأوسط (لبنان، سوريا، فلسطين)، يدفعهم البحث عن معيشةٍ أفضل، وعن الفرار من الخدمة العسكريّة الإلزاميّة التي ضربها الحكم العثماني على (رعاياه) من المسلمين في هذه البلدان. وكانت بمثابة حكمٍ بالموت إرهاقاً وجوعاً وبرداً على مَن يمتثل لها أو يُجبر عليها. ومامن حقيقةٍ تبيّن لنا اتساعَ وتمادي الهجرة إليه من (لبنان) بالخصوص، مثل الحقيقة المعروفة القائلة أنّ عدد اللبنانيين ومَن هم أصلٍ لبناني في (البرازيل) يفوق بكثير عدد سكانه الحاليين. وهذه من أغرب الظاهرات السكانيّة في الدنيا، إن لم تكُن أغربها على الإطلاق.

المهمّ بالنسبة إلينا الآن أن نسبةً المسلمين في (البرازيل) لا تقلّ عن الـ ١٥٪ من مجموع السكان.

تضمّ العاصمة البرازيليّة (ساوباولو) سبعاً وعشرين جمعيّةً إسلاميّةً. منها وأقدمها وأعلاها شأناً (الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة)، التي تأسست في ١٠/ ١/ ١٩٢٦م. عدد أعضاء هيئتها العامة الحالي مائتا ألف، جميعهم من المسلمين اللبنانيين. من مرافقها: مركزٌ إسلاميّ، ومسجدٌ كبيرٌ يرجع تاريخ إنشائه إلى عام ١٩٤٢م. وهو أقدم مسجدٍ في (البرازيل)، ومدرسة، ومقبرة، ومقرٌّ اجتماعي ـ ثقافي. وكانت قد أصدرت عام ١٩٣٣ م صحيفةً بالعربيّة باسم (النّشرة)، ثم صحيفة (الذكرى) عام ١٩٣٧م، ثم (الرسالة)، وأخيراً (العروبة).

ثم هناك أيضاً (مركز نشر الاسلام في أمريكا اللاتينيّة). عنه يصدر أكبر عددٍ من المنشورات الإسلامية، التي توزّع في المساجد باللغة العربيّة، وأيضاً في المراكز الثقافيّة البرازيليّة باللغة البرتغاليّة. كما ينظّم مؤتمراتٍ علميّةٍ في مقرّه، يدعو إليها باحثين متخصّصين في الشأن الإسلامي. ويُعنى أيضاً بالتنسيق وتقوية الروابط بين الجاليات الإسلاميّة في (البرازيل) ومُحيطها في (أميركا اللاتينيّة). إلى غيرهما من مراكز وجمعيّات ومؤسسات جمّة)مساجد، حسينيات، مدارس)، يعسُرُ تتبّعها في الرقعة البرازيليّة الشاسعة. نذكر منها الجمعية الخيرية الإسلامية في (سانتو أمارو)، وجمعية الثقافة والرفاه الإسلامية، والاتحاد الخيري في (باريتوس)، والجمعية الخيرية في (جوندي يايي)، والمركز الإسلامي في (كامبيناس)، والرابطة الثقافية العربية البرازيلية، ومؤسسة الإغاثة والتنمية العالمية، ومركز الدعوة الإسلامية لأميركا اللاتينية، ومستشفى ابن سينا الإسلامي في العاصمة.

أما المؤسسات الإسلامية والمساجد في أنحاء البلاد خارج العاصمة (ساو باولو) فهي بالعشرات. اشترك في تأسيسها وإدارتها مسلموا (البرازيل) من كافة المذاهب فيها.

وممّا يجدر بنا ذكره في هذا السّياق أن كافة المؤسسات الإسلاميّة كانت هناك، حتى أمدٍ غير بعيد، ملتقىً للمسلمين بكافة مذاهبهم دون أدنى تمييز. تسود فيها روح التعاون، لِما فيه خير ورضى الجميع. إلى أن نجحت الثورة الإسلاميّة في (إيران) ونهضت الجمهوريّة الإسلاميّة، فانبرت الوهابيّة بما تحت يدها من إمكانيّاتٍ ماليّة ضخمة، لتعمل تهديماً بالأواصر التي تجمع المسلمين. ردّا، فيما يُشبه العقوبة، على استجابتهم العفويّة الباهرة على الإنجاز الإيراني المُذهل، وما انبنى عليه عفواً من يقظةٍ على الإمكانات الكامنة في الإسلام وجمهوره.

وسنقفُ فيما يلي على ما اطلعنا عليه من بعض تقاريرهم إلى سادتهم في شأن المسلمين في (البرازيل). وعلى خيبة أملهم فيما حاولوا أن يعملوا، وما رموا إليه منها.



(٢) الشيعة في البرازيل

ترجع أسباب وجود شيعةٍ فيها إلى الأسباب نفسها وراء وجود غيرهم من المسلمين. وما هي إلا المظالم العثمانيّة التي انصبّت عليهم في بلادهم، وفي رأسها نظام الخدمة العسكريّة الإلزاميّة الرهيب، على ما بسطناه قبل قليل.

بيد أنّ وجود غير الشيعة من المسلمين سابقٌ زماناً على وجود غيرهم، فضلاً عن أنّ هذا متنوّع المصدر. وإن يكن إجمالاً من بلاد الشام (فلسطين، سوريا، لبنان). في حين أنّ المُهاجرين الشيعة إلى (البرازيل) هم إجمالاً من (لبنان) حصراً، وأن هجرتهم الأُولى انطلقت من أنحاء (جبل عامل) وأكثرهم من مدينة (بعلبك) ونطاقها، فيما يُشبه الفرار الجماعي. وذلك في السنتين الأخيرتين من الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤.١٩١٨) م.

الذي سجّلته الذّاكرة الشعبيّة تحت عنوان (سفر برلِك) باللغة التركية، أي السفر البرّي. حيث فُرض على كل الذكور مابين سنّ البلوغ والستين أن يرتحلوا باتجاه (تركيا) سيراً على الأقدام، ليسدّوا مَسَدَّ الخسائر الجسيمة في الرجال الاتراك بسبب الحرب.

في تلك الأيام السوداء، كان الهمّ الرئيس للرجال أن يبيع أحدهم ما يتيسّر بيعه ممّا يملكون، ليرشو بثمنه الموظف التركي الموكَل بمنح أُذونات السفر. وحتى اليوم ما تزال المُشكلات القانونيّة الناشئة من الأملاك التي تركها المهاجرون خلفهم ما تزال عالقة، بعد أن ابتلعتهم أرض (البرازيل) إلى الأبد.

ثم أن الهجرة نفسها انتعشت من جديد بعد احتلال (فلسطين) سنة ١٩٤٨م. ذلك أن الاحتلال قطع شبكة الطُرُق التي كانت تربط (جبل عامل) بمُدُن (فلسطين) يوم كانت تحت الانتداب البريطاني، فتتيسّر لأهله هناك فُرَص العمل والتبادل التجاري. وجاء الانقطاع ليولد حالةً من الاختناق المعاشي. لم يجِدْ أبناء (جبل عامل) ردّاً عليه إلا بالهجرة. و فازت (البرازيل) بحصة الأسد من المهاجرين.

المُتداول على ألسنة الناس من ذوي العلاقة والمعرفة، أنّ عديد الشيعة اللبنانيين في (البرازيل) يبلغ زهاء المليون. سبعمائة ألف منهم في العاصمة (ساو باولو) وضواحيها. أغلبهم يعملون في التجارة. ولكنّ منهم أيضاً الأطباء والمهندسون والمحامون ورجال السياسة والإدارة.

ومن الثابت أنّهم أنشأوا في العاصمة مسجداً باسم (مسجد محمد رسول الله). أنشأته (الجمعيّة الإسلاميّة لأبناء المسلمين الشيعة). كما أنشأواحسينيّةً كبرى تُحيى فيها المناسبات في شهري المحرّم ورمضان، ووفيات الأئمة عليهم السلام. فضلاً عن المناسبات الاجتماعيّة الخاصة بأبناء الجالية، من أعراس ومجالس الفاتحة للمتوفين. بالإضافة إلى مكتبة عامّة، ومدرسة لتعليم العربيّة وتلقين تلاوة القرآن العزيز، وما إلى ذلك.

ولهم في العاصمة (المركز الإسلاميّ لشيعة البرازيل). الذي تعرّض منذ بضع سنوات لهجومٍ مُسلّحٍ من الجماعات الوهابيّة. أدّى إلى تخريب ونهب موجوداته.

من مناطق تجمّعهم الأبرز أيضاً مدينة (كورتيبا)، عاصمة ولاية (بارانا) جنوب البلاد، حيث جاليةٌ لبنانيّةٌ شيعيّةٌ لايقلّ عديدها عن الألف. لهم جمعيّةٌ خيريّة أنشأت (مسجد الإمام علي عليه السلام)، الذي يضمُّ قاعةً للاجتماعات. ولديها أيضاً مدرسة لتعليم الناشئة اللغة العربيّة، وتلقين التلاوة نهار كلّ يوم أحد، بالإضافة إلى مقبرة خاصّة بالمسلمين. وتُصدر مجلّة باللغة البرتغاليّة تُباع في المكتبات.

وفي مدينة (فوز دو إيجواسو) بالولاية نفسها، وهي تقع على الحدود المُشترَكة مع (الارجنتين) و (الباراغواي)، توجد جالية مماثلة، لكنها أكبر بكثير. يبلغ عددها سبعة آلاف أغلبهم من (جبل عامل). لهم مؤسسات تجاريّة متنوعة، تُعدُّ الأقوى على مستوى (البرازيل). و(الجمعيّة الإسلاميّة في فوز دو ايجواسو)، التي أنشات مسجداً كبيراً باسم (مسجد الإمام الخميني) و (المدرسة العربيّة البرازيليّة)، التي تتسع لثماني مائة طالب، و(حسينيّة الإمام الخميني). ولطالما أثارت هذه الجالية الكبيرة النشيطة الغنيّة حفيظة الوهابيين وعملاء إسرائيل، ونسجوا حولها ضروب البهتان. تارةً بأنّها تأتي بأعمالٍ إرهابيّة بخدمة (إيران). وأُخرى بأنّها

تعمل بإنتاج وترويج المخدرات لحساب المقاومة في (لبنان).

وفي مدينة (ايتابيفي) في نطاق العاصمة جالية عامليّة كبيرة، أغلب أفرادها من آل كوراني من بلدة (ياطر) العامليّة. وفي مدينة (جوكب) جاليةٌ مماثلة، أنشأت مسجداً. وفي مدينة (ريو دي جينيرو) جاليةٌ لبنانيّةٌ شيعيّةٌ كبيرةٌ جداً. نظّمت نفسها في جمعيتين خيريتين. من أعمالها مدرسة تتبع المنهج الدراسي المعمول به في وطنها الأصلي.

ولقد برُز من أبناء الجالية اللبنانيّة الشيعة أفرادٌ تسنّموا مراكز هامة وموقعاً عالياً. نذكرُ منهم اللبنانييَّن محمد سعيد مراد، عضو بلديّة العاصمة. ومن الغني عن البيان أن انتخابه دليلٌ على قوّة الحضور السياسي للجالية اللبنانيّة الشيعيّة فيها. والسيّد حسين جمعة، الذي رئس (الاتحاد الإسلامي في بارتيوس) من ضواحي (ساو باولو)، ووضعَ الحجر الأساس لمشروع مسجدٍ كبيرٍ فيها. ولدى تشييع جنازته الحافلة أُغلقت دوائر الدولة في الضاحية، وحيّاه سربٌ من الطائرات منذ خروج جنازته من داره حتى مثواه الأخير.

هؤلاء، إلى عددٍ من علماء الدين، لبنانيين وإيرانيين، استقروا لفترةٍ أو غيرها في إحدى المُدُن البرازيليّة، وعملوا فيما عملوا عليه على إرسال عددٍ من المستبصرين البرازيليين إلى (قُمّ) للدراسة. لكن يبدو أن التضييق السياسي والأمني الرسمي على أولئك العلماء، خصوصاً على أثر تفجير المركز الثقافي اليهودي في العاصمة الأرجنتينيّة سنة ١٩٩٤م، قد حال بينهم وبين متابعة عملهم التبليغي، فانقلبوا عائدين إلى أوطانهم. باستثناء عالم الدين الإيراني الشيخ طالب حسين الخزرجي، الذي كان حتى أمدٍ قريب يُقيم ضمن التّجمّع السكاني الشيعي الكبير في العاصمة (ساو باولو)، منصرفاً إلى عمله التبليغي بين اخوانه المؤمنين، وإحياء الشعائر والمراسم الدينيّة، وإلى إنتاج ونشْر النشرات الدّعويّة باللغة البرتغاليّة.



ذلك النهوض الشيعي الباهر في أنحاء (البرازيل) استفزّ الوهابيين على بُعد الشّقة. ومن الطريف أن يقرأ المرءُ تقريراً وضعه مبعوثٌ من قِبلهم فيما يبدو، ابتغاء توصيف أشكال الحضور الشيعي الكبير الفاعل في المُدُن والبلدان البرازيليّة، واقتراح وسائل وسُبُل التّصدّي له وإرباكه وإحباطه. وما حُشي به التقريرمن ضروب التهويل والتحريض والبهتان. فضلاً عن اللغة الرّكيكة والاخطاء الفاحشة من كل ما يخطر بالبال. وكل ذلك صار مألوفاً عندنا في كل ما يصدر عنهم.

لكن التقرير، من جانبٍ آخر، عزّز معلوماتنا عن موضوع هذا الباب. وقدّم لنا معلوماتٍ غنيّة عن الجاليات الشيعيّة في أنحاء (البرازيل)، وعن أماكن تجمّعها وعديدها وإنجازاتها. مع أنّهم أُناسٌ مُقتلَعون من ديارهم بسبب العوز والفاقة والافتقار إلى الأمن. نزلوا دياراً لا يعرفونها ولا يُحسنون لغتها.

ومن الغنيّ عن البيان، أننا ما كان لنا ان نحصل على ما هو أقلّ من تلك المعلومات من أي مصدرٍ آخر. ذلك يدلُّ على الجهد الكبيرالمبذول في تتبُّع تلك المعلومات عن الشيعة في الرقعة البرازيليّة الشاسعة. فسبحان النّافع الضّارّ، الذي يسّر لنا هذا وما كنا له مقرنين.



الباب الثاني: الأرجنتين

(١) الإسلام في الارجنتين

الأرجنتين، يعني (بلد الفضّة) على ماسمّاها به المستعمرون من البرتغاليين، وهم عماد سكانها اليوم، بلدٌ ذو علاقةٍ تاريخيّةٍ عريقةٍ مع الإسلام وأهله. هي في بعض وجوهها استمرارٌ للعلاقة الحَرِجَة التي نهضت بين الاسلام و (أُوروبا)، أثناء فترة الاحتلال الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيريّة (إسبانيا والبرتغال).

ثمة دراساتٌ تذهب إلى أنّ المسلمين الأوائل في الأرجنتين يرتفع وجودهم زمانيّاً إلى فترة الاستكشافات الاسبانيّة ـ البرتغاليّة في (أميركا)، في القرن الخامس عشر الميلادي. حيث جموعٌ غير قليلة العدد من المسلمين الذي بقوا في (البرتغال)، بعد سقوط الاندلس شاركوا المُستكشفين. فاندفعوا للترحال معهم في عملهم الاستكشافي. لكنهم آثروا الإقامة حيث وصلوا، هرباً ممّا يُعانونه في وطنهم من تفرقة واضطهاد. وكانوا بذرة الإسلام في البلد الذي سمّاه المستعمرون البرتغاليّون باسم يشي عن بُغيتهم منه: بلد الفضّة.

ثم يوم كان ما يزال تحت السُلطة البرتغاليّة انفتحت الهجرة إلى (الأرجنتين) من بلاد الإسلام، خصوصاً من المنطقة الشاميّة، ومنها طبعا (لبنان)، بسبب البلاء العثماني، الذي أشرنا إلى وجوهه غير مرةٍ قبل قليل. فشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حركة هجرة من أنحائها. أعقبتها هجرةٌ ثانيةٌ في الربع الأول من القرن العشرين، بموازاة ما وصفنا به الهجرة إلى (البرازيل) في الباب السابق. مع ملاحظة أن الهجرة الأُولى كانت غالباً من المسيحيين، هرباً من العوز، ورغبةً في سُكنى بلدٍ مسيحي. أمّا الثانية فكان أكثرها من المسلمين فراراً من بلاء التجنيد الإجباري. وقد كان المسيحيون معفيين منه. بعدها انقطعت الهجرةُ إلى (الأرجنتين) من بلاد (الشام) أو كادت، لتنفتح مؤقتاً من (باكستان) و (البنغال) و (الهند)في فترة الاضطرابات الجسيمة التي انتهت إلى تقسيم (الهند). وهي آخر هجرةٍ إسلاميّةٍ إلى (الأرجنتين).

هكذا يمكن القول بصدق أنّ المسلمين اليوم في (الأرجنتين) هم جَماع تلك الهجرات المتوالية.

ما من إحصائيّاتٍ ثابتةٍ لعدد المسلمين في (الأرجنتين) اليوم. لأسبابٍ غير خفيّةٍ على القارئ العارف. وفي رأسها أنّ الذّاكرة الجماعيّة الغالبة هناك تحمل عداءً لدّاً للإسلام وأهله، مستمراً منذ حروب الاسترداد التي قضت على الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيريّة. وإن نصّت القوانين المعمول بها عندهم على حريّة الأديان وتعايشها على صعيدٍ واحد. لكنّنا رأيناها من جهةٍ ثانية تحصر بعض المناصب العليا بالمسيحيين الكاثوليك. ومن إمارات ذلك أن الرئيس الارجنتيني (١٩٨٩ ـ ١٩٩٩م)، المسلم السوري الأصل كارلوس منعم اضطر، على الرغم ممّا له من شعبيّةٍ واسعة، إلى إعلان اعتناقه الكاثوليكيّة ليتسنّى له الترشح لمنصب رئيس الجمهوريّة. ومن تأثير تلك الذّاكرة، أنّه حتى أمدٍ قريب لم يتمكّن المسلمون في (الأرجنتين) من تأسيس هيئةٍ رسميّةٍ موحّدة لهم، كما في (اسبانيا)، على الرغم من محاولات بعضهم إيجاد هيئة تمثيليّة إسلاميّة رسميّة.

ما من ريبٍ في أنّ غياب الهيئة الرسميّة التمثيليّة النّاظمة للمسلمين الأرجنتينيين، إلى جانب تصريحاتٍ خشنةٍ بحقهم من مسؤولين حكوميين، تحثُّ على العداء والكراهية لهم تحت شعار الإرهاب، الذي يعني عندهم حتى أعمال المقاومة للإحتلال اليهودي لـ (فلسطين). فضلاً عن بعض الاجراءات الرسميّة التي تتعارض مع حق المرء في أن يتماهى مع عقيدته (مثلاً: إلزام الفتيات المسلمات المحجّبات بأن تكون صورتهن على وثائقهنّ الشخصيّة دون حجاب)، ـ هذه الأُمور وما يشبهها كان لها أسوأ الأثر على الأجيال الجديدة من المسلمين التي وُلدت هناك. ومن ذلك أنّها باتت تفتقر إلى روح المُبادرة باتجاه دعم وتأكيد ذاتيّتها عن طريق إنشاء المؤسسات الثقافية والاجتماعيّة. مثلما رأينا إخوانهم في كافة الأقطار يعملون. بل قيل إن نسبةً عالية من الجيل الثاني والثالث من أبناء المهاجرين المسلمين في (الأرجنتين) باتت لاتُحسن لغتها الأصليّة. وبذلك تكون قد قطعت آخر صلةٍ لها بثقافتها الأصليّة، وخضعت خضوعاً كاملاً لسطوة الحضارة المحلّيّة.

في نهاية هذا المطاف نذكر أن من التقديرات ما يقول أن عدد المسلمين في (الأرجنتين) بحدود خمسمائة ألف، أي ما نسبته ١٪ من مجموع السكان البالغ سبعةً وعشرين مليونا. وذلك طبقاً لـ (التقرير الدولي للحريّات الدينيّة) لعام ٢٠١٠م. لكن هيئةً أُخرى تُسمّى (معهد بيو الدولي للدّراسات) قدّر عددهم هناك في العام نفسه بما لايقلّ عن المليون. أي ما نسبته ٢٪. لهم عددٌ قليلٌ من المساجد. أكبرها في العاصمة (بيونس آيرس) وضع أساسه الرئيس منعم، وافتُتح في السنة الأخيرة لرئاسته. وفي العاصمة أيضاً مركزٌ إسلاميٌّ كبير، يحتوي على مسجد ومكتبة وقاعة ومدرستين، تبرّع بنفقات بنائه الملك السعودي السابق فهد.

نلاحظ هنا بالمناسبة أن الحركة الوهابيّة في (الأرجنتين) ضئيلة، لا تترافق بما تُثيره حولها عادةً من ضجيج. ثم أنها تتسم بشيءٍ من الإيجابيّة وبالتّخلّي عن العنف الفكري، بالقياس إلى ما رصدناه حتى الآن من أعمالها في البلدان الأُخرى. ربما لأن الذين يتولونها هناك أدركوا أو بالأحرى أُفهموا أن البيئة المحلّيّة ترفض رفضاً قاطعاًهذا النمط من العمل الذي لايقود إلى خير. خصوصاً أنّه ما من مصالح مالية تربط (الأرجنتين) بـ (السعوديّة).

(٢) الشيعة في الارجنتين

كل ما قلناه أعلاه على المسلمين فيها ينسحبُ إجمالاً على الشيعة، سواءٌ من حيث حجم الهجرة أم من حيث الحوافز إليها. وكذلك ما قلناه في الباب السابق على الهجرة الواسعة وعواملها لشيعة (بعلبك) ومنطقتها إلى (البرازيل)، فقط علينا أن نُضيف الآن أن قسماً من هؤلاء اتجه إلى (الأرجنتين).

ولعل آخر هجرةٍ من شيعةٍ لبنانيين إلى (الأرجنتين) خصوصاً هي من أهل قرية (زغرتا المتاولة) في أعالي شمال (لبنان). وهم من بقايا الشيعة الأوائل في (لبنان) الذين نزحوا إليها من (الكوفة) ونزلوا (جبال الظّنّيين)،

كما حقّقنا في كتابنا التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا. هؤلاء نزح جمعٌ كبيرٌ منهم إلى (الأرجنتين) بسبب المخاطر الجمّة التي حملتها الحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢ م). لأن المنطقة باتت في ذلك الأوان معمورةً بأكثريّةٍ غير مسلمة.

ثمة تقديرات صدرت من شيعةٍ يُقيمون في (الأرجنتين) تقول أنّ عدد الشيعة فيها بمئات الأُلوف دون تحديد. وأنهم يهتمون بإحياء المناسبات والشعائر الدينيّة، ومنها طبعاً شعائر شهر المحرّم. وأنهم ينتشرون أكثر ما يكون في (بيونس ايرس) و (قرطبة) و (باهيّا بلانكا). لكنّ إحياءهم لشعائرهم الموسميّة إحياءً عامّاً مشروطٌ باستصدار موافقةٍ من السُلطة المحلّيّة على إقامتها في أماكن محدّدة. وأن لهم مراكز نشيطة منها:

- **المنظمة الإسلاميّة**: **Organisation Islamic Argentina** في العاصمة. بإدارة عبد الكريم مدينة. وهي تهتمّ بإقامة الصلوات وصلاة الجمعة جماعةً في أوقاتها.
- **المنظمة الإسلاميّة ومسجد التوحيد Organization Islamica Mezquita At_tauhid**. في العاصمة أيضاً. وهي أكبر منظمة إسلاميّة شيعيّة في كلّ (أميركا اللاتينيّة). وتُدير العديد من المشاريع في (الأرجنتين) وخارجها. وأهمّها (مسجد التوحيد) الكبير في العاصمة، حيث يؤمُّ الناس ويخطب فيهم بالعربيّة والبرتغاليّة الشيخ عبد الكريم باز، الذي سنذكره بعد قليل بما هو أوفى.

يُشرف على إدارة المنظّمة سكريترها يوسف جليل، وهو من أبناء(جبل عامل). وتتولّى المنظمة توزيع بعض المواد الثقافيّة من كُتُبٍ ومجلّات التي ترِدُ إلى مركزها من (إيران). كما تُحيي الشعائروالمناسبات الدينيّة، وتعقد الندوات على موضوعاتٍ ثقافيّة وتبليغيّة. وتشارك في الندوات التي قد يعقدها الشيعة في أنحاء (أميركا اللاتينيّة).الخلاصة أنّها أكثر المؤسسات الشيعيّة نشاطاً في تلك البلاد القصيّة.

- **مركز نشر الإسلام**. بإدارةٍ تعاونيّةٍ من الشيخ محسن علي والشيخ عبد الله مدني. وهما من أبرز الدُّعاة إلى الحوار بين الأديان في المنطقة.

ونذكر بالمناسبة أنّ الشيخ محسن علي سوري الأصل، وهو من الشيعة المعروفين في (سوريا) و (لبنان) باسم (العلويين). وله مكانةٌ بين أبناء جلدته الكثيرين المُقيمين في العاصمة الأرجنتينيّة. وقد التقينا به في أحد مؤتمرات الهيئة العامّة لـ (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام) بـ (طهران)، وتبادلنا معه حديثاً نافعاً، وسجّلنا من المعلومات ما أفادنا الآن في هذا البحث. ولله الحمد.

نذكر أيضاً بالمناسبة نفسها التكتُّل السياسي / الحزب المُسمّى (مسلمون في المواجهة) الذي تأسّس في (الأرجنتين) عام ٢٠١٥م. ويعمل على الدعوة إلى الحوار الوطني السياسي. يترأسه مارتين أرياس دوبال، وهو رجل قانون أرجنتيني اعتنق الإسلام وتسمّى مارتين سعيد. والجدير بالذكر أن الحزب يضمُّ شخصيّات مسلمة من مختلف المذاهب، بل ومن غير المسلمين، من هؤلاء السيّدة سيسيليا ميرتشان، التي ترشّحت لعضوية البرلمان عن الحزب.

بذلك يكون هذا الحزب ظاهرةً فريدةً، لم نشهد لها مثيلاً في أي قطرٍ آخر. تدلُّ على تهيّؤاتٍ طيّبةٍ لدى

الشعب الأرجنتيني، مُختلفةٍ عمّا لاحظناه سابقاً على ذاكرته التاريخيّة، التي لم تتحرّر كليّاً من ذكريات (حرب الاسترداد) في (إسبانيا) و (البرتعال) وما رافقها وتلاها.

والذي يتوسّع بالقراءة على الإسلام في (الأرجنتين) يلاحظ تباين مواقف أهلها ومسؤوليها منه. وأنّ الكثير من تلك المواقف الرسميّة يتّسم بالاحترام، عبر المُشاركة في بعض المناسبات الإسلاميّة، خصوصاً في شهري رمضان والمحرّم. أو بالاعتذار العلني عن مواقف حادّة من الإسلام. مثلما ردّت (الأمانة العامّة لحقوق الانسان والتعدديّة الثقافيّة بوزارة العدل الأرجنتينيّة) على ذلك التصريح الخشن المُشار إليه أعلاه بحق الإسلام، مع أنّ القائل مسؤولٌ رسمي في الحكومة. ولله في خلقه شؤون.

ما دمنا نذكر ظواهر أرجنتينيّة طيّبة من الإسلام، فإنّنا سنختم بذكر أبرز مستبصرٍ من أصلٍ أرجنتيني، يمثّله العالم الفاضل الشيخ عبد الكريم باز، الذي عرفناه قبل قليل إماماً وخطيباً لـ (جامع التوحيد) في العاصمة (بيونس آيرس).

الشيخ باز أرجنتيني اسمه الأصلي Santiago Paz Bulirish. وُلد ونشأ في أُسرةٍ كاثوليكيّة. درس الفلسفة في جامعة (بيونس آيرس)، ونال درجة الماجستير. ولقد كان من حُسن توفيقه وحُسن حظّنا به، أنه دخل يوماً (جامع التوحيد) في (ساوباولو)، حيث التقى بعددٍ من المُصلّين الشيعة من ذوي الأُصول الأرجنتينيّة، فحدّثوه عن استبصارهم وملابساته. ثم التقى في المسجد نفسه فيما بعد بمهاجرين لبنانيين وإيرانيين وسوريين (هؤلاء كانوا ممّن يُسمّون بالعلويين). وبالنتيجة أعلن اعتناق الإسلام شيعيّاً. ثم أنّه ما أن نال الماجستير، كما ذكرنا، حتى ارتحل إلى (قُمّ) ليلتحق بحوزتها. عاد بعدها إلى بلده، حيث غدا إمام المُصلّين في الجامع الذي كان سبب استبصاره وما يزال.



الباب الثالث: فنزويلا

(١) تعريف

رسمياً (جمهوريّة فنزويلا البوليفاريّة). شعبها خليطٌ من سكان المنطقة الأصليين، ومن المستعمرين الاسبان، والزنوج الأفارقة. أُضيف إليهم أثناء القرن العشرين موجاتٌ من المهاجرين الإيطاليين والبرتغاليين والألمان. معظم سكانها من المسيحيين الكاثوليك. كانت من أفقر بلدان أميركا اللاتينيّة إلى أن اكتُشف فيها النفط، فباتت صادراتها منه من أعلى الصادرات.

(٢) الإسلام في فنزويلا

دخلها الإسلام أوّلَ دخوله مع المستعمرين الاسبان، وما حمله من بقايا المسلمين بعد سقوط الأندلس. على



ماعرضناه سابقاً من بلدان (أميركا اللاتينيّة). لكنّ هؤلاء ضاعوا في مُغتربهم ولم يبقَ منهم أثر.

يُقدّر عدد المسلمين فيها اليوم بحوالي ثلاثمائة وخمسين ألفاً. وهم إجمالاً ثمرة الهجرات إليها من (لبنان) و (سوريا) و (فلسطين)، أغلبهم من اللبنانيين. وقد قلنا في البابين السابقين ما ينبغي أن يُقال على هذه الهجرات وأسبابها.

أكبر تجمّع للجالية الإسلاميّة اليوم في العاصمة (كراكاس)، حيث يعدّون زهاء خمسة عشر ألفاً. وفيها ثاني أكبر مسجدٍ في (أميركا اللاتينيّة) اسمه (مسجد الشيخ إبراهيم الإبراهيم) على اسم مُموّل بنائه فيما يبدو. تم الانتهاء من تشييده سنة ١٩٩٣م. وهو يتسع لثلاثة آلاف وخمسمائة مُصلٍّ. ولاذكر لمسجدٍ غيره في كل أنحاء (فنزويلا). اللهم إلا مسجدٌ ومركزٌ بنتهما الجالية الفلسطينيّة في مدينة (فالينسيا). مع أنّنا نعرف أن للمسلمين وجودٌ جيّدٌ أيضاً في مُدُن فنزويليّة ثلاثة هي (برشيلونه) و (مراكيبو) و (ماتورين). ما يبعث على الظنّ بوجود نقصٍ في معلوماتنا فيما يخصُّ هذا الشأن.

(٣) الشيعة في فنزويلا

لا ذكر لعديدهم فيها. ولا لمظاهر وجودهم المألوفة لدينا، من نشاطٍ ديني وثقافي ومراكز لها، ممّا رأيناه في كلّ ماسبق من الكتاب. اللهم إلا مركزٌ وحيدٌ لهم في العاصمة يحمل اسم (مركز الإمام الهادي عليه السلام الإسلامي) Centro Islamico Imam Alhadi بإدارة فادي الأسعد. يهتمّ بنشر الكُتُب الشيعية باللغة الاسبانيّة. وبالتنسيق مع المؤسسات الإسلاميّة الأُخرى. وبإقامة الصلوات والمحاضرات والاحتفالات والمآتم. وبالتبليغ بالمذهب الإمامي في (فنزويلا) والدّول المجاورة. ولم نقع على مايزيدنا معرفةً بهذا الرّائد الوحيد. ويبدو من اسمه ومُلابسات أنشطته أنّه من أبناء (جبل عامل).

والحقيقة أن ذكراً لشيعةٍ في (فنزويلا) قد حصل فيما يشبه الانفجار، من حيث درجة الاهتمام وكثافة المعلومات، في إطارٍ لاعلاقة له بما ألفناه وألفه معنا القارئ، من ضروب النشاط الديني والثقافي للجاليات الشيعيّة في العالَم. بل في إطارٍ إعلامي، يصِفُ زوراً وبهتاناً جاليةً شيعيّةً كبيرةً جداً، أغلبها من أبناء (جبل عامل)، حسنة التنظيم، تعمل في (فنزويلا) وجوارها أعمالاً خارقةً في ميدان التعاطي بتجارة المواد الاستهلاكيّة عن طريق التهريب. بما فيها المخدرات، ومن ثَمّ غسْل الأموال الكثيرة التي تحصل منها.

كلّ ذلك جرى تدبيجه وإذاعته إعلاميّاً لغرضٍ وحيد، هو نسبة تكوين وإنشاء الحركة التجاريّة الكُبرى العالقة في المثلّث، حيث تلتقي حدود ثلاث دول هي (البرازيل) و (فنزويلا) و (الباراغواي)، وما ترتكبه تلك الحركة من ضروب التجارة غير المشروعة، ومن تبييض أموال بمئات الملايين الدولارات، ـ تنسبه لقيادة المقاومة الإسلاميّة في (لبنان) حصْراً، ابتغاء تشويه سُمعتها. مع أنّ من الثابت قطعاً أنّ تلك الحركة التجارية الكبرى غير جديدة، وترجع زمنيّاً بالتأكيد إلى ما قبل زمان نهوض المقاومة الإسلاميّة في (لبنان) بكثير. كما تساهم فيها عناصر دوليّة تنتمي إلى مختلف دول المنطقة وغيرها. وتتمّ تحت سمْع وبصر الدول الثلاث المذكورة

دون أدنى اعتراضٍ عملي من أيٍّ منها، بل برضاها الضمني التّامّ، وتحت إشراف قواها الأمنيّة والحدوديّة. وإنّ نسبتُها إلى قيادة المقاومة، وتجاهُل كلّ القوى الكبرى التي ساهمت وتساهم فيها، هو من غرائب البهتان المكشوف الذي لا ينطلي على عارف.

على أنّ هذا التحليل ليس ينفي وجود جالية كبيرة من أبناء (جبل عامل) في (فنزويلا)، قد يستفيد بعض أفرادها من الفُرَص التجاريّة التي يُتيحها لهم ذلك السوق العالمي، كما يستفيد منها غيرهم.

والجدير بالذكر في هذا السياق أن ما قيل، ممّا ذكرنا بعضه، دلّنا دون أن يقصد طبعاً، على جاليةٍ شيعيّةٍ كبيرةٍ في المنطقة، لسنا نجِدُ لها ذكراً في أي مصدر، ربما بسبب عدم استقرارها.

هذا، ولقد ضرب الوهابيّون بسهمهم في هذا البهتان[1] وصولاً إلى تهويلات مُضحكة.

من ذلك ما ذكرته إحدى الصحف الفنزويليّة، نقلاً عن تقريرٍ وهابي، يقول أن «ما يُسمّى حزب الله استطاع من عام ٢٠٠٦ أن يدخل المناطق النائية من فنزويلا ليُقنع قبائل (الوايو) باعتناق المذهب الشيعي. لدرجة أنهم أخذوا اسم (حزب الله) الشيعي ليُطلَقَ عليهم».

الباب الرابع: كولومبيا

(١) تعريف

رسميّاً (جمهورية كولومبيا). دولة في شمال غرب (أميركا الجنوبية). كانت مأهولة بسكان من الشعوب الأصليّة. ثم نزلها المستعمرون الاسبان واحتلوها حتى السنة ١٨١٩م.

(٢) الإسلام في كولومبيا

تاريخ الإسلام في دُول (أميركا الجنوبيّة) متشابه، يُغنينا عن التفصيل ما سردناه عليه في الأبواب الثلاثة السابقة. فهناك أولاً الهجرات الأُولى من بقايا المسلمين في (الأندلس) الذين أتوا مع المستعمرين الاسبان. ثم الهجرات الإكراهيّة للزنوج الأفارقة من مسلميها. هؤلاء ذابوا في مهجرهم الجديد ولم يبقَ لهم أثر.

يعدُّ المسلمون اليوم في (كولومبيا) مابين أربعين وثمانين ألفاً على اختلاف التقديرات. هؤلاء هم ثمرة ثلاث موجات من الهجرة إليها من أنحاء (سوريا) و (لبنان). تتابعت منذ خواتيم القرن التاسع عشر م، ثم العقد الثاني من القرن العشرين.

فراراً من الجور العثماني، وبحثاً عن الفرصة لحياةٍ أفضل. أمّا الثالثة فقد بدأت مع الاحتلال اليهودي لـ



(فلسطين)، منها ومن (جبل عامل)، ثم مع الحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ـ١٩٩٢)، ثم مع الفتنة التي ضربت (سوريا) ابتداءً من السنة ١٩٩٧م، وبعثرت مئات الأُلوف من سكانها في الأقطار.

سنة ١٨٩٠م أُنشئ أوّلُ مصلّى في العاصمة (بوغوتا). وفي السنة ١٩٩٣ م أُنشئ فيها أيضاً أوّلُ مركزٍ إسلامي حقيقي، من ضمنه مسجد. أنشأه مسلمٌ من أصلٍ كولومبي. ثم تتابع إنشاء المساجد والمراكز الإسلاميّة في أنحاء البلاد.

ويتركّز المسلمون اليوم سُكانيّاً في العاصمة، وفي مُدُن (بوينافنتورا) و(مايكاو) و (سانتا ماريّا) و(قرطاجنّة) و(بارانكيا). ولا تخلو مدينة من هذه من مسجدٍ أو أكثر.

(٣) الشيعة في كولومبيا

المعروف والمُتداوَل أن وجود الشيعة فيها قد بدأ بمهاجرين من (جبل عامل) قصدوها على أثر احتلال (فلسطين)، وما ترتب عليه بالنسبة لأهل الجبل من انقطاع سُبُل العمل والتجارة مع بلدان الأرض المحتلّة. الأمر الذي لم يجِدوا عليه ردّاً إلا بالهجرة. وفازت (كولومبيا) منها بنصيب.

فيما يخصُّ عدد الشيعة فيها، فإن مصدراً إسلاميّاً يقول أنهم يُشكّلون ٢٠٪ من مجموع المسلمين هناك. أي أنهم بحدود عشرات الأُلوف القليلة. لكنّهم جماعةٌ مُتناميةٌ تنامياً سريعاً بين الكولومبيين، خصوصاً بين الذين هم من أُصولٍ أفريقيّة. إلى درجة أنّ (الجامع الأزهر) في ختام بيانٍ له على أعماله التبليغيّة فيها، حذّر من «التّمدّد الشيعي في هذه المجتمعات (يعني الكولومبيّة) حيث يمكن لأية مذهب أن يفرض وجوده، إذا غاب عنها المذهب الوسطي المعتدل، الذي يُمثّله أهل السُّنّة».

وللشيعة في (كولومبيا) مركزان:

- **المركز الثقافي الإسلامي لأهل البيت في كولومبيا. Casa Cultural Islamica Ahlulbayet Colombia**
- المركز **الثقافي الإسلامي في كولومبيا Centros Culturales Islamicos de Colombia** في مدينة (بوينا فنتورا).

وهو بإدارة المُبلّغ الكولومبي الشيخ منير فالنسيا. هذا، بالإضافة إلى (مُصلّى الرسول) في العاصمة. وهو بإمامة الشيخ منير نفسه. ويوصف هذا المُصلّى بأنه النواة الأُولى لتجمُّع (الجالية الإسلاميّة الشيعيّة في كولومبيا). وبما أنّ تاريخ هذه المعلومات يرتفع إلى السنة٢٠٠٨ م، فإننا نتوقّع أن ما عبّر عنه بيان (الجامع الأزهر) بـ «التّمدُّد الشيعي» قد حقّق إنجازات إضافيّة. لم يتيسّر لنا الحصول على معلوماتٍ عنها.

الباب الخامس: تشيلي

(١) الإسلام في تشيلي

والمسلمون هناك أقلّيّةٌ ضئيلة، أغلبهم لبنانيّون وباكستانيون. وفي العاصمة (سانتياغو) مسجدٌ، تم إنشاؤه سنة ١٩٨٩م. وثانٍ تبرّع ببنائه تجارٌ من الجالية الباكستانيّة. كما يوجد مركز إسلامي ثقافي ومسجد في مدينة (كوكيمبو)، تبرّع بنفقات بنائه ملك المغرب محمد السادس، أثناء زيارةٍ له إلى (تشيلي) سنة ٢٠٠٤ م.

(٢) الشيعة في تشيلي

الشيعة فيها كانوا حتى السنة ٢٠١٤ م يعدون سبعة آلاف. هم جميعاً تقريباً من أبناء (جبل عامل) الذين هاجروا تباعاً إليها ابتداءً من السنة ١٩٤٨م، بسبب الاحتلال اليهودي لـ (فلسطين)، ثم أثناء وبسبب الحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ـ ١٩٩٢م). كثيرون منهم من أبناء بلدة (يارون) العامليّة، المُسامتة لحدود المنطقة المحتلَّة.

وقد التقينا ببعضهم في إحدى المؤتمرات التي يعقدها دوريّاً (المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام) ومنهم الأخ فؤاد موسى، رئيس المركز الثقافي الإسلامي في (سانتياغو). وسجّلنا عنهم ما لديهم من معلومات عن الجالية الشيعيّة في مهجرهم البعيد. وهم إجمالاً جماعةٌ نشيطة.

وقد أنشأوا بمساعدة الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران:

- **مركز الثقافة الإسلاميّة Centro de Cultura Islamica** في (سانتياغو) يضمّ دار نشر باللغة الاسبانيّة. كما يُنظّم دورات دراسيّة دينية للجالية وأبنائها، يحضرها مستبصرون من التشيليين. كما يُحيي الشعائر والمناسبات الدينيّة في أوقاتها.

وقد درج منذ السنة ٢٠١٤م على نصْب سُرادق عزاء في أحد شوارع العاصمة بمناسبة شهر المحرّم، لقي اهتماماً من الناس بما عُرض فيه من صفحاتٍ تعريفيّة (بوسترات) بالثورة الحسينيّة، وفي المقابل إدانة تنظيم داعش الإرهابي.

- **حسينيّة سُمّيت (حسينية أوشان)** في (سانتياغو) أيضاً. ويبدو أن اسمها غير المألوف من اسم المحلّة التي أُنشئت فيها.



الباب السادس: غويانا وسورينام

(١) تعريف

وهما في الأساس دولةٌ واحدةٌ لشعبٍ واحد. ولكن الدول الاستعماريّة قسمتها بينها. واستمر ذلك بعد استقلالهما.

والأُولى رسميّاً (جمهورية غويانا التعاونيّة). في أقصى الشمال الشرقي لـ(أميركا الجنوبيّة) عاصمتها (جورجتاون).عدد سكانها زهاء ثماني مائة ألف. مائة وثلاثون ألفاً منهم مسلمون. لغتها الرسمية الانكليزيّة، تبعاً لمستعمريها السابقين.

والثانية رسمياً (جمهورية سورينام) بجوار اختها. عدد سكانها أربعمائة وسبعون ألفاً. عاصمتها (باراماريبو) Paramaribo. لغتها الرسميّة الهولندية، أيضاً تبعاً لَمن كانوا مستعمريها. عدد سكانها ما يزيد قليلاً على أربعمائة ألف. ربعهم من المسلمين.

(٢) الإسلام في غويانا وسورينام

دخلهما الإسلامُ، على بُعد الشّقّة، بواسطة الزنوج الأفارقة، الذين كان المستعمرون يستحضرونهم كُرهاً لخدمتهم والعمل لهم. وكان بينهم كثيرون من المسلمين الذين كانوا يُختطفون قصداً من السواحل الأفريقيّة، ثم يُنقلون بالسفن إلى أنحاء (أميركا).

لكنّ أكثر مسليمهما هم من الذين استحضرهم المستعمرون أنفسهم في خواتيم القرن التاسع عشر للميلاد بأعدادٍ كبيرةٍ من (أندونيسيا) و (الهند) و دول جنوب شرق (آسيا)، للعمل في نصْب السّكّة الحديد للقطارات لمصلحة المستعمرين طبعاً. واستقرّ هؤلاء ونموا عدديّاً مع الوقت، بحيث باتوا بتلك النِّسَب العالية. وأنشأوا الجمعيات وبنوا المساجد والمدارس بالعشرات. واليوم يُعتبر عيد الأضحى والمولد النبوي عطلةً رسميّة فيهما. ويُسمح للمسلمين بترك أعمالهم لأداء صلاة الجمعة في المساجد. بل وانضمّت (سورينام) إلى منظّمة المؤتمر الإسلامي.

(٣) الشيعة في غويانا وسورينام

ابتداءً من أواسط القرن العشرين بدأ الشيعة ينزلونهما، قادمين من أنحاء (سوريا) و (لبنان)، والأكثر من هذا الأخير. وذلك في الظروف التي باتت معروفةً لدى القارئ، أي الاحتلال اليهودي لـ (فلسطين) سنة

١٩٤٨م، والحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ ـ ١٩٩٢م) ، والفتنة في (سوريا) (٢٠٠٧ ـ ٢٠١٩م). وليس لدينا أي تقديرات لعدد الشيعة فيهما. لكنّ لدينا من القرائن ما يدلّ على أنّهم هناك بأعدادٍ غير قليلة.

من ذلك أنّه في أوائل هذا القرن نزل (غويانا) عالم دين شيعي، لم نظفر عنه إلا أنّ اسمه محمد حسن الإبراهيمي، ربما كان عراقيّاً أو إيرانيّاً. أتى هناك بنشاطٍ تبليغيٍّ مُلفتٍ في الصحافة والإذاعة والتلفزيون. لكنّ نجاحه جنى على حياته، فخُطف من قِبَل جماعةٍ مجهولةٍ، ليُعثر عليه بعد بضع أيام شهيداً يرحمه الله.

ومنه أيضاً أن شخصاً اسمه عبد القادر، وُصف في تقريرٍ ضافٍ وضعته «الشرطة في جمهوريّة غويانا» بأنه «إمامٌ شيعي»، كان عضواً في برلمانها، ورئيساً لبلديّة (ليندن) قرب العاصمة (جورجيتاون)، كما كان مستشاراً بارزاً لشركةٍ في (ليندن). وكلُّ ذلك يدلُّ ضمناً على قاعدةٍ شعبيّةٍ شيعيّةٍ عريضةٍ، بحيث نجحت في إيصال مَن يمثّلها، أو شخصٍ بارزٍ فيها، إلى عضويّة البرلمان ورئاسة بلدية مدينة.

ومنه أن الجالية الشيعيّة في (غويانا) درجت على عقد المجالس الحسينيّة، التي يسمّونها هناك (تشابيه)، ربما بسبب زجّ عناصر تمثيليّةٍ فيها، على الطريقة التي درجت في (الهند)، ومنها انتقلت إلى (إيران) و (لبنان). بحيث أنّ هذه المجالس باتت أمراً مألوفاً لدى الناس قد يحضرها بعض غير الشيعة من الجالية الهنديّة.

كما أنّها أنشأت في مدينة (ليندن) مركزاً سمّوه:

- **مركز غويانا الإسلامي Guyana Islamic Center** بإدارة المدعو سليم قادر.

ومن الواضح للقارئ اللّمّاح، أن كل ما لدينا عن تلك البقعة القصيّة ورجالها من الشيعة بما يخصُّ غرض الكتاب، لا يزيد على معلوماتٍ مبتورة. وذلك لضعف شأنها ولانعدام التواصُل بينها وبين المنطقة الإسلاميّة.

الباب السابع: باراغواي

(١) توطئة

(جمهوريّة باراغواي) جمهوريّةٌ داخليّةٌ بـ (أميركا الجنوبيّة). سكانها اليوم زهاء خمسة ملايين. عاصمتها مدينة (أسونسيون).

أهميتها لبحثنا محصورةٌ في أنها أحد عناصر المُثلّث التّجاري، حيث تلتقي حدود (البرازيل) (فنزويلا) (باراغواي)، الذي وقفنا عليه في البابين الأوّل والثالث من هذا الفصل، وماجذبه من المهاجرين الشيعة القادمين إليه من (لبنان)، وبالتحديد من (جبل عامل). وهذا ما يتصلُ بالجزء الثالث منه في (باراغواي).

وللتّذكير نُضيف أنّ باعث أولئك على الهجرة كان، أولاً، الاحتلال اليهودي لـ (فلسطين) سنة ١٩٤٨م، وما أدّى إليه من انقطاع شبكة الطُرُق التجاريّة التي كانت عامرةً بين (فلسطين) و (جبل عامل). ثم الحرب الأهليّة اللبنانيّة (١٩٧٥ـ١٩٩٢م)، التي قطعت طريق العمل البديل باتجاه داخل (لبنان) في (بيروت)



وضواحيها. والعاملان تواليا على وضع أبناء الجبل أمام خيار الهجرة البعيدة في الآفاق. وفازت (أميركا الجنوبيّة) إجمالاً، ومنها بلدان ذلك المُثلّث خصوصاً، بقسطٍ وافرٍ من أبناء (جبل عامل)، لِما يُقدّمه من فُرصٍ وافرة للكسب السريع.

(٢) الشيعة في باراغواي

ما من إحصاءات أو تقديرات لعديدهم هناك. وذلك، فيما يبدو لنا، لأن وجود الأفراد المهاجرين منهم في (باراغواي) بالخصوص لم يكُن على نحو الاستقرار كما هو في (البرازيل) و (فنزويلا). بل كان وما يزال محكوماً للإضطراب بما يتناسب مع حركة السوق النشيطة وما تقتضيه، وبالمقدار الذي تقتضيه. على أن ذلك لاينفي أن بعضهم كان يُقيم في العاصمة (أسونسيون) أو غيرها من مُدُن (باراغواي) وسواها. حيث أنشأوا مراكز دينيّة وثقافيّة. وخصوصاً في مدينة (ثيوداد دل إيستي) Ciudad del Este ، التي فازت بثلاثة مراكز شيعيّة هامة، هي:

- **مركز الزهراء الإسلامي الثقافي. Centro Cultural Beneficiente AlZahra**. وهي، كما عرّفتْ نفسها في منشورٍ صدر عنها «مؤسسة خيريّة ثقافية لنشر وتعليم الإسلام باللغة الاسبانيّة للمسلمين وغير المسلمين، الذين يرغبون بالتعرف إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام. حيث تُعقد جلسات لقراءة الأدعية الليليّة المُستحبّة. واحتفالات إسلاميّة اجتماعيّة ترفيهيّة ثقافيّة. ومحاضرات خاصة للنساء، وأُخرى للراشدين والفتيان، على أُصول الدين والاحكام وتاريخ الإسلام وأهل البيت عليهم السلام. وتلقين التلاوة، وتعليم اللغة العربية قراءةً وكتابةً. وإحياء مآتم أهل البيت بالعربيّة والاسبانيّة والبرتغاليّة».
- **حسينيّة الإمام الصدر**. وهي كبيرة كلّف إنشاؤها ستمائة ألف دولار. تتبعها مدرسةٌ لتعليم اللغة العربيّة. افتُتحت سنة ١٩٩٤ م.
- **مسجد الرسول الأعظم**.كلّف بناؤه أربعمائة ألف دولار. وافتُتح سنة ١٩٩٦م. وهو بإدارة هيئة مُكلّفة في أوانها من قِبَل السيد محمد حسين فضل الله يرحمه الله.

الباب الثامن: بوليفيا

(١) جغرافيا وتاريخ

رسمياً (جمهوريّة بوليفيا) غرب (أميركا الجنوبية). عاصمتها (لاباز). عدد سكانها زهاء الاثنى عشر مليوناً. خضعت للاستعمار الاسباني زهاء ثلاثة قرون (١٥٣٨ـ١٨٢٥م). وهي من المراكز العريقة لحضارة مَن يُسمّون بالهنود الحُمر.

(٢) الشيعة في بوليفيا

والشيعة فيها أقليّةٌ ضئيلة. كلّ ما نعرفه عنها أنّ لديها جمعيّةٌ اسمها:

- **جمعيّة أهل البيت الإسلاميّة في بوليفيا. Asociaion de la comuninidad Islamica Ahlul Bait de Bolivia = aciabol = somos Shiita** مقرّها في العاصمة (لاباز).

كما أنّ للجمعيّة نفسها مركزٌ اسمه:

- **المركز الإسلامي البوليفي.** في العاصمة أيضاً. تصدر عنه نشرة إسلامية باللغة الاسبانيّة اسمها:La Apertura. تتولّى رئاسة تحريرها سيّدةٌ بوليفيّةٌ مُتشيّعةٌ أستاذةٌ في الجامعة الوطنيّة. ويعمل فيها عددٌ من الشبان البوليفيين. صدر العدد الأول منها، وضمّ من الموضوعات:
- سيمون بوليفار والقرآن.
- اليوم الوطني لبوليفيا.
- ما هو شهر رمضان؟
- المسلمون البوليفيّون في شهر رمضان.
- الحريّة الحقيقيّة للمرأة المسلمة.
- الارهاب والإسلام.

والجدير بالذكر أن تلك الموضوعات كتبها بوليفيّون مسلمون وغير مسلمين.



الباب التاسع: إكوادور

(١) تعريف

رسميّاً (جمهورية إكوادور). دولةٌ في غرب (أميركا الجنوبيّة). مساحتها مائتان وثلاثة وثمانون ألف كم ٢. عدد سكانها ستة عشر مليوناً. عاصمتها (كيتو).

من المواطن الرئيسة للحضارة القديمة التي سادت المنطقة في الماضي. كانت جزءاً من الامبراطورية الاسبانيّة مدة ثلاثة قرون (١٥٣٤ـ١٨٣٠م)، ومن بقايا آثار تلك الفترة أنّ لغتها الرسمية هي الاسبانيّة.

(٢) الاسلام في إكوادور

فيها جالية مسلمة متوسطة العدد من جنسيّاتٍ ومذاهب مختلفة، تتركّز في كُبرى مدنها (غواياكي) Guayaqui، المقصودة من السائحين الأجانب لجمال طبيعتها. لكنّ الجالية إجمالاً من العمّال والمُتكسّبين في أعمالٍ صغيرة. ويبدو أن ليس لديها أي نشاط يُعبّر عن هويتها. بل وليس لديها مسجد أو حسينيّة. فقط أنهم يلتقون سنويّاً في مدينة (غواياكي)، حيث درجوا على إحياء ذكرى المولد النبوي جماعيّاً باحتفالٍ حاشد. حيث يخرجون بالرّايات والأعلام في مسيرةٍ حاشدة، تُوزّع فيها الاطعمة والأشربة والحلويّات على المارّة. وتغطّيها وسائل الإعلام.

(٣) الشيعة في إكوادور

استناداً إلى إفادات مهاجرين شيعة فيها، فإن عددهم هناك كان قبل بضع سنوات بحدود الثلاثين ألفاً، موزعون في بلدانها، بعضهم من (جبل عامل). أغلبهم في العاصمة (كيتو)، حيث أنشأوا فيها ما سمّوه:

- **المركز الإسلامي** (**Islamic Center copei**)، بإدارة الشيخ علي معراج علي، الذي يبدو من اسمه أنّه من بلدان الدائرة الهنديّة أو من (أفغانستان).



الكتاب الخامس



قارّة أوقيانيا oceania

الباب الأول: استراليا

(١) تعريف

رسميّاً (اتحاد استراليا الفيدرالي) أو (كومونولث استراليا). Commonwelth of Australia

دولةٌ / قارةٌ عبارةٌ عن جزيرة كبيرة بين المحيطيَن الهندي والأطلسي. عاصمتها (كانبرّا). سكانها اليوم ثلاثة وأربعون مليوناً تقريباً. حاكمها العام يُمثّل التاج البريطاني.استحوذت عليها بريطانيا في خواتيم القرن ١٨م. ثم حوّلت مستعمراتها فيها إلى اتحاد فيدرالي. وبذلك تكوّنت الصيغة السياسيّة الحاليّة تحت عنوان (كومونولث). مساحتها زهاء الأربعة ملايين ميل٢.

(٢) الإسلام في استراليا

علاقة (استراليا) بالإسلام قديمةٌ جداً. ترجع إلى التجارة التي كانت ناشطةً بين (أندونيسيا) وبين السكان الاستراليين الأصليين لقرونٍ طويلةٍ قبل قُدوم الأوروبيين. ممّا لايزال الباحثون الاستراليّون يجدون آثاره في اللغة والفنّ وحتى في الجينات. ما يدلُّ على زيجات حصلت بين السكان الأصليين وبين الاندونيسيين، القادمين في سُفُنهم ابتغاء التجارة المُزدوجة تصديراً واستيراداً.

يُذكَر أيضاً في سياق العلاقات المُبكّرة بين الإسلام و(استراليا)، ما كانت تحمله الأساطيل البريطانيّة في جيئتها إلى (استراليا) من مرشدين بحريين، ومن بحّارة ذوي خبرة من السواحل الأفريقيّة والجُزُر، وأقربها مجموعة الجُزُر التي تُشكّل (فيجي)، كما سنعرف في الباب التالي. يستقرّ بعضهم على الأرض الاستراليّة.

هذا، إلى مجموعاتٍ كبيرةٍ من الهنود والافغان، جاءت بهم السلطات البريطانيّة مصحوبين بجِمالهم، للاستعانة بخبراتهم وبإبلهم في استكشاف الصحراء الاستراليّة الشاسعة، وفي نقل البضائع وتشييد الطُرُق. هؤلاء استقرّوا أيضاً في وطنهم الجديد، وشادوا أوّلَ مسجدٍ على الأرض الاستراليّة، ما يزال قائماً حتى اليوم، بعد أن حوّلته إدارة الآثار الاستراليّة إلى متحف أو موقع تاريخي تابعٍ لها. وضعت على جداره لافتةً تعريفيّة سُطر عليها ما ترجمته: «أوّلُ مَن وطأ الأرض الاستراليّة من المسلمين هم من الافغان والهنود. استخدموا الجِمال في تنقلاتهم وحمل بضائعهم. وقد جعلوا من منطقة الهضبة محطّةً لهم لورود وخروج القوافل من وإلى مختلف

المناطق الاستراليّة». والمسجد المذكور في منطقة (نيو ساوث ويلز) تاريخ بنائه سنة ١٨٩١م. وهو مُشادٌ من مواد بسيطة. يتألّف من غرفتين وميضاء ومحلٍّ مُخصّصٍ لأحذية الواردين.

أُولئك الرُّوّاد لم يعُد لهم دورٌ بعد ظهور وسائل النقل الآليّة، فتفرّقوا وذابوا في أنحاء البلاد الاستراليّة. ولكن أخلاف الإبل التي أتوا بها باتت اليوم تعدُّ مئات الآلاف، تهيم في الصحارى الاستراليّة.

في بدايات القرن العشرين م، انبعثت الهجرات باتجاه (استراليا)، حصْراً من مسلمي (ألبانيا) و (البوسنة) باعتبار أنهم أوروبيون. لأنّ سياسة الحكومة الاستراليّة كانت تقضي آنذاك بمنع الهجرة إليها من غير الأُوروبيين، وبالخصوص من (انكلترا) و (إيرلندا)، تحت شعار (استراليا البيضاء). و تأبى مُساكنة المُلوّنين. وبنى الألبان أوّلَ مسجدٍ لهم في (شيبارتون / فيكتوريا) سنة ١٩٦٠م. تلاه آخر في (ملبورن). ثم أسسوا بالاشتراك مع البوسنيين (الجمعيّة الإسلاميّة المُتعدّدة الاعراق).

كان ذلك أوّلُ وجودٍ على شيءٍ من التنظيم لمسلمين في (استراليا).

بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية سنة ١٩٤٥م انفتح باب الهجرة إليها على مصراعيه، بسبب حاجتها إلى الأيدي العاملة. ولن تأتي بدايات القرن ٢١م حتى كان المسلمون قد استقروا فيها بأعدادٍ كبيرةٍ، قادمين أكثر ماكان من مختلف أقطار الشرق الاوسط. خصوصاً من (لبنان) و (العراق)، بسبب الحرب الأهليّة في الأول، وسياسة طاغية (بغداد) وما ترتّب عليها في الثاني. فضلاًعن أعدادٍ متفاوتةٍ من المهاجرين الافغانيين والأتراك والبوسنيين والألبانيين والإيرانيين.

اليوم يُقدّر عدد المسلمين في (استراليا) بثلاثة ملايين. ينتشرون في كافة مُدُنها وبلداتها. خصوصاً في مدينة (سيدني)، حيث بلغت نسبة المسلمين فيها ٤،٣ ٪ من مجموع سكانها البالغ خمسة ملايين تقريباً. بينما يقطن أغلبُ المسلمين الأتراك والألبان والبوسنيّون في مدينة (ملبورن) والأتراك في المناطق الشماليّة (أوبورن) و (نيوساوث ويلز) وغيرها.

هذا، وقد أنشأ المسلمون في (استراليا) أعداداً كبيرةً من المساجد والمدارس والمعاهد والمراكز الدينيّة والاجتماعيّة. كما أن منهم أشخاصٌ برزوا في الميادين الاقتصاديّة والسياسيّة والفنيّة والرياضيّة وفي الإدارت الرسميّة.

(٣) الشيعة في استراليا

ما من إحصاءٍ أو تقديرٍ يُركَن إليه لأعداد الشيعة فيها، وإن قيل في مصدرٍ نعرفه بالميل إلى استكثار الشيعة، أنهم لا يقلّون عن نصف المليون. لكن صديقنا الشيخ يوسف نبها، الذي سنعرف موقعه بين شيعة (استراليا)، يقول في رسالةٍ أن عددهم لا يزيد على التسعين ألفاً. ثم أنّ من المعلوم أن أكثرهم من المهاجرين اللبنانيين والعراقيين. إلى جانب أعدادٍ أقلّ من الإيرانيين والباكستانيين والأفغان. أغلبهم يقطنون مدينتي (سيدني)



و (ملبورن). وبأعدادٍ أقلّ في (بريزين) و (ادلايد) و (بيرث). كما يوجدون بنحوٍ ملحوظ في مُدُنٍ صغيرة مثل (شيرنون) و (كبوبرون) وفي العاصمة الرسميّة (كانبيرا)، حيث أنشأوا المساجد والحسينيات.

وفي الفقرة التالية، التي سنخصصها لذكر المراكز والمؤسسات الشيعيّة في أنحاء (استراليا)، ما قد يساعد القارئ على تصوُّر حجم الوجود الشيعي هناك.

(٤) المؤسسات الشيعيّة في استراليا

- **الهيئة الإسلاميّة الشيعيّة في كوينزلند Islamic Shia Council of QLD**في مدينة (بريزين). لها موقعٌ على الشبكة العالميّة iscq.org. تهتمّ بإقامة الصلوات اليوميّة جماعةً في مركزها، وصلاة الجمعة في وقتها. وبإحياء المناسبات الدينيّة. وخدمة تجهيز ودفن أموات المسلمين، وعقود الزواج وإيقاعات الطلاقات. إلى تنظيم دروس التلاوة.
- **مسجد القائم. في (ملبورن).** بإمامة الشيخ علي جابر العاملي. يهتمّ أيضاً بإحياء مناسبات أهل البيت عليهم السلام، ويُنظّم دروساً دينيّة باللغتين العربيّة والانكليزيّة، واستشارات فقهيّة وتربويّة.
- **مركز الإمام الصادق عليه السلام Alsadeq Islamic Center** في (ملبورن). بإدارة العراقي الشيخ عبد الودود مال الله. يهتمّ بإحياء المناسبات الدينيّة، خصوصاً شهري محرم ورمضان. لقاء مساء الخميس لتلاوة دعاء كُميل وزيارة الإمام الحسين عليه السلام. إحياء مناسبات أهل البيت عليهم السلام كل ليلة جمعة. إجراء المعاملات الشرعيّة والرسميّة المُجازة من قِبَل الدولة الاستراليّة في العقود والايقاعات. المشاركة في الندوات والمؤتمرات التي تُقيمها المؤسسات الاستراليّة.
- **مسجد وحسينيّة آل ياسين. في (سيدني).** بإدارة العراقي الشيخ علي أبو ريحان. له صفحة على الشبكة العالميّة h_alyassin.com.
- **مركز فاطمة الزهراء عليها السلام Fatima Zehra Islamic Center** في (بريسبان) Brisbaine. موقعه على الشبكة العالميّة: fzic.org.
- **حسينيّة الرسول الأعظم الكربلائيّة في جنوب استراليا. Husseinat Alrassool Alaatham Alkarbalaia of Adelaid** موقعها على الشبكة العالميّة alkarbalaeia.com.au.

ويُذكر أن عدد الشيعة في مدينة (أدلايد) بحدود العشرة آلاف. جلّهم من المهاجرين الافغان، يمثّلون ٨٠ ٪، والباقون من العراقيين.

- **مركز الإمام الهادي عليه السلام. Al-Hady(A.s)Islamic center** في مدينة (سيدني). بإدارة الشيخ نامي فرحات العاملي. يُعنى بنشر فكر وثقافة مدرسة أهل البيت عليهم السلام. وبإقامة الدورات الثقافيّة

والدروس الحوزوية باللغتين العربيّة والانكليزيّة. كما ويقوم بإحياء جميع المناسبات الإسلاميّة، سيما أفراح وأحزان أهل بيت العصمة. وتقديم الاستشارات الفقهيّة والدينيّة للجالية.

- **مسجد وحسينيّة الإمام الكاظم**. **Imam Kadhem Mosque** في (شبيرتن ـ فكتوريا). بإدارة العالم العراقي السيد حسام الصراف الحسيني. المسجد الأول في مدينة (شبيرتن) من ولاية (فكتوريا). أُسس سنة ٢٠٠٠م بسعي العراقي السيّد غازي المكوطر وثلة من أهل الخير.

وهو يعمل على:

- تعبئة الطاقات الحيويّة الشبابيّة، والتخطيط لاستثمارها في المحافل الدينيّة والمناسبات الإسلاميّة.
- رفع مستوى الوعي الفكري والثقافي من خلال المحاضرات الدينية والمناسبات الإسلاميّة.
- التّصدّي للشبهات والاشاعات والافتراءات التي يسعى الاعداء إلى زرعها في الأُمّة ضدّ الإسلام ومذهب أهل البيت عليهم السلام.
- العمل على إيجاد العلائق والصلات بين المسجد والمؤسسات الإسلاميّة في بلاد المهجر. لتحقيق الاهداف المشتركة والانسجام وتوثيق الصّلة بين الجالية والمرجعيّة من خلال إيصال الفتاوى والإجابة على الاستفتاءات الشرعيّة بواسطة إمام المسجد.
- الاهتمام بالثقافة والفكر والآداب الإسلاميّة وعلوم أهل البيت عليهم السلام، بواسطة تفعيل دور المكتبة الدينيّة.
- العمل على حفظ وتثبيت ونشر العقيدة الحقّة والفكر القويم، المُتمثّل بمذهب أهل البيت عليهم السلام.
- اعتماد وحدة الكلمة في الصفّ الإسلامي الشيعي، وتجنّب الصراعات الجانبيّة. وكذلك الابتعاد عن طرح الاثارات الطائفيّة. والاعتبار بالتجارب السابقة في النشاطات والمشاريع والمحافل الدينيّة. وتلافي الاخطاء.
- تعزيز روح التصدّي في أوساط الشباب وعموم أبناء الجالية في تحمّل المسؤوليّة تجاه الواقع الإسلامي والاجتماعي. والدفاع عن مظلوميّة أهل البيت.
- **مؤسسة كُميل الخيريّة الإسلاميّة**. **Kumail Community Islamic Association** في (سيدني) بإدارة العراقي طه الرفاعي.

تهتمّ بإحياء ذكرى ولادة المعصومين ووفياتهم. كوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام وسيدتنا الزهراء. وخصوصاً إحياء ذكرى أيام عاشوراء، ذكرى شهادة سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام. كما تُحيي المؤسسة ليالي القدر بتلاوة القرآن الكريم ودعاء كُميل وزيارة الإمام الحسين عليه السلام. ومحاضرات متنوّعة. كما وللمؤسسة نادٍ رياضيّ، ومدرسة عربيّة تعطي دروسها باللغة العر بيّة، كل يوم سبت. بالإضافة إلى دروس للأطفال بالانكليزية في علوم أهل البيت عليهم السلام.

وتسعى المؤسسة لشراء مقرٍّ دائمٍ لها إن شاء الله تعالى. (تاريخ النصّ سنة ٢٠١٤م).

- **البيت الشيعي في جنوب استراليا**. في مدينة (ادلايد). بإدارة اللبناني عقيل حمّود.

جمعيّة لإحياء المناسبات والشعائر الحسينيّة، والدفاع عن مذهب أهل البيت ونشر التشيّع، والحفاظ على الهوية الشيعية بتثقيف وتوعية الجالية بإقامة المهرجانات التثقيفيّة والتوعويّة والترفيهيّة.

- **مركز الهادي الخيري**. **Al_Hadi Welfare Association** في مدينة (كانبرا) Kanbra. بإدارة العراقي افتخار حيدر. يهتم بإحياء مناسبات أهل البيت عليهم السلام. له صفحةٌ على الشبكة العالميّة al_hadi.co.

- ـ الجمعيّة الإسلاميّة الشيعيّة (sic) في (سيدني). بإدارة العراقي رياض الحجاج. وهي تهتم بإحياء ولادات المعصومين ووفياتهم. وخصوصاً بعاشوراء سيّد الشهداء، ووفاة الرسول الاعظم وأمير المؤمنين وسيّدتنا الزهراء. وبإحياء ليالي القدر، وقراءة دعاء كُميل ليالي الجُمع. وتُدير مدرسةً لتلقين التلاوة للناشئة أيام السبت، ودروساً إسلاميّة لهم بالانكليزيّة.

- **حسينيّة النبي الأكرم** صلى الله عليه وآله وسلم **Hussainya Alnabi Alakram** في (سيدني). بإدارة العراقي أبو ريحانة.

تهتمّ بإحياء مجالس أهل البيت عليهم السلام في أيام السبت مع الإطعام، طيلة أيام السنة. وتنظّم دروساً لتعليم اللغة العربيّة والقرآن الكريم تلاوةً وحفظاً، والاحكام والعقائد الإسلاميّة للجنسين. مع منح جوائز كل ثلاثة أشهر للحافظين. وبإقامة الندوات والمحاضرات العقائديّة والاحتفالات وبمراسم العزاء للمعصومين عليهم السلام. وتوزيع الكُتُب والتسجيلات للراغبين مجاناً. لها صفحة على الشبكة العالميّة h_alnabi.com.

- **مسجد الرسول الأعظم**. في (سيدني). أُسس سنة ٢٠٠٢ م. بإمامة العراقي الشيخ محمد حسين الانصاري. تُقام فيه الصلوات اليوميّة جماعةً. ويُنظّم برامج دينيّة للمحافظة على الثقافة الإسلاميّة. ويُدير مدرسةً لتعليم اللغة العربيّة والقرآن الكريم للناشئين. ومحاضرات عقائديّة، واحتفالات ومراسم عزاء للمعصومين عليهم السلام. ويُصدر كُتُباً ومجلّةً.

- **جمعية أهل البيت الإسلاميّة Ahlul_Bait Islamic Association** في (ادلايد) Adelaid. بإدارة العالم العراقي السيّد كاظم الموسوي.

للجمعيّة نشاطات متنوّعة. منها: إقامة المناسبات الدينيّة. تدريس التلاوة واللغة العربيّة والأخلاق الإسلاميّة للناشئين من الجالية من الجنسين.

وقد اشترت الجمعيّة بمساعدة أبناء الجالية العراقيّة في (ادلايد) بنايةً لتكون مسجداً وحسينيّة. وهو أول مسجدٍ شيعي في هذه المدينة.

- **مسجد ومركز الإمام المهدي** عجل الله فرجه. في (سيدني). بإمامة العالم العراقي السيّد محسن الحُجّة. تُقامُ فيه الصلوات اليوميّة جماعةً. وتُعقد فيه المجالس الحسينيّة دوريّاً، وخصوصاً في شهر المحرم. وتُنظّم

دروسٌ إسلاميّة، وبرنامجٌ لتلقين تلاوة القرآن للأطفال والشباب. إلى برامج أُخرى متنوعة.

- **مركز الإمام الحسين** عليه السلام. **Center Imam Hussain Islamic** في منطقة Earlwoodفي (سيدني) بإدارة الشيخ الدكتور منصور اللقائي.

- **الجمعيّة الجعفريّة Al_Jaafaria Society**. في (سيدني). تُصدر مجلة (النبأ)، ومجلّة (مُرضيّة) النسائيّة. وتُدير (مدرسة الإمام الصادق) لتعليم اللغة العربيّة. وتُقيم ندوات إسلاميّة. ويحتوي مركزها على مكتبة عامّة.

- **جمعية الزهراء الإسلاميّة. Muslim Association Al_Zahra** في (أرنكليف) Arncliff بمدينة (سيدني). أسست سنة ١٩٨٠ م بسعي السيّد هاشم نصر الله. أكانت بتاريخ تسجيل هذه المعلومات بإدارة موسى شاهين.

لكنّ الجمعيّة عريقة، هي التي شادت أول مسجدٍ للشيعة في (سيدني) سنة ١٩٨٣م، وسُمّي (مسجد الزهراء). وذلك باهتمام أوّل عالم دين شيعي أقام في المدينة هو الشيخ فهد مهدي العاملي. ثم أتى بعده سنة ١٩٧٨م عالم الدين الإيراني السيّد محمد كاظم القزويني. وبفضل تعاون الاثنين يرحمهما الله تمّ بناء المسجد. وما تزال الجمعيّة تقدّم خدماتها الدينيّة والاجتماعيّة للجالية الشيعية الكبيرة في المدينة.



- **جمعية المسلمين الشيعة**. في (سيدني).

- **جمعيّة الغدير الإسلاميّة**. في مدينة (ملبورن). بإدارة اللبناني سهيل فنيش. وهي تعمل على مساعدة المهاجرين الجُدُد، وذلك بتسهيل حصولهم على المنح المالية والمساعدات. وتتابع شؤونهم لدى الجهات الرسميّة. وتتمثّل في اللقاءات الخاصّة بالجالية، وتقديم الاسناد والدّعم الممكن لهم.

- **جمعيّة الإمام الحسن العسكري**، في (فيرفيلد) Fairfield. أُسست سنة ٢٠٠٠ م. منهجها مجلسٌ حسيني كل ليلة أربعاء، وإحياء المناسبات الدينيّة في أوقاتها. أسسها ويُديرها الدكتورمحمد طه السلامي.

- **مركز الإمام الحسين** عليه السلام **الإسلامي**، في منطقة (إرلوود) Earlwood بـ (سيدني) وهو من بنايةٍ كبيرة. تضمّ قاعةً للصلاة والمحاضرات، وغُرف لتعليم القرآن والأحكام وما إليها. وثمّة مكتبٌ للمسؤول عن إدارة المركز، بالإضافة إلى مكتبة بمختلف اللغات المتداولَة بين أفراد الجالية الإسلاميّة.

أسّسه الشيخ منصور لقائي، لكنّه تخلّى عن إدارته وعاد إلى (إيران). ليلي إدارته من بعده الشيخ محمد جعفر البرمي. يهتم بإقامة وإحياء مختلف الفروض والمناسبات الدينيّة. ويعقد حلقات لتدريس التلاوة والأحكام والعقيدة باللغات العربية والفارسيّة والانكليزيّة.

- **حسينيّة السيّدة خديجة الكبرى**، في (جيبينك نورتن) Chipping Nort٠n. أُسست سنة ٢٠١٠ م. وهي عبارةٌ عن بناية من طابقين.تُحيى فيهما المناسبات الدينيّة.

- **جمعيّة شباب الغدير**، في سيدني. أسّسها العراقي الحاج حسنين السلمي سنة ٢٠١٢ م في منطقة

(كامبل تاون) Campbelltowne بـ (سيدني). وتهتمّ بالأنشطة الشبابيّة، من فرقة تمثيل وإنشاد ومسرحٍ للدُّمى.

- **حسينيّة عبد الله الرضيع،** في (كسولا) Cassula أُسست سنة ٢٠١٤ م باهتمام العراقي الحاج علي الجبوري.
- **مسجد ومركز المهدي،** في منطقة كمبلتاون Campbeltown في (سيدني). أسس سنة ١٩٩٩ م باعتناء جمعيّة المهدي الثقافيّة. ويهتم برعاية الشؤون الدينيّة للشباب والناشئين، وتُنظّم دروساً لهم باللغات العربيّة والأفغانيّة والانكليزيّة في ليالي الجمعة وأيّام السبت والأحد.
- **مجمع الإمام السيّد موسى الصّدر.** حسينيّة السيّدة زينب عليها السلام. في (بنكسيا) Banksia. أُسس سنة ٢٠٠٢ م باهتمام ممثّل المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان الشيخ كمال محمد مسلماني. ويهتم برعاية شؤون الشيعة اللبنانيين في (استراليا) والعلاقة مع الجاليات الأُخرى، ومع الدوائر المدنيّة والحكوميّة. فضلاً عن إحياء المناسبات الدينيّة.
- **مؤسسة الحسنين،** في منطقة أوبرن Auburn بـ (سيدني). أُسست سنة ٢٠٠٦ م بسعي الأفغاني السيد كلبهار كريمي. تهتم بإحياء المناسبات الدينيّة، وتلقين التلاوة، والأعمال الاجتماعيّة، والفعاليات الشبابيّة من رياضيّة وفنّيّة.
- **مُصلّى الإمام السّجّاد،** في منطقة (أُوبرن) Auburn أيضاً. قاعةٌ متوسطة السّعة في بناية. خصّصها العراقي السيّد هاشم نصر الله برسم المُصلّين، ويُدرّس فيها الشيخ زيد السّلامي الشباب والفتيان باللغة الانكليزيّة. وهي في الوقت نفسه مقرّ المجلس الإسلامي العراقي الأسترالي، الذي يرأسه الدكتور محمد طه السلامي، وأمين سرّه الحاج صلاح القرناوي.
- **الجمعيّة العراقيّة غرب استراليا West Australian Iraqi Community Inc**. في (كنويك) Kenwik. أسست سنة ٢٠٠٤ م باعتناء العراقي عبد الكريم الخيّون. تهتم بمختلف الأنشطة الإسلاميّة الموجهة للشباب.
- **جمعيّة التوحيد الإسلاميّة،** في (مالاكا) Malaga. أسست سنة ١٩٩٧ م. وهي بإدارة العراقيين حسين الحسيني وعقيل البريش. تهتم بالنشاطات الدينية والثقافيّة والرياضيّة.
- **مؤسسة الزهراء الإسلاميّة الثقافيّة الاستراليّة،** في (مورلي) Morly. أسست سنة ٢٠١٣ م بسعي العراقي خير الله شعيب. تهتم كسابقتها بالنشاطات الدينيّة والثقافيّة والرياضيّة.
- **جمعيّة هزارة الأفغانيّة United Hazara Association**. في مدينة (كاسنلز) Gosnells. مقرّها حسينيّة في منزل. أسّسها عددٌ من الأفغانيين الهزارة. تهتم بمختلف النشاطات الثقافيّة الدينيّة باللغة الفارسيّة.
- **جمعيّة القائم،** في بننت سبرينك **Bennett Spring**. وهي كسابقتها حسينيّة في منزل، هيّأها عدد من

الأفغان، ابتغاء إحياء المناسبات الدينيّة وإقامة الصلاة.

- **جمعيّة الزهراء للنساء والاولاد Al-Zahra Women Children Association Inc** أُسست سنة ٢٠١٣ م في (بيرث)، (ميرا بوكا) Mirrabooca باهتمام عدد من المسلمات: عالية نكويين، إيفا لويس هوكنكمب، ليلى عبد الله، لتكون مركزاً إسلامياً، ومدرسةً للبنات، ومؤسسةً خيريّةً للأيتام والفقراء.
- **مركز فدك الثقافي Faddek Cultural center**، في (بيرث). أُسس سنة ٢٠١١ م مركزاً إسلاميّاً وحسينيّةً ومُصلّى. وهو بإدارة وإمامة العراقيين الشيخ حسين الشطري وأحمد الزيادي. ويضمّ مكتبة عامّة.
- **جمعيّة أهل البيت في غرب استراليا Ahlulbayet Community of Western Australia** أُسست سنة ٢٠١٣ م باهتمام الإيرانيين رضا بينداهنيم، السيد صادق الأعلمي، راسل فرهمند، حسين علي ناصر. نشاطاتها تبليغيّة باللغات الانكليزيّة والعربيّة والفارسيّة والأُردو. مع الاهتمام بإقامة الفرائض، وبإحياء المناسبات الدينيّة.
- **مركز الثقلين الإسلامي، في مدينة (دورهام) Durham**. أُسسه سنة ٢٠٠٥ م العراقي فائق عبّود، في قاعة مستأجرة من الدولة. برنامجه محاضرات دوريّة باللغة العربيّة موجّهة للجالية العراقيّة، في موضوعاتٍ دينيّة عقائديّة أخلاقيّة.
- **مسجد الإمام علي عليه السلام والمركز الإسلامي في جنوب استراليا. Imam Ali Mosque Islamic Center of South Australia** أُسس سنة ٢٠٠٩ م، بسعي الافغاني الشيخ ضاحي علي توسلي. برنامجه دينيّ بحت لخدمة الجالية الافغانيّة في المنطقة.
- **حسينية الرسول الاعظم**، في (سيدني) فيما يبدو. أُسست سنة ٢٠٠١ م بسعي حسين الحائري. يهتمّ بالشأن الديني للجالية العراقيّة والافغانيّة والإيرانيّة، من إحياء المناسبات وإقامة الشعائر وتلقين التلاوة، وما إلى ذلك.
- **كليّة الزهراء عليها السلام Al-Zahra College**. في (سيدني). بإدارة الإيراني أحمد مكرهر.
- **مجمع الإمام علي عليه السلام Imam Ali Islamic Center** في (ملبورن). بإدارة اللبناني سعيد الخشن.

مجمعٌ كبيرٌ يضمّ (مدرسة الإمام علي) الأكاديميّة من١٤٠٠ طالب وطالبة. و (مكتبة السفينة) تحتوي على مجموعاتٍ من الكُتُب والأشرطة الفيديويّة والصوتيّة والأقراص الألكترونيّة للحاسوب، و (حوزة الإمام الصادق عليه السلام) الدينيّة للفتيان والفتيات. كما يضمُّ مسجداً أو مُصلّى تُعقد فيه صلاة الجماعة يوميّاً. ويُصدر مجلّة (السفينة) الشهريّة. كما يُجري العقود والإيقاعات لأفراد الجالية الشيعيّة. ويُجيب على الاستفتاءات الموجهة إليه.

- **مركز النور الإسلامي. Annur Islamic center** في مدينة (بيرث). للمركز في ضاحيتها (ثورنلي) مسجدٌ باسم (مسجد مريم) ومدرسةٌ كبيرةٌ لأبناء المسلمين. كانت بتاريخ تسجيل هذه المعلومات



قبل خمس سنوات تضمّ ما يزيد على ألف طالب وطالبة.

- **المجلس الإسلامي الشيعي لكوينزلاند.** في (اندروود). أُسس عام ٢٠١٣ م بسعي السيد عيسى تقوي والدكتور عمران علي وأبو علي الجسامي وعبد الكريم السلطان وأبو علي لخاني. مقرّه عبارة عن قاعةٍ كبيرة. برنامجه إقامة الصلوات اليوميّة وصلاة الجمعة، ومحاضرات أُسبوعيّة ودروس إسلاميّة. فضلاً عن تقديم خدمات دينيّة لأبناء الجاليات الشيعيّة عند الحاجة.

- **التجمع الإسلامي الشيعي الأسترالي، مركز الإمام الحسن المُجتبى.** في إيبينك / ملبورن.

أُسس سنة ٢٠٠٦ م بسعي حامد حمدي، صادق الموسوي، عقيل الشريف. ويبدو أن هؤلاء جميعاً عراقيون. لكنّ حضوره من اللبنانيين والعراقيين.

يهتمّ بإحياء الشعائر والمناسبات الدينيّة، ورعاية الناشئة من أبناء المهاجرين والاعتناء بتعليمهم التلاوة والأحكام واللغة العربيّة بمدارس خاصة يومي السبت والأحد.

- **مجمع بنجتان.** في (سنت ألبس) saint Albes بمدينة (ملبورن). جمعيّةٌ أُسست سنة ١٩٨٩ م بسعي السيّد أبو القاسم الرضوي. يحضر نشاطاتها أبناء الجاليات الهنديّة والباكستانيّة والسنغافوريّة والأفغانيّة والأفريقيّة. خطابها باللغتين الأُوردو والانكليزيّة. تهتمّ بالشعائر الدينيّة، وبدروس التلاوة والتفسير والأحكام. فضلاً عن برامج خاصة بالناشئة، ونشاطات رياضي ، وتنظيم رحلات ترفيهيّة. إلى ماهنالك من شؤون الجاليات الشيعيّة الدينيّة والاجتماعيّة. وهي من أكبر وأهمّ الجمعيات الشيعيّة في (ملبورن) بل في عموم ولاية (فيكتوريا). ولها مركزٌ ثابتٌ وإمامٌ مُقيم،يُستبدل كل بضع سنين.

- **مؤسسة أُم البنين الثقافيّة،** في (توماس تاون) Thomastown. أسسها العراقي السيد علاء الشرع. تهتم بإحياء المناسبات والشعائر الدينية.

- **مؤسسة الغدير الإسلاميّة،** في (لالور). أسسها السيد حيدر الخراساني.

- **مجمع الإمام علي** عليه السلام، في (فوكنر)Fawkner (ملبورن). أسسه الشيخ الدكتور جعفر الباقري والحاج هادي فخر الدين. وهو حسينيّةٌ ومُصلّى، تُقام فيه الجمعة والجماعة، وتُحيى فيه المناسبات الدينيّة والشعائر. ويضمّ مدرسة لتدريس اللغة العربيّة والتلاوة للناشئين والفتيان يومي السبت والأحد. روّاده من مختلف الجاليات الشيعيّة الكبيرة والكثيرة في (ملبورن).

- **بيت الحسين** عليه السلام. حسينيّة أسستها سنة ٢٠٠٢ م وتديرها هيئةٌ من الشيعة في مدينة (دالس). تهتم بإحياء المناسبات والشعائر. وتُنظم برامج موجّهة إلـى الفتيان والشباب من الجالية الشيعيّة.

- **جمعيّة الهادي الاستراليّة الخيريّة. AlHadi Welfare Association of Australia** أسست سنة ١٩٩٨ م في العاصمة (كانبرا) بسعي الأفغاني إفتخار حيدر. تهتم بإحياء المناسبات. خطابها بالعربيّة والفارسيّة والانكليزيّة والأُردو.

- **مسجد الإمام الرضا** عليه السلام، في منطقة (ولينكونك) Wollongong في (سيدني). أسسه سنة ٢٠٠١ م اللبناني حسين حجازي. يهتم بالمناسبات والشعائر، وبتدريس القرآن والفقه. ويُنظّم نشاطات اجتماعيّة ومُخيّمات كشفيّة للشباب.

- **حسينيّة آل ياسين.** أُسست سنة ٢٠١٣ م باهتمامٍ غير مباشر من السيّد صادق الشيرازي. تحيى فيها مراسم أهل البيت عليهم السلام بحضور أبناء الجاليات العراقيّة والإيرانيّة والافغانيّة. ولديها برامج لتلقين التلاوة للأولاد من عمر ست سنوات فما فوق، وتعليم الشباب العقائد. وتُنظّم نشاطاتٍ اجتماعيّة وترفيهيّة. علاقاتها جيّدة مع الجاليات اللبنانيّة والإيرانيّة والافغانيّة والباكستانيّة.

- **مسجد الإمام الرضا** عليه السلام، في (سانت ماري) St.Marys غرب مدينة (سيدني). وبالإضافة إلى عقد الصلاة جماعةً وجمعةً، فإنّ للمسجد نشاطات تعليميّة منوعة موجّهة للشباب والناشئين.

- **حسينيّة ابن الرضا الإمام محمد الجواد.** Husainyah Ibn al-Rida al-Imam Muhammad al-Jawad في (روزلاند) Roseland شمال غرب (سيدني). وهي عبارةٌ عن مسكنٍ واسع تُحيى فيها مراسم ليالي الجمعة والمناسبات في أوقاتها. تحضرها الجالية العراقيّة.

- **كليّة بلفيلد،** في (روسمور) Rossmore بمدينة (سيدني). وهي مدرسة ابتدائيّة ثانويّة، يقصدها أبناء الجالية الشيعيّة في المنطقة.

- **هيئة الإمام الحسن** عليه السلام، في (برستنس) Prestons شمال غرب مدينة سيدني. حسينيّة أُسست سنة ٢٠٠٠ م، تُعقد فيها مجالس حسينيّة وبرامج عباديّة أُسبوعيّة.

- **حسينيّة فاطمة الزهراء** عليها السلام، في (موربانك). أُسست سنة ٢٠١٢ م في قاعةٍ مملوكةٍ للبلديّة. روّادها من اللبنانيين والعراقيين. خطابها باللغة العربيّة. بالإضافة إلى إحياء المراسم المعتادة في المناسبات، تنظّم محاضرات في الدين والتاريخ.

- **كليّة الزهراء الأسلاميّة،** في (آرنكليف) بمدينة (سيدني). مدرسةٌ أُسست سنة ١٩٩٨ م بسعي اللبناني الأستاذ أحمد مقشر.

- **مركز أهل البيت الإسلامي الاسترالي،** في (أوبرن) Auburn بمدينة (سيدني). أُسس سنة ١٩٩٨ م بسعي العراقيين: الشيخ محمد ناجي الصمياني و الشيخ الدكتور عبد الجبار شرارة. وأهم نشاطاته صلاة الجمعة التي تُقصد من أنحاء المدينة. بالإضافة إلى إحياء المناسبات في أوقاتها. ومدرسة تضم زهاء مائتي تلميذ من الجاليتين العراقيّة والافغانيّة.

- **مركز إمام حسن،** في (أننكروف) Annangrove بمدينة (سيدني). أُسس سنة ٢٠٠٤ م بسعي الحاج عباس علي (نظن أنه أفغاني). وهو عبارةٌ عن بناية كبيرة تضم مسجداً وقاعةً للمحاضرات، وعدّة غُرف لمختلف الخدمات. برنامجه حافلٌ منه إحياء المناسبات، وتنظيم دروس في العقائد والأحكام والتلاوة والتفسير واللغة العربية للشباب والفتيان من مختلف الجاليات اللبنانيّة والإيرانيّة



والباكستانيّة والافغانيّة. وهو من هذه الوجهة من أنجح المؤسسات الشيعيّة في عموم (استراليا).

- **مؤسسات السيد محمد حسين فضل الله (رض)**. وهي بإدارة مُمثّله في عموم (استراليا) سماحة الشيخ يوسف نبها، وهو الذي زوّدنا بالمعلومات.
- **مكتب تكفّل لجمعية المبرات الخيريّة**. في منطقة (أرنكليف) Arncliff في (سيدني)، لدعم مؤسسة تكفل الأيتام في (لبنان).
- **مسجد الرحمان.في منطقة (كينكزغروف) Kingsgrove** في (مدينة سيدني). وهو من قاعةٍ للصلاة تتسع لأربعمائة مُصلٍّ، ومُصلّى للنساء، وقاعة للمحاضرات والبرامج، واستوديو لإذاعة البشائر ـ استراليا. وقد زاره عدّة مرات رئيس وزراء استراليا، تقديراً لِما يُمثّله من سياسة اعتدالٍ ووسطيّة في الخطاب والعمل.
- **كشّافة جمعية المبرات الخيريّة**. في منطقة (بيكسلي نورث) Bexley North في (سيدني). تعمل تحت هيكليّة الكشّاف الاسترالي. وتقوم بنشاطات ثقافيّة وترفيهيّة وكشفيّة منوّعة، بالإضافة إلى رحلات ومخيمات.
- **مركز الرحمان الرياضي**. في منطقة (كينكزغروف) أيضاً. ويضم قاعةً للتمارين والألعاب الرياضيّة، وقاعةً مماثلة للأطفال. بالإضافة إلى مطعم ومسبح وسونا وجاكوزي.
- **كلية الرحمان**. في (أوسترال / ليفربول). وهي مدرسة على أرضٍ مساحتها ١٨٠٠٠ م٢. وقد بدأ العمل على هذا المشروع سنة ٢٠١٥ م، ونال الترخيص سنة ٢٠١٨ م. وهو الآن في طور البناء. ويؤمل أن يبدأ الدراسة واستقبال الطلاب عام ٢٠٢١ م إن شاء الله.

فمن هذا السّرد الذي أردناه شاملاً، الذي دار على استقصاء مختلف المؤسسات الشيعيّة في عموم (استراليا)، يتبين ضمناً أن الثقل الأكبر للوجود الشيعي فيها قد تراكم مادياً ومعنويّاً بسرعة منذ الربع الأخير من القرن الميلادي الماضي. وأنّه نهض في مُدُنها الكبرى خصوصاً على عاتق المهاجرين العراقيين واللبنانيين بالدرجة الأُولى. ثم الافغانيين والباكستانيين بالدرجة الثانية.

كما أن حجم المؤسسات وانتشارها يدلُّ على ثقلٍ سكانيٍّ شيعي كبير، مُنتشر في أقطار وبلدان (استراليا). ملتزم ومُستمسك بثقافته وذاتيّته، سيكون له أثره الطيّب في المستقبل إن شاء الله. وهذا يؤيّد ما قلناه في مطلع الباب، أنّ عديد الشيعة الإجمالي فيها لا يقلّ عن نصف المليون. بل ربما زاد كثيراً، لأنّ الهجرة من (لبنان) خصوصاً ما تزال عالقة بقوة، كما تدلّ عليه الإحصاءات اللبنانيّة الرسميّة.

الباب الثاني: نيوزيلندا

(١) تعريف

دولةٌ من مجموعة كبيرةٍ من الجُزُر جنوب غرب المحيط الهادي. عاصمتها (ويلّينغتون). سكانها خمسة ملايين، أغلبهم من أُصولٍ أوروبية، وأقلّية كبيرة ممّن يُسمّون (الماوريين) سكانها الأصليّين، بالإضافة إلى أقليّات من أسيويين وسكان جُزُر المحيط الهادي.

ويُذكَرُ أنها من البلدان المُتقدّمة بنظامها السياسي والاقتصادي والتعليمي الإداري.

(٢) الإسلام في نيوزيلندا

بدأ وصول الإسلام إليها في الثلث الأخير من القرن الماضي، بهجراتٍ قادمةٍ من دولة (فيجي) المجاورة التي سنأتي على ذكرها توّاً، ومن (الهند) و (باكستان) و (سريلانكا) و (ميانمار) و(ألبانيا) و (تركيا) و (أندونيسيا) و (يوغوسلافيا). يجذبهم ازدهارُها المدني وطيب العيش فيها. مقابل اضطراب الأمن إلى حدّ تهديد الحياة في بعض تلك المَهاجر، وصعوبة تحصيل أسباب العيش فيها.

واستناداً إلى إحصاءٍ للسكان سنة ٢٠١٣م، فإن عدد المسلمين فيها زهاء الخمسين ألفاً، أي ما نسبته ١٪ إلى مجموع السكان. ينتشرون في مُدُن (أوكلاند) و (كريست تشرتش) و (ويلنغتون) و (بلمرستون).

وبالنظر إلى أنّ جُموع المسلمين فيها حديثوا الهجرة، دفعتهم الرغبة في تحسين وضعهم المعيشي، والظروف السيئة لبعضهم (نخصُّ بالذكر منهم هنا مسلمي ميانمار الرّوهينغ وما تعرضوا له من اضطهادٍ وتهجيرٍ منهجيّ من وطنهم، ومسلمي يوغوسلافيا على أثر انفراط عقدها وما حصل فيها من حربٍ أهليّة)، ـ فإنّ الجيل الأول من المهاجرين المسلمين لم يستفد من الإمكانات التعليميّة والتأهيليّة والفُرص الممتازة التي يُتيحها مهجرهم المُتقدّم. ومن هنا، فإن أكثر المسلمين فيها كانوا حتى وقتٍ قريبٍ من العمّال الكادحين الذين يفتقرون إلى الخبرة والكفاءات الفنّيّة، وليسوا يملكون إلا قوة عملهم. لكن الأمر سيتغيّر حتماً في الأجيال التالية.

لهم مسجدٌ ومركزٌ إسلامي في العاصمة. وجمعيّات في مواطن انتشارهم المذكورة أعلاه. أبرزها (الجمعيّة الإسلاميّة النيوزيلنديّة). وهي جمعيّة حسنة التنظيم واسعة النشاط، يُساهم فيها مسلمون من مختلف المذاهب دون تفريق.



(٣) الشيعة في نيوزيلندا

الشيعة فيها هم جزءٌ من الوجود الإسلامي إجمالاً في سببه وملابساته. وعددهم هناك لا يزيد على العشرة آلاف. لهم (مسجد الإمام علي عليه السلام) في العاصمة. كان يؤمّ المصلّين فيه أوائل القرن الميلادي الحالي عالمُ دين، يبدو من اسمه أنّه إيراني، اسمه الشيخ حامد سلطانيّان، يُمثّل أحد المراجع في (النجف). نظنّ أنّه أول عالم دين شيعي فيها. كما بدأوا في السنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٤م إحياء شعائر شهر المحرم. ومُذ ذاك درجوا على إحيائها في آناتها.

(٤) المؤسسات الشيعيّة في نيوزيلندا

- **جمعيةأهل البيت الإسلاميّة في نيوزيلندا Islamic Ahlulbayet Fouendation of New Zealand (IAFONZ)** في منطقة (باكورنجا) Pakuranga Heigts. هذه الجمعيّة هي أول مؤسسة إسلاميّة شيعيّة عاملة في (نيوزيلندا). أعلنت في أول بيانٍ لها بالانكليزيّة، أنّ المهمة التي أخذتها على عاتقها تلبيةُ حاجات مجتمعها الخاصّ، بتزويده بالتربية والتعليم. والحقيقة التي لاحظناها من متابعة نشاطها، وما نشرته في الشبكة العالميّة من صُور للقاءات التي تنظمها لأعضاء الجالية الشيعيّة في (باكورنجا)، أنّها أولت عنايتها لتعزيز العلاقات الاجتماعيّة بين أعضاء الجالية الشيعيّة بمختلف الوسائل.
- **حسينيّة**. أنشأتها الجمعية نفسها مؤخّراً في منطقة (باكورنجا). تُحيى فيها شعائر شهر المحرم، وتُعقد فيها الاجتماعات واللقاءات بين أفراد الجالية الشيعة.
- **مؤسسة الإمام علي. The Imam Ali Knowlekedge Foundation (Ikaf)** في (أوكلاند). بدأت نشاطها سنة ٢٠٠٨م. بتنظيم لقاءات بين أعضاء الجالية الشيعيّة، ووضع برامج مُنتظمة، وفِرَق عمل في المناسبات، وصفوفاً أسبوعيّة في المدرسة ضمن المؤسسة. يبدو أنّها لتعليم اللغة العربيّة وتلاوة القرآن لأبناء الجالية.
- **أكاديميّة النور Noor Academy**. مدرسة تستقبل أبناء الجالية الإسلاميّة من صغاروفتيان أيام الأحد من الأسبوع، لتزودهم بالتربية والمعارف الإسلاميّة. وهي من فروع جمعيّة أهل البيت الإسلاميّة (IAFONZ) المذكورة أعلاه.

الباب الثالث: فيجي

(١) تعريف

رسميّاً (جمهورية جُزُر فيجي). دولةٌ تتألف رقعتها من عددٍ كبيرٍ من الجُزُر، جنوب المحيط الهادي. مساحتها الإجماليّة التقريبيّة ١٩٠٠٠ كم٢، اليابسة منها ١٠٪ تقريباً. عدد سكانها زهاء المليون. عاصمتها مدينة (سيوفا) الكائنة في إحدى أكبر جُزُرها، واسمها جزيرة (فيتي ليفو).

كانت مستعمرةً بريطانيّة حتى نالت لوناً من ألوان الاستقلال سنة ١٩٧٠ م. أغلب سكانها اليوم مسيحيّون من مختلف المذاهب.

(٢) الإسلام في فيجي

دخلها الإسلام بدءاً من السنة ١٨٧٩م، بهجرة مجموعاتٍ من العمّال من أنحاء (الهند)، جلبتهم الهيئات الاستعماريّة البريطانيّة للعمل لها في زراعة قصب السكر ونخيل جوز الهند واستثمارهما لمصلحتها. وكان بينهم ما يقرب من العشرة آلاف مسلم ومسلمة، ما لبثوا أن استقرّ أكثرهم نهائيّاً فيها. تبعتها جماعاتٌ مسلمةٌ قادمةٌ أو مجلوبةٌ من جُزُر الهند الشرقيّة، ومن (الملايو)، ومن مختلف بلدان شرق (أفريقيا).



هذه الحركة السكانيّة المتنوّعة باتجاهها استمرّت حتى السنة ١٩١٦م. وما انقطعت إلا بسبب وصول آثار الحرب العالميّة إلى المنطقة. التي شارك بالقتال فيها بضعة آلاف من الفيجيين في صفّ الجيش البريطاني.

اليوم يبلغ عدد المسلمين فيها بمختلف مذاهبهم، ما نسبته ١٠ ٪ تقريباً من مجموع السكان، أي مائة ألف تقريباً. لهم مساجدهم ومدارسهم ورجالهم في قنوات السلطة والإدارة المحلّيّة. وبعض الأعياد الإسلاميّة أعيادٌ وطنيّة على مستوى البلد.

(٣) الشيعة في فيجي

يبلغ عددهم فيها ما نسبته ٤ ٪ من مجموع المسلمين، أي زهاء الأربعين ألفاً. هاجروا في مَن هاجر إليها من مسلمي (الهند) و(الملايو) و شرق (افريقيا). قسمٌ كبيرٌ منهم يعيشون في القُرى، بإحدى الجزيرتين الكبيرتين (فيتي ليفو) و(فانو ليفو). بينما عددٌ من الشيعة الخوجة الذي جاؤا من (أوغندا) في شرق (أفريقيا)، يسكنون مدن (نادي) و(لاوتوكا) و(لاباسا). وهم كدأبهم غالباً حيثما حلّوا يعملون في التجارة.

وتسود بين الشيعة فيها أفضل العلاقات مع اخوانهم المسلمين من المذاهب الأُخرى. بحيث يتشاركون

في المساجد وفي كافة الاحتفالات الدينيّة. خصوصاً في الاحتفال الجامع بذكرى المولد النبوي. على الرغم من مساعي بعض الوهابيين الطارئين على البلد باتجاه التحريض على الفرقة والتنازع. لولا التّصدّي الحازم لهم من الدولة. وربما لهذا السبب لسنا نجِدُ في (فيجي) مؤسسات دينيّة خاصة بالشيعة. مع أنّنا نعرف جيّداً اهتمام الخوجة البالغ خصوصاً بإشادة ورعاية هذه المؤسسات.

خلاصاتُ ونتائج

(١)

أعتقد أنّ القارئ يشاركني الانطباع الأساسي الذي خرجتُ به من قراءة الكتاب. وهو أنّ التشيع، بوصفه ظاهرةً جغرافيّةً ـ بشريّةً، هو منذ أواسط النصف الثاني من القرن الميلادي الماضي أمرٌ مختلفٌ تماماً عمّا كان عليه من قبل. سواءٌ من حيث الانتشار المكاني، أم من حيث الانطباع المُشوّه السّائد عنه لدى المذاهب الإسلاميّة الأُخرى. في ظلّ الغياب المُزمن لوُجهات النظر الذّاتيّة الشيعيّة، جرّاء الانكفاء السياسي ـ الاجتماعي التاريخي المُزمن للشيعة أثناء القرون الماضية.

ينتشر الشيعةُ اليوم انتشاراً واسعاً في مواطن مختلفة، بعضها بعيدٌ جداً عن مرابعه التاريخيّة. كما أنّ الصورة الشوهاء عنهم، التي جهُدت أجيالٌ من الأنظمة السياسيّة والأجهزة الدينية التابعة لها في تدبيجها ونشرها، قد تراجعت بشدّة. لتحلّ محلّها صورةٌ مشرقة، أقربُ إلى مايصبو إليه المرء المُتحّرر من البرامج السُلطويّة، ومفهوم الدين الذي تنشره بما يتناسب مع مصالحها. على الرّغم من البرامج الإعلاميّة ـ الدّعـويّة، التي رُصدت لها المليارات الكثيرة. مدفوعةً بالتّحسُّب إلى حدّ الرعب من المكاسب والانجازات، التي أخذت التشيّع إلى مواقع معنويّة ومواطن مكانيّة لم تكُن في الحُسبان. في مقابل الانحدار السريع والمتتابع لمفهوم إسلامٍ سُداه ولُحمته القبض على السُلطة والثروة.

لماذا وكيف حصل ذلك؟

(٢)

نقول في الجواب:

إنّ أهمّ نتائج هذا الكتاب، أنّه يُتيح لقارئه أن يرمي نظرةً فاحصةً إجماليّةً على موقع التشيّع في العالَم اليوم، وضمناً وبالضرورة على اتجاهاته المُستقبلة. وهذه هي ميزة الأعمال الوصفيّة ذات الطّابع الشّمولي. حيث القارئ اللبيب بينما يتقدّم في القراءة يتكوّن في ذهنه عفواً عناصر صورةٍ تركيبيّةٍ، ناشئة من تراكُم المعلومات المُفـرَدَة.

تماماً مثلما يُركّب الشاعر أو الرسّام عناصر القصيدة أو الصورة من الكلمات أو من الألوان.

لكنّ ذلك طبعاً امتياز يتفاوت فيه الناس، كما في كلّ عملٍ تركيبيّ. لذلك وفي سبيل الوصول إلى نتيجةٍ على حدٍّ من التقارُب، خصوصاً حيثما تنطرح الأسئلة عن الأسباب الكامنة وراء الظواهر، وضعنا هذه الخاتمة.

(٣)

ثمة عوامل مختلفة كانت وراء تلك التحوّلات الكمّيّة المكانيّة والأُخرى النّوعيّة في الحضور الشيعي في العالَم. بعضُها ـ وياللغرابة ـ بدأت كوارث مُحقّقَة. لكنّها ما لبثت أن غدت فُرصة، ركبها (الضحايا) بكامل الجدارة باتجاهٍ تقدّمي. سنذكر الجميع بتسلسلها التاريخي:

ـ أولاً: الهجرة السُكانيّة الهائلة التي خرجت من نجد والحجاز منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فراراً من السّطوة الوهّابيّة القاسية، التي انفجرت في نجد، ثم مالبثت أن امتدّت إلى الحجاز، مُخلّفةً وراءها حيثما حلّت سيولاً من الدماء. فنزلت فيما نزلته وسط وجنوب العراق.

لكنّ أولئك المهاجرين الشافعيّة المذعورين سرعان ما تحوّلوا جماعيّاً إلى التشيّع، تحت تأثير جاذبيّة الشعائر الشيعيّة. وربما أيضاً لخيبة أملهم في مُضطهديهم الذين يُفترَض أنّهم من مذهبييّهم. وربما أيضاً وأيضاً لغضبهم من اقتحام الوهّابيين كربلا، واستباحة وتدميرونهب مقامَي سبط الرسول ﷺ وأخيه العباس عليه السلام، وفتكهم بمئات الزّائرين الأبرياء الذين صادف وجودهم في المدينة المقدّسة. ومن المعلوم أنّ المذهب الشافعي هو أقرب المذاهب الأربعة من التشيّع، لِما يحمله من تقديرٍ عالٍ لأهل البيت عليهم السلام. ولذلك أجّج ذلك العملي الهمجي غضبهم، وسهّل انضواءهم تحت راية التشيّع هكذا اكتسب التشيّع في العراق عفواً ودفعةً واحدةً عشرات الأُلوف الكثيرة من المؤمنين. بعد أن كان انتشاره في العراق منذ قرون شبه محصورٍ في جُزُرٍ معزولةٍ في الكوفة ونطاقها، وبجوار مراقد بعض الأئمة في بغداد. وهكذا بدأ شيعتُه يسلكون طريقهم باتجاه صيرورتهم الأكثريّة السُكانية في العراق كما هم اليوم.

(٤)

ـ ثانياً: الحكم العثماني الوحشي الذي أنزل كل مايخطر بالبال من صنوف الاضطهاد بشيعة لبنان. وبلغ ذروته في نهايات الحرب العالميّة الأُولى (١٩١٤ـ ١٩١٨م) بفرض الجنديّة الإجباريّة على كلّ الذكورمن الشيعة ما بين ١٥ و٦٠ من العمر. بأن يرتحلوا سيراً على الأقدام آلاف الأميال باتجاه الأرض التركيّة. الأمر الذي كان بمثابة حكمٍ مُبرَمٍ بالموت على مَن يمتثله.

في هذا الظرف العصيب اشتعلت الهجرة من جبل عامل و بعلبك ونطاقها، باتجاه الأميركيّتَين وأقطار أفريقيا الغربيّة أكثر ماكان، بحيث نشأت جالياتٌ من أبنائها، أكثرها عدداً تلك التي نزلت دير بورن في مدينة ديترويت الأميركيّة وفي أنحاء البرازيل وأقطار أفريقيا الغربيّة (خصوصاً السنغال). ما لبثت أن شكّلت

القاعدة لهجراتٍ لم تتوقّف أبداً إلى أفريقيا خصوصاً. خصوصاً بعد احتلال فلسطين سنة ١٩٤٨م، وما أدى إليه من انقطاع شبكة الطُرُق المسلوكة بين جبل عامل وبلدان فلسطين، وما تحمله من فُرص للعمل وتبادل المنتوجات. الأمر الذي أعاد تذخير الهجرة من جبل عامل خصوصاً من جديد، بعد أن كانت قد فترت قليلا.

وفي السنة ١٩٧٥م اشتعلت الحرب الأهليّة في لبنان حتى السنة ١٩٩٢م. أثناءها نشُطت الهجرة منه بنحوٍ غير مسبوق. أي أنّ هذا البلد كان مصدراً لثلاث هجراتٍ كبرى مُتوالية منه أثناء القرن الماضي. نال جبل عامل منها أكبر نصيب بسببٍ إضافيّ هو الاجتياحات الاسرائيليّة المتوالية لأرضه. وأقساها اجتياح السنة ١٩٨٢م.

واليوم ينتشر الشيعة اللبنانيون بمئات الأُلوف الكثيرة في الولايات المتحدة والبرازيل وغرب أفريقيا وإستراليا. ليُنشئوا حيثما حلّوا المؤسسات الدينيّة والثقافيّة. برعاية علمائهم الدينيين، الذين التحقوا بهم في مهاجرهم.

هنا علينا أن نُلاحظ أنّ المهاجرين من أبناء جبل عامل، دون غيرهم من المهاجرين اللبنانيين إجمالاً، لم يقطعوا صلتهم بوطنهم. بل ظلّوا على علاقةٍ متينةٍ به. وبذلك كانوا سبب ازدهاره القائم الآن. وبل إنهم في الحقيقة، والأموال التي دأبوا على إرسالها إلى وطنهم، هم السرّ المكتوم وراء ما كان يُسمّى إلى وقتٍ جدّ قريب (المُعجزة الاقتصاديّة اللبنانيّة). وما ذلك إلا تزويرٌ للحقيقة التي تتلخّص بالكميات الكبيرة من الأموال، التي كان المهاجرون العامليون يضخّونها في السوق اللبناني. فكانت بمثابة دخلٍ خفيّ غير منظور ينصبُّ في وطنهم. وليس في عالَم الأرقام من (معجزات).

(٥)

ـ ثالثاً: التهجير المنهجي التطهيري المقصود الذي ارتكبه طاغية بغداد بحق الشيعة في العراق، ابتغاء عكْس الاتجاه السُكاني العالق باتجاه أكثريّةٍ شيعيّةٍ مُطلقة. مع أنّ الشيعة هناك كانوا في حالة خُمود سياسي تام. ولم يكونوا مُمثّلين في أجهزة الدولة والقوّات المُسلّحة والأمنيّة إلا بدرجةٍ ضئيلة. لكنّ نجاح الثورة في إيران، وقيام جمهوريّةٍ إسلاميّة، كان له فعلُ النّذير للطاغية بما يُمكن أن تأول إليه الأُمور حتماً عن قريب.

بدأ بتنظيم عمليّات اغتيال يوميّة واسعة نالت، فيمَن نالته، شخصيّاتٍ شيعيّةٍ بارزة من علماء دين وغيرهم. تابعها بتنظيم تهجير الشيعة، بذريعة أنهم من أصلٍ إيراني مهما يكُن بعيداً، حتى الذين منهم يحملون الجنسيّة العراقيّة. وكانت الشاحنات تحمل عشرات الأُلوف من أبناء الأُسرات الشيعية، بمَن فيهم من شيوخ ونساء وأطفال، لترميهم على الحدود الإيرانيّة، حتى حيث يكونون تحت رحمة الطقس المناخي الشتائي القاسي.

في ظلّ هذه السياسة الغاشمة حصلت أكبرُ بعثرةٍ سُكانيّة، نالت أمّةً بعينها في تاريخ الإسلام. الملايين من الشيعة العراقيين هُجّروا، أو فرّوا بأنفسهم، تحت طائلة التهديد بالقتل والتعذيب وانتهاك العِرض إلى أي أرضٍ تَسَعُهُم. بل إن منهم مَن خرجوا بأعدادٍ كبيرة، هائمين على وجوههم في الصحراء الفاصلة بين أرض

العراق والسعوديّة. إلى أن نظّمت إحدى جمعيّات هيئة الأُمم المتحدة استيعابهم في مُخيّم كبير، لتوزّعهم بعدُ في أنحاء أُوروبا.

واليوم تنتشر الجاليات العراقيّة الشيعيّة بالملايين في أنحاء أوروبا وأميركا، حيث أنشأت مئات المؤسسات الدينيّة والثقافيّة.

(٦)

هكذا يكون الانتشار العالمي للشيعة اليوم في أقطار الدنيا، وقد وصفناه بمختلف وجوهه السكانيّة والثقافيّة / المعنويّة على صفحات الكتاب، ثمرةَ سلسلةٍ ممّا بدا في حينه كارثةً مُحقّقة. من شأنها وطبيعتها أن تودي إلى انكماشٍ مادّي ومعنوي لضحاياها، بل ربما إلى ماهو أسوأ بكثير، فتنتهي إلى تشرذمهم أو حتى فنائهم. لولاها (الكوارث) لكان من الأرجح أن يبقوا (الشيعة) محصورين ومُحاصرين في مرابعهم التاريخيّة.

والحقيقةُ التي أظنّ أنّ القارئ قد بات الآن جاهزاً لاستيعابها، أنّ مامن أُمّة وقعت تحت تأثيرمثل تلك السلسلة من الكوارث عدداً وقسوةً، ثم خرجت منها بألويةٍ خفّاقةٍ ونجمٍ مرتفع.

ثمة ملاحظة هامّةٌ جداً تردُ في البال في سياق هذه التأمّلات. هي أن التشيّع قد حقّق ذلك الإنجاز الخارق بطاقته الذّاتيّة فقط، وبالتحديد دون أيّ دعمٍ سُلطويّ. وفي المُقابل فإنّ كل المذاهب الإسلاميّة الأُخرى الباقية قد انتشرت وثُبّتت بقرارٍ ودعمٍ وأحياناً بسيفِ سُلطة قاهرة، ودائماً لِما هو في مصلحة السُلطة الحاكمة. وآخر وأبرز وأقسى مثالٍ على ذلك نقرأه في النِّحلة الوهّابيّة، نشأةً وبقاءً واستمراراً.

وإنّ في هذه المُلاحظة فرصةٌ للقارئ اللبيب لكي يتأمّل ويكتشف العناصرالثقافيّة التي يعود إليها الفضل في تمتُّع التشيّع الإمامي خصوصاً بتلك الطاقة الهائلة. وإنّني لأقترح عليه أن يبدأ تأمّلاته بالمُقارنة بين أنّ ما لايزال حيّاً من تلك المذاهب الكثيرة (المذاهب الأربعة، بالإضافة إلى الإسماعيليّة والزيديّة والإباضيّة) هو حصْراً الذي تلقّى دعماً سُلطويّاً. أمّا غيرها (الظاهري، الأوزاعي، سفيان الثوري... الخ) التي لم تحظَ بهذا الامتياز، فقد ماتت غير مأسوفٍ عليها من أحد. وحده التشيّع الإمامي مُتحرّرٌ من هذه القاعدة. بمعنى أنّه استطاع أن يبني نفسه ويُعيد البناء كلما حاقت به النوازل بطاقته الكامنة في ذاته الثقافيّة.

(٧)

ثمة أيضاً عنصران ساهما بدرجةٍ متفاوتةٍ في الانتشار المُعاصر للتشيّع في أقطار الدنيا. إيجابيّان هذه المرة. هما:



ـ **الأول**: نجاح الثورة الإسلاميّة في إيران. من المعلوم أنّ المسلمين بكافة مذاهبهم قد انبهروا للوهلة الأُولى بهذه الثورة، التي أثبتت بالملموس أنّ الإسلام يختزن طاقةً سياسيّة هائلة، قادرة على إنجاز ثورة حقيقيّة، ضد نظامٍ سياسي مُحصّنٌ ومَحميّ بقوى عالميّة جبّارة.

كان من التأثير العامّ للثورة الإيرانيّة أن نشأت لمدّةٍ حالةٌ غير مسبوقة. بدا فيها وكأن كل الحواجز المذهبيّة العالية في الإسلام قد سقطت. الأمر الذي استنفر كافة القُوى المحلّيّة والعالميّة التي وجدت في هذا التطورالعميق غير المُتوقّع مايُعارض مصالحها في الصميم. فانبرت تعمل كل ما في وُسعها لعرقلة مسيرة الجمهوريّة الناشئة. وهكذا بدا وكأنّ تلك المسيرة قد توقّفت نهائياً.

من نتائج كتابنا أنّه أظهرأن تفاعلاتٍ أُخرى موازية ظلّت عالقةً بصمت، على الرغم من الحملة الإعلاميّة العالميّة المُضادّة، وعملها على تشويه صورة الثورة وجمهوريّتها. فأعلنت موقفها الثابت في تعليق آمالها على الثورة بإعلان اعتناقها التّشيّع. هوذا ما حصل ويحصل بالفعل في مصر والسودان وشمال وغرب أفريقيا أكثرماكان. حيث أعدادٌ كبيرةٌ من المسلمين، خصوصاً من مُريدي الطُرُق الصوفية، قد أعلنت تحوّلها إلى التشيّع. وقد وصل هذا التفاعُل إلى ذروته بين السنتين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٦ م. حيث انجزت المقاومة الإسلاميّة في لبنان إنجازيَن غير مسبوقيَن على صعيد مُناهضة المشروع اليهودي العدواني المدعوم بقوّة من الغرب. هما دحر الاحتلال اليهودي لجزءٍ من لبنان، وإجباره سنة ٢٠٠٠م لأوّل مرة في تاريخ الصراع العربي الصهيوني على الجلاء عن أرضٍ عربيّة مُحتلّة. ثم الصمود لآلة الحرب الإسرائيلّية الجبارة سنة ٢٠٠٦م، بحيث عجزت عن تحقيق أي مطلبٍ سياسي ممّا كان وراء وسبب شنّ الحرب.

ـ **الثاني**: ما يُسمّى ثورة المعلومات. بظهور وشيوع وسائل تبادل المعلومات الشخصيّة، التي جعلت من كلّ شخص قادرٍقوّةً لنشر المعلومات والآراء. وقد كان ذلك من قبل امتيازاً سُلطويّاً.

ما يهمنا من تلك الثورة الاجتماعيّة، أنّها على الصعيد الديني وجمهور المتدينين بدرجةٍ أو بغيرها، انتزعت من الفقيه الرسمي، الذي يحتل هامشاً ضيقاً إلى جانب السُلطة السياسيّة، حقّه في أن يكون المصدرالحصري للمعرفة والأحكام الدينيّة. وعن هذا الطريق مضى يبني وُجدان الجمهور وولاءَه، بما يتناسب مع مصلحة التحالُف السياسي ـ الديني. ومن ذلك، بل في رأسه، افتعال خصومة مع فريقٍ يجعل منه شغله الشاغل جدلاً وتهميشاً وتشنيعاً قد يصِلُ إلى حدّ الاختلاق. وهكذا درجت علاقة الإسلام السُلطوي مع الشيعة أثناء القرون الماضية.

عن طريق وسائل الاتصال الاجتماعي الجديدة طُرحت الأسئلة من جديد. تناولت فيما تناولته الفكر الرسمي، بما يقود أحياناً إلى التشكيك بأصالته. إلى جانب فضح الخداع المُزمن في التشنيعات المُوجهة إلى الشيعة، وبعضها من المُضحكات، بحيث بدأت تغيب، ليحلّ محلّها أبحاثٌ هادئة على مواضع الاختلاف، بما لايخرج عن حدّ الوحدة. وبهذه الوسيلة شرع عشرات الآلاف من المسلمين في أقطارأفريقيا خصوصاً يُعلنون اعتناق التشيّع. على الرغم من البرامج السّخيّة التي بذلت جهوداً لا يُستهان بها لعرقلة التوجهات لجديدة. وصلت أحياناً إلى حدّ افتعال الفتن وتنظيم الاغتيالات. وفصول الكتاب حافلة بأمثلةٍ قاسية من هذه السياسة.